العصور

مجلة علمية نصف سنوية ، مُحكمة ، تعنى بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية

المجلد الثامن

١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

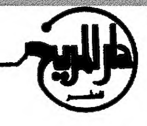


تصدر عن : دار المريخ للنشر ـ لندن



مجلة علمية نصف سنوية، مُحَكّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الثامن
الجزء الأول
يناير ١٩٩٣م
رجب ١٤١٣هـ



تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

قواعد النشر

١- «العصور» مجلة نصف سنوية تتولى نشرها دار المريخ للنشر بالرياض وتصدر عن مكتبها بلندن .

٢- تقدم البحوث والمقالات والترجمات مطبوعة على الآلة الكاتبة على مسافتين من أصل وصورتين على ورق مقاس ٢١ × ٢٩,٧ سم (A4) وعلى وجه واحد فقط، ترقم جميع الصفحات شاملة الجداول والصور التوضيحية .

٣- يراعى ألا يتجاوز عدد صفحات أى بحث أو مقال ٣٠ صفحة (أى فى حدود ٧٠٠٠ كلمة)، أما بالنسبة للكتب المحققة فيراعى ألا يتجاوز عدد صفحاتها ٥٠ صحة (أى فى حدود ١٢,٠٠٠ كلمة).

٤- يرفق الباحث ملخصا لبحثه فى حدود ٢٠٠ كلمة (مائتى كلمة) تتصدر البحث باللغتين العربية والأجنبية .

٥- ترسم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بالحبر الصينى على ورق «كلك» حتى تكون صالحة للطباعة، أما الصور الفوتوغرافية فيراعى أن تكون مطبوعة على ورق لماع، وإذا كانت ملونة فلابد من تقديم الشريحة الأصلية .

٦- يراعى وضع خطوط متعرجة تحت العناوين الجانبية ، وكذلك الألفاظ والعبارات التى يراد طبعها ببنط ثقيل، كما توضع خطوط عادية أسفل عناوين الكتب والدوريات :

٧- يراعى كتابة علامات الترقيم بعناية (النقطة، علامة الاستفهام، علامة التعجب.. إلخ) فى كتابة البحث وبصفة عامة يتبع أسلوب الـ "MLA" فى الكتابة .

٨- الحواشي

تطبع الحواشى على الآلة الكاتبة وعلى مسافتين فى صفحات مستقلة فى نهاية البحث ولا تقبل قائمة للمراجع كل حاشية تمثل جملة مستقلة ولاتشتمل على نقط بداخلها. ويأخذ الترتيب العام للحاشية الشكل الآتى :

اسم (أسماء) المؤلف (ين)، عنوان الفصل أو الجزء من الكتاب، عنوان الكتاب، اسم (أسماء) المحرر (ين)، المترجم (ين)، المعد (ين)؟ رقم الطبعة المستخدمة، رقم السلسلة، عدد المجلدات، مدينة النشر ، الناشر، سنة النشر، رقم المجلد، وأرقام الصفحات، ويتبع فى الحواشى النظام الآتي:

البحوث

عبد المحسن مدعج المدعج ، على بن الفضل ودعوته فى اليمن (٢٦٨ - ٣٠٣ هـ)، «العصور» مجلد ٣ جزء ١، ١٩٨٨م، ص ص ٨٣ - ١٠٦ .

الكتب

المقريزي، تقى الدين أحمد بن على **النقود القديمة والإسلامية**، تحقيق رأفت محمد النبراوي، **العصور**، المجلد الثالث، الجزء الأول ١٩٨٨م، ص ص ١٤٩ - ١٥٣ .

محمود محمد الروسان، **القبائل الثمودية والصفوية**: دراسة مقارنة (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧م)، ص ص ٢٥ - ٢٧ .

عاطف وصفي، **الثقافة والشخصية** (القاهر : دار المعارف، ١٩٧٧م). ص ٧ .

بعد الذكر الأول الحاشية مشتملة على جميع البيانات المرجعية، يشار إليها بعد ذلك فى الشكل المختصر وهو يشتمل على اسم العائلة للمؤلف يتبعه أرقام الصفحات المطلوب الاشارة إليها .

(١٧) نويصر، ص ص ٢٧ - ٥٣ .

وفى حالة وجود عمل أو أكثر للمؤلف نفسه فى المقال نفسه فإن الشكل المختصر للحاشية يشتمل بالضرورة على مختصر العنوان بعد اسم العائلة للمؤلف مباشرة.

(٢٨) نويصر ، مدرسة جركسية، ص ص ٢٧ - ٥٣

تأخذ الحواشى أرقاما مسلسلة حتى نهاية البحث دون استخدام نجوم أو أية رموز أخرى وتطبع فى المتن فى موضع أعلى قليلا من السطر بعد علامات الترقيم .

فى حالة الكتب التى تفتقر إلى بيانات النشر، يشار إلى أحدها أو أكثر من الاختصارات الآتية :

د. م. = بدون مكان نشر، د. ن. = بدون اسم ناشر. د.ت= بدون تاريخ النشر، د.ص = بدون أرقام صفحات.

٩- أصول البحوث والمقالات التى تصل المجلة لاترد ولا تسترجع سواء نشرت أو لم تنشر بالمجلة.

١٠- يخضع تنسيق البحوث والمقالات وترتيبها داخل العدد لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب.

١١- لما كانت المجلة تصدر نصف سنوية بصفة دورية، وتوزع فى موعد محدد فإن ذلك يتطلب ضرورة جمع موضوعاتها وتنسيقها وإخراجها وطباعتها فى وقت يسبق موعد التوزيع بفترة كافية .

١٢- لا تقبل المجلة نشر البحوث أو المقالات أو الترجمات التى سبق نشرها، كما لا يجوز إعادة النشر فى مجلات علمية أخرى بعد إقرار نشرها فى هذه المجلة إلا بعد الحصول على إذن كتابى من رئاسة تحرير المجلة.

١٣- تقبل البحوث المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية.

١٤- تأمل رئاسة التحرير من السادة الأساتذة الباحثين والكتاب الذين يرغبون فى نشر بحوثهم ومقالاتهم فى الاعداد القادمة من المجلة أن يلتزموا بالقواعد هذه، لأن هذا يساعد رئاسة تحرير المجلة على أداء عملها كما يساهم فى خدمة أهداف المجلة، وستعتذر عن قبول أى مقالة أو بحث لا يلتزم مؤلفها بتلك التعليمات.

١٥- يقوم المؤلفون بمراجعة تجارب الطبع الأخيرة بمطابقتها على الأصول، مع مراعاة عدم إجراء أى تغييرات فيها تختلف عما ورد فى الأصول، سواء بالإضافة أو الحذف، على أن تعاد تجربة الطبع خلال ٤٨ ساعة فيما لو رأت رئاسة التحرير غير ذلك.

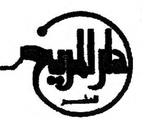
١٦- تمنح إدارة المجلة لمؤلف كل بحث أو مقالة نسخة مجانية من المجلد الذى نشر به البحث أو المقال .

١٧- توجه جميع المراسلات الخاصة بالمجلة إلى : دار المريخ للنشر - ص ب ١٠٧٢٠، الرياض ١١٤٤٣، المملكة العربية السعودية.



مجلة علمية نصف سنوية، مُحَكَّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الثامن
الجزء الأول
يناير ١٩٩٣م
رجب ١٤١٣هـ



تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

* ما ينشر في هذه المجلة مواد تعبر عن آراء أصحابها


بسم الله الرحمن الرحيم

المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم يتفق بشأنها مع :

ـ دار المريخ للنشر – ص ب : ١٠٧٢٠ الرياض : ١١٤٤٣ – المملكة العربية السعودية

ـ الدار العربية للنشر والتوزيع – ٤٩ جولد هوك رود، لندن – W128QP – المملكة المتحدة

الاشتراكات السنوية :

ـ المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودى

ـ الدول العربية (٣٥) دولارا أمريكيا أو ما يعادلها .

ـ الدول الأوروبية (٤٠) دولارا أمريكيا

ـ أمريكا وكندا (٤٥) دولارا أمريكيا

ـ استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولارا أمريكيا

المحتــويات

القسم العربي

English Section

العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، ٧ ـ ٢٤ (١٩٩٣م).

تأريخ وتأصيل فخار فترة أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي «المدهون»

(الإقليم الشمالي الغربي/ المملكة العربية السعودية)

للدكتور عبد العزيز سعود الغزي

ملخص البحث: يقدم هذا البحث دراسة نقدية لتاريخ وتاصيل فخار شمالي غرب المملكة العربية السعودية المدهون، والمؤرخ لاواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي، ١٦٠٠ـ ١٠٠٠ قبل الميلاد، والمعروف بشكل عام باسم فخار مدين.

بدا البحث بعرض المصادر التي تحتوي على مادة فخارية لها صلة بالفترة المحددة أعلاه، ثم ناقش اهم الدراسات المنشورة بخصوصها. بعد ذلك استعرض أهم المميزات العامة للفخار بقدر ماهو متيسر من المنشور في المصادر، وبحكم ما يخدم هدف البحث. ثم عرض الانتشار الجغرافي للفخار بمقتضى الاعمال الأثرية القديمة والحديثة. بعد ذلك نهج البحث اتجاهاً جديداً لمقارنة هذا النوع، بُيِّنَ فيه ما اعتقد انه نقاط ضعف في الدراست السابقة، وطُرح ما اعتقد انه جديداً ومجدياً في بحث مسالتي التاريخ والتاصيل.

ولقد تمت محاولة دراسته دراسة نقدية بتتبع مميزاته المستخدمة في تاريخه وتاصيله. وكان التركيز على تلك المميزات بقدر ما يمكن ان يستخلص منها من معلومات ذات فائدة في بحث النقطتين سالفتي الذكر.

مقدمـــــة

يشغل هذا الإقليم الأراضي الشمالية من منطقة الحجاز، ويمتد من المدورة على الحدود السعودية الأردنية شمالاً إلى وادي الحمض جنوباً الواقع شمالي المدينة المنورة. ويغطي هذا الامتداد جزءاً من المنطقة المعروفة قديماً بأسم «أرض مدين»[١]، والتي لا يزال تحديدها الدقيق مادة دراسة للباحثين[٢]. قبل أكثر من عشرين سنة، ثم اكتشاف نوعاً من الفخار في عدد من المواقع المهمة في الإقليم، وأطلق عليه عدة تسميات، ودار حول مسألة تأريخه وتأصيله نقاش طويل. وفي هذا البحث سوف نحاول تتبع مسار دراسته ونطرح بعض الآراء حول مسألتي التأريخ والتأصيل، معتمدين على ما استجد من أعمال أثرية في شبه الجزيرة العربية عامة، والمملكة العربية السعودية خاصة. وقد شكل محور نقاشنا مسألتي التأريخ والتأصيل، متخذين النماذج والعناصر الزخرفية أداة النقاش الرئيسة.

---

(١) إدارة الآثار والمتاحف، مقدمة في آثار المملكة العربية السعودية (الرياض: المطابع الأهلية للأوفست، ١٩٧٥م)، ص ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) E. A. Knauf, *Midian Untersuchungen zur Geschichte Palaestinas und Nordarabiens am Ende des2* Jahrtausands v chr. Abhandlungen des Deutchen Palaestinavereins (Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1988).

مصادر دراسة الفخار

تنقسم المصادر التي توفر مادة فخارية عائدة لهذه الفترة إلى نوعين، أحدهُما يشمل المسح السطحي، ويتمثل الآخر بالأعمال التنقيبية.

المسح السطحي: لعل أول الأعمال السطحية التي احتوت على مادة فخارية هي رحلة جامعة تورنتو الكندية التي نفذها وينت وريد في عام ١٩٦٢م. نتج عنها نشر تقريراً أوليا في عام ١٩٦٢م[٣]، ثم أتبع بكتاب في عام ١٩٧٠م.[٤] وقد شملت الرحلة زيارة بعض المواقع المهمة مثل تيماء، والخريبة والتي جُمع منها بعض الكسر الفخارية، التي تعرض بعضها لمناقشة بسيطة، كما نشر القليل منها في صور ضوئية.[٥] أما المادة الفخارية المتمثلة بمائة وستين كسرة والملتقطة من مواقع مختلفة فقد تم تسجيلها طبقاً لأسماء مواقعها، ثم أرسلت إلى جامعة الرياض «جامعة الملك سعود حاليا».[٦]

وفي عام ١٩٦٨م، قامت بعثة من جامعة لندن مكونة من بيتر بار، ولانكستر هاردنج، وجون دايتون بإجراء مسحاً في الإقليم شمل زيارة سبعة عشر موقعاً عائدة لأزمنة مختلفة.[٧] نشر عن هذا العمل ثلاث مقالات، منها مقالاً مختصراً نشر في عام ١٩٦٩م[٨]، ومقالين مطولين نشرا في عامي ١٩٧٠[٩]، ١٩٧٢.[١٠] وضُمنا المقالان الأخيران مناقشة مفصلة نوعاً ما عن الكسر الفخارية التي نشر عدد منها بالرسوم التوضيحية. وتم تسليم المادة الأثرية لإدارة الآثار السعودية.[١١]

وقام صبحي أنور رشيد في عام ١٩٨٠م بنشر مجموعة فخارية من تيماء كانت متوافرة في أوائل الثمنينات بالمتحف الأثري وإدارة الآثار والمتاحف السعودية، وقد تكون من مجموعة وينت وريد سالفة الذكر، بالإضافة إلى كمية جمعتها جمعية التاريخ والآثار بجامعة الملك سعود في عام ١٩٧٠م.[١٢]

تمثل العمل السطحي اللاحق بنشاطات إدارة الآثار الأثرية على الإقليم والمتمثلة بإنجاز مرحلتين من مراحل المسح الشامل. أولهما انجزها فريق أثري في عام ١٩٨٠م. ونُشر تقرير أولي عنها في عام ١٩٨١م، مفيداً أن الفريق استطاع أن يحدد كثيرا من المواقع الأثرية.[١٣] وفي عام ١٩٨١م نفذ فريق آخر المرحلة الثانية. نُشر عن هذا العمل تقرير في عام ١٩٨٢م، مفيدا أن الفريق تمكن من اكتشاف عدداً من المواقع[١٤]، وتنفيذ عدداً من المجسات في بعضها.[١٥] وفي عام ١٩٨٢م قدم محمد صالح قزدر دراسة تصنيفية للكمية المتوافرة من موقعي الخريبة وخيف الزهرة في واحة العلا. وتم ذلك خلال إعداده أطروحته لدرجة الدكتوراه بجامعة لندن.[١٦]

كما قام علي غبان في عام ١٩٨٥م بإجراء مسحاً

---

(٣) F.V. Winnett and W. L. Reed, "Report on the Arabian Expedition of 1962." *Bulletin of the American Schools of Oriental Research, no.* 168 (1962), pp. 9-10.

(٤) F. V. Winnett and W. L. Reed, *Ancient Record from Noth Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, 1970).

(٥) Winnett and Reed, *Ancient Records*, pp. 175-180

(٦) Winnett and Reed, *Ancient Records*, p. 172, note 1.

(٧) J. Dayton, "The Midianite and Edomite Pottery," *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies*, no.2 (1972), p. 25.

(٨) P. J. Parr, "Exploration archaeologique du Hedjaz de Median," *Revue Biblique*, vol. 76 (1969), pp. 390 - 393.

(٩) P. Parr, L. Harding, and J. Dayton, "Preliminary Survey in Northwest Arabia", *Bulletin of the Institute of Archaeology*, nos. 8-9 (1970), pp. 193-246.

(١٠) P. J. Parr, L. Harding, and J. Dayton, "Preliminary Survey in Northwest Arabia," *Bulletin of the Institute of Archaeology*, no. 10 (1972), pp. 23-63.

(١١) Parr et al., "Preliminary Survey" (1970), p. 229, note 48a.

(١٢) صبحي انور رشيد، «دراسة لفخار تيماء»، **سومر**، مجلد ٣٦، جزء (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص ١٠٣، لوحات ٤ـ٢٢.

(١٣) M. Ingraham, Th. Johnson, B. Rihani, and A. S. Murad, Preliminary Report on Reconnaissance Survey of the Northwestern Province (with a Note on a Brief Survey of the Northern Province), *Atlal*, vol.5 (1981), p. 60.

(١٤) M. Gilmore, M. al-Ibrahim, and A. S. Murad, "Preliminary Report on the Northwestern and Northern Regions Survey 1981 (1401), *Atala*, vol. 6 (1982), p. 9."

(١٥) Gilmore et al., "Preliminary Report", p. 10.

(١٦) M. S. Gazdar, *A Comparative Study of Pottery of Arabia in the Pre-Islamic Period 500 B.C. to A. D. 600*. Unpublished Ph. D. Thesis, University of London, Institute of Archaeology, 1982, pp. 313-19.

ميدانياً على درب الحج المصري الشامي خلاله غطى مجموعة من المواقع وأجرى عدداً من المجسات في بعض منها. استطاع أن يجمع كمية من المادة الفخارية، ضمّن جزء منها في أطروحته لدرجة الدكتوراه التي أنجزها في عام ١٩٨٨م بجامعة أكس، بروفنس مرسيليا بفرنسا، ولكن تركيزه كان على الفترة الإسلامية.[١٧]

العمل التنقيبي

أما فيما يخص الأعمال التنقيبية، فإن أولها نفذ في عام ١٩٧٨م، عندما سمحت إدارة الآثار السعودية لجارث بودن لينفذ بعض المجسات الاختبارية في موقع خيف الزهرة الواقع على بعد كيلومتر واحد إلى الشمال الشرقي من الخريبة، وإجراء مسحاً أثرياً في وادي معتدل في واحة العلا.[١٨] نشر جارث بودن تقريره الأولي عن هذا العمل في عام ١٩٧٩م، وفيه أوضح أن حفريته لم تكن ذات عمق يمكّنه من طرح تسلسلاً طبقياً للموقع، نظراً إلى أن العمق في مجساته الذي أسفر عن كسر فخارية لايزيد على ٥٠سم إلا قليلاً.[١٩] على الرغم من ذلك فقد نشر بعض القطع الفخارية وقدم عليها بعض المقارنات مع مواقع داخل الإقليم، لعل أهمها تلك المواقع التي ذكرتها بعثة جامعة لندن وذكرناه أعلاه.

وفي السنة اللاحقة، ١٩٧٩م، قاد جارث بودن فريقاً أثرياً من إدارة الآثار والمتاحف، وأجرى مسحاً وحفريات اختبارية داخل سور مدينة تيماء القديمة وخارجها. نشر بودن وزملائه تقريراً عن هذا العمل في عام ١٩٨٠[٢٠]، مزوداً بدراسة تصنيفية للمادة الفخارية المكتشفة، أعدها كرستوفر ايدنز الذي تبنى في منهجه تقسيم الموقع إلى مناطق، ودراسة كل مجموعة فخارية من كل منطقة على حدة.[٢١]

وفي عام ١٩٨٠م قام حامد أبو درك بإجراء بعض المجسات الاختبارية في موقع تيماء القديمة. نتج عنها مادة فخارية جيدة في كمها حسب ماتدل عليه الكمية المنشورة في أطروحته في عام ١٩٨٦م، والتي تشتمل، أيضاً، على كمية غير منشورة من حفريات بودن وآخرون لعام ١٩٧٩م.[٢٢]

وفي عام ١٩٨٠م، وخلال إجراء المرحلة الأولى للمسح الشامل، نُفذ ثلاثة مجسات في ثلاثة مواقع في الإقليم. نُفذ أحدهما في موقع بهدف الحصول على معلومات عن عمارته.[٢٣] ونُفذ المجسان الآخران في موقعين آخرين بهدف الحصول على مادة عضوية لتحليلها بواسطة كربون ١٤ المشع، وعلى كسر فخارية بهدف فحصها بطريقة التوهج الحراري.[٢٤] ومن أحد الموقعين حصل على الهدف[٢٥]، ولكن حتى يومنا الحاضر لم يتم نشر أي شيء عن تلك المواد، كما انه لم يتم نشر أية مقاطع أو يناقش التسلسل الطبقي للمجسات. وأُنجز في عام ١٩٨١م، خلال المرحلة الثانية للمسح الشامل، عدد من المجسات، إما لإيضاح النواحي المعمارية في بعض المواقع أو لكشف بعض المنشآت الحجرية مثل المقابر الركامية والدوائر الحجرية.[٢٦] ولم تسفر هذه الحفريات عن أية مادة فخارية.[٢٧]

(١٧) A. I. Ghabban, *Introduction A Letude Archeologique des Deux Roures Syrienni et Egyptienne de Pelerinage*. Unpublished Ph. D. Thesis. Université De Provence Aix Marseillei Centre D Aix, Faculté Des Lettres, 1988, pp. 380-460, Pls. 161-221.

(١٨) يقع خيف الزهرة على بعد ١ كم إلى الشمال الشرقي من الخريبة، بهذه الخصوص، انظر: G. Bawden, "Khief el-Zahrah and the Nature of the Dedanite Hegemony in the al-Ula Oasis", *Atlal*, vol. 3 (1979), Pl. 44 a and b.

(١٩) Bawden, "Khief el-Zahrah", p. 68.

(٢٠) G. Bawden, C. Edens, and R. Miller, "The Archaeological Resources of Ancient Tayma", *Atlal*, vol. 4 (1980), Pls. 60-61.

(٢١) Bawden et al., "The Archaeological p. 104, note 1."

(٢٢) حامد أبو درك، **مقدمة عن آثار تيماء** (الرياض: المطابع الأهلية للأوفست، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص ص ٧٠، ٧٣-٧٧، لوحات في ص ص ٧٩-٩٣.

(٢٣) رقم الموقع في ملفات إدارة الآثار هو ٢٠٥ - ٣٩.

(٢٤) يأخذ الموقعان الرقم ٢٠٤-٤٩، والرقم ٢٠٠-١٠٥ في ملفات إدارة الآثار، والموقع الاخير هو موقع قُرية المشهور.

(٢٥) أخذت العينات من موقع قُرية (٢٠٠ - ١٠٥)، بهذا الخصوص انظر Ingraham et al., "Preliminary Report", pp. 73, 80 note 5.

(٢٦) Gilmore et al., "Preliminary Report" p. 9.

(٢٧) Gilmore et al., "Preliminary Report", pp. 15-16.

وفي عام ١٩٨٢م قام فريق أثري من إدارة الآثار بإجراء بعض الحفريات في موقع تيماء القديمة.[٢٨] نشر هذا العمل في العام اللاحق، ويفهم منه أن هناك مادة فخارية تم اكتشافها في المجسات.[٢٩] ومع ذلك لم يشتمل التقرير على مناقشة للمادة الفخارية، ولم ينشر من المـادة المكتشفـة إلا كسرة فخارية واحدة تحمل كتابة أرامية.[٣٠]

بدأ فريق أثرى من إدارة الآثار، بإشراف حامد أبو درك، العمل التنقيبي في قصر الحمراء في موقع تيماء القديمة ابتداءً من عام ١٩٨٤م. ولقد تم إنجاز ثلاثة مواسم تنقيبية نشر عنها تقارير أولية.

نفذ الموسم الأول في عام ١٩٨٤م، وركُز العمل على قصر الحمراء لاستكمال ما تم تنقيبه في عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٠م. ولهذا أجري العمل في الجهتين الشرقية والغـربيـة من القصر، بأمـل الكشف عن مداخله الرئيسـة والبحث عن تفـاصيـل إضـافية للجهات السكنيـة والأمـاكن الدينية التي سبق وأن كُشف عنها. تم فتح مربعين (أ،ب) بالجهة الشرقية ومربعين بالجهة الغربية (ج،د).[٣١] نشر تقرير أولى عن هذا العمـل في عام ١٩٨٥م، مُضمنـاً دراسة أولية عن الفخار المكتشف وفي العام نفسه نُفذ الموسم التنقيبي الثاني في الموقع، وهو استمرار للموسم السابق. ورُكز العمل في الثلث الأوسط من قصر الحمراء حيث نُفذ أربعة مجسات (هـ، ج، و، ز).[٣٢] نُشر التقرير الأولي عن هذا العمل في عام ١٩٨٦م، وزود بمناقشة للفخار مصحوبة ببعض الرسوم التوضيحية.[٣٣]

ولقد تم تنفيذ الموسم التنقيبي الثالث والأخير في الموقع في عام ١٩٨٦م. وخلاله تم الكشف عن الثلث الجنـوبي والأخير من القصر على أثر تنقيب أربعة مربعـات (ط، ي، ك، ل).[٣٤] ولم يقـدم في التقـرير المنشور مناقشة للمادة الفخارية المكتشفة، كما أنه لم يُنشر رسـوم توضحية لها، ماعدا صورة ضوئية واحدة تحمل عدة كسر.[٣٥]

في عام ١٩٨٦م نفذ فريق أثري من إدارة الآثار والمتاحف أول موسم تنقيبي في موقع مدائن صالح. ولقد تم إنجاز أربعة مسجات ، كلا بمساحة ٥×٥م، في المنطقة السكنية المعروفة بخريبة الحجر، والواقعة في المنـطقـة الشمـاليـة الغربية من الموقع.[٣٦]نُشر وصف في التقـريـر الأولي لبعض الفخـار المكتشف والذي يشتمل على فخار قديم واسلامي[٣٧] واقتصر المنشـور من هذه المسجات على أربع أواني، ثلاث منها بالرسوم التوضيحية[٣٨] وواحدة بصورة ضوئية.[٣٩]

يمثل ماذكر أعلاه الأعمال التي توفر مادة أثرية فخـاريـة من الإقليم، لهـا صلة بالفترة المحددة في مستهـل هذا المقـال. ولكن يجب إيضـاح أن أغلب الأعمال سالفة الذكر لا تحتوي إلا على كسر محدودة العدد من الفخار المدهون، وبقية مادتها تتكون من فخـار غير مدهـون ومـن فتـرات مختلفـة. ومن استعـراض الآراء المطروحة فيها بخصوص النوع مجـال الدراسة هنا، نجدها لاتتعدى الأفكار التي قدمها وينت وريد، والتي شكلت الأساس الذي أنطلق

(٢٨) A. Livingstone, B. Spaie, and M. Ibrahim, "Taima: Recent Sounding and New Inscribed Material," *Atlal*, vol. 7 (1983), Pl. 83.

(٢٩) Livingstone et al., "Taima"p. 103

(٣٠) Livingstone et al., "Taima" Pl.88.

(٣١) حامد أبو درك وعبد الجواد مراد، «تقرير مبدئي عن التنقيبات بقصر الحمراء بتيماء ـ الموسم الثاني عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م»، **الاطلال**، عدد ٩ (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٥٧.

(٣٢) حامد أبو درك وعبد الجواد مراد، «تقرير مبدئي عن حفريات وتنـقيبـات قصر الحمـراء في تيمـاء، الموسم الثـالث ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، **الاطلال**، عدد ١٠(١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٣٥.

(٣٣) ابـو درك ومـراد، «تقرير مبدئي»، ١٩٨٦م، ص ص ٣٩ـ٤٢، لوحات ٣٨ـ٤٠، ٤٩ـ٥٦.

(٣٤) حامـد ابو درك وعبد الجواد مراد، «تقرير مبدئي عن حفريات وتنقيبات قصر الحمراء» **الأطلال**، عدد ١١(١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ص٣٧.

(٣٥) ابو درك ومراد، «تقرير مبدئي»، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص٣٨، لوحة ٢٤.

(٣٦) محمـد البراهيم وضيف الله الطلحي، «تقرير مبدئي عن نتائج حفرية الحجر»، **الاطلال**، عدد ١١ (١٤٠٩/١٩٨٨م)، ص٦١.

(٣٧) البراهيم والطلحي، «تقرير مبدئي»، ص ص ٦٦ـ٦٧.

(٣٨) البراهيم والطلحي، «تقرير مبدئي»، لوحات،٤٧ ـ ٤٨.

(٣٩) البراهيم والطلحي، «تقرير مبدئي»، لوحة ٥١ رقم١.

منه بيتر بار فيما بعد. ولقد بقي ما أسسه وينت وريد وعمَّقه ودافع عنه بيتر بار حياً إلى هذا اليوم، علما بأنه قد تعرض لبعض الانتقادات، وهذا ما سوف نتعرف عليه في بقية المقال.

تاريخ دراسة الفخار

يعرف فخار هذه الفترة في الإقليم الشمالي الغربي باسم «فخار مدين» نسبة إلى اسم الشعب الذي عاش في أماكن انتشاره، كما هو معروف من المصادر المكتوبة.(٤٠) ونظراً إلى أن التسمية المذكورة تربطه بشعب معين، وعلى الرغم من أن أغلب الباحثين لايزالوا يستخدمونها، إلا أنه اقترح حديثاً بأن يطلق عليه اسم «فخار قُريّة»(٤١) نسبة للموقع الأثري المشهور في شمالي غرب المملكة العربية السعودية (خريطة ١)، نظراً لتوافره بكميات كبيرة جداً تفوق أي موقع آخر تم اكتشاف هذا النوع فيه سواء داخل شبه الجزيرة العربية أو خارجها. وبنسبته للموقع المذكور فإنه يأخذ دلالة مكانية ويصرف النظر عن دلالته العرقية بنسبته لشعب معين، والتي أثارت كثيراً من التساؤلات بين الباحثين.

ومما لا شك فيه أن الفضل في معرفة فخار هذه الفترة في الإقليم يرجع لأعمال بيتر بار. ويجب أن نذكر، أيضا، أن الدافع لاستمرار هذه الدراسة هي أبحاثه المتواصلة، ودفاعه عن نظريته التي مر عليها أكثر من عشرين سنة ولم تتعرض لنقد عميق، مدعّما بأدلة مادية. ولكن كلما يُكتشف شيء جديد لابد أن يحدث تغيير. ومن هذا المنطلق سنناقش هذا النوع من الفخار لعلنا ننبه إلى شيءٍ ذي فائدة خصوصاً وأن دراسته ما زالت في مهدها.

وقبل عام ١٩٦٨م لم يكن هناك شيء يذكر لهذا لنوع من الفخار في الإقليم. وعلى أثر زيارة بعثة جامعة لندن في العام المذكور تم جمع نماذج منه، ولوحظ أنها تماثل فخار العصر البرونزي المتأخر في فلسطين.(٤٢) وفي عام ١٩٦٩م عقدت ندوة في جامعة لندن ألقى خلالها الباحث روثنبرج محاضرة عن حفرياته في موقع تمنع "Timna" «خربة المنيعة»(٤٣) الواقع في صحراء النقب في جنوب فلسطين (خريطة٢)، وقام خلالها بعرض بعض الكسر الفخارية. وشارك بيتر بار خلال المناقشة التي تلت تلك المحاضرة بملاحظته التشابه بين فخار تمنع المعروض وبعض قطع الفخار التي تم جمعها من موقع قُريّة في عام ١٩٦٨م، وكان التشابه قريباً من التماثل سواء في المادة أو الزخرفة. ولهذا اقترح بيتر بار أن النوعين شيئاً واحدا، وعليه أعطي فخار قُريّة تاريخاً مماثلاً لتاريخ فخار تمنع(٤٤)، الذي يُورخه مكتشفه إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، اعتماداً على وجوده في طبقات أثرية، وجد فيها خراطيش مصرية تعود لفراعنة حكموا خلال ذلك الزمن، بالإضافة إلى وجود معثورات أخرى من الفترة نفسها(٤٥)، ووجد تأييد لهذا التأريخ في اكتشاف هذا النوع من الفخار بكميات بسيطة في مواقع في فلسطين، وفي مستويات أثرية تعود للفترة الزمنية نفسها وأقدم منها (خريطة٢).(٤٦)

وفي عام ١٩٧٢م كتب جون دايتون مقالاً دفع فيه

---

(٤٠) Parr et al., "Preliminary Survey," (1970), p.240. وكان يعرف في التقارير المبكرة عن مواقع فلسطين والأردن باسم «الفخار الأدومي» ويقسم إلى نوعين، مبكر ومتأخر؛ فما اطلق عليه فيما اسم «الفخار المديني» يعني او يعين الفخار الأدومي المبكر. بهذا الخصوص انظر E. Mazar, "Edomite Pottery at the End of the Iron Age" *Isreal Exploration Journal*, vol. 35 (1985), pp. 252-253.

(٤١) P. J. Parr, "The Pottery of the Late Second Millennium B.C. from North West Arabia and Its Historical Implication," in D. Potts (ed.) *Araby the Blest: Studies in Arabian Archaeology*. CNI Publications, no. 7.Copenhagen: Museum Tusculanum Press, 1988), p.3.

(٤٢) Parr et al., *Preliminary Survey*" (1970), pp. 238-239.

(٤٣) B. Rothenberg, *Timna*, (London: Thames and Hudson, 1972), p.182.

(٤٤) B. Rothenberg and J. Glass, "The Midianite Pottery", in J. F.A. Sawyer and D. J. . Clines (eds.), "Midian Moab and Edom. *Journal for the Study of the Old Testament*, Supplement Series vol. 24 (1983), pp. 68-69.

(٤٥) Rothenberg and Glass, "The Midianite Pottery", pp.100-101.

(٤٦) P. J. Parr, "Contacts between North West Arabia and Jordan in the Late Bronze and Iron Age," in A. Hadidi (ed.), *First International Conference on the History and Archaeology of Jordan* (Amman: Department of Antiquities, 1982), p. 129.

الحجة إلى الأمام، بطرحه تشابه مع الفخار العائد للفترات المسينية IIIB, IIIA, II وهو يعني بهذا أواخر العصر البرونزي. ولذلك اقترح أن المقارنة مع تمنع صحيحة وأن الفخار الذي أطلق عليه اسم «فخار مدين» يعود للعصر البرونزي المتأخر وربما المتوسط، ويستمر خلال العصر الحديدي الأول.[٤٧] بعد ذلك كُتبت أبحاث كثيرة بهذا الخصوص، منها ما خصص لتبيين انتشار هذا النوع في فلسطين وتبيين كثافته في المواقع المختلفة[٤٨]، ومنها ما خصص لدراسته دراسة مقارنة في شمالي غرب المملكة العربية السعودية وفلسطين.[٤٩]

ولكن ظهرت في الوسط الاكاديمي وجهات نظر تناقض هذه النظرية، لعل أهمها ماكتبه جمس ميولي "James Muhly" مشيراً إلى أنه قد يعود للعصر الحديدي المتأخر، نظراً إلى أنه لم يكتشف في شبه الجزيرة العربية فخار مسيني، وإن النماذج الزخرفية وعناصرها التي ذكرها جون دايتون غير قوية كدليل مقارنة، وإلى أن حفريات تيماء لعام ١٩٧٩م كشفت عن فخار مزخرف في قصر الحمراء، ذلك القصر الذي يفترض أنه معبداً بابليا لا يرق تاريخه إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد، وكذلك وجود العناصر الزخرفية المحززة على فخار تيماء تلك العناصر التي قد تعود لتاريخ متأخر كما يعتقد.[٥٠]

دفعت مقالة ميولي بيتر بار ليكتب مقالاً في عام ١٩٨٧م، مفندا من خلاله آراء ميولي. فأوضح فيه أن حفريات تيماء غير جيدة التوثيق، وأن المنهجية التي اتبعت في دراسة الفخار منهجية غير علمية، وأن استشهاد ميولي لم يكن دقيقاً. كما أن الفخار المزخرف بالدهان قليل في شبه الجزيرة العربية باستثناء ساحلها الشرقي. وخص بالذكر الإمارات العربية المتحدة حيث ذكر أن هناك فخار يظهر عليه نماذج بعناصر زخرفية مدهونة تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، ويحمل أوجه مقارنة. ودعّم تأريخه بذكر عناصر زخرفية على فخار مدين تعود للعصر البرونزي أهمها زهرة اللوتس[٥١] وبإيراد هذه الحجج أكد بيتر بار ثباته على مفهومه الأول المتمثل بتأريخه لهذا النوع من الفخار لأواخر العصر البرونزي، وتأصيله في حضارات بحر أيجة. ومن الجانب الآخر أعلن رفضه لنقد ميولي.

ويبدو أن بيتر بار تنبه إلى أن هناك خلط في المفهوم بين نوعين من الفخار المدهون في شمالي غرب المملكة العربية السعودية، مما حدى به إلى كتابة مقالاً آخر بين فيه أن النوع الذي نسبه لأواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي هو الفخار المنتشر في قُريّة بشكل خاص «فخار مدين»، وميّزه بكلمة (Polychrome Ware)، والتي تعني الفخار المدهون بأكثر من لون. ومن الناحية الأخرى، نبه إلى أن هناك نوع آخر من الفخار المدهون ينتشر في عدد من المواقع، ولكنه يتركز في واحة العلا، ويحمل نماذج بعناصر زخرفية أقل إتقاناً من تلك التي تظهر على الفخار المديني. واقترح تاريخاً لهذا النوع من الألف الأول قبل الميلاد «الفترة الأدومية»، وميزه بكلمة (Bichrome Ware)، والتي تعني الفخار المدهون بلونين، وأطلق عليه «فخار العلا» نظراً إلى وجوده بكميات كبيرة فيها.[٥٢] ومن هذا المقال نستنتج أن بيتر بار حاول تقسيم الفخار المدهون في شمالي غرب المملكة العربية السعودية إلى قسمين. قسم يحمل نماذج بعناصر زخرفية مدهونة بألوان متعددة. وهذا هو النوع الذي يعيده لأواخر العصر البرونزي وأوائل

(٤٧) Dayton, "The Midianite," pp. 27-34.

(٤٨) J. Kalsbeek and G. London, "A Late Second Millennium B.C. Potting Puzzle", *Bulettin of the American Schools of Oriental Research*, no. 232 (1978), pp. 47-56.

(٤٩) انظر الهوامش ٤٤، ٤٦، ٤٨.

(٥٠) J. Muhly, "Timna and King Solomon," *Bibliotheca Orientalis*, xli, no. 3-4 (1984), pp. 279-280.

(٥١) Parr, "The LateSecond Millennium", p. 2.

(٥٢) P. J. Parr, "Archaeological Sources for the Early History of Noth -West Arabia", in *Sources for the History of Arabia*, vol.1 (1979), p.42; P.J. Parr, "Aspects of the Archaeology of North-West Arabia in the First Millennium B.C.", in T. Fahd (ed.) *L Arabie Preislamique et Son Environnement Historique et Culturel* (Universite Des Sciences Humaines De Strasbourg, Travaux Du Centre De Recherche Sur Le Proche-Orient Et La Grece Antiques, no. 10, (1987), p. 43.

العصر الحديدي. وقسم يكون مزخرفاً بنماذج مدهونة بلونين. وهو النوع الذي أرّخه للفترة الأدومية، حوالي القرن الثامن قبل الميلاد. لكن يجب أن نُذكر أن هذا التقسيم لا يمثل قاعدة ثابتة، فكلا النوعين،قد يظهران بنماذج زخرفية مدهونة بلون واحد، أو بدون زخرفة على الإطلاق.

المميزات العامة للفخار

١ ـ العجينة (Clay)

يظهر هذا النوع بعجينة ناعمة أو متوسطة النعومة وأحياناً تكون خشنة وممزوجة بكسر حصى متوسطة الحجم. كما أنها تظهر بألوان متعددة منها: الأصفر، والأصفر البرتقالي، والأصفر الشاحب، والبرتقالي، والأحمر المائل للبرتقالي، والأبيض، والأبيض الرمادي، والرمادي، وغير ذلك من الألوان. وتتصف غالباً بصلابة عالية مما يدل على شواء عالي الحرارة (High firing) كما أن بعض الكسر تحتوي على قلب (Core) رمادي أو أسود.

٢ ـ المادة المساعدة (Temper)

إن أغلب هذا النوع يكون مضاف إليه كسر حجارة كبيرة أو متوسطة الحجم. وفي بعض الأمثلة تكون المادة المساعدة عبارة عن حبات رمل متوسطة الحجم، وأحياناً تتمثل بمواد عضوية مثل التبن والقش.

٣ ـ البطانة (Slip)

البطانة عبارة عن طبقة صلصالية سميكة، وأحياناً متشظية في مواضع. وقد تكون البطانة ناعمة ومتماسكة عندما تظهر على الأواني الصغيرة. وتظهر البطانة بألوان متعددة منها: الأبيض، والأصفر الرمادي، والأحمر، والدهني، والبني الرمادي، وقد تظهر على السطح الداخلي والسطح الخارجي في آن واحد، ولكنها أحياناً تظهر على أحدُهما.

٤ ـ التغشية (Wash)

تظهر على هذا النوع لكنها قليلة. وهي عبارة عن محلول صلصالي يضاف لجسم الآنية بسمك دقيق. وقد تظهر على السطح الداخلي والسطح الخارجي، أو أحدُهما. وتقتصر الونها على: الأحمر، والأحمر الأرجواني.

٥ ـ الدهان (Paint)

يكون لون الدهان أحمر، أو بني داكن، أو أسود، أو أخضر. وقد يظهر الدهان بلونين، أحدُهما على السطح الداخلي، والأخر على االسطح الخارجي. كما أن بعض القطع تحمل دهان على سطح واحد. ويظهر على بعض القطع بشكل بطانة كاسية كامل الآنية، وعليها تظهر النماذج الزخرفية بعناصرها الملونة بألوان أخرى.

٦ ـ الزخرفة (Decoration)

يعكس هذا النوع نماذج زخرفية متنوعة العناصر ، ومدهونة بألوان منها: الأحمر، والبني الداكن، والأسود، والأصفر، أو أحدُهما . تتركب النماذج الزخرفية من عناصر مثل: الخطوط المستقيمة والمتعرجة وبأشكال متقاطعة، والطيور مثل الطاؤوس، ورسوم آدمية بأشكال تجريدية، وحيوانات مثل الجمال والماعز ، وأشرطة أفقية، وأشكال هندسية أخرى.[٥٣].

٧ ـ أشكال الأواني (Typology)

إن أغلب المنشور من هذا النوع يتمثل بطاسات (Bowls) لها حواف منبعجة إلى الخارج، وقواعد دائرية، وحافات مثنية إلى الخارج (Everted rim) ويتمثل الشكل الآخر بجرار اسطوانية الشكل (Jars) ومتوسطة الحجم، لها رقاب ضيفة وطويلة. وهناك نوع ثالث يتمثل في صحون (Plates) بجوانب منبعجة إلى الخارج أو مقوسة، وحافات عادية (Plain vertical rim) ، وأحياناً مثنية إلى الخارج. وهناك أشكال أخرى تحتاج لإبرازها لتصنيف المادة تصنيفاً شكلياً بدراسة مستقلة. ولكن يُفضل تأجيل عملاً كهذا حتى تشخص جميع الأنواع العائدة للفترة مجال البحث

(٥٣) Ingraham et al., "Preliminary Report", Pls. 78-79, 81; Parr et al., Preliminary Survey", (1970), Figs. 15-16.

بعد إنجاز حفريات أثرية كافية.

الانتشار الجغرافي للفخار

ينتشر هذا النوع في مواقع كثيرة في شبه الجزيرة العربية والأردن وفلسطين وأماكن أخرى (خريطة ١)، ويعتقد بأن موقع قُريّة هو مركز إنتاجه لعدة أسباب منها:

١ ـ نتائج تحاليل مادة العجينة الفخارية "Petrological analyses" ومقارنتها بتحاليل أجرتها شركة أرامكو السعودية في الستينات من هذا القرن لمادة خام من بعض الجبال في تبوك.(٥٤)

٢ ـ كثافة وجود الكسر الفخارية في الموقع.(٥٥)

٣ ـ اكتشاف ستة أفران لشواء الفخار في الموقع.(٥٦)

٤ ـ ندرة وجوده في المواقع الأخرى(٥٧)، ماعدا تمنع الواقعة في صحراء النقب في جنوب فلسطين والتي وجد فيها كميات من هذا النوع، وإن كانت لا تضاهي ما وجد في قريّة.(٥٨) ولهذا يعتقد أغلب الباحثين أنه مصُدر من مركز إنتاجه في قُريّة إلى أغلب المواقع الأردنية والفلسطينية والسعودية التي اكتشف فيها.

وبالنسبة للمملكة العربية السعودية، وعلى ضوء أعمال البعثة الإنجليزية، فإن انتشاره يتركز في المواقع المهمة في الإقليم الشمالي الغربي مثل: قُريّة، وتيماء، ومغاير شعيب، وربما العلا. ولكنه يتركز بشكل كبير في موقع قُريّة وحدها.(٥٩)

وفيما بعد استطاع فريق المسح الشامل للمرحلة الأولى على هذا الإقليم أن يكتشفه في أربعة عشر موقعاً تنتشر حول موقع قُريّة.(٦٠) اكتشفت خمسة منها في وادي شرمه، وأربعة في البدع، وواحد في وادي عينونه، وواحد في طيب الاسم، وموقع آخر في وادي سادر، وموقع آخر لم يحدد رقمه. منها ثلاثة مواقع فقط يمكن إعادة تأريخ البقايا المعمارية فيها للفترة المذكورة أعلاه فقط، نظراً لغياب أي نوع آخر من الفخار.(٦١) وفي عام ١٩٨١م استطاع فريق المسح للمرحلة الثانية على الإقليم أن يحدد موقعاً ضخماً في وادي تربه على بعد ٣٥ كم شمالي غرب مدائن صالح.(٦٢) ويتمثل الموقع بعدة حقول، أكثرها حقول مقابر تنتشر عليها الكسر الفخارية التي يماثل بعضها

(٥٤) Rothenberg and Glass, "The Midianite", pp. 71-72, 111.

(٥٥) Ingraham et al., "Preliminary Report", pp. 73-74; Parr et al. "Preliminary Survey", (1970), p. 238; H. St. J. Philby, "The Lost Ruins of Quraiy, *Geographical Journal*, no cxvii, part 4 (1955), p. 455.

(٥٦) كُشفت في عام ١٩٦٨م، Parr et al., "Preliminary Survey", Fig. 11. وبعد ذلك أكد وجود ستة أفران في مكان واحد وأجرى مجساً اختباريا في واحد منها Ingraham et al., "Preliminary Report", p.73.

(٥٧) انظر الهوامش ٤٤، ٤٨.

(٥٨) عن كثافة فخار تمنع، انظر: هامش ٤٣. يجب أيضا أن نذكر أن ما يناقش هو حصيلة عمل طويل على الموقع تضمن أعمال تنقيبية واسعة. أما ما يناقش من فخار قُرية فهو حصيلة عمل مسحي سريع في عام ١٩٦٨م Parr et al, Preliminary Survey" (1970), p.219. وآخر في عام ١٩٨٠م Ingraham et al., "Preliminary Report",p.71. بالإضافة إلى ذلك لم ينقب أي جزء من الموقع إلى الآن، ماعدا تنظيف لأحد الأفران الفخارية نفذ في عام ١٩٨٠م. Ingraham et al., "Preliminary Report", p.73 وعلى الرغم من قلة العمل الأثري على قُريّة، إلا أن ماهو موجود على سطحها من كسر فخارية يفوق كل ماتم جمعه من تمنع، انظر: إدارة الآثار، ص ١٠٨

(٥٩) بالنسبة لتيماء، فقد ذكر بيتر بار وزملائه وجود مجموعة فخارية مماثلة لفخار قُرية في مخازن إدارة الآثار فحصوها في عام ١٩٦٨م Parr et al., "Preliminary Survey", (1970), p. 240 ومن المجموعة التي نشرها بودن وآخرون في عام ١٩٨٠م (انظر هامش ٢٠) قبل بيتر بار كسرتين فخاريتين على أنهما مماثلتين لفخار قُريّة Parr, "The Late Second Millennium", p.4. لكن، أيضا، يذكر وثنبرج وجلاس أن انجراهام عرض، خلال ندوة علمية مقامة في عام ١٩٨١م في معهد الآثار في جامعة لندن عن تاريخ وآثار الأردن وشمال غرب شبه الجزيرة العربية خلال العصر البرونزي والعصر الحديدي ـ عرض عدد من الكسر الفخارية التي ذكروا أنها تعود لفخار قُريّة، وذكروا أن بين تلك القطع قطعة واحدة تحمل رسم جمل Rothenberg and Glass, "The Midianite", p.119, note, .23. أما بالنسبة لمغائر شعيب، فإن بار وزملائه وجدو كسرة واحدة في عام ١٩٦٨م Parr et al., "Preliminary Survey", (1973), p.33. واكتشف عدد من الكسر في عام ١٩٨١م Ingraham et al., "Preliminary Report",p.74, أما موقع الخريبة في العلا، فقد كانت بعثة جامعة لندن حذرة في مناقشة مجموعته الفخارية، ولكن أحد أعضائها، بيتر بار، ذكر احتمالية وجود هذا النوع ضمن مجموعة العلا. Parr, "Archaeological Sources", p. 42

(٦٠) Ingraham et al., "Preliminary Report", p. 71, 75.

(٦١) Ingraham et al., "Preliminary Report", p. 74.

(٦٢) Gilmore et al., "Preliminary Report", p. 17.

النوع الذي نحن بصدد الحديث عنه. لكن يجب القول إن بعض الكسر الفخارية الأحدث تاريخاً قد تم وجودها في الموقع، ولاغرابة في ذلك، فهذه هي الحال في أغلب المواقع الأخرى ذات الاستمرارية الاستيطانية.(٦٣) وفي الإقليم الشمالي للمملكة العربية السعودية استطاع خليل المعيقل في عام ١٩٨٦م أن يجد كسر منه في ثلاثة مواقع.(٦٤) ولقد عرضت على بيتر بار الذي أفاد أن الكسر مماثلة لما وجده في شمالي غرب المملكة العربية السعودية.(٦٥)

وفي الإقليم الأوسط استطاع فريق المسح لموسم عام ١٩٧٨م أن يكتشف بعض الكسر في موقع ٢٠٧ـ٢٠ (مقابر ركامية) في واحة الخرج.(٦٦) كما تمكن كاتب هذا المقال في عام ١٩٨٨م من اكتشاف مجموعة من الكسر الفخارية المدهونة في موقع ٢٠٧ ـ ٣٠ في الواحة نفسها.(٦٧) جميع هذه الكسر تمتلك خصائص النوع المسمى «فخار مدين»، وبعد عرضها على بيتر بار ذكر أن أثنين منها على الأقل ليست مماثلة فقط بل تعد من فخار مدين سواء في زخرفتها أو مادتها.(٦٨)

اتجاه مقارنة جديد

الحقيقة التي يلاحظها الباحث في مسار دراسة هذا النوع من الفخار، والتي يجب أن يخفف من استخدامها، هي محاولة تأصيله بتتبع جذور عناصره الزخرفية في بعض المواقع في بحر أيجة، عبر استخدام ما وجد في مواقع في فلسطين والأردن كأداة وصل. ليس هناك اعتراض على التشابه مع ما وجد في المواقع الفلسطينية والأردنية، والتي تتبعها قد يكون مجدياً بخصوص مسألة التأريخ، خصوصاً وإن ماوجد في أغلبها يتمثل بكسر قليلة، يعتبرها الباحثون مستوردة من أماكن أخرى ليست بالضرورة واقعة في بحر أيجة؛ ووجدت في طبقات أثرية يمكن تأريخها بمقتضى المواد الأثرية المصاحبة، وهذا بدوره يساعد في عملية التأريخ المقارن. إنما التساؤل يدور حول جدوى تقصي أصوله في مواقع بحر أيجة، وما قد يبنى على ذلك من مفاهيم حضارية أخرى. قد تكون هذه نقطة بداية مقبولة، لقلة المادة المنشورة من شبه الجزيرة العربية عندما بدأت دراسات هذا النوع. أم اليوم، فإن الحال قد تغيّر بنشر كثير من الفخار المدهون من شرقي المملكة العربية السعودية(٦٩)، ومن الإمارات العربية المتحدة(٧٠)، ومن شبه الجزيرة العُمانية(٧١)، واليمن.(٧٢) ولهذا نرى أنه يجب تقصي المسألة بالاستفادة منها حيث إن ذلك سيفتح مجالاً جديداً للبحث.

كما يجب أن نذكر، أيضاً أنه لم تتم أية محاولة لمقارنة هذا النوع مع ما وجد في العديد من المواقع في بلاد فارس(٧٣)، تلك المواقع التي استخدمت كثيراً

(٦٣) Gilmore et al., "Preliminary Report", pp. 17-18.

(٦٤) K.I. al-Muaikel, *Critical Study of the Archaeology of the Jawf Region of Saudi Arabia with Additional Material on Its History and Early Arabic Epigraphy.* Unpublised Ph. D. Thesis, University of Durham, 1988, pp. 232-242.

(٦٥) بيتر بار، **مناقشة شخصية**، بريطانيا؛ جامعة درم، ١٩٨٨م.

(٦٦) يوريس زارينيس، محمد البراهيم، دانيل بوتس، وكرستوفر ايدنز، «التقرير المبدئي لمسح المنطقة الوسطى ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م»، **الأطلال**، عدد ٣ (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، لوحة ٢٦، رقم ٢١٤.

(٦٧) A. S. al- Ghazzi, *A Comparative Study of Pottery from a Site in the al - Kharj Valley, Central Arabia.* Unpublished Ph.D. thesis, University of London, Institute of Archaeology, 1990, pp. 149-152, 224-226, Pls. 54-55.

(٦٨) al-Ghazzi, *A Comparative Study,* Pl. 54, no. 5; Pl. 55, no. 6.

(٦٩) J. Zarins, A. S. Mughannum, and M. Kamal, "Excavations at Dhahran south - the Tumuli Field (208 - 92) 1403. A Preliminary Report", *Atlal,* vol. 8 (1984), Pls. 36, 38, 39, 41,42, 45, 47,-50.

(٧٠) B. de Cardi, "Ras-al- Khaimah, Further Archaeological Discovery", *Antiquity,* vol. L (1976), pp. 216-222. أيضاً هناك: مجموعة من الفخار المدهون تم نشرها في *Archaeology in the United Arab Emirates,* vols. 1-5 (1976-1989).

(٧١) B. de Cardi et al., "Excavations and Survey in Oman, 1974 - 1975", *Journal of Oman Studies,* vol. 2 (1976), Figs. 17-25; S. Cleuziou, "Oman Peninsula in the early IInd. Millenium B. C," in H. Hartel (ed.), *South Asian Archaeology* (Berlin: DRiemer, 1979), figs. 3-6.

(٧٢) يتضح من الأعمال المنشورة عن مواقع منقبة في جنوب شبه الجزيرة العربية أن هذا النوع من الفخار معدوم في تلك الناحية. ولكن لا ينم هذا عن عدم اكتشاف فخار مدهون من أنواع أخرى.

(٧٣) C. Goff, "Excavations at Baba Jan: the Bronze Age Occupation", *Iran,* vol. 14 (1976), pp. 19-40; S. Swiny, "Survey in

لإيجـاد تواريـخ مقـارنة لمواقع شرقي شبه الجزيرة العـربيـة[٧٤]، وأحيـانـاً لمنـاطق أخـرى في العـالم القـديم.[٧٥] ولم تتم الاستفـادة من مواقـع بلاد الرافدين في مسار دراسة هذا النوع، على الرغم من أنهـا أكثـر بلاد العـالم القـديم إنتـاجـا للفخـار المدهـون[٧٦]، ومن أكثـرهـا احتكاكا بشمالي شبه الجزيرة العربية بشكل عام.

ويجب أن لانتجاهل أن ذكر إمكانية مقارنة هذا النوع من الفخار مع ما وجد في شرقي شبه الجزيرة العربية قد أشار إليها بيتر بار.[٧٧] ولكن يفضل أن نذكُـر انــه في صدد حديـثــه عن ذلك كان حذراً، ومختصراً ولجـأ إلى ذلك مكـرهـاً، لكي يجد براهين ينقض بها نقد ميولي لنظريته.[٧٨] كما يؤخذ عليه عدم تطرقه لذكر وجود الفخار المدهون في تلك الناحية منذ العصر الحجـري الحـديث الفخـاري. ولم يتعرض لعنـاصره الزخـرفية وإمكانية استخدامها في تقصي أصوله. وهذا مرده إلى أنه يؤيد الاتجاه الذي يعيد أصـولـه لحضـارات بحـر أيجة. ورب ضارة نافعة، فمقارنة هذا النوع من الفخار مع ما وجد في مواضع شرقي شبـه الجـزيـرة العربية سوف تؤيد الاتجاه التاريخي الذي يتبناه بيتر بار، والذي يبدو أنه أكثر الاتجـاهـات احتمالاً، ولكنه سوف يعارض الاتجاه التأصيلي الذي يذهب إليه. وكما ذكرنا سابقاً، فإن جيمس ميولي يذهب إلى أن التأريخ يجب أن يكون أقل مما اقترح بيتر بار اعتماداً على المفاهيم التي ذكرناها سابقاً، وبشكل أساسي عدم اكتشاف فخار مسيني في شبه الجزيرة العربية. ولكنه لم يتنبه أو يُنبه إلى الفخار المحلي وعمقه الزمني وسماته التي قد تكون مجدية في هذا المجال. ومن الناحية الأخرى، يرى بيتر بار أن التأريخ قد يكون أقدم مما اقترح هو نفسـه لكن ينقصـه الدليل الذي لو أراد لوجده في الفخار المحلي. هذا الدليل المفقود قد نجده في مواقع شرقي شبـه الجـزيـرة العربية، ولهذا فإن الضارة أصبحت نافعة. ومن خلال دراستنا الحاضرة سوف نقترح الأصـول التي يبحث عنهـا ميولي لكـي يقتنع بتأريخ بيتر بار. وسوف نقدم أدلة تفيد أن تأريخ هذا النوع يمكن أن يكون أقدم مما اقترح بيتر بار نفسه.

إن المطلع يعلم مما كتب عن هذا النوع أن أقرب الأنـواع له هو فخـار نصـف الألف الثالث وبداية الألف الثـاني قبل الميلاد، أو ما يعرف بشكلٍ عام بفخـار أم النـار نسبـة إلى جزيرة أم النار الواقعة بالقرب من أبي ظبي في الإمارات العربية المتحدة.[٧٩] ولكن يجب أن نتـذكـر أن التحديد الزمني المذكور أعلاه لا يعني نفي إمكانية كون بدايته أبكر ونهايته أحـدث، لأن الاستمـراريـة الزمنية لفخار أم النار نفسهـا لم تحـدد بعد بدليل طبقي. وعلى أية حال، هناك تماثل بين النوعين في سمات عدة من أهمها:

١ ــ التمـاثل في لون العجينة الصلصالية، فهي تظهـر في النـوعين بألوان متقاربة. كما ذكر الباحثون في شرقي شبه الجزيرة العربية ندرة العجينـة باللون الرمـادي[٨٠] وهـذا مانجده نادراً في فخار مدين.[٨١]

= North-West Iran, 1971", *East and North - West* vol. 25 (1975), Figs. 1-3.

(٧٤) M. Tosi, The dating of the Umm an Nar Culture and a Proposed Sequence for Oman in the Third Millennium B. C., *Journal of Oman Studies*, vol.2 (1976), pp. 81-82. وبشكل عام انظر: D. E. McCown, *The Comparative Stratigraphy of Early Iran* (Chicago: the University of Chicago Press, 1957), Plates.

(٧٥) C. C. Lamberg-Karlovsky and M. Tlsi, "Shahr-i Sokhta and Tepe Yahya: Tracks on the Earliest History of the Iranian Plateau", *East and West*, vol. 23 (1973), pp. 21-57.

(٧٦) إسماعيل يوسف حجارة، «مسح أثري في وادي درعا في أعالي وادي الخـابور بشمال شرق سوريا»، **العصور**، المجلد الثالث، الجزء الثاني (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ص١٨٥ـ١٩٧: G. M. Schwartz, Aceramic Chronology from Tell Leilan, Operation 1 (Yale: Yale University Press, 1988), figs. 36-37, 56, 62-64, 68.

(٧٧) Parr, "The Late second Millennium", pp. 4, 26 note 14.

(٧٨) Pare, "The Late Second Millennium", p..4.

(٧٩) فخار أم النار ربما يعود إلى النصف الأول ويستمر خلال النصف الثـاني من الألف الثـالث قبل الميلاد، بهذا الخصوص، انظر: هامش ٧٤.

(٨٠) ماجد محسن هدو، «تقرير أولي عن التنقيب في المدفن في هيلي»، **الأثار في الإمارات العربية المتحدة**، عدد ٥، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م)، ص ٦٣: W. Y. al-Tikriti, "Umm An Nar Culture in the Nothern Emirates", *Archaeology in the United Arab Emirates*, vol. 5 (1989), p. 94.

(٨١) Parr et al., "Preliminary Survey", (1970), Plates.

٢ ــ التماثل في ألوان الدهان المستخدمة التي تنحصر في : الأحمر، والأسود، والبني، والأصفر.[٨٢] وهذا ما نجده في فخار شرقي شبه الجزيرة العربية.[٨٣] .

٣ ــ التطابق في النماذج الزخرفية لاشتراكهما في العناصر الزخرفية التي من أهمها: (أ) العصابات المدهونة على رقاب الأواني[٨٤] (ب) رسم الطاؤوس[٨٥]، (ج) الخطوط المتعرجة[٨٦] (د) أشكال الطيور.[٨٧]

٤ ــ التشابه في أشكال الأواني التي أقربها لهذا النوع يوجد في مانشرته دي كاري من بلوخستان بتاريخ يعود للعصر البرونزي، والتي تبدو قريبة من التطابق في كل المميزات (قارن شكل ١:١ مع شكل ١:٢)[٨٨]، كما أن الحافة المثنية إلى الخارج وبعض أشكال الأواني تطابق تماماً ما نجده في مجموعات مقابر جنوبي الظهران المؤرخة لأوائل الألف الثاني قبل الميلاد (قارن شكل ١:٣ مع شكل ١:٥).[٨٩]

وكما مر معنا سابقاً، فإن المقال الوحيد المنشور عن النوع مجال الحديث والذي يورد له مقارنة مزودة بالأشكال هو مقال جون دايتون المنشور عام ١٩٧٢م، والذي استعرض فيه سبعة عشر نموذجاً زخرفياً أورد لها مقابلات من مواقع مختلفة، نود أن نوضح بعض المآخذ على ذلك العمل.

١ ــ إن جميع ما أورده دايتون يمثل مادة مستوردة إلى مواقعها، وبهذه الصفة فإنها تكون عديمة الجدوى لمسألة التأصيل.

٢ ــ عند التمعن في الأشكال الموردة نجد أنه ليس بين النماذج أية نموذجا أورد له نموذجاً مطابقا.

٣ ــ إن مقارنته الفخار مع ماوجد في تمنع غيرذات جدوى في مسألة البحث عن أصوله، لأن تمنع تقع في منطقة قُريّة وقد يربط الجميع إطار حضاري واحد. ولكي ندعم ما ذهبنا إليه يجب أن نشير إلى أن بعض عناصر النماذج الزخرفية التي أوردها في لوحة رقم ٢ في بحثه، والمتمثلة بمثلثات مدهونة هي عنصار عامة تظهر على فخار العبيد بكثرة سواء في إيران، أو شرقي شبه الجزيرة العربية، أو بلاد الرافدين وتستمر في الظهور في الفترات اللاحقة. ويؤيد ذلك استمرار ظهور العناصر الزخرفية التي ذكرناها، مواكبة لاستمرار ظهور الفخار المدهون في شرقي شبه الجزيرة العربية ابتداءً من منتصف الألف الخامس وحتى منتصف الألف الرابع ق.م. في فترة العبيد[٩٠]، وفي الألف الرابع وأوائل الألف الثالث ق.م. في هيلي١، أو ما يعرف في شرقي شبه الجزيرة العربية، أحياناً، بفترة حفيت[٩١]، وفي الألف الثالث ق.م. في هيلي٢، أو ما يعرف بأم النار، وفي نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني في هيلي٣.[٩٢] ثم استمر بالظهور خلال الألف

(٨٢) Parr et al., "Preliminary Survey" (1970), p. 238.

(٨٣) هدو، «تقرير أولي» ص٦٥.

(٨٤) Parr et al., "Preliminary Survey" (1970), Fig. 16, no.5 V; Burkard, The Umm an-Nar Tomb A at Hili North: A Preliminary Report on the three Seasons of Excavation, 1982-1984", *Archaeology in te United Arab Emirates*, vol.4 (1985), Pl.25, no.7.

(٨٥) قارن V. Burkard, The Umm an-Nar," Pl. 26, no.4 مع Parr et al., "Preliminary Survey" (1970), Fig. 16, no.6

(٨٦) قارن اللوحات في هامش ٥٣ مع الوصف في: هدو، «تقرير أولي»، ص ص ٦١ـ٦٢.

(٨٧) S. Cleuziouy, "Excavations at Hili 8: A Preliminary Report 4th to 7th Campaigns, *Archaeology in the United Arab Emirates*, vol. 5 (1989), Pl. 31, not. 12. مع Parr et al., "Preliminary Survey", (1970), Fig. 15, nos. 1,9.

(٨٨) B. de Cardi, "A New Prehistoric Ware from Baluchistan," *Iraq*, vol.13, Part 2 (1951), pp. 68-69, Figs. 1-2; B. de Cardi, *Archaeological Surveys in Baluchistan, 1948 and 1957* (London: institute of Archaeology, 1983), p. 30, Fig 28, nos. 3, 13, 17.

(٨٩) Zarins et al., *Excavations*, Pl. 36, no. 14.

(٩٠) A. H. Masry, *Prehistory in Northeastern Arabia : The problem of Inter-regional, Interaction* (Miami: Field Research Projects, 1974), p. 198.

(٩١) K. Frifelt, A Possible Link between the Jemedet Nasr and the Umm an - Nar Graves of Oman. *Journal of Oman Studies*, vol. 1 (1975), pp. 57-59.

(٩٢) Cleuziou, "*Excavations*," pp. 67,71-72.

الثاني في مواقع عديدة مثل مقابر جنوبي بالظهران[٩٣]، ومقابر أبقيق[٩٤]، وفي المواقع العائدة لفترة دلمون [٩٥]، وفي المدافن الركامية وموقع الخضرمة في الخرج.[٩٦] ولم ينقطع إنتاج الفخار المدهون في شبه الجزيرة العربية خلال الألف الأول قبل الميلاد حيث تم اكتشافه في عدد كثير من المواقع.[٩٧]

ولكي نقترب مما ذهبنا إليه نود أن نذكر أن تركيبة النماذج الزخرفية لفخار قُريّة تظهر على فخار شرقي شبه الجزيرة العربية، وليس لها ارتباط قوي بفخار فلسطين، الذي يُعتقد أنه ظهر بتأثير من حضارات بحر أيجة. ويتضح هذا من العمل الضخم الذي قدم على فخار الفلستينس (Philistines). فمن استعراض اللوحات الواردة فيه لم نتمكن من العثور على قطعة واحدة تحمل أوجه مقارنة مع فخار قُريّة، عدا العناصر الفردية العامة المشكّلة للنماذج الزخرفية مع غيرها، وذلك مثل الشفرون (Chevron) ، والمثلثات المدهونة.[٩٨] أيضاً لم نتمكن من العثور على قطعة واحدة في عمل روث أميران (Ruth Amiran) على فخار الأرض المقدسة الذي اشتمل على ثلاثمائة قطعة مُصورة ماعدا بعض الكسر التي تحمل مثلثات مدهونة، أو رسم الشبكة، وكلاهما يظهران على فخار العبيد وما أتى بعده.[٩٩] ويؤيد هذه الندرة غياب هذا النوع من دراسة إرنست رايت لدرجة الدكتوراه على فخار فلسطين منذ أقدم العصور حتى نهاية العصر البرونزي الأول.[١٠٠] ويجب التنوية إلى أن ماقصدناه لا يعني أنه لم يكتشف فخار ملون في فلسطين والأردن، إنما ما اكتشف لا يحمل النماذج الزخرفة بكامل عناصرها التي تظهر على الفخار مجال الدراسة هنا.

وعلى العكس من ذلك، نجد أن العنصرين الزخرفيين المذكورين أعلاه يظهران على فخار شبه الجزيرة العربية بكمية، وتنوع، واستمرار زمني كافيا لجعله مؤثراً. فيلاحظ أن عنصر المثلثات يظهر على فخار العبيد ويستمر حتى بداية الألف الثاني في مواقع مختلفة جغرافياً وزمنياً في شبه الجزيرة العربية، والأقطار الشرقية المجاورة، (شكل٢). وبنفس الاستمرارية نجد عنصراً آخر يطلق عليه انصاف المثلثات المعلقة (شكل٣). والعنصر الثالث يتمثل بسعفة النخل الذي نجد له استمرارية مماثلة (شكل٤). وهناك عناصر أخرى داخل نماذج زخرفية لم نذكرها. وقد قُصد مما ذكرناه الاستشهاد وليس الحصر.

ولهذا فإن أصول هذا الفخار سواء ما وجد منه في المملكة العربية السعودية، أو فلسطين، أو الأردن، قد تكون شرقية المنشأ. وتُعبر عن اتصال حضاري بين الشرق والغرب عبر وسط المملكة العربية السعودية وشمالها، وقد يكون هذا الاتصال حدث بفعل اجتياح عسكري. متى ولماذا حدث هذا الاتصال؟ إنه سؤال تكمن الإجابة عليه في إجراء حفريات أثرية في موقع قُريّة وغيرها من المواقع المهمة في وسط وشمال وشمالي غرب المملكة العربية السعودية، وفي جنوب الأردن

---

(٩٣) Zarins et al., *"Excavations"*, Pls. 39, 41-42, 45,47-48.

(٩٤) A. A. F. al-Dosary, *Carte Archeologique Medieveale De La Region D Al-Sarqiyya, En Arabie Seoudite,* Unpublished Ph.D. Thesis, Universite Lumiere Lyon 2, vol. 2, 1991, Pl. 28.

(٩٥) معاوية إبراهيم، **حفريات البعثة العربية في موقع سار - الجسر ١٩٧٧ - ١٩٧٩ البحرين** (البحرين: مطابع وزارة الاعلام، ١٩٨٢م)، شكل ٣٨؛ Y. Calvet, "The Bronze Age Excavation G3." in J-F. Salls (ed.) *Failaka,* (Lyon: Travaux De la Maison De L Orient, no, 9, 1984.), Fig. 31, no. 103; F. Hojlund, *The Bronze Age Pottery* (Arthus: Arus University Press, 1987), Figs. 56, 63, 65, 80, 170-179, 497 - 502; C. Larsen ,*Life and Land Use on the Bahrain Island* (Chicago: The University of Chicago Press, 1983), Figs. 47, 51.

(٩٦) انظر الهوامش أرقام ٦٦ و٦٧، على التوالي.

(٩٧) B. de Cardi. "Further archaeological Survey in Ras al-Khaimah", *Oriens Antiques,* vol. 24 (1985), Figs, 7-8, 11-12.

(٩٨) T. Dothan, The Philistines and Their Material Culture (Jerusalem: The Biyatik Institute and the Israel Exploration Society, 1969).

(٩٩) R.Amiran: *Ancient Pottery of the Holy Land: from Its Beginnings in the Neolithich Period to the End of the Iron Age* (Jerusalem: the Biyatik Institute and the Israel Exploration Seciety, 1969).

(١٠٠) G. E. Wright, *The Pottery of 'Palestine from the Earliest Times to the end of the Early Bronze Age* (New Haven: The American schools of Oriental Research, 1937).

وفلسطين. ومادام هذا العمل لم يتم، فإن المسألة تحتمل الوجهين ونحن نميل إلى الاتجاه الشرقي بموجب أدلتنا التي أوردناها، والمتمثلة كما مر معنا بالتماثل الشكلي والزخرفي وألوان الزخرفة ونماذجها وعناصرها، ولون العجينة الصلصالية المشوية، واستمرارية ظهور الفخار المدهون؛ والتي تبدو كافية لبدء البحث في هذا الاتجاه.

بالإضافة لما جاء أعلاه، هناك عدد من الملاحظات حول المسائل التي دار الحوار بخصوصها، نفضل تدوينها في النقاط التالية:

١ ــ يتضح أن أغلب الفخار المنشور قد جاء من مسح سطحي، والكمية المنقبة، على قلتها، جاءت من موقع تيماء، ومن منطقة أثرية واحدة متمثلة بقصر واحد. بالإضافة إلى أن ما نشر يتمثل بنماذج، وهناك كميات لم تنشر بعد، ونشرها سوف يضيف شيئاً جديداً.

٢ ــ ينتشر الفخار في الأماكن التي تُعرف بقدمها واستمرارية استيطانها في الإقليم الشمالي الغربي وغيره من أقاليم المملكة العربية السعودية. وهذا الانتشار المكاني للفخار يجذب الباحث إلى التفكير في عمقه الزمني.

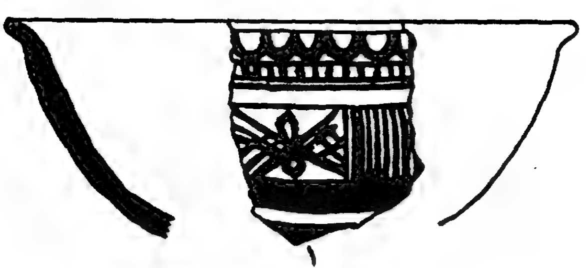
٣ ــ تدل الكمية المنشورة من تيماء على أنها أحد مراكز إنتاجية، إن لم تكن هي مركز الإنتاج الأول. ويبدو أن الشهرة التي حصلت عليها قُريّة في هذا الصدد تنبع من تعرضها للبحث المستمر والمتصل بهذا النوع من الفخار. فمن استعراض المصادر في أول البحث نجد أن الكمية المنشورة من تيماء تفوق الكمية المنشورة من قُريّة.

٤ ــ بخصوص التأريخ، فإننا نميل إلى تأريخ له في شمالي غرب المملكة العربية السعودية من أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، إن لم يكن أقدم. وذلك بسبب ظهور عناصره الزخرفية على الفخار السابق لهذه الفترة، وتبدأ بالتحور في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد.

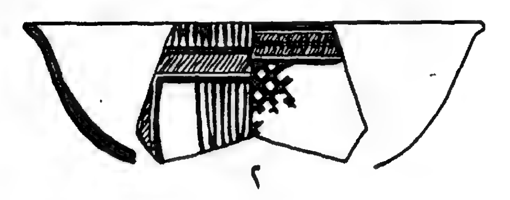
٥ ــ من ناحية أصوله، يبدو أن استمدها من فخار شرقي شبه الجزيرة العربية العائد للألف الثالث قبل الميلاد، لأنه النوع الذي يظهر نقاط مقارنة في نواحي عدة.

٦ ــ أم نهاية إنتاجه فإنها من المسائل التي تحتاج لجهد أثري ميداني طويل، لكي يتم تشخيصه تشخيصاً دقيقاً بتسلسل طبقي. وعلى الرغم من ذلك، يبدو أنها كانت تدرجية صاحبها تدهور في عناصره الزخرفية، مما يدل على تدهور الأمة التي أنتجته وليس زوالها. وهذا واضح من ظهور بعض عناصره الزخرفية بتحور على فخار العصر الحديدي والمعروف بفخار العلا، والذي يؤرخ للعصر الحديدي الثاني، أي بداية من القرن التاسع قبل الميلاد حتى نهاية النصف الأول للقرن السادس قبل الميلاد؛ ويبدأ في الاختفاء تدريجياً بداية من القرن السادس قبل الميلاد، تاركاً المكان لفخار آخر مدهون ليتبلور ويحل محله. وهذا موضوع سوف نتطرق له في بحثٍ آخر.

٧ ــ يظهر لنا من استعراض البحث في هذا المسار أن هناك صعوبة كبيرة تواجه القارىء في محاولته التعرف على هذا النوع في الأعمال المنشورة. وهذه الصعوبة تتمثل بقلة المنشور، وعدم طرحه طرحاً واضحاً. وحيث إن المادة الأثرية متوافرة في إدارة الآثار؛ فإننا نقترح إجراء دراسة تصنيفية بخصوصها، لكي يتم تشخيصها بشكل واشح، وفصلها عن الأشياء الأخرى التي عادة تقتضي طبيعة التقارير الأثرية الأولية إقحامها. وبعمل كهذا سوف يكون هناك مجال لوضع تصور عن تاريخ بداية الإنتاج ونهايته، وتصبح الاستمرارية الزمنية للفخار المقصود مجالاً للنقاش، ومن نقطة بداية معلومة.



de Cardi, 1951,fig. 2, no. 1.



Parr et al., 1970,fig.15,no.5.



Ingraham et al.,Pl.78, no.15.



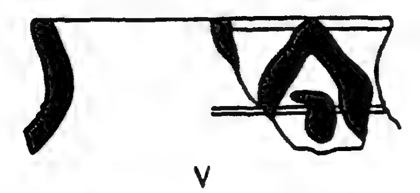
Parr et al.,1970,fig.15,no.3.



Zarins et al.,1984, Pl.47,no.2.

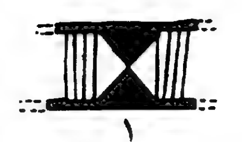


Zarins et al.,1984,Pl.42,no. 2



al-Ghazzi, Pl. 55, no.6.

شكل١. مقارنة لبعض اشكال الاواني

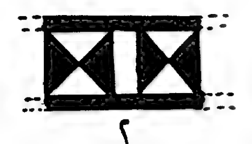


١



Karlovsky and Tosi,fig104,no.B.

الألف الرابع ق.م.



٢

McCown,fig.10,no.129.

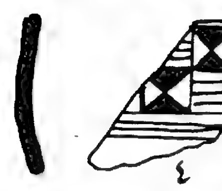
الألف الخامس ق.م.



٣

Swiny,fig.3,no.4.

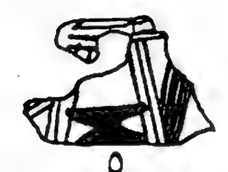
نهاية الألف الرابع ق.م.



٤

Schwartz,fig.62,no.7.

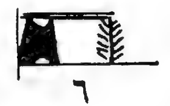
منتصف الألف الخامس ق.م.



٥

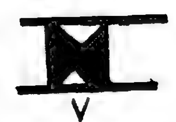
Cleuziou,1979,fig.3,no.3.

بداية الألف الثاني ق.م.



٦

Zarins et al.,1984,Pl.41,no.16.



٧

Zarins et al.,1984,Pl.42,no.7.

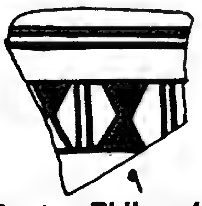
نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق.م.



٨

Bawden et al.,Pl.64,no.2.

نهاية الألف الثاني ق.م.

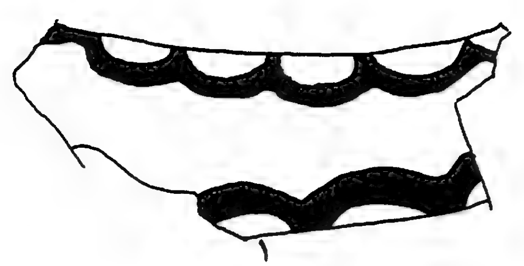


٩

Dayton,Pl.II,no.4.

منتصف الألف الثاني ق.م.

شكل٢. يبين استمرارية عنصر المثلثات الزخرفي



١

Masry,p.296,no.3.

منتصف الألف الخامس ق.م.



٢

حجارة، ص.١٩٠،رقم٩٨.

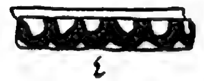
بداية الألف الرابع ق.م.



٣

Larsen,fig.51,no.h.

بداية الألف الثاني ق.م.



٤

De Cardi, 1983,fig.29,no.14.

منتصف الألف الثالث ق.م.



٥

al-Ghazzi,Pl.54,no.5.

الألف الثاني ق.م.



٦

Cleuziou,1989,Pl.25,no.7.

الألف الثالث ق.م.



٧

Ingraham et al.,Pl.79,no.25.



٨

Ingraham et al.,Pl.78,no.15.

نهاية الألف الثاني ق.م.



٩

Bawden et al., Pl. 64,no.4.

نهاية الألف الثاني ق.م.

شكل٣. يبين استمرارية عنصر المثلثات المعلقة.



١

McCown,fig.13,no.92.
فترة العُبيد، من الألف الخامس حتى منتصف الألف الرابع ق.م.



٢

Zarins et al.,1984,Pl.41,no.16.
نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق.م.



٣

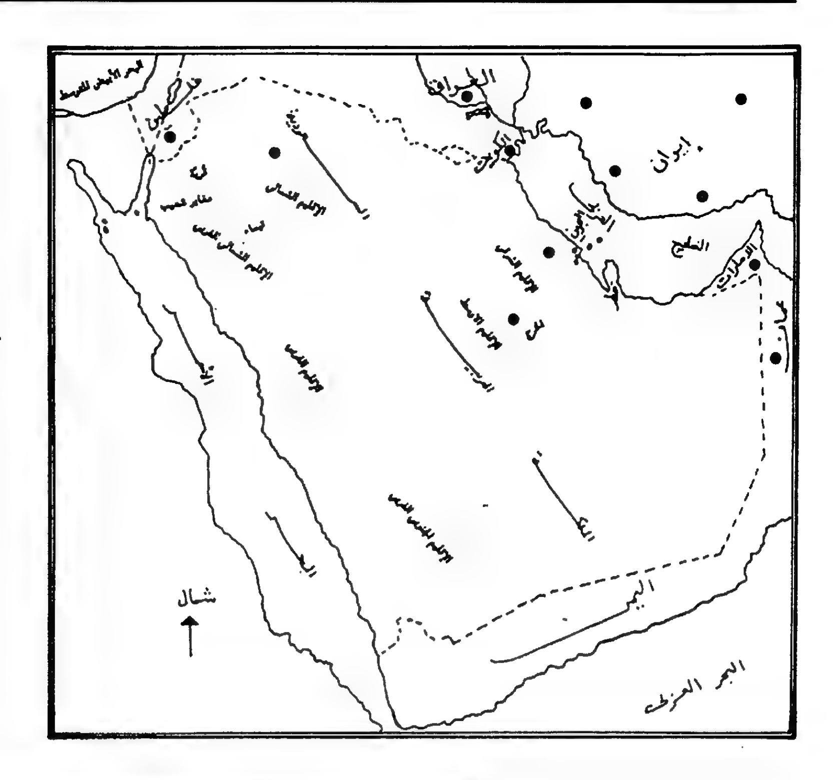
Zarins et al., 1984, Pl.45,no.16.
نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق.م.



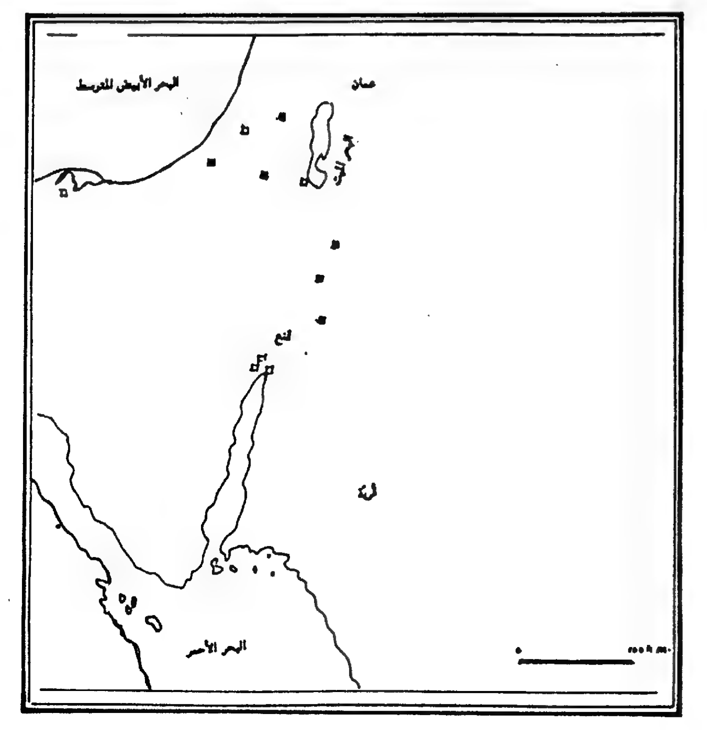
٤

Bawden et al., Pl.63,no.8.
نهاية الألف الثاني ق.م.

شكل٤. يبين استمرارية عنصر سعف النخلة.



خارطة ١ . تبين المناطق الجغرافية المذكورة في البحث.



خارطة ٢ . تبين المواقع التي وجد فيها فخار مديني في فلسطين والأردن.

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الأول، ٢٥ ـ ٣٦ (١٩٩٣م)

اللات في الجزيرة العربية

للدكتور صلاح الدين صالح حسنين

ملخص البحث : انتشرت عبادة اللات في الجزيرة العربية منذ القرن الخامس ق.م، ويشمل ذلك الطائف واليمن وشمالي الجزيرة. ذلك أن الثموديين والأنباط والصفويون واللحيانيون قد عبدوا اللات. اللات إلة بشمالي الجزيرة وهي مؤنث واختلف الباحثون في تحديد شخصيتها، وأرجح الآراء انها إلهة القمر . واختلفت آراء الباحثين حول تحديد الموطن الأصلي لها، ورجح البحث ان يكون موطنها الأصلي بلاد الأنباط. كما اشار هيرودوت إلى إلهين عند العرب هما الثلات والبيثتًا. وقد أوضح البحث ان الثلات تقابل اللات والثتًا تقابل العُزّى. واشتقت الثلات من الثلاهَتْ والثتًا مشتقة بسبب الحمل من مُوليثًا.

مراكز عبادة اللات

الطائــــف

يقول ابن الكلبي في كتاب الأصنام أن اللات كانت تعبد في الطائف التي تقع على بعد سبعين ميلا إلى الشرق من مكة. وكان سدنتها من ثقيف بني عتّاب بن مالك، وكانو قد بنوا عندها بناء. وكانت قريش وجميع العرب تعظمها، وبها كانت العرب تسمي زيد اللات وتيم اللات. وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم. وهي التي ذكرت في القرآن الكريم، فقال سبحانه وتعالى ﴿ افرأيتم اللات والعزّي ﴾ (النجم ١٩) ولها يقول عمرو بن جعيد:

فاني وتركي وَصْلَ كَأْسٍ لكالذي
تَبَرّأ من لاتٍ، وكان يدينها

ولها يقول المتلمِّس في هجائه عمرو بن المنذر:

أَطْرَدْتَني حَذَرَ الهجاءِ ولا
واللات والأنصاب لا تَئِلُ

فلم تزل كذلك حتى اسلمت ثَقِيفُ، فبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المغيرة بن شُعْبة فَهَدَّمها وحرقها بالنار.

وفي ذلك يقول شَدّاد بن عارض الجُشَمِيُّ حين هُدِّمَتْ وحُرِّقَتْ ينهي ثقيفا عن العود إليها والغضب لها:

لاتنصروا اللاتَ إنَّ الله مُهْلِكُها
وكيفَ نَصرَكُم مَنْ ليس يَنْتَصِرِ ؟
إن التي حُرِّقَتْ بالنار فاشتعلت
ولم تُقاتِل لدى أحجارها هَدَرُ
إنَّ الرَّسولَ متى يَنْزِلْ بساحتِكُم
يَظْعَنُ وليس بها من أهلها بَشَرُ

وقال أوس بن حجر يحلف باللات:

وباللاتِ والعُزّى ومن دان دينَها
وبالله إنَّ الله مَنْهُنَّ اكبر (١)

ويقول دوسو ان البقعة المقابلة للمكان الذي كانت تعبد فيه اللات كانت بقعة مقدسة، ففيها كان يحظر قطع بعض الأشجار وصيد الحيوان.

وكان حرم اللات بالطائف يحتوي على حجر يمثل الإلهة وهو حجر أبيض مربع الزوايا وأنه كان حجرا جيريا. وكان في أسفل هذا الحجر فتحة تسمى غبغبا توضع فيها كل الكنوز الثمينة الخاصة بالالهة من

---

(١) ابن الكلبي، المنذر بن هشام بن السائب، الأصنام (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٢٤م)، ص ص ١٦-١٧.

ثياب غالية وحلي ومباخر وذهب وفضة.(٢)

اليمـــن :

وجدت اللات ترحيباً كبيراً في اليمن، وكانت اللات تدخل في تركيب أسماء الأعلام عند أهل جنوب الجزيرة العربية نحو Sa'd allat (٣) (cih 408) (٤)

يقول وينيت إنه يلاحظ بشكل عام أن اللات ظهرت في النقوش اليمنية التي ترجع إلى عصر متأخر، ومن ثم لم تكن اللات إلاهة محلية في اليمن، ذلك أن اسم اللات ورد في معظم النقوش المعنية التي عثر عليها في شمالي الجزيرة العربية فتكون بعد ذلك قد ظهرت في النقوش بعد أن أسس الجنوبيون مراكز تجارية لهم في شمال الجزيرة العربية؛ ولو كانت اللات إلاهة محلية في الجنوب لكنا قد وجدنا إشارات لها في النصوص السبئية المبكرة.(٥)

اللات في شمالي الجزيرة العربية

اللات في الثمودية

قسّم وينيت Winnett النقوش الثمودية أربعة أقسام، وأوضح أنه ورد اسم اللات في القسم الرابع، ووصف هذا القسم بأنه متأثر تأثرا وثيقا بالصفوية، وورد اسم اللات في هذا القسم مرة واحدة، بالرغم من شيوع عبادتها. ومن هنا استنتج وينيت Winnett أن المناطق التي كانت تعبد اللات كانت تحترمها احتراما كبيراً، ومن ثم لم تكن تستخدم في تركيب أسماء الأعلام فيها.(٦)

اللات في النبطية

- **نقوش العلا** : ورد اسم اللات في مجموعة النقوش ج.س. ١٢ نبطي التي اكتشفت في العلا.(٧)
- **نقوش الحجر** : ورد اسم اللات في مجموعة ج ل س ١٩٨/٢، التي عثر عليها في الحجر، وجاء في أحدها الدعوة على من يفسد راحة الثاوين في هذا القبر، ومن بين هذه الدعوات لعنة اللات(٨) وبالطبع كانت اللات تعبد في الحجر.

جبل رمّ Gebel - Ramm

وردت إشارة في نقوش جبل رم الواقع شرقي خليج العقبة إلى أنه أقيم في هذا الجبل معبد اللات.

حـــوران

أقيم في حوران معبدان للات، أحدهما في بصرى، والآخر في صلخد Salhad بجنوب جبل الدروز.

وتأسس معبد صلخد في السنة السابعة من حكم الملك النبطي مليكو بن حريثت Maliko b. Haretat وتشير مجموعة النقوش ج. ل. س ١٨٢/٢ و ١٨٣/٢ التي عثر عليها في صلخد تشير إلى تدشين معبد للات(٩) وتشير مجموعة نقوش ليتمان/ ٢٤ Lit-mann التي عثر عليها في صلخد إلى لقب اللات وهو allat ra bbat al - 'a tar أي: اللات ربة المكان. أو سيدة المكان.

وورد هذا اللقب أيضا في مجموعة النقوش

---

(٢) وينيه دوسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩م)، ص ١١٢.

(٣) F. V. Winnett, *The Daughters of Allah* (New York, 1940), p.115.

(٤) ترجع مجموعة cih 787, 305, 315, 352, 408, 558, 647 إلى ما بعد ٢٥٠ق.م. اي فترة حكم Hamdanid أما مجموعة cih 517 فترجع إلى الحكم الذي يسبق بهذه الفترة، وترجع مجموعة 79 - 78 se إلى فترة Shahr yagul وهي الفترة المبكرة من القرن الأول الميلادي، وترجع مجموعة حضرموت إلى فترة حكم yada' 'ab Bayyin وترجع النقوش المعينية إلى فترة قديمة، ولكنها ليست متقدمة عن فترة حكم Abigade 'Yethi' في القرن الرابع ق.م. (Winnett, *The Daughters*, p. 115)

(٥) Winnet, *The Daughters*, p. 115.

(٦) Winnet, *The Daughters*, p. 118.

(٧) Winnet, *The Daughters*, p. 117.

(٨) Cooke, *A Text Book of North - emitic Inscriptions* (Oxford, 1903), p. 222.

(٩) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩م). ص ١١٧.

ج.ل.س ٢/١٧٠ التي عثر عليها في حبران الواقعة شمال شرق بُصرى "Bosra"[١٠]، وأضاف دوسو أن كاهن اللات في هذه المنطقة كان مليكو بن قصيو.[١١] وورد اسم اللات كذلك في مجموعة النقوش ج.ل.س ٢/١٨٥، والنص كما ورد في هذه النقوش كما يلي:

d n̉ā mosg ̉da dī abad̲ nšbō bar šula
I a llat ̃ēm laahi dī
mārānā [١٢]

وقد ترجم الاستاذ كلير مو جانو Clermont Ganneau هذا النص كما يلي :

هذا هو «(المعبد) الذي أقامه نشبو بن شولاً للات أُم (؟) الالهة، أم إلا هنا رابل[١٣]

واعـتـرض ويـنـيـت Winnett على قراءة (أم الالهة)[١٤]، واقترح كوك Cooke أن يكون النص: allat el l ah وتـرجمها بـ (الإ لاهة الرئيسة)[١٥]. وارى أن تترجم الى «الاهة الالهة».

وممـا سبق يمكن أن أُأيـد كوك Cooke [١٦] في استنتاجه بأن اللات كانت تعبد على نطاق واسع في حوران.

اللات في الصفوية

يقول الدكتور السيد يعقوب بكر ان اللات كانت كبرى الهة الصفويين وأكثرها ورودا في دعواتهم[١٧] وأايده فيما ذهب إليه ، لانه جاء في النقوش الصفوية التي عثر عليها في منطقة تقع إلى الشرق من دمشق، جاء ذكر لإلاهين هما اللات ورُضَوْ Allat , rudaw

ويـرى ويـنيت Winnet أن عبـادة اللات عنـد الصفـويـين لم تكن شائعـة بقـدر شيـوعهـا عنـد الثموديين، واعتمد في إثبات هذا الرأي على أن اسم اللات كان يدخل في كثير من الأعلام الصفوية، مثل تملت، أي تيم اللات الذي ورد في مجموعة ج.س ٢٥٦/١.

الـلات فـي بالميـرا

انتشرت عبادة اللات انتشارا كبيرا في بالميرا، ومع ذلك ظهـر اتجـاه لدخـول اللات في تركيب أسمـاء الأعـلام. وفي مجمـوعة نقوش كانتينو ٨/٤، التي ترجع إلى عام ١٢٩م. وصف للالهة: الشمس واللات ورحم R.H.M. بأنهـا آلهـة طيبـة، وذكر كانتينو في مجموعة نقوشه ١/٥ أنه اقيم معبد لعشتار اللات Istar Allat ووردت إشارة أخرى لالّات في مجموعة نقوشه ١/٢.

اللات في اللحيانية

انتقلت عبادة اللات إلى اللحيانيين من الأنباط في الشمال حتى سادت بينهم، فقد ورد مجموعة النقوش اللحيانية ج.س ٢٧٧ هذا النص «ذ علم أفكل لت» أي: هذا غُلَيْم كاهن اللات. ويقول وينيت Wiinnett إن اسم اللات دخل في تركيب كثير من أسماء الأعلام عنـد اللحيـانيين وأشار إلى ملحوظة مهمة، هي أن صيغة اللات عند اللحيانيين تختلف عن صيغتها في سائر اللغات الأخرى، وهي han ilat وترد أحيانا هذه الصيغة بدون han أي L. t فقط والتي يجب أن تقرأ ilat ولما كانت han هي أداة التعريف اللحيانية، يتلحق في بدايـة الاسم فاستنتـج أن صيغة han ilat هي الصيغـة المعرفة بأداة التعريف، و lat هي الصيغة النكرة، وأن اللحيانيين يميلون إلى استخدام صيغة التنكير ilat ، إلى جانب صيغة التعريف han ilat.[١٨]

(١٠) Winnet, *The Daughters*, p. 118.

(١١) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١١٥

(١٢) وهذا النص بالخط المربع الآرامي كما يلي :

דְנָה מסגדה די עבד נשבו בר
[illegible] ל(א)אלת אם אלהיא די מרנ-א

راجع ديسو ، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١١٩.

(١٣) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١١٩.

(١٤) Winnet, *The Daughters*, p. 118.

(١٥) Cook, *Noth - Semitic Jnscription*, p. 222.

(١٦) Cook, *Noth - Semitic Inscription*, p. 222.

(١٧) موسكـاتي، الحضـارات السـامية، ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة: دار الكاتب العربي، د.ت)

(١٨) Winnet, *The Daughters*, p. 120.

طابع اللات وشخصيتها

طـابع الــلات

يقول دوسّو «هناك طابع عام للاله الذي يعبد في الجزيرة العربية هو أنه يكون في الشمال مؤنثا ويكون في الجنوب مذكرا. فاللات معبود شمالي وهو مؤنث، ويقابل عشتر وهو معبود جنوبي. وهو مذكر[١٩] ويؤكد وينيت Winnett هذا الطابع العام. واعتمد في ذلك على أنه في مجموعة النقوش اللحيانية ج.س /٢٢٧ ورد هذا النص: «ذ علم أفكل لت»، أي: هذا غليم كاهن اللات. ويقول وينيت Winnett أنه يوجد فوق اسم اللات تفي هذا النقش الاسم المعني "wadd" وهو إلاه مذكر ويعلق على استخدام هذا الاسم بقوله: «أنه لا يشك أدنى شك في أن wadd قد أُثبت في هذا النقش عمدا. ويحتمل أن الذي أثبته هو الكاهن نفسه لكيي يلفت انتباه التجار المعينيين إلى حقيقة أن الالهة التي تعبد في بمعبده توازي الاله wadd الذي يعبدونه، ومن ثم كان الكاهن يتطلع إلى زيادة التأييد لمعبده».[٢٠]

شخصية اللات

اختلف الباحثون في تحديد شخصية اللات. ولهم في ذلك ثلاثة آراء هي:

١ — يرى فلهوزن وهومل ـ كما يقول دوسو[٢١] أن اللات هي إلاهة الشمس، ذلك أن الشمس مؤنثة في اللغة العربية، وأيدهما في هذا الرأى بول ليتمان، كما يقول وينيت.[٢٢]

وقد رفض هذا الرأي دوسو ووينيت وبررا رفضهما بأن أوضحا أن الشمس في شمال الجزيرة العربية مذكر وليس مؤنثا، ويقول وينيت، إن الذي يدل على ذلك هو أن إلاه الشمس عند الأنباط Dusra وهو مذكر وليس مؤنثا.[٢٣]

٢ — يرى دوسو أن اللات تماثل كوكب الزهرة.[٢٤] ويرى روبرتون سميث وبارتون وريكمانز ـ كما يقول وينيت[٢٥]، أن اللات تقابل فينوس Venus عند الرومان. وأرى أنهم يتفقون بذلك مع دوسو ذلك أن فينوس Venus عند الرومان هو كوكب الزهرة.

ويقول دوسو إن اللات ترادف العُزَّيَيْن[٢٦]، ذلك أن الالهة التي تعرف بكوكب الزهرة لها صورتان، إحداهما تمثل بكوكب الصباح، والأخرى تمثل بكوكب المساء.[٢٧] ويقول دوسو نقلا عن نولدكه إن المقصود العُزَّيَيْن نجم الصباح ونجم المساء.[٢٨]

ويرفض وينيت هذا الرأى لأنه فشل في تفسير أنه عندما استخدم الإسمان في منطقة واحدة بعد ذلك لم ترد أي اشارة إلى أنهما يشيران إلى عبادة شيء واحد.[٢٩]

٣ — يرى كوك أنه يحتمل أن تقرن اللات بنجم في السماء قد يقصد به الألهة القمر وذلك في مقابل Dusra إلاه الشمس.[٣٠] ويرى وينيت كذلك أن اللات هي إلاهة القمر، لأن القمر في شمال الجزيرة العربية مؤنث، والذي يدل على ذكل ما يلي:

(أ) أنه كان يطلق على القمر في أحد المراكز بشمال الجزيرة اسم سيناء وهي صيغة مؤنثة تقابل سين وهي صيغة مذكرة.

(ب) عُثِرَ على أحد العملات في غزة ترجع إلى عام ١٣١م، ويظهر فيها القمر على أنه إلاهة.

---

(١٩) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١٢٤.
(٢٠) Winnet, *The Daughters*, p. 126.
(٢١) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١١٥.
(٢٢) Winnet, *The Daughters*, p. 124.
(٢٣) Winnet, *The Daughters*, p. 124.
(٢٤) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١٢٤.
(٢٥) Winnet, *The Daughters*, p. 124.
(٢٦) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١٢٥.
(٢٧) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١٢٥.
(٢٨) Winnet, *The Daughters*, p. 124.
(٢٩) Cook, *A Text Book of North - Semitic Inscription*, p. 222.
(٣٠) Winnet, *The Daughters*, pp. 125 - 126.

(ج) عُثِرَ في الاكتشافات الأثرية الفلسطينية على عدد كبير من تماثيل صغيرة لها قرون عشترت ويرى البروفسور تايلر Tayler أن هذه التماثيل صورة الالهة القمر.

ويقول وينيت إن الالهة التي تقرن بكوكب الزهرة Venus هي العزّى. وقال إن عبادة فينوس Venus قديمة، بدليل أن هيرودوت أشار في الكتاب الأول فقرة ١٠٥ إلى أن معبد أفروديت Aphrodite أي فينوس عشترت في عسقلان أقدم معبد لهذه الالهة.(٣١)

الموطن الأصلي للات

١ ــ يرى دوس أن الأنباط اهتموا بعبادة اللات اهتماماً كبيراً، ويبدو أن الذي أسس معبد اللات في صلخد هو روجو الأول، ولما انتشرت عبادة اللات أسس حفيده روجو الثاني معبدا يليق بمكانة الالهة اللات.

واستنتج دوسو من النص النبطي الذي عثر أنوليتمان عليه والذي جاء فيه وصف اللات بأنها ربّة المكان استنتج بأننا بصدد تركيب وارد إلى الشام ومن ثم قال دوسو ان اللات دخلت حوران بواسطة النبطيين والصفويين.(٣٢)

يفهم من كلام دوسو السابق أن اللات عبدت عند الأنباط وكانت شائعة النفوذ عندهم وكان الأنباط يهتمون بها كثيرا وأقاموا لها معابد كثيرة. وأن عبادتها انتقلت من الأنباط إلى السوريين.

٢ ــ يرى وينيت أن الموطن الأصلي للات هو سوريا، واعتمد في ذلك على أن اسم اللات ورد بكثرة في النقوش الصفوية القادمة من سوريا انتشرت عبادة اللات إلى حوران والنبط وبعد ذلك انتقلت إلى اليمن.(٣٣) وأؤيد رأى دوسو الذي يرى أن الموطن الأصلي للات هو بلاد النبط لأننا كما سنرى فيما بعد نلاحظ أن الصيغة تحتوي على أداة التعريف العربية ولم يستطع وينيت إثبات العكس.

اللات في كتابات هيرودوت

١ ــ ذكر هيرودوت في الفقرة الواحدة والثلاثين بعد المائة من الكتاب الأول، أن الفرس أخذوا من الأشوريين والعرب عبادة الربة أفروديتي ـ أورانيا، وأن الأشوريين يسمونها Mu itta (Molitta : موليتّا) وأن العرب يعرفونها باسم Mithra مثرا.

وذكر في الفقرة الثامنة من الكتاب الثالث أن عرب سيناء عبدوا إلاهة تسمى al' ilat) Ayiyat الإِلات).(٣٤)

ومن هذين النصين نلاحظ أن هيرودوت نسب إلى العرب صيغتين لَلإلهة التي كانوا يعبدونها في عصره، أي في القرن الخامس ق.م. هما al'ilat' (ألئيلات) و al'itta (أليئتّا)، والسؤال الآن: هل هاتان الصيغتان مختلفتان، أم أنهما صيغة واحدة، ثم طرأ تحريف على إحداهما فتغيرت عن الأخرى

---

(٣١) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٣٢) Winnet, *The Daughters*.

(٣٣) Herodotus, Translated by J. E. Powell (Oxford, 1949).

وقد اعترض الدكتور خالد الناشف في مقالة له بعنوان:

«هيرودوت واللات»، العصور، المجلد الخامس، الجزء الثاني (١٩٩٠م)، ص ص ٤١١ ـ ٤١٢ على وجود صيغة Al' itta في المطبوعات الحديثة لكتاب هيرودوت، والصيغة السائدة في الفقرتين المشار إليهما هي صيغة al 'ilat' :٤١١، إلا أنه عاد في ص ٤١٦ ونقل عن Dr. Peter Hogenman بأن صيغة 'alitta موجودة في المخطوطات القديمة لكتاب هيرودوت، ثم حدث ان روزين وهو مؤلف آخر نشرة لكتاب هيرودوت قد رجح al 'itta واستبعد صيغة al 'itta وأن سيلدن هو اول من اقترح al ' ilat بدلا من al 'itta

ويتضح من خلال المؤلف نفسه أنه لا معنى إطلاقا للتشكيك في وجود صيغتين في كتاب هيرودوت، ويبدو أن الدكتور خالد ظن أنه حدث تصحيف في نسخ كتاب هيرودوت في حين أن الباحثين يرون أن هيرودوت استخدم الصيغتين معا، راجع وينيت (Winnett, *The Daughters*, p. 123)

(٣٤) يشير القوسان المعقوفان إلى اختيار حركة من حركتي الفتحة او الكسرة، اي ان الصيغة قد تكون إلاه او الاه.

بقدر التحريف الذي أصابها مع اعتبار أن هيرودوت يوناني، ليست لغته الأم العربية ولا الأشورية، وأنه ينقل سماعا، وقد يخطيء في هذا السماع.

٢ ـ صيغ الآلهة في اللغات السامية الشمالية

(أ) **اللغات السامية الشمالية قسمان**: شرقي، وغربي. يشمل القسم الشرقي اللغة الأكادية أي البابلية والأشورية. ويشمل القسم الغربي مجموعتين من اللغات هما المجموعة الأرامية والمجموعة الكنعانية. تضم المجموعة الأرامية عدة لغات هي الأرامية القديمة وأرامية الدولة والأرامية الغربيةوالأرامية الشرقية. وتضم الأرامية الغربية عدة لهجات هي رَامية العهد القديم والأرامية الفلسطينية والترجوم والسامرية. وتضم الأرامية الشرقيةعدة لهجات هي السريانية والمندعية.

(ب) عرفت اللغات السامية الشمالية صيغتين للإلهة هما el' و alaha'.

وقد درس الباحثون هاتين الصيغتين دراسة تأصيلية Etymological study بهدف الوصول إلى تحديد مادة كل منهما، ولكن يبدو أن هذا الهدف صعب تحقيقه، ذلك أن الأمر معقد للغاية، وسأحاول فيما يلي عرض آرائهم في ذلك.

(ج) **الرأي الأول**: يقول جزينيوس Gsenious إن أصحاب هذا الرأي يرجعون الصيغتين إلى مادتين مختلفتين اذ laha [à][٣٥]ترجع إلى مادة أَلِه أو وَلِهَ، أما el' فترجع إلى â wil[٣٦]ثم تحولت إلى ēl' . وأستطيع أن اتتبع خطوات هذا التحول كالآتي:

* سقطت الواو الواقعة بين الفتحة والكسرة فأصبحت الصيغة a il'
* تحولت الحركة المزدوجة ai إلى حركة الإمالة e فأصبحت الصيغة ēl' .
* تسبب وقوع النبر في إطالة الحركة القصيرة فأصبحت الصيغة ēl'
* صيغة ēl' صفة مشبهة وتعني: المُقَدَّم. الأول. القوى. العظيم.

من هذه الأخيرة استعمل حمورابي كلمة a wil' بمعنى الرجل العظيم في قومه، أي الرجل الحر في مقابل طبقة السوقة وطبقة العبيد.

الرأي الثاني: يقول جزينيوس إن أصحاب هذا الرأي يَرون أن ēl' و alaha' يرجعان إلى مادة واحدة، هي مادة ēl' المشتقة من w.l'. وأن صيغة el' صيغة سامية قديمة، ولما كانت هذه الصيغة قد أخذت الشكل الثنائي، فقد تحولت إلى صيغة ثلاثية بواسطة إضافة حرف ثالث هو الهاء، بسبب الحمل على أُمّ وأُمَّهَات في العربية، و em' و emm ā hōt' في العبرية، هذا يعني أن صيغة el' جمعت أولا على ilō' hīm ثم اشتق من الجمع مفرد جديد بحذف أداة الجمع فتنشأ ilo wwah' التي أصبحت إله، ثم اشتق من هذا المفرد فعل ثلاثي هو a la ha'

---

(٣٥) Gesenius, *The Lexicon of the old Testament, The root*, 7.1.H. p.41.

ومما يذكر أن الراي الذي أورده جزينيوس Gesenius من احتمال أن يكون أصل إلاه وَلِه يشبه الراي الذي أورده أبو الهيثم الرازي، فقد قال إن أصل إلاه ولاه فقلبت الواو همزة، كما قالوا للوِشاح إشاح وللوِجاح إجاح وهو الستر، ومعنى وِلاه أن الخلق يَوْلَهُون إليه في حوائجهم ويضرعون إليه فيما يصيبهم ويفزعون اليه في كل ما ينوبهم، كما يَوْلَه كل طفل إلى أمه. ويرى الخليل وسيبويه في أحد رأييه أن الهمزة في إلاه أصلية، ومن ثم يرى أن صيغة إلاه هي الصيغة الأصلية، ويرى سيبويه في رأى آخر أن الصيغة الأصلية لَهَىَ، ثم حدث قلب مكاني فأصبحت الصفة لَيهَ، ثم قلب الياء ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها فأصبحت الصيغة لاَه ثم عرفت فأصبحت الله (سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون (بيروت، ١٩٨٣م)، جـ ٢، ص ١٩٥، جـ ٣، ص ٤٩٨).

(٣٦) Gsenius, *The Lexicon, The root I. H.*

٣ ــ توزيــع صيغتي إِلاه وايــل ʼilah , ʼēl على اللغات السامية:

(أ) صيــغ مــادة ʼēl

الأشوريـــة		الأراميـــة		الفينيقيـــة		النبطية		السامريـــة		العبريـــة		اللحيانية	السبئية
مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث		
ilum	ilum molita	—	—	el / ʼe lan	ʼelat	ʼel	elat	ʼel	—	ʼel	—	ʼil	ʼel

ملحوظـــــات :

* وردت صيغــة ʼil (um) في الأشورية واللحيانية، واحتفظت هاتان اللغتان بحركة الكسرة القصيرة الصريحة، ووردت صيغة elʼ في الفنيقية والعبرية والسامرية والنبطية واللحيانية والسبئية وصيغة ʼil أقــدم من elʼ لأن الحــركة القصيرة الصريحة أقدم من المالة.
* استخــدمت ʼil في اللحيــانيــة في تكــوين أسماء الاعلام نحو mar' - il Sa ʻd - ʼil, iyas - ʼil, ʻa m - ʼil, ʻazz - il [٣٧]
* يلاحــظ شيــوع الصيغة ʼēl في اللغات السامية الشمالية، من هنا أرجع أنها تنسب إلى اللغات السامية الشمالية، ثم انتقلت إلى السبئية. وهناك من الباحثين من يرى أن صيغة ʼēl مقصورة على اللغـات السامية الشمالية الشرقية دون اللغات الســاميــة الشمــالية الغربية.[٣٨] وأرى أن هذا الرأي يتعارض مع وجود ʼil في اللحيانية و ʼēl في الفينيقيــة، وهمــا اللغــات الســاميــة الشمــالية الغربية، ومن ثم أُأيد رأي جزينيوس الذي يرى أن صيغــة ʼēl صيغــة ثنائية ترجع إلى السامية الأم. واحتفــظت الأكــادية بهــذا الأصــل كما احتفـظت به الفينيقيــة والعبـريــة والســامـرية والنبطية واللحيانية، ثم انتقلت إلى صيغة ثلاثية بواسطة إضافة مقطع جديد.[٣٩]
* وردت الصيغــة المؤنثة في الأشورية والفينيقية والنبــطية. واحتفظت الأشورية بصيغة التأنيث الأساسية التي تتكون من المذكر + تاء التأنيث أي ʼil + T فتصبح الصيغة ʼilt (أما الضمة والميم فهما يمثلان حركة الإعراب والتمويم Mimation الذي يقابل التنوين في العربية).

ويــلاحــظ أن صيغــة التــأنيث في الفينيقيــة والنبطية تتكون من الاسم المذكر + أداة التأنيث at ، ويلاحظ هنا وجود حركة الفتحة ملازمة لتاء التأنيث، التي كانت بمفردها تدل على التأنيث في الآشورية.

* أورد هيرودوت صيــغــة Molitta ونسبهــا إلى الأشوريين. وأرى أن هذه الصيغة لا تمثل النطق السامي لها، وأنما تمثل نطق هيرودوت. ويبدو أنه متأثر في هذا النطق بالصيغة Myṭra التي نسبها

---

(٣٧) Werner Caskel, Arbeits - gemeinschaft Fur Forscttung Des landndes Nor DRH ein - west faıem S. 64.

(٣٨) صاحب هذا الرأى هو الدكتــور خالد النــاشف (هــيرودوت واللات، ٤١٥) ويقــول فيــه: وممــا تجدر الإشارة اليه في هذا الصدد أن الفرع الشرقي للغات السامية لا يعرف الهاء في هذه الكلمة. أما المجموعة السامية الشمالية الغربية فتظهر في الكلمة الهاء، كما هو الحال بالنسبة إلى العبرية والآرامية.

(٣٩) يفترض فريق من اللغويين أن الثنائية أقدم من الثلاثية. وهناك فريق آخر يرى أن الجذور الثنائية والثلاثية توجد جنبا إلى جنب في سائر اللغــات الســاميــة (راجــع هنــرى فليش. العــربية الفصحى، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط ٢ (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٣م)، ص ٢٠).

إلى الفرس، وذلك لأنه طرأ تحريف في هذه الصيغة عن الصيغة الآشورية. يتمثل هذا التحريف في وجود لاصقة PreFix الـ mo وهي بسبب الحمل على my في الفارسية وهي تنطق mo وفي حذف الهمزة وهي فونيم في الآشورية. يقول وينيت:

«يبدو أن موليتا في ذهن هيرودوت عند الأشوريين تقابل العُزَّى عن العرب»[٤٠] وأرى أنه اعتمد في هذا على تشابه الاثنيت في الضم في بداية المقطع في كل منهما، أي: Uzza molitta ، ويرى بعض الباحثين في الساميات أنها اسم مفعول تقابل في العربية مُؤَلَّهة بمعنى معبودة.[٤١]

(ب) صيغ مادة 'a la ha

الأرامية		السريانية		العبرية		النبطية		اللحيانية		السبئية		العربية	
مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث
—	—	ellāhā	ell hātā	ilohīm	—	—	'L-h-t	ilah lah	lat	'.l.h.	—	'ilaahum	'ilaahatun

ملحوظات

الصيغة في الآرامية واللحيانية والعربية 'ilāh والصيغة في السريانية 'all'hā وأرى أن الصيغة السريانية احتفظت بالصيغة الأقدم لما يلي:-

* إذا حاولنا إعادة بناء Reconstruction الصيغة السريانية باستخدام القوانين الاشتقاقية فإن هذا يتطلب منا استبعاد العنصر [a] وهو مورفيم يدل على حالة التفخيم Em phatic - state وهو يقابل مورفيم التعريف في العربية والعبرية، إلا أنه فقد معنى التعريف لكثرة استخدامه وأصبح شائعا في كل الأسماء سواء أكانت نكرة أم معرفة، ويتطلب إعادة البناء كذلك استبعاد تكرار اللام (تضعيف اللام)، لأن من قواعد اللغة السريانية غلق المقطع إذا كانت حركته قصيرة، وغلق المقطع يقتضي صامتا غير متبوع بحركة، وتلجأ اللغة السريانية إلى تكرار الصامت الواقع بعد حركة قصيرة لغلق هذا المقطع ولبداية مقطع جديد تكون حركته طويلة، ومن ثم تكون الصيغة الأساسية الناتجة بعد عملية إعادة البناء هي 'alāh وهذه الصيغة إذا قوبلت بالفعل 'alaha تكون مصدرا، ذلك أن صيغة المصدر القديمة في اللغات السامية تشتق من الماضي بعد إطالة حركة عينه، ولما كانت حركة العين فتحة قصيرة، فقد طالت في المصدر إلى الفتحة الطويلة، ومن ثم نتج الصيغة alaah وهي مصدر بمعنى المفعول، أي المعبود، ثم خولفت الفتحة القصيرة الواقعة بعد الهمزة إلى كسرة قصيرة، لكراهة توالي حركات متحدة الطابع في مقطعين متتاليين، وهكذا نشأت الصيغة 'ilaah وهي التي نلاحظها في العربية، وهي الصيغة التي يجب أن تقرأ في اللحيانية، ثم تحولت الكسرة الصريحة إلى ممالة فنشأت 'ellaha وهي التي نلاحظها في السريانية، أما في العبرية فقد تحولت حركة الفتحة الطويلة إلى ضمة طويلة ممالة، فأصبحت الصيغة 'ilooh ثم تحولت إلى 'ilowwah طبقا للقوانين الصوتية في هذه اللغة.

---

(٤٠) Winnett, *The Daughters*, p.122.

(٤١) لقدم هذه المادة تعرضت لعوامل تعرية على الألسنة من ذلك فقدان الهمزة في كلمة لاهوت، وأصلها الإلاهوت.

* استخدمت الصيغة ilah' في اللحيانية في تكوين أسماء الأعلام التي من أصل أجنبي مثل، ilāh-lata' واستخدم اللحيانيون إلى جانب إلاه ilāh' الصيغة المختصرة المشتقة منه وهي lāh[٤٢]، وتدخل هذه الصيغة في تركيب أسماء الأعلام نحو Hā ni : lah, Taim - lah mar' lah, wada - lah, n sa ؛ lah sa 'd - lah zaid -lah'wada - lah [٤٣]
ويقول كاسيكل Cascel إن lāh قد استعاره اللحيانيون من الأنباط ومن ثم فهو ليس إلاها وطنيا.[٤٤]

* اللغات التي استخدمت صيغة المؤنث هي السريانية والنبطية واللحيانية والعربية، وكما علمنا في الفقرة السابقة فإن الصيغة السريانية أقدم من غيرها في سائر اللغات السامية، ومن ثم تكون الصيغة allah 'ta' أقدم من الصيغة ilā' hatun ، ولما كانت النبطية متأثرة بالآرامية والسريانية بشكل عام، أرجح أن يكون نطق الصيغة فيها alla hat'.

* استخدمت اللحيانية الصيغة lā t وهي صيغة منكرة خالية من أداة التعريف (han) ، ويرى كاسكيل Cascel أن (lat) ليس هو المقابل المؤنث لـ (lah) ولكنه استعير هو الآخر من الأنباط.[٤٥]

دراسة al' ilat' و al'itta' :

١ ــ صيغة al 'ilat'

ربط الباحثون بين صيغة al ' ilat' وصيغة allat' وهي اسم الالاهة التي رأينا أنها سادت في شمالي الجزيرة العربية. ويرى كوك Cooke [٤٦] أن صيغة al 'ilat' تمثل الأصل الذي تطور إلى allat' ويرى كون ودوسو[٤٧] أن صيغة al 'ilat متطورة عن al 'ilahat ومن ثم يمكن لنا أن نعيد ترتيب التطورات التي طرأت على هذه الصيغة كالآتي:ـ

(أ) الأصل هو al 'ilahat

(ب) تطور هذا الأصل إلى الصيغة التي وردت عند هيرودوت وهي al 'ilat

(جـ) تطورت صيغة al 'ilat إلى اللات allat'

إذا صح هذا الترتيب يمكن لنا أن نفهم تعبير دوسو وكوك بأن صيغة (الـ + إلات) تمثل إدغاما وسطا بين al 'ilahat وصيغة ilahat' إذا رجعنا إلى الصيغة الأصلية وهي صيغة al 'ilahat فانها تتكون كما يرى جمهور الباحثين من أداة التعريف ال + الصيغة المؤنثة ilahat وأرى أنه طرأت على هذه الصيغة التغيرات الآتية:

- حذفت الهاء والفتحة التي تتلوها فأصبحت الصيغة al 'ilat
- سهلت الهمزة المتبوعة بالكسرة أي حذفت، فالتقى صوتا اللام، أي لام أداة التعريف العربية وهي ساكنة واللام الثانية وهي عين الكلمة في الأصل وهي اللام المتبوعة بالحركة الطويلة، ومن ثم أصبحت الصيغة allat'.

يرى جمهور الباحثين أن العرب الذين يقصدهم هيرودوت بأنهم عبدوا الإلاهة al' ilat هم عرب سيناء، ومن هنا استنتجوا أن هؤلاء العرب استخدموا أداة التعريف (ال) وذلك في القرن الخامس ق.م. واستدلوا على هذا الاستخدام القديم لـ (ال) بورود هذه الأداة في العهد القديم نحو elgābiš' الجبس (حزقيال ١٣/١١ و ١٣) algumīm' خشب الصندل (أخبار الأيام ثان ٢/٧) almuggīm' (ملوك أول ١٠/١١ و١٢) alqum' القوم (أمثال ٣٠/٢١).[٤٨]

---

(٤٢) راجع Caskel S- 46 وأرى أن المؤلف يريد أن يقول إن الهمزة في ilah' حذفت. والحذف هنا يكون على غير قياس لأن الهمزة الت تحذف أو تخفف تقع في وسط الكلمة أو في آخرها.

(٤٣) Arbeits Caskel, Gremein Schaft Fur Forscttung; Des Jands Nov Drhein-west falen, 546.

(٤٤) Caskel, *Arbeits - Gemein Schaft* S. 46.

(٤٥) Caskel, *Arbeits0* Gremein Schaft S. 46.

(٤٦) Cooke, *A Text Book of North Semitic Inscription*, p. 222.

(٤٧) يرى د. خالد الناشف في مقاله السابق الذكر، ص ٤١١ أن حذف الهاء وحركة الفتحة التالية لها إدغام أدى إلى التعويض عنه بإطالة الحركة السابقة والذي أراه أن الذي حدث هنا هو حذف مقطع بالكامل وليس إدغاما. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يحدث تعويض بإطالة الحركة السابقة لأن الحركة السابقة طويلة في الأصل، كما أثبتُّ ذلك في الفقرة السابقة. فالصيغة مصدر وتمتاز المصادر القديمة بطول حركة العين فيها.

(٤٨) Gesenius, *The Root of '.I.H.*

يقول جرينيوس إن العبريين اقتبسوا هذه الكلمات من بعض القبائل التي تتكلم العربية والتي يحتمل أن تكون قد استقرت في سيناء في وقت مبكر للغاية[٤٩]، ويقول كوك إن هذه الأمثلة تعد مثالا لقدم (ال)[٥٠] وأنها قد ترجع إلى فترة أقدم من تلك التي أشار هيرودوت إليها. وقد استنبط بعض الباحثين مما سبق أن إلاه العبريين yahweh يحتمل أن يكون قد جاء من سيناء.[٥١]

وقد شك وينيت في أن تكون أل في بداية allat' هي أداة التعريف (ال) العربية يقول في ذلك: «ولكن عرب سيناء لم يكونوا من نوع الناس الذين نتوقع أنهم ابتكروا Alaah و Allaat معا، ذلك أن allaat قد وردت بكثرة في النقوش الصفوية القادمة من سوريا، من هنا يرى وينيت أن الموطن الأصلي لـ allat هو سوريا، كما أوضحت من قبل، ومن ثم يرى أنها ناشئة عن allaah' ta وأن allah مشتقة من all' hā الارامية، ثم عرّبت هاتان الكلمتان باسقاط أداة التفخيم ā.[٥٢]

ثم عاد وينيت في الكتاب الذي أصدره مع ريد Red في عام ١٩٧٠م، وهو كتاب Ancient records from North Arabia «وثائق قديمة من شمال شبه الجزيرة العربية» وقال إن صيغة اللات في اللغات التي تستخدم أداة التعريف han تصبح han 'ilat ووردت هذه الصيغة في نقش رّامي على إناء من الفضة قدمه قينو بن جشم qaino bar gešem إلى الإلاهة في معبدها بتل المسخوطة (وهو على بعد اثنى عشر ميلا غربي الإسماعيلية بمصر).

ثم استطرد يقول: «أما في المناطق التي تستخدم أداة التعريف (ال) فإن الصيغة المستخدمة تكون allat' وهي ناشئة عن al 'ilat' وهذا يعني كما أرى أن al' هي أداة التعريف العربية وأن ilat هي مادة سامية تشترك فيها العربية والآرامية، وان كان وينيت يرجح أنها مادة آرامية ثم عرّبت.[٥٣]

٢ ـ صيغة 'al itta

لقد رأينا أن صيغة al 'itta قد وردت عند هيرودوت في الكتاب الأول فقط فقرة ١٣١ وقد وصف ديسّو هذه الصيغة بأنها خطأ وترجع إلى القياس الخاطيء على molitta أي أن صيغة al' itta منحرفة عن al' ilat بسبب حملها على molitta وهذا هو السر في تحويل اللام إلى تاء فأصبحت al' itat ثم حذفت الفتحة لوقوعها بين صامتين مثلين فأصبحت الصيغة al' itt ثم أضيفت الفتحة المتطرفة حملا على الفتحة في molitta فأصبحت al' itta ثم تساءل ديسو: «أي الصورتين نأخذ بهما؟ أهي al' itta أو al' ilat وأيهما أصبحت اللات؟ إننا ـ كما سنرى فيما بعد ـ نضطر إلى قبول هذا الفرض لو كانت هذه الإلاهة قد ورد ذكرها في النصوص السبئية على صورة elat' واستعيرت هذه الصورة دون أدنى ريب من لهجات شمال جزيرة العرب».[٥٤]

يريد ديسو أن يقول: هل اللات ناشئة عن al' ilat

(٤٩) Gesenius, *The Root of '.I.H.*, Cooke, *A Text Book of North Semitic Inscription*, p.222.

(٥٠) Cooke, *A Text book of North - Semitic Inscriptions*, p.222.

(٥١) Gesenius, *The Lexicon, The Root 'I.H.*

(٥٢) Winnett, *The Daughters*, p. 122.

(٥٣) Winnett and Red, *Ancient Records from North Arabia* (Toronto, 1970), p. 170.

(٥٤) يرى د. خالد الناشف في مقاله الذي سبق الإشارة إليه ان ترجمة الاستاذ عبد الحميد الدواخلي قد وقع في خطأين هما:

(أ) ان ديسو الغى من الأساس قراءة Alitta (والصواب al 'itta' لانه يعتبرها خطأ في النسخ، واوضح في الهامش ـ في النسخة الفرنسية ـ أن الناسخ هو الذي تأثر بكلمة Molitta في النص فنسخ Alitta

(ب) ان ديسو لم يرجح بين صورتين al 'ilat' وانه عندما تساءل فإنما كان يتساءل عن إدغام وقع فعلا في زمن هيرودوت، وذهب د. خالد إلى أن ديسو يقصد حذف الهمزة المكسورة الذي ادى إلى التقاء صوتي اللام، ولا يقصد باي حال من الاحوال إدغاما من إدغامين طرأ على الكلمة، وهما حذف الهاء المفتوحة وحذف الهمزة المكسورة ثم استنتج بعد ذلك ان صيغة al 'ilat' خطأ في النسخ ايضا، وأن الصيغة السائدة في زمن هيرودوت هي اللات.

وأرى ان الترجمة العربية التي قام بها استاذي عبد الحميد الدواخلي ـ يرحمه الله ـ قد صوّرت لنا القضية بشكل ينسجم مع قوانين التطور اللغوي من ناحية ومع ما رآه باحثون آخرون من تفسير لنص هيرودوت من ناحية ثانية، ومع ما اورده د. الناشف =

أم عن al' itta و أيهما يقابل اللاتي التي انتشرت عبادتها في شمالي الجزيرة العربية ثم انتقلت إلى اليمن بدليل أنها وردت في النقوش السبئية ؟

يلاحظ أن ديسو لم يجب عن هذا التساؤل بل ترك القضية معلقة.

ناقش هذه القضية وينيت، وكأنه كما يقول د. مصطفى كمال عبد العليم قد أجاب عن سؤال ديسو دون أن يشير إليه(٥٥) وبدأ ذلك بترتيب القضية كالآتي:ـــ

(أ) هنا علاقة بين al' ilat و allāt' كما يذهب جمهور الباحثين.

(ب) تقابل صيغة al' itta' صيغة al'ilāt' من ناحية.

(جـ) تقابل صيغة al' itta صيغة molitta الآشورية من ناحية أخرى.

(د)تقابل صيغة molitta صيغة al'u zza'من ناحية ثالثة.

ثم استنتج وينيت مما سبق مايلي:ـــ

(أ) al 'itta تقابل Al 'uzza

(ب) al 'ilat تقابل al 'uzza لأنها تقابل al 'itta

(جـ) ولما كان الباحثون يربطون بين al 'ilat و allat فان اللات التي يقصدها هيرودوت ليست هي اللات التي يعرفها الباحثون والتي انتشرت في شمالي الجزيرة العربية، وإنما هي العزى، وهذا يعني عبادة كوكب الزهرة أي Venus.

وهكذا انتهى وينيت إلى أن al 'ilat عند هيرودوت تقابل العزّي أي أنهما مترادفان.

ويرى د. مصطفى كمال عبد العليم al 'ilat أو al 'itta إنما هي الاهة واحدة تقابل الإلهة أفروديتي أورانيا، أي أنه توصل إلى نتيجة تطابق تلك التي توصل إليها وينيت.

= في نهاية مقالته من ناحية ثالثة، وأوضح ذلك كالآتي:

● استخدم ديسو في الهامش المذكور لوصف نص هيرودوت a soufert : أي يحتوي على تغيير، ولم يُعْزَ هذا التغيير إلى شخص بعينه، ثم أضاف ديسو يقول: ومن مظاهر هذا التغيير ان اسم Mithra قد ورد على انه إلاهة والصيغة الخطأ al 'itta' ترجع إلى الحمل على صيغة molitta التي وردت في الجملة نفسها.

إن اللغوي يفهم من الكلام السابق ان التغيير يعزى إلى هيرودوت وليس إلى الناسخ، لانه لو عزى إلى الناسخ لوصفه بالتحريف لأن هذا المصطلح هو الذي يدل على حدوث خطأ من الكاتب، اما مصطلح التغير فيعني حدوث تطور في الصيغة او انحراف فيها، ويرجع إلى الحمل على صيغة اخرى او إلى القياس على صيغة أخرى، والذي يقوم بذلك هو المتحدث نفسه، والذي يدل على صحة ماذهبتُ اليه هو ان وينيت عزى هذا التغيير صراحة إلى هيرودوت. ولو اخذنا بمفهوم د. الناشف لوجب علينا الاستنتاج بأن الناسخ هو الذي سمع Molitta في حين انه لابد ان يكون متأخرا عن هيرودوت. شيء آخر وهو لو كان الخطأ قد وقع من الناسخ لكان قد اتضح من اختلاف النسخ المخطوطة، اما وان النسخ المخطوطة كما يقول د. الناشف نقلا عن هوجمان تتفق في ذكر الصيغتين فلا يكون الناسخ مسؤلا عن هذه الصيغة.

واشار د. الناشف في مقاله ايضا إلى ان الدكتور فوزي زيادين درس صيغة al 'itta' واثبت انها ليست عربية او سامية لأنها لا تدل على معنى الارتفاع في الساميات ولا تدل على المعنى الذي يتناسب مع كلمة اورانيا إلا إذا أفترضنا انها نطق اعجمي لـ «عِلّيَتَا» اي العالية وهي التي تنسجم مع أفروديت العليا. الم يكن هذا يعني أنه اعتد بصيغة a l'itta' وكيف يعتد بالصيغة وهي تصحيف ؟ اما بخصوص تساؤل ديسو عن اي الصيغتين نأخذ بهما، فلقد ورد هذا النص صراحة في النسخة الفرنسية، إنه يقول:

Les des graphics Al litta et 'Al 'ilat serauent a corriger en Allat

والسياق يقتضي ذلك لأن الباحثين كما يقول وينيت يربطون بين الصيغتين اللتين أوردهما هيرودوت وبين اللات التي انتشرت عبادتها في شمالي الجزيرة العربية ثم انتقلت إلى اليمن.

(٥٥) مصطفى كمال عبد العليم، «هيرودوت يتحدث عن العرب وبلادهم»، العصور، المجلد الثاني الجزء الأول (١٩٨٧م)، ص ص ٢٠ ـ ٢١.

العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، ٣٧ ـ ٧٢ (١٩٩٣م).

الفوانيس الرومانية في الإسكندرية
دراسة تحليلية لمجموعة المتحف اليوناني الروماني

للدكتور عـزت زكـي حامـد قـادوس

ملخص البحث : يحتفظ المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية بمجموعة نادرة من الفوانيس الفخارية وعددها ثلاث وثلاثون قطعة كلها من التراكوتا. وقد صممت هذه الفوانيس في اشكال مختلفة تعبر عن بعض مظاهر الحياة الدينية في مصر في العصر الروماني. وقد تناول البحث الآراء المختلفة نحو وظيفة هذه الفوانيس التي يقول البعض انها تستخدم للإضاءة إلا انه بعد مناقشة كل الامور المتعلقة بذلك اثبت البحث أن هذه الفوانيس لم تكن للاضاءة وإنما كانت فوانيس رمزية تستعمل في الاحتفالات باعياد الإلهة نيت في سليس التي اقترنت بالإلهة اثينا في العصر الهلينستي ثم بالإلهة مينرفا في العصر الروماني، والدليل على ذلك الكم الكبير من الفوانيس التي تحمل صورة هذه الإلهة وكذلك وجود شعلتين على جانبي كل الفوانيس التي تصور منظراً من الأمام.

وتنقسم مجموعة هذه الفوانيس الرومانية في المتحف اليوناني الروماني إلى أربع مجموعات وفقا لأشكالها.

المجموعة الأولى وعددها ١٨ فانوساً صنعت عن طريق القوالب وهي فوانيس اسطوانية مسلوبة إلى أسفل يكتنفها من الجانبين بروز على هيئة شعلة وذات اغطيات مسنمة، وعلى الواجهة الامامية لمعظم هذه الفوانيس صورت مناظر لآلهة. وتضم المجموعة الثانية أربعة فوانيس نفذت على هيئة اسطوانية الشكل غطيت باشكال مخروطية وقد صنعت على العجلة الفخارية. أما المجموعة الثالثة فتضم اربعة فوانيس شكلت على هيئة مبان بسيطة معظمها على شكل معابد، وفي المجموعة الرابعة نجد سبعة فوانيس شكلت على هيئة مبان معمارية مختلفة فبعضها يمثل شكل منار الإسكندرية وبعضها على شكل منازل او معابد ذات تاثيرات مصرية او رومانية.

وترجع هذه الفوانيس في تاريخها إلى نهاية القرن الأول الميلادي وحتى ما بعد منتصف القرن الثاني الميلادي.

يحتفظ المتحف اليوناني الروماني الإسكندرية بمجموعة نادرة من الفوانيس الفخارية التي تعد من الوسائل التي تتصل بعملية الإضاءة بمصر إبان العصر الروماني.

وتأتي اهمية هذه المجموعة من الفوانيس من أنها تضم ثلاث وثلاثين قطعة كلها من التراكوتا التي صممت على أشكال مختلفة تعبر في مجموعها عن بعض مظاهر من الحياة الدينية في مصر في العصر الروماني إلى جانب ما تضمه تلك المجموعة من عناصر فنية نفذت وفق أساليب زخرفية غاية في الدقة.

ومن الجدير بالذكر أن مجموعة الفوانيس الفخارية المحفوظة في المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية لم يسبق دراستها أو نشرها من قبل اللهم إلا إشارة نوه إليها الباحث دوناند Dunand (١) عندما تعرض في مقالته عن فوانيس مجموعة فوكية Fouquet لذكر بعض القطع من مجموعة الإسكندرية على سبيل المقارنة فقط عند دراسته لمجموعة الفوانيس الفخارية المحفوظة بمتحف اللوفر بباريس، مما شحذ في نفسي الرغبة لدراسة هذه المجموعة دراسة علمية فنية وإلقاء الضوء على أهميتها الأثرية والفنية. وقد ساعدني كثيراً بقاء معظم قطع هذه المجموعة من الفوانيس بحالة جيدة مما قد يسهل وضع تصنيف فني جديد لها.(٢)

وقبل أن نشرع في دراسة هذه المجموعة من الناحية الفنية يجدر بنا أن نلقي الضوء على أهم الآراء التي تداولها الباحثون حول ماهية تلك الفوانيس. ومن أهم هذه الآراء مايلي:

يرى بردريزية(٣) Perdrizet وكذلك برشيا Bréccia (٤) أن هذه الفوانيس كانت تستخدم في عملية الإضاءة حيث يحملها العبيد أمام أسيادهم، ونفس هذا الرأي قد قال به دوناند Dunand (٥) الذي استدل على ذلك باقتصار جسم الفانوس على فتحة واحدة. وعلى الرغم من أن هذا الرأي هو الشائع لدى معظم الباحثين إلا أنني أجد أن هذا الرأي لا يمكن الأخذ به إلا بعد أن نضع أجابات شافية لتساؤلات ما تفرضها طبيعة البحث والتي لمستها من واقع فحصي الدقيق لتلك المجموعة ومن أهم تلك التساؤلات:

أولا: فيما يتناول الكيفية التي كانت تتم بها إضاءة تلك الفوانيس: هل كانت طريقة إضاءة تلك الفوانيس تتم عن طريق وضع خزانات صغيرة للزيت صممت في قاعدة الفانوس تملأ عند الحاجة ؟ أم كانت توضع داخل تجاويف تلك الفوانيس مسارج معدنية أو فخارية صغيرة تملأ هي الأخرى بالزيت عند الحاجة ؟.

ثانيا: إذا افترضنا مسبقاً صحة أحد هذين الاستفسارين فسيبرز عندنا استفسار ثالث يتمثل في عدم وجود أي دلائل مادية تنبيء عن وجود احتراق داخلي في تلك الفوانيس، هذا إلى جانب أن حجم فتحات الفوانيس الصغيرة لا تسمح في كثير من الأحيان بدخول إحدى المسارج المتعارف عليها، علما بأن قواعد الفوانيس الداخلية كافة لا تحتوي على تجاويف تسمح بارتكاز أحجام المسارج جميعها.

تلك هي مجموعة الاستفسارات التي تجاوزها دوناند Dunand وغيره ولم يحاول أحد من الباحثين أن يناقش هذه التساؤلات، اللهم إلا فيبر Weber (٦) الذي يعتبر أول من نوه إلى الإيحاء الإلهي الذي تعطيه هذه الفوانيس في وجود أشكال المعابد اليونانية والمصرية، وهذا الرأي قد لمس من بعيد فكرة الرمزية في هذه الفوانيس وهي الفكرة التي أجدها أقرب إلى الصواب نظراً لأن كافة نماذج أشكال الفوانيس قد ارتبطت كل الارتباط بمجموعة الصور التي نفذت عليها، أي أنها كانت تشكل فقط ناحية فنية وليست وظيفية مما يجعلني أرجح اعتبارها نماذج للتعبير عن فكرة الرمزية إلا أن هناك بعض اعتبارات منها:

---

(١) F. Dunand, "Lanternes Graeco - Romaines d'Egypte," *Dialogues d'Histoire Ancienne* 2 (Paris, 1976), pp.71-95.

(٢) اسجل هنا شكري وتقديري للسيدة/ درية سعيد مدير عام متاحف الإسكندرية لموافقة سيادتها على نشر هذه المجموعة، كما اسجل امتناني للسيدة/ سعاد رشدي التي لم تبخل بأي جهد في سبيل إنهاء هذه المهمة في المتحف اليوناني الروماني.

(٣) P. Perdrizet, *les Terres Cuites Greques d'Egypte de la collection Fouquet* (Paris: Berger - Levrault, 1921), p.19, Pl. LXXX, 47.

(٤) E. Breccia, *Monuments de l'Egypte greco-romaine II 2; Teracotte figurate greche e greco-egizie del Museo di alessandria* (Bergamo: Officine Dell' Istituto Italiano D'artigrafiche, 1943), p. 47 Pl. LXXIV, 378.

في هذه الصورة نجد أحد العبيد يسير حاملاً أحد الفوانيس لإضاءة الطريق أمام سيدة في حين نجد بعض الصور التي تصور أحد العبيد الذي يجلس منتظراً عودة سيده واضعاً الفانوس إلى جواره:

Breccia, *Monuments II2*, p. 47 Pl. LXXIV,379.

(٥) Dunand, *Lanternes*, p. 79.

(٦) W. Weber, *Die Agyptisch-Griechische Terra - Kotten* (Berlin: Verlag von karl Curtois, 1914), pp. 249f; pp. 109f.

أولا : صعوبة إيجاد إجابات قاطعة على الاستفسارات التي نوهت إليها من قبل والخاصة بعملية الإضاءة.

ثانيا: صغر حجم الفوانيس بشكل عام إلى جانب صغر فتحاتها التي لم تتجاوز في أغلب النماذج ٣ سم عرضا و٤سم ارتفاعاً مما يصعب إضاءة مساحة في حدود المتر المربع الواحد إن لم تكن أقل (أنظر الصور٢، ٦، ١١، ١٤، ١٧، ٢١، ٢٩ ـ ٣٢).

ثالثا: تدل الناحية الفنية التي شكلت بها معظم قطع الفوانيس على أنها كانت هي الجزء الأهم الذي اهتم به الفنان، اي أن الفنان قد اهتم بالشكل الفني للفانوس أكثر من اهتمامه بالدور الوظيفي له، وهذا ما نستخلصة من الفوانيس: (صورة١، ٣ـ ١١، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٢).

ونخلص من ذلك بأن مجموعة الفوانيس الفخارية المحفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية وغيرها من المجموعات الأخرى سيتطلب القطع بوظيفتها إجراء اختبارات معملية تضخع للتكنولوجيا الحديثة في عالم الآثار للتعرف على ما إذا كانت هناك آثار لعمليات حرق قد تمت بداخلها أم لا حيث أنه يستحيل على العين المجردة رؤية ذلك.

وفيما يخص الجانب الفني الذي سوف يشكل محور هذه الدراسة فقد قمت بتقسيم مجموعة تلك الفوانيس إلى أربع مجموعات وفقاً لأشكالها. وسوف أقوم فيما يلي بعمل دراسة وصفية وتحليلية لفوانيس كل مجموعة على حده موضحاً من خلالها أهم السمات الفنية التي تميز كل مجموعة مع ذكر أساليب صناعتها:

المجموعة الأولى

يبلغ عدد فوانيس هذه المجموعة ثمانية عشر فانوساً، وقد شكلت هيئة كل من هذه الفوانيس على شكل أسطواني مسلوب إلى أسفل يرتكز على قاعدة مصمته تعلوه حافة أو إزار بارز يكتنفه من الجانبين بروز على هيئة شعلة. أما من أعلى فقد غطيت بتغطيات مسنمة بأعلاها فتحة تستخدم في ربط أو تعليق الفانوس. تحتوي تلك النماذج على فتحات خلفية مستطيلة الشكل توجت بعضها بعقود من أعلى. أما واجهة الفانوس فقد شغلها الفنان بكافة العناصر الفنية من رسوم آدمية بعضها في أشكال متكاملة والبعض الآخر يقتصر على رؤوس آدمية فقط نفذت بشكل بارز داخل إطارات متعددة، وقد تم تنفيذ فوانيس هذه المجموعة بطريقة القالب.[٧]

وتمثل الفوانيس الثمانية عشر في هذا القسم حوالي ٥٥٪ من المجموع الكلي لمجموعة الإسكندرية، ويمكننا تقسيم هذه الفوانيس إلى أربع مجموعات فرعية وفقاً للأساليب الفنية التي ارتبطت بتشكيل المناظر المصورة عليها:

١ ـ فوانيس تحمل منظراً متكاملا على الواجهة

ويمثل هذه المجموعة سبعة فوانيس متنوعة الموضوعات حيث نجد تصوير الإلهة مينرڤا (صورة ١) والإلهة فينوس (صورة ٢،٣) والإله كيوبيد (صورة ٤، ٥، ٦) وسيدة تعزف على آله موسيقية (صورة ٧).

الفانوس الأول[٨]

رقم التسجيل: ٢٣٩٦٩

الارتفاع: ١٤ سم

المادة: تراكوتا

(صورة ١، شكل ١)

هذا الفانوس من نوعية جيدة من التراكوتا الحمراء اللامعة ذات حبيبات دقيقة. في داخل

---

(٧) تعتمد هذه الطريقة على تشكيل الفانوس من جزئين حيث يشكل كل نصف (الأمامي والخلفي) داخل قالب سلبي negative ثم تترك لتجف قليلاً وبعد ذلك يتم لصق الجزئين بالطين، ويبدو ذلك واضحاً على جوانب كل فانوس ثم تتم أخيراً عملية الحرق. انظر:

R. A. Higgins, *Catalogue of the Terracottas in the Department of Greek and Roman Antiquities in the British Museum* (London: The Trustees of the British Museum, 1969), pp.3-7.

(٨) هدية من مجموعة osborne للمتحف عام ١٩٣٤م

الواجهة وضع الفنأن صورة الإلهة مينرڤا داخل تكوين معماري عبارة عن عقد مقوس محمول على عمودين مربعين بها زخرفة دوائر بارزة من أعلى عند الزاوية.

تقف الإلهة مينرڤا في وضع أمامي مستندة على الساق اليسرى في حين تظهر الساق اليمنى شبه عارية من تحت الثياب وتزج بها قليلا إلى الخلف. ترتدي الإلهة الملابس الحربية الكاملة حيث الرداء الطويل الخيتون وفوقه عباءة قصيرة تصل إلى أعلى الفخذين مربوطة أسفل الصدر. على الرأس ترتدي الإلهة مينرڤا الخوذة الحربية وتمسك في يدها اليسرى بالدرع الذي يظهر بشكل جانبي وتحتل صورة الميدوزا معظم مساحة الدرع في حين تضع الإلهة يدها اليمنى على مذبح صغير إلى جوارها. تحتوي الواجهة الخلفية لهذا الفانوس على فتحة مستطيلة بنفس حجم الصورة الأمامية محددة بعمودين مربعين يعلوهما عقد مقوس. في هذا المنظر نجد أن الإلهة مينرڤا[٩] قد صورت عى الهيئة اليونانية ولكن بطراز روماني حيث إن ملامح الوجه ووجود حدقة العين ممثلة بثقب غائر يشير إلى طراز النحت في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي .[١٠]

الفانوس الثاني[١١]

رقم التسجيل: ٢١٤٥٦

الارتفاع: ١٨ سم

المادة: تراكوتا

(صورة ٢)

تراكوتا ذات لون بني فاتح غطيت بطبقة حمراء داكنة اللون لامعة. شكل الفنان تمثال الإلهة ڤينوس داخل تشكيل معماري مكون من إطارين، ميز الفنان الإطار السفلي بتتويجه من أعلى بعقد مدبب حيث يبدو وكأنه واجهة معبد تجلس الإلهة بداخله. هذا الفانوس[١٢] يصور على واجهته الأمامية الإلهة فينوس وهي جالسة القرفصاء بعد خروجها من الحمام وتنشر شعرها بكلتا يديها وأمامها إلى اليسار توجد آنية وضعت ملابسها عليها. وفي حين صور الفنان الجزء السفلي من الجسم بطريقة جانبية نجده قد صور الجزء العلوي والرأس بطريقة أمامية. تنظر الإلهة ناحية اليمين موجهة عينيها إلى أسفل دليلا على الحياء المصاحب لهذه الإلهة في كل مناظرها التي تصورها خارجة من الحمام. هذا المنظر كان من المناظر المألوفة للغاية في تصوير الإلهة طوال العصرين اليوناني والروماني.[١٣] وقد برع الفنان من الناحية الفنية في أن يظهر إلتفاتة الإلهة إلى اليمين بجسمها العلوي في حين جعل ثقل الجسم كله محمولا على الساق اليمنى التي تثنيها الإلهة تحتها . أما الشعر فتمسك به الإلهة بطريقة طبيعية للغاية. هذا إلى جانب إظهار النعومة والرقة في تصوير جسم الإلهة. ونستطيع تأريخ هذا التمثال عن طريق الطراز الفني في شكل الشعر والعينين في القرن الثاني الميلادي خاصة في الربع الثاني[١٤] منه.

الفانوس الثالث[١٥]

رقم التسجيل: ٩٤١٩

الارتفاع: ١٤ سم

المادة: تراكوتا

(صورة ٣)

---

(٩) H. Cassimatis, *Lexicon Iconographicum Mythologiae Classicae (LIMC)II* (Munchen: artemis Verlage, 1984), pp. 1044f Pls. 765 f.

(١٠) C. Bossert - Radtke, *Gesichter. Griechische und Romische Blidnisse aus Schweizer Besitz. Editors: Hans Jucker Dietrich Willers* (Bern: Ausstellung in Bernischen Historischen Museum vom 6. November 1982 bis 6. Februar 1983), pp. 154f.

(١١) اكتشف في مقابر الأنفوشي عام ١٩٢٠.

(١٢) E. Breccia, *Rapport sur la marche du service du Musée 1919-1920* (Alexandria: Societe de Publications Egyptiennes, 1921), p.65; A. Adriani, *annuaire du Musée Grèco - Romain III, 1940 - 1950* (Alexandrie: Imprimerie de la Societe de Publications Egyptiennes, 1952), p. 150 PI. C. 62.

(١٣) M. O. Jentel, *LIMC II* (1984), p. 163 PI. 166 Nr. 192. اكتشفت هذه القطعة في المقبرة رقم ٥ حجرة ٤ في جبانة الأنفوشي التي ترجع إلى العصر الروماني.

(١٤) D. Willers, *Gresichter*, pp. 136f.

(١٥) غير معلوم المصدر.

تراكوتا ذات لون بني فاتح وذات نوعية جيدة خاصة من ناحية الحرق وقد غطيت بطبقة تميل إلى اللون البرتقالي.

يحتل الإطار الذي يزخرف واجهة الفانوس منظراً آخر من المناظر المحببة في التصوير وهو منظر تجفيف الإلهة فينوس لشعرها بعد خروجها من الحمام(١٦)، حيث صورت وهي تجلس القرفصاء مستندة بثقل الجسم كله على الساق اليمنى في حين ترفع الساق اليسرى إلى أعلى قليلا لتعطي أنطباعا بعمق المنظر. الجزء السفلي من الجسم صور بطريقة جانبية لكي تضم الإلهة رد فيها دليلاً على الحياء في حين صور الفنان الجزء العلوى من الجسم بطريقة أمامية لكي يستطيع التركيز على إبراز مفاتن جسم الإلهة التي كانت رمزاً للحب والجمال ويميل الجزء العلوي من الجسم إلى اليسار قليلاً في اتجاه الرأس. وقد واءم الفنان بين الإطار الداخلي للفانوس ووضع التمثال حيث جعل الرأس في زاوية الإطار الداخلي للاستفادة من أكبر مساحة ممكنة، ونتج عن ذلك ظهور الجسم بشكل أنسيابي يتسم بالرشاقة والحيوية في هذه المساحة التي لا تتعدى ٧سم. وفي حين استطاع الفنان شغل الزاوية العليا اليسرى بتسريحة الشعر التي تتدرج إلى أعلى، نجح أيضا في شغل الزاوية العليا اليمنى بالذراع الأيمن الذي يرتفع ليشغل هذه الزاوية بل ويخرج الذراع اليمنى عن إطار الفانوس حيث يبدو الجسم وكأنه يخرج عن الإطار بالكامل ونفس الشيء استطاع الفنان إظهاره في الذراع الأيسر الذي ينخفض إلى أسفل نتيجة ميل الرأس ناحية اليسار، وتمسك الإلهة بأطراف الشعر في كلتا اليدين. ويظهر طراز هذه الصورة مقدرة الفنان في التركيز على النعومة والليونة في جسم الإلهة فينوس والحركة الطبيعية التي تغطي الصورة، أما طراز تسريحية الشعر التي تتدرج إلى أعلى فيمكن مقارنته بنفس التسريحات التي ظهرت عند السيدات في عصر هادريان وتعتبر سمة مميزة لهذا العصر في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي.(١٧)

الفانوس الرابع:(١٨)

رقم التسجيل: ٢٣٩٦٨

الارتفاع: ١٢ سم

المادة: تراكوتا

(صورة ٤)

تراكوتا من نوعية جيدة للغاية يميل لون الطين إلى اللون البرتقالي والصقل جيد للغاية.

يتميز هذا الفانوس(١٩) بطراز فريد في زخرفته المعمارية وقد ظهر هذا الطراز في مجموعة الاسكندرية، وهو عبارة عن مجموعة إطارات تأخذ في الصغر كلما اتجهنا إلى الداخل من أعلى المنظر وهذا يعطي عمقاً أكبر للمنظر المصور. وفي داخل الإطار الأمامي في الواجهة صور الفنان الإلهة كيوبيد إله الحب والعشاق جالساً على ركبتيه اللتين تخرجان من أسفل خارج حيز الإطار وتبدو وكأنها منفصلة تماماً عن خلفية المنظر. وقد ركز الفنان على التناسق في شغل مساحة الإطار حيث تتجه الركبتين لتشغل الزاوية اليمنى من أسفل في حين تشغل رأس كيوبيد الزاوية اليسرى من أعلى.

ويظهر الإله كيوبيد ممسكاً بيده اليسرى بأوزه من رقبتها ويضعها فوق ردفيه، خلف الكتف الأيسر يظهر القوس الذي يوجه به الإله السهام إلى قلوب العاشقين وأمامه على الجانب الأيمن تظهر شعلة ينظر إليها الإله بكل شغف. وتظهر براعة الفنان في تصوير الإله كيوبيد في هذا الوضع الجالس في مساحة لاتزيد على ٥سم في الطول و٢٫٥سم في العرض، كذلك برع الفنان في إظهار تسريحة الشعر بكل تفاصيلها حيث الشعر مصفف على هيئة كتلة مستديرة تشبه التاج مربوطاً من الأمام في وسط الجبهة بشكل رائع، وقد ظهر هذا الطراز من

---

(١٦) M. - O. Jentel, *LIMC II* (1984), p. 163 Pl. 167 Nr. 193.

(١٧) H. Jucker, *Gesichter*, pp. 130f.

(١٨) هدية للمتحف من مجموعة Osborne عام ١٩٣٤م.

(١٩) A. Adriani, Annuaire du Musee Greco - Greco - Romian II (1935 - 1939), p. 167 Pl. LXVIII,2. (Alexandrie: la Societe de Rublication Egyptiennes, 1940).

تسريحات الشعر في نهاية القرن الأول الميلادي.[٢٠]

الفانوس الخامس[٢١]

رقم التسجيل: ٢٣٩٦٧
الارتفاع: ١١ سم
المادة: تراكوتا
(صورة ٥، شكل ٢)

تراكوتا ذات لون أحمر متوسط ومن نوعية جيدة للغاية.

يتفق هذا الفانوس في طرازه المعماري والفانوس السابق الذكر حيث إن المنظر هنا أيضا قد صور داخل مجموعة إطارات تأخذ في الصغر كلما اتجهنا إلى الداخل. ويحتوي هذا الفانوس على قاعدة مرتفعة يعلوها أيضا عدد من الإطارات. داخل الإطار الأوسط على واجهة الفانوس الأمامية صور الإله كيوبيد في وضع مماثل للقطعة السابقة من حيث الشكل والموضوع، ومن المؤكد أن هاتين القطعتين قد صنعتا على يد نفس الفنان ولكن ليس من نفس القالب حيث يختلف المنظر هنا في هذه القطعة أن رأس أوزه أخرى تظهر إلى اليمين من الإله كيوبيد، وكذلك يظهر جناح كيوبيد خلف كتفه الأيسر.

أما من الناحية التكنيكية فقد برع الفنان هنا أيضاً في إظهار كيوبيد وهو يخرج بركبتيه خارج حدود الإطار السفلي للمنظر. ويصور المنظر أحد الأوضاع المألوفة في تصوير الإله كيوبيد حيث يجلس مداعباً الأوز . وقد صور الفنان كيوبيد في صورة طفل عاري تظهر الأجنحة خلف ظهره وكذلك القوس الذي يرمي به السهام في قلوب العاشقين ويضع أحدى الأوزات على ردفيه ممسكاً بها باليد اليسرى في حين يضع على جانبه الأيمن شعلة تظهر أمامها رأس أوزه صغيرة أخرى يتجه نظره إليها. [٢٢] أما تسريحة الشعر فتتكون من تاج يحتل مساحة الرأس كلها ملفوفاً حول الرأس، وهذا النوع من التسريحات كان من السمات المميزة في نهاية القرن الأول الميلادي كما سبق الإشارة. [٢٣]

الفانوس السادس: [٢٤]

رقم التسجيل: ٨٤٢٧
الارتفاع: ١٤٫٥ سم
المادة: تراكوتا
(صورة ٦)

تراكوتا من الطين الأحمر الداكن ذات نوعية متوسطة الجودة، والحرق جيد للغاية ويميل لونه إلى لون التراسيجلاتا الشرقية، عليها آثار لون أسود.

وهو فانوس بسيط التكوين من الناحية المعمارية حيث يظهر على واجهته الأمامية منظر للإله كيوبيد [٢٥] في وضع راقص داخل إطار بسيط يحتل معظم مساحة الواجهة. يقف الإله كيوبيد متجهاً ناحية اليسار حيث ينظر برأسه ناحية اليسار ويضع يده اليمنى على خصره الأيمن ويرفع يده اليسرى إلى أعلى بمحاذاة الرأس. وقد برع الفنان في إظهار الوضع الراقص للإلة كيوبيد حيث جعله يثنى الركبتين في اتجاه اليسار أيضاً. ملامح الوجه غير واضحة ولكن يبدو أن الأنف كان أفطس والعينين ملساوين، ونظراً لما تتميز به صورة كيوبيد من واقعية ملموسة فإننا نرجح تأريخ هذه القطعة في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي. [٢٦] أما براعة الفنان

(٢٠) E. Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum* (Bergamo: Istituto Italiano d'Arti Grafiche, 1922), pp. 191f. Nr3, Fig. 99; P.Graindor, *Bustes et statues Greco - Romain d'Egypte*, (Le Caire: P. Barbey, n. d.), pp. 108f Nr. 52 Pl 44; U.Hausmann, Die Flavier (Das romische Herrscherbild II 1, (Berlin: n.p., 1966), p. 122; *U. Hausmann, in : Romische Mitteiluing 82, 1975, (Rom: Deutsches Archaologisches Institut), pp. 349f. Pl. 106; 107,2; 108,2.*

(٢١) غير معلوم المصدر.

(٢٢) عن جميع الأوضاع الذي اتخذها كيوبيد في الفن، أنظر: A. Hermary, *LIMC III* (1986), pp. 857 - 885; PLs. 612 - 630

(٢٣) أنظر الحاشية رقم ٢٠.

(٢٤) اكتشف في الفيوم.

(٢٥) قارن الحاشية رقم ٢٢.

(٢٦) E. Strong, *Roman Sculpture from Augustus to Constantine*, (London: Duckworth Co., 1907), pp. 150 - 165; Pl. XLVII.

الحقيقيـة فتكمن في تصـويـر الرأس خارج الإطار العلوي للفانوس.

الفانوس السابع (٢٧)

رقم التسجيل: ٩٤٢٠
الارتفاع: ١٤ سم
المادة: تراكوتا
(صورة ٧، شكل ٣)

تراكوتا ذات لون أحمر داكن من نوعية جيدة، الغطاء الخارجي يميل إلى اللون البرتقالي.

وهو فانوس فريد النوع في واجهته الأمامية حيث نجد حزين في أعلى المساحة المخصصة للتصوير ويمثل المنظر المصور كل المساحة الأمامية للفانوس عدا قاعدتـه. وتمثل الصورة الأمامية سيدة شابه ترتدي ملابسها الكاملة وتضع امامها آلة موسيقية كبيرة الحجم تصل إلى ما فوق رأسها.

وقد برع الفنان في تصوير السيدة في وضع جانبي Profile في كل الجسم وجعلهـا بذلك تحتضن الآلة الموسيقية بين يديها لتعزف عليها بكلتا اليدين في حين أنه جعل الرأس تنظر إلى الأمام وجعلها تميل ناحية اليمين قليلاً في اتجاه هذه الآلة. الملابس غير واضحة الملامح وبسيطة في تكوينها وتأخذ شكل ثنيات طويلة من وسـط الجسم إلى أسفل ناحية القدم اليسرى، الشعر مصفف عن طريق كتلة من البوكلات الصغيرة تشبـه التـاج فوق الرأس. هذه التسريحة المعروفة كانت منتشرة في أواخر القرن الأول الميلادي خاصة في تماثيل السيدات من الأسرة الحاكمة. (٢٨)

٢ ـــ فوانيس تحمل صوراً نصفيةعلى الواجهة

يضم هذا القسم خمسـة فوانيس وتعتبـر هذه المجموعة من المجموعات التي أبرز الفنان فيها مقدرة فنيـة عالية حيث تصور جميعها نفس الموضع على الواجهـة الأمامية وهو صورة نصفية للإلهة مينرفا بالمـلابس الحـربيـة (الصور ٨ ـ ١١) عدا صورة واحدة تمثل الإلهة إيزيس ـ ديمتر (صورة ١٢).

الفانوس الأول(٢٩)

رقم التسجيل: ٢٣٩٧٠
الارتفاع: ١٤ سم
المادة: تراكوتا
(صورة ٨، شكل ٤)

تراكوتا ذات لون بني فاتح من نوعية جيدة للغاية.

يعتبـر هذا الفـانـوس من أروع الأمثلة في هذه المجمـوعـة على الإطلاق حيث صور الفنـان صورة نصفية للإلهة مينرفا (٣٠) في داخل مجموعة إطارات تأخـذ في الصغر كلما اتجهنا إلى الداخل. وقد ترك الفنان مساحة كبيرة في الجزء السفلي للفانوس لكي تكـون القـاعـدة داخل الإطار الذي يشغل واجهة الفـانـوس صورت الإلهـة مينرفا بالملابس الحربية حيث ترتدي رداء بدون أكمام مربوطا فوق الكتفين الخـوذة الحـربية المدببة من الأمام، وخلف الكتف الأيسر يظهـر جزء من الدرع، وتظهر الإلهة وكأنها تتقـدم من الخلف إلى الأمـام لتخـرج خارج حيز الإطار. وقد استطاع الفنان إثبات مقدرة فنية عالية المستـوى حين صور صدر الإلهة وهو يخرج تماماً خارج إطار المنظر بل وأن الثدى الأيمن يكاد يكون خارج مسـاحة والواجهة بالكامل حيث نجد أن كل التـركيز كان على الناحية اليمنى حيث تنظر الإلهة أيضا جهة اليمين مستغرقة في التفكير الذي هو أحد سمات الشخصية العسكرية. ويرع الفنان أيضا في إنسياب الثياب من فوق الأكتاف إلى الصدر مظهراً الثنيات التي تكونت نتيجة لربط الثوب فوق الكتفين. الشعر مصور في جدائل طويلة ملفوفة فوق الجبهة أسفـل الخـوذة الحـربيـة وتنـزل فوق الأكتاف في إنسياب تام، ورغم أن الفنان يصور شخصية حربية هنـا إلا أنـه ركز على النواحي الجمالية في تصوير النعـومة في جسم الإلهة وهدوء قسمات الوجه. إما تسريحـة الشعر وطراز تصوير العينين فيرجعان إلى مطلع القرن الثاني الميلادي. (٣١)

---

(٢٧) مشترى من مصدر غير معلوم.

(٢٨) انظر الحاشية رقم ٢٠.

(٢٩) هدية للمتحف من مجموعة Osborne عام ١٩٢٤م.

(٣٠) Dunand, *Lanternes*, p. 73 Pl. VI,2.

(٣١) Strong, *Roman Sculpture*, pp. 150 - 165.

الفانوس الثاني[٣٢]

رقم التسجيل: ٩٧٨٠

الارتفاع: ٥ر١٠ سم

المادة: تراكوتا

(صورة٩، شكل٥)

الفانوس مصنوع من تراكوتا ذات لون أحمر فاتح من نوعية جيدة.

يعتبر هذا الفانوس من النماذج الرائعة للغاية في مجموعة الإسكندرية حيث يمثل نفس الطراز المعماري للفانوس الأول من هذه المجموعة (أنظر صورة ٨) حيث صمم المنظر داخل إطارات تأخذ في الصغر كلما اتجهنا إلى الداخل، ويصور هذا الفانوس نفس المنظر للإلهة مينرفا[٣٣]، ونستطيع القول أن هذا الفانوس قد صنع على يد نفس الفنان ولكن ليس من نفس القالب الخاص برقم ٢٣٩٧٠. تظهر هنا الإلهة مينرفا في وضع شبه أمامي في صورة نصفية وهي ترتدي الملابس الحربية المكونة من الرداء المربوط فوق الكتفين والخوذة الحربية والدرع الذي يظهر جزء منها خلف الكتف الأيسر للإلهة.[٣٤] وتنظر الإلهة هنا قليلا ناحية اليمين في الأفق البعيد مستغرقة في التفكير. وقد ركز الفنان على تصوير الثنيات التي تغطي الصدر حيث تعطي عمقاً للصورة وتبدو الإلهة وكأنها تتقدم من الداخل إلى الخارج، وقد جعل الفنان الإلهة مينرفا تخرج بكامل جسمها تقريبا عن خلفية الإطار وتميل بجسمها إلى الأمام مما ينم عن مقدرة فنية عالية المستوى. ويدل تصوير الشعر وطريقة صياغة العينين على الطراز السائد في بداية القرن الثاني الميلادي.[٣٥]

الفانوس الثالث:[٣٦]

رقم التسجيل: ٨٤٢٥

الارتفاع: ٥ر١٣ سم

المادة: تراكوتا

(صورة ١٠، شكل ٦)

صنع هذا الفانوس من التراكوتا ذات اللون الأحمر الداكن للغاية ويعطي ظلاً رمادي اللون. رغم أن هذا الفانوس ليس جيد الصناعة مثل المثالين السابقين ولكن يندرج تحت أكثر الفوانيس إتقانا من الناحية الفنية، حيث نجد إن الفنان قد صور الإلهة مينرفا بكامل ملابسها الحربية داخل الإطار المستطيل في الواجهة ولكنه خرج بالرأس والخوذة الحربية عن مستوى الخلفية حيث تبرز الرأس أمام الإطارات العلوية لهذا المنظر، وكذلك الحال في بروز الصدر تظهر الإلهة مينرفا في تصوير أمامي بحت في صورة نصفية تصل إلى أسفل الصدر، وقد غطى الصدر بكامله بالرداء الحربي الذي يحمي الجسم من السهام ويسمى aegis ، وفي وسطه أسفل الثديين تظهر صورة الميدوزا التي تبث الرعب في قلوب الأعداء، وقد استعاض الفنان عن الدرع الحربي للإلهة بتصوير الرداء الحربي سالف الذكر.[٣٧]

ونلاحظ هنا أن الوجه يظهر هنا بشكل يختلف تماماً عن المثالين السابقين حيث ملامحه قبيحة والفم مرتفع قليلاً والشفاه مكتنزه. أما الأهداب فبارزة قليلاً، وإنسان العين محفور، وقد برع الفنان في تصوير الشعر وهو يلتف في خصلتين فوق الجبهة، كل خصلة تأخذ اتجاهاً حول الرأس لتسقط خلف الأكتاف، وكذلك تظهر براعة الفنان في إظهار كتلة الشعر من أسفل الخوذة الحربية.

أما من ناحية الطراز فنجد أن طريقة حفر العينين والحفر الغائر في الرداء الحربي على الصدر[٣٨] يدل مباشرة على طراز العصر الأنطونيني وخاصة في

(٣٢) اكتشف في منطقة الحضرة بالإسكندرية.

(٣٣) Breccia, *Monuments II*, 2, p. 31 No. 141 Pl. 48, 234.

(٣٤) H. Cassimatis, *LIMC II* (1984), p. 1046, Pl. 768 (44).

(٣٥) H. Jucker, Gesichter, pp. 126 - 131; J. Frel, *Le monde des Césars, Portaits Romains* (Geneve; Exposition orgonisée au Musée d'art et d'histore de Geneve, Hellas et Roma, 1982), p. 259 Pl. 59.

(٣٦) اكتشف في الفيوم.

(٣٧) Dunand, *Lanternes*, p. 73, Pl. VII, 2.

(٣٨) هناك العديد من أمثلة النحت التي تصور الإلهة مينرفا بهذا النوع من الرداء الحربي ونفس الطراز الفني في طريقة الحفر. راجع:
H. Cassimatis, *LIMC II* (1984), p. 1046, Pl. 767 Nr. 32,33.

منتصف القرن الثاني الميلادي.[٣٩]

الفانوس الرابع:[٤٠]

رقم التسجيل: ٩٤٢١

الارتفاع: ٥ر١٠ سم

المادة: تراكوتا

(صورة ١١، شكل ٧)

صنع هذا الفانوس من التراكوتا ذات اللون الأحمر الفاتح ومن نوعية متوسطة الجودة.

هذا الفانوس يصور الإلهة مينرفا على الواجهة الأمامية داخل إطار مربع الشكل، وهو إطار بسيط الشكل يحتل كل المساحة الأمامية من الواجهة تاركاً فقط مساحة قاعدة الفانوس خالية. ونلاحظ أن طريقة نحت صورة الإلهة النصفية مسطحة إذا ما قورنت بالأمثلة السابقة، أما الخوذة الحربية فتخرج قليلاً خارج حدود الخلفية. حول الرأس يوجد ثقبان في خلفية المنظر، هذان الثقبان كانا يعطيان أيحاء بالتهوية في هذا الفانوس وهي خاصية نجدها في بعض هذه الفوانيس.

صورت الإلهة مينرقا بكامل ملابسها الحربية حيث ترتدى رداءاً خفيفاً Tunica وفوقه رداء صغير معلق على الأكتاف ومربوط من أسفل الرقبة Plaudamentum وقد صورت الإلهة بطريقة أمامية ولكن يميل الجسم قليلاً إلى اتجاه اليمين حيث تنظر الإلهة أيضا برأسها ناحية اليمين في الأفق البعيد، وتبدو وكأنها مستغرقة التفكير، وقد برع الفنان في صياغة الشعر ذات الخصلات الرفيعة وإظهاره من أسفل الخوذة الحربية المدببة من الأمام، ملامح الوجه متضخمة قليلا والعينان ملساوان.

ويدل طراز العينين وطريقة معالجة الشعر على بداية القرن الثاني الميلادي.[٤١]

الفانوس الخامس:[٤٢]

رقم التسجيل: ١٩٤٦٨

الارتفاع: ١٤ سم

المادة: التراكوتا

(صورة ١٢، شكل ٨)

صنع الفانوس من تراكوتا ذات لون بني فاتح من نوعية جيدة وصقل متقن.

داخل إطارات متعددة تأخذ في الصغر كلما اتجهنا إلى الداخل، صورت إحدى الإلهات بصورة أمامية تحتل المساحة الكلية لكل الإطار وفوق الرأس نجد ثقبين للتهوية. هذا الفانوس مهشم ويتكون من العديد من القطع حيث ينقص الوجه بالكامل والرقبة والكتف الأيسر لذلك نجد أنه من الصعوبة تحديد ماهي هذه الشخصية النسائية.

وترتدي السيدة عصبة تلتف حول الرأس مما يجعلها تندرج ضمن الإلهات أو الكاهنات، وترتدي ثوباً يكشف عن كل الكتف الأيمن وجزء من الصدر ناحية اليمين ونجد أن الفنان قد أظهر مهارة فنية فائقة في تصوير الثوب وهو ينحسر عن الكتف الأيمن.

ويرجح أن تكون هذه الصورة للإلهة إيزيس - ديمتر التي اقترنت في العصر الروماني بالإلهة سيزيش الرومانية.[٤٣]

٣ — فوانيس تحمل صوراً شخصية Portrait على الواجهة

ويضم هذا القسم أربعة فوانيس، هذه المجموعة من الفوانيس تشترك في أن المساحة الأمامية للواجهة مصممة داخل إطارات بداخلها صورة شخصية تصل فقط إلى الرقبة في حين أن جميع الفوانيس من هذه المجموعة ذات قاعدة صغيرة.

الفانوس الأول:[٤٤]

رقم التسجيل: ١٦٥٠٤

الارتفاع: ١٣ سم

المادة: تراكوتا

---

(٣٩) H. Heinrich, *Gesichter*, pp. 152f.

(٤٠) غير معلوم المصدر.

(٤١) C. Bossert - *Radtke*, *Gesichter*, pp. 128 f

(٤٢) اكتشف في الحضرة بالإسكندرية عام ١٩١٢م.

(٤٣) Heradotos, *Historia* II 59, 156; Diodoros, *Bibliotheke* I.13.
قارن : عزت قادوس «التماثيل البرنزية الصغيرة في الإسكندرية» بحث غير منشور عام ١٩٩٢م.»

(٤٤) اكتشف في الشاطبى عام ١٩٠٨م.

(صورة ١٣، شكل ٩)

صنع هذا الفانوس من تراكوتا ذات لون أحمر متوسط من نوعية جيدة للغاية وذات صقل متقن.

يمكننا أن نعتبر هذا الفانوس هو أحسن قطعة سواء من الناحية الفنية أو من ناحية الإتقان في الصناعة. فنجد أن هذا الفانوس يحتوي على منظر رائع في واجهته الأمامية وهو رأس للإلهة مينرفا بالخوذة الحربية[٤٥]، هذا المنظر ممثل داخل إطارات متعددة تأخذ في الصغر كلما اتجهنا إلى الداخل، وبداخل الأطار الأصغر نجد صورة الإلهة التي تخرج تماماً عن أرضية الإطار لكي تعطي أحساسا واضحاً بالعمق في الصورة، وهنا تكمن براعة الفنان. وتغطي رأس الإلهة مساحة الإطار بالكامل، أما الركنان الفارغان حول الخوذة من أعلى فقد استغلهما الفنان في وضع ثقبين لإعطاء إيحاء بالتهوية. صور الفنان رأس الإلهة مينرفا مغطاة بالخوذة الحربية المدببة من الأمام، ويظهر من تحتها الشعر في كتلتين تبدأن من وسط الجبهة وتتزلان خلف الرأس على الأكتاف في تسريحة جميلة تضيف المزيد من الجمال إلى صورة الإلهة. الوجه ممتلىء وجيد في صقل سطحه، الأهداب بارزة وواضحة، الأعين عميقة في حين إن أنسان العين منحوت بوضوح. وتنظر الإلهة بكل تركيز إلى الأفق البعيد مستغرقة في التفكير، وطبقاً لهذا الطراز الفني في تصوير الشعر والعينين نستطيع القول أن هذه القطعة تعود إلى مابعد منتصف القرن الثاني الميلادي.[٤٦]

الفانوس الثاني[٤٧]

رقم التسجيل: ٩٤١٨

الارتفاع: ٩ سم

المادة: تراكوتا

(صورة ١٤، شكل ١٠)

صنع هذا الفانوس من التراكوتا ذات اللون الأحمر المتوسط من نوعية جيدة. على واجهة الفانوس الأمامية رأس لأحد الزنوج أو العبيد. الواجهة محددة بأطار كبير يتوسطه إطار صغير صمم قريباً من شكل واجهة معبد حيث نجد عمودين يعلوهما أرشيتراف وبينهما صورت رأس الزنجي وبجوار تاج كل من العمودين صمم الفنان ثقباً للتهوية.

يصور المنظر أحد الزنوج أو العبيد في صورة أمامية وتدل الملامح بوضوح أن هذه الشخصية إما زنجي أو أحد العبيد حيث إن تصوير هذه الأجناس كان مرتبطاً بحمل الفوانيس، وهي إحدى مهامهم الوظيفية كما سنرى في نهاية البحث. وقد ظهر الزنجي بوجه منتفخ وانف مفلطح وشفاه غليظة وعينين صغيرتين وجبهة مقوسة بارزة ، يعلو الرأس أكليل يشبه بعض التسريحات التي ظهرت في نهاية القرن الأول الميلادي.[٤٨]

الفانوس الثالث:[٤٩]

رقم التسجيل: ٩٧٥٩

الارتفاع: ٩ سم

المادة: تراكوتا

(صورة ١٥، شكل ١١)

صنع الفانوس من التراكوتا ذات لون أحمر فاتح من نوعية متوسطة الجودة. هذا الفانوس يصور عدداً من الإطارات المتداخلة في واجهته الأمامية، وفي الإطار الداخلي صور شكل لأحد الساتير وفوق رأسه على الجانبين ثقبان مستديران لأعطاء ايحاء بالتهوية.

في وسط الإطار الداخلي صور أحد الساتير[٥٠] وهم من أتباع ديونيسوس ولذلك نجد أن هذه الفوانيس

---

(٤٥) R. Pagenstecher, Sammlung E. *von sieglin* (Leipzing: Giesecke & Devrient, 1913), p. 214 Pl. 39, 4.

(٤٦) تؤرخ Cassimatis هذه القطعة في القرن الثالث الميلادي. أنظر: H. Cassimatis, *LIMC II* (1984), p. 1047 Pl. 768 (55); ولكني ارى أن طرازها اقرب إلى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي نظراً لحفر الشعر بعمق وكذلك حفر إنسان العين، قارن: M. Kraitrova, *Gesichter*, pp. 162f.

(٤٧) غير معلوم المصدر.

(٤٨) Graindor, *Bustes*, p. 108f. Nr. 52 Pl. 44; Hausmann, *Die Flavier*, p. 122.

(٤٩) غير معلوم المصدر.

(٥٠) Dunand, *Lanternes*, p. 73 Pl. V 2.

كانت مرتبطة أيضا بالأعياد الديونيسية، وسوف يجيء الحديث عن ذلك في نهاية البحث. ويظهر الساتير في شكل كاريكاتوري مخيف، حيث الشعر المتطاير والذقن الخشنة، والأنف الأفطس العريض، والخدود المنتفخة والجبهة العريضة الفظة، والحواجب المرتفعة. أما العينان فقد صورت واسعة ولكن برع الفنان في إظهار أنسان العين محفورا بوضوح معايزيد من الرهبة في الصورة، هذا الطراز يعود إلى نهاية العصر الأنطوني.(٥١)

الفانوس الرابع:(٥٢)

رقم التسجيل: ٦٥٥٦
الارتفاع: ٥ر٨ سم
المادة: تراكوتا
(صورة ١٦، شكل ١٢)

صنع هذا الفانوس من التراكوتا ذات اللون الأحمر من نوعية جيدة للغاية. داخل إطار بسيط صورت أحدى الرؤوس التي بقي منها خصلة شعر واحدة. هذا المنظر يصور أحد أتباع الإله ديونيسوس من الساتير أو ربما كانت تمثل الإله ديونيسوس نفسه كما يظهر من المقارنات العديدة التي تصور هذا الموضوع.(٥٣)

٤ ـ فوانيس تحمل صوراً شبه كاملة على الواجهة الأمامية (فانوسان)

هذان الفانوسان يشتركان في أن قاعدة كل منهما صغيرة وتشتمل واجهتهما الأمامية على منظر لشخص يبدو شبه كامل حيث يصور أطفالا تصل صورهم فقط إلى منتصف الفخذين ولا يظهر الجزء السفلي من الجسم على الإطلاق.

الفانوس الأول(٥٤)

رقم التسجيل: ١٦٥٠٥.
الارتفاع: ١٠ سم
المادة: تراكوتا
(صورة ١٧)

صنع هذا الفانوس من التراكوتا ذات اللون الأحمر المتوسط من نوعية جيدة. صمم الفنان هنا الصورة في الحيز الكامل للواجهة الأمامية للفانوس ولكن لم يصور إلا ثلثى الجسم تقريباً فقط داخل إطار بسيط الشكل.

الصورة تمثل الطفل حربوقراط وهو يقف واضعاً أصبع يده اليمنى في فمه ورغم أن الفنان صوَر حربوقراط في وضع مواجهة أمامية إلا أنه جعله يتجه وينظر إلى اليسار قليلا، حيث يمسك في يده اليسرى قرن الخيرات الدال على الرخاء ويظهر جسم الإله حربوقراط عارياً إلا من رداء صغير فوق الأكتاف . والغريب هنا أن حربوقراط يرتدي تاج الوجهين القبلي والبحري فوق الرأس وأسفل هذا التاج نجده قد ربط أكليلاً من أوراق العنب حول رأسه، ويبدو أن الفنان قد لجأ إلى هذه الحيلة لكي يربط أستخدامات هذه الفوانيس بالإله ديونيسوس وأعياده. أما من الناحية الفنية فقد أستطاع الفنان إظهار جسم حربوقراط في شكل طفولي رائع حيث الجسم والوجه المكتنزان.

وتوجد صورة رائعة للمقارنة في مرسيليا(٥٥) بنفس الملامح ولكنه صور في صورة نصفية داخل واجهة أحد الفوانيس، أما تسريحة الشعر فغير واضحة نظراً لأن أوراق العنب تغطي الرأس بالكامل، أما العينان فغير ممثل بهما إنسان العين مما يدعونا إلى القول أنها ترجع إلى بداية القرن الثاني الميلادي.(٥٦)

الفانوس الثاني:(٥٧)

رقم التسجيل: ٩٤٢٢
الارتفاع: ٩ سم
المادة: تراكوتا
(صورة ١٨)

---

(٥١) K. Viermeisel, P. Zanker, *Die Bildnisse des Augustus. Herrscherbild und Politik in Kaiserlichen Rom* (Munchen: Druckerei Grebner, 1979), p. 108,

(٥٢) غير معلوم المصدر.

(٥٣) Dunand, *Lanternes*, p. 73 Pl. IV 1,3.

(٥٤) اكتشف في الشاطبي عام ١٩٠٨م.

(٥٥) T.T. Tinh, *LIMC IV* (1988). p. 430 Pl. 251, (204 b).

(٥٦) Strong, *Roman Sculpture*, pp. 164f. Pl. XLIX.

(٥٧) غير معلوم المصدر.

صنع هذا الفانوس من تراكوتا ذات اللون الأحمر المتوسط ومن نوعية متوسطة الجودة. يحتل المنظر في هذا الفانوس جزءاً من مساحة الواجهة الأمامية بحيث صمم في وسط الواجهة ما يشبه العمود بين المربعين بالنحت البارز يعلوهما أرشيتراف وداخل هذا الشكل المعماري يقف الإله كيوبيد.

وقد صور الإله كيوبيد بثلثي جسم فقط، وبرع الفنان في تصوير هذا الإله بطريقة ٣/ ٤ لفه حيث يتجه بمعظم جسمه ناحية اليسار، وتظهر المقدرة الفنية للفنان أيضا في بروز رأس الإله والجزء الأيمن من جسمه خارج إطار الشكل المعماري لكي يعطي بعداً ثالثاً للصورة.

ويظهر الإله كيوبيد[٥٨] في صورة طفل ممتلىء الجسم ذو شعر قصير وتظهر الأجنحة الصغيرة إلى الخلف ويضع كيوبيد رداءً صغيراً حول كتفه الايسر يلتف حول الجسم من الخلف ليمسكه باليد اليمنى، وينظر كيوبيد إلى أسفل ناحية اليد اليسرى التي يمسك بها شيئاً غير واضح.

اما تسريحة الشعر فهي تتطابق مع الطراز الذي ظهر في عصر هادريان وكذلك تمثيل انسان العين يجعلنا نؤرخ هذا الفانوس في نهاية عصر هادريان.[٥٩]

المجموعة الثانية

تضم هذه المجموعة أربعة فوانيس فقط. فانوس نفذ على هيئة أسطوانية الشكل توجت من أعلى ومن أسفل بحافة بارزة وترتكز جميعها على قواعد مسلوبة، أما من أعلى فقد غطيت بأشكال مخروطية الشكل بأعلاها فتحة دائرية تستخدم للتعليق.

أما البدن الأسطواني لتلك الفوانيس فقد شغله الفنان بمجموعات من الفتحات الصغيرة بعضها نفذ في وسط البدن بشكل إزار أفقي والبعض الآخر شكلت فتحاته على هيئة أشكال رأسية ضيقة أو فتحت بأبدانها فتحات متسعة بعضها مستطيل الشكل ذو إطار بارز وبعضها ذو حافة معقودة بدون إطار. وقد تم تنفيذ فوانيس هذه المجموعة بطريقة التشكيل على العجلة الفخارية عدا قطعة واحدة (صورة ٢١) قد نفذت بطريقة القالب.

الفانوس الأول[٦٠]

رقم التسجيل: ٦٥٥٧
الارتفاع: ٥ر٨ سم
المادة: تراكوتا
(صورة ١٩، شكل ١٣)

صنع هذا الفانوس من تراكوتا ذات لون بني فاتح من نوعية متوسطة يقف هذا الفانوس فوق قاعدة تشبه قواعد الأواني الفخارية إلى حد كبير وهو مصنوع على العجلة الفخارية، وتحمل القاعدة جسم الفانوس الأسطواني الشكل الذي يأخذ في الانبعاج إلى الخارج من أسفل ومن أعلى، أما الجسم الأسطواني فهو أملس الشكل محدد بحز في ثلثه العلوي. ويزخرف الثلث الأوسط من الجسم الأسطواني ١٦ فتحة مثلثة الشكل في صفين كل منهما عبارة عن ٨ فتحات. الصف العلوي مزخرف بفتحات مثلثة قاعدتها إلى أعلى أي مثلث مقلوب في حين أن الصف السفلي به ٨ فتحات مثلثة قاعدتها إلى أسفل بالتناوب مع مثلثات الصف العلوي. كل هذه الفتحات الستة عشر تدور حول فتحة مستطيلة الشكل في خلفية الفانوس. ومن الملاحظ أن هذه الفتحة المستطيلة ذات أبعاد قليلة حيث أن طولها ٢سم وعرضها ٧ر١سم وهي لا تسمح بطبيعة الحال بوضع مسرجة للإضاءة داخلها. اما سقف الجسم الأسطواني فهو مخروطي الشكل ينتهي بجزء خاص لتعليق الفانوس وهو مكسور حاليا.

الفانوس الثاني[٦١]

رقم التسجيل: ١٨٣٠٥
الارتفاع: ١٤ سم

---

(٥٨) A. Hermary, *LIMC* III (1986) pp. 870, 874, 877; PLs. 619, 192; 622, 252b; 625, 308.

(٥٩) D. Willers, *Gesichter*, pp. 132f.

(٦٠) غير معلوم المصدر.

(٦١) اكتشف في حفائر الشاطبي ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م

المادة : تراكوتا
(صورة ٢٠، شكل ١٤)

صنع هذا الفانوس من تراكوتا ذات لون بني فاتح من نوعية متواضعة.

يتكون هذا الفانوس من أربعة أجزاء، وقد صنع أيضا على العجلة الفخارية فهو يتكون من قاعدة يقف عليها جسم أسطواني كبير الحجم فوقه غطاء مخروطي الشكل ينتهي بيد لتعليق الفانوس. قاعدة الفانوس بسيطة ويتصل بها جزء ينفرج إلى الخارج ليحمل الجسم الأسطواني الشكل الذي ينبعج هو الأخر إلى الخارج من أسفل ومن أعلى . أما المساحة الملساء لهذا الجسم الأسطواني فقد زخرفت بثلاث فتحات طولية شقت في هذا الجسم بآلة حادة، وكذلك فتحة مستطيلة الشكل طولها ٤٫٣ سم وعرضها ٣٫٤ سم. أما أعلى الجسم الأسطواني فقد غطي بشكل مخروطي يعلوه يد ملتصقة به كانت تستخدم لحمل أو لتعليق هذا الفانوس.

الفانوس الثالث[٦٢]

رقم التسجيل: ٨٤٢٣
الارتفاع: ١٢٫٥ سم
المادة : تراكوتا
(صورة ٢١، شكل ١٥)

صنع هذا الفانوس من تراكوتا ذات لون بني داكن يميل إلى الأحمرار، وذات نوعية عالية المستوى وجيدة الصقل.

هذا الفانوس يقف على الأرضية مباشرة وليس له قاعدة مرتفعة. يحتل الجسم الأسطواني معظم ارتفاع الفانوس وهو جزء أسطواني أملس ينتفخ قليلاً عند الوسط وهو لا يحتوي على زخارف عدا فتحة مستطيلة في هذا الجسم أبعادها ٣٫٥×٢٫٨سم، هذه الفتحة مصممة داخل شكل معماري حيث صمم الفنان بابا محاطاً بعمودين مربعين يقفان على عتب سفلي ويعلو الباب عتب مستطيل من أعلى. في أعلى الجسم الأسطواني نجد أن الجدار يتجه قليلاً إلى الخارج لكي يستقر فوقه السقف المخروطي الشكل الذي صنع بإتقان ودقة وينتهي السقف بجزء علوي يتوسطه ثقب لتعليق الفانوس، هذا الفانوس هو الوحيد في هذه المجموعة الذي صنع من قالب مزدوج.

الفانوس الرابع[٦٣]

رقم التسجيل: ١٧٨٦٠
الارتفاع: ٢٢ سم
المادة : تراكوتا
(صورة ٢٢، شكل ١٦)

فانوس من التراكوتا ذات لون أحمر داكن من نوعية متوسطة الجودة.

يعتبر هذا الفانوس من أكبر الفوانيس حجماً في الإسكندرية، حيث يبلغ طوله ٢٢ سم وذو جسم أسطواني نصف قطره ١١ سم، هذا الفانوس بسيط في صناعته حيث إنه مشكل على العجلة الفخارية ويتكون من أرضية مستديرة الشكل يستقر فوقها مباشرة الجسم الأسطواني الذي يخلو من أية زخارف عدا الفتحة المتسعة التي تأخذ شكل القوس الروماني، ومساحة هذه الفتحة غير منتظمة الخطوط وصنعت بطريقة بدائية. يغطي هذا الجزء الأسطواني سقف مخروطي الشكل به ثقب من الأمام لاندري مهمته.

أما نهاية السقف المخروطي فتشبه فوهة الإناء ولكنها مغلقة ولصق فوقها يد تستخدم لتعليق أو حمل الفانوس.

المجموعة الثالثة

تضمم هذه المجموعة أربعة فوانيس شكلت على هيئة مبان بسيطة على هيئة أشكال مربعة ذوات حافة مسلوبة لأعلى، وقد ميز الفنان قواعد تلك الأشكال من أسفل ببروز خارجي، ويتوج تلك الأشكال من أعلى إطارات بارزة غطيت من أعلى بأشكال هرمية، نفذت زواياها على امتداد زوايا المربع السفلي نفسها، كما ينتهي الشكل الهرمي من أعلى بفتحة دائرية استغلت لتعليق الفانوس وتحتوي تلك الأشكال من

(٦٢) اكتشف في الفيوم.

(٦٣) غير معلوم المصدر.

أسفل على فتحات مستطيلة الشكل بعضها متوج بإطارات والبعض الآخر وجدت في دخلات. وقد تم تنفيذ فوانيس هذه المجموعة عن طريق التشكيل باليد (صور ٢٣ ـ ٢٦).

الفانوس الأول(٦٤)

رقم التسجيل: ٨٤٢١
الارتفاع: ١٠ سم
المادة : تراكوتا
(صورة ٢٣، شكل ١٧)

صنع هذا الفانوس من تراكوتا ذات لون بني داكن ذي حبيبات دقيقة ومن نوعية جيدة، الغطاء الخارجي أحمر داكن.

هذا الفانوس يمثل شكل معمارياً عبارة عن حجرة مربعة تتميز قاعدتها ببروز خارجي وكذلك الجزء الذي يربط أعلى الجدار بالسقف الهرمي، ويبدو أن الفنان أراد أن يصور معبداً صغيراً ذا أعمدة من الخارج فجعل الأركان الأربعة تنبعج إلى الخارج من أسفل لكي يدلل بذلك على قاعدة العمود ومن أعلى لكي يدلل على تاج العمود في كل من الجوانب الأربعة.

وفي واجهة هذا الشكل المعماري صمم فتحة مستطيلة حددت بإطار معماري بسيط وهي تخدم غرضين: الأول أنها تعتبر باباً للمبنى والثاني أن يوضع بداخلها مسرجة للإضاءة. وقد زود كل حائط من الحوائط الجانبية للمبنى بأربع فتحات مثلثة الشكل في شكل زخرفي رائع حيث تتقابل رؤوس هذه المثلثات في الوسط، هذه الزخرفة توحي بالتهوية وانبعاث الضوء منها. إلى أعلى غطى المبنى بسقف هرمي الشكل ذي أربعة أضلاع يعلوها فتحة تأخذ شكلا نصف دائري لتعليق الفانوس.

الفانوس الثاني(٦٥)

رقم التسجيل: ٨٤٢٠
الارتفاع: ٥ر١٠ سم
المادة : تراكوتا
(صورة ٢٤، شكل ١٨)

صنع هذا الفانوس من تراكوتا ذات طين يميل إلى لون القرفة، والغطاء من اللون الأحمر الداكن ومن نوعية متوسطة الجودة.

وهو على شكل معماري بسيط الشكل يشبه في كل تفاصيله الفانوس رقم ١ عدا ثلاثة اختلافات جوهرية:
- أركان المبني لا تبرز كثيراً إلى الخارج من أعلى وأسفل.
- فتحة الباب المستطيلة غير منتظمة الأضلاع وغير محددة بأية إطارات معمارية وأكبر من الفانوس السابق رغم أن حجم الفانوسين متقارب.
- السقف الهرمي ذو الأضلاع الأربعة يأخذ نهاية شبه مدببة بداخلها ثقب لتعليق الفانوس.

أما الفتحات الجانبية فتأخذ أيضا نفس الشكل الزخرفي مثل الفانوس السابق.

الفانوس الثالث(٦٦)

رقم التسجيل: ٨٤٢٤
الارتفاع: ٥ر١٠ سم
المادة : التراكوتا
(صورة ٢٥، شكل ١٩)

صنع هذا الفانوس من التراكوتا تميل طينتها إلى لون القرفة ومغطاة بطبقة حمراء داكنة من نوعية متوسطة الجودة مع وجود آثار طبقة بيضاء كانت تغطي القطعة. وهو على شكل معماري بسيط الشكل يشبه في كل تفاصيله القطعة رقم ٢. ويختلف فقط في أن الواجهة محاطة بإطارات معمارية بسيطة الشكل ولو انها غير متقنة الصنع مثل المثال رقم ١.

الفانوس الرابع(٦٧)

رقم التسجيل: ٨٤٢٦
الارتفاع: ١١ سم
المادة : تراكوتا

---

(٦٤) اكتشف في الفيوم.
(٦٥) اكتشف في الفيوم.
(٦٦) اكتشف في الفيوم.
(٦٧) اكتشف في الفيوم.

(صورة ٢٦، شكل ٢٠)

مادة الصنع تراكوتا ذات لون بني متوسط وغطاء أحمر داكن جيد الصقل. يختلف هذا الفانوس عن المجموعة السابقة في وجود بروز خارجي في القاعدة فقط وهو بروز بسيط غير ملحوظ. أما الجدران فهي ملساء تصل إلى أعلى المبنى وقبل نهايتها يلتف حولها شريط بسيط، هذه الجدران الأربعة تحمل السقف الهرمي ذو أربع أضلاع وذو نهاية مدببة بها ثقب ضيق للغاية يستخدم لربط حبل رفيع بداخله لتعليق الفانوس.

أما فتحة الفانوس في الواجهة فهي مربعة الشكل تقريبا، والجدران الجانبيان ليس بهما أية زخارف أو فتحات.

المجموعة الرابعة

ويمثل هذه المجموعة سبعة فوانيس شكلت كل منها على هيئات معمارية مختلفة حيث شُكل بعضها على هيئة منارة الإسكندرية صورة ٢٧؛ والبعض الآخر على هيئة منازل ذات طابق واحد أو أكثر. (صورة ٣٠-٣٣)، وهي تدلنا على طرز المنازل الموجودة في مصر في فترة صناعة هذه الفوانيس، والبعض الثالث على هيئة معبد بسيط (صورة ٢٨، ٢٩)، وقد تم تنفيذ فوانيس هذه المجموعة عن طريق التشكيل باليد.

ورغم اختلاف فوانيس هذه المجموعة في أحجامها وأشكالها إلا أنها تتفق في تمثيل كل منها لمبنى معماري مختلف لذلك أرى تقسيم هذه المجموعة من حيث أشكال المباني إلى ثلاثة أقسام.

١ — فوانيس على شكل منارة الإسكندرية (فانوس واحد)

الفانوس الأول[٦٨]

رقم التسجيل : ٨٤١٧

الارتفاع: ١٨ سم

المادة : التراكوتا

(صورة ٢٧، شكل ٢١)

صنع هذا الفانوس من التراكوتا ذات اللون البني المتوسط الذي يميل إلى اللون البرتقالي وذو طبقة لامعة من نوعية ممتازة. تمثل هيئة هذا الفانوس أحد عجائب العالم القديم السبع التي كانت مقامة على الطرف الشمالي الشرقي لجزيرة فاروس وهي منارة الإسكندرية.[٦٩] ويؤكد لنا هذا الفانوس شكل المنارة التي ورد الحديث عنها عند معظم الكتاب القدامى.[٧٠]

يأخذ الفانوس شكل منارة الإسكندرية القديمة بكل أجزائها حيث يتكون البناء من ثلاثة طوابق، الطابق السفلي وهو مربع الشكل به باب كبير في الواجهة الأمامية للفانوس يحتل مساحة الواجهة كلها تقريباً. هذا الباب محدد بإطار غائر يعطي للباب تجسيماً أقوى. أما الأضلاع الثلاثة الباقية من الجسم المربع فقد صمم الفنان أربع فتحات مستديرة في كل منها لكي تخدم أغراض التهوية والإضاءة.

أما الطابق الثاني فهو مثمن الأضلاع يقوم فوق منتصف الطابق السفلي ويتكون كل ضلع من أربعة أحجار مستطيلة صنعت فوق بعضها، ويوجد ثلاث فتحات مستديرة فقط في هذه الأضلاع الثمانية لخدمة أغراض التهوية والإضاءة. أما الطابق الثالث فهو مستدير الشكل بدون أية فتحات في جدرانه، فوق هذا الطابق العلوي وضع الفنان حلقة دائرية ذات ثقب متسع وذلك لتعليق الفانوس منها.[٧١]

ويبدو شكل المنارة رائع للغاية وتعتبر هذه القطعة من أحسن القطع في هذه المجموعة من الفوانيس. أما

---

(٦٨) غير معلوم المصدر.

(٦٩) H. Thiersch, *Pharos, Antike Islam und Occident* (Leipzing: Verlag von b.G. Teubner, 1909), Pls. 1-3.

يسرق تيش عدداً هائلاً من أشكال منارة الإسكندرية التي ظهرت على عملات العصر الامبراطوري الروماني وبخاصة عملات من عصر دوميتيان وحتى نهاية القرن الثاني الميلادي.

(٧٠) Strabo, *Geographica 791* -2.

(٧١) هناك نموذج رائع آخر للمقارنة في الإسكندرية. قارن: Breccia, *Monuments* I (1926), p. 76 PI. XL, 5.

طريقة البناء المتبعة في هذا المبنى فهي طريقة وضع الأحجار في صفوف رأسية فوق بعضها.

٢ ـ فوانيس على شكل المعابد (فانوسان)

هذا القسم يتألف من فانوسين شُكلا على شكل المعبد، وهذه المعابد متباينة الطراز والشكل.

الفـانوس الأول[٧٢]

رقم التسجيل : ٩٤٥٠
الارتفاع: ١٣ سم
المادة : التراكوتا
(صورة ٢٨، شكل ٢٢)

صنـع هذا الفـانـوس من التراكوتا ذات اللون الأحمر الداكن من نوعية متوسطة الجودة.

فمن الأشكـال المهمـة التي ظهرت بها فوانيس الإضاءة في مجموعة الإسكندرية الفوانيس على هيئة المعـابـد. هذه المعـابـد إمـا أن تحتوي على فتحة مستـطيلة لوضـع المسرجـة داخلهـا بين العمودين الأمامين في الواجهة مثل القطعة رقم ٢ في هذا القسم أو أن الفتحة المستطيلة توجد في حجرة أسفل المعبد مثل هذه القطعة التي نحن بصدد الحديث عنها.

فهـذا الفانوس شُكل على هيئة معبد روماني[٧٣] يقف فوق قاعدة Podium ، وهذه الصفة من الميزات التي تميز المعبد الروماني بالذات حيث نصل إلى هذه القـاعـدة عن طريق عشر درجات في هذا الفانوس. المعبـد من النـوع البسيـط ذو حجرة واحدة تقف بداخلها الإلهة مينرفا. ويتكون المعبد من عمودين على طراز الكـورنثى، وهي ذات قنـوات تصل إلى ثلثي ارتفاع العمود وتترك الثلث السفلي خاليا، وأسفل كل عمود صور تمثال لأبي الهول في صورة سيدة تجلس في اتجـاه السلم، وقـد صور الفنان أبا الهول وهو يجلس بصـورة جانبيـة ليستغـل مساحة الحجرة السفليـة وجعل رؤوس السيدات في وضـع مواجهة للمشـاهد لكي يؤكد على طبيعة عمل هذه التماثيل وهي حماية المعبد من الشرور. أسفل هذه التماثيل توجد دعامتان مربعتان بينهما فتحة مستطيلة لوضع المسرجة بداخلها. اما أعلى الاعمدة فقد صور الفنان باقي أجـزاء المعبد وهي الأرشتيراف ذات السنون المـربعـة الشكل يعلوه الجمالون المثلث الشكل وفي وسطه صور قرص الشمس وهو عنصر زخرفي مصري بحت يدل على التأثير المصري في هذه الفوانيس. أما يد الفانوس فقد وضعها الفنان فوق رأس الجمالون وهي تختلف تماماً عن باقي الأيدي التي رأيناها من قبـل حيث مثلهـا بقطعة تخرج من وراء الجمالون تلتف بجزء منها فقط إلى الأمام لتستخدم للإمساك أو لتعليق هذا الفانوس.

أما حجرة المعبد الرئيسة فقد حددها الفنان بعدد من الإطارات وجعل مستوى هذه الإطارات أقل بروزاً من مستوى الأعمدة لكي يعطي أنطباعاً بالعمق في المنظر، داخل هذه الحجرة تقف الإلهة مينرفا بكامل ملابسهـا الحـربيةحيث ترتدي/ رداءً طويلا يغطي الأقدام وفوقه رداء قصير يصل إلى أعلى الأرداف، أما الصـدر فمغطى بالرداء الواقي من السهام aegis ، فوق الرأس تضـع الإلهـة الخوذة الحربية. وتقف الإلهة في وضع مواجهة للمشاهد مسندة على الساق اليسرى والتي يظهـر بجـوارهـا الدرع الخـاص بالإلهـة[٧٤]، أمـا الساق اليمنى فقد برع الفنان في تصويرها وهي ترجع إلى الخلف قليلاً، وكذلك نجح في إظهـارهـا شبه عارية من أسفل الملابس . وتمسك الإلهة باليد اليمنى إناء phiale كان مخصصاً للقرابين.

ويدلنا طراز المعبد على العصر الروماني وكذلك يدل طراز الملابس والشعر والعينين في تمثال الإلهة منيرفا على نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي.[٧٥]

الفـانوس الثـاني[٧٦]

رقم التسجيل : ٨٤١٩

---

(٧٢) غير معلوم المصدر.

(٧٣) Breccia, *Monuments* II 1 (1930), pp. 47 No. 196 Pl. 25,7; Perdrizet, *Les Terres Cuites*, p. 69, Pl. 59.

(٧٤) H. Cassimatis, *LIMC II* (1984), pp. 1045 Pl. 765 (3).

(٧٥) H. Jucker, *Gesichter*, pp. 110f.

(٧٦) اكتشف في الفيوم.

الارتفاع: ٥ر١٠ سم
المادة : تراكوتا
(صورة ٢٩، شكل ٢٣)

صنع هذا الفانوس من تراكوتا ذات لون أحمر داكن من نوعية متوسطة الجودة عليها آثار طبقة من الجير الأبيض.

كما سبق القول يتباين شكل هذا الفانوس في هيئة معبد مع مثيله في المثال السابق حيث يمثل هذا الفانوس على شكل معبد بسيط ذي حجرة واحدة على شكل نصف الدائرة من الخلف التي تشبه الحنية الرومانية، على جانبي المعبد من الأمام يوجد عمودان على الطراز الكورنثي الذي استخدمه الرومان في معظم معابدهم، يعلو هذين العمودين عتب مستطيل يربط بين الأعمدة وبين الجمالون الذي شُكل على هيئة نصف دائرة بدون أي زخارف بداخله، فوق هذا الجمالون توجد دائرية بدون أي زخارف بداخله، فوق هذا الجمالون توجد مسرجة كانت تستخدم كيد للإمساك بالفانوس أو لتعليقه منها، ويدلنا طراز هذه المسرجة على الطراز السائد في المسارج الرومانية في بداية القرن الثاني الميلادي.[٧٧] أما استخدام المسرجة كيد فوق الفوانيس فهو من الأشياء الفريدة للغاية في مجموعتنا هذه وكذلك في كل الفوانيس الرومانية بصفة عامة.

وبين العمودين الأماميين في الواجهة صمم الفنان فتحة مربعة طول ضلعها ١ر٣سم لوضع مسرجة الإضاءة بداخلها، ونلاحظ أن الفتحة قد شكلت باليد حيث إن الضلع العلوي يمثل زاوية قائمة مع الضلع الأيمن في حين أن الضلع السفلي يمثل زاوية دائرية مع الضلع الأيسر للمربع الذي صنع بدون أية إطارات حوله.

٣ ـــ فوانيس على شكل المنازل

يضم هذا القسم أربعة فوانيس شكلت في هيئة المنازل حيث نجد منازل من طابقين وأخرى من ثلاثة طوابق.

الفانوس الأول[٧٨]

رقم التسجيل : ٨٤٢٢
الارتفاع: ١٤ سم
المادة : تراكوتا
(صورة ٣٠، شكل ٢٤)

فانوس من التراكوتا حمراء اللون تميل إلى الدرجة الداكنة، وهي من نوعية متوسطة الجودة.

شكل هذا الفانوس على هيئة منزل مكون من طابقين يعلوهما سقف على شكل القبة التي أظهر الفنان مقدرة فنية عالية وكذلك دراية بقوانين العمارة في وضع هذه القبة فوق المبنى حيث جعل حوائط الطابق العلوي، تميل قليلاً إلى الداخل بحيث تضيق المساحة التي سوف يضع عليها القبة وفي أعلاها لصق اليد الخاصة بتعليق الفانوس. ويتكون المنزل هنا من طابقين، صور الطابق السفلي بمدخل يرتفع قليلاً عن القاعدة؛ هذا المدخل مستطيل الشكل ومحاط بعمودين لكل منهما قاعدة وتاج يعلوهما سجاف مزخرف بأسنان مربعة الشكل، الحوائط الخارجية لهذا الطابق ملساء وبدون زخارف. أما الطابق العلوي فيختلف تماماً عن الطابق السفلي في زخرفته حيث أكد الفنان هنا على أن هذه الفوانيس تطابق شكل المنازل عن طريق تقسيم الجدار الخارجي لهذا الطابق بتقسيمات توحي بأنها صفوف من الطوب، وقد استعمل الفنان هنا في بناء هذا الطابق بالكامل طريقة البناء الرومانية *opus tes-taceum*[٧٩]

في وسط واجهة الطابق العلوي وفوق المدخل بالتحديد صمم الفنان نافذتين وهما غير موجودتين الآن لوجود تلف في بهذه المساحة من الفانوس.

---

(٧٧) D. M. Bailey, *A Catalogue of the Lamps in the British Museum. Roman Lamps* (London: British Museum Publications, 1980), pp. 337 - 339. Pl. 72 Type Q group i.

(٧٨) اكتشف في الفيوم.

(٧٩) J. B. Ward - Perkins, *Roman Architecture* (New York; Harry N. Abrams, Inc. Publishers, 1977), p. 148 Pl. 164.

الفانوس الثاني(٨٠)

رقم التسجيل : ٢٣٠٩٣
الارتفاع: ١٩ سم
المادة : تراكوتا
(صورة ٣١، شكل ٢٥)

فانوس من التراكوتا ذات لون أحمر داكن ومن نوعية جيدة للغاية، وتظهر بعض البقع السوداء على جدار المنزل. وقد شكل هذا الفانوس على شكل منزل مكون من طابقين. الطابق السفلي له مدخل متسع نسبياً وذو نهاية علوية مقوسة، والمدخل هنا يبدأ مباشرة من الأرضية وغير محاط بعمودين كما في المثال السابق. أما الطابق العلوي فهو أكثر ارتفاعاً من الطابق السفلي وقد صمم الفنان في وسط واجهته نافذة ذات ضلفتين صنعتا باليد بدون انتظام، ونلاحظ أن النافذة غير مصممة في وسط الجدار بالضبط ولكنها تنحرف قليلاً إلى اليسار، ولا تقع على نفس محور المدخل السفلي، أما الجدار الخلفي للطابق العلوي فيحتوي على نافذة وهمية ذات ضلفتين. وقد زخرف الفنان الفانوس بالكامل بخطوط تحدد شكل الأحجار ، هذه الخطوط قد نحتت باليد وهي تدلنا على طريقة البناء في هذا المنزل حيث استعملت طريقة opus isodomum (٨١)

أما سقف المبنى فلا يأخذ شكلاً معمارياً وإنما استعاض الفنان عنه بتصوير تمثال نصفي لشاب يرتدي غطاء فوق راسه مما يدل أن هذه الشخصية كانت لكاهن ويلتف غطاء الرأس حول الرقبة وينزل على الصدر. تظهر تسريحة الشعر أسفل غطاء الرأس بوضوح حيث تتكون من خمس خصلات متفرقة تنزل على الجبهة مما يقرب هذا الشخص من الملامح التي صور بها الإله سرابيس في العصر الروماني، وقد استطاع الفنان إضفاء الوقار على شخصية هذا الشاب بأن صوره ذا لحية خفيفة وينظر إلى أسفل، العينان ملسواوان، كل هذه الخصائص في النحت ترجح أن هذا التمثال يرجع إلى عصر تراجان في بداية القرن الثاني الميلادي.(٨٢)ل

الفانوس الثالث(٨٣)

رقم التسجيل : ٨٤١٨
الارتفاع: ١٤ سم
المادة : تراكوتا
(صورة ٣٢، شكل ٢٦)

هذا الفانوس مصنوع من التراكوتا ذات اللون الأحمر الداكن ولكن من عوعية متوسطة الجودة.

شُكل هذا الفانوس على هيئة منزل ذي ثلاث طوابق يقف على مساحة مربعة الشكل. الطابق السفلي مكون من مدخل مربع الشكل يرتفع قليلاً عن ارضية البناء وهذا المدخل لا يوجد في وسط المبنى بالتحديد حيث نجد أن مساحة الجانب الأيمن البناء اقل اتساعا من الجانب الأيسر. يعلو هذا المدخل عتب عرضية سميكة الحجم. أما الطابق الأوسط فهو اقل حجما من الطابقين اعلوي والسفلي يعلو المدخل في الوسط فتحتان مستطيلاتان أفقيتان حولهما مساحة ملساء. أما االطابق العلوي فيتوسطه مساحة ملساء تقع على نفس محور المدخل في أعلاها نافذتان مربعتا الشكل وتوجد أسفل النافذة اليسرى فتحة مستديرة خاصة للتهوية.

وقد قسم الفنان المنزل بالكامل إلى تقسيمات حجرية في صفوف أفقية وحدد أشكالها عن طريق النحت باليد وقد استخدم الفنان هنا طريقة opus isodomum (٨٤) في تغطية البناء بالكامل فوق الطابق العلوي يوجد سقف هرمي الشكل ولكنه غير متساوي الأضلاع حيث إن الجزء الأيسر منه يظهر في شكل مقوس.

الفانوس الرابع(٨٥)

رقم التسجيل : ٢٥٧٥٣
الارتفاع: ٥ر١١ سم

---

(٨٠) مشترى عام ١٩٣٢م.
(٨١) Vitruvius, *De architectural* II 8, 6.
(٨٢) A. Leibundgut - Maye, *Gesichter* (1982), pp. 114f.
(٨٣) اكتشف في الفيوم.
(٨٤) Vitruvius, *De architectural* II 8, 6.
(٨٥) مشترى في مايو ١٩٤٠م.

المادة : تراكوتا
(صورة ٣٣، شكل ٢٧)

هذا الفانوس من التراكوتا ذات اللون الأسود جيدة الحرق ومن نوعية جيدة.

يعتبر هذا الفانوس من الأمثلة الفريدة في تصوير الفوانيس حيث شكل على هيئة منزل ذي ثلاث طوابق يعلوها سقف جمالوني الشكل. وفضلاً عن النوعية الجيدة لهذا الفانوس إلا أنه يصور في الطابق العلوي شرفة ذات ستائر. يتكون الطابق السفلي من مدخل مربع الشكل يرتفع عن قاعدة الفانوس ويحتل المساحة الوسطى من الطابق السفلى تاركاً حوله مساحة كبيرة على الجانبين حيث نجد أن المساحة اليمنى أقل عرضاً من المساحة اليسرى. أما الطابق الأوسط فيحدده أفريزان أفقيان تمت زخرفتهما بأسنان مربعة بين المداميك الصغيرة على واجهة وجانبي الفانوس.

أما الطابق العلوي فهو فريد في تكوينه حيث يصور شرفة بعمود على كل جانب، وفي وسطها أيضا أقيم عمود على نفس النمط. وقد برع الفنان في تصوير ستائر تتدلى من أعلى.

ويظهر من خلال زخرفة الفانوس أن المبنى كان مكسوا بطبقة خارجية من الطوب غير السميك، ويظهر من تحتها حول المدخل البناء السفلي الذي كان مبنياً من الكتل الحجرية الكبيرة الحجم. وقد رص الفنان الطوب بطريقة opus isodomum [٨٦]

من خلال العرض السابق الذي عرضت فيه بالدراسة الوصفية والتحليلية لمجموعات الفوانيس يبرز استفسار جديد يدور حول مدى العلاقة الفنية التي تربط بين الموضوعات الزخرفية وبين الناحية العقائدية السائدة في ذلك الوقت وبخاصة صورة الآلهة.

فمن ناحية الشكل العام للفانوس نجد ارتباط الفانوس واضحاً بإضاءة المشاعل حيث صمم الفنان الفانوس وحدد جانبيه من الأمام بشكل الشعلة المضاءة وهو مانجده في معظم فوانيس مجموعة الإسكندرية (قارن الصور١ ـ ١٨). ومن المعروف ان استخدام المشاعل في الأعياد الدينية في مصر كان منتشراً في العصور الفرعونية، وظل استخدامه شائعا حتى بعد ظهور المسارج والفوانيس في العصر الروماني[٨٧] ويحدثنا هيرودوت بكل إسهاب عن أعياد مدينة سايس sais التي يحتمل أنه شاهدها بنفسه. وكان الاحتفال الرئيس في الوقت الذي كتب فيه هيرودوت ـ وهو أواسط القرن الخامس ق.م ـ هو احتفال المشاعل أو المسارج Auxvokaiy [٨٨] وهو الاحتفال الذي كان يقام على شرف الإلهة نيت Neith وكذلك يحدثنا تيميستيوس[٨٩] Themistius عن هذه الأعياد التي يحضر إليها مشاركون من جميع انحاء مصر إلى مدينة سايس. فعند حضور الجماهير إلى المعبد توقد الأنوار حول الخيام وحول أسوار المعبد مما يجعل مدينة سايس تبدو كعروس في حلة نسجت من الأضواء المنبعثة من المشاعل. أما من لم يستطع الحضور إلى سايس فكان على الأقل يوقد الأضواء في منزله على شرف الإلهة وبذلك لا يكون الاحتفال بعيد الإلهة نيت Neith في سايس فقط بل في كل أنحاء مصر.[٩٠] لذلك نشأت الحاجة إلى استخدام أشكال توحي بالإضاءة في مثل هذه المناسبات مما يعلل وجود المشاعل حول الفوانيس بوصفها رمزاً للإضاءة لمن لم يستطع حضور حفل الإلهة نيت.

وتكمن أهمية هذه المجموعة من الفوانيس في المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية في أنها تزودنا من ناحية هيئة الفانوس بالعديد من المعلومات عن الحياة اليومية في مصر في هذا العصر حيث صمم الصانع العديد من الأشكال التي استمد تصميماتها من الواقع، فمثلاً لدينا شكل رائع لمنارة الإسكندرية (صورة ٢٧) التي صورها الفنان بطوابقها الثلاثة وببعض التفاصيل.

لدينا أيضا العديد من الأمثلة التي تعطينا فكرة

(٨٦) Vitruvius, *De architectura* II 8,6.

(٨٧) S. Sauneron, *Fetes religieuses d'Esna aux derniers siecles du paganisme* (Paris: n.p., 1962), p. 270.

(٨٨) Herodotos, *Historia*, II 62.

(٨٩) Themistius, *Orat IV* - 49.

(٩٠) Herodotos II 62.

متواضعة عن أشكال المنازل في هذا العصر حيث نجد منازل ذوات طابقين (صور ٣٠، ٣١) ومنازل ذوات ثلاثة طوابق هذا فضلا عن تمثيل بعض طرق البناء المتبعة في هذا العصر تمثيلاً دقيقاً (صور ٣٢، ٣٣).

هذا بالإضافة إلى تشكيل بعض الفوانيس على هيئة المعابد حيث تدلنا على طرز سادت في هذا العصر فمنها ما يصور معبداً على النمط الروماني (صورة ٢٨) ومنها ما يصور معبداً على النمط المصري (صورة ٢٩). وكذلك تشكيل بعض الفوانيس على هيئة مبنى مربع ذي سقف هرمي من أعلى (صور ٢٣ - ٢٦) ومبان أخرى أسطوانية الجسم (صور ١٩ ، ٢٢).

وكما جاء في معرض الحديث عن المجموعات التي تتكون منها طرز هذه الفوانيس في المتحف اليوناني الروماني نجد أن الغالبية العظمى من فوانيس هذه المجموعة تأخذ الشكل الأسطواني المسلوب، وعدد هذه الفوانيس ثمانية عشر، اي انها تمثل حوالي ٥٥٪ من المجموع الكلي لهذه الفوانيس، ونجد النسبة تزيد كثيراً في بعض المجموعات الأخرى من الفوانيس[٩١] أما من ناحية الموضوعات المصورة على هذه المجموعة من الفوانيس فنجد أن أغلبها موضوعات دينية تصور آلهة فمنها ستة فوانيس تصور الإلهة مينرفا (صور ١، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٣) وإثنان يصوران الإلهة ڤينوس (صور ٢،٣) وأربعة تصور الإله كيوبيد (صور ٤،٥، ٦، ١٨) هذا إلى جانب ظهور منظرين من عالم الإله باخوس (صور ١٥، ١٦) وتتفق معظم هذه الأشكال إلى حد كبير مع أمثلتها التي نفذت في التماثيل البرونزية.[٩٢] ومما يلفت النظر في هذه المجوعة ندرة ظهور آلهة مصرية صرفة على هذه الفوانيس حيث نجد فقط قطعة واحدة تمثل الإلهة إيزيس ديمتر (صورة ١٢) وأخرى تمثل الطفل حربوقراط (صورة ١٧). ونلاحظ من هذا التصنيف السابق للموضوعات المصورة أن هذه الفوانيس من المجموعة الأولى تتعلق كل مناظرها بالحياة الدينية ولكن لا يمنع ذلك ظهور مناظر لجنسيات مثل الزنوج على قطعة واحدة (صورة ١٤) وسيدة واقفة تعزف الموسيقى (صورة ٧).

من الاحصائية السابقة ومقارنة بمجموعة فوكية في باريس نستطيع القول أن هذه الفوانيس كانت ترتبط بشكل أو بآخر بالإلهة اثينا إلهة الحرب[٩٣] اليونانية (مينرفا الرومانية) التي تظهر ممثلة على العديد من الفوانيس في مجموعة فوكية وبخاصة على فوانيس المجموعة الأولى فيها. ولعل السبب وراء ذلك أن الفانوس الأسطواني المسلوب يرجع إلى أصول يونانية في العصر الهلينستي كما يرى Loeschke[٩٤] أيضا . ويرجع ذلك عدم ظهور الإلهة إيزيس أو حربوقراط أو آلهة مصرية أخرى على هذه الفوانيس إلا نادراً رغم اكتشاف معظم هذه الفوانيس في الإسكندرية والفيوم. ولكن في حقيقة الأمر أن الفنان كان يعتمد بالفعل على تصوير الإلهة أثينا والإلهة ديونيسوس لأن هذه الفوانيس كانت ترتبط بأعياد المشاعل التي كانت تقام في مدينة سايس على شرف الإلهة المصرية نيت وهي التي كانت تماثل الإلهة اثنيا بالنسبة لليونانيين المقيمين في مصر وبالتالي استمرت عبادتها في العصر الروماني في سايس في صورة الإلهة مينرفا إلهة الحرب الرومانية.[٩٥]

وقد ارتبطت الإلهة اثينا اليونانية بالإلهة نيت المصرية[٩٦] التي كانت تحمل نفس الصفات حيث كانت نيت تصور حاملة القوس والرمح وكانت فاتحة الطرق في المعارك ويطلق عليها أيضا سيدة القوة وإلهة الحكمة، لذلك أطلق اليونانيون عليها اسم إلهة الحرب وساووها بإلهتهم أثينا وبالتالي ساواها

(٩١) Dunand, *Lanternes*, p. 79.

تصل النسبة في مجموعة فوكيه بباريس إلى ٧٢,٥٪ من المجموع الكلي لفوانيس هذه المجموعة.

(٩٢) عزت قادوس «التماثيل البرنزية الصغيرة في الإسكندرية» (بحث غير منشور)

(٩٣) Dunand, *Lanternes*, Pl. VII 1.

(٩٤) S. Loeschke, Antike Lanternen, in *Bonner Jahrbucher 118*, (Bonn: Romische Germanishe Kommission, 1990), pp. 376 - 380.

(٩٥) G. Perrot - Ch. Chipiez, *Histoire de l'art Dans l'antiquite* (Paris: n. p., 1911), p. 69.

(٩٦) بدأت العلاقة بين الإلهة اثينا والإلهة نيت في عهد ملوك الأسرة =

الرومان بالهتهم مينرڤا. وكذلك يرى Weber (٩٧) من خلال نصوص إسنا التي تصف حفل وصول الإلهة نيت إلى مدينة سايس في الثالث عشر من شهر أبيب Epiphi أن استخدام المصابيح كان ملازماً لهذا الحفل منذ عهد هيرودوت وحتى العصر الروماني مما يفسر وجود عدد كبير من الفوانيس التي صورت عليها الإلهة أثينا ـ نيت.

أما ظهور الإلة ديونيسوس أو مناظر من عالم هذا الإله على هذه الفوانيس فيرجع بطبيعة الحال إلى العلاقة القوية التي قامت بين الإله ديونيسوس والإله أوزوريس المصري والتي يتحدث عنها الكتاب الكلاسيكيون(٩٨) فضلاً عن وجود عبادة الإله ديونيسوس في مصر منذ عصر بطليموس الثاني.(٩٩)

وليس غريباً أن تظهر على هذه الفوانيس مناظر للإلهة فينوس إلهة الحب والجمال وذلك للإقبال الشديد الذي لاقته تماثيل هذه الإلهة في مصر خلال العصر الروماني(١٠٠) وبالتالي من الطبيعي أن يظهر أيضا ابنها الإله كيوبيد إله الحب على العديد من الفوانيس في مجموعتنا على اعتبار أنه يصور أيضا الطفل حربوقراط أحد آلهة الثالوث المقدس المصري(١٠١) الذي ظهر هو أيضا على أحد الفوانيس في مجموعة الإسكندرية (صورة ١٧)، وتظهر أيضا صورة واحدة للإلهة إيزيس ـ ديمتر(١٠٢) التي اقترنت عبادتها بالإلهة الرومانية سيريس إلهة الزراعة والحبوب في الإسكندرية.(١٠٣)

في هذه المجموعة أيضا تظهر صور فردية متنوعة من المجتمع حيث يظهر على واجهة أحد الفوانيس منظر لزنجي (صورة ١٤) ويبدو أن تصوير الزنوج على الفوانيس كان يعبر عن مهنة هؤلاء كحملة للفوانيس.(١٠٤) وكذلك نجد أحد الفوانيس مصوراً على وجهتها سيدة تعزف الموسيقى (صورة ٧) . أما عن تشكيل الفنان لبعض نماذج الفوانيس على هيئة الدور السكنية فربما أراد بذلك أن يثبت أن أهل تلك الدور كانوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بعبادة الإلهة أثينا ـ نيت وفي الوقت نفسه رمز الفنان إلى الصلة الدينية المرتبطة بتلك العبادة ممثلة في ظهور النوافذ التي شكلت على واجهات تلك المباني لتعبر عن انبعاث الضوء من داخلها في أثناء الليل أي أن الفنان قد رمز بذلك إلى شيوع عبادة الإلهة أثينا ـ نيت في مصر في ذاك الوقت. أما عن تشكيل الفنان بعض نماذج تلك الفوانيس على هيئة منارة الإسكندرية (صورة ٢٧) ربما أراد الفنان بذلك أن يجعل من الإلهة أثينا ـ نيت رمزاً يهتدي به العامة كما يهتدي القادمون إلى الإسكندرية بأضواء منارتها.

أما عن تشكيل الفنان للفوانيس على هيئة المعابد البسيطة فهو أمر طبيعي يعبر عن صلة هذه الفوانيس بأماكن العبادة.

محاولة لتاريخ فوانيس مجموعة الإسكندرية

يمثل التأريخ في بهذه المجموعة عائقا كبيراً أمام

= السادسة والعشرين (٦٦٣ ـ ٥٢٥ق.م) وكان مقرهم مدينة سايس حين ساعدهم الجنود المرتزقة الأغريق على الاستيلاء على الحكم في مصر كلها حيث قرن الأغريق إلهة إلهة سايس الرئيسية نيت Neith بالهتهم اثينا إلهة الحرب ويحدثنا باوزانياس عن وجود معبد في شبه جزيرة البلوبونيس للإلهة Ἀθηνα Σαϊτις الذي أسس نتيجة لعلاقة بلاد اليونان مع الأسرة الحاكمة في سايس (Pausanias II 198) بل ويطلق على الإلهة نيت في العديد من البرديات اليونانية من مصر اسم الإلهة اثينا حتى إذا كان الحديث عن اعياد مصرية بحته قارن P. Oxy. 1380; P. Hibeh 27, 165; P. London 121, 644. ويذكر الكتاب الكلاسيكيون اسم الإلهة اثينا من سايس Ἀθηνα Σαϊτις/ عندما يتحدثون على الإلهة المصرية نيت، أنظر:
Herodotos II 59; *Plato, Timaios* III 21; Plutarchos, *De: Iside* 9; Diodoros I 12, 7; Strabo 802, 817.

(٩٧) Weber, Die Agyptisch - Griechischen Terrakotten, pp. 110 f. pp.249 f.

(٩٨) Herodotos II 42; *Plutarchos*, 34 - 37; Diodoros I 11, 25.

(٩٩) P. M. Fraser, *Ptolemaic Alexandria* (Oxford: Clarendon Press, 1972), p.44.

(١٠٠) Plinius, *Historia Naturalis*, XXXVI 20-22.

(١٠١) Fraser, *Ptolemaic Alexandria*, pp. 246 - 276.

(١٠٢) Herodotos II 59, 156; Diodoros I 13.

(١٠٣) هناك تمثال برونزي في المتحف اليوناني الروماني (رقم ٢٥٥٠) يصور الإلهة إيزيس في هيئة الإلهة سيريس الرومانية.

(١٠٤) Breccia, *Monuments* II 2; Pl. XXIV 378.

الباحثين لعدم توافر أدلة ومعلومات كافية حول ظروف اكتشاف هذه الفوانيس. لذلك فقد حاولت وضع تأريخ تقريبي لها من خلال الاعتماد على مقارنة الأساليب والطرز الفنية في الفوانيس مع مثيلاتها المشابهة لها والمعلومة التأريخ وعن طريق مقارنة البعض الآخر بأمثلة مشابهة من ناحية الشكل والمضمون وسوف يجد القارىء هذا التأريخ واضحا في ثنيات البحث وعند الحديث عن كل فانوس على حده. ويمكننا بشكل عام أن نضع ترتيباً وتأريخاً لكل مجموعة من المجموعات الأربع سالفة الذكر.

فالمجموعة الأولى (صور ١ ـ ١٨) تحتوي على العديد من أشكال النحت والتي توضح الطرز الفنية التي سادت في نهايةالقرن الأول الميلادي واستمرت حتى مابعد منتصف القرن الثاني الميلادي أي في الفترة مابين عصر الأمبراطور دوميتيان (٨١ ـ ٩٦م) وحتى عصر الأمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠م) أي أنها تعاصر فترة فنية مزدهرة للغاية في النحت الروماني في مصر[١٠٥] خاصة وأن هذه الفترة المذكورة تمر بفترة حكم الأمبراطور هادريان الذي كان عاشقاً للفن اليوناني مما يرجح الأصول الفنية لهذا النوع من الفوانيس.

أما المجموعة الثانية (صورة ١٩ ـ ٢٢) فيصعب بأي حال تأريخها نظراً لقلة أعداد فوانيسها من ناحية وكذلك لعدم وجود أية دلائل معمارية أو نحتية على هذه الفوانيس من ناحية أخرى، هذا فضلا عن أن هذه المجموعة تعتبر أردأ المجموعات من ناحية الصناعة ونوعيةالطين المستخدم في صناعتها وربما كانت هذه المجموعة تمثل البدايات الأولى لصناعة الفوانيس في بداية العصر الروماني في مصر.

وتمثل المجموعة الثالثة عددا من المباني (صورة ٢٣ ـ ٢٦) مربعة الأضلاع وذات سقف هرمي رباعي الأضلاع وهي إن رمزت إلى شيء فإنما ترمز لشكل المعبد البدائي الذي كان يتكون من حجرة واحدة مسقوفة وقد جعل الفنان قاعدة هذه المباني تنبعج إلى الخارج من أسفل ومن أعلى ليحقق بذلك تخيلاً لقاعدة وتاج العمودين الملازمين لواجهة المعبد. ولارتباط هذه الأشكال بأشكال المعابد يقترح دوناند[١٠٦] لنفس الأشكال في مجموعة فوكية تأريخاً مقبولا هو نهاية القرن الأول الميلادي وبداية القرن الثاني رغم أنه لم يذكر أية دلائل أو مقارنات تعضد هذا التاريخ.

أما المجموعة الرابعة من فوانيس الإسكندرية (صورة ٢٧ ـ ٣٣) فهي رومانية الطابع حيث المعبد الروماني الذي يقف فوق قاعدة مرتفعة ويوجد في وسط جمالونه المثلث الشكل قرص الشمس (صورة ٢٨) الذي يدل على التأثير المصري في هذه الفوانيس، ويظهر هذا الطراز على عملات القرن الثاني الميلادي.[١٠٧] ويعضد هذا التأريخ أيضا شكل المعبد (صورة ٢٩) الذي يحتوي على جمالون مستدير من أعلى والذي يظهر أيضاً على عملات أباطرة القرن الثاني الميلادي.[١٠٨] ومما يؤكد هذا التاريخ أيضا طراز المسرجة التي استخدمت كمقبض للتعليق فوق سقف المبنى نفسه (صورة ٢٩) والتي ترجع إلى القرن الثاني الميلادي أيضا.[١٠٩] هذا إلى جانب طرق البناء الرومانية المعروفة التي ظهرت على منازل هذه المجموعة (صورة ٣٠ ـ ٣٢) وكذلك على جدران

---

(١٠٥) يقترح Dunand العصر الأنطونيني تاريخا لمجموعته التي تحمل نفس أشكال الفوانيس في مجموعة فوكيه بباريس. أنظر:
Dunand, *Lanternes*, p. 86.

(١٠٦) Dunand, *Lanternes*, p. 86.

(١٠٧) يظهر هذا الطراز على العديد من العملات الرومانية في مصر حيث نجده على عملات ترجع إلى عصر الأمبراطور هادريان، قارن:
R. Poole. *Catalogue of the Coins in Alexandria and the Nomes* (Bologna: Arnaldo Forni, 1964), pp. 102 f. Pl., XXVIII Nr. 881. *R. Poole,*
وكذلك على عملتين ترجعان إلى عصر الأمبراطور أنطونينوس بيوس. قارن:
Poole, *Catalogue*, pp. 142 f. XXVIII Nrs, 1191, 1198 p. 150, Pl. XXVIII Nr.
وكذلك على عملة من عهد الأمبراطور ماركوس أوريليوس

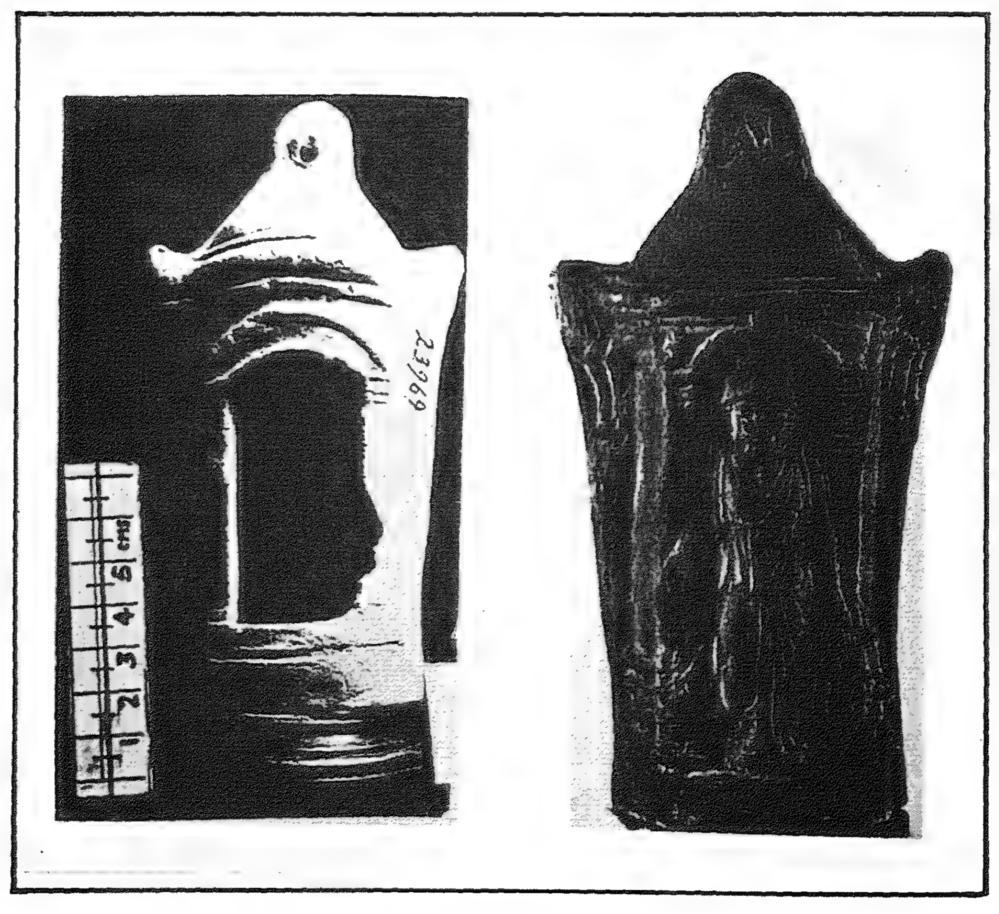
(١٠٨) يظهر هذا الطراز من المعابد على عملات القرن الثاني الميلادي قارن: Poole, *calalogue*, 102 Pl. XXVIII Nr. 877 وكذلك على عملتين من عصر الأمبراطور أنطونينوس بيوس، قارن:
Poole, *Catalogue*, p. 142 f., Pl. XXVIII Nrs. 1194, 1197.

(١٠٩) قارن حاشية رقم ٧٧.

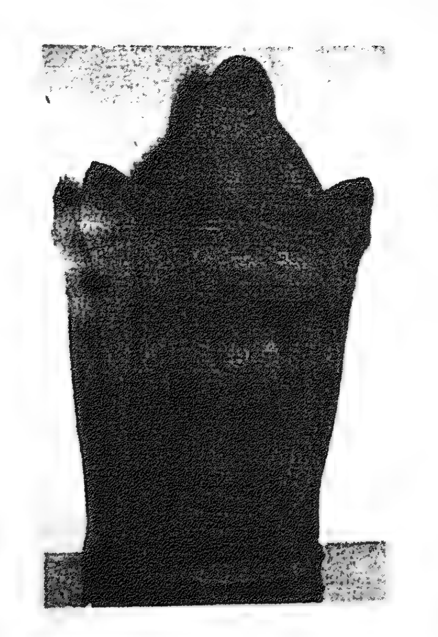
منارة الإسكندرية (صورة ٢٧)، وكذلك طراز النحت الخاص بعصر الأمبراطور تراجان والذي ظهر في الصورة الشخصية المصورة فوق أحد المنازل (صورة ٣١). كل هذه الدلائل تدعونا إلى القول أن هذه المجموعة ترجع إلى القرن الثاني الميلادي.

الخاتمة

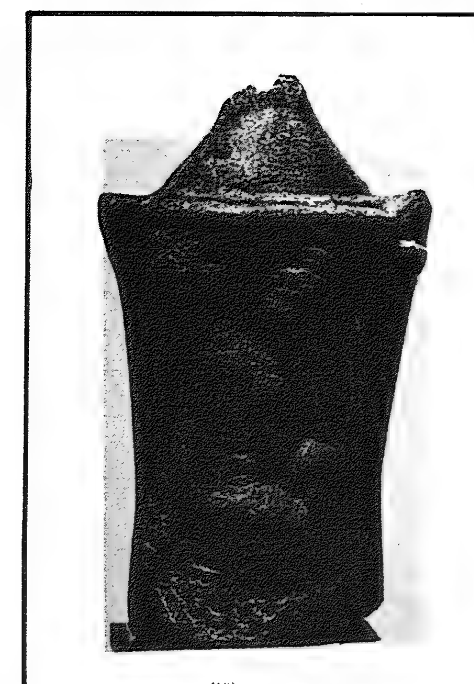
في ضوء العرض السابق لمجموعة الفوانيس الفخارية المحفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، والتي تناولتها بالدراسة الوصفية والتحليلية وعرضت من خلالها لآراء الباحثين السابقين وما توصلت إليه من آراء بناء على مجموعة الاستفسارات والتساؤلات التي فرضتها طبيعة هذا البحث إلى جانب التصنيف الفني الجديد الذي وضعته لتلك المجموعة وفقاً لاعتمادنا على أساليب زخرفتها وطرق تشكيلها، إلى جانب عقدنا لدراسة مقارنة مع مجموعات أخرى لعلى أكون قد تمكنت من وضع تاريخ لتلك المجموعة وكشف النقاب عن ماهيتها الفنية والوظيفية. وأملي أن أكون قد وفقت في تغطية كافة جوانب البحث وأن أكون قد وضعت أجابات واضحة حول علامات الاستفهام الكثيرة التي كانت تحيط بهذه المجموعة في الإسكندرية.



صورة (١)



صورة (٢)



صورة (٣)



صورة (٤)



صورة (٥)



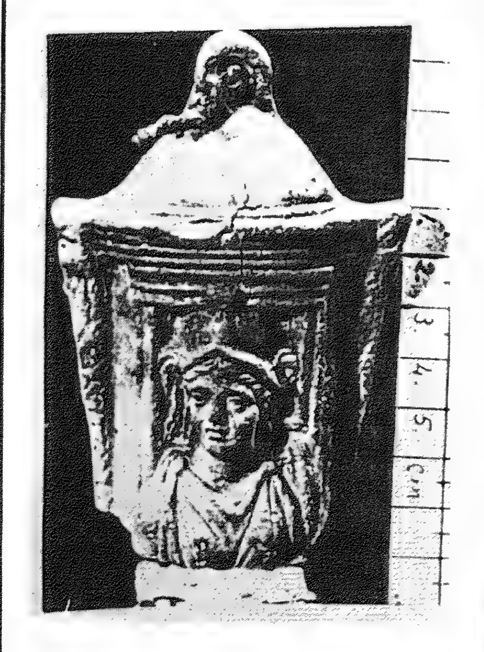
صورة (٦)



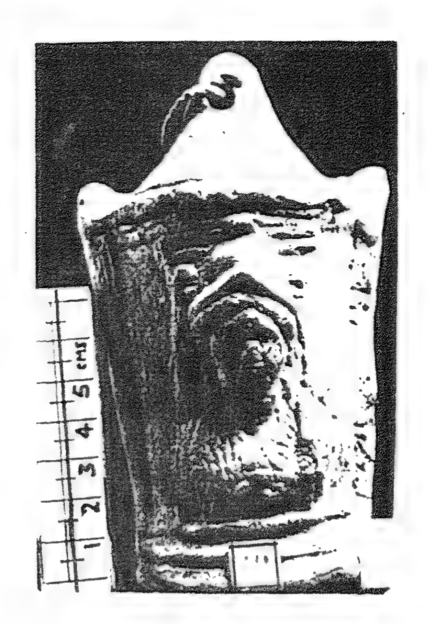
صورة (٧)



صورة (٨)



صورة (٩)



صورة (١٠)



صورة (١١)

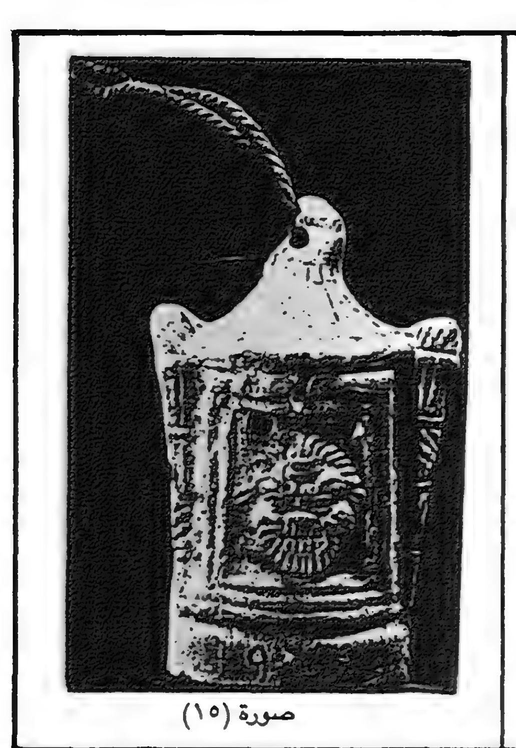


صورة (١٢)

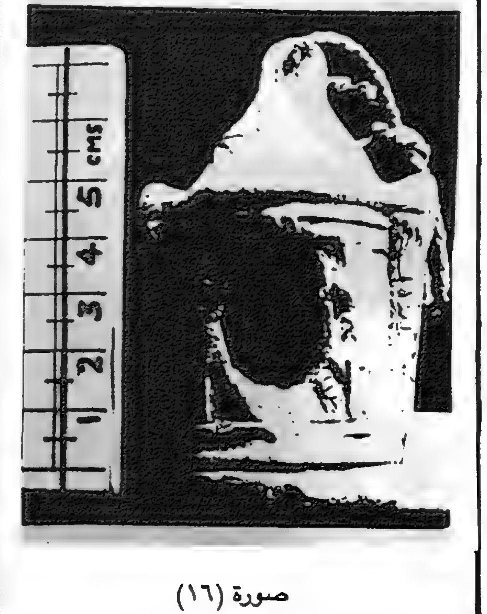


صورة (١٣)

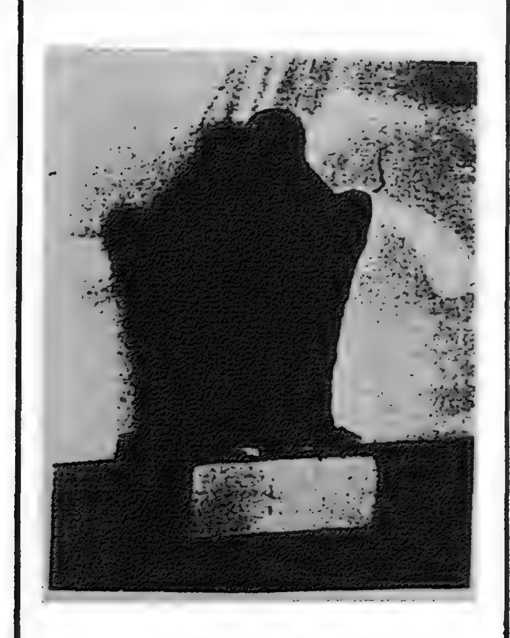
صورة (١٤)



صورة (١٥)



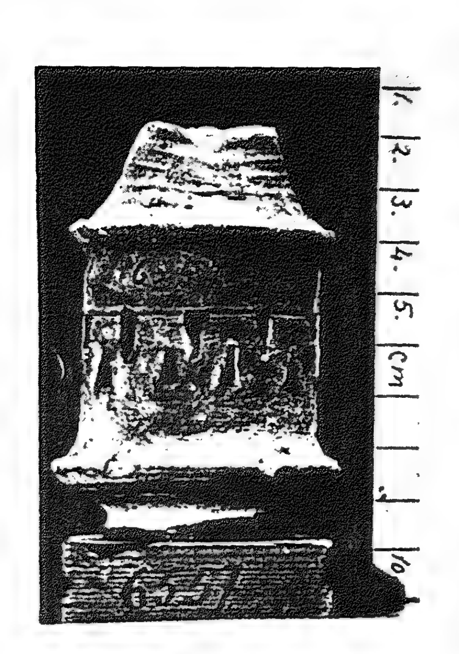
صورة (١٦)



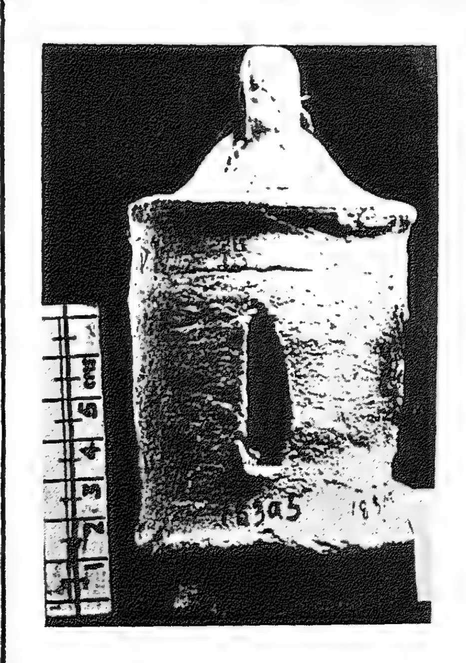
صورة (١٧)



صورة (١٨)



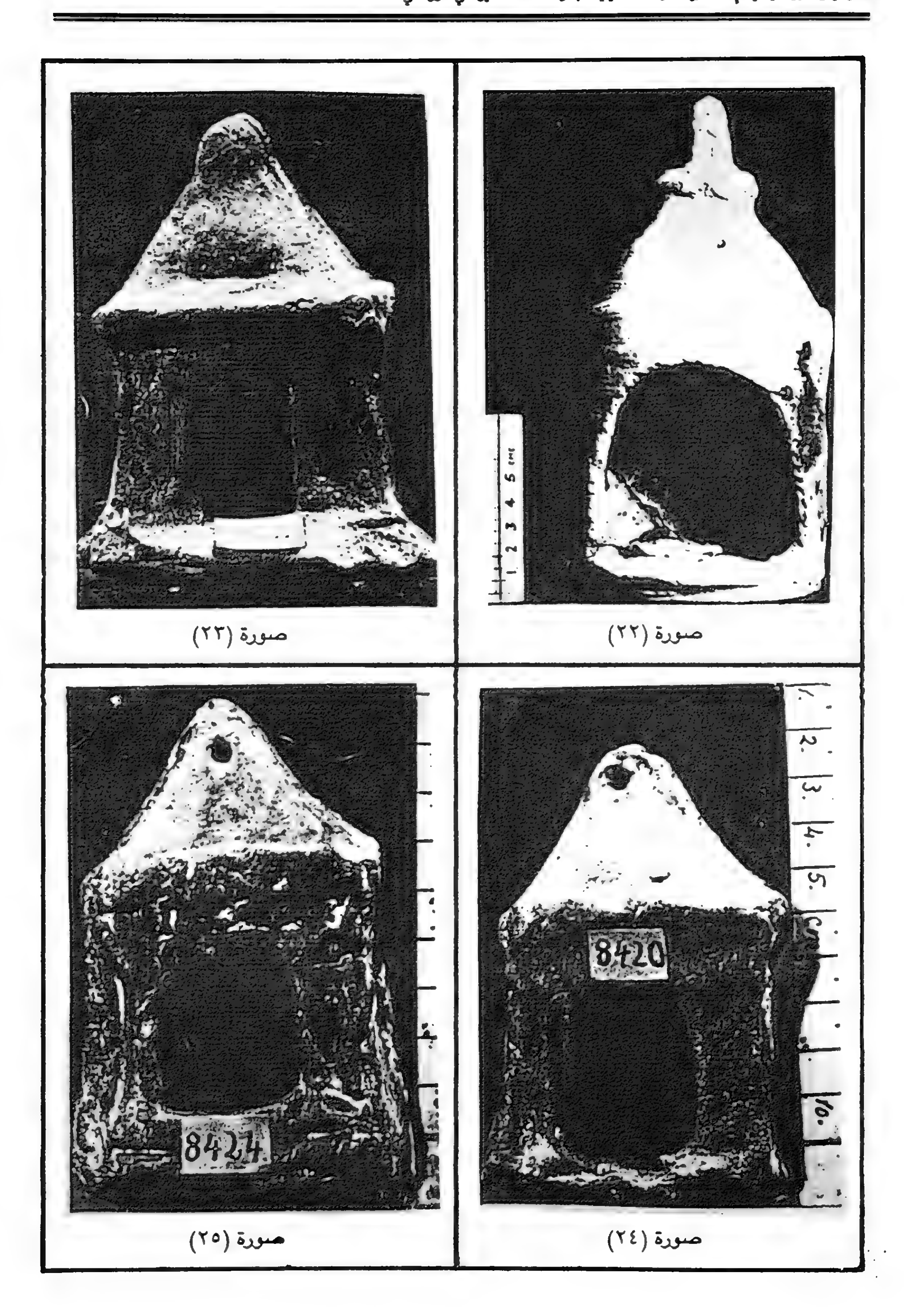
صورة (١٩)



صورة (٢٠)



صورة (٢١)

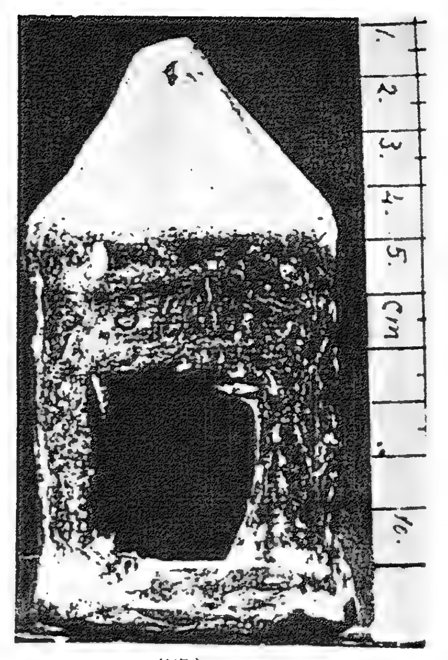


صورة (٢٢)

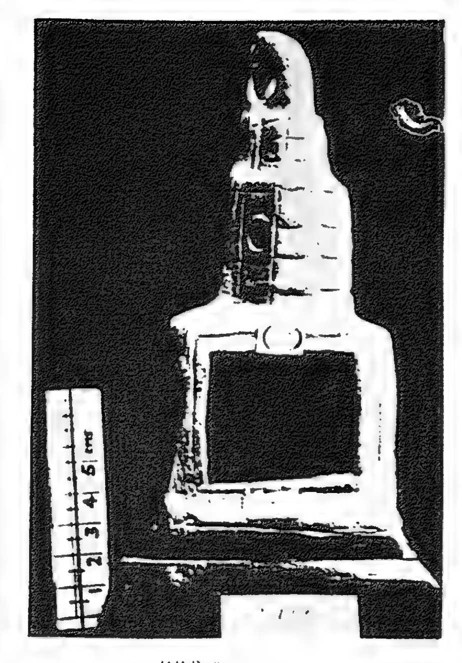
صورة (٢٣)

صورة (٢٤)

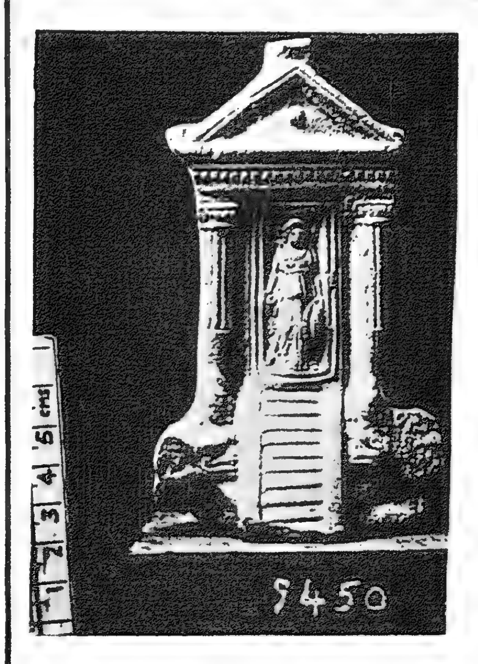
صورة (٢٥)



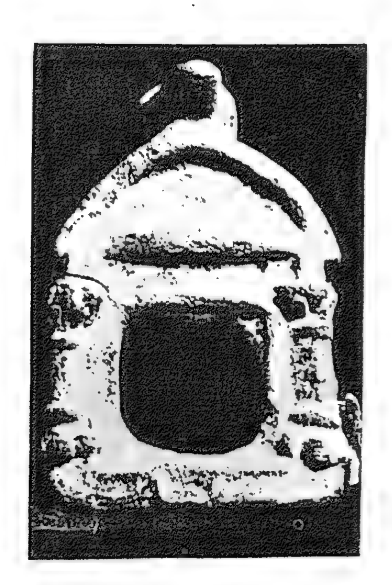
صورة (٢٦)



صورة (٢٧)



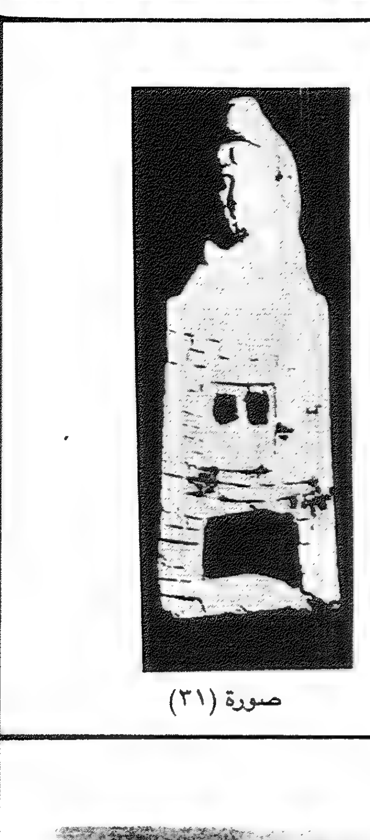
صورة (٢٨)



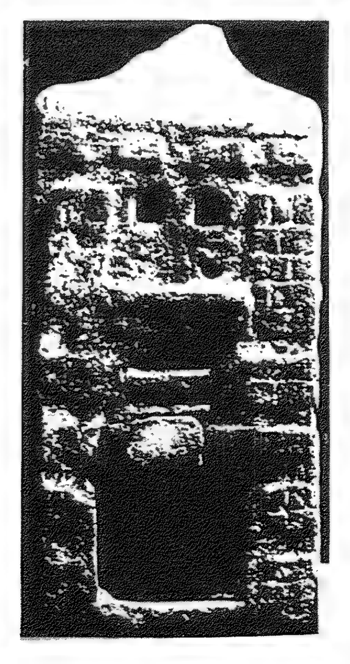
صورة (٢٩)



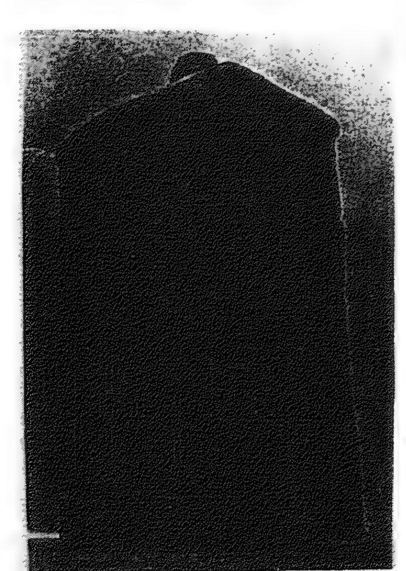
صورة (٣٠)



صورة (٣١)



صورة (٣٢)

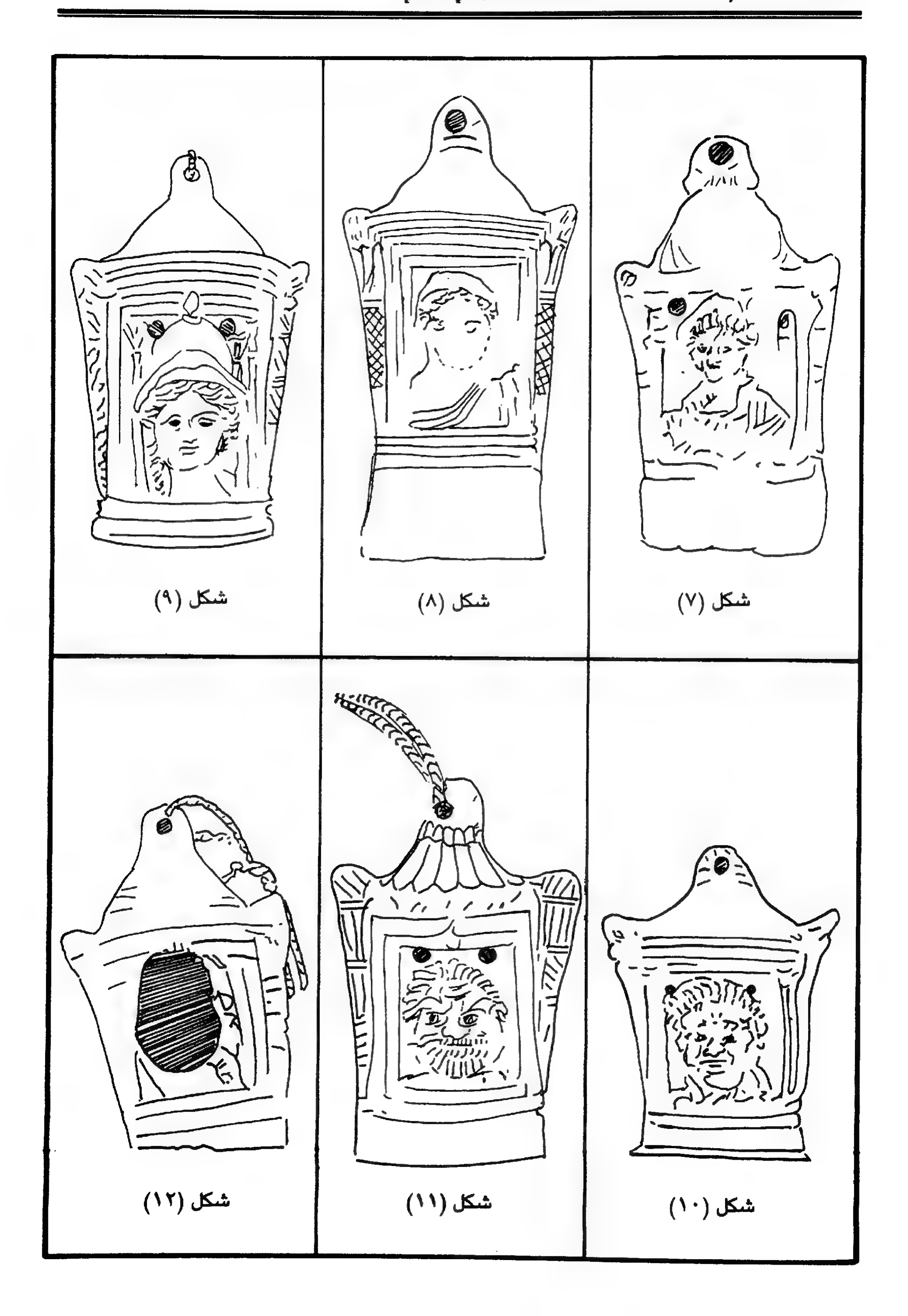


صورة (٣٣)



شكل (٣) شكل (٢) شكل (١)

شكل (٦) شكل (٥) شكل (٤)



شكل (٧)

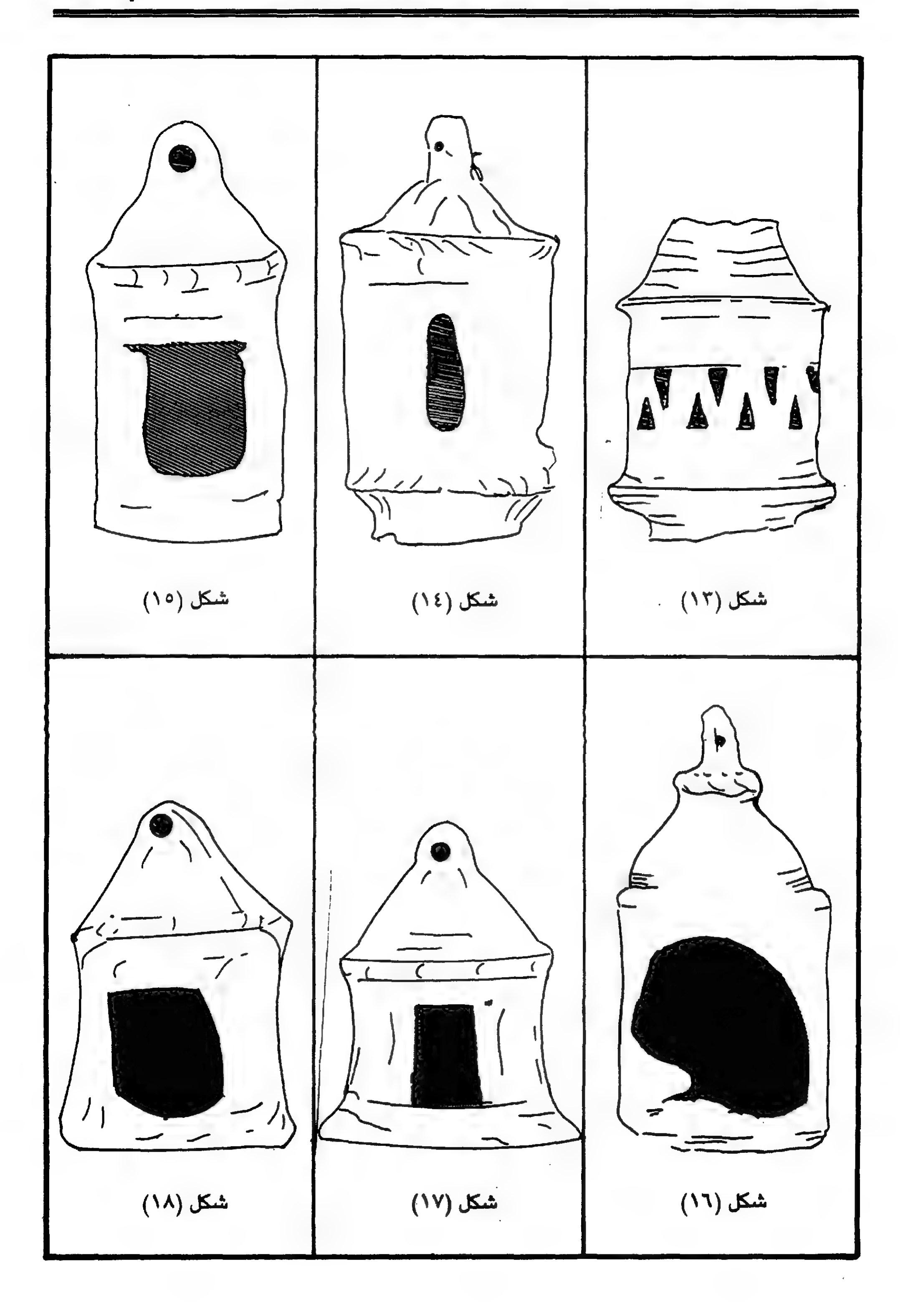
شكل (٨)

شكل (٩)

شكل (١٠)

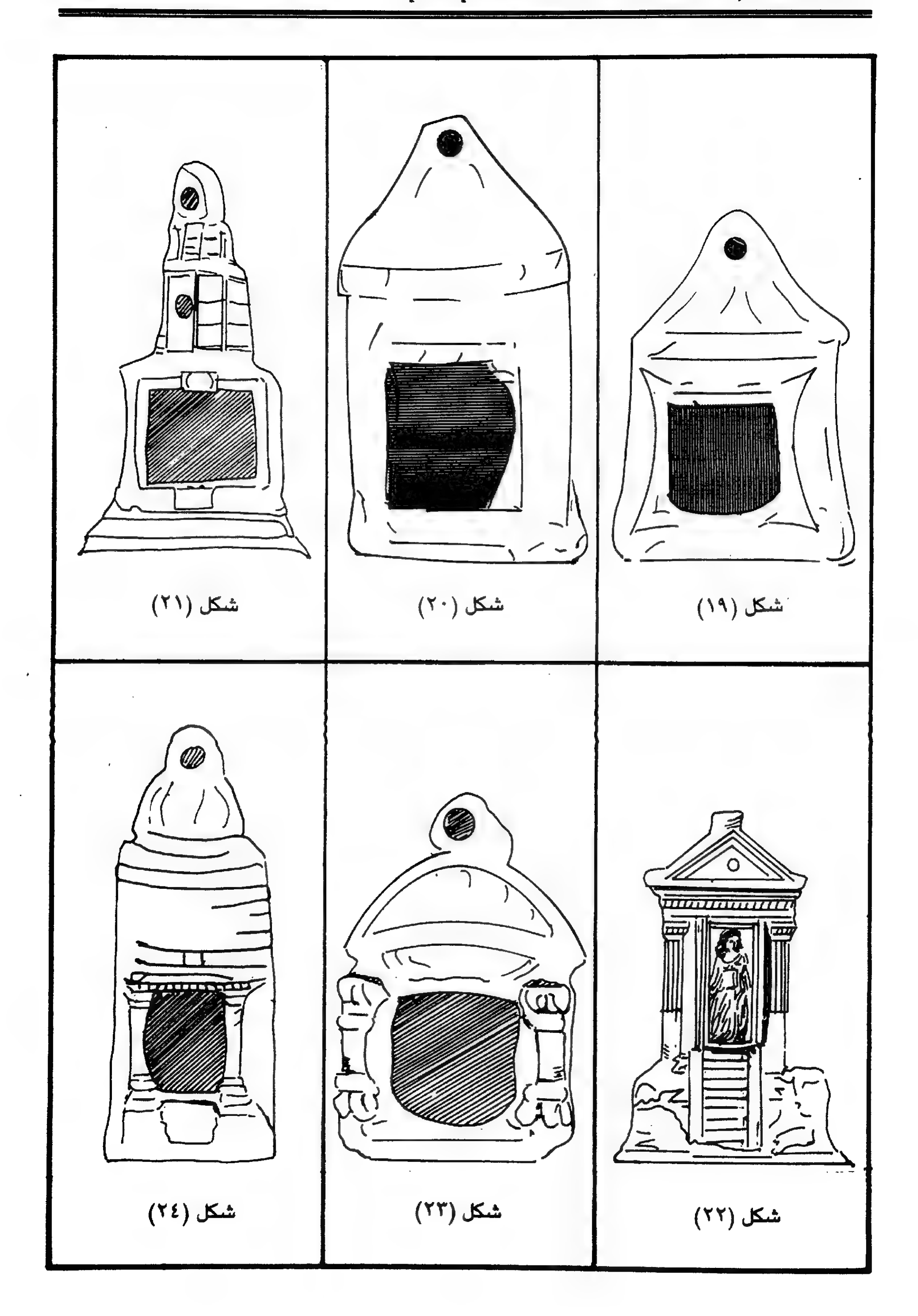
شكل (١١)

شكل (١٢)



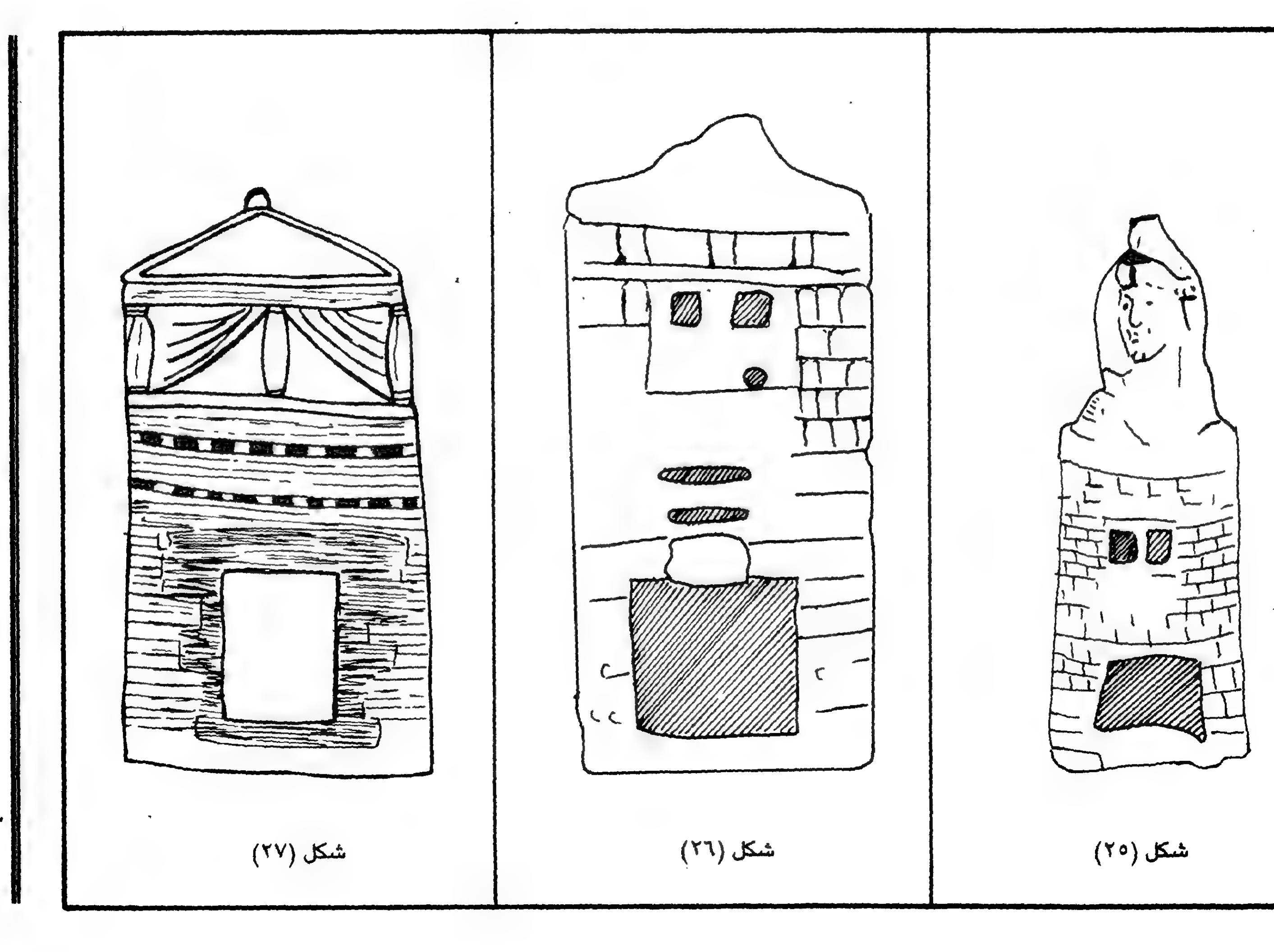
شكل (١٥) شكل (١٤) شكل (١٣)

شكل (١٨) شكل (١٧) شكل (١٦)



شكل (١٩) شكل (٢٠) شكل (٢١)

شكل (٢٢) شكل (٢٣) شكل (٢٤)



شكل (٢٥)

شكل (٢٦)

شكل (٢٧)

العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، ٧٣ ـ ٩٨ (١٩٩٣م).

اللغة الإنسانية: طبيعتها وخصائصها

للدكتور سعد بن عبد الله الصويان

ملخص البحث: تتناول هذه المقالة طبيعة اللغة وخصائصها كسلوك يتميز به الإنسان بحكم مقدرته على تصنيع الرموز وتوظيفها في عمليات الاتصال، حيث تبدأ بالحديث عن اللغة كنظام رمزي يدخل ضمن علم الإشارات. وبعد ذلك تنتقل إلى الحديث عن الرموز وأهميتها في حياة الإنسان حيث تستحيل الثقافة بدون اللغة والتي هي في أساسها نظام رمزي. والصوت هو الوسيط الحسي لنقل المعنى اللغوي من شخص لآخر، وبه تتحقق اللغة ماديا، لذا لابد من الحديث عن الصوت اللغوي وكيفية حدوثه. إلا أن اللغة في جوهرها حقيقة ذهنية قبل أن تكون حقيقة مادية. إنها نظم وقواعد مستقرة في الذهن وليست مجرد أصوات تجري على الألسن. ومن الممكن أن نتصور وسيطا ماديا آخر غير الصوت لتحقيق اللغة والوفاء بمهمة الاتصال. والدراسات الحديثة التي أجريت على عملية اكتساب اللغة عند الأطفال والمراحل التي تتم بها هذه العملية تشير إلى أن الأطفال لا يتعلمون لغتهم عن طريق التقليد الببغائي للكبار ومحاكات الأصوات التي يسمعونها منهم. لاشك أن اللغة التي يتكلمها أي فرد يتعلمها من المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه لكن الملكة اللغوية في حد ذاتها غريزة يفطر عليها الإنسان ويتحدد نموها ونضجها بيولوجيا، وهناك حيز من المخ مخصص لهذه الملكة. هذا هو الموقف الذي يتبناه علماء اللغة المحدثون من أمثال نعوم تشومسكي وإريك لينبرج. وتفرد اللغة الإنسانية بخصائص تجعل منها وسيلة متميزة من وسائل الاتصال التي ينعم بها الإنسان دون بقية الكائنات.

علم الإشارات

اللغة في أساسها نظام رمزي وهي أحد أنواع الرموز التي هي بدورها نوع خاص من أنواع الإشارات. لذلك فإنه لكي نفهم طبيعة اللغة ووظيفتها كسلوك إنساني ينبغي أن نتناولها كنظام رمزي ضمن علم الإشارات Semiotics، ومن أبرز الرواد الأوائل لعلم الإشارت بمفهومه الحديث عالم اللغة السويسري فيردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857-1913) وهو يمثل الاتجاه اللغوي الذي تغلب عليه النزعة العقلانية، وكذلك العالمان الأمريكيان تشارلز بيرس Charles Sanders Pierce (1839-1914) ويمثل الاتجاه الفلسفي، وتشارلز موريس Charles William Morris (1901-1979) ويمثل الاتجاه السلوكي الامبيريقي، وهو التوجه الذي اصطبغت به الدراسات الأمريكية في هذا المجال حتى ظهور العالم اللغوي نعوم تشومسكي كما سنرى فيما بعد.

علم الإشارات وفق ما حدده بيرس وموريس لا يعنى بدراسة أشياء معينة لذاتها وإنما ينصب اهتمام هذا العلم على الوظائف الإشارية للأشياء التي يمكن أن تؤدي هذا الغرض، علما بأنه لا يمكن لأي شيء أن يشير لأي شيء آخر خارج عن ذاته إلا

بوجود المؤول الذي تستقر في ذهنه هذه العلاقة بين ذلك الشيء وما يشير إليه[١]، ويمكننا أن نُعرِّف الإشارة Sign بأنها أي شيء محسوس يحضر إلى الذهن شيئا آخر بحكم مابين الشيئين من علاقة. وتقوم العملية الإشارية على ثلاثة أركان :[٢]

١ ـ المنبه الحسي الذي يمكن توظيفه كإشارة Sign.

٢ ـ المشار إليه Designatum /referent وهو الشيء الذي يشير إليه المنبه الحسي ويدل عليه. ويمكن أن يكون المشار إليه شيئا محسوسا أو فكرة مجردة يدركها العقل ولا تلاحظها الحواس.

٣ ـ المؤول Interpreter وهو الذي يؤول الإشارة ويفسر معناها بحكم ما بينها وبين المشار إليه من علاقة. والعلاقة الإشارية التي تقوم بين المنبه الحسي وما يشير إليه يمكن أن تتخذ واحداً من ثلاثة أنماط:[٣]

١ ـ علاقة طبيعية كالعلاقة بين الدخان والنار أو بين السحاب والمطر أو تساقط الأوراق الذي يؤذن بمقدم الخريف أو الشخير الذي يدل على النوم. وهذا النوع من الإشارة يسمى علامة Index.

٢ ـ علاقة شكلية تقوم على الشبه بين المنبه الحسي وما يشير إليه كالعلاقة بين الإنسان وصورته أو بين الخريطة الجغرافية والمنطقة التي تشير إليها أو بين اللون الأحمر والدم. وهذا النوع من الإشارة يسمى أيقون Icon.

٣ ـ علاقة تواضعية اصطلاحية مصطنعة يفرضها الإنسان ويحدد معناها كالعلاقة بين الأسماء والمسميات وهذا النوع من الإشارة يسمى رمزا Symbol.

وحيث إن الإشارة مهما كان صنفها (علامة أو أيقونا أو رمزا) لابد أن تتخذ شكلا محسوسا تدركه الحواس فإن ذلك يعني أنها تتضمن نوعين من المعلومات: معلومات عن الإشارة نفسها كلونها أو طعمها أو رائحتها ومعلومات عن الشيء الذي تشير إليه. ولابد للمؤول أن يدرك النوع الأول من المعلومات ويحس به لتحصيل النوع الثاني الذي قد يستطيع استخلاصه وقد لا يستطيع. نستطيع مثلا أن نميز بين الرائحة الزكية والرائحة الكريهة، وانطلاقا من ذلك قد نستطيع أن نعرف مصدر أي منهما ونحدد ما إذا كان باقة من الورد أو غير ذلك. وحينما نسمع عزفا منفردا فإننا قد نستطيع أن نحدد نوع الآلة ومهارة العازف وربما اللحن أو الأغنية إن كنا نعرفها مسبقا. وحينما نحس بالجوع في بلد أجنبي فإننا حالما نشم رائحة زكية نعرف أنها رائحة طعام، ولكن قد لا نستطيع أن نحدد نوع الطبق لأننا لا نعرفه مسبقا. تماما هي الحال حينما نستمع إلى رطانة أجنبية في المذياع فإننا لن نفهم ما يقوله المتكلم ولكن يمكننا أن نستنتج من نبرة الصوت ونغمته أشياء كثيرة مثل: سن المتكلم، وجنسه، وحالته الصحية والنفسية، ولعل أوضح مثال يمكن إيراده هو جرس الباب. هنالك أنواع لا تحصى من الأجراس كل منها له صوته المتميز. فالمرء حينما يكون وقطته داخل البيت وتسمع جرس الباب يدق فإن صوت الجرس بالنسبة للقطة لا يعدو أن يكون منبها حسيا تدركه حاسة السمع. أما بالنسبة للمرء فإن صوت الجرس منبه حسي يتبين نغمته التي تختلف عن نغمات الأجراس الأخرى وهو كذلك رمز يلفت انتباهه ويشير إلى أن هناك شخصا عند الباب ضغط زر الجرس وينتظر منه أن يذهب ليفتح له.

العلاقة الطبيعية أو الشكلية القائمة بين العلامة

---

(١) Winfried Noth, *Handbook of Semiotics* (Indiana: Indiana University Press, 1990), pp. 39-55.

(٢) Charles William Morris, "Foundations of the Theory of Signs." *International Encyclopedia of Unified Science* Vol. 1, No. 2. (Chicago: The University of Chicago Press, 1938), pp. 3-6; Thomas A. Sebeok, *Contributions to the Doctrine of Signs* (Indiana: Indiana University Press, 1976), p.7.

(٣) Roman Jakobson, "Language in Relation to Other Communication systems" *Selected Writings*, Vol.2 (Mouton, 1971), pp. 697-708; Eugene A. Nida, *Toward a Science of Translating*. (Leiden, E. J. Brill, 1964), pp. 30-31, Sebeok, *Contribution to*, pp. 42-5.

أو الأيقـون وبين المشار إليه علاقة حتمية منطقية ويستطيع الإنسان أن يدرك ما يدل عليه هذا الصنف من الإشارات بحكم ما حباه الله من القدرة على الربط الذهني والتفكـير السببي[٤]، فالكل يعرف مثلا أن تفتح بعض أنواع الزهور وعودة بعض أسراب الطيور يؤذن بمقدم الربيع. هذا النوع من المعرفة يساعد الإنسان على التكيف مع بيئته. فالإنسان يستطيع أن يتعرف على الجهات الأربع وعلى الفصول من حركة النجـوم ومن اتجـاه الرياح. كما يستطيع مثلا أن يستخلص الكثير من المعلومات عن الحيوان من أثره وروثه مما يساعده على الهرب منه إن كان مفترسا أو القبض عليه إن كان شاردا أو اقتناصه إن كان من حيـوانـات الصيد. وحينما يشاهد البحارة الطيور يعرفون أنهم اقتربوا من اليابسة. والهدف الأساسي من هذه الظواهر الطبيعية ليس تنبيهنا إلى ما تشير إليـه لأن هذه الوظيفـة التـوصيليـة أمـر عارض نستخلصه بحكم معرفتنا بقوانين الطبيعة والعلاقة بين الأسباب والنتائج. المعرفة الإنسانية والعلوم تقوم على هذا النوع من الربط. الطبيب مثلا يستدل على المرض من الأعراض الظاهرة. البعثة الأثرية حينما تعثر على قطع من الفخار في موقع ما تستنتج أن ذلك الموقع كان مأهولا في زمن مضى فتشرع في الحفر والتنقيب.

يروض الإنسان قوانين الطبيعة أحيانا فيستغل العلاقة الحتمية بين السبب والنتيجة لتوصيل بعض المعلومـات مثـل قياس درجة الحرارة بالترمومتر أو الاستـدلال على الوقت بالسـاعة أو على غليان الماء بالصفير[٥]، وتلاحظ أن هنالك فرقا بين الصفير الذي يدل على غليان الماء ذلك الذي يأتي كنتيجة متوقعة من ازديـاد ضغـط البخـار بازدياد الحرارة - وبين الصوت الذي تصدره صفارة الإنذار التي تطلق مثلا للتحذير من هجوم جوي. العلاقة بين صفارة الإبريق وغليـان المـاء علاقـة طبيعيـة أما العلاقة بين إطلاق صفارة الإنذار والهجوم الجوي فهي علاقة مصطنعة، إذ أن بإمكان الإنسان أن يلجأ إلى أي وسيلة أخرى أو أي صوت آخـر للتحـذيـر من الهجوم الجوي. كذلك العلاقة بين الدخان والنار علامة طبيعية. لكن العلاقة بين إطلاق سحب الدخان لتحذير الأنصار البعيدين أو طلب المسـاعـدة منهم علاقـة مصطنعة. فبينما تلجأ بعض قبائل الهنود الحمر لهذه الطريقة نجد القبائل العربية تصطنع بدلا من ذلك وسائل أخرى مثل دق الهاون أو قرع الطبول.

وهنـالك حركـات وأفعـال لا إراديـة تصدر عن الإنسـان لكنهـا تشـير بصـورة طبيعية إلى حالته الشعورية أو الجسمية مثل التثاؤب والضحك والبكاء واحمرار الوجنتين وبحة الصوت وغنته ويبس الريق والشفتين وخفقان القلب وما شابه ذلك. هذا بخلاف العلامات التي يبتدعها الإنسان ويعطيها معاني من عنده مثل هز الرأس إلى الجانبين للدلالة على الرفض أو إلى أعـلى وأسفل للدلالة على الموافقة أو التلويح باليد للوداع أو ضرب الكف على الكف للتحسر والندم.

هذه الأمثلة توضح لنا الفرق بين الرمز (الإشارة المصـطنعة) وبين العلامة (الإشارة الطبيعية.) ولا يقل عن ذلك وضوحا الفرق بين كل منهما وبين الأيقون (الإشـارة الشكلية). العلاقة بين الإنسان وصوته أو رائحـة جسده أو بصمة إبهامه أو أثر قدميه علاقة طبيـعـيـة بينمـا العـلاقـة بينـه وبـين اسمـه علاقـة مصـطنعـة فرضها أبواه اللذان أطلقا عليه الاسم . أما العلاقة بينه وبين صورته الضوئية فإنها علاقة شكلية تقوم على الشبه بينهما. الكلام عبارة عن رموز صوتية، أما ما يصاحب الكلام من حركات في اليـدين أو تغـيرات في الصـوت فهي في معظمها إشارات أيقونية. مثال ذلك حينما تصف شيئا بقولك إنه كبير جداً بإمكانك أن تستعيض عن كلمة جدا بتضخيم صوتـك ومـطه أو بفـرد يديـك إلى الأمام والمباعدة ما بينهما. أما ترقيق الصوت ومطه أو فرد السبـابة والإبهام والتقريب ما بينهما مع ضم بقية الأصابع فإن هذا يعني أن الشيء صغير جدا. ومثال ذلك العـلاقـة بين عمليـة الذبح الحقيقية والتهديد بالذبـح بتمـرير السبابة على النحر. ولعله من نافلة

(٤) J. W. F. Mulder, and S. G. J. Hervey, *Theory of the Linguistic Sign* (Mouton, 1972), p. 16.

(٥) Mulder and Hervey, *Theory of*, p.16.

القول أن نؤكد هنا على أن العلاقة بين الأيقون ومدلوله لا يمكن أن تكون علاقة شبه تامة وتطابق كامل بينهما وإلا استحال التمييز بينهما في تلك الحالة أو أصبح الأيقون هو ذات الشيء المشار إليه.

بما أن العلاقة الطبيعية أو الشكلية علاقة منطقية حتمية فإنها ثابتة لا تتغير بتغير المكان ومرور الزمان. أما العلاقة التواضعية التي تقوم بين الرمز والمرموز إليه فإنها تختلف باختلاف الشعوب والثقافات لأن الرموز لا تستمد معانيها من خواصها الطبيعية أو من أشكالها المحسوسة[٦]، لذا لا يمكن أن يفهم المرء كلمة أجنبية بمجرد سماعها أو أن يدرك مغزى نتف الشعر ولطم الخدود وشق الجيوب إلا إذا نشأ في المجتمع الشرقي الذي تلجأ فيه النساء إلى هذه الحركات للتعبير عن الحزن أو المصائب. العلاقة الرمزية علاقة تواضعية اعتباطية يصطنعها البشر ويصطلحون عليها فيما بينهم كأن يصطلحوا على أن اللون الأحمر يعني قف والأخضر يعني سر أو أن الخطوط البيضاء الموجودة على طول الطريق إذا كانت متقطعة فهذا يعني السماح بتجاوز السيارة التي أمامك بينما لا يسمح بالتجاوز إذا كانت الخطوط غير متقطعة.

تصنيف الإشارات وتقسيمها إلى علامات وأيقونات ورموز لا ينفي بالضرورة وجود قدر من التداخل والتمازج والتدرج بين هذه الأصناف الثلاثة هنالك حالات تكون فيها الإشارة رمزا في سياق معين وعلامة أو أيقونا في سياق آخر، وقد تكون مزيجا من هذه الأصناف الثلاثة[٧] أو اثنين منهما. بل إن هنالك حالات يصعب فيها الجزم ما إذا كانت الإشارة رمزا أو علامة أو أيقونا. صورة المنجل مثلا تشير إلى آلة الحصاد على المستوى الأيقوني لكنها تشير إلى الشيوعية على المستوى الرمزي. وكلمة «صرصار» مستمدة من الصوت الذي يصدر عن هذه الحشرة لذلك فإن العلاقة الاعتباطية بين هذه الكلمة ومدلولها لا تخلو من المسحة الأيقونية لأنها تشبه صوت الحشرة. وهكذا بالنسبة لبقية الكلمات التي تسمي الأشياء بحكاية أصواتها التي توحي ألفاظها بما تشير إليه Onomatopoeic words. ومن الممكن أن تستشف مسحة من الأيقونية في القصة التي تحكي أحداثا معينة تماما كما وقعت وحسب التسلسل الذي وقعت فيه. والعلاقة بين الكلمات ومعانيها علاقة اعتباطية لكن العلاقة بين نبرة الصوت ونغمته وحدته وارتفاعه علاقة أيقونية تدل على مشاعر المتكلم وأحاسيسه ومدى حماسه للموضوع الذي يتحدث فيه. ويورد تشارلز هوكت مثالا يوضح فيه ما يمكن أن يحدث بين أنواع العلامات من تدرج وتمازج. يقول هوكت إن خريطة الطرق Road map. تتضمن مزيجا من العلامات الأيقونية والرمزية. النقط والخطوط التي تشير إلى المدن والتلال والأنهار والطرق ترتب على الخريطة كما هي على الطبيعة مع تحديد مقياس الرسم، وهذه علاقة أيقونية. لكن حجم وشكل النقط التي تمثل المدن وكذلك عرض وألوان الخطوط التي تمثل الطرق والأنهار رموز اعتباطية.[٨] ولو أخذنا صورة مرئية ومسموعة مجسمة ومتحركة لشخص ما فإن هذه الصورة الأيقونية ستكون أقرب إلى الأصل من الصورة الضوئية، وهذه أقرب إلى الأصل من اللوحة المرسومة باليد التي هي بدورها أقرب إلى الأصل من الكاريكاتير.[٩]

مما تقدم نلاحظ غلبة النزعة الامبريقية والسلوكية على المدرسة الأمريكية في الدراسات السميوطيقية عموما. وهذا التوجه يختلف جذريا عن التوجه العقلاني Rationalist الذي أسسه سوسير والذي يركز أساسا على اللغة كنظام رمزي. يقول سوسير إن الكلمة لا تربط بين شيء واسمه. إنها تربط بين مفهوم Concept وقالب صوتي Sound image ولا يقصد

(٦) Leslie A. White, *The Science of Culture: A Study of Man and Civilization* (Farrar: Strauss and Cudahy, 1949), pp. 25-26.

(٧) Sebeok, *Contribution to*, p.41.

(٨) C.F. Hockett, "Logical Considerations in the Study of Animal Communication." *The View from Language* (Athins: The University of Georgia Press, 1977), p.143.

(٩) Charles William Morris, "Signs, Language and Behavior", *Writings on the General Theory of Sings* (Mouton: The Hague, 1946), pp. 98-99.

بالقالب الصوتي هنا مادة الصوت ذاتها وإنما الأثر النفسي والانطباع الذي يتولد في ذهن السامع حالما تنتقل إليه الكلمة من خلال حاسة السمع. إذا ما تلفظ المتكلم بكلمة «شجرة» مثلا فإنه مهما اختلفت طريقة النطق، أي مادة الصوت ، يبقى القالب الصوتي، أي الانطباع الذهني، واحدا عند من يتحدثون لغة المتكلم . وبالمقابل، لو أن جمهورا من الناس يتحدثون لغات مختلفة سمعوا لفظة «شجرة» فإنه على الرغم من أن مادة الصوت واحدة إلا أن الانطباع الذهني الذي يتولد لديهم عند سماع هذه اللفظة يختلف من شخص لآخر، حسب اختلاف الخلفية اللغوية لكل منهم أما المفهوم Concept الذي يتحد مع القالب الصوتي لتتكون منهما الإشارة اللغوية فإنه لا يقصد به أي شيء محسوس في العالم الخارجي وإنما يقصد به فكرة مجردة دون تعيين أو تخصيص. أي أن المفهوم «شجرة» لا يشير إلى هذه الشجرة في هذه الحديقة أو إلى تلك الشجرة في ذلك البستان وإنما يقصد به أي شيء وكل شيء يمكن أن ينضوي تحت هذه المفردة اللغوية.

الإشارة اللغوية، كما يعرفها سوسير، عبارة عن اتحاد لا انفكاك فيه بين القالب الصوتي والمفهوم اللذين يشبههما سوسير بوجهي الورقة. وعلى الرغم من العلاقة الاعتباطية بينهما إلا أنه لا يمكن أن يوجد أحد هذين الوجهين بدون الآخر وحضور أي منهما في الذهن أو الحواس يستدعي بالضرورة حضور الآخر. وعلاقة القالب الصوتي بالمفهوم هي علاقة الدال بالمدلول بحيث يكون القلب الصوتي هو الدال والمفهوم هو المدلول. ويمكننا الاستعاضة بكلمتي الدال والمدلول بدلا من القالب الصوتي والمفهوم.[١٠]

الرمز في حياة الإنسان

الرموز التواضعية هي الخاصية الأساسية التي يتميز بها الإنسان لأنه هو الذي يصنعها وهو الذي يضفي عليها ما تحمله من القيم والمعاني. ويلجأ الإنسان إلى مختلف المنبهات الحسية ليبتدع منها رموزاً يضفي عليها معاني اصطلاحية تفيده في نقل المعلومات وتوصيلها[١١]، فهنالك إشارات الطرق وحركات اليدين والعينين وبقية أجزاء الوجه والجسم. إلا أن أهم وسيلة يلجأ إليها الإنسان في هذا الصدد هي الكلام. ولأهمية الكلام في حياة الإنسان قيل الإنسان حيوان ناطق. ولكن اللغة، على الرغم من أهميتها تبقى وسيلة من وسائل أخرى كثيرة يستخدمها الناس لتبادل المعلومات فيما بينهم. واللغة الإنسانية فرع من الأصل الذي هو قدرة الإنسان الفريدة على الترميز.

الأشياء المادية التي توجد في محيط الإنسان الطبيعي لا حصر لها. والإنسان في الغالب لا يتعامل مع هذه الأشياء كمؤشرات حسية بحتة، بل إن نظرته لها تصطبغ بما يضفيه عليها مجتمعه من المعاني والقيم الرمزية. التفاعل بين أفراد المجتمع هو الذي يعطي الأشياء ما تحمله من المعاني ويحولها من أشياء طبيعية Physical objects إلى أشياء اجتماعية Social objects [١٢] وتكتسب الأشياء معانيها من استخداماتها وأهميتها في حياة الناس أثناء تفاعلهم بعضهم مع بعض. لذلك تختلف معاني الأشياء وتختلف نظرة الناس إليها حسب اختلاف استخداماتها من شخص إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى. البعير والنخلة عند العربي لهما من المعاني مالا يمكن أن يدركه ويحيط به مواطن من اليابان أو الصين أو كندا. يقول هربرت بلومر Herbert Blumer «الشجرة شيء مختلف لكل من قاطع الأخشاب وعالم النبات والشاعر، النجمة شيء مختلف بالنسبة لعالم الفلك المعاصر عما كانت عليه بالنسبة لراعي الأغنام في الزمن القديم، الشيوعية شيء مختلف بالنسبة للمواطن السوفيتي الغيور عما هي عليه بالنسبة

(١٠) Ferdinand de, Saussure, *Course in General Linguistics*, trans. Wade Baskin (New York: McGraw-Hill Book Company, 1966), pp. 65-78; Noth, *Handbook*, pp.56- 63.

(١١) White, *The Science*, pp. 22-26.

(١٢) Herbert Blumer, *Symbolic Interactionism: and Perspective, Method* (N.J: Prentice Hall, Englewood Cliffs, 1969), pp. 2-5, 68-69.

لسمسار من سماسرة وول ستريت (في نيويورك)».[١٣]
وبما أن الشيء نفسه قد يكون له عدد لا يحصى من الفوائد والاستعمالات فإنه بالتالي سيكتسب عددا يصعب حصره من المعاني والقيم. لذلك فإن الشيء يكون واحداً في وجوده المادي لكنه في الوقت ذاته عدة أشياء اجتماعية.

الرموز أشياء اجتماعية يستخدمها الإنسان ليشير بها إلى أشياء أخرى، لتقوم مقام أشياء أخرى. هنالك الكثير من الأشياء الاجتماعية التي لا تستخدم للإشارة إلى أشياء أخرى لذلك فهي ليست رموزا. الرمز شيء اجتماعي ولكن ليس كل شيء اجتماعي رمزا. يمكنني مثلا أن استخدم الزهور في تحضير العقاقير أو في تحضير الطعام أو في الزينة أو للشم، ولكن بإمكاني أن أحولها إلى رمز وأقدمها لمن أحب للتعبير عن مشاعري. كذلك الحمام يمكنني أن أنظر إليه كمصدر من مصادر اللهو والتسلية أو كطعام فاخر أو كوسيلة لبعث الرسائل أو كرمز للسلام. وقس على ذلك كل الأشياء.

ولما كانت الرموز أشياء اجتماعية لذلك فإنها كغيرها من الأشياء الاجتماعية تستمد معانيها من خلال تعامل أفراد المجتمع معها أثناء تفاعلهم بعضهم مع بعض. التفاعل الاجتماعي بين الناس هو الذي يولد الرموز ويضفي عليها المعاني ويعمل على تغيير هذه المعاني واستبدالها بغيرها. وتختلف الرموز عن الأشياء الاجتماعية في أنها توظف في التواصل ونقل المعلومات والأفكار والمشاعر من شخص لآخر. ونجاح العملية التواصلية تقوم على توافر الفهم المشترك بين المرسل والمستقبل. ولكي يؤدي الرمز وظيفته التوصيلية ويتحول من مجرد شيء حسي إلى شيء ذي مغزي ودلالة يشترط أن يكون معناه معروفا لمستخدمه وأن يوظفه عن قصد وبوعي لتوصيل هذا المعنى ولفت الانتباه إلى الشيء الذي يرمز إليه. الشيء الأساسي في العملية الاتصالية هو أن يثير الرمز في ذهن المرسل نفس الشعور الذي يثيره في ذهن المستقبل.[١٤] ليس من الرمزية في شيء أن يتجاوب الكلاب في النباح أو الديكة في الصياح لأن أصواتها لا تحمل معاني وإنما هي مجرد منبهات حسية يستجيب لها بني جنسها بأصوات مماثلة. صراخ الطفل الرضيع الذي يبكي لأنه جائع أو يتألم ليس رمزا. يتحول البكاء إلى رمز بعدما يكبر الطفل ويصل إلى سن يمكنه من أن يدرك مغزي البكاء ويبدأ في استخدامه بهدف نقل مشاعره إلى الآخرين والتأثير عليهم.[١٥]

ولو أمعنا النظر ودققنا الفحص لتحول العالم الطبيعي من حولنا إلى عالم رمزي. عالم الإنسان مزدحم بالرموز. بل إن سلوك الإنسان سلوك رمزي. تخيل أننا ضربنا موعداً للقاء أنا وأنت لبحث قضية ما. أحدنا قد يحضر قبل الآخر أو بعده ويكون حضوره إما في الموعد المحدد تماما أو قبله أو بعده. ولنفرض أنك سبقتني إلى الموعد وجلست تنتظرني وحينما رأيتني قادما ألقيت نظرة على ساعتك اليدوية ثم نهضت من مقعدك لمقابلتي ومصافحتي ومعانقتي. وبعد تبادل التحية ندلف إلى غرفة الاجتماع وتقوم أنت بفتح الباب وتشير لي بيدك ترجوني أن اتقدمك. وأثناء الاجتماع نختلف وتعلو أصواتنا فتنسحب من الاجتماع وتخرج مسرعا وتغلق الباب وراءك بعنف. كل حركة من هذه الحركات لها أكثر من معنى ودلالة وهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى توضيح.

حينما يستجيب الفرد لتصرفات الآخرين بشكل عفوي ومباشر وبدون أن يؤول هذه التصرفات أو يفسرها فإن هذا النوع من السلوك لا يحمل أي قيمة رمزية. لكي يتحول رد الفعل من مجرد استجابة تلقائية إلى سلوك رمزي فإنه لا بد أن يشتمل على التأويل ويتضمن محاولة المتلقي تفسير تصرفات الآخرين تجاهه والقصد من ورائها[١٦] فلو أنك تلقيت

---

(١٣) Blumer, *Symbolic*, p. 69.

(١٤) George Herbert Meda, *Mind, Self and Society* (Chicogo: The University of Chicago Press, 1934), p. 149.

(١٥) Mead, *Mind*, pp. 144-5.

(١٦) Blumer *Symbolic*, pp. 8-9, 65-66, 79.

دفعة على جسمك من شخص آخر في مكان مزدحم فإن هذا في أغلب الاحتمالات لن يعني لك شيئا ولن تلقي له بالا لأن الناس في هذا المكان المزدحم كلهم يتـدافعون. ولكن لو تلقيت هذه الدفعة من شخص تعتقـد أنها صدرت منه عن قصد فإن تجاوبك مع الدفعة ستحدد من خلال تأويلك للقصد من ورائها. قد ترى أن الشخص يريد أن يلفت انتباهك ويخرجك من شرودك الذهني. قد ترى أنـه يريـد مداعبتـك والمزاح معك، وقد ترى أنه يقصد مهاجمتك وإيذاءك. وكثيرا ما يحدث اللبس بين الناس في مثل هذه المواقف ويسيء بعضهم فهم البعض الآخر.

السلوك الحيواني لا يعدو أن يكون سلسلة من الاستجابات الغريزية المباشرة التي يثيرها فيه تلقائيا ما يتعـرض له من منبهـات طبيعية. أي أن علاقة الحيوان مع محيطه الطبيعي علاقة سلبية غير فعالة ولا مؤثرة Passive أما الإنسان فإن سلوكه يعتمد على التدبر والتأويل مما يحوله من مجرد كائن مستجيب Responding organism يتحـدد سلوكـه قسريـا من خلال ما يتعرض له مباشرة من مؤثرات خارجية إلى كائن فعال Active يتصرف تجاه الأشخاص والأشياء والأحـداث حسب ما يمليـه فهمـه لها وموقفه منها وتقييمه لها.[١٧] فالإنسان لا يستجيب للأشياء ذاتها وإنما لمعاني الأشياء. كما يفهمها هو، لما ترمز إليه الأشياء.

الإنســان فقط يمتلك القدرة على إضفاء المعاني على الأشيـاء ويحيلهـا إلى رمـوز كالهـلال والمنجل والحمـامـة وغصن الزيتـون، والسـواد الذي يرمز للحداد، والبياض الذي يرمز للعفة والطهارة، أو رفع القبعة رمزاً للتحية والاحترام. إن قدرة الإنسان على تصنيع الرموز واستخدامها هي التي مكنته من أن يتعامل مع محيطه الطبيعي والاجتماعي بشكل فاعل ومؤثر يخدم مصالحة ويحقق أهدافه ويحرره من قيود الطبيعة. فالرموز هي التي حولت سلوك الإنسان من استجابات شرطية إلى سلوك معرفي، إلى ثقافة. صنع الرمز والرمز قيَّد الإنسان.[١٨]

من أهم السمات التي تتميز بها الثقافة الإنسانية كما يعرفها الأنثروبولوجيون أنها مشتركة ومكتسبة وتـراكمية يورثها السلف للخلف. من هذه السمات يتضح لنا أن الثقافة الإنسانية تستحيل بدون اللغة والتي هي في أساسها نظام رمزي. لا يمكن للإنسان أن يبتدع نظما للاقتصاد والسياسة والقانون بدون اللغة. ويستحيل اكتشاف الحقائق وتبادل المعلومات وتنظيم المجتمع بدون اللغة. اللغة هي الوعاء الذي يحتوي الثقافة والوسيلة التي تنقلها بين الأفراد وعبر الأجيال.

اللغة كظاهرة صوتية

الاتصال هو الوسيلة التي يتم بها نقل المعلومات والأفكار التي في ذهن المتكلم وتوصيلها إلى السامع. وحيث يتسحيل ربط جهازين عصبيين أحدهما بالآخر بطريقـة مبـاشرة كان لابـد من اللجـوء إلى وسائل الاتصال المختلفة والتي تشكل اللغة الإنسانية أبرز أشكـالهـا وأهم مظاهرها على الإطلاق. ولقد لازمت اللغة الإنسان وأصبحت جزءا من حياته لدرجة أن القليـل منـا تسترعي انتباهه هذه الظاهرة ويحاول التـوقف عندها والتساؤل عنها. إنها تبدو لنا أمرا سهـلا وطبـيـعيـا كالتنفس والمشي وغـيـر ذلك من النشاطات الإنسانية التي لا تتطلب جهدا ظاهرا عند مزاولتها. إلا أن هذه النشاطات تختلف عن الكلام في أنها نشاطات بيولوجية بحتة يفطر عليها الإنسان ولا دخل فيها للثقافة والمجتمع والتعليم. فالإنسان يمشي بنفس الطريقـة تقريبا أيا كان المحيط الثقافي الذي نشأ فيه ولا يضطر إلى تغيير مشيته حينما ينتقل من مجتمع لآخر. أما اللغة فلابد أن يتعلمها الإنسان من المجتمع الذي ينتمي إليه ويعيش بين ظهرانيه، لذلك تختلف اللغـات باختـلاف الثقـافات وتتعدد بتعدد المجتمعات الإنسانية.[١٩]

والصـوت في الأسـاس هو الوسيط لنقل المعنى

---

(١٧) Blumer, *Symbolic*, pp. 63-64.

(١٨) White, *The Science*, pp. 22-24.

(١٩) Wallace Chafe, "Language as Symbolization." *Language*, Vol. 43 (1967), p. 58; *Meaning and the Structure of Language* (Chicago: The University of Chicago Press, 1970), pp. 16-19.

اللغوي من إنسان لآخر، هو مادة اللغة مثلما هو مادة الموسيقى والغناء، أو مثلما الحركات مادة الرقص، أو الخطوط والألوان مادة الرسم. لكن اللغة نظم وقواعد قبل أن تكون مجرد أصوات. ما يميز لغة الإنسان عن الحيوان هي النظم النحوية والصرفية والدلالية الدقيقة المعقدة، أو ما نسميه قواعد اللغة، والتي يعطي الإنسان إمكانات لاحدود لها من حرية التفكير والتعبير. هذه النظم والقواعد التي تحتل مركز الصدارة كخصائص تتفرد بها اللغة الإنسانية تجعل من هذه اللغة أداة قائمة بذاتها مستقلة عن الوسيط الذي به يتم نقلها وتوصيلها من كائن لآخر. تتحقق اللغة بالصوت لكنها ليست هي هو. الإشارة اللغوية ليست هي الصوت الذي تحدثه أعضاء النطق عند المتكلم أثناء الحديث. وهذا شبيه إلى حد ما بالشفرة التي تتحقق في الأجهزة المبرقة لكن الأجهزة ذاتها لا تشكل جزءا من نظام الشفرة. الإشارة اللغوية، كما يرى سوسير، حقيقة ذهنية وليست مادية وعنصر مجرد لا تتحدد هويته في الصوت الناتج عن التلفظ به بل تتحدد في العلاقات التي تربطه ببقية عناصر النسق الرمزي اللغوي الذي ينتمي إليه وفي الفروقات التي تميزه عن هذه العناصر. الفروقات المميزة، وليست مادة الصوت، هي التي يعول عليها في تحديد هوية الإشارة اللغوية وفرزها عن غيرها من الإشارات في نفس النسق[٢٠] أي أنه يمكننا أن نتصور واسطة أخرى غير الصوت لتوصيل المعنى كما هي الحال بالنسبة لبعض الحيوانات التي تتواصل عن طريق الإشارات والحركات المرئية، أو حتى عن طريق اللمس أو الشم أو التذوق. فبينما يتم الاتصال عن طريق النداءات بين الحيوانات التي تعيش في بيئات تتعذر فيها الرؤية مثل الدولفينات في الماء أو قردة الغابات الاستوائية الكثيفة نجد أن التواصل بين الحيوانات التي تعيش في الأماكن المفتوحة يتم عادة عن طريق حركات الوجه والجسم أو عن طريق تغيرات تطرأ على لون بعض أجزاء الجسم. كما أن الصم يتخاطبون عن طريق الإشارة والمكفوفين عن طريق اللمس.[٢١] ثم إن قدرة الببغاء على تقليد الصوت الإنساني لم يجدها فتيلا في تعلم اللغة الإنسانية فالكلمات بالنسبة له لا تعدو أن تكون مجرد أصوات يرددها دون أن يفهمها أو أن يؤلف منها تراكيب جديدة ومعاني مختلفة يعبر بها عن معاني الألم أو الخوف أو الجوع وذلك لأنها تفتقر إلى القواعد التي تحيل هذه الأصوات إلى لغة حقيقية[٢٢]، فلو فرضنا أننا لقنَّا الببغاء عبارات مثل «أنا خائف» أو «أنا جائع» فإنه سيلجأ إلى وسائله المعتادة والتي يستخدمها بنو جنسه للعبير عن هذه الحالات حينما يواجهها في الواقع.

الكلام عملية في غاية التعقيد تنتظم سلسلة متتالية مترابطة من التغيرات والتكيفات في الدماغ وفي الجهاز العصبي ومن ثم في أعضاء النطق والسمع والتنفس.[٢٣] وتجدر الإشارة هنا إلى أن إدوارد سابير Edward Sapir يرى أنه لا يوجد لدى الإنسان أعضاء مخصصة للنطق فقط. أما ما نسميه مجازا أعضاء النطق فإنها تستخدم في هذه الوظيفة عرضا. أعضاء النطق هذه ليست متخصصة في الكلام وإنما يستفاد منها في العملية الكلامية كما يستفاد من بقية أعضاء الجسم الأخرى التي يمكن التحكم فيها طوعا لأداء مهام ثانوية إضافة إلى مهامها الأساسية. مهمة الرئة الأساسية التنفس والأنف للشم واللسان للتذوق والأسنان للمضغ. من الممكن أن يعيش الإنسان محروما من نعمة الكلام لكن يستحيل عليه البقاء دون أن يأكل أو يتنفس. يستخدم الإنسان الرئتين والحنجرة والحنك والأنف واللسان والاسنان والشفتين في التكلم تماما كما يستخدم أصابعه في العزف على آلة موسيقية أو كما

---

(٢٠) Saussure *Course in*, pp. 10-20; John Lyons, "Human Language," *Non-verbal Communication* R.A. Hinde (ed) (Cambridge University Press, 1972), pp. 64-65.

(٢١) Edward Sapir, "Language Defined, *Language: 3-23.* (New York: Harcout, Brace and World, Inc., 1921), pp. 19-20; Jakobson "Language in..." p.698.

(٢٢) Charles T. Brown, and Charles Van Riper, *Speech and Man* (N. J.: Prentic-Hall. Englewood Cliffs, 1966), pp. 14-15.

(٢٣) Brown and Van Riper, *Speech*, pp.3-9

يستخدم قدمية للرقص. مهمة الأصابع الأساسية هي القبض واللمس وليست العـزف ومهمـة الأقـدام الأساسية هي المشي لا الرقص. فالكلام لا يحدث عن طريق توظيف أعضاء متخصصة لهذا الغرض، وهو من الناحية الفسيولوجية وظيفة ثانوية.(٢٤)

ومـوقف تشارلز هوكت(٢٥) حيال هذه القضية لا يختلف كثيرا عن موقف سابير، غير أنه يؤكد على أن الجهاز الذي يعول عليه الإنسان في النطق يختلف من عدة أوجه عما يقابله في الحيوانات الأخرى، بما في ذلك الرئيسيـات Primates ، ولربمـا تعـود هذه الاختـلافات التشريحية حسب اعتقاد هوكت إلى ما طرأ على هذا الجهـاز عنـد الإنسـان من تعديلات تطوريـة جعلتـه أكثر ملاءمة للقيام بمهمة الكلام. فالحنجـرة Iarynx عنـد القردة مثلا تلامس الطبق (الحنـك الأقصى اللين Soft palate) أمـا حنجـرة الإنسان فإنها تقع بعيدا في أسفل الحلق مما يعطي جذر اللسان مساحة للامتداد والتراجع إلى الأسفل والخلف. كما أن ذلك يعطي الطبق عند الإنسان حرية للحـركـة إلى الخلف وإلى أعـلى لإغـلاق فتحة ممر الصوت إلى الخيشوم أو فتحها حسب حاجة المتكلم.(٢٦)

ولو تفحصنا مجرى الصوت عند الإنسان لوجدنا أن انتصاب القامة ومن ثم وضع الرأس من الرقبة أدى إلى انحناء ملحوظ في ممر الصوت بحيث تقدم الوجـه والجمجمـة إلى الأمام وأصبحت فتحة الفم تشكل مع فتحة الحنجرة زاوية قائمة تقريبا بدلا من أن تكون امتدادا لها تشكل معها خطا منحنيا كما عند القردة، وتبعا لذلك أصبح تركيب مجرى الصوت عند الإنسان في غاية التعقيد مما نتج عنه وجود ثلاثة تجـويفـات رنـانة فوق المزمار يتشكل فيها الصوت اللغـوي هي الحنجـرة والفم والأنف. وزيادة حجم الجمجمة عند الإنسان نتج عنه صغر حجم الحنك والفكين في الوقت الذي عوض فيه الإنسان عن ذلك بالمهـارة اليدوية واستخدام الأدوات في الدفاع عن النفس وفي تحصيـل المعـاش. كمـا أدى تراجـع الخيشـوم وتسـطيح الوجه إلى صغر الفم واستواء الشفتـين مما جعل من السهل التحكم فيهما ضما وفتحا. أضف إلى ذلك كله أن أسنان الإنسان صغيرة متراصة مستوية ومتقاربة في الارتفاع بحيث تشكل عند إطباق الفكين حاجزا يحبس مجرى النفس عند نطق بعض الأصوات اللغوية التي تتطلب ذلك(٢٧)

ويحدث الصوت حينما يمر تيار الهواء الخارج من الرئتـين أثنـاء عمليـة الزفير عبر القصبة الهوائية (الرغامى) إلى الحنجرة (صندوق الصوت) فالحلق (حيث تتصل القصبة الهوائية بالمريء) فالأنف أو الفم منتهيا بالأسنان والشفتين. وحينما يمر الصوت بالحنجـرة يختـرق الفـراغ الذي يقـع بين الوترين الصوتيين اللذين ينفتحان وينغلقان كالصمام. ويكون الصـوت مجهـورا إذا صاحبـه تذبـذب الوتـرين الصوتيين نتيجة ضغط الهواء المندفع من الرئتين أما إذا اتسعت فتحـة المـزمـار بحيث يبتعـد الوتـرين الصـوتيـين أحـدهمـا عن الأخر ولا يتذبذبان كان الصوت مهموسا. ويتشكل الصوت حينما يعبر الهواء في الممر الصوتي ويحدث رنينا في فجوات الفم والأنف التي تتغير أشكالها وأحجامها حسب حركات أعضاء النطق المختلفة. وتحدث الأصوات المتحركة والساكنة نتيجـة المـراوحـة بين انحباس الهواء وانطلاقه في مجـرى الصـوت. وتفصـل الأصـوات المتحـركـة والسـاكنـة نتيجـة المـراوحـة بين انحبـاس الهواء وانـطلاقـه في مجـرى الصـوت وتفصـل الأصوات السـاكنـة Stops بين الحـركات Vowels بينما تتيح الحركات فرصة الانتقال من ساكن لآخر.

ويبـدو الكلام عملية سهلة طبيعية لا يحس بها الإنسان. إلا أن ما تتطلبه هذه العملية من تنسيق

(٢٤) Sapir, "Language Defined," pp. 8-9.

(٢٥) C.F. Hockett, *Course in Modern Linguistics* (The Macmilan Company, 1958), p.63.

(٢٦) Jane H. Hill, "On the Evolutionary Foundations of Language." *American Anthropologist* Vol.74, (1972), pp. 309-10; C. F. Hockett and Acher Robert, "The Human Revolution," *Current Antropology Vol.5, No.3 (1964)* pp. 144-146.

(٢٧) Hill, *On the Revolutionary*, pp. 309-10; Hockett and Acsher "The Human," p. 144.

ذهني وعضلي أمر في غاية التعقيد. نجد مثلا أن التنفس يتغير بطريقة لا مثيل لها حيث يتم الشهيق بشكل أسرع وأقصر منه في حالة عدم الكلام بينما يكون الزفير أبطأ وأطول مما ينتج عنه هبوط في نسبة التنفس من ١٨ إلى حوالي ٥ مرات في الدقيقة. وفي حالة التكلم يكون التنفس أعمق بكثير منه في الحالات الاعتيادية. ففي كل مرة يستنشق المتكلم من ١٥٠٠ إلى ٢٤٠٠ سنتيمتر مكعب من الهواء، أي ما يعادل ثلاثة إلى خمسة أضعاف نسبة التنفس في حالة عدم الكلام. وهذا أمر جدير بالملاحظة إذا ما وضعنا في الاعتبار مدى حساسية الفرد لأي تغير يطرأ في عملية التنفس العادي. فلو زادت سرعة التنفس عن المعدل لأصيب الإنسان بالدوار. ومع ذلك فإنه بمقدورنا أن نتحمل ونتكيف مع التغيرات الجذرية التلقائية التي تنتاب عملية التنفس أثناء الكلام. وقد يمتد ذلك لمدة طويلة دون أن يشعر الإنسان بالاجهاد. والزيادة في الهواء الذي يدخل إلى الرئة أثناء عملية الكلام يخزن كما يخزن الهواء في البالون ثم يطلقه المتكلم حسب معدلات دقيقة ومضبوطة ومجزاة إلى مجموعات متناسبة حتى يحدث التأثير المطلوب على الحبال الصوتية وعلى مجرى الصوت في الحلق والفم والأنف. وتنظم الحدث الكلامي نشاطات معقدة تتم بالتنسيق بين الجهاز العصبي وبين العضلات المختلفة التي تربو على المئة عدا، من اللسان إلى الأسنان إلى الشفتين إلى الحنجرة إلى البلعوم إلى الرئتين إلى جدار المعدة... الخ. ويتطلب النطق بكل صوت من أصوات اللغة أن يبعث المخ بإشارات مناسبة إلى كل عضلة من هذه العضلات وإلى كل عضو من هذه الأعضاء ليحدد نسبة ودرجة الشد أو التراخي بالنسبة لذلك العضو أو لتلك العضلة. وهكذا نستطيع الكلام بمعدل ٨٤٠ صوتا أو ١٢٠ كلمة في الدقيقة الواحدة[٢٨].

والتغيرات التي طرأت على مجرى الصوت عند الإنسان ليس لها أي وظيفة على مايبدو عدا تمكين الإنسان من النطق واستخدام اللغة. وجاءت هذه الوظيفة على حساب وظائف أخرى ضحى بها الإنسان. نجد مثلا أن تأخر الحنجرة واللسان إلى مؤخرة الفم للتمكين من نطق بعض الأصوات صاحبة قصر الحنك وصغره وتناقص عدد الأسنان مما جعلها أقل ملاءمة للمضغ. يقول فيليب ليبرمان:[٢٩]

> ومن الأمور التي تبعث على الدهشة أنه وإن أعطى وجود الحنجرة في موضع أسفل في الحلق الإنسان القدرة على الكلام إلا أنه، إلى جانب ذلك، يزيد من احتمال تعرضه للغصة. أما في أنواع الثدييات التي تعيش على اليابسة كلها كالكلاب والقطط والقردة، فإن الحنجرة تقع في مكان أعلى حيث يمكنها أن تتحرك إلى موضع أعلى في الحلق كالمثفاق Periscope فتلتحم فتحتها بفتحة الفراغ الأنفي وذلك مما يسمح بمرور الهواء من خلالها إلى الرئتين في الحين الذي يمر الطعام والماء من حولها في طريقهما إلى المريء.ولذلك تستطيع أنواع الثدييات كلها، ما عدا النوع البشري العاقل، أن تتنفس وتشرب في وقت واحد. أما في الحلق الإنساني فإن أي شيء يبلع يمر من أعلى فتحة الرغامى (وهو خطر لا يعرض له الطفل)، ولذلك يموت آلاف الناس كل عام عندما يسقط الطعام أو الشراب في الرغامي فيسد الطريق إلى الرئتين.
>
> وتوحي حساسية هذا التركيب التشريحي وخطره بأنه لا بد أن الإنسان في مسار النشوء والارتقاء واجه ظروفا معينة كانت تفضل الاتصال الصوتي، أما في غياب مثل تلك الظروف فلا يوجد سبب آخر يدعو الإنسان إلى المغامرة باتخاذ هذا الجهاز التشريحي الخطر كي يجعل إنتاج الأصوات اللغوية ممكنا.

اكتساب اللغة

كيف يكتسب الإنسان اللغة ؟ الإجابة على هذا السؤال تضطرنا إلى النظر في أصل المعرفة الإنسانية

(٢٨) Eric H. Lenneberg, "The Biological Foundations of Language," *Readings in Applied Transformational Grammar*, Mark Lester(ed.) (Holt Rinehart and Winston: Inc, 1970), pp. 7-8. (Originally published in *Hospital Practice*, December 1967, pp. 59-67).

(٢٩) فيليب ليبرمان، «صوت في الخلاء: كيف اكتسب الإنسان القدرة على الكلام.» ترجمة حمزة بن قبلان المزيني **العصور**، الجزء الثاني. دار المريخ للنشر (١٩٩١) ص٢٩٧.

بشكل عام، وبذلك يصبح السؤال كيف يُحصِّل الإنسان المعرفة أيا كان نوعها ؟

منذ بدأت الفلسفة وخلال تاريخها الطويل تبلور مذهبان متمايزان لتفسير أصل المعرفة الإنسانية وطبيعتها. هنالك المذهب الامبيريقي Empiricism أو ما يسمى التجريبي الذي يقول إن المعرفة تقوم أساسا على التجربة الحسية والمؤثرات الخارجية التي يصادفها المرء في حياته. والمعرفة في كل تجلياتها إما انعكاس للتجربة أو تعميمات مستمدة منها. ويرى التجريبيون أن مهمة العقل هي التدبر فيما تنقله إليه الحواس من صور حسية وانطباعات ذهنية والتأليف بين عناصرها وربطها بعضها مع بعض ليستنبط منها أفكارا لا وجود لها في العالم الخارجي. ويعد الفيلسوف الاغريقي أبيقور Epicurus (341 - 276) مؤسس المذهب الإمبيريقي. ومن رواد الإمبيريقية الحديثة في انجلترا توماس هوبز Thomas Hobbes (1588-1679) وجان لوك John Lock (1932 - 1704) وديفيد هيوم David Hume (1711 - 1776)، وجان ستيوارت ميل John Stuart Mill (1806 - 1873)

وبالمقابل هناك المذهب العقلاني Rationalism الذي يقول بأن هناك أفكارا أولية ومبادىء فطرية جبل عليها عقل الإنسان منذ النشأة ولازمته قبل التجربة الحسية وبمعزل عنها لذلك فهي غير مستمدة منها، مثل المعرفة الرياضية. يرى العقلانيون أن العقل يتضمن نسقا متماسكا من المبادىء العامة التي تشكل جزءا أساسيا من بنيته الداخلية وتمكنه من تفسير المعلومات المتناثرة وغير المترابطة التي يتلقاها عن طريق الحواس لكي ينظمها على شكل أشياء وعلاقات وأسباب ونتائج، وأجزاء وكليات، وتماثل، ووظائف، الخ. المحسوسات في نظر العقلانيين لا تعدو أن تكون صورا عابرة لا معنى لها في حد ذاتها بل إنها في منتهى التفاهة والخصوصية. أما المعرفة الحقيقية، والتي يبقى الجزء الأكبر منها خارج وعينا، فإنها على درجة عالية من التنظيم والبناء وتشتمل على الكليات والمبادىء العامة المضمرة التي تشكل هذه المعرفة وتنظمها. اي أن أصحاب المذهب العقلاني يعطون أهمية خاصة لبنيان العقل الداخلي الذي تصدر عنه العمليات الذهنية. ومؤسس هذا المذهب أفلاطون ومن رواده في العصور الحديثة ديكارت Rene Decartes (1596 - 1650)، وسبينوزا Benedict de Spinoza، (1632-1677)، ولايبنتس Gottfried Wilhelm Leibnitz (1646 - 1716)

وممن تبنى المنهج الامبيريقي التجريبي في البحث أصحاب المدرسة السلوكية في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسهم واطسون J. B Watson، وسكنر B. F. Skinner ويرى هؤلاء أن لا فرق بين سلوك الحيوان والإنسان عدا أن الأخير أكثر تعقيدا. ويعرفون السلوك أنه نتيجة التأثير المتبادل بين الكائن العضوي وبيئته الخارجية ويمكن تحليله إلى مثير واستجابة. وبذلك تصبح دراسة السلوك، بما في ذلك السلوك الإنساني، دراسة موضوعية خاضعة للتجربة والملاحظة والقياس. وفي كتابه الشهير *Language* تبنى بلومفيلد Leonard Bloomfield، رائد الدراسات اللغوية في الولايات المتحدة الأمريكية، آراء المدرسة السلوكية السائدة آنذاك حرصا منه على إضفاء الطابع العلمي الموضوعي على الدراسات اللغوية. إلا أن أجرأ وأشمل محاولة في هذا الصدد هي ما قام به سكنر في كتاب له بعنوان *Verbal Behavior*، يقول سكنر وأتباعه من السلوكيين أن اللغة استجابات صوتية مشروط حدوثها بوجود المثيرات الخارجية والحوافز الملائمة التي تعزز هذه الاستجابات. وانطلاقا من ذلك تصبح اللغة في نظر السلوكيين مجرد مجموعة من المفردات والعبارات والجمل التي تشكل بعضها مع بعض شبكة مترابطة من الاستجابات ونسقا من العادات التي تم اكتسابها شيئا فشيئا بمحض الصدفة نتيجة التعرض لمؤثرات خارجية. وبما أن الطفل يتعلم لغة المجتمع الذي يعيش فيه فإنه يبدو من السهل تقبل موقف السلوكيين الذي يقول بأن اللغة ليست غريزة فطرية وإنما سلوك يكتسبه الفرد عن طريق الخبرة والمران والتعليم.[٣٠]

---

(٣٠) Noam Chomsky, "A Review of B. F. Skinner's Verabl be- =

ظل المنهج التجريبي مسيطرا على الدراسات اللغوية في الولايات المتحدة الأمريكية لمدة طويلة حتى جاء نعوم تشومسكي Noam Chomsky بنظريته التوليدية التي تضرب بجذورها في أعماق المذهب العقلي وتصل ما انقطع من أفكار ديكارت وفون همبولت (1767 - 1835) Wilhelm von Humboldt حول طبيعة المعرفة، بما في ذلك المعرفة اللغوية. والأبعاد الفلسفية التي تقوم عليها نظرية تشومسكي في اللغة والنتائج المترتبة عليها أشمل وأبعد من أن نحيط بها هنا لذا سوف نقتصر على تقديم عرض موجز لأهم عناصر النظرية التي تتعلق بموضوع اكتساب اللغة. وجدير بنا أن نبدأ بالإشارة الى أن اهتمام تشومسكي بموضوع اكتساب اللغة، وإن كان يحتل موقعا مركزيا في نظريته اللغوية، ليس مقصودا لذاته بقدر ما هو أحد وسائل الاحتجاج التي يلجأ إليها لتشخيص طبيعة اللغة البشرية ومن ثم طبيعة العقل البشري.[٣١]

يلفت نظرنا تشومسكي إلى أن الأطفال في أي مجتمع يشبون فيه يكتسبون لغة واحدة هي لغة مجتمعهم ويتكلمونها وفق قواعد صوتية وصرفية ونحوية موحدة ومطردة لا تختلف من طفل لآخر. هذا يشير إلى أن الطفل لا يتعلم اللغة فقط عن طريق التقليد ولاستجابة للمؤثرات الخارجية لأن هذه تختلف باختلاف المحيط الذي ينشأ فيه الطفل. ولو فسرنا النطق بأنه تقليد ومحاكاة فكيف نفسر الفهم الذي يسبق النطق. الأطفال الصغار يفهمون عبارات ويستوعبون جملا لا يقدرون على ترديدها والتلفظ بها. ليس من المعقول أن اللغة بخصوصيتها الشديدة وتنظيمها المعقد تحشر في ذهن طفل لم يتخط الرابعة عن طريق التجرية والمؤثرات الخارجية التي تحددها الصدف المحضة والظروف الطارئة. اللغة سلوك تحكمه قواعد لذا فهي تختلف في طبيعتها عن العادات المشروطة. ويشبه تسومسكى اكتيساب اللغة بالنمو الجسمي والعضوي الذي يصعب الوقوف في طريقه. والتعليم في مثل هذه الحالة لا يملأ ذهن الطفل بالمعلومات اللغوية كما نملأ كأسا فارغا بالماء وإنما الأصح أن نشبه التعليم بالماء والغذاء الذي يساعد على نمو الوردة وتفتحها. أي أنه لا يمكن إنكار أثر البيئة على تعلم اللغة لكن هذا الأثر لا يختلف عن تأثير البيئة في سلامة نمو الجسم والأعضاء. البيئة لا تحدد كيف سيعمل عقل الإنسان لكنها تقدحه فحسب، أي تحفزه ليعمل بطريقته الذاتية المحددة سلفا.[٣٢]

والأهم من ذلك في نظر تسومسكي أن منهج السلوكيين لا يفسر لنا أبرز خاصية من خصائص اللغة الإنسانية، الا وهي الإبداعية. سلوكنا اللغوي في إبداعيته يتجاوز تجاربنا الماضية ويفوق ما نتعرض له من مؤثرات خارجية. لذا لا يمكن تفسيره بأنه عادة مكتسبة واستجابات مشروطة وعمليات مترابطة، ويردف تشومسكي بأنه ليس هناك وجه للمقارنة بين المادة اللغوية البسيطة والمتناثرة (بما فيها من أغلاط وتحريف) التي يتعرض لها الطفل في سنواته الأولى عن طريق التجربة ويتلقاها من محيطه المباشر وبين المهارات المدهشة التي يمتلك ناصيتها خلال سنوات قليلة في بناء قواعد متكاملة تمكنه من استخدام اللغة وفهمها بشكل صحيح. كيف تتحول هذه المدخلات البسيطة إلى هذه المخرجات الهائلة؟ من المعروف أن أي فرق بين المدخلات والمخرجات يعود الى التصميم الداخلي للجهاز الذي يعالج المدخلات ويحيلها إلى مخرجات. الجهاز في حالة اللغة الإنسانية ليس إلا المخ أو ما يسمى العقل.[٣٣]

الإبداعية اللغوية تشير إلى أن الطفل لا يتعلم

= havior," The Structure of Language: Readings in teh Philosophy of Language, Jerry A. Fodor and Jerrold J. Katz (eds.), (New Jersey: Englewood Cliffs (Prentice -Hall, Inc. 1964), (Originally Published in *Language*. Vol. 35, No. 1, pp. 26-58); "Language and the Mind." *Psychology Today Magazine* (February) 1968"

(٣١) John Lyons, *Noam Chomsky* (Penguin Books, 1977).

pp.123-136.

(٣٢) نعوم تشومسكي، **اللغة ومشكلات المعرفة: محاضرات ماناجوا**، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني: (الدار البيضاء ـ المغرب: دار توبقال للنشر، ١٩٩٠م)، ص ص ٣٥، ١١٨ـ١١٩.

(٣٣) Alasdair Macintyre, "Noam Chomsky's View of Language," *Readings in Applied Transformational Grammar*, Mark Lester (ed.) (Holt: Rinehart and Winston, Inc., 1970), pp. 96-113. =

الكلام عن طريق المحاكاة والتقليد الببغاوي وإنما عن طريق استيعاب واستبطان واستخلاص قواعد لغته من خلال سمـاع الآخـرين وهم يتكلمون[٣٤]، يرى تشومسكي وغيره من التوليديين أن الطفل يستطيع تركيب منـظومـة من القواعد اللغوية ذات العمومية التي يستخدمها لتوليد وفهـم الجمل الجديدة وتكوين سليقة لغوية يميز بها بين الخطأ والصواب. هذا يعني أن اكتساب اللغة نوع من التركيب النظري. أي أن الطفل لا يقلد المادة اللغوية التي يسمعها من حوله وإنما يستنبط منها نظرية لغوية متكاملة. والمدهش في الأمر أن الطفل يركب هذه النظرية بنفسه دونما أي مسـاعدة من أحد ويكتشفها في سن مبكرة قبل أن يصبـح قادرا على إجراء العمليات الذهنية المعقدة وبشكل مستقل نسبيا عن مستوى الذكاء أو عما يمر به الطفل من تجارب في سنوات حياته الأولى.[٣٥]

ويفرق التوليديون بين البنية المستترة Deep structure للغـة والبنيـة الظاهرة Surface structure البنيـة الظاهرة لأي لفظ تتولد نتيجة تطبيق بعض القـواعـد التحـويليـة التي يجـريها العقل بصورة لاشعـوريـة على البنيـة المستترة. كما يميزون بين الأداء اللغوي Performance ويقصدون به ما يتلفظ به المتحدث فعلا من عبارات وكلمات، وبين الكفاءة اللغوية Competence ويقصدون بذلك الاستعداد الفطري لدى المتكلم والمقدرة النظرية التي تتفوق على الأداء ليس إلا محاولة تقريبة لإظهار كفاءة المتكلم الحقيقية إلى حيز الوجود. والمتكلم عرضة للكثير من الظروف التي تحـول دونه ودون الأداء اللغوي الأمثل مثل المـرض والتعب والنعـاس والتـوتـر وغـير ذلك من العـوارض الصحيـة والنفسيـة. انـطلاقا من هذه المعـطيات يرى تشومسكي أن مهمة العالم اللغوي ليس وصف الأداء أو البنية الظاهرة للغة، كما يفعل السلوكيون، وإنما الأهم من ذلك هو وصف الكفاءة أو البنية المستترة. وصف الأداء سيشمل بالضرورة معلومات عن مدى التذكر وعن الأخطاء المعتادة وعن عدم التركيز وغير ذلك من المعلومات التي تقع خارج نطاق اللغة والتي لا تتعلق بما تعلمه الشخص فعلا ولا بمدى كفاءته الحقيقية. لذلك فإن القواعد اللغوية المبنية على الوصف المباشر للسلوك اللغوي في بنيته الظاهـرة لا يمكن الاعتـداد بها لأنها ليست بذات أهميـة نفسيـة ولن تفيـدنا في معرفة طبيعة العقل البشري ولا في طبيعة اللغة وطرق اكتسابها.

ويقـول تشومسكي أن نمو السلوك اللغوي عند الأطفال يتحدد بيولوجيا[٣٦]، وهذا مما يؤكد على أن فهم السلوك اللغوي على حقيقته يتطلب منا أن نأخذ بالاعتبـار، إضـافـة إلى المنبهات الخارجية، معرفة البنـاء الداخـلي للكائن العضوي، أي المخ[٣٧] ولأنه يصعب الولوج إلى داخـل مخ الإنسـان أو إجـراء التجـارب عليـه، وحيث لا تتوافر الأدلة عما يحدث بداخله أثنـاء الكـلام فإنـه لا يتبقى أمامنا سوى دراسة السلوك الظاهري، أي العملية الكلامية، ولكن لا لذاتها بل لنصل من خلالها إلى البنية المستترة. الطريقـة الوحيـدة للتعـرف على كيف يعمـل العقل الإنسـاني هي أن نتفحص الأعمـال التي ينجزها العقـل الانسـاني والقـواعـد التي يهـدف النحـو التلوليـدي إلى استنباطها عبارة عن نموذج مطابق للكفـاءة اللغـويـة لدى المتكلم، لذلك فهي في غايـة العمومية والتجريد، مثلها مثل البنية المستترة للغة.[٣٨]

يقـوم النحـو التوليدي على افتراض أن اللغات الإنسانية كلها تشترك في خصائص تنظيمية عميقة الجذور والتي من المستبعد جداً أنها تأتي عن طريق التعليم. هذه القواعد الكلية الراسخة، أو ما يسمى linguistic universals لابـد أنهـا ملكات فطرية جبل عليها عقل الإنسان في تركيبه البيولوجي وطبعت فيه

= (Originally Published in *The Listener* "May 30 1968)"

(٣٤) Chomsky "A Reviews, p. 577.

(٣٥) Chomsky "Language..."

(٣٦) Noam Chomsky, "On the Biological Basis of Language Capacities, *Psychology and Biology of Language and Thought: Essays in Honor of Eric Lenneberg*, George Miller and Elizabeth Lenneberg (eds.) (New York: Academic Press, 1978), pp. 200-201"

(٣٧) Chomsky "A Review ...." p. 564

(٣٨) Chomsky "A review ...." p. 548.

من الأصل لتشكل جزءا من بنيته الأساسية. بعبارة أخرى نستطيع القول بأن العقل البشري مزود من الداخل بنسق ذهني ذاتي مهيأ أساسا لاستخلاص تجريدات لغوية على قدر كبير من العمومية هذه التجريدات اللغوية عميقة أقصى درجات العمق وبعيدة كل البعد عن الظاهرة اللغوية المحسوسة التي نلاحظها على السطح أثناء عملية الكلام الفعلي.[٣٩] يعرف تشومسكي القواعد اللغوية الكلية أو النحو الكلي بأنه المباديء التي تدخل في عمل الملكة اللغوية الأصل أو هو تفسير لحالة الملكة اللغوية الأولى قبل التجربة، وهو يختلف عن نحو أي لغة بذاتها في أن الأخير تفسير لحالة الملكة اللغوية بعد أن قدمت لها مادة التجربة الأولية.[٤٠]

ومن وظائف النحو الكلي حصر المخرج اللغوي وتقييده في عمليات محددة وقواعد لا يحيد عنها. من المظاهر التي يحددها النحو الكلي مثلا اعتماد العمليات النحوية على البنية Structure dependent الاعتماد على البنية مفاده أن المتكلم يجري العمليات النحوية، مثل تحويل الجملة الخبرية إلى استفهامية أو المبنى للمعلوم إلى المبني للمجهول أوما شابه لذلك، على أساس أن الجملة نظام هرمي من المكونات البنائية المترابطة، لا على أساس أنها مجرد صف مستقيم من الكلمات المرصوفة المتتابعة، أوما يسميه تشومسكي Linear order جملة «ضرب الرجل الولد» لا تختلف في بنائها مثلا عن جملة «ضرب الرجل الجالس على الكرسي الولد الواقف على الطاولة» تنقسم كل جملة من هاتين الجملتين إلى فعل وفاعل ومفعول. هذه الحقيقة البنوية هي المهمة بالنسبة للعمليات التحويلية، بصرف النظر عن الاختلاف في عدد كلمات الفاعل أو المفعول أو عن موقع أي منهما بالنسبة لبقية أجزاء الجملة. الاعتماد على البنية في تحديد الخيارات التي يمكن تطبيقها على أي من هاتين الجملتين في عملية تحويلها مثلا من خبرية إلى استفهامية يعني استبعاد الخيارات الأخرى مثل نطق الجملة بصورة معكوسة أو تبديل موقعي الكلمتين الأولى والأخيرة أو غير ذلك من العمليات الرياضية البسيطة التي هي من الناحية الشكلية أسهل من الطرق المتبعة عادة في تكوين الجمل الاستفهامية. هذه العلميات الشكلية التي تبدو لنا في غاية البساطة يصعب على عقل الإنسان التعامل معها لأنها لا تعتمد على البنية، أي لأنها تختلف في طبيعتها عن العمليات التي تحددها الكليات اللغوية. هذا يوضح لنا أن الكليات اللغوية لا يمكن تفسيرها من منطلق البساطة أو الكفاءة الاتصالية وإنما هي في الواقع ضرورات يحتمها تركيب المخ البيولوجي.[٤١]

تسمح القواعد الكلية المحددة بيولوجيا، وهي على درجة عالية من العمومية والتجريد، بمجال محدد من الخيارات الممكنة لتحقيق بناء الكلمات والجمل وإجراء العمليات النحوية، أي تحقيق اللغة وإبرازها من حيز التجريد في بنيتها المستترة إلى البنية الظاهرة المتحققة في اللفظ. ودور التجربة في ذلك أن تحدد أي نوع من القواعد وأي نوع من الأداء سيكون متاحا للمتكلم في ظل الخيارات الممكنة. هذه الخيارات تحددها طبيعة الإنسان البيولوجية والتي هي في نهاية الأمر قاسم مشترك بين البشر جميعا مثل انتصاب القامة والمشى واستخدام اليدين. ينبغي أن ننظر للكلام على أنه قدرة طبيعية وأمر عادي تماما بالنسبة للإنسان الذي يختص به دون سائر الكائنات، مثله في ذلك مثل تحليق الطيور في السماء أو سباحة الأسماك في المحيط[٤٢]، وهنا يكمن وجه الاختلاف بين السلوكيين الذي يردون كل شي في تعلم اللغة إلى البيئة الخارجية وبين التوليديين الذين لا ينكرون أهمية المؤثرات الخارجية ولكنهم في الوقت نفسه يؤكدون على خصائص الإنسان البيولوجية والذهنية ودورها في اكتساب اللغة.

(٣٩) Macintyre, "Noam Chomskys Views..," pp. 97-102

(٤٠) تشومسكي، **اللغة ومشكلات المعرفة**، ص ص ٦٢ـ٧٢.

(٤١) تشومسكي، **اللغة ومشكلات المعرفة**، ص ص ٥٠ـ٨٥ وانظر ايضا Lyons 1977, pp. 127-132

(٤٢) Noam Chomsky, *Essay on Form and Interpretation* (New York: Elsevier North Holland, 1977), p. 164; David Lightfoot, *The Language Lottery: Toward a Biology of Grammar* (M.I.T Press, 1982), pp. 15-22.

بنــاءً على ذلك يستنتــج تشـومسكي أن دمــاغ الإنسان منظم على شكل قوالب شبه مستقلة بعضها عن بعض إلا أنها تعمل بشكل متناسق مترابط. أحد هذه القوالب يختص بالملكة اللغوية ويمكن أن نسميه «عضو اللغة». ويعقب فيليب ليبرمان (والذي لا يتفق مع تشومسكي في كل ماذهب إليه) على ذلك مؤكدا أن القـدرة اللغـويـة مرتبطة ببعض البنى الأعصابية المحددة التي لا توجد إلا في الدماغ البشري وأهمها البنية المسماة منطقة بروكا، نسبة إلى مكتشفها عالم الأعصاب الفرنسي بيير بول بروكا Bsrocca وتقع هذه قريبـا من المنـطقـة الخلفيـة لفص القشرة المخيـة الأمــامي الأيسر . ويـظهـر على من يصاب في هذه المنطقة بإعاقة شديدة المرض المسمى حبسة بروكا: فهو يستطيع التحكم في اللسان والشفتين والأجزاء الأخرى من جهاز النطق لكنه لا يستطيع أن ينطق كل الحـركـات والأصـوات السـاكنة التي يتكون منها الكــلام.[٤٣] ويؤكد كارمايكل Leonard Carmichael على أنه لابد من نضوج مراكز معينة في الدماغ قبل أن يبـدي الطفل أي استعداد للكلام. ويحتمل أن حالة التأهب هذه لا تخص كامل الدماغ وإنما مناطق محددة منه.[٤٤]

ومن الدلائـل على أن المقـدرة اللغـوية تعود إلى تركيب الإنسان البيولوجي وأن هذه المقدرة تتركز في منطقة محددة من المخ البشري مستقلة عن المناطق التي تتركز فيها القدرات الأخرى أنه لا توجد علاقة بين الذكاء وتعلم اللغة. فالطفل يتعلم اللغة في فترة مبكرة من عمره لم تكتمل فيها قدراته العقلية. وهنالك أفراد على مستوى متدن جداً من الذكاء لدرجة أنهم لا يستغنون عن مساعدة الآخرين في أبسط شئون حيـاتهم ومع ذلك يستطيعون الكلام. كما أن حجم الدمــاغ عند الإنسان القزم أصغر بكثير من حجم دمــاغ الشمبـانزي أو الغوريلا، ومع ذلك يستطيع القزم أن يتعلم اللغة بينما يستحيل ذلك على أرقى أنواع القردة.[٤٥]

الأسس البيولوجية للغة

أقـام تشـومسكي نظريتـه اللغـوية على أسس فلسفيـة ومنـطقيـة واستنـد على حجـج لغـويـة وسيكولوجية. مع ذلك فإن النتائج التي توصل إليها لا تختلف في جوهـرهـا عن النتائج البيولوجية التي توصـل إليهـا لينبرج Eric Lenneberg الذي كرس جهـده العلمي للبحث في وظائف المخ والأعصــاب ودورها في اكتساب اللغة. تدور معظم أبحاث لينبرج حول من يعانون عاهات في الكلام نتيجة الإعاقة أو الإصـابات التي يتعرضون لها في منطقة المخ. كما أجرى العديد من الدراسات حول اكتساب اللغة عند الأطفـال ليتـوصل إلى تحديد مراحل النمو اللغوي ومدى ارتباطها بنمو الطفل العضلي والحركي وعمره الزمني وأثر البيئة في ذلك.

يقول لينبرج أنه إذا ما ثبت أن اللغة، ولو حتى في بعض جوانبهـا، تحـددهـا نوازع فطريـة فإن ذلك سيضع كوابح لا يستهان بها أمام تفسير اللغة، من منـطلق نفعي قصدي كما يفعل السلوكيون وسوف يتحـول الاهتمـام بدلا من ذلك إلى دراسة العوامل الفسيولوجية والتشريحية والتوريثية التي يقوم عليها السلوك اللغوي، يتوصل لينبرج من خلال أبحاثه إلى أن اللغة التـي يتكلمها الإنسان يكتسبها من المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه، أما المقدرة الكلامية فهي غريزة وراثية يفطر عليها الإنسان في أي مكان وتحت أي ظرف من الظروف.، الفرق بين السلوك الفطري والسلوك المكتسب أن الأول يورث بيولوجيا أما الآخر فيـورث ثقـافيا. وبمقارنة نوعين من أنواع النشاط الإنسـاني أحـدهمـا المشي وأساسه بيولوجي بحت والآخر الكتابة وهو بالمقابل إنجاز ثقافي بحت يطرح

(٤٣) ليبرمان، «صوت في الخلاء ...»، ص٢٩٥

(٤٤) Leonard Carmichael, "The Early Growth of Language Capacity in the Individual" *New Directions in the Study of Language*, Eric H. Lenneberg (ed.) (The ,M.I.T. Press, 1964), pp. 15-16.

(٤٥) Eric H. Lenneberg, "A Biological Perspective of Language , *New Directions in the Study of Language*, Eric H. Lenneberg (ed.) (The M.I.T. Press, 1964), pp. 78-84; George A. Miller, "The Psycholinguists,*The Psychology of Communication: Seven Essays* (Penguin Books, 1967), p. 86.

لينبـرج في إحدى مقالاته[٤٦] التي سنلخصها فيما يلي بعض المعايير التي يمكن أن نميز بها ما بين السلوك البيولوجي والسلوك الثقافي والتي من خلالها نتبين ما إذا كانت اللغة مكتسبة ثقافيا أم موروثة بيولوجيا.

١ ـــ مدى التفاوت بين أفراد الجنس الواحـــد

إذا كان هنـاك تفاوت ملحوظ بين أفراد الجنس الواحد في سلوك معين فإن هذا السلوك مكتسب، مثل الكتـابـة التي توجـد منها أنواع يصعب حصرها. وبـالعكس إذا اتفق أفـراد الجنس على اختـلاف الأزمنة والأمكنة وتشابهوا في السلوك، كما هي الحال بالنسبة للمشي، فهذا يعني أنه فطري. ولا غرو أن هناك اختلاف بين لغات الشعوب والأمم إلا أن هنالك أيضا كليات Universals تشترك فيها كل لغات البشر وتميزها كوسيلة اتصال تختلف عن غيرها من وسائل الاتصال عند الكائنات الأخرى. يرى لينبرج أن هذه الكليـات المشتـركـة تعكس خصـائـص فطريـة يتحلـى بهـا الإنسان.

٢ ـــ تاريخ الظاهرة السلوكية

السلوك الفطري لا يتغير بل يبقى ثابتا على حاله، أي أنه ليس له تاريخ. ومعروف أن اللغات البشرية تتغير لكن هذه ليست تغيرات نوعية بل تغيرات طارئة وعشوائية لا تنحو منحى تطوريا تكيفيا يمكن التنبؤ به أو التخطيط له. فليس بمقدور علماء اللغة مثلا أن يرسموا خطا تطوريا للغة الإنسانية من مرحلة بدائية تقـوم على الحركات والنداءات الغامضة إلى مرحلة متقدمة تكتمل فيها قدرة الإنسان على الترميز وعلى التعبير الدقيق.

٣ ـــ دليل الاستعداد الفطري

السلوك الفطري يظهر تلقائيا حينما يأتي الوقت المناسب لحدوثه حتى في غياب الحوافز والمثيرات. ومع أن الإنسان لا يولد ولديه نزعة غريزية لتعلم لغة معينة لكنه يولد ويولد معه الاستعداد الفطري للكلام. ومما يدل على أهميـة العـامل الغريزي في تعلم اللغة أن الطفل سوف يتكلم حين يحين الوقت المناسب حتى ولو كان أبواه أصمان أبكمان أو حتى لو ولد تحت ظروف سيئة لا تسمح بوجود مـن يعلمـه الكـلام بشكـل مباشـر.

٤ ـــ افتراض وجود ارتباطات عضوية محددة

(أ) *تحديد البدء واطوار النمو المرحلي*

أي سلوك فطري لا إرادي، مثـل الوقوف والمشي عنـد الأطفال، يظهر عند لحظة معروفة من مراحل النمو ويخضـع لأطوار طبيعية ويمر بحلقات متتالية من النضج حتى يصل إلى مرحلة الاكتمال ويظل مع الفـرد طوال مدة حيـاته بصرف النظر عن المجتمع الذي يولد فيه أو عن الظروف التي نشأ فيها. وبتوافر الحد الأدني من الحوافز يبرز هذا النشاط الفطري تلقـائيـا إلى حيز الوجود حينما يحين الوقت الملائم لظهـوره دون الضرورة إلى تدريب أو تمـرين. أمـا السلوك المكتسب فإن الفرد لا يتعلمه في لحظة محددة من لحـظات العمـر، بل يتعلمــه متى سمحت له الظروف بذلك. وإذا كان السلوك المكتسب سلوكـا معقدا فإنه من السهل على المرء أن ينساه أو يفقده إذا انقـطع عن ممـارستـه مدة طويلة. أي أن بدأ بالسلوك المكتسب ومراحل نموه واختفائه لا تخضع لجـدول نمو محدد ومعروف في حياة الفرد. وحينما نطبق هذه المقـاييس على اللغة نلاحظ أنها لا تنمو بطريقـة عشـوائيـة بل تخضع لمراحل نمو محددة ومـطردة لدى كل البشر، بصرف النـظر عن التباين اللغوي والثقافي عند مختلف الأجناس والشعوب. ولا فرق من هذه الناحية بين اللغات البشرية من حيث درجـة التعقيـد أو صعوبة التعلم مما يشير إلى أن اكتسـاب اللغـة تحكمـه عوامـل بيـولوجية محددة ومشتركة بين أفراد الجنس البشري وأنه لا يخضع للتدريب أو المران الذي يختلف اختلافا واضحا من

---

(٤٦) Eric H. Lenneberg, "The Capacity for Languae Acquistion. *The Structure of Language: Readings in the Philosophy of Language*, Jerry A. Fodors and Jerrold J. Katz (ed.) (New Jersey: Englewood Cliffs, Prentice- Hall, Inc, 1964).

مجتمـع لآخـر . ولو قارنـا الكلام بالكتابة والقراءة لوجـدنـا أن الفرد لا يتعلم القراءة والكتابة في فترة محددة بل متى سنحت له الفرصة بذلك، إن سنحت. كما أن الخطوط تتفاوت في صعوبتها وتعقيدها بدرجة ملحوظة بين لغة وأخرى.

(ب) دور البيئـة

السلوك سواء أكـان فطريـا أم مكتسبـا، عادة يتـوقف على وجـود المنبهـات الخارجية. لكن الفرق يكمن في أن السلوك الفطري يشكل جزءا من كيان الفرد مبرمج فيه. وتكون وظيفة المنبهات الخارجية في قدح هذا السلوك الفطري وإثارته ليظهر وفق النمط الذي تحـدده سلفـا عوامل الوراثة البيولوجية. أما السلوك المكتسب فإنـه يعتمـد كليـا على البيئـة في طبيعته ومنشأة وفيما يترتب عليه. وبالنسبة للمقدرة اللغوية فإن لها مجراها الطبيعي ويستطيع الطفل أن يستثمـر هذه المقـدرة متى توافر الحد الأدنى من الحـوافـز في بيئتـه المباشرة. قد تحد ظروف البيئة الطفل أو تحول دونه ودون استخدام اللغة ولكن من الصعب كبح ملكته اللغوية الكامنة. الظروف السيئة قد لا تساعد على نمو اللغة ولكن النمو الجيد للغة لا يتـوقف بالضرورة على التـدريب والتمـرين. بل لقد أثبتت التجارب بأن التمرين لا يفيد كثيراً في هذا الخصـوص. كمـا أن الطفل لا يعيد ما يسمعه من الكبار بل يبتـدع عبارات وجملا لم يسبق أن تلفظ بها أحد من حوله. ومع ذلك يظل للبيئة تأثيرها في تحديد اللغـة التي سيتكلمها الفرد، فكل إنسان يتكلم لغة المجتمع الذي ينشأ فيه.

بعد الانتهاء من مناقشة المعايير الأربعة الموضحة أعلاه يشرع لينبرج في مناقشة آراء السلوكيين تجاه اكتساب اللغة ودور التقليد والمحاكاة في ذلك وينتهي بفرض هذه الآراء استناداً على الأسباب التالية التي يطرحهـا أيضـا كتسـاؤلات للبحث في طبيعة اللغة الإنسانية ومراحل النمو اللغوي عند الأطفال.[٤٧]

١ ــ حينمـا يتعلم الطفـل أصـوات لغته فإنه في الواقع لا يقلد الأصوات اللغوية كما سمعها لأن كل صوت منهـا يختلف في خصـائصـه الفيزيقية البحتة من متكلم لآخر، بل من حالة لأخرى عند المتكلم الواحد. الصوت اللغوي يختلف عن بقية أصوات الطبيعة في أنه حقيقة سيكولوجية قبل أن يكون حقيقة فيزيقية. لذا فإن تعلم الأصوات اللغوية يتطلب درجة عالية من التعميم والتجـريـد التـي تسمـو علـى التقليـد الببغائي.

٢ ــ يوظف الطفـل في طور تعلم الكـلام عمليات القيـاس والعميم وإطلاق الأسمـاء Naming (مثـل تكوين الجمع من المفرد أو الماضي من المضـارع) بطريقـة خلاقـة توحي بأن هناك عاملا آخر غير عامل التقليد والمحاكاة يمكن الطفل من تعلم الكلام. ويركز الأطفال على هذه العمليات التجريدية البحتة قبل أن يلتفتوا إلى الجانب العضلي، أي النطق، بمراحل. بمعنى أن نطق الكلمات لايستقيم على لسان الطفل إلا في مرحلة متقدمة نسبيا من العمر بعد أن يسيطر الطفل تماما على الجانب الذهني من تعلم اللغـة. ولو كان تعلم اللغة يقوم أساسا على التقليد والمحاكاة لكان هم الطفل الأول أن يجيـد النطق، كما تفعل الببغاء مثلا. ثم إن مرحلة الكلام تسبقها مرحلة الفهم والذي يبدو بحكم هذه الأسبقيـة أنـه أسهل من الكلام وتوطئة له. أي إن المعرفة اللغوية والتي تشير الدلائل إلى أنها أمر قائم بذاته تسبق الكلام واستخدام اللغة، وهذه مسألة ذهنية بحتة لا يمكن أن يلعب فيها التقليد أي دور يذكر.

٣ ــ الصيحات التي تطلقها الحيوانات تقتصر على الوظائف البيـولوجيـة مثـل الخوف والجوع والرغبة الجنسية. ويستحيل تدريب الحيوان على تحـويل المقال من مقام إلى آخر، أي أن يطلق صوتا من الأصوات في غير ما قصد له في العـادة، وذلك لأن الصيحـة جزء من الحالة الشعـورية التي يمر الحيوان بها في الظرف المعـين. لكن الإنسـان لا يعجزه ذلك. ويعبر صراخ الطفل في الأشهر الأولى عن الحالات

(٤٧) Lenneberg, "The Dapacity", pp. 600-603.

الشعورية لكنه منذ المراحل الأولى من اكتساب اللغة يستطيع الفصل بين الكلام والحالات الشعورية.

٤ ــ من المثير للدهشة أن الأطفال منذ الأشهر الأولى يصغون للكلام ويعيرونه اهتماما كبيرا. هذا بخلاف القردة والحيوانات الأخرى التي يصعب على مدربيها أن يلفتوا انتباهها.

٥ ــ هنالك تشابه بين تركيب الحلق والفم عند الإنسان والقردة بقدر يسمح للأخيرة أن تنطق ولو ببعض الأصوات اللغوية، ومع هذا لم يحدث شيء من ذلك على الرغم مما بذل من جهد ووقت لتحقيق مثل هذا المطلب. لا يستطيع أي نوع من القردة أن يتحكم في عضلات التنفس والحلق والفم وينسق بينها على نفس القدر من الضبط والسرعة والدقة التي يستطيعها الطفل في إخراج الكلام. من الصعب رد ذلك إلى مجرد أن الإنسان مقلد ماهر.

وفي مقالة أخر(٤٨) له يتطرق لينرنج بشيء من التفصيل مراحل النمو اللغوي عند الأطفال مستندا في ذلك إلى الملاحظات الميدانية والشواهد الإكلينيكية. يؤكد لنبرج أن الغريزة اللغوية تفصح عن نفسها عادة عند جميع الأطفال وفق جدول بيولوجي محدد على اختلاف البيئات الخارجية والظروف الاجتماعية والثقافية. فحينما يحين الوقت المناسب يبدأ الطفل بممارسة الكلام بدون أي تقديم أو تأخير، تماما كما هي الحال بالنسبة للمشي أو غيره من المهارات الفطرية الأخرى. تبدأ محاولات الطفل الأولى للكلام ما بين الأسبوع السادس إلى الثامن بإطلاق أصوات المناغاة Cooing التي هي أشبه ما تكون بحركات المد Vowels التي لا يتخللها سواكن Stops وذلك لأن الطفل في هذه المرحلة والمراحل التي تليها مباشرة يصعب عليه التحكم في عضلات النطق وتحريكها. ومن الشهر السادس تقريبا يبدأ الطفل بنطق مقاطع تبدو وكأنها تتألف من سواكن وحركات لكنها في حقيقة الأمر لا تشبه الأصوات اللغوية في شيء، وهذا ما يسمى Babbling وفي الشهر الثامن تظهر على الأصوات التي يخرجها الطفل نغمات تشابه النغمات التي تفيد معنى التعجب والاستفهام ونحو ذلك في كلام البالغين. وفي فترة لاحقة تصدر عنه أصوات قريبة الشبه بالأصوات اللغوية الحقيقية Phonemes.

وشيئا فشيئا تزداد قدرة الطفل على التحكم نوعا ما في عضلات النطق. ومع بداية العام الثاني يطرأ تغير مفاجيء وملحوظ على قدراته اللغوية ويبدأ في تعلم الكلمات وإطلاق الأسماء على الأشياء، وهذه المرحلة يسميها لينبرج «مرحلة إطلاق الأسماء» Naming الكلمات الأولى التي يتعلم الطفل على نطقها كلمات قصيرة لا تتعدى الواحدة منها ثلاثة مقاطع وينطقها مفردة غير مركبة في جمل. ويميل الطفل الى تعميم هذه الكلمات لتشمل مدلولات لا تنطبق عليها كأن يطلق كلمة «بابا» على كل الرجال أو «ماما» على كل النساء. ولابد من مرور بعض الوقت قبل أن يتمكن الطفل من تركيب الكلمات في جمل قصيرة لا تزيد على كلمتين ومركبة وفق قواعد نحوية ابسط بكثير من تلك التي يستخدمها الكبار. جملة «بابا سيارة» مثلا قد تعني «ذهب بابا بالسيارة» أو «جاء بابا بالسيارة» أو «أشترى بابا سيارة»... الخ. وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل يتعلم قواعد اللغة المتعلقة بتكوين الجمل الاستفهامية والنفي والماضي والجمع وما إلى ذلك. إلا أن الطفل لن يستطيع قبل سن الثالثة أو الرابعة أن يؤلف الجمل الطويلة والصيغ المعقدة مثل صيغة الشرط. كما أن التعرف على الألوان والأشكال والتمييز فيما بينها يأتي في مرحلة متأخرة نسبيا. وفي هذه السن المبكرة يميل الطفل إلى تعميم بعض القواعد النحوية والصرفية حتى في الحالات التي لا تنطبق عليها، كان يجع «كرسي» على كرسيات» على وزن «طاولات». هذه التعميمات تشير إلى أن اكتساب اللغة عملية استنتاجية وليست عملية تقليد بحت لأن الطفل لم يسبق له أن سمع كلمة «كرسيات»، كما أنه لو كان اكتساب اللغة عملية تقليدية بحته لما وجد الطفل صعوبة في تعلم الألوان التي يسمعها تردد على

---

(٤٨) Lenneberg, "The Biological..."

مسمعه كل يوم.(٤٩)

ومع بداية العام الثالث تبدأ القدرة اللغوية عند الطفـل تتسـارع ويتـزايـد مخزونه اللغوي بشكل مدهش ويكون المخ في هذه الفترة قد وصل إلى ٦٠٪ من حجمه الكامل. ويتزامن ذلك مع التقدم الملحوظ في القدرة على المشي وغيره من القدرات الحركية والتي يبدو أن هناك نوعا من الترابط بينها وبين اكتساب اللغة. ومع نهاية العام الثالث تقريبا يستطيع الطفل أن يستخدم ما يربو على الألف كلمة ويفهم ما يزيد على الألفـين أو الثلاثة. وبعد أن ينهي عامه الرابع يكون الطفل قد احكم سيطرته على أساسيات اللغة واستـوعب أسرارهـا وصـار يستخـدمهـا كمـا يستخدمهـا البـالغـون.

واكتسـاب اللغـة بالنسبـة للإنسان أمر طبيعي يصعب كبحه حتى في أسوأ الظروف، كما لو كانت هناك قوة دفع ذاتية تحدو اللغة للظهور على لسان الطفل حينما يحين الوقت المناسب لذلك. نجد مثلا أن الأطفال الذين يتربون في كنف آبائهم الصم البكم يمرون بنفس مراحل النمو ويتعلمون الكلام في الوقت المناسب ولا يختلفون في ذلك عن غيرهم من الأطفال الذين نشأوا تحت ظروف عادية. وينطبق هذا الكلام على الأطفال المعاقين الذين نشأوا في مصحات عقلية تحت ظروف سيئة بحيث لا يجدون من يتحدث معهم.(٥٠)

ويشير لينبرج إلى أن ارتباط النمو اللغوي بالنمو العضـلي والحـركي يبـدو أقوى من ارتباطه بالعمر الزمني للطفـل. ومما يعزز هذا الاحتمال أن النمو الحركي يعد من أهم مؤشرات النضج. ولا يبدو أن هناك ارتباطا واضحا بين النمو اللغوي والعمر الزمني عنـد المعـاقين بينما هناك ارتباط واضح بين النمو اللغوي والنمو الحركي. إلا أن هناك دلائل تشير إلى أن العـلاقـة الإحصـائية بين النمو اللغوي والنمو الحركي ليست علاقة سببية أو علاقة تأثير وتأثر. هنالك مثلا إعاقات حركية تحدث دون أن تؤثر على اكتسـاب اللغـة. وبالمقابل قد يتعطل الكلام نتيجة اصـابـة منـاطق معينـة في المخ دون أن تؤثر هذه الاصابات على المهارات الحركية والذهنية الأخرى.(٥١)

وقد أثبت التجارب أن هناك تلازما بين عدد من المجـالات اللحـائيـة Cortical fields وبـين مظاهـر محدودة من السلوك اللغوي. المناطق المتقدمة Pre-central areas من الفص الجـبـهـي Frontal lobe تختص بإنتاج اللغة، بينما تذكر الوظائف الحسية في المنـاطق الخلفيـة Postcentral areas من المجـالات الصدغية الجانبية والعليا Parietal and superior temportal fields هذه التخصصات الوظيفية لا توجد منـذ الولادة وإنمـا تحدد تدريجيا عند الطفل كلما تقدم به السن بشكل مشابه لأطوار تمايز الأعضاء التي يمر بها الجنين. وتشير الدلائل إلى أن الوظائف اللغوية تبدأ من سن الثانية تتركز في الجانب الأيسر من المخ، ويزداد هذا التركيز مع تقدم العمر حتى بعد سن الثانية عشرة حيث يصبح هناك تلازما لا انفكاك فيه بين اللغة وهذا الجانب من المخ.

ولو تعرض امرؤ بالغا لإصابة في الجانب الأيسر من قشرة الدماغ المركزية فإن هناك احتمالا بنسبة ٧٠٪ أنـه سيصـاب بالحبسـة: ونسبـة ٥٠٪ من البالغين الذين يتعرضون لمثل هذه الإصابة يصعب شفـاؤهم ومن يشفـون منهم لا يشفون تماما. أما بالنسبـة لمن هم دون سن الثـانية فإن الإصابة في الجانب الأيسر من الدماغ لا تختلف عن الإصابة في الجانب الأيمن منه في أنه لا يحدث من جرائها أي عاهـة لغـوية. أما إذا حدثت الإصابة مابين مرحلة اكتساب اللغة، أي سن الثانية، وسن الرابعة فمن المحتمل أن يتعرض الطفل للإصابة بالحبسة لفترة وجيزة ثم يستعيد قدرته على الكلام إذا كان الجانب الأيمن من الدماغ سليما لم يعرض لأذى. وحينما يستعيد الطفل قدرته على الكلام في هذه الحالة يمر

(٤٩) Lenneberg, "The Capacity", pp. 593 - 596; "The Biological," pp. 5-7."

(٥٠) Lennegerg, "The Biological....," pp. 7-9.

(٥١) Eric H. Lennegerg, "On Explaining Language," *Science*, Vol. 164, No. 3880 (9 May 1969), p. 635.

بنفس مراحل النمو التي يمر به الرضيع ولكن بشكل أسرع ويشفى شفاءً تاما. أما فيما لو أصيب الطفل بالحبسة مابين الرابعة والعاشرة فإنه بعد فترة من التمرين قد تستغرق بضع سنين يستعيد قدرته على الكلام بشكل كامل ويبدأ من حيث ما توقف دون المرور بمراحل النمو المعتادة.(٥٢)

وهكذا نرى أنه إذا ما حدث أي ضرر للجانب الأيسر من المخ في سنين الطفل الأولى قبل أن يكتمل نمو المخ وقبل أن تصبح اللغة وقفا على الجانب الايسر منه فإنه من السهل نقل وظائف اللغة إلى الجانب الأيمن منه وبذلك يستعيد الطفل قدرته على الكلام. ولا يمكن أن نرد تحويل وظائف اللغة من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن من الدماغ إلى عامل الضرورة لأن الأمر لو كان كذلك لما كان هناك فرق فيه بين الصغار والكبار. التفسير المعقول لهذه الظاهرة هو أن دماغ الطفل ينمو وتتمايز أجزؤوه وتتحدد وظيفة كل جزء خلال سنوات العمر الأولى. وكلما تقدم السن بالطفل ترسخت العلاقة بين كل جزء وما يخصه من وظائف حتى يكتمل نمو الدماغ وتصبح هذه العلاقة ثابتة لا يمكن تحويلها. وفي بداية اكتساب اللغة يبدو أن كلا الجانبين من الدماغ يشتركان في هذه الوظيفة وشيئا فشيئا يبدأ الجانب الأيسر يستحوذ عليها حتى يستقل بها تماما ويصبح المستحيل بعد ذلك على الجانب الأيمن أن يعوض عن الجانب الأيسر ويصبح استرداد القدرة على الكلام في حالة الإصابة أمرا متعذرا.(٥٣)

والفترة التي تمتد من سن الثانية إلى سن الثانية عشرة هي ما يسميه لينبرج الفترة الحرجة بالنسبة لاكتساب اللغة. ومن يتعدى سن الثانية عشرة دون أن يتعلم الكلام لسبب أو لآخر فإنه من المستبعد أن يتعلم. ونلاحظ ذلك حتى في تعلم اللغات الأجنبية إذ يتقنها الصغار ويجيدون النطق بها كأهلها، على عكس الكبار الذين تظهر على نطقهم لكنة واضحة. ومن المحتمل، في نظر لينبرج، أن هناك علاقة بين هذه الفترة الحرجة وبين طبيعة الإنسان ومتطلبات العيش في مجتمع إنساني. يختلف الإنسان عن غيره من المخلوقات في أنه يولد عاجزا غير مكتمل النمو. ويبقى على هذه الحال لمدة طويلة. ويزن دماغ الإنسان عند الولادة ربع وزنه عند البلوغ، مما يعني أن عمليات النمو ومراحله تستمر بعد الولادة لسنين عديدة. ويحتفظ الدماغ خلال هذه المدة بمرونته ولدانته وقدرته على النمو والتغير والتكيف. وقد يكون من أهم الدوافع لذلك حاجة الطفل لتعلم اللغة. ولكن لابد أن يتوقف النمو عند لحظة معينة بتجاوز الفرد عندها مرحلة الطفولة ليبدأ مرحلة الاستقرار ومزاولة مهامه ومسؤولياته في المجتمع.(٥٤)

خائص اللغة الإنسانية

استطاع تشارلز هوكت من خلال البحث الدؤوب والعمل المتواصل أن يستنبط عددا من الخصائص Design features التي تتميز بها اللغة الإنسانية عن غيرها من وسائل الاتصال الأخرى. وقد يشترك الإنسان مع غيره في أحد هذه الخصائص أو بعض منها إلا أنها لا توجد مجتمعة إلا في لغات البشر التي تشترك فيها جميعا. نشر هوكت نتائج أبحاثه على فترات متوالية وفي أماكن متفرقة(٥٥). هذا وقد لخص جون ليونز بعض هذه الخصائص في عمل له ترجمه الدكتور حمزة بن قبلان المزيني إلى العربية.(٥٦) وسوف نحاول فيما يلي أن نستعرض أهم هذه الخصائص مع التغاضي عن قليل من الخصائص الثانوية.

١ ــ الوسط الصوتي السمعي Vocal Auditory Channel

هذه أوضح خصائص اللغة الإنسانية وأبرزها.

---

(٥٢) Lenneberg "On Explaining ....", p. 639.

(٥٣) Lenneberg "On Explaining ...." p, 369; 1970, pp. 11-12.

(٥٤) Lenneberg, "The Biological .." pp. 13-15.

(٥٥) Hockett, *A Course;* C. F. Hockett, "The Origin of Speech", *Scientific American*, Vol. 203, No. 3; (1960) pp. 86-96; Hockett "Logical ...", C. F. Hockett and S.A. Altmann, "A Note on Design Features. "*Animal Communication*, T. A. Sebeok (ed.), (Indiana: Indiana University Press, 1968); Hocket and Ascher "The Human .... "

(٥٦) جون ليونز، **مدخل إلى اللغة واللسانيات**، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، **مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود**، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، (١٩٨٧)، ص ص ١٥٩ـ٢٤٤

وهنـاك وسائل اتصال تستخدم وسائط أخرى. من ذلك لغة الإشارة أو رقصات النحل أو طقوس المغازلة عنـد أسماك أبوشوكة Stickleback والتي تتمثل في تغـير لون البـطن والعينـين. بمقـدور الإنسان أن يستخدم وسائط أخرى غير الصوت لتوصيل المعنى اللغـوي كأن يستعيض عن كلمـة «سر» أو «قف» بإشارة المرور أو بحركة يد الشرطي. إلا أن الصوت له ميزات خاصة تجعله أكثر ملائمة من غيره. فبقدر ما تتمتع به أعضاء النطق عند الإنسان من مرونة عجيبة وكفاءة عالية على إحداث مختلف الأصوات تتمتع الأذن البشرية بمقدرة فائقة وحساسية بالغة على تمييـز هذه الأصـوات. ثم إنـه بخلاف الكلام يستحيل التخاطب مثلا بواسطة الإشارة في الظلام أو بواسـطة اللمس من مسـافات بعيدة. ومن الميزات الإيجـابيـة لاستخـدام قنـاة الاتصـال الصـوتية السمعيـة أنها لا تتطلب جهدا يذكر وأنها لا تعيق أجزاء الجسم الأخرى عن داء مهامها أثناء عملية التـواصـل. كمـا أنهـا تسـهـل عملية التنسيق بين مجموعة من الأفراد يتعاونون في أداء مهمة معينة إذ تجعـل بإمكانهم أن يتبادلوا فيما بينهم التعليمات اللفـظيـة بينما تركز بقية الحواس والعضلات على العمل المطلوب إنجازه، وكلنا يعرف أهمية التعاون في حياة الإنسان.

٢ ــ **التلاشي السريع** Rapid Fading

هذه الخـاصيـة والتي تليهـا ترتبـطان أساسا بطبيعـة الصـوت وتأتيان كنتيجة حتمية للخاصية الأولى. يتلاشى صوت المتكلم حال التلفظ به، كالكُتابة على الماء، ولا يبقى معلقا في الهواء ليلتقطه المستقبل متى ما أراد، بخلاف الكتابة مثلا أو أثر الحيوان أو رائحته. ميزة هذا التلاشي أنه يبقى مجال الاتصال سالكـا ويفسـح الطريق لاستمرار التواصل ولتوالي الإشـارات اللغـويـة الواحـدة بعد الأخرى بشكل متلاحق وسريع.

٣ ــ **البث المنتشر والاستقبال الموجه** Broad-cast Transmission and Directional Reception

صوت المتكلم يتبدد في كل الاتجاهات (مثله في ذلك مثل الضوء أو الأمواج على سطح البركة) حالما يتلفظ به ويمكن أن يلتقطه كل من هو على مرمى السمع منه وبصرف النظر عن اتجاه المتكلم أو موقع السامع منه كمـا يمكن للسامع بواسطة أذنية أن يحدد مصدر الصوت ومكانه ووجهته. وقد لا تخلو هذه الخاصية من بعض السلبيـات، وخصـوصـا في المجتمعـات التقليدية التي تعيش على الصيد حيث لا يستطيع الصيادون أن يتخاطبوا أثناء التربص للطريدة. كما أن الصوت الذي يسمعه الصديق قد يسمعه العدو.

٤ ــ **التبادلية** Interchangeabillity

أي أن مهمة الإرسال والاستقبال مهمة متبادلة بين طرفي الاتصال، بمعنى أن المتكلم والسامع يمكن لأي منهما أن يقوم بدور الآخر ويحل محله. أو بعبارة أخـرى فإن السامع يستطيع أن يعيد التلفظ بأي إشارة لغوية تماما كما سمعها إذا كان يفهم ويتكلم اللغة التي قيلت بها أما حركات المغازلة عند الأسماك الشوكية مثلا فإن حركات الذكر تختلف عن الأنثى ولا يستطيع أي منهما أن يقلد الآخر. كذلك الدجاجة لا تستـطيـع أن تقلد أذان الديـك ولا الأتان نهيق الحمـار ولا الناقة هدير الجمل، وهكذا. وفي بعض المجتمعات التقليدية يختلف كلام النساء عن كلام الرجـال في طريقة النطق وفي بعض المفردات وربما بعض الصيـغ النحـوية. لكن هذا الاختلاف ليس حتمية بيولوجية وإنما هو عرف ثقافي واجتماعي. لذلك نجد أن الرجال والنساء يستطيعون تقليد بعضهم بعضاً حينما تدعو الحاجة لذلك، كأن يقوم من يقص قصـة بتقليد كلام إحدى الشخصيات النسائية في القصة مستخدما نفس التعبيرات وطريقة النطق التي تستخدمها النسوة.

٥ ــ **التغذية الاسترجاعية الكاملة** Total Feedback

يستطيع المتكلم أن يسمع نفسه ويفهم كل شيء يقوله هو بنفس الطريقة التي يسمعه بها الآخرون. على خلاف ذكـر السمك الشوكي الذي لا يستطيع رؤيـة عينيه وبطنه حينما يتغير لونها أثناء مغزالته أنثـاه. هذه التغذية الاسترجاعية تجعل مهمة تعلم الكلام وكذلك تصحيح الأخطاء أثناء الكلام أسهل

وأسرع. ومن الملاحظ أن الصم لا يجيدون النطق. والتغذية الاسترجاعية تمكن المتكلم من استبطان العملية الاتصالية مما يساعده على التفكير. هذا التنسيق الذهني بين أعضاء النطق والأذنين لا يختلف من حيث المبدأ عن التنسيق بين العينين واليدين والذي تختص به الرئيسيات لأنها الوحيدة من بين الحيوانات التي تستطيع أن تستخدم أيديها. ولذلك نجد أن منطقة التحكم عندها والتي تقع في قشرة الدماغ Cortical control متطورة ومعقدة جدا. ومن المرجح أن هذا له علاقة بانتصاب القامة بحيث أصبحت اليدان لا تستخدمان في المشي والحركة وإنما للإمساك والقبض. ونظراً لانتصاب القامة أيضا لم يعد الفم يستخدم في القبض والحمل، كما عند بقية الحيوانات.(٥٧)

٦ ـ **التوارث** Cultural transmission

يتوارث أفراد المجتمع لغتهم جيلا عن جيل عن طريق التعلم والمحاكاة. صحيح أن المقدرة الكلامية عند الإنسان حقيقة بيولوجية لكن اللغة المحددة التي يتكلمها الإنسان حقيقة ثقافية، لذلك تختلف الألسن باختلاف الشعوب والثقافات. ويتعلم الإنسان لغته كما يتعلم عناصر الثقافة الأخرى. غير أن اللغة تختلف عن غيرها من عناصر الثقافة إذ بدونها لا يمكن أن تتحقق الثقافة أصلا. فاللغة هي الوعاء الذي يحمل الثقافة والوسيلة التي تنقلها عبر الأجيال.

٧ ـ **التخصصية** Specialization

ويقصد بها أن ما يبذله الإنسان من جهد جسدي أثناء عملية الكلام وما يصدر عن ذلك من ذبذبات صوتية ليس لها أي وظيفة أخرى غير توصيل المعاني والأفكار من المتكلم إلى السامع، ليست إلا مجرد رموز لغوية لا غير. اللغة نظام اتصال صوتي مستقل قائم بذاته ولا يرتبط بأي رباط لا بسياق الحديث ولا بموضوعه. هناك مثلا نوع من التلازم بين التثائب والنوم أو بين القشعريرة والبرد ولكن ليس هنالك أي تلازم بين هذه الأحاسيس وبين الكلمات التي تشير إليها في أي لغة من اللغات. ودليل آخر على تخصصية اللغة أنه باستطاعتنا أن نتحدث وفي الوقت نفسه نقوم بأعمال أخرى لا علاقة لها بموضوع الحديث أو أن نتحدث عن أعمال تتطلب جهدا عضليا دون أن تبدو علينا آثار التعب، أو أن نتحدث عن الفرح أو الحزن دون أن تبدو على ملامحنا أي انفعالات من هذا القبيل. يمكننا مثلا أن نتصور نظاما للتواصل يقوم على نوع من الارتباط بين الصوت ودلالته كأن نستبدل كلمة الجوع بالتضور أو أن نشير إلى الحيوانات بتقليد أصواتها أو أن نمد الصوت أو نرفعه أو نخفضه للإشارة إلى المسافات قربا وبعدا أو الأحجام كبرا وصغرا وهكذا. وأخيراً فإن اللغة ليست بحاجة إلى أي نظام آخر خارج عنها فبإمكاننا أن تستغني تماما عن الإشارات وتعبيرات الوجه التي عادة ما تصاحب الكلام.

٨ ـ **الإحلال** Displacement

ويعني قدرة اللغة الإنسانية على الحديث في أشياء وأحداث بعيدة عن المتكلم زمانا ومكانا. فنحن غالبا ما نخوض في أمور مضت أو لم تحدث بعد وعن أشياء لا يراها المتكلم في محيطه المباشر، بل قد يخوض المتحدث في قضايا مجردة ومسائل لا وجود لها إلا في مخيلته. كما يمكنه أن يستخدم اللغة للبحث في أمور اللغة نفسها. أما الجيبون مثلا فلا يمكن أن يطلق نداءاته إلا حينما يرى الطعام أمام عينيه ويستحيل عليه أن يصوت حين المرور بمكان أكل فيه في وقت مضى ليذكر رفاقه بذلك. صحيح أن النحلة ترقص عند الخلية بعيدا عن مكان الرحيق ولكنها تفعل ذلك مباشرة بعد عودتها من رحلتها الاستكشافية ثم بعد ذلك يصبح الأمر بالنسبة لها نسيا منسيا. ويبدو أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحذق الكذب والخداع والتضليل والتمويه والافتعال والتظاهر بما هو عكس الواقع والصحيح (غير أن بعض الطيور لها القدرة على التضليل والتظاهر بالموت مثلا كوسلية من وسائل الدفاع عن النفس). والإحلال يفترض أن الإنسان لديه الخيال والذاكرة وكذلك القدرة على التصور والتوقع والنظر في عواقب الأمور. وفي ذلك نجد أن السلوك اللغوي عند الإنسان لا يختلف كثيرا عن استخدام الأدوات. الإنسان هو الوحيد من بين

(٥٧) Hockett "Logical....," p. 129; Hockett and Ascher, "The Human....", P.141.

الكائنات الذي يصنع الأدوات ويحملها معه أينما حل لأن خبرته السابقة بيّنت له فائدة هذه الأدوات وأنها ستنفعه عند الحاجة لها في المستقبل، وهذا يعود إلى انتصاب القامة والمشي على قدمين مما حرر اليدين عند الإنسان لمزاولة القبض والإمساك.[٥٨]

٩ ـ الدلالية Semanticity

نداءات الحيوان وحركاته أشبه ما تكون بردود الفعل الغريزية الطبيعية والتي تكون جزءا من حالات شعورية معينة. وتأتي مصاحبة لها دون أن يكون لدى الحيوان النية أو القصد أن يخاطب بني جنسه، أو يؤثر عليهم، أو ينقل لهم معاني محددة، كما هي الحال بالنسبة للغة الإنسانية. النداءات الحيوانية أشبه ما تكون بالفحيح الذي يخرج من صدر العداء بعد أن يجري مسافات طويلة ويطاله التعب. ليس هدف الفحيح أن يخبرنا أن العداء تعب، وإن استنتاجنا ذلك عرضا. هدف الفحيح هو استنشاق كمية أكبر من الأكسجين الذي يحتاجه الدم. اللغة الإنسانية ليست فيضا من العواطف تأتي كصفة ملازمة لبعض الحالات الشعورية أو الجسدية ولكنها توظف بوعي وعن قصد لإعطاء معاني محددة وللدلالة على أفكار مجردة في ذهن المتكلم أو أشياء محسوسة في بيئته الخارجية. والكلمات تحضر إلى الذهن الأشياء التي ترمز إليها ليس لأن العلاقة بينها وبين هذه الأشياء علاقة تلازم طبيعية أو منطقية أو شكلية ولكن لأنها علاقة دلالية. هنالك مثلا عند الجيبون نداءات لها دلالات معينة مثل الصيحة التي تدل على وجود الخطر وإن كانت الصيحة تدل على الخطر بمفهومه العام دون تحديد كأن يصيح الإنسان «حريق».

١٠ ـ العشوائية أو التواضعية Arbiterari-ness

كان بعض اللغويين القدماء ومنهم ابن جني وابن فارس يرون أن اللغة جاءت كنتيجة لمحاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة من حوله، وهذا ما يسمى بالإنجليزية Onomatopoeic هذا ولا تكاد تخلو لغة من لغات البشر من بعض الكلمات التي تقوم على المحاكاة كقولنا قهقة وكح وعطس أو قولنا صر الجندب زقزق العصفور ومثله شحيج الحمار ومواء القطة ونعيق الغراب. بل إن عباد الصيمري من المعتزلة يرى أن مناسبة اللفظ لمدلوله مناسبة حتمية لكن العلماء المحدثين لا يرون ذلك لأن هذه الأصوات التي تبدو وكأنها محاكاة لأصوات الطبيعة ليست سوى رموز لغوية كغيرها من الكلمات، والدليل على ذلك اختلافها من لغة لأخرى. اللغة ليست إلا نظام من الرموز تواضع عليها الناس واصطلحوا لتكون وسيلة للاتصال فيما بينهم. أي أن علاقة المعنى التي تربط الصوت بالشيء الذي يدل عليه ليست علاقة سببية ولا شكلية ولا طبيعية بل عشوائية اعتباطية، لكنها علاقة ثابتة. فكلمة ملح ليست مالحة ولا كلمة سكر حلوة. وهناك كلمات مثل «نمل» و «جمل» التي تتساوى في عدد أصواتها ولكنها تشير إلى أشياء متفاوته في الحجم. ليس هناك في الكلمتين «قط» و «كلب» ما يوحي بما بين هذين الحيوانين من فارق في الصوت والحجم والرائحة. ولا يوجد بين الكلمات «نمر» و «فهد» و «أسد» ما يدل على صلة هذه الحيوانات وقرب بعضها من البعض الآخر في التصنيف البيولوجي. وليس بين كلمة «نعامة» و «رئل» ما يدل على أنها ذكر وأنثى من نفس الفصيلة. وكلمة «ناقة» أقرب إلى كلمة «فاقة» منها إلى «جمل». بل إن المترادفات تشير إلى الشيء نفسه بالرغم من اختلافها في اللفظ بينما هناك ألفاظ متجانسة تشير إلى أشياء لا يمت بعضها بصلة لبعض هذه العشوائية لا توجد مثلا في رقصات النحل التي يلاحظ أن هناك علاقة بينها وبين بعد مصدر الرحيق أو قربه، فالرقصات البطيئة تشير إلى بعد المصدر والسريعة إلى قربه. أما الكلمات فلا يوجد بينها وبين معانيها أي علاقة أو شبه. لذلك نجد أن الشيء نفسه يشار إليه بكلمات مختلفة تختلف باختلاف اللغات ولا يمكن لأي شخص غريب أن يستنتج معنى أي كلمة بلغة أجنبية بمجرد سماعها، وإلا لأصبح تعلم اللغات الأجنبية أمرا ميسوراً. كذلك النظام الصرفي الذي بموجبه تتألف الأصوات في كلمات والنظام النحوي الذي

(٥٨) Hockett "Logical...." pp. 148-9; Hockett and Ascher, "The Human....," p. 141.

بموجبه تتآلف الكلمات في جمل والعلامات التي تبين الفاعل من المفعول وأساليب النفي والاستفهام وغير ذلك من القواعد اللغوية كلها أمور تواضعية. فليس بإمكاننا أن نتنبأ سلفا وبدون سابق معرفة ما الميزات التي ستختص بها هذه اللغة أو تلك وما الأصوات التي ستحتوي عليها ونسبة أصوات الغُنة مثلا إلى بقية الأصوات. إلا أنه لكي يتم التواصل لابد أن يكون السلوك اللغوي محكوما بنظام متماسك داخليا وقائما بذاته يعرفه المتكلم والسامع وأن تكون العلاقة ثابتة بين الكلمة وما تشير إليه. كما أنه لابد أن يتم تركيب الجمل وتمييز أجزاء الكلام وفق قواعد وأعراف لغوية يعرفها من يتكلمون اللغة، وإلا لاستحال التخاطب والتفاهم وانقلب التواصل إلى عملية تقوم على الحدس والتخمين بدل الفهم السليم. ولا شك أن التواضعية تجعل تعلم اللغة مهمة غير يسيرة حيث يلزم المتعلم أن يحفظ الكلمات ومعانيها كلها عن ظهر قلب وكذلك القواعد اللغوية، كما تعيق عملية التفاهم بين الجماعات الإنسانية التي تتكلم لغات مختلفة. لكن التواضعية لها ميزة عظمى تغطي على هذه السلبيات البسيطة نسبيا وذلك أنها تجعل من السهل صك كلمات ومصطلحات جديدة كلما دعت الضرورة، مما يجعل اللغة نظاما اتصاليا مرنا للغاية يمكن توظيفه والاستفادة منه في كل مجالات الحياة.

١١ ـ التمايز Discreteness

مخارج الحروف عند جميع بني الإنسان مصممة بالطريقة نفسها، ومع ذلك لو حصرنا جميع الأصوات في جميع اللغات البشرية في الماضي والحاضر لحصلنا على كم هائل من الأصوات اللغوية. هذا يشير إلى أن أعضاء النطق عند الإنسان لها قدرة غير محدودة على إخراج الأصوات المختلفة. ولكن مع ذلك نجد كل لغة من اللغات تلجا إلى استخدام عدد محدود جدا من الأصوات اللغوية لا يزيد ولا ينقص. هذه الأصوات متمايزة بعضها عن بعض ومستقلة تماما بحيث لا يمكن أن تكون هناك بين أي صوتين، مهما تقاربت مخارجهما، مسار متصل يتذبذب فيه الصوت بينهما بشكل متدرج لتقترب من هذا أو ذاك أو ليتخذ موقعا وسطا بينهما. هذا يعني أن الفروق الوظيفية بين الأصوات فروق قاطعة. نعم قد يصعب على السامع تمييز الصوت وقد يستحيل عليه الفهم نتيجة التشويش أو لأن المتكلم لا يجيد النطق ولكن لا يمكن أن يكون في اللغة صوت وسط بين صوتين لأن الأصوات اللغوية متمايزة عن بعضها ومنفصلة تمام الانفصال. ويتبين ذلك في تمييز السامع بين الكلمات فكلمة «سار» مثلا تختلف اختلافا تاما في معناها عن كلمة «زار» أو «صار» لما بين السين والصاد والزاي من اختلاف وظيفي مطلق لا تخطئه الأذن ولا يفوت على الإدراك تحت ظروف الاتصال الملائمة. وعلى الرغم من أن الاختلاف الصوتي بين هذه الكلمات الثلاث قد يبدو اختلافا طفيفا نسبيا إلا أنه اختلاف قطعي ويؤدي إلى اختلاف جذري في المعنى. ومهما بدا الشبه الصوتي قريبا بين الكلمات فإن هذا لن يقود إلى التشابه المعنوي. بل إن كلمة «سار» أقرب في معناها إلى «مشى» أو «ذهب»، على الرغم ما بين أصوات هذه الكلمات من عدم تشابه.. ولو افترضنا أن ظروف الاتصال السيئة حالت دون تمييز المتلقى عما إذا كانت الكلمة التي سمعها «سار» أم «صار» فإنه أمام خيارين فقط، إما عدم الفهم أو ترجيح أحد الكلمتين على الأخرى، مستعينا في ذلك بالسياق اللغوي. لكنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يستنتج أن ما سمعه كلمة تحتل في لفظها وفي معناها موقعا وسطا بين الكلمتين أو أنها محصلة دمج الكلمتين إحداهما بالأخرى. هذا التمايز الوظيفي بين الأصوات اللغوية يختلف عما نلاحظه في رقصات النحل التي تتراوح بين السرعة والبطء حسب قرب مصدر الرحيق أو بعده عن الخلية. هذا يعني أن نظام الاتصال عند الإنسان نظام متمايز Discrete أي مفصلي Digital بينما نظام الاتصال عند النحل نظام متدرج Continuous أي تناظري Analog ولكن مع ذلك لا يخلو الاتصال الإنساني في بعض مظاهره من عنصر التدرج، وخصوصا فيما يتعلق بالأصوات التي نطلقها للتعبير عن بعض المشاعر. المشاعر بطبيعتها متدرجة في حدتها وفي كثير من الأحيان لا نعبر عنها بالكلمات وإنما بالضحك والنشيج والتنهد

والآهـات والونات وما شابه ذلك من الأصوات التي تعلو وتهبـط وتـطول وتقصر على سلم متـدرج من الهمس الخـافت إلى الصيحـة المنكـرة للتعبير عن مختلف حالات الشعور. وحتى حينما يعبر الإنسان عن مشاعره بالكلمات فإن نغمة صوته عادة ما تتأثر بشكل يتفاوت حسب تفاوت حدة الشعور(٥٩)، وشبيه بذلك مط الصوت أو تضخيمه أو ترقيقه لتحديد صفة الشيء الذي نتحدث عنه كبرا أو صغرا أو ما شابه ذلك. هذا يبـين لنا أن التدرجية والأيقونية صفتان تكادان تكونان متلازمتان.(٦٠)

١٢ ـ ثنائية النمط Duality of Patterning

سبقت الإشارة إلى أن جهاز النطق لدى الإنسان له قدرة فائقـة على إخـراج كم هائل من الأصوات المتمايزة كما أن جهاز السمع الإنساني له القدرة على التمييـز بين هذه الأصـوات. بنـاء على ذلك لنا أن نتصـور إمكانية استبدال الكلمات بأصوات مفردة كل صوت منها يدل على شيء معين لا غير ولا تربطه مع غيره من الأصوات أية علاقات صوتية أو صرفية. أي أن نظام الاتصـال في هذه الحـالة يكون نظاما مغلقـا Closed system هذا يعني أن اللغـة تحتـوي على عدد ضخم من الأصـوات المتمـايـزة يساوي عدد الكلمات التي ستحل محلها. وهذا أمر ممكن نظريا إلا أن الأصوات في هذه الحالة ستكون من الكثرة والإزدحـام والقرب بعضها من بعض بحيث يتطلب إخـراجهـا والتمييـز فيمـا بينها تركيزا حادا ودقة متناهية مما يشكل عبئا ثقيلا ينوء به المتكلم والسامع على حد سواء. لذا نجـد أن كل لغـة من اللغـات الإنسانية لجأت إلى اختيار مجموعة صغيرة جدا من الأصـوات الممكنة وشكلت منها نظاما صوتيا تعول عليـه ليس في الدلالة على الأشيـاء وإنمـا لتـأليف الكلمات التي تدل على الأشياء، وهذا ما يسمى نظام الاتصـال المفتـوح Open system(٦١) الصوت اللغوي عبارة عن مركب من السمات يحددها مخرج الصوت وكيفية إخراجه ووضع الحبال الصوتية أثناء التلفظ به. هذه السمـات هي التي تمـايـز بين الأصـوات اللغوية. الصوت «ز» مثلا يتفق مع الصوت «س» في عدد من السمات. كلاهما صوت احتكاكي يحدث من جـراء احتكاك أسلـة اللسـان بمغارز الثنايـا العليا. لكنهمـا يختلفـان في أن الأول يصـاحب النطق به تذبـذب الحبال الصوتية لذا سميناه مجهورا بينما الثـاني لا يصاحب نطقه هذا التذبذب لذا سميناه مهموسا. سمة الجهر أو الهمس هذه هي التي تميز ما بين الصـوتـين الاحتكـاكين «ز» و «س» وما بين الصـوتين الانفجاريين «ذ» و «ث» وسمة الغُنة هي التي تميز «م» عن «ب». وهكذا نجد أن كل صوت لغـوي لابد أن يتميز عن أي صوت آخر ولو بسمة واحدة على الأقل. وتختلف اللغات في اختيار السمات التي تميـز بهـا بين الأصـوات. اللغة العربية مثلا توظف سمة الإطباق لتميز بها «ص» عن «س» و «ظ» عن «ذ». و«ط» عن «د» وهناك لغات كثيرة من بينها الإنجليـزية لا توظف هذه السمة. ولكن الإنجليزية توظف سمة الجهر لتميزبها P عن b ، وهذه سمة لا توظفها العربية. وعدم توظيف السمة لا يعني عدم وجودها وإنما كل ما يعنيه ذلك أن النظام الصوتي في اللغة المعنية لا يوظفها كسمة مميزة لذا لا يلتفت لها السـامع. فعدم توظيف سمة الإطباق في الإنجليزية مثلا لم يمنع من وجود أصوات في هذه اللغة تشبه الصاد العربية كما في الصوت الأول من كلمة sun نخلص من ذلك إلى أن الأصوات في أي لغة ليست مجرد تجمع عشوائي وإنما هي تكون في مجموعها نسق متـرابط وبناء متماسك من السمات الوظيفية التي تتحـدد وفقا لها الأصوات وتتمايز فيما بينها داخل النسق الواحد. هذا النظام الصوتي هو أحد الأنمـاط المقصـودة بعبـارة ثنائية النمط. أم النمط الثـانـي فهـو النـظام الصرفي الذي يؤلف ما بين الأصوات ليركب منها الكلمات التي تحمل الدلالات، لأن الأصـوات وحـدها وفي حد ذاتها لاتعني شيئا وإنمـا هي تستخـدم فقط لتأليف الكلمات والتمييز فيما بينها. فأي من الأصوات «ح» و «س» و «م» لا

(٥٩) Chafe "Language as....," pp. 19-21.

(٦٠) Hockett "Logical....," p.145.

(٦١) Hockett and Ascher, "The Human....," pp.142-145.

يعني شيئا بمفرده ولكن لو ألفنا فيما بينها لاستطعنا الحصول على العديد من الكلمات ذات المعاني المحددة مثل «حسن» و «حسم» و «حمس» و «سمح» و«سحم» و «مسح». والأصوات «م» و «ب» و «ف» لا تحمل دلالات في حد ذاتها لكنها تفيدنا في التمييز بين الكلمات «سمح» و «سبح» و «سفح». هذه الأمثلة الأخيرة توضح لنا أن اللغة نظام ذو وجهين أحدهما صوتي والآخر صرفي نحوي. هذه الثنائية تنطوي على قدر من الترشيد والاقتصاد اللغوي. فأي لغة إنسانية لديها عدد محدود جدا من الأصوات يتراوح ما بين أحد عشر إلى سبعين صوتا. ولكن عن طريق تركيب هذا العدد المحدود جدا من الأصوات وتأليفه بطرق شتى تخضع لنظام اللغة الصرفي تتألف الكلمات التي قد تصل إلى المليون عدا. هذا الكم الهائل من الكلمات يبقى على ضخامته ضئيلا جدا إذا ما قيس بالعدد اللامحدود من الجمل التي يمكن تركيبها من هذه الكلمات وفق قواعد اللغة النحوية. فمفردات أي لغة من حصرها وضمها في معجم أو قاموس، أما الجمل فلا تحيط بها المعاجم ولاتحدها القواميس.

١٣ ــ الإبداعية Productivity

ثنائية النمط تجعل من اللغة الإنسانية نظاما مفتوحا. صحيح أن أصوات اللغة لا تتجاوز العشرات وأن مفرداتها يمكن حصرها في معجم وأن قواعد نحوها وصرفها يمكن ضمها في كتاب، إلا أن المتكلم بمقدوره أن يبتدع بواسطة هذه الأدوات المحدودة كما لا متناهيا من الجمل التي لم يتلفظ بها من قبل لاهو ولا أحد سواه وذلك بتوظيف عمليات القياس واستبطان قواعد اللغة في عقله اللاواعي. والأهم من ذلك أن هذه التراكيب على جدتها لا تستعصى على فهم السامع. وهكذا يستطيع الإنسان أن يعبر عن كل ظرف وعن كل موقف يجد نفسه فيه وأن يوصل إلى الآخرين أي فكرة تطرأ على باله أو أي صورة ترتسم في مخيلته. أما نداءات الحيوانات مثل الجيبون أو الدولفين فإنها نداءات مغلقة تفتقر إلى إبداعية اللغة الإنسانية، وكذا الحال بالنسبة للنحل بذخيرته المحدودة جدا من الرقصات التي لا تستطيع التعبير عن أي شيء آخر غير مكان الرحيق وبعده عن الخلية. هذه النداءات والحركات الحيوانية ليست عبارات رُكِّبت من أجزاء صوتية أو حركية صغرى وألف فيما بينها وفق قواعد معينة بحيث تصبح قابلة للتعديل والتبديل والحذف والإضافة للتعبير عن غايات متباينة ومقاصد مختلفة، بل إنما هي وحدات كلية قائمة بذاتها لا ترتبط بغيرها ولا تقبل التجزئة. إن طرق الاتصال عند الحيوانات محدودة جدا تكاد تقتصر على المغازلة والإرشاد إلى أماكن الغذاء والتنبيه إلى الخطر والدفاع عن العش أو مكان الإقامة. ويقتصر استخدام وسائل الاتصال عند الحيوانات على وجود الحافز المثير لها فلا تتواصل مثلا لمجرد التسلية أو التنفيس أو التعبير عن الألفة والثقة. وليس بمقدور أي حيوان غير الإنسان مهما عَلَتْ رتبته في سلم التطور أن يستخدم ما لديه من وسائل محدودة للاتصال كي يبني ثقافة ويؤسس نظما اجتماعية.

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الأول، ٩٩ ـ ١١٤ (١٩٩٣م).

التطور الصوتي التاريخي في اللغات السامية الكلاسيكيــة*

للدكتور **فالح بن شبيب العجمي**

ملخص البحث : **يتناول هذا البحث قضايا تاريخية في علم الأصوات والصوتيات، ويحاول أن يكتشف التطوّر الداخلي في أصوات اللغات السامية الكلاسيكيّة اعتماداً على طريقة نطق هذه الأصوات وموضع نطقها.**

يبحث الفصل الأوّل الملامح التمييزيّة (الأساسية) للصوامت الساميّة؛ وقد قسّمت فونيماتها إلى مجموعات بناءً على مواضع نطقها، ثمّ يبحث انصاف الصوامت بشكل مستقلّ.

أمّا الفصل الثاني فقد خُصّص لدراسة الملامح التمييزيّة للصوائت في هذه اللغات معتمداً على التغيّرات الكميّة والكيفيّة في تطوّر الصوائت الساميّة.

وفي الفصل الأخير تمّ سرد بعض المشاكل الّتي تقف عائقاً في سبيل التحليل الفونيمي للّغات التاريخيّة ممثّلة بمقارنة بين بعض التطوّرات في الأوجاريتيّة والعربيّة.

اللغات التي يتناولها هذا البحث بالدراسة هي الآشورية ـ البابلية (الفرع الشرقي) والكنعانية (ممثلة في الاوجاريتية [1] والعبرية) والآرامية (وتمثلان الفرع الشمالي الغربي) والعربية (بشقيها الجنوبي والشمالي) والأثيوبية (وتمثلان الفرع الجنوبي الغربي).

ونظراً لما تمثله دراسة لغات أكثرها ميتة صوتيا من صعوبات في وجود الشواهد على بعض التطورات، فانه سيستعان في بعض الأحيان بما يوجد من ظواهر صوتية في اللغات أو اللهجات المتفرعة من اللغات الكلاسيكية المبينة أعلاه، مثل السريانية بالنسبة للآرامية وبعض اللهجات العربية والأثيوبية. أما بالنسبة لدراسة التطور الصوتي للصوائت فسيكون الاعتماد أكثر على لغات أقل قدما، فيما يخص جميع الفروع ما عدا الفرع الشرقي الذي كان قد اعتمد الكتابة المقطعية التي حافظت على نوع الصوائت [2] على أقل تقدير، بينما كانت لغات الفروع الاخرى الكلاسيكية، قد اعتمدت كتابة الصوامت فقط[3]. وهي تتفاوت أيضا فيما بينها حول غموض محتواها من الصوائت. وهذا الغموض يتناسب عكسيا مع عاملين، أحدهما وجود تراث ديني للغة يساعد ترتيله في الطقوس الدينية على الحفاظ على رواية الصوائت

* صيغة منقحة عن محاضرة القاها الباحث في حلقة دراسية عن الصوتيات في اللغات السامية في جامعة Giessen بألمانيا عام ١٩٨٩م، وهو يتقدم بالشكر للبروفسور E. Wagner. على النقد والنصيحة اللتين قدمهما له.

(١) تكتب الأوجاريتية بالجيم في الخط العربي ـ خلافا لبعض الدراسات العربية التي تكتبها بالغين ـ لأن الرمز < ج > الذي صوته [ǧ] هو المقابل في العربية للرمز الأوجاريتي < 𐎂 > الذي صوته [g] ، مع عدم وجود الأخير ضمن فونيمات العربية.

(٢) وذلك بالحفاظ على الصفات الأساسية للصوائت كتابياً. ويحتمل ان يتغير نطقهامع ثبات شكل المقطع، لكنه يبقى تغيراً إلى صائت قريب جدا من الصائت الممثل في الكتابة.

(٣) باستخدام الخط الأوجاريتي، وهو الخط المسماري المعدل من الكتابة المقطعية إلى الأبجدية.

شفويا، والثاني وجود لغات أو لهجات متفرعة عنها حية أو ذات تراث ديني يساهم في نقل الصوائت غير المكتوبة. وبسبب العامل الثاني اتسع الاهتمام في هذه الدراسة - فيما يخص الصوائت على وجه الخصوص - ليشمل اللغات الأحدث من الكلاسيكية(٤).

سيستخدم الرمز [.] عندما يكون الصوت مستقلا عن النظام الصوتي للغة بعينها، أي عندما ينظر إليه كصوت فيزيائي ضمن علم الأصوات (Phonetics)، بينما يستخدم الرمز /./ عندما يشكل الصوت فونيماً في لغة معينة، أي داخلا ضمن عملية الاستبدال، ويكون مأخوذا من سياق صوتي فعلي ضمن علم الصوتيات (Phonology)، كما يستخدم الرمز < . > عندما يكون الاهتمام مركزا على الشكل الكتابي. وبما أن الرموز الصوتية الدولية (International Phonetic Alphabet) لاتفي بالغرض كاملا للتعبير عن الأصوات السامية لعدم وجود العين والحاء والصاد والضاد والطاء والظاء العربية والسامخ العبرية ضمن رموزها، فانه من المستحسن الاعتماد في رموز الصوامت على ما أقره مؤتمر اللغات الشرقية في روما عام ١٩٣٥(٥). وفيما يلي الرموز المتفق عليها وما يقابلها بالرسم السامي في اللغة التي يوجد الصوت ضمن محتواها الفونيمي (٦)، ولن يكتب بغير الرسم العربي إلا مالا يوجد في العربية تفاديا للتكرار:

الرمز الصوتي	الرسم السامي	الرمز الصوتي	الرسم السامي
1) ʼa	ء (٧) (الهمزة)	17) ẓ	ظ
2) b	ب	18) c	ع
3) t	ت	19) ġ	غ
4) ṯ	ث	20) f	ف
5) ǧ	ج	21) q	ق
6) ḥ	ح	22) k	ك
7) ḫ	خ	23) l	ل
8) d	د	24) m	م
9) ḏ	ذ	25) n	ن

(٤) وإن كانت لغة مثل السريانية يمكن أن تعتبر كلاسيكية.

(٥) انظر توصية مؤتمر المستشرقين التي أعدتّها لجنة الكتابة الصوتية:

Die Transliteration der arabischen schrift in ihrer Anwendung auf die Hauptliteratursperachen der islamischen welt: Denkschrift dem 19. internationalen Orientalistenkongress in Rom. Vorgelegt von der Transkreptionskommission der deutschen Morgenländischen Gessellschaft, Carl Brockelmann *et al.* Mit Beiträgen von Ph. S. van Ronkel und Otto Spies. Unveränderter Neudruck (Weisbaden: Kommissionsverlag Franz Steiner, 1969), p. 9.

وقد نشرت توصية المؤتمر متأخرة جدا، قد يكون لظروف الحرب العالمية الثانية دور في ذلك. الجدير بالذكر أنها مخالفة لما اتبعه بروكلمان في كتابه عن قواعد اللغات السامية رغم كونه عضواً في ذلك المؤتمر، لكن ذلك يمكن تفسيره بكون طبعة الكتاب الأخيرة لم تصدر في حياته.

(٦) مصطلح «المحتوى الفونيمي» هنا يعني ما تحتوية اللغة من فونيمات، ويختلف عما يعنيه البعض مرادفا لمجموع الصفات الصوتية للفونيم (الملامح الأساسية والثانوية).

(٧) عدل الرمز «ا» في نشرة المؤتمر إلى «ء» هنا، لأن الأول يدل على الألف وهي ليست من الصوامت، كما أن المقصود هنا الهمزة، وقد حصل الخلط أصلاً بسبب كتابتها على عصا في همزة القطع.

الرسم السامي	الرمز الصوتي	الرسم السامي	الرمز الصوتي
هـ	26) h	ر	10) r
و	27) w	ز	11) z
ي	28) y	س	12) s
ב̄ [٨]	29) v	ش	13) š
ג [٩]	30) g	ص	14) ṣ
ס [١٠]	31) ś	ض	15) ḍ
פ [١١]	32) p	ط	16) ṭ

أما في الصوائت فقد اعتمدت الرموز الصوتية الدولية (IPA) لوفائها وفاء كاملا بكل متطلبات الفونيمات السامية. وفي كتابة الأمثلة استخدم الخط العربي للأمثلة العربية، بينما كتبت بقية الكلمات ـ ما لم تكن ضرورة لكتابتها بالخط الاصلي ـ بالخط اللاتيني لعدم توافر تلك الخطوط في المطابع المحلية. تجنبا للبس لم تستخدم مصطلحات المخارج العربية، لعدم دقة بعضها في تسمية موضع النطق الذي يتم فيه حبس الهواء (حبسا تاما أو جزئيا)، بل وأحيانا تسمى بحسب الجزء من اللسان المشترك في حبس الهواء مع موضع الحبس في التجويف الفمي (المخرج)، مثل مصطلح «الحروف الاسلية» نسبة إلى الأسلة (طرف اللسان) والحروف الذلقية نسبة الى الذلاقة (طرف اللسان أيضا)، مع أن اللسان يشترك في نطق جميع الاصوات، فكان يجب أن يحدد الموضع في الفم الذي يشترك مع أحد أجزاء اللسان في تضييق أو حبس أو تحويل مجرى الهواء. كما يستحسن عدم استخدام مصطلح «المخرج» حتى لا يتبادر الى الذهن المخارج الستة عشر التي حددها سيبويه للحروف العربية[١٢]، لصالح مصطلح «موضع النطق» الذي يشير إلى منطقة غير متحركة ويوافق الشرط السابق ذكره.

أما «طريقة النطق» وتعني الثنائية التي تتحكم في اصدار الصوت، وطرف هذه الثنائية شكل حجرة الرنين (التجويف الفمي) والحنك اللين (الطبق) من جهة ووضع الوترين الصوتيين أثناء خروج الهواء من جهة أخرى، فلن يلتزم فيها أيا من المصطلحات القديمة مثل «القلقلة» التي تجمع حروف الباء والجيم والدال والقاف والطاء، وكما هو معروف لا يوجد رابط بين هذه الأصوات.

ليس من أهداف هذا البحث دراسة الأنظمة الصوتية للغات السامية كل على حدة، لأن ذلك يسبب كثيرا من التكرار والتفاصيل التي تضيع معها النظرة الشاملة إلى الخصائص المشتركة في الفروع السامية الأساسية، كما يمكن أن يفقدنا الدخول في التفاصيل متابعة الاتّجاهات الفعلية للتطور الصوتي. أيضا

(٨) هذا الرمز في الخط العبري (مع الشرطة أعلاه) يشير إلى النطق الاحتكاكي من متغيري الفونيم الصوتين، انظر:
R. Meyer, *Hebräische Grammatik*, dritte neubearbeitete Auflage (Berlin: Walter de Gruyter & Co., 1966), Erster Teil, p. 46.

(٩) هنا حصل أيضا تعديل إلى « ג » بدلاً من الرمز الفارسي «گـ»، واختيار الرمز العبري يمكن تبريره باعتباره الخط العبري يحتل المرتبة الثانية من حيث الانتشار حالياً، كما استخدمته قديماً ثلاث لغات عريقة وجد فيها هذا الصوت.

(١٠) لم يعد هذا الصوت موجوداً سوى في العبرية، وهو غير موجود ضمن الرموز التي أقرها المؤتمر.

(١١) لنفس السبب المذكور في الملاحظة التاسعة اختير بدلا من الرموز الفارسي «پ».

(١٢) انظر: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ***كتاب سيبويه***، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، ط ٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي؛ الرياض: دار الرفاعي، ١٩٨٢م)، ج ٤، ص ٤٣٣.

يستبعد كل ما يدخل تحت التحليل التطريزى (Pro-sodic analysis) من إطار هذه الدراسة، وسيكتفي بدراسة الوحدات الصوتية الأساسية (الفونيمات).

ينقسم بناء هذا البحث إلى ثلاثة أقسام، الأول يُعنى بالتطور الذى يقوم على أساس الانتقال من موضع نطق إلى آخر وتغيير طريقة نطق الأصوات. تدخل في هذا القسم الأصوات الصامتة فقط، ليس بهدف توزيع الأصوات إلى صامتة وصائتة، بل لأن هاتين الصفتين [١٣] هما أساس تقسيم الصوامت، بينما لا تتمايز الصوائت فيما بينها على أساس منها. القسم الثاني يُعني بإمكانات تعدد الصوائت القليلة في السامية الأولى [١٤]، ذلك لأن كمية وكيفية [١٥] الصوائت كأصوات مستقلة بنفسها من الأهمية بمكان في مباحث الصوتيات السامية. القسم الثالث يعطي نظرة لسانية قصيرة حول إحدى مشاكل علم اللغة التاريخي المقارن، وهي محاولة تفسير المحتوي الفونيمي للغة تاريخية.

١ ـ ملامح تطور الصوامت السامية

توجد ثلاثة خطوط للتطور الصوتي في الصوامت عن اللغة السامية الأولى:

(أ) تطور في طريقة النطق مع بقاء موضع النطق ثابتا.

(ب) تغير في موضع، النطق مع أو دون بقاء طريقة النطق الأولى.

(جـ) تغير اعتباطي نتيجة اختلاف لهجي أو تطور نشأ عن ضرورة صرفية.

سيراعي هنا التطوران الأولان، أما التطور الثالث فيراعى فقط عندما يشكل اتجاها مبنيا على أساس عرقي [١٦] أو اجتماعي.

١ ـ ١ القوانين الصوتية لتغير طريقة النطق

كان مفهوم «القانون الصوتي» يشكل محور الدراسات اللغوية التاريخية لدى مجموعة «النحويين الشبان» [١٧] (Junggrammatiker). يعتمد أساس المفهوم على فرضية المقارنة بين قوانين العلوم الطبيعية وقوانين تطور الأصوات في لغة معينة بناء على معطيات فسيولوجية، وبوجود نفس الشروط تتغير الأصوات ـ بدون استثناء ـ بنفس الطريقة، مثل قوانين «القلب الصوتي» و «الإمالة» و «تكون الصائت الثنائي» [١٨] (Diphthongization). المصدر الوحيد لحدوث الاستثناءات يتمثل في «القياس» (تحول بعض أصوات اللغة إلى قيم صوتية أخرى تحت تأثير صيغ منافسة لها علاقة بها). [١٩]

غير أن لهجة علماء اللغة بدأت تخف في مقارنة طرق البحث في اللغة بطرق البحث في العلوم الطبيعية بعد فشل Bloomfield في ذلك في إطار المعنى، وأخذ كثير من العلماء يأخذون الطابع الاجتماعي للغة بعين الاعتبار، وهو الحيز الذي لايمكن أن يخضع لاعتبارات المعادلات الدقيقة التي تجري في كل زمان

(١٣) الصفة التي يحملها الصوت بناءً على موضع نطقه والصفة التي يحملها بناءً على طريقة نطقة، والصفة الأخيرة لها أكثر من تقسيم: فيما يخص طريقة خروج الهواء واهتزاز الوترين الصوتيين وسعة التجويف الفمي. غير أن هذا التقسيم الثنائي للصوت ـ وسنبقي عليه ثنائيا ـ لايهم في الأصوات الصائتة، لأن لها معايير أخرى.

(١٤) عددها ستة (a, i, u, ā, ī, ū) بأنواع ثلاثة فقط حسب:
I. M. Diakonoff, "Problems of Root Structure in proto-semitic," *Archiv Orientální* (Praha), 38 (1970), p. 454.

(١٥) الكمية والكيفية تتبعان لمعايير التمايز بين الصوائت عموما، ليس هنا مجال استعراض الصفات التمايزية للصوائت، لأن بعضها لا يمكن تتبعه في لغات لا نملك رصيداً حياً كبيراً. والبعض الآخر لا يبدو ممثلا في اللغات السامية. ما يخص اللغات السامية من هذه الصفات ستتم مناقشته في مكانه من القسم الثاني (ملامح تطور الصوائت السامية).

(١٦) طبعا عرق له استقلالية لغوية.

(١٧) التسمية العربية مأخوذة من عبده الراجحي، ***النحو العربي والدرس الحديث*** (بيروت. دار النهضة العربية، ١٩٧٩م)، ص ٢٥.

(١٨) جزء من المصطلح العربي (عبارة: «الصائت الثنائي») عن محمد علي الخولي، ***معجم علم اللغة النظري*** (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٢م). لكنه لم يوفق في إيجاد المقابل العربي لمصطلح Diphthongization، حيث يثبت المصطلح العربي «إدغام الصوائت» وهو غير صحيح لأن ما يحدث في هذا النوع من التطور هو العكس، إذ يتحول صائت احادي إلى ثنائي، وهو عكس الإدغام الذي تختصر فيه العناصر. «إدغام الصوائت» يمكن أن يوافق العملية المعاكسة (تحول صائت ثنائي إلى صائت احادي = Monophthongization).

(١٩) انظر: H. Paul, *Prinzipein der Spraachgeschichte*, 9. Auflage (Tübingen, 1975), p. 63.

ومكان بنفس القدر من الصحة وبدون تعديل على ما ثبت منها.

وبسبب ذلك فان القوانين الصوتية التي توضع هنا بناء على استقرار التطورات الصوتية في هذه المجموعة من اللغات لن تعتبر بأي حال من الاحوال قوانين توليدية (إنتاجية)، يمكن أن تتم في ضوئها تطورات لاحقة في بعض لهجات فروع المجموعة، بل ستبقى وصفا يحاول فيه جمع شتات ظواهر التطورات الصوتية المنتظمة.

وسيرمز للقانون الصوتي في هذه الدراسة بالرمز «ق»، يتبعه الرقم التسلسلي للقانون. كما يشار إلى عموم القانون أو اقتصاره على حالة تتوافر فيها ظروف معينة بكلمة «مطلق» للدلالة على الحالة الأولى وكلمة «مقيد» للدلالة على الثانية.

لأن موضع النطق ثابت في التطورات التي تتم بناء على تغير طريقة النطق فقط، فان ترتيب القوانين فيها سيكون بتقسيمها إلى مجموعات تتكون من أصوات ذات موضع نطق واحد، ولعدم وجود الاتفاق بين دارسي الأصوات السامية بشكل عام وبين دارسي الأصوات العربية على وجه الخصوص، فإن فهم هذه القوانين يقتضي إعطاء أوصاف الأصوات السامية التي تعتمد عليها القوانين هنا في وصف التحولات التي تطرأ عليها، وذلك في جدول واحد (الشكل رقم ١) يخدم جميع أنواع التطورات:

موضع النطق / طريقة النطق		الشفوية Bilabial	الأسنانية شفوية Labiodental	بين الأسنانية Interdental	أسنانية لثوية Alveodental	اللثوية Alveolar	الغارية اللثوية Alveopalatal	الغارية الخلفية Dorsopalatal	الطبقية Velar	اللهوية Uvular	الحلقية Pharyngal	الحنجرية Laryngal
الانفجارية (الشديدة)	مجهورة	b				d			g			ء
	مهموسة	p				t			k	q		
	مطبقة				ḍ	ṭ						
الاحتكاكية (الرخوة)	مجهورة		v	ḏ		z	g			ġ	c	
	مهموسة		f	ṯ		s	š	ś		ḫ	ḥ	h
	مطبقة			ẓ		ṣ						
الأنفية		m				n						
الوسطية (الجانبية)						l						
الترددية (التكرارية)						r						
أنصاف الصوامت		w					y					

الشكل رقم (١): جدول الصوامت وأنصاف الصوامت السامية

الفروق بين هذا الجدول وبعض الجداول العربية:

- إضافة الأصوات السامية غير الموجودة في العربية.
- اعتماد الاطباق صفة مساوية للجهر والهمس خلافا لمن ينسب التفخيم إلى الجهر والهمس[٢٠]. مما ينفي وجود المفخم (أو المطبق) من المجهود والمهموس في نفس موضع النطق التطورات الصوتية ذاتها (أي القانون الداخلي في التطور الصوتي):

(٢٠) انظر مثلا: تمام حسان، *اللغة العربية معناها ومبناها*، ط ٢ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، ص ٧٩؛ كمال بشر، *الأصوات العربية* (القاهرة: مكتبة الشباب، ١٩٨٧م)، ص ١٣٦.

انتقال الدال إلى الطاء مثلا والسين إلى الصاد (وليس الضاد) والذال إلى الظاء.

تحديد موضع الهمزة بأنها صوت حنجري انفجاري مجهور خلافا لمن وضعها بين الجهر والهمس [٢١] أو من وضعها مهموسة [٢٢]، مع أن ما يحدث عند إصدار صوت العين من اهتزاز الوترين الصوتيين يحدث أيضا عند نطق الهمزة مع اختلاف موضع وطريقة النطق.

لم توزع الأصوات الأنفية والوسطية والترددية إلى مجهورة ومهموسة، لأن هاتين الصفتين ليستا من صفات تركيب الفونيم (الملامح الأساسية) بالنسبة لهذه الأصوات كما هو الحال في الأصوات الانفجارية والاحتكاكية.

في هذه التحولات (بناء على تغير طريقة النطق) ستكون هناك طريقتان للتطور، إحداهما أن يتغير العامل الرئيس في طريقة النطق (كيفية حبس الهواء وتوزيعه) [٢٣]، وهو ما يحدث في ق ٢، ق ٤، ق ٦، ق ٧، ق ٨. والأخرى أن تتغير الشدة الديناميكية للصوت [٢٤]، وهو ما يحدث في ق ١، ق ٣، ق ٥.

المجموعة اللهوية

حدث تطور في الاوجاريتية للفونيم /h/ الى /g/، حيث كان التغير حسب النوع الثاني لتطور طريقة النطق:

ق ١: صوت *لهوي احتكاكي مهموس* ← صوت *لهوي احتكاكي مجهور (مطلق)*.

وفي الآرامية القديمة تحول الفونيم /q/ الى /g/، باكتسابه صفة الاحتكاكية بدلا من الانفجارية. وذلك تبعا للنوع الأول من أنواع تطور طريقة النطق:

ق ٢: صوت *لهوي انفجاري مهموس* ← صوت *لهوي احتكاكي مجهور (مطلق)*.

المجموعة الشفوية

يتطور الفونيم /b/ إلى /P/ في الاوجاريتية، عندما يتجاور مع صوت صفير مهموس، ويكون ذلك تبعا للنوع الثاني:

ق ٣: صوت *شفوي انفجاري مجهور* ← صوت *شفوي انفجاري مهموس (مقيد)*.

كما حدث تطور للفونيم /m/ في البابلية بعد صائت الى /w/، ويتضح ذلك في أسماء الأشهر: Sıwan ← Sīmanu ' Kislēw ← Kislīmu [٢٥]، وهذا التطور يسير تبعا للنوع الأول من تغيرات طريقة النطق[٢٦]:

ق ٤: صوت *أنفي شفوي* ← صوت *نصف صامت شفوي (مقيد)*.

المجموعة اللثوية

تطور الفونيم /d/ قبل /t/ في الأوجاريتية إلى /t/ تبعا للنوع الثاني:

ق ٥: صوت *لثوي انفجاري مجهور* ← صوت *لثوي انفجاري مهموس (مقيد)*.

وفي العربية الثمودية تطور الفونيم /n/ قبل /t/ [٢٧]

---

(٢١) بشر، ***الأصوات العربية***، ص ١٣٦؛ بسام بركة، ***علم الأصوات العام*** (بيروت: مركز الانماء القومي، ١٩٨٨م)، ص ١٢٧.

(٢٢) حسان، ***اللغة العربية***، ص ٧٩.

(٢٣) هذا العامل هو الغالب في تصنيف الصوامت حسب طريقة نطقها، وكيفية حبس الهواء تحدد توقف تيار الهواء أو استمراريته أو تقطعه (مما ينتج عنه صوت انفجاري أو احتكاكي أو ترددي على الترتيب)، بينما تحدد كيفية توزيعه وضع الحنك اللين (الطبق) ووضع اللسان في التجويف الفمي والمسافة العمودية بين اللسان وموضع النطق (مما ينتج عنه صوت أنفي - إن كان الطبق منخفضا - وصوت وسطي (جانبي) - عندما يخرج الهواء من جانبي الفم - وصوت نصف صامت - عندما تكون المسافة أكثر مما يحتاج لنطق الصامت وأقل مما يحتاج لنطق الصائت).

(٢٤) هي ما أشير اليها من قبل باهتزاز الوترين الصوتيين أو عدمه.

(٢٥) Carl Brockelmann, *Grundriss der vbergleichenden Grammatik der semitischen sprachen*. Bd. I (Laut-und Formenlehre). (1908; reprografischer Nachdruck, Darmstadt: Georg Olms Verlagsbuchhandlung, 1966), p. 138.

(٢٦) غير أن التغير في طريقة النطق (النوع الأول) ليس مساوياً لما حدث في ق ٢ عندما تغيرت كيفية حبس الهواء، بل تغيرت هنا كيفية توزيعه.

(٢٧) انظر

Walter W. Müller, "Das Altarabische und das klassische Arabisch", *Grundriss der Arabischen Philologie*, Band I: *Sprachwissenschaft, herausgegeben von Wolfdietrich Fischer* =

إلى /t/ تبعا للنوع الأول:

ق ٦: *صوت أنفي لثوي ← صوت لثوي انفجاري مهموس (مقيد).*

المجموعة الغارية ـ اللثويــة

في بعض اللهجـات الاثيـوبية (Tigrē, Tigriña) تطور الفونيم /y/ في نهاية الكلمة إلى /g/ [(٢٨)]، وذلك يتم وفقا للنوع الأول من أنواع تطور طريقة النطق:

ق ٧: *صوت نصف صامت غاري ـ لثوي ← صوت غاري ـ لثوي احتكاكي مجهور (مقيد).*

المجموعة الحنجرية

تحول الفونيم /h/ إلى /د/ في الآشورية البابلية، وذلك طبقا للنوع الأول من أنواع التطور:

ق ٨: *صوت حنجري احتكاكي مهموس ← صوت حنجري انفجاري مجهور (مطلق).*

١ ـ ٢ القوانين الصوتية لتغير موضع النطق

أبـرز القــوانــين الصــوتيــة التي تحكم تطور الأصـوات السامية ضمن هذه الطريقة هي قوانين ظاهرة الانسيابية [(٢٩)] (spirantization) التي تعرفها كل اللغـات الشمـاليـة الغربية (الفرع الكنعاني) وبعض اللغــات الجنــوبيــة الغــربيــة (الفــرع الاثيوبي).[(٣٠)] وهذا التطور مشروط في جميع اللغات التي تعـرف هذه الظاهرة بوجود الصوت الصامت المتغـير بعد صائت في مقطع واحد. [(٣١)] يحدث هذا التـطور بانتـظام في ثلاثة مواضع للنطق، ومن فرط انتظام قوانين هذه الظاهرة أن المجهورة من أصواتها تبقى مجهـورة بعـد التطور والمهموسة أيضا تبقى مهموسة، ويجتمع الصوتان ذوا المواضع الواحد قبل التـطور في موضـع نطق آخـر بعـد التطور، ويمكن تقسيمها على أساس ذلك إلى ثلاث مجموعات:

= (Weisbaden: Ludwig Reichert Verlag, 1982), p. 18.

حيث يرى دمج /n/ في أي صامت يليه، وقد مثل لذلك بكلمة 'tt = < [illegible] [illegible] [illegible] > (≙ انثى)، خلافا للسبئية 'ntt = <[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]>، لكن ذلك لا ينطبق على كلمة b = ‹[illegible]› (≙ ابن) بدمج النون مع الباء، لانه تالٍ له، إلا اذا كان ذلك طبقا لقانون آخر.

(٢٨) قد تكون هذه الظاهرة هي مصدر وجود التغوير (palatalization) المنتشر في اللغات الاثيوبية الحديثة عند وجود الصائت /i/ أو /e/ بعد بعض الصوامت (d, t, ṭ, l, n, s, z, ṣ) ويتحول الصوت المغور ليس فقط الى /g/، بل أيضا إلى /č/ ؛ /č̣/ ؛ /ñ/ ؛ /š/ ؛ /ž/ ؛ /y/. واوضح الامثلة في ذلك الضمـير المتصـل للمفـرد المـؤنث المخاطب ← ← tekäbğ (≙ ثقل) بدلاً من tekäbdi* ، وكذلك اسم الآلة (käbbäda) الذي ينتهي صرفياً بـ: "-iya" أو "-ya" انظر:

W.Leslau, *Amharic Textbook* (Weisbaden: Otto Harrassowitz, 1967), p. 164, 366.

وشبيه بهذا التطور ما حصل في العربية مما يسمى العجعجة في لغة قضاعة، انظر عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، ***المزهر في علوم اللغة وانواعها***، تحقيق محمد احمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط ٤ (القاهرة: دار أحياء الكتب العـربيـة، ١٩٥٨م)، ج ١، ص ٢٢٢: «يجعلون اليـاء المشـددة جيمـا، يقولون في تميمي: تميج»، وكذلك ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ***المفصل في علم العربية*** (لاهور ـ باكستـان: دار نشر الكتب الاسـلامية، ١٣٢٣هـ)، ص ٣٧١: «والجيم ابدلت من الياء المشددة في الوقف». الغريب أن تطوراً معـاكسا قد حدث في بعض اللهجات العربية الحديثة (لهجات الخليج)، يتم بموجبه تحول الفونيم /g/ إلى /y/، انظر مثلا مهدي التاجر، ***اللغة والاصول اللغوية في البحرين، دارسة في لهجة البحـارنة العربية***، مكتبة اللسانيات العربية (لندن: مؤسسة كيغان بول العالمية، ١٩٨٢م)، الكتاب الخامس، ص ٥٠.

(٢٩) ترجمـة مصـطلح Spirantization الى «الانسيابية» عن الخولي، *معجم علم اللغة النظري*.

(٣٠) اللغات الأثيوبية التي تعرفها هي Tigriña (من اللغات الاثيوبية الشمالية) وجميع اللغات الأثيوبية الجنوبية (Harari - Gurage - Gafat - Argobba - Amharic) لكنها لا تطبق منها سوى القانونين العاشر والحادي عشر (المتعلقين ب /b/ ، /k/). كما يمكن أن تكون حدثت في اللغـة الجعـزيـة (Geez) ، غير أن عدم قدرة الكتابة الجعزية على نقل هذه الأصوات يجعل من الصعب التعرف على ذلك فيها. انظر:

W. Leslau, "Ethiopic and South Arabian", *Current Trends in Linguistics*, Vol. 6 (1970), p. 474.

(٣١) وإن كان هذا التطور ليس تطورا فونيميا للصوت، بل ينشأ لكل من تلك الفونيمات متغير صوتي (allophone) في توزيع تكاملي مع الفونيم الأصلي الذي أصبح متغيرا صوتيا هو الآخر، إلا أن عدم وجـود هذه الأصوات كفونيمات مستقلة في عدد لا بأس به من اللغـات السـامية، وما تقوم به قوانين هذه الظاهرة بالذات من تفسير لتاريخ بعض الكلمات المشتركة ومساعدة في التعرف على تطور المقطع السامي يبرر إدراجها ضمن قوانين محتوى اللغات السامية الفونيمي المتطور عن لغة أو مجموعة لغات سابقة.

من المجموعة الشفوية يتطور الفونيم /P/ الى /f/:

ق ٩: *صوت شفوي انفجاري مهموس ← صوت أسنان ـ شفوي احتكاكي مهموس (مقيد) (مطلق)*.[٣٢]

كما يتطور الفونيم /b/ الى /v/:

ق ١٠: *صوت شفوي انفجاري مجهور ← صوت أسنان ـ شفوي احتكاكي مجهور (مقيد)*.

ومن المجموعة الطبقية يتطور الفونيم /k/ الى /ḫ/:

ق ١١: *صوت طبقي انفجاري مهموس ← صوت لهوي احتكاكي مهموس (مقيد)*.

كما يتطور الفونيم /g/ إلى /ġ/ [٣٣]: .

ق ١٢: *صوت طبقي انفجاري مجهور ← صوت لهوي احتكاكي مجهور (مقيد)*.

ومن المجموعة اللثوية يتطور الفونيم /t/ إلى /ṯ/:

ق ١٣: *صوت لثوي انفجاري مهموس ← صوت بين أسناني احتكاكي مهموس (مقيد)*.

كما يتطور الفونيم /d/ الى /ḏ/:

ق ١٤: *صوت لثوي انفجاري مجهور ← صوت بين أسناني احتكاكي مجهور (مقيد)*.

يلي تلك الظاهرة في الأهمية ـ فيما يخص تغير موضع النطق ـ ما يحدث في مجموعة أصوات الصفير (sibilant) والصفير المغوّرة (palatalized sibilant) ([š], [ś], [s]) من تطورات، بسبب خصوصيتها المتميزة في تغيراتها والتنوع بين الفروع المختلفة وكذلك عدم المنطقية في بعض تطوراتها.

في حين أبقت الكنعانية القديمة على هذه الأصوات الثلاثة مع تنوع في مقابلات الصوت [ś] في اللغات التي استعارت منها، ومع حدوث تبادل بين [s] ، [ś] في كثير من الأحيان، مما جعلهما يتطوران إلى صوت واحد كما هو الحال في الكلمة الفينيقية ʿsr (عشرة) [٣٤]، وأبقت البابلية الآشورية إلى وقت متأخر على التمييز بين [š] ، [ś] كما هو مثبت في أسماء الأشهر التي استعارها منهم اليهود مثل:

> Araḫšamna›[٣٥] Marḫesuan, Tišrītu > Tišri, Sabāṭu > šeḇâṭ.

مقابل:

[٣٦] Sīmānu > Siwân, Nīsānu > Nīsān, Kislīmu > Kislēw،

حصل اختزال لهذه الأصوات إلى [s] ، [š] فقط وقلب متبادل في كل من العربية القديمة والأثيوبية بقيت كل منهما بعدة تحتوي صوتا غاريا ـ لثويا متطورا عن صوت غاري خلفي وصوتا لثويا متطورا عن صوت غاري ـ لثوي. ويمكن توضيح هذا التطور الغريب من نوعه بالقانونين الصوتيين التاليين:

ق ١٥: *صوت غاري ـ خلفي احتكاكي مهموس ← صوت غاري ـ لثوي احتكاكي مهموس (مطلق)*،

ق ١٦: *صوت غاري ـ لثوي احتكاكي مهموس ← صوت لثوي احتكاكي مهموس (مطلق)*.

أما الاوجاريتية فقد ساد فيها القانون الأول منهما فقط، مما جعل محتواها الفونيمي يضم صوتا غاريا ـ لثويا من أصلين مختلفين، أحدهما موروث من الأصل السامي والآخر متطور عن الصوت الغاري ـ الخلفي الوحيد في اللغات السامية طبقا للقانون ١٥.

بالرغم من أن وجود صوتي الحلق [٣٧] هو إحدى مميزات اللغات السامية عن الفصائل

---

(٣٢) في حين ان هذا القانون مشروط في اللغات التي تعرف هذه الظاهرة بوجود الصائت قبل الصوت المتطور، فهو مطلق في اللغات السامية الجنوبية التي لا تعرف الظاهرة (العربية الشمالية والجنوبية وبعض اللغات الأثيوبية)، حيث تحول /p/ إلى /f/ إلى الأبد، مما افقدها ذلك الفونيم.

(٣٣) عكس ما حصل في ق ٢٢، لكنه لم يكن استبدالاً تاما كما حصل في تلك الحال، كما انه اكثر سيادة من مجال ذلك التطور سواءً فيما يخص استمرارية تطبيقه أو فيما يخص اللغات التي يشملها.

(٣٤) انظر: Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 133

(٣٥) فيما يخص التطورات الاخرى في ثلاثة من اسماء هذه الأشهر /m/) ← (/w/ انظر ق ٤.

(٣٦) انظر : Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 136.

(٣٧) هما [ḥ] و [c] خلافاً لبروكلمان وغيره من المراجع القديمة نسبياً التي تضم معهما صوتي الحنجرة ([h] و [د] قبل أن يتم تحديد موضعي المجموعتين ويفصل بينهما في الابحاث الصوتية، وخلافاً =

الأخرى، إلا أن التطور المتعلق بهما يفوق في كمية الحركة (تطورهما إلى أصوات أخرى أو تطور أصوات أخرى اليهما) ما حصل في بقية التطورات، ففي البابلية ـ الآشورية سقط فونيما /ḫ/ ، /c/ كليا مع بعض التعويض أحيانا [٣٨]، أو تحولا في بعض الأحيان في تطور مشابه لما حصل في الأثيوبية إلى /h/ ، /ʾ/ على التوالي، ويمكن تمثيل هذا التحول كما يلي:

ق ١٧: صوت حلقي *احتكاكي مهموس* ← صوت حنجري *انفجاري* مجهور *(مطلق)*،

ق ١٨: صوت حلقي *احتكاكي مجهور* ← صوت حنجري *احتكاكي مهموس (مطلق)*،

غير أن التطور الممثل في القانون الأخير كان قد حدث في بعض لهجات العربية الشمالية [٣٩] ـ وهي قريبة جغرافيا من الأثيوبية ـ باتجاه معاكس:

ق ١٩: صوت حنجري *انفجاري* مجهور ← صوت حلقي *احتكاكي* مجهور *(مطلق)*،

بينما فقدت بعض اللغات السامية القديمة صوتي الحلق، تحول صوتان آخران في بعض اللغات الى صوتي الحلق، ففي الأثيوبية والآرامية القديمة والعبرية تحول الفونيم /ǵ/ الى /c/ ، من أمثلة ذلك الأكادية، pursuᶜ والعبرية parᶜos مقابل العربية «برغوث» [٤٠]، ومن الأثيوبية ᶜafára مقابل العربية «غفر» و ᶜarab مقابل العربية «غرب» [٤١]، وفي اللغتين الأخيرتين تحول الفونيم /ḫ/ الى /ḥ/. وبسبب هذين التطورين فقدت اللغات الثلاث /ǵ/ [٤٢] كفونيم مستقل، كما فقدت الآرامية والعبرية الفونيم /ḫ/ (وبقى فقط كمتغير صوتي).

ويمكن تمثيل هذين التطورين كالتالي:

ق ٢٠: صوت *لهوي احتكاكي مجهور* ← صوت *حلقي احتكاكي مجهور (مطلق)*،

ق ٢١: صوت *لهوي احتكاكي مهموس* ← صوت *حلقي احتكاكي مهموس (مطلق)*.

كما حدث في الأثيوبية تطور الفونيم /ǵ/ (بسبب مقاربته للفونيم /r/) [٤٣] قبل صامت مقطعي (شبه

= للمراجع العربية ـ بما في ذلك بعض المراجع الحديثة ـ التي تضم اليها بالإضافة إلى صوتي الحنجرة الصوتين اللهويين [ǵ] و [ḫ] تأثراً بالتقسم العربي القديم، من هذه المراجع على سبيل المثال: محمود فهمي حجازي، **علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية** (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٣م)، ص ١٥٥.

(٣٨) انظر: Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 127

(٣٩) وهي الظاهرة التي تسمى عنعنة تميم. بخلاف من ينسبها إلى تميم وقيس (ابو يوسف يعقوب بن السكيت، **كتاب الإبدال**، تحقيق حسين محمد محمد شرف وعلي النجدي ناصف (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٧٨م)، ص ٨٤؛ ومن ينسبها إلى تميم واسد (موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، **شرح المفصل** (بيروت: عالم الكتب، د.ت)، ج٨، ص ص ١٤٩ـ٥٠) يوسع بعض المحدثين دائرة هذه الظاهرة لتشمل اليمن وغرب الجزيرة ـ ما عدا لهجة الحجاز (وهي بمعنى أدق لهجة قريش)، لأن في ذلك مبالغة في تحقيق الهمزة، وهم من الحضر الذين لايبالغون في تحقيقها ـ انظر مثلا: احمد علم الدين الجندي، **اللهجات العربية في التراث** (طرابلس ـ ليبيا: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م)، ج ١، ص ص ٣٦٨ـ٩.

(٤٠) انظر: I.M. Diakonoff, *Root Structure*, p. 462

وهذا المثال وأمثلة غيره في مقالة له بالروسية تثبت ليس فقط تقابل /ǵ/ الذي احتفظت به العربية مع /c/ في الفرع الكنعاني (وتمثله هنا العبرية) والفرع الاكادي، بل تثبت أيضا تقابل /p/ في اللغات الشمالية مع /b/ في الجنوبية و /š/ في الاولى مع /ṯ/ في الثانية.

(٤١) انظر: Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 123.

(٤٢) ما عدا كونه قد بقى متغيرا صوتيا (Allophone) للفونيم /g/ في حالة انطباق شرط ظاهرة الانسيابية (Spirantization) ، انظر ق ١٢. وهذه الظاهرة توجد في العبرية والآرامية وبعض اللغات الأثيوبية، مما يعني فقدان هذا الفونيم في اللغات التي لا تعرف هذه الظاهرة وفقدانه أيضا في اللغات الأثيوبية التي تعرف الظاهرة، لأن الانسيابية فيها لا تشمل الفونيم /g/ (انظر الملاحظة رقم ٣٠). وهذا خلاف ما يقوله:

J. Petracek, "Zur Entwicklung des phonologischen Systems des Altäthiopischen", *RSEt* 20 (1964), pp. 129-32.

من أن الجعزية لم تعرف الفونيم /ǵ/ ، إلا إذا كان بتقريره في تلك المقالة يشير إلى الفترة اللاحقة لسيادة هذا القانون (ق ٢٠)، أو إلى مصاعب التعرف على الأصوات الانسيابية من خلال الكتابة الجعزية مما سبق الحديث عنه، (انظر أيضا الملاحظة رقم ٣٠).

(٤٣) انظر تحول الفونيم /r/ الى /ǵ/ في بعض اللهجات العربية الحديثة لدى:

W. Diem, "Divergenz and konvergenz im Arabischen", *Arabica*, tome xxv (1978), p. 137.

صائت) [٤٤] إلى /g/ وذلك في كلمــات مثــل: gĩmē ≙ «غيم»، šagara = «شغر». ولابد أن يكون هذا التحول قد تم زمنيا قبل سيادة القانون الذي يقضي بتحول كل /ǵ/ في السامية الأولى إلى /c/ في الأثيوبية (ق ٢٠) مما سبب فقدان الفونيم /ǵ/ من الأثيوبية.[٤٥] ويمكن تمثيل هذا التطور كما يلي:

ق ٢٢: *صوت لهـوي احتكاكي مجهور ← صوت طبقي انفجاري مجهور (مقيد).*

وفي المجموعة الأنفية تحول الفونيم /m/ في العربية إلى /n/ [٤٦] في حالة كونه في آخر الكلمة (اذا لم يكن محافظا عليه بنظام صرفي معين مثل: قم ـ قوموا)، وتبعا لذلك تحولت الأداة الشرطية السامية "im" [٤٧] إلى «إن» في العربية، وكذلك نهايات الاسم الميمية (-um, -im, -am) تحولت إلى التنوين (-un, -in, -an)، كما تتبادل الميم والنون في فواصل الآيات في القرآن بشكـل طبيعي [٤٨] ويتبادلان أيضا في قوافي بعض القصائد.[٤٩] ويمكن تمثيل هذا التطور كالتالي:

ق ٢٣: *صوت أنفي ـ شفـوي ← صوت أنفي ـ لثوي (مقيد).*

أما الفونيم /d/ فلم يحصل حول تطوره اتفاق بين لغـة وأخرى، ففي البابلية ـ الأشورية والاوجاريتية والعبرية تطور الى /ṣ/:

ق ٢٤: *صوت أسنان ـ لثوي انفجاري مطبق ← صوت لثوي احتكاكي مطبق (مطلق).*

وفي الآراميـة القـديمـة تحول إلى /c/ على ثلاث مراحل، المرحلة الأولى قضت بتحول /ḍ/ الى /q/ كما في mawqa' (مطلع الشمس) ≙ موضع، rqy ≙ راض، 'arqa ≙ أرض:

ق ٢٥ أ: *صوت أسنان ـ لثوي انفجارى مطبق ← صوت لهوي انفجاري مهموس (مطلق)، وفي المرحلة الثانية تحول الفونيم /q/ إلى /g/ (وهو نفسه القانون ٢ في هذه الدراسة):*

ق ٢٥ ب: *صوت لهوي انفجاري مهموس ← صوت لهـوي احتكاكي مجهور (مطلق)، وطبقا لقـانـون قديم في اللغـة الآراميـة (انظر القانون ٢٠) فان الفونيم /ǵ/ يتحول إلى /c/ ، وهو يذكر هنا للإعادة، كما أعيد ق ٢، ولإكمال سير تطور الفونيم /ḍ/ في الآرامية:*

ق ٢٥ ج: *صوت لهوي احتكاكي مجهور ← صوت حلقي احتكاكي مجهور (مطلق).*

وفي المجمـوعة بين الأسنانية حدثت تطورات في جميع الفروع السامية، ففي اللغات الأثيوبية تطور الفونيم /ẓ/ إلى /ṣ/ ، كما حدث التطور نفسه في اللغات البابلية ـ الأشورية والكنعانية، وأصبح لا يعرف معه أصل الفونيم /ṣ/ ، إن كان متحولا عن /ḍ/ ـ فيما عدا في الآرامية، لأن /ḍ/ فيها لم يتحول إلى /ṣ/ ـ (انظر ق

---

(٤٤) المصطلحان اقرب ما يوجد في العربية للتعبير عن مجموعة الأصوات التي يطلق عليها sonant (وهي تشمل الأصوات الأنفية والوسطية والترددية وأنصاف الصوائت) وهما مأخوذان عن ***معجم مصطلحات علم اللغة الحديث***، وضع نخبة من اللغويين العرب (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٣م). حول نظرية الصوامت المقطعية (أشباه الصوائت) (Sonant theory)، انظر كتاب صاحب النظرية: I. M. Diakonoff, *Semito-hamitic Languages,* (Moscow: Nauka, 1965), p. 37. وأيضا: Carleton T. Hodge, "Afroasiatic, An Overview", *Current Trends in linguistics,* Vol. 6 (1970), p. 241.

(٤٥) انظر: Brockelmann, *Grundriss,* I. p. 123

(٤٦) كتب الصرف العربية تؤكد تبادلهما في جميع المواضع (كمتغيرين لفونيم واحد)، انظر مثلا ابن السكيت، ***الإبدال***: «ويقال الغيم والغين ويقال نسع ومسع.. ويقال نجر من الماء ومجر... مخجت ونخجت.. والندى والمدى» ص ص ٧٧ـ٧٩.

(٤٧) قد يكون من بقاياها اداة الشرط «إما» المستخدمة بقلة في بعض أساليب الشرط.

(٤٨) انظر: ***ثلاث رسائل في إعجاز القرآن***: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ***ذخائر العرب*** ١٦، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ص ٩٠: والفواصل على وجهين: أحدهما على الحروف المتجانسة والآخر على الحروف المتقاربة ... وأما الحروف المتقاربة فكالميم والنون، وكذلك: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي: ***البرهان في علوم القرآن***، ق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٢م)، ج ١، ص ٧٥: فاعلم أن فواصل القرآن الكريم لا تخرج عن هذين القسمين، بل تنحصر في المتماثلة والمتقاربة.

(٤٩) انظر: Brockelmann, *Grundriss,* I. p. 136

٢٤) أو متحولا عن /z/ طبقاً لهذا القانون. ولم تحافظ على القيمة الصوتية لهذا الفونيم سوى العربية. ويمكن تمثيل ذلك التطور كالآتي:

ق ٢٦: صوت بين أسناني احتكاكي مطبق ← صوت لثوي احتكاكي مطبق (مطلق).

أما التطور الذي حدث للفونيم /ṯ/ فلم يكن موحدا، ففي حين تطور إلى /s/ في اللغات الاثيوبية:

ق ٢٧: صوت بين أسناني احتكاكي مهموس ← صوت لثوي احتكاكي مهموس (مطلق).

فقد تطور في اللغات البابلية ـ الآشورية والكنعانية ـ ما عدا الآرامية ـ إلى /š/:

ق ٢٨: صوت بين أسناني احتكاكي مهموس ← صوت غاري ـ لثوي احتكاكي مهموس (مطلق)،

وفي الآرامية تطور إلى /t/:

ق ٢٩: صوت بين أسناني احتكاكي مهموس ← صوت لثوي انفجاري مهموس (مطلق).

أما العربية فقد حافظت عليه [٥٠] إلى أن تطور في بعض لهجاتها الحديثة [٥١] إلى فونيمي /t/ و /s/ بترتيب زمني كترتيبهما في الذكر، مما سهل التعرف على تاريخ الكلمة من خلال احد الصوتين اللذين شكلا متغيرا صوتيا لفونيم /ṯ/.

وقد تطور الفونيم /ḏ/ أيضاً، تطورين مختلفين حسب البيئة اللغوية التي حدث فيها التطور، ففي البابلية ـ الآشورية والكنعانية والآثيوبية تطور الى /z/:

ق ٣٠: صوت بين أسناني احتكاكي مجهور ← صوت لثويّ احتكاكيّ مجهور (مطلق)،

بينما تطور في الآرامية الى /d/:

ق ٣١: صوت بين أسناني احتكاكي مجهور ← صوت لثوي انفجاري مجهور (مطلق).

أما في العربية فلم يحصل التطور سوى في لهجات المدن حسب ق ٣٠ في المناطق التي تأثرت بلغات تلك المجموعة (مثل مصر والسودان) [٥٢]، وحسب ق ٣١ في مناطق الشام التي تأثرت بالبيئة الآرامية، بالإضافة إلى تطوره إلى الفونيم /z/ في بادية الشام.

وفي أنصاف الصوامت [٥٣] حدث تطور للفونيم /w/ عندما يكون في أول الكلمة في الأوجاريتية إلى /y/. مثل "yrḫ". ولم تؤثر هذه الظاهرة على الرابط "wa"، لأن الفونيم /w/ لم يكن أصلا في أول الكلمة، بل كانت هناك كلمة ـ حسب Gordon ـ لها علاقة بالرابط في المصرية القديمة "iw"، وتحول /w/ إلى /y/ كان قد تم قبل سقوط المقطع الذي يحتوي /i/ المصرية.[٥٤]

وقد حدث التطور نفسه في العبرية والآرامية، وذلك بمقارنة كلمة «وعر» العربية مع Ya ar العبرية، ya ʿrā الآرامية وكذلك كلمة warḫ الأثيوبية مع yerah و yarḥā (= الشهر)، وأيضا كلمة «ولد» العربية مع yālaḏ العبرية yəleḏ الآرامية.[٥٥] ويمكن تمثيل ذلك بالقانون التالي:

(٥٠) وإن كان قد تحول في بعض مفردات العربية القديمة الى /f/، كما في الآية الكريمة: «فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها» (انظر البقرة، الآية ٦١)، وفي تفسير الطبري لهذه الآية يعتقد ان الثاء في ثوم وغيرها منقلبة عن الفاء: وذكر أن ذلك قراءة عبدالله بن مسعود «ثومها» بالثاء، فان كان ذلك صحيحا، فان من الحروف المبدلة كقولهم: وقعوا في عاثور شر وعافور شر، وكقولهم للاثافي: اثاثي، وللمغافير: مغاثير، وما أشبه ذلك ما تقلب الثاء فاء والفاء ثاء، لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء (أبو جعفر محمود بن جرير الطبري، ***تفسير الطبري، جامع البيان عن تاويل اي القرآن***. وتحقيق: محمود محمد شاكر، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ج ٢، ص ١٢٠.

(٥١) مثل: تلاثة وتلاين مقابل سلاسينات (ثلاثينات) وسلاسي (ثلاثي) في المصرية. انظر: عبدالرحمن ايوب، «النظم اللغوية والتطور»، في ***قضايا الأدب واللغة بمناسبة افتتاح القرن الخامس عشر الهجري***، اعداد وتقديم: عبده بدوي (الكويت: مؤسسة الصباح، ١٩٨١م)، ص ٦٨.

(٥٢) ايوب «النظم اللغوية»، ص ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٥٣) يمكن أن يطلق عليها «أنصاف صوامت» او «أنصاف صوائت»، لأنها تشترك في سمات المجموعتين، انظر بسام بركة، ***علم الأصوات العام***، ص ٩١.

(٥٤) انظر: C. H. Gordon: *Ugaritic Textbook*, Rome, 1965, p. 32.

(٥٥) انظر: Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 139.

ق ٣٢: صوت نصف صامت شفوي ← صوت نصف صامت غاري لثوي (مقيد).

وقد حافظت على هذا الصوت الاستهلالي (٥٦) كل من العربية والبابلية القديمة حيث نقل عن حمورابي "wālidiya" (= والدي)، "wāšibu" (= جالس)، "warḫum" (= شهر). وقد ساد القانون السابق في البابلية المتأخرة والآشورية في مثل: "alādu" (= تلد)، "mu'allidatu" (= مولدة).(٥٧)

٢ - ملامح تطور الصوائت السامية

يمكن أن يدرس تطور صوائت السامية من خلال رصد التغير الكمي في القيمة الصوتية (وهي صفة تمايزية في اللغات السامية) (٥٨)، وأيضا من خلال مراعاة التغيرات النوعية (التطور في صفات الصوائت المعيارية، وهي التطورات المشتركة مع أكثر لغات العالم).(٥٩)

٢ - ١ التغيرات الكمية

الصوائت الثنائية(٦٠) (Diphthongs)

بشكل عام يمكن أن يقال أن الصوائت الثنائية في السامية الأولى قد بقيت في إطار ضيق جدا، إذ لم تعد تعرف اللغات السامية المختلفة طريقا إنتاجيا(٦١) لتعويض ما يفقد منها من هذه الأصوات. لم تحافظ على هذه الصوائت المركبة بانتظام سوى العربية، بينما ظل بقاؤها في السريانية مشروطا بعدم تشكيل لمقطع مضاعف الإقفال (٦٢) في مثل: ʿaina ، لكنها في حالة الإضافة تصبح ʿen بتحوله إلى صائت أحادي.

الصوائت الاحادية (٦٣) (Monophthongs)

تتحول كل الصوائت الثنائية في الأوجاريتية - بغض النظر عن موقعها - إلى صوائت أحادية (٦٤) /au/ الى /ō/ و e/ai/ الى /ē/ ، وفي هذين القانونين يجمع التحولين طبيعة واحدة هي انتقال صائت متغير (مركب) إلى صائت ثابت (بسيط):

ق ٣٣: *صائت ثنائي خلفي*(٦٥) ← *صائت خلفي نصف ضيق مدور طويل (مطلق).*

ق ٣٤: *صائت ثنائي أمامي ← صائت أمامي نصف ضيق منقبض طويل (مطلق).*

وهذان القانونان أكثر إنتاجية في الاوجاريتية منه في العبرية والسريانية، حيث تستثنى منهما مقاطع [-ayy] التي حافظت على الصائت الثنائي فيها.

أما في الآشورية البابلية فقد تحول الصائتان الثنائيان /au/ ، /ai/ إلى صائتين أحاديين آخرين هما: /ū/ ، /ī/ في مثل: mūtu ← *mautu (الموت)، īnu ← ʿainu(٦٦)، ويمكن تمثيلهما بالقانونين التاليين:

ق ٣٥: *صائت ثنائي خلفي ← صائت خلفي ضيق مدور طويل (مطلق).*

ق ٣٦: *صائت ثنائي أمامي ← صائت أمامي ضيق منقبض طويل (مطلق).*

وفي العربية الجنوبية توجد حالات تشير إلى أن التحول إلى صوائت أحادية مر بفترات كان فيها إنتاجيا. وفي الأثيوبية توجد الصوائت الثنائية بالحالات الأحادية الموافقة لقانوني التحول في اللغات

---

(٥٦) يوافق initial sound ، والمصطلح العربي عن الخولي، ***معجم علم اللغة النظري***.

(٥٧) انظر: Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 139

(٥٨) راجع الملاحظة رقم ١٥.

(٥٩) انظر كمال بشر، ***الأصوات العربية***، ص ١٣٩.

(٦٠) راجع الملاحظة رقم ١٨.

(٦١) اي قوانين صوتية يكون نتاجها أصواتا ثنائية.

(٦٢) يوافق مصطلح "cluster" وهو ان ينتهي المقطع بصامتين او اكثر (طبعا في غير اللغات السامية) وقد تُجُنب هنا مقابله العربي عند الخولي، ***معجم علم اللغة النظري***: «العنقود الصوتي»، لانه قد شرحه بتوالي الصوامت في مقطع واحد تواليا غير مشروط بنهاية المقطع (إقفاله بهذه الصوامت).

(٦٣) راجع الملاحظة رقم ١٥.

(٦٤) انظر: Gordon, *Ugaritic*, p. 31.

(٦٥) لا يوجد تضاد في اللغات السامية بين الصوائت الثنائية إلا بين الامامية والخلفية.

(٦٦) اما عن زوال الفونيم /ʿ/ من الكلمة المتطورة فذلك إجراء آخر وفقا لما ذكر أعلاه عند الحديث عن احتمال فقدان صوتي الحلق في مقدمة القانونين ١٧، ١٨.

الكنعانية (lēlīt ← *layl ؛ yōm ← *yaum) ، غير أنهما أقل انتظاما منهما هناك، حيث توجد صيغ مخالفة - عدا الاستثناء المذكور في العبرية والسريانية.

٢ - ٢ التغيرات النوعية

الفونيان الساميان /a/ ، /ā/

يتحول الفونيم /ā/ في العبرية والآرامية عندما يكون منبوراً إلى /ō/ ، ولم يعد التفريق ممكنا بين ما نتج عن السامية الأصلية /ā/ كما في المصدر qatōl ، وما كان تطورا داخليا في العبرية عن /a/ متبوعة بالفونيم /د/ كنوع من التعويض بعد سقوط الفونيم الأخير مثل rāš ← *rāš ← rōš (رأس). أما إذا كان /a/ غير منبور أو حاملا لنبر فرعي فانه يبقى /ā/ في مثل: gālā (أوحى)، qām (قام)[٦٧]:

ق ٣٧: *صائت وسطي مفتوح طويل ← صائت خلفي نصف ضيق مدور طويل (مقيد).*

وفي الاوجاريتية يتحول الفونيم /ā/ إذا تلاه في المقطع نفسه /ء/ إلى /e/ كما في rāš ← rēš (رأس):

ق ٣٨: *صائت وسطي مفتوح قصير ← صائت أمامي نصف ضيق منقبض قصير (مقيد).*

أما في العربية القديمة فقد تحول الفونيم /ā/ في بعض لهجاتها إلى /ē/ ، إن لم يكن متبوعا أو مسبوقا بصوت حلقي أو حنجري أو صوت مفخم في نفس المقطع، مما يسمى في العربية بالإمالة:

ق ٣٩: *صائت وسطي مفتوح طويل ← صائت امامي نصف ضيق منقبض طويل (مقيد).*

الفونيم السامي /i/

في العبرية والآرامية تحول الفونيم /i/ إلى /a/ ، وذلك في المقاطع المقفلة التي تحمل النبر في وسط الكلمة أو في مقاطع آخر الكلمة التي كانت في العبرية القديمة مقفلة في مثل: bat ← batt ← bant ←*bint (بنت).[٦٨]

ويمكن تمثيل هذا التحول بالقانون التالي:

ق ٤٠: *صائت أمامي ضيق منقبض قصير ← صائت وسطي مفتوح قصير (مقيد).*

وفي نظام الصوائت الآشوري - البابلي تحول الفونيم السامي /i/ الى /e/ ، وأيضا في السريانية تحول كل /i/ الى /e/ في مثل sefrā (كتاب)، dǝḥel (خاف)، غير أن النساطرة (السريان الشرقيين) يقرأون <–> (وهو رمز الصوت [e] بشكل يوافق [i] [٦٩]، وبأثر من أصوات الصفير بقي الفونيم /i/ في مثل هاتين الكلمتين، حتى لدى السريان الغربيين: gisra (جسر)، izgadda (رسول). أما في العبرية فلا يسري مفعول القانون إلا في المقاطع المفتوحة أو المنبورة التي أقفلت بعد قانون تطور نهايات الكلمات في العبرية[٧٠]، وذلك مثل: ʿenab (عنب)[٧١]، ويمكن تمثيل هذا القانون كالتالي:

ق ٤١: *صائت أمامي ضيق منقبض قصير ← صائت أمامي نصف ضيق منقبض قصير (مطلق) (٧٢) (مقيد) (٧٣).*

الفونيم السامي /u/

في السريانية حافظ الفونيم /u/ في المقطع المقفل غير المنبور على قيمته الصوتية في مثل qudsa (قداسة)، أما في المقطع المقفل المنبور فقد تحول إلى /o/ لدى النساطرة (السريان الشرقيين) في مثل: qǝḏoš, neqṭól والذي تحول بشكل ثانوي مرة أخرى إلى /u/ لدى اليعاقبة (السريان الغربيين).

كذلك في العبرية تحول إلى /o/ في المقطع المنبور - مقفلا كان أو مفتوحا - والذي يكون طويلا أو قصيرا حسب تنغيم الجملة مثل: quḏes ← qoḏes (قداسة)، *qatun ← qaton (صغير). بينما ظل

(٦٧) انظر: Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 142

(٦٨) Brockelmann, *Grundriss*, I. p. 147

(٦٩) وهذا يؤكد أصل الصائت؛ إذ أن المعروف أن السريان الشرقيين هم الأقرب إلى النطق الأصلي من اليعاقبة.

(٧٠) وهو قانون صرفي بحت.

(٧١) انظر: Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 148

(٧٢) في حالة الآشورية - البابلية والسريانية.

(٧٣) في حالة العبرية.

الفونيم /u/ في المقطع المفتوح غير المنبور، قبل المقطع الحامل للنبر، محافظا عليه بواسطة تضعيف ثانوي للصامت التالي له في مثل: ʿamuqqā (عمق)، yullad (ولد).(٧٤) ويمثل التحول القانون التالي:

ق ٤٢: *صائت خلفي ضيق مدور قصير ـ صائت خلفي نصف ضيق مدور قصير (مقيد).*

الفونيم السامي /ē/

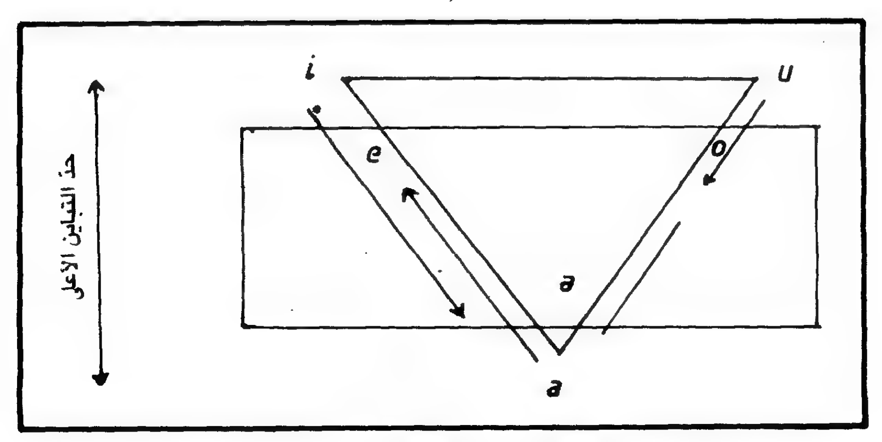
حسب بروكلمان (٧٥) نشأ الفونيم السامي /e/ أصلا من ضم للصائتين a-i ، بعد أن سقط كل من /w/ ، /y/ بين صائتين قصيرين في الساميّة الأولى. وهذا الفونيم /ē/ تحول فيما بعد في العربية إلى /ā/ ، بينما بقي في اللغات الأخرى /ē/. ويظهر ذلك بمقارنة: nawir* ⟵ nār (العربية) مع nēr (العبرية)، ğār (العربية) مع ger (العبرية، وتعني غريب، مع أنها اشتقاقيا من نفس الجذر).

ق ٤٣: *صائت أمامي نصف ضيق منقبض طويل ⟵ صائت وسطي مفتوح طويل (مطلق).*

وفيما يلي عرض لاتجاهات تطور الصوائت النوعي في اللغات الساميّة ويتضح فيه عدم تحول صائت أمامي إلى خلفي أو خلفي إلى أمامي، كما تبين أسهم الاتجاهات في الشكل رقم (٢)، وقد حددت في الشكل المنطقة الوسطى (التي تكون فتحة الفم فيها غير متسعة ولا ضيقة)، وهي المنطقة التي تكون فيها أكثر التطورات، خصوصا في اللغات السامية المتأخرة وفي حالات التطور الداخلي في لهجات كل لغة على حدة.

٣ ـ أمثلة من مشاكل التحليل الفونيمي للغات التاريخية

المشاكل التي يناقش بعض منها هنا كانت قد تركت جانبا في معرض دراسة التطور الصوتي، وتتمثل في أن أغلب اللغات السامية تشتمل في نظامها الكتابي على رموز متساوية على المستوى الفونيمي، لكنها مختلفة على المستوى الصوتي، مما ينتج عنه متغيرات صوتية ويقود إلى صعوبات غير قليلة في تحديد القيمة الصوتية. والأمثلة المختارة توضح أن هذه الظاهرة تبدو شديدة التعقيد ـ رغم وجود بعض مظاهرها في اللغات الحية ـ في اللغات التاريخية، ومنها:



الشكل (٢). مثلث الصوائت (٧٦)

(٧٤) انظر: Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 149

(٧٥) Brockelmann, *Grundriss*, I, p. 141.

(٧٦) يحتوي المثلث ـ بالرغم من أنه وضع للدراسات الصوتية في لغات تضم بعض الصوائت الأنفية في شكل رباعي (انظر: كمال بشر، *الأصوات العربية*، ص ص ١٤١ ـ ٥)، لكن تلك التقسيمات لا تناسب اللغات السامية ـ على ركائز نظام الصوائت (الحد الأدنى من الصوائت) التي يجب توافرها في أية لغة بشرية.

٣ ـ ١. لايوجد في الكتابة الاكادية إمكانية للتفريق بين السوامت المجهورة والمهموسة، سواء في موقع نهائي [٧٧] أو في غيره من المواقع (مثلا بين /p/ ، /b/).

٣ ـ ٢. في الاوجاريتية يحل الفونيم /d/ محل الفونيم /ḏ/ في الكلمة السامية الأصل، لكن الفونيم الأوجاريتي /ḏ/ يوجد أيضا في كلمات سامية الأصل مقابل الفونيم السامي /ḏ/ ، /d/ ، خصوصا عندما تحتوى الكلمة /r/ ، /c/. هذا يدع المجال للتخمين بأن هذا التركيب (فونيمي /r/ ، /c/) يحمي الفونيم /ḏ/ من التحول إلى /d/ ، لكننا لا نستطيع التعرف على أصالة الفونيم /d/ الأوجاريتي إلا في هذا الإطار الضيق، أي عندما توجد العلامتان ومع ذلك يوجد الفونيم /d/ ، وحينئذ نستطيع أن نجزم بأنه يعود إلى /d/ السامي.

٣ ـ ٣. فيما يخص القيمة الصوتية لفونيمي /ǵ/ و /ẓ/ في الأوجاريتية مقارنة بفونيمي /ġ/ و /ẓ/ في العربية يصعب أن يتبنى هذا البحث فكرة وجود ثلاثة أصوات (phone) في السامية الأصل يعبر عنها بفونيمين في كل من الاوجاريتية والعربية ـ كما يقول Gordon [٧٨] ـ لأن ما يمكن إثباته أن السامية الأولى عرفت صوتين فقط وعبر عنهما في العبرية بفونيمين أيضا، بينما ظهرت لهما خمسة متغيرات صوتية، كما يبين ذلك الشكل رقم (٣)، وكان يرمز لهما بالرمزين ‹ › و‹ › في الفترات الاوجاريتية المختلفة، مما يدل على أن القيم الصوتية التي اتخذتها في الفترات المختلفة لا تعدو كونها متغيرات صوتية (Allophone) لهذين الفونيمين. ولا يمكننا بأي حال من الأحوال إثبات الصوت الثالث في السامية الأولى، والعامل الأقوى وجودهما في العربية على شكل الفونيمين /ġ/ و /ẓ/ ، واللذان ترجما في العربية ـ الحديثة على الأقل ـ إلى صوتين فقط. وفي الأوجاريتية وجد فونيمان ضمن محتواها الفونيمي، ويُعتقد بوجود ثلاثة متغيرات للفونيم /ǵ/ ومتغيرين للفونيم /ẓ/. وفيما يلي توضيح لهذين الفونيمين وقيمهما الصوتية في كل من الأوجاريتية والعربية:

٣ ـ ٤. في اللغات الشمالية الغربية وبعض من اللغات الأثيوبية يوجد أثنا عشر صوتا لستة فونيمات مما يسمى بظاهرة الانسيابية، وقد سبق الحديث عنها في سياق التطور الصوتي للصوامت.[٧٩] ورغم وجود ظواهر شبيهة بظاهرة الانسيابية في كثير من اللغات

	الأوجاريتية		العربية	
الفونيمات	/ǵ/	/ẓ/	/ġ/	/ẓ/
الأصوات				
١	[ġ]	[ẓ]	[ġ]	[ẓ]
٢	[ẓ]	[ṯ]		
٣	[ḫ]			

الشكل رقم (٣)

(٧٧) حيث يتحول الصوت المجهور الى مقابلة المهموس مما يعرف بظاهرة Archiphoneme ، انظر: J. Lyonsi *Introduction to Theoretical Linguistics* (Cambridge: Cambridge University Press, 1968), p. 116.

(٧٨) انظر: Gordon, *Ugaritic*, p. 28.

(٧٩) راجع القوانين الصوتية لتغير موضع النطق (ق ٩ ـ ق ١٤).

الحـديثـة[٨٠] وبشكـل مختلف في التغـير الصوتي وظروف حدوثه عما يحدث في اللغات السـاميـة، إلا أن الوضـع في الساميات ـ وغـيرهـا من اللغات التاريخية ـ مختلف في أكثـر من ناحيـة. فمن اللغات السامية ما تعرف الظاهرة ولكن بشكل غير منتظم أو غير كامل[٨١]، ومنها ما يتوقع أنها عرفتها ولكن ذلك لا يظهر في نظامها الفونيمي لعجز النظام الكتـابي عن ذلك.[٨٢] هذا من جهـة ومن أخـرى تبرز مشكلة التحديد الزمني لهذه الظاهرة، ليس في اللغات السامية ككل وإنما في كل لغـة على حدة، لمعـرفـة مدى تحول الصـوت من متغـير إلى آخـر طبقا للشروط المـوجودة ومعرفة وجود الصائت من عدمه، وسقـوط الصـوائت كثـير جداً في اللغـات الساميـة. هذا بالإضافة إلى وجود بعض الصيـغ التـاريخيـة التي تحتفـظ بالمتغـير المحـول إليه، حتى لو سقط الصائت الذي كان مبرر تحول الصوت إلى ذلك المتغير.[٨٣] وفي هذه الأحـوال لايمكن معـرفـة القيمـة الصوتية التي يحملها الصوت إلا إذا حافظ عليـه تقـليـد صوتـي بواسـطة قراءات النصـوص الدينيـة أو وضع بعض الرموز الكتابية الصوتية المساعدة.

ومما يضيف على القضية تعقيدا إضافيا محاولة تصنيف الكلمات المعجمية ضمن الثروة اللفظية للغة من هذه اللغـات، عنـدمـا لا نستطيع معرفة تاريخ الكلمـات وفيما إذا كانت سابقة لوجود الظاهرة أو لاحقـة إن كانت الظاهرة ما زالت إنتاجية، وأحيانا عدم معرفة ما إذا كانت الكلمات قديمة تندرج تحت القوانين أو متأخرة لم تعد تخضع لتلك القوانين، إن كانت الظاهرة قد توقفت إنتاجيتها في اللغة. وغير ذلك من المعوقات فـي الدراسـة التاريخـية كثـير يمكـن الاكتفـاء منـه بهـذا القـدر.

(٨٠) من امثلة ذلك متغيرا im<C> في اللغات الهندواوربية (وهما /k/ ، /s/) ، وكذلك الظاهرة التي تسمى Sandhi في السنسكريتية أصلاً، لكنها تبدو واضحة في الفارسية.

(٨١) راجع التعليق رقم ٣٠.

(٨٢) كما حصل في اللغة الجعزية.

(٨٣) في مثل كلمة dahba في السريانية، إذ تحول الصوت [b] الى متغيره الاحتكاكي مع عدم وجود صائت قبله، غير أنه يعتقد أن الكلمة كانت في فترة من فترات اللغة تضم ثلاثة مقاطع (dahaba) وسقط منهـا صائت المقطع الثاني فأصبحت تتكون من مقطعين، لكن الصوت بقي محافظاً على قيمته في الكلمة ذات الثلاثة مقاطع، انظر:

A. Ungnad, *Syrische Grammatik*, Clavis linguarum semiticarum edidit Hermann L. Strack, Pars VII (München: C. H.Becksche Verlagsbuchandlung Oskar Beck, 1913), p. 23.

العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، ١١٥ ـ ١٢٦ (١٩٩٣م).

روايات مقتل إدريس بن عبد الله العلوي ودور الخلافة العباسية (دراسة نقدية)

للدكتور عبد الله بن علي السويدان

ملخص البحث: لايملك الباحث الناقد، عند قراءة المصادر التاريخية الإسلامية، من الشك في صحة ماورد فيها حول قيام الخلافة العباسية بدور في اغتيال إدريس بن عبد الله العلوي. والروايات التاريخية المنتشرة في تلك المصادر تكاد أن تجزم بذلك الدور بالرغم من أن حادثة الاغتيال نفسها لم تثبت. وقد حاول الباحث في الصفحات التالية أن يسلط الضوء على تلك الروايات وأن يعيدها إلى أصولها وأن يدرس رواتها الأساسيين وميولهم على أن الشك في دور الخلافة العباسية فيما حدث لإدريس ليس منبعه التزكية ولكنه الارتباك والتناقض الذي يحيط باحداث الروايتين وشخصيتهما. لقد أثبتت دراسة أدوار الشخصيات الواردة في الروايتين أن الأحداث الواردة فيهما لا تتفق مع سياق التاريخ الإسلامي في المشرق والمغرب. كما أن دراسة تطور الأحوال داخل الدولة الإدريسية قد يلقي بعض الأضواء على ما يمكن أن يكون قد حدث فعلا لإدريس، إذ تشير إلى دور محتمل لبعض العناصر الداخلية التي استغلت وفاة إدريس لمنافع خاصة مما قد يوحي بوجود مصلحة مبيته لها في غياب إدريس عن ساحة الحكم.

يشكل هذا البحث جزءا من دراسة شاملة لعلاقة الدولة العباسية بالمغرب الإسلامي منذ بداية أمرها حتى سقوط دولة الأغالبة سنة ٢٩٦هـ. ومن الممكن تلخيص سياسة الدولة العباسية تجاه المغرب الإسلامي ـ في أول أمرها ـ بعبارة واحدة هي عدم التدخل؛ فقد قبلت الوضع الذي كان سائدا في أفريقية والمغرب قبيل سقوط الدولة الأموية، ولم تلجأ إلى استخدام القوة لإعادة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ـ الذي نصب نفسه واليا ـ إلى حظيرة الطاعة، حتى بعد أن صرح بخلع الخليفة المنصور.[1] لقد قبل الخليفة ـ في أول الأمر ـ بحد أدنى من ولاء أمراء افريقية، وحتى عندما انقطع الولاء لم يكن رد فعل الدولة مباشراً، ولم ترسل جيشها إلا بعد استيلاء قبيلة ورفجومة الصفرية على القيروان وارتكابها الفظائع بحق السكان، واستنجاد أهل أفريقية بالخلافة.[2]

لقد أملت الظروف المختلفة للدولة العباسية عليها القبول ـ على مضض ـ بقيام كيانات متمردة على سلطان الخليفة في المغرب، وكان من أوائل تلك الكيانات دويلات الخوارج التي بدأت بالانسلاخ عن جسم الدولة في أواخر العهد الأموي ـ إبان مراحل ضعف الخلافة الأموية ـ كدولة ميسرة السقاء وخلفائه. ومنذ قيام الخلافة العباسية نشأت كيانات جديدة للخوارج يقودها زعماء من أمثال عبد الأعلى

(١) الرقيق، ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم، تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق عبد الله الزيدان وعز الدين موسى (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٠هـ)، ص ٩٦.

(٢) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ١٠٢، ١٠٣؛ المالكي، ابوبكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش (بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ ١٩٨٩م)، جـ١، ص ١٦٠.

ابن المسح المعافري وأبي القاسم سمغون وعبد الرحمن بن رستم وغيرهم.

وكان قيام تلك الكيانات سابقا لقيام دولة الأدارسة، وظلت تلك الكيانات ـ رغم عدائها للسلطة المركزية مندمجة في الدولة اقتصاديا وتجاريا.[٣] ثم قام العباسيون بخطوة كبيرة ألا وهي منح الأغالبة في أفريقية استقلالا يكاد أن يكون تاما سنة ١٨٣هـ.

ولعل مما يجعل لهذا الحدث أهمية خاصة لموضوع هذا البحث أن الذي منح الأغالبة ذلك الاستقلال هو هارون الرشيد وهو الذي تزعم الروايات أنه دبر قتل إدريس بن عبد الله.

والسؤال هو: هل كان الغرض من قيام الدولة الأغلبية الوقوف في وجه الأدارسة ؟

في البداية لابد من أن نتناول بالدراسة الزعم القائل بأن إعطاء الأغالبة سلطة شبه مطلقة في أفريقية هي مكافأة لهم على التعاون مع الشماخ في تنفيذ خطته وكذلك لتمكينهم من الوقوف أمام أخطارهم فيما بعد.[٤] لقد غاب عن هؤلاء الرواة أن الأغالبة لم يكن لهم حدود مع دولة الأدارسة على الإطلاق وأن احتمالات افتعال نزاع بينهم غير متوافرة حيث كان يفصل بين ممتلكات الدولتين كيانات ودول أخرى. يضاف إلى ذلك أن إبراهيم بن الأغلب لم يكن معاصرا لإدريس بن عبد الله كما سنبين ذلك في دراستنا لدور إبراهيم في هذه القضية.

من كل ما سبق يتضح أن الدولة الإدريسية قامت في منطقة انحسرت عنها سلطة الدولة منذ أمد طويل[٥]، ولم تحاول على الإطلاق استردادها من أيدي القوى التي استولت على مقاليد الأمور فيها، كما يفصلها عن أراضي الخلافة العباسية مناطق شاسعة، لا يدين أهلها بالتبعية للعباسيين. كما أن مدينة تلمسان، التي تدعى الروايات أن فتح أدريس لها كان السبب وراء تخوف الرشيد منه، لم تكن تابعة للدولة العباسية، مما يسلب رد فعل الرشيد الذي، بنيت على أساسه مؤامرة اغتيال إدريس، من أي مبرر معقول، اللهم إلا في تصورات الرواة من ذوي الميول العلوية المعادية للعباسيين، وذلك ماسوف سيفصل فيما بعد.

وتبدأ أحداث الروية بمكة المكرمة، عندما قام الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن ابن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم بالتمرد على والي الخلفية الهادي في مكة، وجمع جموعه وانضم إليه الكثير من موالي العلويين وأنصارهم، ومن أولئك أبناء عبد الله بن الحسن المثنى، أخو محمد ذو النفس الزكية: منهم إدريس ويحي وسليمان وغيرهم. وقد التقوا مع الجيش العباسي في فخ خارج مكة، وذلك في شهر ذي الحجة يوم التروية سنة ١٦٩هـ. وقد كانت نتيجة المعركة كارثة جديدة للعلويين. فقتل رؤساؤهم، وهرب الباقون واختلطوا بالحجاج.

كان ممن نجا من معركة فخ إدريس ويحيى ابنا عبد الله بن الحسن المذكورين، فاختفيا فترة من الزمن، ثم اتجه يحيى إلى بلاد الديلم في حين اتجه إدريس مع راشد، مولى اخيه عيسى، إلى المغرب، عن طريق مصر، وفي هذه الأثناء تعرض العلويون وأنصارهم إلى حملات التفتيش والمضايقة من جانب السلطة العباسية، التي كانت تبحث عن الناجين من زعماء العلويين، مما اضطر الكثير من هؤلاء واتباعهم إلى الهرب إلى أصقاع الدولة النائية.

وعندما استقر إدريس بن عبد الله في أقصى المغرب توافد عليه أنصاره وأنصار أبيه من مختلف الأنحاء

---

(٣) E. Ashtor, *A Social and economic History of the Near East in the Middle Ages* (London: Collin, 1971), p.71.

(٤) ابن الابار القضاعي، ابو عبد الله محمد البلنسي، **الحلة السيراء**، تحقيق حسين مؤنس، ط ١ (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣)، جـ ١، ص ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٥) لم تتجاوز سلطة والي الدولة العباسية في افريقية منطقة الزاب، انظر: الرقيق، **تاريخ افريقية والمغرب**، ص ١٢٥؛ وكذلك ابن عذاري، احمد بن محمد، **البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب**، تحقيق ج. كولان وإ. ليفي بروفنسال (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٤٨ ـ ١٩٥١م) مصور دار الثقافة، بيروت، ص ٦٤؛ وانظر ايضا الرقيق، **تاريخ افريقية والمغرب**، ص ١٤٠، حول ماذكر من: «موادعة [الوالي العباسي روح بن حاتم المهلبي] عبد الوهاب بن رستم صاحب تيهرت».

ومن هؤلاء سليمان بن جرير الشماخ، ويمكن إرجاع المعلومات الواردة في مصادرنا عن سليمان هذا، وعن مقتل إدريس بن عبد الله إلى روايتين رئيستين هما:

١ ــ رواية أحمد بن الحارث بن عبيد اليماني.[٦]

٢ ــ رواية أبي الحسن علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن أبيه عن علي بن إبراهيم العلوي.[٧]

ومع أن الروايتين تتفقان على بعض النقاط العامة مثل دور سليمان بن جرير، وخط سير إدريس بن عبد الله ومولاه راشد، وما فعله راشد بعد ذلك، إلا أنهما تختلفان في وجوه كثيرة أخرى.

وتتفاوت الروايتان بين الإطناب والاقتضاب عند ورودهما في أعمال المؤرخين المتأخرين. على أن مسؤولية سليمان بن جرير، عن قتل إدريس، تبقى قاسما مشتركا بين جميع المؤرخين تقريبا[٨] على الرغم من أن بعضهم مثل ابن خلدون يوردها بشيء من عدم الاقتناع؛ فهو يضيف كلمة «فيما زعموا» بعد أن ذكر، حادثة دس السم، وبعد ذكر ما زعم من لحاق راشد وحده بسليمان عند هرب الأخير[٩]، كما أن علي ابن إبراهيم العلوي - وهو أساس رواية النوفلي - يختلف مع الأخير في روايته لقتل سليمان بن جرير لإدريس.

من هذا يبرز تساؤل مهم هو: ما هي ميول رواة الروايتين السابقتين؟ إن الترجمات التي توردها المصادر لرواة هاتين الروايتين مقتضبه ولكنها تكفي لإلقاء الضوء على انتمائهما المذهبي وبالتالي تدلنا على دوافع كل منهما في إيراد روايته. فالنوفلي يرجع نسبه إلى الحارث بن عبد المطلب[١٠]، وهو يروي بدوره عن أحد العلويين وهو علي بن إبراهيم العلوي، كما أن اليماني هو أحد رواة الزيدية - كما يبدو - وهؤلاء الرواة كغيرهم من مؤرخي العلويين يحرصون على إضفاء صفة الشهيد على أئمتهم، تدعيما لمطالبتهم بالإمامة، ولأنها تصورهم بمظهر المضطهدين من قبل أعدائهم، والشواهد على ذلك أكثر من أن تعد.[١١]

لقد أورد رواية اليماني - دون النص عليه الاسم - كل من الطبري[١٢] والرقيق[١٣] وابن الآبار[١٤]، والبكري[١٥] في إحدى روايتيه، وابن

(٦) البكري، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** (مأخوذ من كتاب المسالك والممالك ويحوي النص العربي وترجمته بالفرنسية)، تحقيق البارون دي سلان (باريس: ادريان ـ ميزينوف، ١٨٥٧م)، ص ١٢١.

(٧) الاصبهاني، علي بن الحسين محمد بن الهيثم، **مقاتل الطالبيين**، تحقيق السيد احمد صقر (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م)، ص ٤٨٨، ٤٨٩؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ص ص ٥١ ـ ٥٣.

(٨) ابن حيان، ابو مروان حيان بن خلف، **المقتبس**، تحقيق بدرو شالميتا (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة ـ كلية الآداب بالرباط، ١٩٧٩م)، ج ٥، ص ص ٢٦١ ـ ٢٦٢، يتجاهل ابن حيان ـ الذي يميل إلى بني امية ـ حادث الاغتيال تماما، مع ما عرف عنه من اهتمام بدقائق التفاصيل ومع أن الروايات عن الادارسة يرويها في الغالب عن أفراد من البيت الإدريسي. كما أن القلقشندي ذكر أن إدريس مات في وليلي سنة ١٧٥هـ، ولم يذكر شيئا عن ملابسات الوفاة. انظر: القلقشندي، احمد بن عبد الله، **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار فراج (بيروت: دار عالم الكتب، ١٩٦٤م)، جـ١، ص ٢٠٢.

(٩) ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر** (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ)، جـ٤، ص ١٣.

(١٠) الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م)، جـ ٨، ص ٢٠٠.

(١١) الإصبهاني، **مقاتل الطالبيين**، حيث ورد ذلك في مواضع كثيرة كما يوحي عنوان الكتاب. مثال ذلك مازعم من مقتل يحي بن عبد الله الحسني مسموما، انظر ص ٤٨٥؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، جـ ١، ص ٢١١: حيث يجعل موت إدريس الثاني ايضا بالسم. والأمر المثير للعجب ان الاعراض التي وصفها المؤرخون لوفاة إدريس الثاني تشبه إلى حد كبير تلك التي وقعت لإدريس الأول ولعلها ناتجة عن خلل أو مرض وراثي. انظر ابن عذاري، **البيان المغرب**، الموضع السابق، حيث يجعل إدريس غص في حبة عنب، وبقى فمه مفتوحا إلى أن مات، ولم ينبس ببنت شفة وهذا ما حصل بالضبط لإدريس الأول فقد بقي فمه مفتوحا إلى أن مات بعد نهار كامل.

(١٢) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٨، ص ١٩٨، ١٩٩.

(١٣) الرقيق، **تاريخ افريقية والمغرب**، ص ٧٩، ١٨٠.

(١٤) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، جـ ١، ص ٥٣، ولا شك ان ابن الأبار اطلع على رواية النوفيلي أيضا لانه اقتبس منها أخبارا تخص إدريس الثاني وتقسيم الدولة الإدريسية.

(١٥) البكري، **المغرب**، ص ١٢١: حيث جمع البكري بين الروايتين، وروايته أكثر الروايات شمولا.

الأثير[١٦]، وابن خلدون[١٧]، والنويري[١٨] في حين وردت الرواية الثانية وهي رواية النوفلي عند كل من: أبي الفرج الأصبهاني[١٩]، والبكري[٢٠] في روايته الثانية، والحميري[٢١]، وابن الخطيب[٢٢]، وابن أبي زرع[٢٣]، والقلقشندي[٢٤] مع اختلافات في ا لقراءة واختصار تارة وإطناب تارة أخرى. ونظراً لكون رائد هذه الرواية من الشيعة الإمامية فقد حرص على حذف دور (واضح) ذلك الذي وصفته رواية اليماني بالرافضي الخبيث.[٢٥]

وتذكر رواية النوفلي التي يوردها الأصبهاني[٢٦] «أن إدريس بن عبد الله بن الحسن أفلت من وقعه فخ، ومعه مولى يقال له راشد، فخرج به في جملة حاج مصر وأفريقية. وكان إدريس يخدمه ويأتمر بأمره، حتي أقدمه مصر، فنزلها ليلا، فجلس على باب رجل من موالي بني العباس، فسمع كلامهما، وعرف الحجازية فيهما. فقال اظنكما عربيين، قالا: نعم. قال: وحجازيين، قالا: نعم. فقال له راشد: أريد أن ألقي إليك أمرنا على أن تعاهد الله أنك تعطينا خلة من خلتين: إما أن تؤوينا وتؤمنا، وإما تستر علينا أمرنا حتى نخرج من هذا البلد، قال: افعل، فعرفه نفسه وإدريس بن عبد الله، فآواهما وسترهما. وتهيأت قافلة إلى أفريقية فأخرج معها راشد إلى الطريق، وقال له: إن على الطريق مسالح، ومعهم أصحاب اخبار تفتش كل من يجوز الطريق، واخشى أن يعرف، فأنا أمضي به معي على غير الطريق حتى اخرجه عليك بعد مسيرة أيام، وهناك تنقطع المسالح ففعل ذلك، وخرج به عليه، فلما قرب من أفريقية ترك القافلة، ومضى مع راشد حتى دخل بلد البربر في مواضع يقال لها فاس [كذا] وطنجة، فاقام بها، واستجاب له البربر. وبلغ الرشيد خبره فغمه، قال النوفلي: وخالفه علي بن ابراهيم العلوي وغيره فيه - فشكى ذلك الى يحيى بن خالد، فقال: أنا أكفيك أمره، ودعا سليمان بن جرير الجزري، وكان من متكلمي الزيدية البترية، ومن أولى الرئاسة فيهم، فأرغبه ووعده عن الخليفة بكل ما أحب علي أن يقتله، ودفع إليه غالي مسمومة، فحمل ذلك وانصرف من عنده، فأخذ معه صاحبا له، وخرج يتغلغل في البلدان حتى وصل إلى إدريس بن عبد الله فمت إليه بمذهبه، وقال: إن السلطان طلبني لما يعلمه من مذهبي؛ فجئتك، فأنس به واجتباه. وكان ذا لسان وعارضة. وكان يجلس في مجالس البربر فيحتج للزيدية، ويدعو لآل البيت، كما كان يفعل، فحسن موقع ذلك من إدريس إلى أن وجد فرصة لإدريس. فقال له: جعلت فداك. هذه قارورة غالية حملتها إليك من العراق، ليس في هذا البلد من هذا الطيب شيء فقبلها وتغلل بها وشمها وانصرف سليمان إلى صاحبه، وقد أعد فرسين، وخرجا يركضان عليهما، وسقط إدريس مغشيا عليه من شدة السم فلم يعلم من بقربه ما قصته، وبعثوا إلى مولاه راشد فتشاغل به ساعة يعالجه وينظر ما قصته. فأقام إدريس في عشيته هاته نهاره حتى قضى عشيا. وتبين راشد أمر سليمان فخرج في جماعة يطلبه فما لحقه غير راشد، وتقطعت خيل الباقين، فلما لحقه ضربه ضربات منها

(١٦) ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر - دار بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م). جـ٦، ص ٩٣.

(١٧) ابن خلدون، **كتاب العبر**، جـ ٤، ص ١٢.

(١٨) النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، **نهاية الأرب**. تحقيق حسين نصار وأحمد فؤاد الاهواني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، جـ٢٥، ص ص ٦٩ - ٧٠.

(١٩) الإصبهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ٤٨٩.

(٢٠) البكري، **المغرب**، ص ١٢١.

(٢١) الحميري، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٥م)، ص ٦١٠.

(٢٢) ابن الخطيب، **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني واحمد مختار العبادي (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٦٤م)، جـ ٣، ص ٩٢، ١٩٣.

(٢٣) ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله بن احمد، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢م)، ص ص ١٦-٢٤.

(٢٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٥، ص ١٨٠.

(٢٥) الطبري، **تاريخ الرسل**، جـ٨، ص ١٩٨.

(٢٦) الاصبهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ٨٨، ٨٩.

على رأسه ووجهه، وضربة كتعت أصابع يديه، وكان بعد ذلك مكتعا» يضاف إلى أحداث هذه الرواية ما ورد في رواية أحمد بن الحارث اليماني عن دور واضح في حمل إدريس إلى المغرب[٢٧]، ودور إبراهيم بن الأغلب المزعوم في مساعدة الشماخ عند ذهابه إلى إدريس وعند إيابه.[٢٨]

ولعل من المفيد دراسة أدوار الشخصيات الواردة في هذه الروايات، وطرح بعض الأسئلة وصولا إلى إثبات دور الخلافة العباسية في موت إدريس أو نفيه. فعلى سبيل المثال: من المستفيد من موت إدريس؟ وهل كانت هناك مؤامرة لاغتياله أصلا.؟

ادوار بعض الشخصيات الواردة في روايات مصرع إدريس

اولا : راشد مولى عيسى بن عبد الله

من الواضح أن الدولة العباسية كانت تميل إلى عدم التدخل فيما كان يحدث في المغربين الأوسط والأقصى، وأنها سلمت بالأمر الواقع، فصارت المنطقتين منطقتي فراغ سياسي (Political vacuum) ومن هنا يمكن لنا أن نفهم الدوافع التي دفعت راشد لحفز إدريس إلى الذهاب إلى منطقة الفراغ تلك .

ومن المفيد في البداية التعرف على راشد؛ أصله وشخصيته. فراشد بالنسبة لمعظم المصادر مولى إدريس بن عبد الله، والحق إنه مولى عيسى بن عبد الله شقيق إدريس. لكن يمكن اعتباره مولى لإدريس لأن الولاء للرجل هو ولاء لبقية أفراد أسرته. أما أصل راشد فقد نص الحميري على أن أصله من البربر[٢٩]، فهو إذن خبير بالمنطقة التي توجه إليها. وربما كانت لراشد خطة أو مشروع لاستخدام أحد العلويين كواجهة يقيم من خلفها دولة في وطنه المغرب سيما وانه مولى احدهم، وهو عيسى بن عبد الله، ولعله جرب دعوة أفرادا آخرين من أبناء عبد الله بن الحسن قبل أن يعرض الأمر على إدريس بن عبد الله. ولعل أحد أولئك هو سيده عيسى. ويبدو أن أولئك لم يقبلوها فقبلها إدريس (الأصغر) الذي يقول عنه ابن حزم أنه أصغر ابناء أبيه سنا.[٣٠]

وجد راشد المولى في إدريس، الذي كان مطاردا من قبل السلطة العباسية، ضالته المنشودة. لقد كان إدريس بالإضافة إلى مامناه به راشد من التمكين، خائفا من ملاقات المصير الذي صار إليه إخواته الكبار وانصارهم؛ فانقاد لتوجيهات راشد وسار من الحجاز خائفا يترقب. كما أن راشدا قد أدرك أنه لا يستطيع تحقيق طموحاته الشخصية دون إدريس بن عبد الله ونسبه الشريف: فمعرفته للبربر ونظرته الثاقبة ومؤهلاته الأخرى لا تكفي لإقناع البربر بتقديمه لزعامتهم. وعلى أية حال ومهما كانت دوافع الرجلين فقد نتج عن تحالفهما قيام أول دولة علوية في التاريخ، وذلك في سنة ١٧٢هـ. لقد أحدث قيام دولة الأدارسة تحولا جذريا وعميقا في حياة أهل المغرب وفي توجهاتهم السياسية؛ فبالرغم من أن قبيلة أوربة تعتنق مذهب الخوارج[٣١] الذي يرفض تفاضل المسلمين عرقيا، في تولي الإمامة[٣٢]، فإنها أسلست القيادة لإدريس بن عبد الله، سليل بيت النبوة لحاجة في نفوس سراتها.

وهنا يحق لنا أن نتسائل: هل يمكن لراشد الذي أرسى دعائم الدولة الإدريسية أن يتنازل عن مركز الصدارة لأي شخص كائنا من كان، وهل يقبل

(٢٧) البكري، **المغرب**، ص ١٢١؛ ابن الأبار، **الحلة**، جـ١، ص ٥٢. وقد ذكر ابن الأبار الرواية دون أن ينسبها لليماني.

(٢٨) الرقيق، **تاريخ افريقية والمغرب**، ص ٧٩، ٨٠ حيث يذكر أن: إبراهيم وصل إلى الزاب، وعلى إفريقية الفضل بن روح (١٧٦هـ - ١٧٨هـ)، فلقي من تعصبه وسوء مجاورته عظيما؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ٦، ص ١٣٩. ولعل ابراهيم وصل إفريقية قبل ذلك لان ابنه زيادة الله ولد سنة ١٧٢هـ بافريقية فيكون وصول ابراهيم اليها قبل ذلك.

(٢٩) الحميري، **الروض**، ص ٦٠٩.

(٣٠) ابن حزم القرطبي، ابو محمدعلي، **جمهرة انساب العرب**، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢م)، ص ٤٥.

(٣١) قبيلة أوربه هي قبيلة كسيلة البرانسي الأوربي الذي قتل كل من عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار في منطقة تهودة، عن هذه القبيلة راجع ابن خلدون، **كتاب العبر**، جـ ٧، ص ص ٧ ـ ٩.

(٣٢) ابن الخطيب، **تاريخ المغرب**، جـ ٣، ص ١٩١.

بمصير كمصير أبي سلمة الخلال أو أبي مسلم الخرساني ؟ يبدو أن راشدا قد أحس بميل إدريس ابن عبد الله نحو أولئك العرب الذين نزحوا اليه من المشرق وافريقية والأندلس إذ كان يأنس اليهم كما كان يضيق أيضا ـ خاصة في بداية أمره ـ بأفراد بلاطه من البربر الذين كان يشعر بينهم بالغربة. وذلك حسب ما يرويه ابن ابى زرع وابن الخطيب. «لجهل أهل المغرب في ذلك الوقت وجفاء طباعهم آنذاك».[٣٣]

وليس من المستبعد أن ينفس راشد على بعض هؤلاء مكانتهم عند الإمام وأن يوجس منهم خيفة على مركزه ومكانته في دولة إدريس. وكان على رأس هؤلاء سليمان الشماخ الذي صار موضع ثقة لدى الإمام حتى إنه لا يحجب عنه. وكان الشماخ يقول: «إنما جئت بنفس وحملتها على ما حملتها لمذهبي فيكم أهل البيت، فجئتك لا من حاجة إليك إلا لأنصرك بنفسي»[٣٤] كل هذا ـ على ما يبدو ـ سبب عدم ارتياح راشد لوجود الشماخ في بلاط سيده وجعله يشعر بالضيق من نفوذه المتزايد وتأثيره الكبير على إدريس. ومن غير المتسبعد أنه كان في قرارة نفسه يتمنى التخلص منه، خاصة بعد أن تعلق الإمام به، «أنس به واطمأن إليه».[٣٥]

ثانيا: واضح المسكين

تركز رواية الحارث بن عبيد اليماني على على دور واضح مولى صالح بن الخليفة المنصور في نقل إدريس ومولاه راشد إلى المغرب وتربط بين هذه المساعدة وبين قتل واضح وصلبه من قبل الخليفة هارون الرشيد الذي خلف أخاه موسى الهادي، وكذلك بين المنصب الذي كان يشغله واضح هذا والمكافأة التي أعطيت للشماخ بعد تنفيذه لمهمته المزعومة وهي بريد مصر.[٣٦] على أن كتب الإدارة المصرية لا تذكر تولي واضح للبريد بل تورده والي مصر سنة ١٦٢هـ. ولا نتصور أن واضح الذي هو من أكثر موالي بني العباس إخلاصاً وأكثرهم نفوذا في الإدارة العباسية يقبل بتولي ديوان بريد مصر بعد أن كان واليا لمصر بأسرها.

يضاف إلى ذلك أن ابن تغري بردي يورد سببا آخر لقتل واضح غير ماذكره اليماني وهو أنه أيد خلع الرشيد من ولاية العهد وتأخر عن بيعة الخليفة الجديد بعد وفاة موسى الهادي[٣٧]، علاوة على أن كتب الإدارة المصرية[٣٨] لا تورد ذكراً لتولي الشماخ ديوان البريد. أما روايات كل من الاصبهاني وابن ابي زرع والحميري وابن عذاري فلم تذكر «واضح» واكتفى بعضها بإطلاق اسم «صاحب الدار»[٣٩] أو نعته

(٣٣) ابن ابي زرع، **الأنيس**، ص ٢٢؛ ابن الخطيب، **تاريخ المغرب**، جـ ٣، ص ١٩٣.

(٣٤) الحميري، **الروض**، ص ٦١٠

(٣٥) الطبري، **تاريخ الرسل**، جـ ٨، ص ١٩٩؛ الإصبهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ٤٨٩: «فأنس به واجتباه»؛ النويري، **نهاية الأرب**، جـ٢٥، ص ٧٠: «فمال إليه إدريس وانزله عنده».

(٣٦) كان الوالي على مصر في سنة ١٦٩هـ علي بن سليمان العباسي، وهو الذي سهل مغادرة إدريس مصر وقد عزل بسببها، انظر: الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف، **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، تحقيق روفن كست (القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت)، ص ١٣١. وإذا كان الوالي العباسي الذي تتفق معظم المصادر الرئيسة ـ ومنها الكندي ـ على دوره في تسهيل مرور إدريس بل وفي تأمين وصوله إلى بغيته قد كان جزاءه العزل فقط فكيف نبرر قتل الخليفة وصلبه لواضح الذي يشغل منصبا أقل بكثير من منصب الوالي. أما بالنسبة لتولي الشماخ بريد مصر فهذا لم يرد في أي من كتب الإدراة المصرية وهو محض اختلاق ولاكمال حبكة المؤامرة المزعومة.

(٣٧) الكندي ، **كتاب الولاة**، ص ١٢١.

(٣٨) ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦م)، جـ ١، ص ٤١، ٤٢. ويمكننا أن نستنتج من رواية ابن تغري بردي أن واضحا قتل مباشرة بعد تولية الرشيد التي اعقبت وقعة فخ مباشرة بحيث انه عندما قتل لم يكن خطر إدريس بن عبد الله قائما إذ انه لا يعدو أن يكون واحدا من الهاربين الناجين بجريمة ذقونهم من تتبع السلطة العباسية. ثم من اين للدولة العباسية ان تعرف أن إدريس، بعد سنتين من هربه، سينادى به إماما في وليلي.

(٣٩) راجع كل من الكندي، **كتاب الولاة**، ص ١٢١: الذي اورد فقط ولاية واضح لمصر سنة ١٦٢هـ فحسب؛ ابن تغري بردي (١:٤١) الذي اورد ولاية واضح للبريد ومقتله ولم يشر من قريب ولا من بعيد إلى تولي الشماخ التميمي البريد، بل جعل قتل واضح بسبب خلاف مع الرشيد حيث أيد خلع الرشيد من ولاية العهد عندما هم الهادي بذلك.

بأحد موالي بني العباس ولم تشر إلى أنه حمل إدريس وصاحبه على دواب البريد بل تشير إلى ان «صاحب الدار» سير راشد في قافلة مسافرين «رفقة» وذهب هو وإدريس من طريق غامض لا تسلكه الرفاق، وواعده برقه. وتجعل بعض المصادر والي مصر هو الذي ساعدهم على الهرب الى المغرب، ويذكر القلقشندي[٤٠] ذلك الشخص بالاسم، وأنه علي بن سليمان الهاشمي الذي ستر عليهما وطلب منهما مغادرة ولايته. أما الكندي فيشير إلى مساعدة والي مصر لهما وأنه علي بن سليمان العباسي.[٤١]

ثالثا: يحيى بن خالد البرمكي

يقول الإصباهني[٤٢]: «فشكا ذلك [استجابة البربر لإدريس] إلى يحي بن خالد، فقال: «أنا أكفيك أمره.. ودعا سليمان بن جرير الجزري، وكان من متكلمي الزيدية البتريه، ومن أولى الرئاسة فيهم، فأرغبه ووعده علي الخلفية بكل ما أحب علي أن يحتال لإدريس» ..الخ.

كما تؤكد مصادر أخرى[٤٣] على دور يحى بن خالد: «وأنه أغرى سليمان بالمال وأنه وعده عن نفسه وعن الخليفة الرشيد بمواعيد عظيمة.

والحق أن دور البرامكة في الإدارة العباسية أيام الرشيد كان عظيما، فالبرامكة آنذاك كانوا يحيطون بالرشيد وبأيديهم سلطات غير محدودة، لقد كانوا وزراء تفويض ومستشارين للخليفة، ولابد عند الكتابة عن عصر الرشيد أو أحداث التاريخ العباسي آنذاك من إعطائهم دورا يتناسب مع مكانتهم في تلك الدولة حتى لو كانت بعض تلك الأحداث مختلقة. لقد غاب عن أذهان أولئك المؤلفين أن البرامكة كانوا من شيعة آل البيت وأنهم متعاطفون مع العلويين، حتى عد تعاطفهم مع العلويين من أهم أسباب نكبتهم المشهورة. إذ يجعل بعض المؤرخين إطلاق سراح يحى بن عبد الله شقيق إدريس السبب المباشر لتلك النكبة[٤٤] فكيف يمكن للمرء إذن يمكننا أن يتصور والد الفضل ـ يحى بن خالد ـ يرسل شخصا ليقوم باغتيال أحد أئمة العلويين إلا إذا كان بإرساله رجل من بطانته يحول دون قيام الخليفة بإرسال جيش إلى المغرب، وفي نفس الوقت ثقة منه بأن الشماخ لا يمكن أن يقدم على اغتيال إمامه، لأن إدريس يعد أحد أهم أئمة الزيدية في حين أن سليمان يعد من أكبر فقهائها ومتكلميها وينسب إليه فرقة السليمانية التي تمثل إحدى فرق الزيدية الاثنتين.[٤٥]

رابعا: إبراهيم بن الأغلب [والي إفريقية]

من أهم المطاعن التي تؤخذ على هاتين الروايتين اللتين نحن بصدد بحثهما إقحامهما إبراهيم بن الأغلب في عملية اغتيال إدريس بن عبد الله. فتذكر الروايتان أن الشماخ قصد إبراهيم الأغلب في بداية مهمته عند وصوله الى إفريقية وعند عودته من المغرب بعد اغتياله لإدريس.[٤٦]

ومن المرجح أن إبراهيم بن الأغلب لم يصل إلى إفريقية حتى سنة ١٧٢هـ[٤٧] قبل ولاية الفضل بن روح بن حاتم وليس بعد توليه الإمارة كما يذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم الرقيق القيرواني[٤٨]، ولم يل الزاب إلا بعد وقت طويل من حضوره في حين أن جمهور المؤرخين يكادون أن يجمعوا على أن إدريس

---

(٤٠) الإصبهاني، **مقاتل**، ص ٤٨٨؛ ابن ابي زرع، **الأنيس**، ص ١٧؛ الحميري، **الروض**، ص ٦٠٩؛ ابن عذاري، **البيان**، جـ ١، ص ٢١٠.

(٤١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ ٥، ص ١٨٠.

(٤٢) الكندي، **كتاب الولاة**، ص ١٣١.

(٤٣) الإصبهاني، **مقاتل**، ص ٤٨٩.

(٤٤) البكري، المغرب، ص ١٢٠؛ ابن ابي زرع، **الأنيس**، ص ٢١؛ ابن الخطيب، **تاريخ المغرب**، جـ ٣، ص ١٩٣؛ الحميري، **الروض**، ص ٦١٠؛ النويري، **نهاية الأرب**، جـ ٢٢، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٤٥) الشهرستاني، ابو الفتح محمد عبد الكريم، **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز الوكيل (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د.ت.)، ص ١٥٩.

(٤٦) ابن الرقيق، **تاريخ**، ص ١٧٩، ١٨٠؛ ابن الأبار، **الحلة**، جـ١، ص ٥٢.

(٤٧) محمد الطالبي، ***الدولة الأغلبية***، ترجمة المنجي الصيادي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧م)، ص ٤٠٥.

(٤٨) الرقيق، **تاريخ**، ص ٧٩، ٨٠؛ وانظر الهامش رقم ٢٨ اعلاه. ومن المعلوم لدينا أن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ولد في إفريقية سنة ١٧٣هـ اي خلال حكم روح بن حاتم المهلبي.

مات في سنة ١٧٥هـ.[٤٩] وقد وقع في هذا الخلط شيخ المؤرخين المغاربة ورائد التاريخ الإقليمي أبو إسحاق إبراهيم الرقيق[٥٠]. وهذا ما يرجح أن الأشعار الواردة في تاريخ الرقيق وحلة ابن الأبار عن إبراهيم ابن الأغلب وعلاقته بإدريس منحولة.[٥١]

وقد حاول محمد الطالبي[٥٢] معالجة علاقة إبراهيم بن الأغلب بمصرع إدريس، وعندما اكتشف التضارب في التواريخ واستحالة أن يكون لإبراهيم بن الأغلب [والي الزاب منذ أواخر ١٧٨هـ] دور في تلك الأحداث - لأنه لم يتول أي منصب رسمي عند وقوعها، سواء أكان التاريخ الذي نعتمده لموت إدريس ١٧٥هـ أم ١٧٧هـ، وهذا ما يثبته الطالبي نفسه[٥٣]، عندها قرر أن يجرب بعداً آخر في دراسة هذا الأمر الا وهو محاولة إثبات تأخر مصرع إدريس حتى سنة ١٧٩هـ.

وبعد أن ذكر أن الإجماع التاريخي النقدي الحديث الذي يحدد موت إدريس - في أول ربيع سنة ١٧٧هـ - أورد الرواية الثانية التي تجعله في سنة ١٧٥هـ، وحاول أن ينفذ من باب الاختلاف كما ذكر صراحة.

كما أن تحديده سنة ١٧٩هـ كتاريخ لوفاة إدريس ليس اعتباطا، فقد حاول أن يقتفي أثر ليفي بروفنسال[٥٤] كما صرح بذلك[٥٥] في استغلال الالتباس الذي يحدث من جراء كتابة رقمي تسعة وسبعة لعله بذل يدخل مصرع إدريس داخل الفترة التي حكم فيها إبراهيم بن الأغلب الزاب التي ولاه إياها هرثمة بن أعين - الوالي الجديد لإفريقية - خلفا للعلاء بن سعيد المهلبي الذي قفل مع أنصاره وخاصته إلى المشرق.[٥٦]

ولعل في ذلك كثير من التعسف في تسخير النقوش الكتابية فليفي بروفنسال لم يكن مرتكزه الوحيد، في دراسته لتأسيس مدينة فاس، الالتباس النسخي بل روايات كل من الرازي وابن القاضي والجزنائي، وقد استخدم الأدلة الكتابية في نقوش المسكوكات للمساندة وحسب.[٥٧]

أما تفنيد الطالبي لرأي ج. إس. كولن[٥٨] في إمكانية استمرار الضرب باسم إدريس الأول بعد موته والقول بأن ذلك غير محتمل فهو أيضا غير دقيق. يقول الطالبي: «لأنه لا يفهم حقا لماذا تواصل ضرب السكة باسم الميت مدة عامين بالضبط.»[٥٩] والراجح أن نظرة الطالبي في هذا المضمار لا تصح ولا تثبت لأن استمرار سك النقود باسم إدريس الأول حتى سنة ١٨٠هـ أو حتى بعدها أمر منطقي وطبيعي لأن منصب الإمام بقى شاغرا مدة وصاية راشد ولا يتوقع أن يضرب راشد النقود باسمه ولا باسم إدريس الثاني الذي لم يكن قد بويع بعد إماما، بل مازال طفلا صغيراً قاصراً. ولهذا فرأي كولن أقرب إلى الحقيقة، فالأحرى أن تستمر الأمور باسم إدريس لأن ذكراه عزيزة على أهل المغرب، وهذا - يمكن أن يُعَدْ - ضَرباً من محاولة إثبات الولاء للإمام المتوفي ولعقبه، أو ربما أراد به راشد أن يثبت حسن نيته تجاه البيت الحسني. ومما يدل على استمرارية تعلق

---

(٤٩) انظر كل من: البكري، **المغرب**، ص ١٢٢؛ ابن الأبار، **الحلة**، جـ ١، ص ١٠٠؛ ابن عذاري، **البيان**، جـ ١، ص ٢١٠؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ ٥، ص ١٨٠؛ ابن خلدون، يحيى، **بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات (الجزائر: المكتبة الوطنية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، جـ ١، ص ١٦٦؛ ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر**، جـ ٥، ص ١٨٠.

(٥٠) الرقيق، **تاريخ**، ص ١٦٧.

(٥١) ابن الأبار، **الحلة**، جـ ١، ص ١٠٠.

(٥٢) الطالبي، **الدولة الأغلبية**، ص ٥٠٤ وما بعدها.

(٥٣) الطالبي، **الدولة الأغلبية**، ص ص ١٠٧ - ١١٨.

(٥٤) إ. ليفي بروفنسال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، تحقيق محمود سالم ومحمد صلاح حلمي، (الإسكندرية: دار شباب الجامعة، ١٩٩٠م)، ص ٢٩.

(٥٥) الطالبي، **الدولة الأغلبية**، ص ٤٠٥.

(٥٦) الرقيق، **تاريخ**، ص ١٦٧.

(٥٧) ليفي بروفنسال، **الإسلام في المغرب**، ص ٢٩.

(٥٨) G.S. Colin, "Monaise de la periode indrisite trouvees a Volubilis, dans *Hes peris*, XXII (1936), 113- 127.

(٥٩) الطالبي، **الدولة**، الهامش رقم ٤٠٦.

أهل المغرب بإدريس أنه عندما ولد إدريس الثاني قال مشائخ البربر: «هذا إدريس بعينه كانه لم يمت.»(٦٠) والخلاصة إن علاقة إبراهيم بن الأغلب بمؤامرة الشماخ المزعومة لا تستند إلى أي أسس تاريخية.

خامسا: الخليفة الرشيد

يشير ابن أبي زرع إلى رد فعل الرشيد علي أنباء انتصارات إدريس بن عبد الله في حروبه في المغرب فيقول: «اتصل بالرشيد أن إدريس قد استقام له الأمر في المغرب وبايعه من به من القبائل، وأنه فتح تلمسان وبنى مسجدها، وأخبر بحروبه وحاله وكثرة جنوده، وشدته في الحرب، وانه عزم على فتح إفريقية. قال الرشيد: «إنه من ولد علي بن ابي طالب وأمه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قوي سلطانه وكثرت جيوشه وعلا شأنه، وأشتهر اسمه، وفتح تلمسان وهي باب إفريقية، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار، وقد عزمت على أن أبعث له جيشا».(٦١) وبناء على هذا الحديث الذي وجهه الرشيد إلى وزيره يحى بن خالد البرمكي أشار عليه الأخير بما يجب عليه فعله. لماذا أزعج فتح إدريس لتلمسان هارون الرشيد مع انها تقع خارج دائرة سلطانه آنذاك ؟! لقد خرجت تلك المناطق عن سيطرة الخلافة سنة ١٥٥هـ، ليس تلمسان فحسب بل جميع المناطق التي تلي منطقة الزاب غربا، ولم تكن دولة الأدارسة هي الدولة الوحيدة التي برزت في المغرب. كما أن الخليفة يستنكر قيام الكيانات الأخرى بمثل ما تزعم الروايات أنه استنكر به قيام الدولة الإدريسية.

ثم أن رد فعل الدولة العباسية تجاه قيام الدولة الأموية بالأندلس لم يتخذ شكلا عنيفا، ولم يذكر أنها لجأت إلى سلاح التصفية الجسدية والاغتيال بل أرسلت واليا من قبلها رجاء أن يتهيأ له قلب الأمور، واستمالة الناس لبني العباس، لكنه فشل ودفع حياته ثمنا لمغامرته.

ومما يدل على رفض الرشيد لمبدأ التصفية الجسدية للطالبيين ما أورده النويري حول يحيى بن عبد الله شقيق إدريس الذي كان في سجن جعفر البرمكي، وأطلقه جعفر وادعى أنه مات. يقول النويري: «وكان جعفر يرى سرور الرشيد بموت من يموت في حبسه من هؤلاء... فقال: يا أمير المؤمنين إن يحيى قد مات، فسر بذلك وقال: الحمد لله الذي كفاني أمره ولم يؤثمني فيه».(٦٢) ولعل ذلك كان لسان حاله عندما عرف بموت إدريس بن عبد الله.

سادسا: سليمان بن جرير الشماخ

هذه صيغة الاسم الأكثر ترددا في المصادر والتي تورد كذلك صيغ أخرى يختلف رسم بعضها عن البعض الآخر اختلافا كبيرا خاصة فيما يتعلق بنسبته الجغرافية والقبلية. فاسمه لسليمان لدى جميع المصادر، غير أن اختلافا بسيطا ينشأ عند قراءة نسبه، فهو تارة ابن جرير وأخرى ابن حرير وثالثة ابن حرين، وهو تصحيف واضح، وكلها قراءات متقاربة.(٦٣) أما نسبته فالتصحيف فيها أكثر تعقيدا، فهو مرة التمامي وأخرى الشماسي وثالثة المشماسي(٦٤) وهو الجزري واليمامي. أما انتماؤه القبلي فهو تارة لتميم، وأخرى لربيعة وثالثة لبجيلة(٦٥)، ورابعة لبني العباس بالولاء.(٦٦)

كان سليمان بن جرير رئيس إحدي فرق الزيدية وتسمى هذه الفرقة «السليمانية» نسبة له(٦٧)، ويقول الحميري(٦٨): «كان متعصبا لآل أبي طالب»، ويذكر البكري(٦٩): ان سليمان الشماخ هذا كان من متكلمهم وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم حين ناظره في الإمامة. ويقول أيضا: «وكان إدريس عالما بسليمان ومكانته في الزيدية». وإذا علمنا

(٦٠) ابن ابي زرع، **الأنيس**، ص ٢٥.
(٦١) ابن ابي زرع، **الأنيس**، ص ٢١.
(٦٢) النويري، **نهاية الأرب**، جـ ٢٢، ص ١٢٧، ١٢٨.
(٦٣) ابن الأبار، **الحلة**، جـ ١، ص ٥٢.
(٦٤) الإصبهاني، **مقاتل**، ص ٤٩٠.
(٦٥) على الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس** (الرباط: المطبعة الملكية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ص ١٤.
(٦٦) ابن الأبار، **الحلة**، جـ ١، ص ٥٢.
(٦٧) ابن الأبار، **الحلة**، ص ١٢.
(٦٨) الحميري، **الروض**، ص ٦١٠.
(٦٩) البكري، **المغرب**، ص ١٢٠.

أن إدريس هو أحد كبار الأئمة الزيدية فكيف يمكن لنا أن نتصور أن يقوم الشماخ ذلك الفقيه والمتكلم الزيدي وأحد أقطاب المذهب باغتيال إمامه. لا شك أن إنسانا بهذه الصفات سيكون مطاردا من قبل السلطة العباسية. وقد روي عن الشماخ قوله: «إن السلطان طلبني لما يعلمه من مذهبي»[٧٠]

وبعد كل ما سلف هل يمكن أن نسلم بصحة ما دار بين الرشيد ووزيره البرمكي من اتفاق؟ وهل يمكن التسليم بدور سليمان بن جرير ـ في قتل إدريس ـ؟ إذا كان قد مات مقتولا ـ والسؤال الذي يلح في طرحي نفسه هو: من المستفيد الرئيس من موت إدريس ؟

هل هو الخلافة العباسية التي لم تستثمر الحادث ولم تتدخل في الأمر؟ أم هو راشد الذي لم يدع الفرصة تفوته ونصب نفسه وصيا على ملك إدريس؟

لقد بدا راشد وكأنه قد أعد للأمر عدته. فالأعمال التي قام بها كلها تشير بأصابع الاتهام إلى ضلوعه أو عمله بما كان يحاك للإمام، هذا إذا لم يكن هو الذي خطط للأمر وهذه الأعمال هي:

١ ـ قد يكون المقصود من غيبة راشد عن وليلى إبعاد التهمة عن نفسه.
٢ ـ الإشارة إلى أن إدريس قد دس له السم، مع أن الوسط الذي دس فيه السم بقي موضع خلاف بين المؤرخين.
٣ ـ الإشارة باصبع الاتهام إلى سليمان بن جرير الذي كان غافلا على مايبدو ـ عن ما يحاك ضده.
٤ ـ إن إدريس بعد إصابته لم ينبس ببنت شفة ولم يعلم أحد ما حدث له بالضبط.
٥ ـ ما تدعيه الروايات من أن راشداً وحده استطاع اللحاق بسليمان واثخانه بالجراح في حين عجز عن اللحاق به بقية المتعقبين.

إذن فلا يمكن الجزم بالوسط الذي تدعي الروايات أن إدريس سم فيه ولا بالشخص الذي دس له السم، إن كان قد مات مسموما. يقول ابن الأبار[٧١] «واختلف فيمن سم إدريس وما سم فيه،» فهو عند أبي الفرج[٧٢] سم في سنون وفي رواية أخرى في سمكة مشوية، ويورد ابن الأبار[٧٣] ما ذكره أبو الفرج ويضيف إليه رواية أخرى تقول أنه سم في طيب أو بطيخة، ويورد ابن الخطيب[٧٤] أيضا الطيب والدلاع وهو البطيخ، وعند الحميري[٧٥] أنه سم في قارورة عطر أو تفاحة. أما البكري[٧٦] والرقيق[٧٧] فيجعلانه سم في سنون إلا أن البكري يضيف احتمال آخر وهو الدلاع.

ويتبين من القائمة السابقة للأشياء التي زعم أنه سم فيها ضعف الروايات بل وتهالكها عند وضعها على محك المنهج العلمي للبحث، ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن الأبار[٧٨]: «واختلف فيمن سمه» وتشكيك ابن خلدون[٧٩] عندما قال: «فيما زعموا» ورددها مرتين في سطرين متواليين. ثم هل يحتاج سليمان بن جرير وهو الطبيب النطاسي والمتكلم الزيدي المفوه إلى سنتين كاملتين لتنفيذ عملية الاغتيال، لقد كان لراشد بلا شك دور كبير في اتهام الشماخ بل أن معظم الدلائل تؤيد كون رواية الاغتيال من وضع راشد وتبناها مؤرخو الشيعة ـ من بعده ـ وروجوا لها.

على أن هذا ليس نقلا للاتهام من الشماخ إلى راشد. وليس من مهام هذا البحث إثبات مقتل إدريس ولعل إدريس لم يمت غيلة. والأمر المؤكد هو أن راشداً إستثمر موت إدريس سواء أكان ذلك بتخطيط مسبق أم لم يكن، وسواء شمل ذلك التخطيط قتل إدريس أم لم يشمله.

ومما يدل على ضعف الرواية أيضا ما ذكر من أن

(٧٠) الحميري، **الروض**، ص ٦١٠.
(٧١) ابن الأبار، **الحلة**، جـ ١، ص ٥٢.
(٧٢) الإصبهاني، **مقاتل**، ص ٤٩٠.
(٧٣) ابن الأبار، **الحلة**، جـ ١، ص ٥٠، ٥٣.
(٧٤) ابن الخطيب، **تاريخ المغرب**، جـ ٣، ص ١٩٤.
(٧٥) الحميري، **الروض**، ص ٦١٠.
(٧٦) البكري، **المغرب**، ص ١٢٠.
(٧٧) الرقيق، **تاريخ**، ص ١٨٠.
(٧٨) ابن الأبار، **الحلة**، جـ ١، ص ٥٢.
(٧٩) ابن خلدون، **العبر**، جـ ٤، ص ١٣.

راشداً تعقب سليمان بن جرير مما يدل على أن الزعم بأنه هرب من ساعته غير صحيح وأنه يحتمل أنه هرب بعد مرض إدريس عندما تعالت صيحات راشد وأعوانه الذين تعقبوه بعد هربه. كما أن ادعاء راشد أنه لحق بالشماخ وحده ـ دون بقية المتعقبين ـ يؤيد ما ذهبنا اليه من غفلة الشماخ وفي الوقت نفسه يدل على أن راشد حاول أن يظهر بمظهر المتأثر بموت إدريس. ولعل دعوى راشد لا تصدق خاصة إذا أخذنا برواية الحميري[٨٠] التي يمكن أن نستنتج منها أن راشدا لم يكن مهتما بالقبض على الشماخ بل أراد أن يستفزه ليهرب فيتخلص منه بعد أن الصق به تهمة قتل الإمام. يقول الحميري[٨١] : «وتشاغل راشد في معالجة إدريس». ولعله كان يريد أن يتأكد من مصير إدريس قبل أن يقوم بأي إجراء ضد الشماخ. أما الرقيق[٨٢] فيقول: «فهرب الشماخ من تحت ليلته». ويقول الحميري[٨٣]: «فقطع سليمان بلادا في تلك المدة». كل هذه الإشارات تجعل لحاق راشد بالشماخ مستحيلا.

أما ادعاء راشد أنه لحق بالشماخ وحده دون سواه من الفرسان، وأنه اثخنه بالجراح، لكنه لم يستطع قتله، فذلك مستبعد لان راشد لديه من الفرسان من يكفونه المؤونة، كما أنه من المستبعد أن يخاطر راشد بحياته على هذا النحو وراء شخص يبدو في وضع يائس كما تصور هذه الرواية الشماخ، ولعل هذه القصة قصد منها تعزيز مكانة راشد ـ الذي صار الحاكم الفعلي لدولة الأدارسة ـ بين أنصار إدريس تمهيدا للدور الذي كان رسمه لنفسه في تلك المرحلة. وهنا يبرز سؤال مهم وهو: هل قبل الشماخ المسؤولية عن قتل إدريس؟ ولِمَ سكت ولمْ ينف التهمة عن نفسه ؟

والإجابة على هذين السؤلين هي أنه لم يثبت أن الشماخ قبل التهم، ولعل الأخبار وصلت بها من المغرب فلم ينفها تقية، ولو نفاها لعرض نفسه ثانية لسخط العباسيين الذين كانوا يطاردونه قبل لجوئه إلى المغرب، على أن الإنكار في الوقت نفسه لن يعيد إدريس إلى الحياة، ولن يمكنه من إقناع أهل المغرب ـ الذين حال راشد بينه وبينهم ـ بما حدث فعلا. ولعل الشيعة الزيدية استمروا في اعتبار الشماخ أحد فقهائهم الكبار برغم ما اتهم به؛ إذ لم يذكر شيء عن إنكار الزيدية في المشرق لفعلته المزعومة، ولعل ما اتهم به يكاد يكون ـ في نظرهم ـ ضربا من الخيال. وربما تكون الروايات في هذا الأمر قد نسجت في وقت متأخر.

كان راشد هو المستفيد الحقيقي من موت إدريس واستغله إلى أقصى الحدود، فقد نصب نفسه وصيا على حمل منتظر، بالرغم من وجود أفراد من الأسرة الحسنية في المغرب. بل إن شقيق إدريس: سليمان بن عبد الله بن الحسن كان في المغرب آنذاك كما تؤكد الرواية[٨٤]، ويبدو أن راشداً عمد إلى إقصاء أقرباء إدريس بعد وفاته لينفرد بالسلطة.

والأمر الذي يجدر بنا أن نتنبه إليه هو أن الشماخ ليس المتهم الوحيد في اغتيال إدريس فقد ذكر ابن حبيب[٨٥] أن الذي أمر بدس السم لإدريس هو والي إفريقية هرثمة بن أعين الهاشمي، وهذه الرواية تحذف معظم الشخصيات التي أوردنا آنفا. كما روى ابن حبيب أن هرثمة بعث رجلا من المدينة ووعده بجائزة تقدر بمائة ألف درهم إن تمكن من اغتيال إدريس. وقيل إن ذلك الرجل سم إدريس بسمكة ثم فر إلى إفريقية[٨٦]، وهذه الرواية تبين كم هي واهية تلك الدعاوي والمزاعم التي أطلقها أولئك المؤرخون عن دور الخلافة، وعن دور الشماخ في موت إدريس بن عبد الله العلوي. ثم إن ما قيل عن دور إبراهيم ينطبق على مازعم من دور لهرثمة بن أعين الذي حضر إلى إفريقية بعد مقتل الفضل بن روح المهلبي أي بعد سنة ١٧٨هـ.

---

(٨٠) الحميري، **الروض**، ٦١٠.

(٨١) الحميري، **الروض**، ص ٦١٠.

(٨٢) الرقيق، **تاريخ**، ص ١٨٠.

(٨٣) الحميري، **الروض**، ص ٦١٠.

(٨٤) ابن عذاري، **البيان**، جـ ١، ص ١١٠.

(٨٥) محمد ابن حبيب، **كتاب المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام**، تحقيق عبد السلام هارون ضمن مجموعة في سلسلة **نوادر المخطوطات** (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، جـ ٢، ص ١٩٧.

(٨٦) ابن حبيب، **كتاب المغتالين**، جـ ٢، ص ١٩٧.

كان المبـرر الذي قدمـه راشـد لتمسكه بالحكم مبررا واهيا، وهو انتظار نتيجة حمل إحدى جواري إدريس؛ مما يدل على رغبة راشد المبيتة في الاستئثار بالحكم، وحتى يعـطي ذلك غطاءً شرعيـا قام بعقد مجلس من مشـائـخ القبـائـل البربرية ـ على غرار مجـالس الكيـانـات البربرية في العصر الروماني ـ واقترح عليهم أن ينصبوه قائما بالأمر.(٨٧) مع علمه الأكيـد أن أمـور الإمـامة عند آل البيت وشيعتهم ليست منوطة بالعامة كما يقول الشهرستاني.(٨٨)

لقـد كان من الواضـح وجـود خلاف بين راشد واتباعه من جهة وآل إدريس والطبقة الجديدة التي وفدت على إدريس من أفريقية والأندلس والأصقاع الإسـلامية الأخرى، التي كان ينتمي لها الشماخ، من جهـة أخـرى. وعـلى أيـة حال فلم يفوت راشد الفرصة، فأخذ البيعة من مشائخ البربر علي الولاء له فضمن بذلك بقاء السلطة في يده إلى أجل غير مسمى. ولعل الأمر لا يكون مختلفا لو لم تنجب جارية إدريس مولدا ذكرا.(٨٩)

إن النـظرة الفـاحصـة المتأنية في الأمر توضح بجـلاء عدم التـوافق بين أحداث الروايتين وسياق التـاريـخ العام للغرب الإسلامي، وذلك واضح من إقحام إبراهيم بن الأغلب في أحداث لم يكن قد تولي أي منصب في أفـريقية عند وقوعها، إضافة إلى أن منـطقـة الزاب صارت حدا فاصـلا لسلطة الدولة العبـاسيـة منـذ منتصف القرن الثاني، فلا يمكن للعباسيين ادعاء تبعية المغرب الأوسط والأقصى لهم. كما إن مكانة الشماخ المميزة عند الزيدية تجعل من المستبعد أن يقدم على اغتيال إمامه.

كما أن سلسلة رجال سند الروايات لا تخلو من ضعف، ولا يمكن تعديل الرواة بأي حال. فالرجل من الرواة يروي عن أبيه ولعلها كانت ـ في مجملها ـ من صنع أعداء الدولة العباسية ألفت في أزمان متأخرة عن تاريـخ أحـداثها. كما إن حادثة السم لا يمكن إثباتها أو الجزم بها لا سيما وأن الخلاف على أشده بين المؤرخين في أداة السم التي زعم أنها استخدمت في الجريمة المزعومة والتي زعم أن الشماخ ارتكبها. أما تشيع البرامكة لآل البيت فلا يحتاج إلى إثبات. ولعل ذلك واضح في أسباب نكبتهم المبسوطة في كتب التاريخ العام.

خاتمة البحث

يمثـل هذا البحث محاولة تقصي جميع الروايات التي تعرضت لرد فعل الدولة العباسية المباشر تجاه قيام دولة علوية في المغرب، مع دراسة الشخصيات التي وردت في هذه الروايات، وظهر أمر واضح هو أن هذه الروايات روج لها أشخاص لهم أهداف واضحة في تجريم الدولة العباسية، وأن هذه الروايات لا تعدو أن تكـون جزءاً من العمـل المضـاد الذي تقوم به المعارضة العلوية للخلافة العباسية. وهذه الروايات لا تصمد ـ بأي حال من الأحوال ـ أمام النقد الجاد الذي يعتمـد سيـاق التـاريخ الإسلامي في المغرب الإسلامي والمشرق إذ إنها في معظمها لا تتفق مع ذلك السياق وهو سياق متفق عليـه مـن قبـل معظـم المـؤرخين.

---

(٨٧) ابن الخطيب، تاريخ، جـ ٣، ص ١٩٥، ١٩٦.

(٨٨) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٤٦.

(٨٩) لم نلق بالا في هذا البحث لما بثه أعداء الأدارسة شعرا ونثرا حول صحة نسبهم لإدريس الأول وحول علاقتهم براشد ويظهر جليا أن جميـع ما أورد في هذا المضمـار كان يحمل طابع التغرض ودوافعه سياسية أو أحقاد شخصية، انظر: البكري، المغرب، ص ١٢٢.

العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، ١٢٧ ـ ١٤٢ (١٩٩٣م).

لزط وموقعهم في التاريخ الإسلامي

للدكتورة **فايزة إسماعيل أكبر**

ملخص البحث : **يهدف هذا إلى البحث إلقاء الضوء على تاريخ الزط ونشاطهم وتحركاتهم في العالم الإسلامي متتبعاً أسباب هجراتهم من موطنهم الأصلي ـ بلاد السند ـ واستيطانهم في الأراضي الإسلامية. كما أن هذا البحث يحاول إبراز انتفاضاتهم المتتالية التي أزعجت السلطات الحاكمة مما دفعها إلى القضاء عليهم أحياناً وإبعادهم عن قلب العالم الإسلامي إلى أطراف الحدود الإسلامية البيزنطية أحياناً أخرى. وقد تجلت في انتفاضاتهم روح المقاومة الشديدة رغم الحصار والتضييق ورغم تصاعد الهجمات العسكرية عليهم.**

ويتناول البحث عدة عناصر رئيسة هي: الزط، أصلهم، نشأتهم وموطنهم، بداء اتصال العرب بقوم الزط، الزط إبان عصر النبوة والخلفاء الراشدين، الزط في عهد بني أمية، وانتفاضات الزط في عصر الدولة العباسية .

المقدمة

على الرغم مما يلقاه تاريخنا الإسلامي من اهتمام الباحثين سواء من العرب أو من المستشرقين إلا أنه لا يزال يحتاج إلى المزيد من الاهتمام والبحث في كثير من جوانبه، خاصة فيما يتعلق بتاريخ العناصر الأجنبية التي وفدت إلى بلاد المسلمين واستقرت في مناطق مختلفة منها وكان لها دور بارز في تسيير دفة الأحداث بها، ومن هذه العناصر الزط. ولاشك في أن دراسة تاريخ الزط أمر شائك ومعقد، وذلك لقلة المادة العلمية وبعثرتها في بطون الكتب المختلفة، إذ لابد للباحث عند الكتابة عنهم الرجوع إلى أمهات كتب الجغرافيين والرحالة والمؤرخين واللغويين أمثال البلاذري والمسعودي وابن حوقل والمقدسي والطبري وابن الأثير وابن منظور وغيرهم، حيث نجد هناك إشارات إلى مثل هذا الموضوع، ولكن تلك المعلومات تكاد لا تكفي لرسم صورة متكاملة عن تاريخ هجرتهم وتتبع أصولهم واستيطانهم في الأراضي الإسلامية ونشاطهم وتحركاتهم فيها. ولعل هذا مادفع الكاتبة إلى الكتابة عنهم بطريقة علمية، معتمدة على المصادر الأولية المتوافرة بين أيدينا مع الاستعانة بالدراسات الحديثة التي سبقت وتناول مؤلفوها جوانب معينة من تاريخهم. وقد بذل الباحث جهده في مراعاة الأمانة العلمية حتى تتحقق الإفادة المطلوبة. ولعل هذا البحث يكون قد قدم جديدا للمهتمين بتاريخنا الإسلامي العريق والمشتغلين به. جهد المقل وأرجو من الله التوفيق.

الزط، أصلهم، نشأتهم وموطنهم

الزط بضم الزاي وتشديد الطاء هو تعريب للكلمة الفارسية جت Jat أو Jets . وقد اتفق المؤرخون والجغرافيون واللغويون على أن أصلهم من بلاد الهند إذ يرى المسعودي أنهم هاجروا من الهند إلى بلاد فارس والعراق لغلاء وقع هناك ساق وراءه الفقر والفاقة.[1] كما يرى حمزة الأصفهاني سبباً آخر

---

(١) المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي، التنبيه والإشراف (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨١م)، ص ٣٢٣.

لهجرة بعض هؤلاء إلى فارس إذ يروى أن «بهرام جور» ملك فارس (٤٢٠ ـ ٤٣٨م) سأل ملك الهند أن يرسل إليه عشرة آلاف زطي من الرجال والنساء البارعين في العزف والغناء.[٢] ويسجل البلاذري أن أصلهم هندي من بلاد السند.[٣] ويحدد ابن حوقل منطقتهم فيجعلها الواقعة بين المنصورة ومكران في بلاد السند[٤] بينما يذكر ابن منظور أن الزط هم جيل أسود من السند إليهم تنتسب الثياب الزطية.[٥] وكانوا يسمون بالنور[٦]، والغجر.[٧] كما عرفوا أيضا باسم سلولي أو لوري.[٨] ولعلها أصل لكلمة نوري كلمة يطلقها السوريون على الغجر .

ويحتوي وادي السند على ثلاثة أقسام: البنجاب في الشمال، والسند في الجنوب، وراجبوتانا في الشرق، ويسكن هذه الأقاليم قبائل مختلفة. ويعتبر الزط من أهم شعوب البنجاب ووادي السند، اذ يذكر المستشرق جوستاف لوبون أن الزط «الجات» كانوا يملكون جميع الهند الغربية وأنهم كانوا سادة البلاد حين أغارت عليهم قبائل الآريين، وقد بادر الزط إلى الخضوع فعاملهم الآريون معاملة حسنة وكونوا منهم طائفة جديدة عرفت باسم «طائفة الويشية» التي لا تزال تضم أبناء الطبقة الوسطى ولا سيما التجار. ولقد تأثر سكان هذه المنطقة بثقافات وعادات وتقاليد الشعوب الآرية المسيطرة، ونتيجة للاختلاط والمصاهرات القليلة التي تمت بين تلك العروق ظهرت مجموعات مختلفة من الزط تتباين في ألوانها، فكان منها من يميل إلى السمرة الشديدة وهناك من يميل إلى البياض كالراجبوت.[٩] وحين جاء العرب إلى بلاد السند، كان معظم القبائل السندية تنتسب إلى قوم الزط وقوم الراجبوت المعروفين بالإضافة إلى وجود الميد بقبائله المتفرقة في مناطق مختلفة من بلاد السند.[١٠] وهناك آراء عديدة ومختلفة للمؤرخين والجغرافيين العرب وغيرهم تدور حول أصل المناطق التي كان يسكنها كل من قبيلة الزط والميد بفروعها المتعددة وكذلك بالنسبة لأعمالهما وحِرَفهما وصفاتهما. يذكر الأصطخري: «أن قوم الميد كانوا يسكنون من حد الملتان حتى البحر، وكانت لهم في البرية التي بين نهر مهران وبين قامهل[١١] مراع ومواطن كثيرة، بينما كان قوم الزط يسكنون أجاما ويتغذون بالسمك وطير الماء»[١٢]، وينوه ابن خرداذبة (بأن قوم الزط كانوا ينتشرون من أطراف المنصورة إلى مكران وكانوا يحافظون على الطريق فيه وكانت المسافة من أول مكران إلى المنصورة ٣٥٨ فرسخاً، بينما كان قوم الميد لصوصاً وقطاع طرق).[١٣]

ويبين الإدريسي «أن الميد قوم رُحَّل كانوا يسكنون أطراف صحراء كتش (كجه) وأحيانا كثيرة كانوا يصلون ترحالهم إلى قرب مدينة الرور على شط نهر مهران وحدود مكران، ويضيف أن الميد قبائل وبشر عددهم كثير وجمعهم غزير، ولهم أجصاص وآجام يأوون إليها وبطائح مياه في غربي نهر مهران ولهم إبل وأغنام حسنة، وكانت مراعيهم داخل السند

(٢) حمزة بن حسن الأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، ط ٢ (بيروت: مكتبة الحياة، د.ت)، ص ٤٩.

(٣) البلاذري، أبو الحسن احمد بن يحيى، **فتوح البلدان**، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ٣٦٨.

(٤) ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، **صورة الأرض** (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت)، ص٣٨٢.

(٥) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، د.ت)، مجلد ٧، ص٣٠٨.

(٦) ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، جـ٣، ص ٢٥٧.

(٧) موريس لومبار، **الإسلام في مجده الأول**، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت)، ص ٢٢٩.

(٨) V. Minorsky, Luli, *Islam ansiklopeadisi* (Istanbul: Marif Basimevi, 1954), 61 CUZ, Cild7, S71.

(٩) غوستاف لوبون، **حضارة الهند**، نقله إلى العربية عادل زغيتر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٨م)، ص ص ١٣٠-١٣٢.

(١٠) عبد الله مبشر الطرازي، **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب**، ط١، مجلدان (جدة: عالم المعرفة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، جـ١، ص ٧٨.

(١١) قامهل على الحدود الهندية السندية.

(١٢) الأصطخري، أبو اسحاق بن محمد الأصطخري الفارسي، **كتاب المسالك والممالك**، مخطوط رقم ٢٦١٣، اسطانبول، مكتبة ايا صوفيا، ورقات ٨٩، ٩١.

(١٣) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، **المسالك والممالك** (بغداد: مكتبة المثنى، د.ت)، ص ٥٥، ٦٢.

تصل حتى مدينة قامهل على الحدود السندية الهندية».[١٤]

ويرى ابن حوقل «أن الميد قبائل مفترشة بين حدود طوران ومكران والملتان ومدن المنصورة، وهم أهل إبل وأنهم يسكنون على شطوط مهران من حد الملتان إلى البحر ولهم في البرية ما بين مهران وقامهل مراع ومواطن ينتجعونها لمصيفهم ومشاتيهم وهم عدد كثير» كما يسجل «أن جماعات من الزط كانت تسكن في المنطقة الواقعة بين المنصورة ومكران طول نهر مهران في مساكن مبنية من الخوص وكان طعامهم السمك وطير الماء. كما أن هناك جماعات أخرى من الزط كانت تسكن في البوادي كالأكراد يتغذون بالألبان والأجبان وخبز الذرة».[١٥].

ويقول الأنصاري «بأن قوم الزط كانوا يقيمون بأرض واسعة تقع ما بين المنصورة ومكران على نهر السند وكان طعامهم السمك وطير الماء وأن قوم الميد كانوا يسكنون مفازة بين السند والهند وهم أصحاب إبل وغنم يرحلون في طلب الكلأ كالعرب.[١٦] ويؤكد المقدسي على أن كثيرا من الزط كانوا يسكنون بوادي مكران ويتغذون بالسمك وطير الماء.[١٧]

وهكذا يبدو من روايات الأصطخري وابن خرداذبة والإدريسي وابن حوقل والأنصاري والمقدسي أن قوم الميد وقوم الزط فرق وقبائل عديدة سكنوا مناطق مختلفة فمنهم من كان يسكن في المناطق الصحراوية، ومنهم من كان يقيم على طول نهر مهران، وأنهم جميعا يحيون حياة البداوة يرعون المواشي والأغنام وكذلك يعملون كلصوص وقطاع طرق.

في حين يرى كل من المسعودي والبلاذري أن الميد كانوا يشتغلون في البحر بالقرصنة، فيصرح المسعودي «أن نهر مهران السند له بطائح وآجام عظيمة من القنا والقصب نحو من ثلاثمائة فرسخ فيه جنس من السند يقال لهم الميد وهم خلق عظيم حزب لأهل المنصورة ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة إلى أرض الهند والصين وجدة والقلزم.[١٨] ويُعرِّف البلاذري الميد بأنهم أهل مدينة سرست قراصنة البحر. «وأن محمد بن الفضل بن ماهان سار في سبعين بارجة حربية إلى ميد الهند وقتل منهم خلقاً وافتتح مدينة فالي ورجع إلى مدينة سندان».[١٩] كما يعرف مناطق سكن الزط بقوله: أن عمران بن موسى البرمكي والي السند قد هاجم الزط في موطنهم بالقيقان وبنى مدينة سماها البيضاء وأسكنها الجند لمراقبة الزط. ويذكر أيضا أن عمران عسكر على نهر الرور ثم نادى بالزط الذين بحضرته فختم على أيديهم وأخذ الجزية منهم، ثم غزا الميد ومعه وجوه ـ الزط.»[٢٠]

بينما يفيد لامبريك Lambrick استناداً على المصادر السنسكريتية بأن سكان السند الأصليين كانوا يتألفون من الزط والميد، وأن الزط كانوا يعملون في البحر على السفن الصغيرة، بينما الميد كانوا يشتغلون بالرعي، ولكنه يعتقد بأن هناك خطأ قد حصل من قبل المترجمين والنساخ في استخدام الإسمين بحيث وضع أحدهما مكان الآخر، والدليل على ذلك أن ميد مكرات لا يزالون في الوقت الحاضر يعملون ويستخدمون البحر في الأسفار بينما نسل الزط يعملون كرعاة.[٢١]

ويقول الجغرافي أبو الفداء: «أما البلوص المذكورون فيقال لهم في زماننا الجت وهم طائفة تقرب لغتهم من الهندية»[٢٢] ويعني ذلك أن سكان

---

(١٤) الإدريسي، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مخطوط رقم ٣٥٠٢، اسطانبول، مكتبة ايا صوفيا، ورقات ١٢٥، ١٢٩.

(١٥) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٣.

(١٦) الانصاري، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، مخطوط رقم ٢٩٤٥، اسطانبول، مكتبة ايا صوفيا، ورقات ١١٦، ١١٧.

(١٧) المقدسي (المعروف بالبشاري) **احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٣ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص ٤٨٤.

(١٨) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص٦٥.

(١٩) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٢٣، ٤٣٢.

(٢٠) البلارذي، **فتوح البلدان**، ص ٤٣٢.

(٢١) H.T. Lambrick. *Sind, A General Introduction*, 3rd ed. (Hyderabad: Sindhi Abadi Board, 1986), p.209.

(٢٢) ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، **تقويم البلدان** (باريس: دار الطباعة السلطانية، ١٩٨٤م)، ص ٣٣٥.

لوجستان يسمون بالزط أيضا وأن لغتهم قريبة من اللغة الهندية.

وهكذا وجدت آراء وروايات مختلفة لدى المؤرخين والجغرافيين العرب وغيرهم تتعلق بمساكن الزط والميد وأعمال كل منهما وطريقة معيشتهما، ولذلك يمكن أن نذهب إلى ماذهب إليه الدكتور عبد الله الطرازي، من أن قوم الزط وقوم الميد كانوا فرقا كثيرة تحمل أسماء قبائل عديدة، وكانوا يسكنون مناطق مختلفة في بلاد السند وكان أفراد كل من القومين يشتغلون بالسفن والقرصنة في البحر وكذلك بالرعي أو قطع الطريق في البر تبعاً للبيئة والظروف المحيطة بهم، ويضيف أن كلًا من القومين كانا خطراً على الأمن والدولة وكانت الحكومات السندية القديمة والحكومات العربية كثيرا ما تفشل في إخضاع هؤلاء الأقوام وتوجيههم نحو الحياة الكريمة.[٢٣]

أما عن صفة الزط الجسمانية فهم طوال غير غلاظ.[٢٤] ويتسمون بتناسق الأعضاء وذكاء المنظر، والاسمرار واتساع الأنوف وارتفاع طرفها وصغر العيون وأفقيتها ونتؤ الوجنات ودقة اللحي، واسوداد الشعور وكثافتها. وتتصف نساؤهم بطول القدود مع حسن المنظر.[٢٥]

وكانت للزط طريقة فريدة مشهورة في قص شعورهم. وقد أعجب بعض العرب منذ عهد قديم بهذه الطريقة فاستخدموها بين الحين والآخر. وقد أشار ابن منظور إل ذلك بقوله « فحلق رأسه زطيه ».[٢٦] أي على طريقة الزط، وهو على شكل الصليب.

كما اشتهر الزط بصناعة الثياب «وإليهم تنسب الثياب الزطية».[٢٧] وكانت فيما يبدو تختلف في صناعتها عن باقي الثياب المعروفة في ذلك الوقت، ولكن الذي لا نستطيع الجزم به هو: هل كانت هذه الثياب صنففا معينا من المنسوجات كان الزط يقومون بصناعتها لتلائم الذوق العربي ومن ثم كثر بيعها في الأسواق العربية أو أنها هي الأزياء التقليدية الخاصة بهم فقط ؟

بدء اتصال العرب بقوم الزط

إن ما نملكه في أيدينا من مادة علمية عن بدء اتصال العرب بقوم الزط، هذا الشعب الذي احتك بالعالم الإسلامي القريب منه مرة ثائراً، ومرة مجنداً، ومرة متعايشاً، هي تلك المعلومات القليلة الموجودة في المصادر العربية المتمثلة في كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات والمعاجم والسير. إذ أن ندرة هذه المادة العلمية سواء الخاصة ببدء اتصال العرب بقوم الزط أو بكيفية هجرة هؤلاء القوم إلى بلاد المسلمين أدت في الواقع إلى صعوبة قيام دراسات تحليلية جادة حول هذا الموضوع.

إن معرفة الفرس بالزط قبل ظهور الإسلام حقيقة لا نستطيع أن ننكرها وذلك نتيجة لقرب الجوار إلا أن المعلومات الموجودة بالمصادر العربية عن هذه الصلة قليلة، فمنها رواية حمزة الأصفهاني (المتوفي سنة ٣٠٦هـ) أن بهرام جور بن يزدجرد ملك الفرس (٤٢٠ـ٤٣٨م) كانت له حروب كثيرة مع الترك والروم والهند وقد فرض على رعيته أن يعملوا نصف اليوم ثم يستريحيوا بقيته ويتوفروا بالأكل والشرب واللّهو ويحضروا المغنين فارتفع أجر المغنين إلى مائة درهم وعز عليهم إحضارهم وأن بهرام جور مر يوماً بقوم يشربون بغير حضرة المغنين والملهين، فقال أليس نهيتكم عن الغفلة عن الملاهي؟ فقالوا له: قد طلبناه بزيادة على مائة درهم فلم نقدر عليه. فأمر بالدواة وكتب إلى ملك الهند يطلب منه ملهيين، فأنفذ إليه عشرة آلاف رجل هم الزط وكانوا بارعين في العزف والغناء.[٢٨]

وفي بداية القرن السابع الميلادي، وبعد ظهور الإسلام وجه الحاكم الفارسي هرمز عدة حملات

---

(٢٣) عبد الله الطرازي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، جـ ١، ص ٧٦.

(٢٤) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري** (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م)، جـ ٦، ص ٤٧٧.

(٢٥) غوستاف لوبون، **حضارة الهند**، ص ١٣٢.

(٢٦) ابن منظور، **لسان العرب**، مجلد ٧، ص ٣٠٨.

(٢٧) ابن منظور، **لسان العرب**، مجلد ٧، ص ٣٠٨ .

(٢٨) حمزه الأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الارض**، ص ٤٣.

بحرية إلى سواحل بلاد السند، وكانت نتيجة لهذه الحملات أن وقع في أسره أعداد كبيرة من أهالي السند فجلبهم إلى فارس، وكان معظمهم من قوم الزط لأن معظم الجيوش السندية كانت تتألف منهم، وقد ضمهم هرمز إلى الجيوش الساسانية ليحاربوا العرب بجانب الفرس.(٢٩)

يفهم من الروايات السابقة الذكر أن الفرس عرفوا أقوام وقبائل السند المختلفة خلال العصور السابقة للفتوحات الإسلامية الأولى، وأنهم جلبوهم إلى بلادهم كملهين أو كأسرى أو كجنود مرتزقة، وقد استعانوا بهم في حروبهم، ومن ثم انتشر هؤلاء الأقوام في بلاد فارس وعلى أطراف الخليج العربي، واختلطوا بأهالي البلاد الأصليين مكونين مع مرور الزمن جاليات كبيرة. وهذا ما يبرر وجود جماعات عظيمة منهم في فارس والأهواز والقطيف وهجر والخط وعمان واليمامة والأبلة ونواحي البصرة. وعندما فتح المسلمون هذه البلاد تعايشت هذه الجماعات مع قبائل العرب وحرصت على بقاء تقاليدها وعاداتها القديمة، وعرف أفرادها بهيئاتهم وأجسامهم وألوانهم وألبستهم وشعورهم(٣٠)، ولقد ذكر البلاذري: أن الأساورة والسيابجة(٣١) كانوا قبل الإسلام يقطنون في السواحل وكان الزط بالطفوف يتتبعون الكلا.(٣٢) ولعلنا نجد الدليل على انتشار الزط في بلاد العرب وفارس في أسماء بعض القرى والأنهار المشهورة كحومة الزط وهي مدينة كبيرة على نهر جارٍ في إقليم خوزستان(٣٣)، ونهر الزط وهو من الأنهار القديمة في البطيحة.(٣٤)

أما انتشار الزط على سواحل أفريقيا، فلعله من الأسباب التي جعلت ابن منظور يرجعهم إلى أصل سوداني أيضا «إذ يقول: «وهم جنس من السودان والهنود.(٣٥) ويشير المستشرق جبرائل فراند G. Ferrand إلى وجود قبيلة على الساحل الشرقي لمدينة مدغشقر تدعى أونداجاتسي Ondagatsi وتتكون هذه الكلمة في اللغة الملجاشية، لغة مدغشقر، من ثلاث مقاطع: اون ـ دجات ـ تس وقد لاحظ المستشرق فراند أن المقطع الأول لا ينطق وكذلك المقطع الأخير، أما المقطع الأوسط وهو «دجات» فانه المقطع المنطوق والأساسي للكلمة، التي ترد إلى الأصل جات الفارسية والتي تعني الزط عند العرب. ولاحظ المستشرق فراند أيضا أن هذه الكلمة تكتب بالعربية في مدغشقر (أجه أو أجت أو أذت) وأن المطابقة بين الصيغ (أونداجاتس) و (جات) و (زط) أدق من أن تكون وليدة المصادفة، بل هي حقيقة جديرة بالتسجيل. وأن هؤلاء القوم يذكرون بأن أسلافهم وفدوا إلى هذه المنطقة من وراء البحار. ولعل المراد بها بلاد السند.(٣٦)

وليس من المستبعد نتيجة لتبادل التجارة بين بلاد اليمن وسواحل شرق أفريقيا وبلاد السند منذ أقدم الأزمان أن يكون بعض هذه العناصر السندية قد استوطن اليمن وسواحل شرق أفريقيا، وأصبح لهم شأن فيها، إذ أن علاقات العرب وسكان سواحل شرق أفريقيا ببلاد الهند والشرق الأقصى منذ العهود القديمة حقيقة واقعة لاحاجة إلى إثباتها إذ كان للتجار والبحارة العرب اتصالات دولية واسعة المدى إلى حد يثير الدهشة بحيث كان للعرب جالية في كانتون بالصين. وبالتالي فمن الطبيعي أن يكون لهم

---

(٢٩) عبد الله الطرازي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، جـ١، ص ٨٨.

(٣٠) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ٢، ١١ جزءا (بيروت: دار سويدان، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ج ١، ص ١٩٦١؛ ابن الأثير، علي بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، **الكامل في التاريخ**، ط ٢، ٩أجزاء (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، جـ٢، ص ٢٤٩؛ القاضي أبو المعالي أطهر المباركبوري، **العقد الثمين في فتوح الهند**، ط ٢ (القاهرة: دار الأنصار، ١٣٩٩هـ)، ص ٢١.

(٣١) وهم قوم من السند أيضا يكونون مع رئيس السفينة البحرية يبذر قوتها وكانوا بالبصرة جلاوزة وحراس السجن. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سيابجه جـ١، ص ٢٩٤.

(٣٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٧، ٣٧٠؛ أبو الفرج الأصفهاني، **كتاب الأغاني** (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، د.ت)، جـ١٥، ص ٢٥٦.

(٣٣) مخطوط الاصطخري، ، **كتاب المسالك والممالك**، ورقة ٥٥.

(٣٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٥أجزاء (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٧٩م)، جـ٥، ص ١٤٠.

(٣٥) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة الزط مجلد ٧، ص ٣٠٨.

(٣٦) جبرائيل فراند، مادة الزط، **دائرة المعارف الإسلامية** يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتاوي وآخرون (القاهرة: دار الفكر، د.ت)، مجلد ١٠، ص ٣٤٩.

بحكم هذا النشاط صلة بالهنود ومن ثم ازدادت معرفتهم بالمدن الساحلية الهندية وكونوا لهم بعض الجاليات في بعض الثغور خاصة على سواحل السند وملبار. وإذا كنا لا نعرف متى بدأت هذه العلملية فليس ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت ذات اتجاه واحد بل العكس هو الصحيح إذ أن سياسة التوسع التجاري والإقبال على السلع الهندية أمور من شأنها أن تشجع على قيام جاليات هندية وسندية في جميع المراكز التجارية في الخليج العربي واليمن[٣٧]، وسواحل شرق أفريقيا مما ترتب عليه نشأة علاقات وثيقة بالسكان المحليين.

وكيفما كان الأمر فالذي يعنينا من هذا كله أن الزط قد جاءوا مع من جاء من أهل السند إلى فارس وبلاد العرب وانتشروا هناك واستقروا في سواحل الخليج العربي ومدنه، وكذلك في اليمن وسواحل شرق أفريقيا، كأسرى حرب أو كجنود مرتزقة أو كملهين لدى الفرس أو أنهم استقروا في هذه المناطق نتيجة لتبادل التجارة.

وعلاة على ذلك فهناك عدد من الاحتمالات في هذا الشأن منها: أن بعضاً من قبائل الزط قد هجروا ديارهم نتيجة الفقر والفاقة[٣٨] فتنقلوا في بلاد كرمان وفارس والأهواز إلى أن استقروا في هذه المناطق. أو أنهم نزحوا فراراً من بطش وجور الحكومة البرهمية التي كانت تعتبرهم في عداد المنبوذين، إذ كانت تحرم عليهم امتطاء الدواب وتحرم على زعمائهم ركوب الخيل وتمنعهم من ارتداء الملابس الراقية وتفرض عليهم ارتداء الأثواب السوداء الخشنة، وتجبرهم على أن يسيروا حفاة الأقدام مكشوفي الرؤوس، وأن يسحب كل واحد منهم كلباً إذا سار حتى يعرفه الناس ويتجنبوا شره. وكانوا لا يمارسون إلا أحط المهن.[٣٩] ولعل ذلك يفسر انضمام جموع كثيرة من الزط إلى جيش محمد بن القاسم ربما بدافع الانتقام لما نالهم من البراهمة المتسلطين كما سيأتي لاحقا.

الزط إبان عصر النبوة والخلفاء الراشدين

كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على معرفة تامة بأهل السند وكانت العناصر السندية تعرف بهيئاتها وأشكالها وأجسامها والبستها. ولقد ذكر قوم الزط في عدة أحاديث شريفة منها ماورد عن عبد الله بن مسعود ما نصه «صلى النبي صلى الله عليه وسلم العشاء ثم انصرف فأخذ بيد عبد الله بن مسعود حتى خرج به إلى بطحاء مكة فأجلسه ثم خط عليه خطا، ثم قال لاتبرحن خطك، سينتهي إليك رجال فلا تكلمهم فإنهم لا يكلمونك». قال ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أراد. فبينما أنا جالس في خطي إذ أتاني رجال كأنهم الزط، أشعارهم وأجسامهم لا أرى عورة ولا أرى قشرا، ينتهوا إلي ولا يجاوزون الخط ثم يصدرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.[٤٠]

كما ورد عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنه قوله: «قال النبي صلى الله عليه وسلم رأيت عيسى وموسى وابراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فأدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط».[٤١] والمراد بالجسيم في صفة موسى هنا الزيادة في الطول لذا شبه برجال الزط.

وفي رواية للإمام البخاري أن طبيباً زطياً كان يسكن المدينة المنورة في عهد الرسالة وأن هذا الطبيب

---

(٣٧) كانت عدن مركزا لتبادل السلع الافريقية والهندية والمصرية ومكان تبحر منه السفن إلى الهند، انظر إلى ذلك محمد كريم ابراهيم، «الفعاليات الاقتصادية لميناء عدن» **المؤرخ العربي**، العدد ٣٥، السنة الرابعة عشر (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ص ١٧٩.

(٣٨) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص٣٢٣.

(٣٩) علي بن حامد بن بكر الكوفي (المتوفى سنة ٦١٧هـ)، جچنامه Chach - Nama, باللغة الانجليزية منشور ضمن كتاب: John Dowson, *The History of Sind As Told by Its Own Historians* (Karachi: Allied Book Company, University of Karachi, 1985), p.137. عبد الله الطرازي، **موسوعة التاريخ الاسلامي**، جـ١، ٢٠٦؛ عصام الدين الفقي، **بلاد الهند في العصر الاسلامي** (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٠م)، ص ٩.

(٤٠) ابو عيسى محمد بن عيسى بن سوره، **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**، كتاب الأمثال (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م)، جـ ٥، ص ١٤٤؛ القاضي اطهر المباركبوري، **العقد الثمين**، ص ٢٢.

(٤١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، جـ ٦، ص ٤٧٧؛ القاضي اطهر المباركبوري، **العقد الثمين**، ص ٢٣.

عالج السيدة عائشة عندما مرضت. وكان سبب مرضها أن سحرتها جارية لها.(٤٢) ويثبت مما سبق أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان على معرفة بأهل السند ومن بينهم الزط وأن بعضا ممن كانوا يقيمون في بلاد العرب قد دخلوا في الإسلام، ومنهم على سبيل المثال الطبيب الزطي الذي عالج السيدة عائشة والذي كان يسكن المدينة. ولعل هذه الروايات كلها ترجح أنه لم يكن للزط المقيمين بشبه الجزيرة العربية دور سياسي يذكر في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانت حروب الردة فاشترك الزط المقيمون بالقطيف وهجر مع المرتدين في محاربة المسلمين.

لقد انطلقت حركة الردة في عنف واتخذت صوراً عديدة بين كثير من القبائل العربية في نواحي شتى من شبه الجزيرة العربية وارتد أهل البحرين فيمن ارتد من العرب بعد وفاة ملكهم المنذر بن ساوى، الذي أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومات بعده بقليل، وكان يسكن منطقة البحرين قبائل عديدة من العرب من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم. وكانوا يقيمون في باديتها وشاركهم في هذه السكنى بالمنطقة بعض اليهود والنصارى.(٤٣)

فأما عبد القيس فإنها رجعت إلى الإسلام بعد أن نصحهم بذلك الجارود بن عمروبن حنش بن معلى الذي ثبت على الإسلام. أما بكر بن وائل فبقيت على ردتها. وقد انضم إليهما الزط والسيابجة ممن كانوا بالمنطقة قبل دخولهم في الإسلام. وفي ذلك يقول الطبري: «لما مات النبي صلى الله عليه وسلم خرج الحطم بن ضبيعة أخو بني عبد القيس بن ثعلبة فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الردة ومن تأشب إليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافراً حتى نزل القطيف وهجر واستغوى الخط ومن فيها من الزط والسيابجة.(٤٤)

ولم يقف خليفة رسول الله أبوبكر الصديق مكتوف اليدين أمام هذه المشكلة فسير الجيوش إلى المرتدين والمتنبئين ومانعي الزكاة، وعقد اللواء لقتالهم على أحد عشر قائداً في وقت واحد فأرسل العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، فحارب الحطم وحاصرهم بجواثا ما يقرب الشهر حتى كاد المسلمون أن يهلكوا من الجهد، فسمعوا أصواتا كثيرة وضوضاء شديدة في معسكر المشركين فدسوا فيهم من يتعرف خبرهم فعرفوا أن القوم سكارى فهجم عليه العلاء والمسلمون وقتلوهم قتلا شديدا واستولوا على مافي المعسكر.(٤٥)

ويذكر الطبري أن المسلمين بعدما أحرزوا النصر على المشركين واستحوذوا على جميع مافي معسكرهم تتبعوهم، فقصدت فلول المشركين بلده دارين (وهي قريبة من الساحل) فركبوا فيها السفن ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم.(٤٦) فمن المحتمل أن بعض فلول المشركين الذين ركبوا السفن ورجعوا إلى بلادهم هم الزط والسيابجة الذين كانوا يقيمون في البحرين والذين ساندوا وناصروا المرتدين على المسلمين بعد أن أغواهم الحطم بن ضبيعة.

وبعد هذه الموقعة تقابل المسلمون مع الزط في مواقع كثيرة وذلك أثناء الفتوحات الإسلامية لبلاد العراق وفارس. ومن هذه المعارك معركة ذات السلاسل التي وقعت في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة ١٢هـ / ٦٣٤م، وقد يسرت الانتصارات الرائعة التي أحرزتها الجيوش الإسلامية على المرتدين في شبه الجزيرة العربية السبيل أمام خليفة المسلمين فأرسل الجيوش لفتح البلاد المجاورة ونشر الإسلام بها، فكتب أبوبكر الصديق إلى خالد بن الوليد، وكان مقيماً باليمامة: «أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند

(٤٢) الإمام البخاري، **الأدب المفرد**، ط٢ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٨هـ / ١٩٨٨م)، جـ ١، ص ٢٥٩.

(٤٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٨٩.

(٤٤) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ١٩٥٨، ١٩٦٠، ١٩٦١؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٢، ص ٢٤٩.

(٤٥) خليفة بن خياط، **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم ضياء الدين العمري، ط ٢ (الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ص ١١٦؛ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ١٩٦٨.

(٤٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ١٩٧١؛ ابن كثير، أبو الفداء الحافظ بن كثير، **البداية والنهاية**، ط ٢ (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٧م)، ص ٣٢٩.

وهي الأبلة وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم».[٤٧] وكان هرمز ـ في ذلك الوقت ـ حاكما على العراق من قبل الفرس وهو من أبرز قادتهم وقد حارب العرب في البر والهند في البحر.[٤٨] وكان معروفاً عنه أنه أسوأ الأمراء معاملة للعرب، حتى بلغ من حقدهم عليه أن جعلوه مضرب المثل في الخبث فقالوا: أخبث من هرمز وأكفر من هرمز.[٤٩] وكان معظم جيشه مؤلفاً من قوم الزط الذين أسرهم أثناء حملاته البحرية التي قام بها على سواحل بلاد السند.

ولما توجهت الجيوش الإسلامية في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الأراضي الفارسية عقدت الدولة الساسانية معاهدات الصلح مع جارتها بلاد السند حتى تؤمِّن ظهرها في حروبها مع العرب، وبموجب هذا الصلح جامل هرمز قوم الزط وأدخلهم في الجيش الفارسي لمحاربة المسلمين بهم.[٥٠] وعندما وقعت معركة ذات السلاسل بين جيش خالد بن الوليد وجيش هرمز بالحفير على مقربة من ثغر كاظمة، قيد هرمز أصحابه بالسلاسل لكي لا يهربوا من ساحة القتال، وفي المعركة قتل خالد بن الوليد هرمز في مبارزة فردية، ووقع في أيدي العرب آلاف الأسرى ومن بينهم الزط وانهزم أهل فارس من أول لقاء.[٥١]

مما لا يختلف فيه إثنان أن تقييد جيش هرمز بالسلاسل يدل على انخفاض الروح المعنوية والانهيار عند هؤلاء. كما يدل على الجبن الذي استولى على هرمز وجيشه رغم كثرتهم وعدتهم وماضيهم الطويل في ميادين القتال. غير أننا لا نعجب إذا عرفنا أن هذا الجيش مع كثرة عدده وعدته كان مفككاً في حقيقة أمره، وذلك لأنه كان مؤلفاً من عناصر أجنبية كالزط مثلا، وقد كانت تنقصهم الدوافع النفسية التي تهيؤهم للمعركة، إذ كانوا يدافعون عن أرض غير أرضهم ووطن غير وطنهم، كما كانوا يدافعون عن كيان غير كيانهم، ولذا اتصفوا بالفتور وقلة الحماس بحيث قال خالد فيهم «إنني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب».

ولعل حالتهم هذه كانت من ضمن الأسباب التي جعلت هرمز يقيدهم بالسلاسل لعلمه بأنهم كانوا يريدون الهرب عند اشتداد المعركة، ولذا فقد نصحهم من رآهم على هذه الصورة بالقول: «قيدتم أنفسكم لعدوكم فلا تفعلوا فإن هذا طائر سوء».[٥٢] وهكذا وقع في هذه المعركة آلاف الأسرى من الزط في أيدي المسلمين وعليه فقد استقروا في الأراضي الإسلامية.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل كثير من الهنود كالأساورة والسيابجة والزط المقيمين في بلاد فارس في الإسلام على يد أبي موسى الأشعري، وذلك عندما كان محاصرا (تستر) سنة ١٦هـ / ٦٣٨م. ولما رأى الأساورة ـ الذين كانوا يكوِّنون قوة عسكرية ساسانية تحارب في الأهواز ـ ظهور الإسلام. وعدم جدوى مقاومة العرب، وأن مدينة السوس قد فتحت والإمدادات متتابعة إلى أبي موسى، أرسلوا إليه شيرويه في عشرة من الأساورة ليعقدوا معه اتفاقية تنص على أن يدخلوا في الإسلام، وأن يقاتلوا بجانب العرب أعداءهم العجم، وأن يلحقوا بشرف العطاء، وأن يطلق لهم الحرية في الانضمام إلى القبيلة العربية التي يؤثرونها. فرد عليهم أبو موسى «بل لكم مالنا وعليكم ما علينا». فقالوا لا نرضى، فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فرد عليه، بأن يعطيهم ماسألوا لأن هذه الاتفاقية تضع في صفهم قوة عسكرية كانوا بأمس الحاجة إليها في ذلك الوقت، فكتب أبو موسى لهم بذلك فأسلموا وشهدوا معه حصار تستر.[٥٣]

وهكذا قرر الأساور الانفصال عن الجيش الفارسي وانضم عدد كبير منهم إلى الجيش الإسلامي وأعلنوا إسلامهم، ونقلوا جميعاً إلى العراق وسكنوا بعض المناطق الواقعة بين مدينتي البصرة وواسط،

(٤٧) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ٢٠١٦-٢٠٢١.

(٤٨) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ٢٠٢٣؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٢، ص ١٤٨.

(٤٩) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ٢٠٢٤.

(٥٠) عبدالله الطرازي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، جـ ١، ص ٨٨.

(٥١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ٢٠٢٤، ٢٠٢٥؛ عبد الله الطرازي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، جـ ١، ص ٨٨.

(٥٢) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ٢٠٢٤.

(٥٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ٢٥٦٣؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٦.

فلما صاروا إلى البصرة سألوا أي الأحياء أقرب نسبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لهم بنو تميم، فحالفوهم ثم خطت لهم خططهم فنزلوا بها وحفروا نهرهم المعروف بنهر الأساورة.(٥٤)

أما الزط والسيابجة فإنهم أيضا كانوا يكوّنون قوة عسكرية في الجيوش الفارسية التي كانت تحارب الجيوش الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فلما سمعوا عن المميزات التي حصل عليها الأساورة أسلموا وأتوا أبا موسى فأنزلهم البصرة كما أنزل الأساورة، «فلما اجتمعت الأساورة والزط والسيابجة تنازعتهم بنو تمتم فرغبوا فيهم فصارت الأساورة في بني سعد، والزط والسيابجة في بني حنظلة».(٥٥)وقد أدت هذه المحالفة إلى استيطانهم في مدينة البصرة.

وهكذا نرى أن السنود ومن بينهم الزط دخلوا الإسلام لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمحض إرادتهم دون إجبار أو إكراه بعد أن كانوا أيام أبي بكر مع المرتدين. ولقد فكر عمر بن الخطاب في فتح بلاد السند، فتحرى عنها فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين: ماؤها وشل، وتمرها دقل، ولصها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا وإن كثروا جاعوا. قال عمر: لا يسألني الله من أحد بعثته إليها أبدا».(٥٦)

ولقد انخرط الزط والسيابجة بعد إسلامهم على يد أبي موسى الأشعري في حياة المسلمين العامة ولعبوا دورا مهماً في الأحداث السياسية والاقتصادية واشتركوا مع المسلمين في فتح بلاد فارس وخراسان وسجستان وكرمان ومكران والسند. ونظراً لشجاعتهم ومراسهم في الأعمال المصرفية فقد وكلت إليهم أعمال كالحراسة والأعمال المصرفية والحسابات.(٥٧) كما كان حراس الخليفة عثمان بن عفان بعضا من قبيلة الزط، وقد دافعوا عنه بشجاعة حتى قتلوا جميعاً على بابه قبل استشهاده رضي الله عنه.(٥٨)

وعلى الرغم من أن الزط والسيابجة كان من شروطهم بعد إسلامهم ألا يقاتلوا الفرس ولا يشتركوا في حروب المسلمين فيما بينهم، إلا أنهم وقفوا مع علي ابن أبي طالب وكانوا من رجاله، وقد وكل إليهم حراسة بيت مال البصرة ودار الإمارة والمسجد الجامع والسجن، وبذلك صاروا يقومون بدور الشرطة في المدينة، إذ كان السيابجة بطبيعتهم جنوداً مدربين ألفوا العمل في البحر، وخداماً أمناء، وهي صفات جعلتهم يصلحون كل الصلاحية للخدمة في الجيش براً وبحراً، والعمل حراساً وجنوداً وضباطاً للشرطة وسجانين وحراساً للخزائن.(٥٩) وكان الذي يرأسهم رجل صالح يدعى أبا سالمه الزطي. فلما قامت الفتنة بين الخليفة علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ـ قدم طلحة والزبير إلى البصرة وأرادوا الاستيلاء على بين المال بها، فلم يستطع والي البصرة من قبل علي «عثمان بن حنيف الأنصاري» أن يفعل شيئا لمنعهما بينما رفض الزط والسيابجة الموكلون بحراسة بيت المال ـ وكان عددهم أربعين ويقال أربعمائة ـ بشدة أن يسلموا إليهم بيت المال والخزائن بدون أمر الخليفة علي رضي الله عنه. ثم أنهم بعد ذلك اتفقوا على إنهاء الحرب بينهم حتى قدوم علي بن أبي طالب، إلا أن طلحة والزبير جمعا الرجال في ليلة باردة مظلمة شاتية وقصدوا المسجد فشهر الزط والسيابجة السلاح في وجوههم واقتتلوا وصبروا لهم حتى قتلوا جميعا.(٦٠)ويذكر المسعودي أن عدد من قتل من السيابجة والزط بلغ سبعين رجلا غير من جرح، وقد ضربت رقاب خمسين منهم صبرا بعد الأسر، وهكذا كان هؤلاء أول من قتل ظلما وصبرا

(٥٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٦.

(٥٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٥٦) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٢١.

(٥٧) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، جـ ٢، ص ٦١٠؛ عبد الله الطرازي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، جـ ١، ص ٣٤٤.

(٥٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٧٥؛ عبد الله الطرازي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، جـ ١، ص ٣٤٤.

(٥٩) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٩؛ جبرائيل فراند، «السيابجة»، **دائرة المعارف الإسلامية**، مجلد ١٢، ص ٤٠٢.

(٦٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ١، ص ٣١٢٦؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٩؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، جـ ٢، ص ٦١٠.

في الإسلام.[٦١]

إن نكبة الزط والسيابجة على يد طلحة والزبير جعلتهم يلتزمون بشروط الاتفاقية التي عقدوها مع أبي موسى الأشعري بالا يشتركوا في حروب المسلمين، وقد ظلوا متمسكين بالحياد ما أمكنهم ذلك. وسعوا إلى تنفيذ هذه السياسة فعليا، فابتعدوا عن التدخل في الأمور الداخلية للمسلمين وغيرهم من العرب، فلم يشهدوا الجمل ولاصفين مع علي بن أبي طالب.[٦٢] وبذلك برهنوا على تمسكهم بواجبهم في الدفاع عن المنشآت التي وكلوا بحراستها، وأثبتوا أن ارتباطهم بالمؤسسات العامة يأتي في المقام الأول. ويعلو على أي ارتباط بالأمير أو القائد.

الزط في عهد بني أمية

بعد استيلاء معاوية بن أبي سفيان على الحكم، وتفرغه لتنظيم أمور دولته أقدم على نقل عدد من الزط والسيابجة إلى سواحل بلاد الشام وثغورها. لإبعادهم عن منطقة الشغب العراق من جهة، ولتقوية الحاميات الإسلامية قرب الحدود البيزنطية وبناء السفن وتعمير هذه البلاد زيادة عدد سكانها من جهة أخرى. وفي هذا يقول البلاذري «نقل معاوية في سنة ٤٩ أو سنة ٥٠ إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكيا، فبأنطاكيا محلة تعرف بالزط وببوقا من عمل أنطاكيا قوم من أولادهم يعرفون بالزط.[٦٣] وهكذا تجلت حنكة معاوية بن أبي سفيان في اختيار منطقة سواحل بلاد الشام لتوطين هذه العناصر فيها والاستفادة منها.

وفي أثناء حكم الوليد بن عبد الملك تعرضت سفينة كانت قادمة من جزيرة الياقوت[٦٤]. (سيلان) لمهاجمة قراصنة ميد الديبل وكانت السفينة تحمل بنات وأرامل لتجار من المسلمين وافاهم الأجل هناك، ومعهم هدية من ملك الجزيرة للخليفة، وعندما علم الحجاج بذلك طلب من «داهر» ملك السند تخليص نساء المسلمين من الأسر، ولكن «داهر» اعتذر بعدم قدرته على لصوص البحر، وعندها أرسل الحجاج عدة حملات إلى الديبل لم تسفر جميعها عن نتيجة حاسمة.[٦٥]

وهنا أحس الحجاج بالإهانة التي يمكن أن تلحق بالمسلمين إن هو تغاضى عن هذا الأمر، فألح على الخليفة بأن يأذن له بتسيير الجيوش لفتح السند، وعندما سمح له بذلك، أعد جيشا سنة ٩٢هـ/ ٧١١م اسند قيادته إلى ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي الذي كان يقيم في ذلك الوقت في شيراز، واستمرت الترتيبات ستة أشهر، وعني الحجاج بتزويد هذا الجيش بما يحتاج إليه من المؤن والمعدات حتى القطن المحلوج المنقوع في الخل.[٦٦]

ولقد زحفت الجيوش الإسلامية من شيراز بزعامة محمد بن القاسم ـ وكان دون العشرين من عمره ـ إلى ثغر مكران ومنه اتجهت جنوبا إلى الديبل، وعندها انضم إليه كثير من رجال الميد والزط انتقاما من الحكومة البرهمية وتخلصا من ظلمها. وقد استفاد المسلمون منهم لشجاعتهم في الحروب، ومعرفتهم بمسالك الهند ودروبها وأحوال أهلها، مما كان له أثره في هزيمة داهر واستيلاء المسلمين على الديبل التي ترك بها محمد بن القاسم حامية عسكرية تتكون من أربعة آلاف جندي، وبذلك أصبحت الديبل أول مدينة اسلامية بالسند. ثم استولى المسلمون على الروروبرهما ناباد والملتان وغنموا منها غنائم كثيرة، وبسقوط الملتان في أيدي العرب أصبح وادي السند بأكمله في حوزتهم.[٦٧]

(٦١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤ (القاهرة: مكتبة السعادة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م)، ص ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٦٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٤٤.

(٦٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٤٤.

(٦٤) سميت هذه الجزيرة (بجزيرة الياقوت) لحسن وجوه نسائها: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٢٤.

(٦٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٢٣.

(٦٦) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٢٤، احمد محمود الساداتي، **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم**، جزءان، (القاهرة: مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، د.ت)، جـ ١، ص ٥٥.

(٦٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ص ٤٢٤ ـ ٤٢٧، احمد الساداتي، **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية**، ص ص ٥٧ ـ ٥٩: Stanley, Lane poole, *Medival India* (New Delhi, 1987), Vol. III, pp 5-6.

وبعد سقوط الملتان أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار وأصحاب الحرف في عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والزط وذلك عندما بلغ إلى أسماعهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربي وكرمه، فأعلنوا ولاءهم له، وأعربوا عن ذلك بدق الأجراس وقرع الطبول ورقصاتهم الشعبية.[٦٨] ولحسن معاملته وعدالته أسلم الكثير من أهالي السند ومنهم الزط.

ومن المعروف أن سياسة الحجاج في العراق، كانت تقوم على زيادة مواردها المالية لذا سلك جميع السبل لتحقيق هذا الغرض، فقطع القطائع في أرض العراق لإحيائها واستغلالها في تعمير البلاد وزيادة الجباية وتوفير الحيوانات والأيدي العاملة لإعمار السواد. وبناء عليه أرسل إليه محمد بن القاسم أقواما من زط السند مع أسرهم وجواميسهم لتحل محل العناصر الزطية التي انتقلت من البصرة إلى الشام في عهد معاوية بن أبي سفيان وأسكنهم الحجاج بأطراف كسكر[٦٩] بغية تعمير المنطقة، كما منع من ذبح البقر والجواميس في السواد للقيام بعملية الحراثة والزراعة، فتناسل الزط بها وازداد عددهم، وقد لحقهم الجور وساء وضعهم المعيشي وعندما أحسوا بقوتهم وشخصيتهم أخذوا يشاركون في الحياة السياسية مراغمة للدولة الأموية ، ومن ثم تمردوا على السلطة فانضم إليهم العبيد وبعض من موالي باهلة ممن كانوا يعانون من سوء الوضع المعيشي، وانضموا جميعا إلى عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث وأعانوه عندما قام بثورته ومعه القراء والعباد والفقهاء من أهل العراق ضد الحجاج سنة ٨١هـ / ٧٠٠م، وقد أثار هذا غضب الحجاج الذي هدم بيوتهم وحط من أعطياتهم، وقال لهم: «كان من شرطكم أن لا تعينوا بعضنا على بعض». ثم بعث بعضا من هؤلاء الزط مع جواميسهم إلى الوليد بن عبد الملك فأرسلهم الوليد بدوره إلى الثغور في المنطقة

(٦٨) Lane - poole, *Mediaval India*, Vol. III, p.10

(٦٩) كسكر كوره واسعة، امتدت بطائحها ومستنقعاتها جنوبا إلى البصرة. وكانت تقطعها نهر قديمة تسمى نهر الزط وقصبتها مدينة واسط بين البصرة والكوفة: ياقوت، **معجم البلدان**، جـ ٤، ص ٤٦١.

الواقعة بين أنطاكيا والمصيصة. وذلك لأن هذه المنطقة على حد قول البلاذري كانت مسبعة يتعرض الناس فيها للأذى، فاشتكوا من كثرة هجوم السباع عليهم، فبعث الوليد لهم بأربعة آلاف من هذه الجواميس فانتفع الناس بها ابعتبارها أكبر عدو للأسود.[٧٠]

ولما جاء يزيد عبد الملك وقبض على أموال بني المهلب أصاب لهم أربعة آلاف جاموسة كانت بكور دجلة وكسكر، فأرسلها إلى المصيصة أيضا مع قوم من الزط وبذلك أصبح عدد الجواميس بالمصيصة ثمانية آلاف جاموسة.

وفي أواخر حكم الدولة الأموية وأثناء فتنة مروان ابن محمد استولى أهالي أنطاكيا وقنسرين على كثير من هذه الجواميس وساقوها إلى أنطاكيا، غير أن أبا جعفر المنصور أمر بردها إلى المصيصة بعد ذلك.[٧١]

انتفاضات الزط في عصر الدولة العباسية

لما قامت الدولة العباسية عمل خلفاؤها جاهدين على الحفاظ على بلاد السند الإسلامية وسعوا على توسيع رقعتها، ففي عهد الخليفة الأول أبي العباس عهد بأمر هذه الأقاليم إلى أبي مسلم الخرساني الذي بدوره أرسل عددا من الولاة إلى بلاد السند لاستمالة قلوب الناس هناك إلى دعوة بني العباس كما أمر بتجديد بناء مدينة المنصورة وأقام بها مسجدا جديدا.

وعندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة عني بأمر بلاد السند وأرسل هشام بن عمرو التغلبي والياً عليها، فاتجهت همة هشام إلى توسيع رقعة إمارته، فجهز حملة بحرية على نارند والقندهار بقيادة عمرو ابن جميل، كما ضم إقليم الكجرات واستولى على بروج ميناء بحر العرب، كما أخضع الملتان وبلغت جنده كابل وكشمير.[٧٢]

(٧٠) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٧٢، ٣٦٧، ٣٦٨.

(٧١) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٧٢.

(٧٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٣١؛ احمد الساداتي، **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية**، جـ ١، ص ٦٦.

مات أبو جعفر المنصور وعلى بلاد السند معبد بن الخليل التميمي سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م فعزله المهدي وولى بدلا منه روح بن حاتم. وفي عهده قام الزط بالاضطرابات والفتن في الأجزاء الغربية من البلاد ولم يستطع الوالي أن ينظم الأمور في بلاد السند، وعجز عن القضاء على الفتن التي قام بها الزط، فعزله الخليفة بعد شهور من توليه الحكم ونقله إلى أفريقيا.(٧٣)

وبعد عزل روح بن حاتم سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م تولى حكم بلاد السند نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي ولكنه عزل أيضا في السنة نفسها التي تولى الحكم فيها.(٧٤) لأنه فيما يبدو فشل هو أيضا في القضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية التي قام بها الزط.

ولقد استعمل المهدي بعد ذلك عبد الملك بن شهاب المسمعي على بلاد السند فتولاها أقل من عشرين يوما ثم ردت إلى نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي مرة أخرى.(٧٥)

ويعود عزل ولاة السند في عهد الخليفة المهدي بهذه السرعة فيما يبدو إلى أسباب عديدة منها: أن اشتداد النزاع بين القبائل العربية التي هاجرت إلى هناك منذ بداية الفتح الإسلامي أضعف من سلطان الحكومة الإسلامية، فكان من جراء انشغال الولاة بالقضاء على فتن هذه القبائل أن اشتغلت القبائل السندية غير الراغبة بحكم المسلمين ومن بينهم الزط هذا الوضع وقامت بإثارة الشغب، يساندهم في ذلك الأمراء الهنادكة على الحدود الغربية من بلاد الهند. فكان هؤلاء الأمراء يمدون الزط بالمال والسلاح حتى يستمروا في مضايقة العرب، ومن ثم اقتطاع أراض من أملاك المسلمين السندية وضمها إلى إمارتهم. ثم بعد ذلك عين المهدي بسطام بن عمرو التغلبي أخا هشام بن عمرو التغلبي الذي كان واليا على بلاد السند في عهد أبي جعفر المنصور. ونظراً لما اكتسبه من خبرات كثيرة في السنوات الطويلة التي عاشها في تلك البلاد حين كان نائباً لأخيه من ١٥١ ـ ١٥٧هـ/ ٧٦٨ ـ ٧٧٣م فقد استطاع أن يقضي على الانتفاضات التي قام بها الزط كما كان ناجحا في إدارة شئون البلاد.(٧٦)

ولقد أعقب ذلك تولي الليث بن طريف الحكم في السند فسلك طريق الشدة والعنف مع الثائرين، وأمن أحوال البلاد وقضى على ثورات القبائل العربية والزط، ويذكر اليعقوبي «أن الليث بن طريف قدم المنصورة (عاصمة السند) فأقام بها شهرا والزط قد كثيروا فجرد عليهم السيف فأفناهم».(٧٧)

أما عن الزط القاطنين في جنوب العراق فقد تكاثر عددهم مع مرور الأيام، وتزايدت قوتهم أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون مما شجعهم على إثارة الفتن والقلاقل رغبة في التخلص من الظلم والجور الذي لحق بهم ورغبة في تحسين وضعهم المعيشي السيء. ولذا استغلوا وجود المأمون في مرو في بداية خلافته وتمردوا على السلطة. وجسدوا تمردهم بإثارة الاضطرابات وعدم الاستقرار حتى تغلبوا على طريق البصرة، وبدأوا يغيرون على السفن القادمة إلى بغداد وينهبون غلاتها ويسيطرون على الطريق المائي المؤدي إلى بغداد فانقطع بذلك عنها جميع ماكان يحمل إليها من البصرة في السفن.(٧٨)

ولما استقر المأمون ببغداد سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م شعر بخطرهم ورأى ضرورة التخلص منهم، فأوكل هذه المهمة إلى عيسى بن يزيد الجلودي سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م.(٧٩) غير أنه أخفق في القضاء عليهم. فولى المأمون داوود بن ماسجور سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م

(٧٣) خليفة بن خياط، **تاريخ خليفة بن خياط**، ص ٤٤١؛ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ٣٨٠؛ القاضي اطهر المباركبوري، **العقد الثمين**، ص ٢٥.

(٧٤) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ٤٩١؛ ابن الأثير **الكامل**، جـ ٥، ص ٦٠.

(٧٥) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي** (بيروت: دار صادر، د.ت)، ص ٣٩٨.

(٧٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ٤٩١، ٥٠٢؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٥، ص ٥٤؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، جـ ٣، ص ٢٦١.

(٧٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، جـ ٢، ص ٣٩٨.

(٧٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٨، ٣٦٩.

(٧٩) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ١٠٤٤؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٥، ص ١٩٧.

ولاية البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين وعهد إليه بمحاربة الزط.(٨٠) ولكنه فشل هو الآخر في القضاء على انتفاضاتهم المتتالية لعدم تمكنه من التوغل وسط الأهوار والمستنقعات والآجام والأماكن التي يعتصم بها الزط.

وقد أدى عدم تمكن قواد المأمون من السيطرة على فتنة الزط أن سخر منه نصر بن شبث العقيلي الذي امتنع عن بيعة المأمون وتغلب على كيسوم في شمالي حلب وماجاورها ومنع إرسال خراج منطقته إلى بغداد فولى المأمون عبد الله بن طاهر لمحاربته، وأقام عبد الله على محاربته خمس سنين وضيق عليه حتى طلب الأمـان. وقد قبل نصر أمان المأمون بشرط ألا يطأ بســاطه. وقـد رفض المأمون ذلك وكتب اليه يهدده بالقضاء عليه وعلى أتباعه وحين سمع نصر ذلك علق عليــه ساخــراً «ويــلي عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه ـ يعني الزط ـ يقوى على حلبة العرب».(٨١)

ويدلنا تعليق نصر بن شبث الطريف هذا على أن انتفاضة الزط في عهد المأمون رغم قلة عددهاـ كانت قوية، حتى عجز قواده عن الانتصار عليهم، كما يدل تشبيهــه الزط بالضفــادع على أنهم كانــوا يسكنون منـطقة المستنقعات المائـية فــي منطقــة البطيحـة جنــوبي العــراق.

وقد سار الخليفة المعتصم على هدى سياسة أخيه المأمون ونفذ جميع ما أوصاه به من حيث الاهتمام بأمــرالرعيــة ومحــاربــة الخارجين على الدولة وعدم التهــاون معهم. وحمــاية الحدود الإسلامية والزب عنهــا. وقــد كان المعتصم يمتــاز على أخيه المأمون بالنواحي الحربية.

وقــد تهيأت الفرصة أكثر لجماعة الزط الثائرين بجنوبي العراق بانضمام العناصر الساخطة الأخرى مثل العبيد الفارين من المناطق الأخرى وذلك لسوء وضعهم المعيشي، وكـذلك موالى قبيلة باهلة وغيرهم، وقد شجع هؤلاء جميعا الزط على المجاهرة بالعصيان وقــطع الطريــق والقــيــام بأعمــال النهب والسلب والإرهاب.(٨٢) ونتج عن ذلك أن سيطروا سيطرة تامة على طرق التجارة والمواصلات بين البصرة وبغداد، وحالوا دون وصول الأقوات إلى بغداد، فتعطل طرق النقــل والمــواصــلات المــائية مدة طويلة، حتى قام المـعتصم بإرســال جيش عظيم لحــربهم (سنـــة ٢١٩هـ/ ٨٢٤م) جعل على قيادته أحد قواده وهو أحمد بن يوسف بن مسلم بن قتيبة الباهلي. ولكنهم هزموه وفرضوا المكوس والرسوم الجائرة على السفن المارة في الطريق المائي من البصرة إلى بغداد. وكان سبب نجــاحهم وانتصارهم على الجيوش العباسية اتخاذهم أسلوب حرب العصابات وهو أسلوب الكر والفــر السريع، ثم طبيعة المنطقة من حيث املاؤها بالبرك والمستنقعات والأعشاب والبوص.

وعلى أثر انهزام جيش أحمد بن يوسف الباهلي قرر المعتصم اتخاذ الإجراءات العسكرية الصارمة والقضــاء على فتنــة هذه العنــاصر الساخطة التي هددت مرافق دولتــه نهائيا. فجهز جيشا قويا وضم إليه من القواد والجند خلقا كثيرا، وجعل على قيادته عجيف بن عنبسة، وبلغ من اهتمام المعتصم بهذه الحملة أن رتب المحطات على طريق بغداد ـ البصرة ـ وجهزه بالمؤن اللازمة والخيول السريعة فكانت أخبار المعركة تصله وهو بمدينة السلام أولا بأول في ساعات من النهار أو أوائل الليل.(٨٣)

وقــد استخــدم عجيف مع الزط أسلوب الشــدة والحزم واتبع معهم تكتيكا حربيا لم يستخدمه معهم أحد من القواد قبله، فعسكر بالقرب من واسط بقرية يقال لها الصافية في خمسة آلاف رجل وضيق عليهم الخنــاق وأخذ يسد عليهم المسالك البرية والنهرية، وحبس ميــاه الأنهار عنهم وحاصرهم من كل جانب

(٨٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ١٠٤٥؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٥، ص ٢٠٤.

(٨١) ابن طيفور، أبو الفضل احمد بن طاهر (ت ٢٨٠)، **بغداد في تاريخ الخلافة العباسية** (بيروت: مكتبة المعارف، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م)، ص ص ٧٥ ـ ٧٧.

(٨٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٨.

(٨٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٨؛ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ١١٦٧؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٥، ص ٢٣٢.

حتى يحملهم على الاستسلام. وقد تزعم الزط رجل يدعى محمد بن عثمان وكان له قائد يدعى سملق. وفي أولى جولات عجيف معهم أسر منهم خمسمائة وقتل ثلاثمائة رجل ثم ضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوسهم إلى المعتصم، وبقي بإزائهم خمسة عشر يوما فظفر منهم بخلق كثير. وظل يحاصرهم مدة تسعة أشهر حتى أرغمهم على طلب الأمان إذ أدركوا أنه لا مفر لهم من ذلك، فأمنهم فخرجوا إليه وكان عددهم سبعة وعشرين ألفا بين رجل وإمراة وطفل، وقد بلغ عدد مقاتليهم إثني عشر ألفا.[٨٤]

وقد اشترك المصريون من سكان الدلتا أو الوجه البحري في قتال الزط نظراً لتعودّهم السباحة والقتال في النيل. وقد لاحظ المعتصم حينما كان واليا على مصر أثناء خلافة أخيه المأمون ذلك التشابه بين طبيعة أراضي الدلتا المصرية وطبيعة بطائح جنوبي العراق من حيث امتلاؤها بالبرك والمستنقعات والقصب والأعشاب. ولهذا قرر الاستعانة بالأسرى المصريين، الذين حملهم معه إلى العراق، في محاربة الزط فكانوا يسبحون في هذه المستنقعات مثل السمك دون أن يراهم أحد ثم يهاجمون الزط فجأة بالحراب التي تقتلهم حتى هزموهم.[٨٥]

وبعد عزيمة الزط حملهم القائد عجيف في السفن وهم على هيئتهم في الحرب ومعهم الأبواق وأعطى لكل من أصحابه دينارين جائزة ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م فمروا أمام الخليفة المعتصم ورجال دولته وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام نقلوا بعدها إلى الجانب الشرقي من بغداد ثم أمر المعتصم بشر بن السميدع بنفيهم إلى خانقين في آسيا الصغرى ثم نقلوا بعدها إلى ثغر عين زربة وبقوا هناك حتى أغار البيزنطيون على مدينة عين زربة سنة ٢٣١هـ/ ٨٥٥م فأسروا من كان فيها ونقلوهم إلى الأناضول.[٨٦] والحقيقة أن انتفاضة الزط هذه ماهي إلا بداية سلسلة من الانتفاضات الأخرى التي شهدتها منطقة جنوب العراق كثورة الزنج والقرامطة وحركة عمران بن شاهين.

وعلى أثر الفتن التي قام بها الزط في جنوبي العراق وهزيمتهم، قامت القبائل الزطية في بلاد السند أيضا بالفتن والاضطرابات ضد العرب (سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م) وذلك في مستهل حكم عمران بن موسى بن يحيى البرمكي الذي يتولى حكم بلاد السند بعد وفاة والده موسى. وقد أمره المعتصم بأن يأخذهم بالشدة، فخرج عمران بجيشه إلى منطقة القيقان. وكان يسكنها الزط، فقاتلهم قتالا شديدا حتى انتصر عليهم ثم بنى مدينة بالقرب من منطقتهم القيقان وسماها البيضاء وأسكنها جنده وحصنها وجعلها بمثابة مركز عسكري لمراقبة تحركات الزط والقضاء عليها بسرعة وسهولة.[٨٧]

ثم هاجم عمران بعد ذلك الميد وقتل منهم ثلاثة آلاف، وعسكر على نهر الرور. وهناك فكر باتخاذ أسلوب آخر ضد الزط الذين لم يقلعوا عن القيام بالفتن والنهب والسلب والقتل كلما سنحت لهم الفرصة، فجمعهم وأخذ منهم الجزية وختم على أيديهم مبالغة في إذلالهم وأمرهم بأن يكون مع كل واحد منهم كلب حتى يعرفوا ويتجنب الناس شرهم.[٨٨]

وهكذا ترى أن المعتصم بما عرف عنه من حزم وعزم يعمل جاهدا على القضاء على فتن الزط في كل مكان، فأخمد حركاتهم في بلادهم السند لحين، كما

---

(٨٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٨؛ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ٣، ص ص ١١٦٧؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٥، ص ٢٣٢.

(٨٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٩؛ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ص ١١٦٧ ـ ١١٦٨؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٥، ص ٢٢٣؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، جـ٣، ص ٣٢١.

(٨٥) أحمد مختار العبادي، «حركة الزط في العصر العباسي الأول»، البحوث المقدمة إلى **مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية**، الدوحة، اتحاد المؤرخين العرب: لجنة تدوين تاريخ قطر، ١٩٧٦م، ص ٢٤١.

(٨٦) خليفة بن خياط، **تاريخ خليفة بن خياط**، ص ٤٧٦؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٩؛ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣ ص ص ١١٦٨ ـ ١١٦٩؛ المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٢٣؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، جـ ٣، ص ٣٢١.

(٨٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٣٢.

(٨٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٣٢.
Lambriok, *Sind*, A General p. 210.

استأصل شأفتهم في جنوبي العراق حتى لا يعودوا إلى بث الفوضى ونشر الفساد وامتهان القتل والسلب وإزعاج السلطة مرة أخرى. ولقد كان نفيهم إلى الثغور الإسلامية نتيجة خطة مدبرة من الدولة العباسية لإبعادهم نهائيا عن قلب العالم الإسلامي. ولكن هذا لا يعني أن تركيبة المجتمع في سواد العراق كانت تخلو من بقايا الزط. فالمصادر الإسلامية تذكر من حين/لآخر اسم الزط والسنود ضمن الأحداث التاريخية التي كان لهم دور فيها. فنرى على سبيل المثال اشتراك بعض السنود في ثورة الزنج ضد العباسيين تحت قيادة رجل منهم معروف يسمى نصر السندي.[٨٩]

ويذكر المقريزي أنه في سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م خرج رجل من السواد يعرف بأبي حاتم الزطي بعد إخماد حركة حمدان قرمط في سواد الكوفة. فقصد أبو حاتم هذا أصحاب البوراني وكان أحد دعاة حمدان قرمط وإليه تنسب البورانية[٩٠]، وحرم عليهم تناول الثوم والبصل والكرات والفجل وكذلك جميع أنواع الحيوانات وأقام معهم سنة ثم اختفى، ويضيف المقريزي أنه فرض عليهم ما لايقبله أحمق[٩١]، ولعل تحريم رجل هندي يؤمن بمذهب النباتيين على أتباعه أكل لحوم الحيوانات أمر ليس بغريب. إلا أن تحريمه أكل الثوم والبصل والكرات والفجل قد يكون بدافع كراهته مما له من رائحة نفاذة، أو لأنه كان بهدف تصدير هذه المنتجات وعدم استهلاكها محليا.

ويذكر الوزير أبو شجاع أنه في سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م قبض بهاء الدولة البويهي على أبي الفرج محمد بن أحمد بن الزطي ـ صاحب المعونة ببغداد ـ وقتله لأنه أسرف في الإساءة إلى الناس.[٩٢]

تسرب الزط إلى أوربا :

وهكذا بقي الزط في منطقة الحدود البيزنطية وسوريا الشمالية مدة من الزمن حتى أغار البيزنطيون على عين زربة سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م في عهد المتوكل وأخذوا من كان فيها من الزط أسيرا مع نسائهم وأولادهم ونقلوهم إلى الأناضول[٩٣]، كما ذكرنا سابقا. ويبدو أنهم وجدوا من خلال الدولة البيزنطية طريقا إلى البلقان وبوهيميا[٩٤]، ومنها تسربوا إلى مختلف البلدان الأوربية. ويحتمل أن تكون هذه العناصر الزطية التي تسربت إلى أوربا أصولا للغجر في الوقت الحاضر وذلك لأسباب منها:

١ ــ أنهم يعرفون في كثير من البلدان الأوربية بأسماء ترجع في أصولها إلى كلمة جاءت أو الزط فهم في أسبانيا مثلا يعرفون باسم خيتانو GITANO وفي انجلترا GYPSIES وفي فرنسا GITAN[٩٥] كما يعرف الغجر في سوريا بالنور وعند الدمشقيين بالزط.[٩٦] وفي هذا الصدد يذكر الدكتور/ أحمد مختار العبادي ـ استنادا على المصادر الأسبانية ـ أن المؤرخين الأسبان يذهبون إلى أن أول ظهور الغجر GITANOS في أسبانيا كان في أرض غاليسيا أو جليقية في شمالي غرب أسبانيا وأنهم وصلوا إلى هناك عبر الأراضي البيزيطية سنة ٨٣٥م.[٩٧] ويتفق هذا التاريخ مع ماورد في المصادر العربية من أن نقل الزط إلى الثغور البيزنطية في عهد المعتصم كان في هذه السنة نفسها ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م.

---

(٨٩) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٣، ص ص ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧.

(٩٠) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، **اتعاظ الحنفا**، تحقيق جمال الدين الشيال، جزءان (القاهرة: د.ن.، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، جـ ١، ص ٥٥.

(٩١) المقريزي، **اتعاظ الحنفا**، جـ ١، ص ١٧٩.

(٩٢) الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين (الملقب ظهير الدين الروذراوري)، **ذيل كتاب تجارب الأمم** (بغداد: مكتبة المثنى، د.ت.)، جـ ٣، ص ١٧٩.

(٩٣) ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٥، ص ٢٩٦؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، جـ ٣، ص ص ٢٣١ ـ ٢٤٧.

(٩٤) موريس لومبار، **الإسلام في مجده الأول**، ص ٢٣٠.

(٩٥) أحمد مختار العبادي، **حركة الزط في العصر العباسي الأول**، ص ٢٤٢.

(٩٦) مصطفى جواد، «الغجر في المراجع العربية»، **مجلة العربي**، العدد ١٢٦، الكويت وزارة الأعلام (صفر ١٣٨٩هـ/ مايو ١٩٦٩م)، ص ٤٠.

(٩٧) أحمد مختار العبادي، **حركة الزط في العصر العباسي الأول**، ص ٢٤٣.

٢ ــ هنــاك سمــات مشتركة بين طبيعة الغجر في جميع أنحاء العالم في الوقت الحاضر وطبيعة الزط في العصــور التي تحـدثنـا عنهـا وهي الهجـرة والأميـة والهمجيـة وامتهان السلب والنــهـب ونشر الفــوضى واتخــاذ الأعمــال الهامشية كوسيلة لمعيشتهم، وقد اشتهر هؤلاء الزط في المشرق الإســلامي بامتهـان الغنــاء والرقص.[٩٨] وهو نفس الأسلوب الذي يتبعونه في الوقت الحــاضر في جميــع المنــاطق التي يعيشون فيها.

٣ ــ تشكـل اللغة سمة من السمات المهمة التي تربط بين الغجر وتحمل تراثهم المشترك وهي من اللغات الآرية الهندية، وهذا ما يثبت أنهم جاءوا في الأصل من الهند.[٩٩]

وصفوة القول، أن قبائل الزط هي قبائل سندية وفـدت إلى البلاد الفارسية والعربية واستقرت فيها وإن كانت هذه الوفـادة قد اتخذت أشكالا مختلفة منهـا وفـود هؤلاء القــوم كأسرى أو جنود مرتزقة، أوكملهين أو مزارعين يعملون في استصلاح الأرض في منـطقـة السواد جنوبي العراق أو فرارا من بطش وجـور الحكـومـة البرهمية التي عدتهم من ضمن المنبـوذيـين أو جاءوا إلى هذه البلاد كتجار مكونين جاليـات كبـيرة على سواحـل الخليج العربي وبلاد اليمن. وقـد كان لهـذه العنـاصر الزطيـة نشـاطها وتحركاتها الملموسة داخل العالم الإسلامي وذلك على هيئة حركات تمرد وثورات أزعجت السلطات الحاكمة مما دفعها إلى القضاء عليهم أحيانا وإبعادهم عن قلب العالم الإسلامي إلى أطراف الحدود الإسلامية البيزنطية أحيانا أخرى. وذلك بهدف الاستفادة منهم في تعمير هذه المناطق وحماية الثغور من الأعداء، مع وقوعهم في الأسر أثناء حملات البيزنطيين التقليدية على الحدود الإسلامية ونقلهم إلى الأناضول وآسيا الصغـرى تسرب كثيرمنهم إلى أوربا ولعلهم أصل الغجر في الوقت الحاضر .

---

(٩٨) حمزة الأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض**، ص ٤٩، انظر ايضا ص٦.

(٩٩) نجـوى الحسنيـة، «الغجر في أوروبا رحل وتكنولوجيا»، **مجلة تاريـخ العـرب والعـالم**، العدد ١٢، (ذو القعدة ١٣٩٩هـ/ اكتوبر ١٩٧٩م)، ص٦٦.

العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، ١٤٣ ـ ١٩٠ (١٩٩٣م).

مصحف بالقراءات السبع بجزيرة شندويل بمصـــر

للدكتور محمد عبد الستار عثمان

ملخص البحث : كشف الباحث عن هذا المصحف بجزيرة شندويل، وهو مثال نادر حيث إنه أعد إعدادا خاصا لتعليم القراءات السبع اعتماد على مؤلفات الشاطبى في هذا المجال.

وتتناول هذه الدراسة هذا المصحف، فتبدأ بدراسة وصفية للمصحف تشير إلى ما يتضمنه من مقدمة توضح منهج كتابة المصحف وإعداده إعدادا خاصا لتعليم القراءات السبع، ووصف عام لديباجته وما تتضمنه من عناصر ووحدات زخرفية أخرى ممثلة في أشرطة عناوين السور وفي شمسات تقسيم المصحف إلى أجزاء وفق تقسيمات متعددة.

ثم تعـرض الدراسـة لتاريخ المصحف ابتداء من بدايته في جامع عمرو بن العاص وحتى انتقاله إلى جزيرة شندويل وبقائه بها تتوارثه الأجيال من ذرية نور الدين على بن ابو القاسم الطهطاوي. ويتضمن هذا التاريخ تحديد تاريخ إخراجه سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م.

وفي إيجـاز يعـرف البـاحث بالقراءات السبع ليفسر للقارىء تلك الرموز والهوامش التي صاحبت النص القرآني لتوظيف هذا المصحف لتعليم القراءات السبع. ثم يلي ذلك دراسة لمتن «السماع» الذي بنهاية المصحف، وهي دراسة كشفت عن اسمين من أسماء القراء بجامع عمرو ابن العاص سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م.

ثم ينتقل الباحث لدراسة الإخراج الفني للمصحف وهي دراسة ركزت على الإخراج الفني لديبـاجـة المصحف بوصف زخارفها الهندسية والنباتية وتحليل هذه الزخارف، وكشفت عن الطريقة التي تم بها رسم التصميم الزخرفي الهندسي لهذه الديباجة وتتبع خطواتها، ووضح الباحث ذلك بأشكال توضيحية تعين القارىء على متابعة خطوات تنفيذ هذا التصميم الزخرفي الهندسي. ومن خلال ذلك أصلت الدراسة لموضوع زخرفة المصحف وقارنت بين زخارف ديباجته وزخارف آثار إسلامية مملوكية أخرى معاصرة غير محددة التاريخ، ويمكن تحديد تاريخها في إطار هذه المقـارنة. ثم تناولت بعد ذلك مواضع الزخرفة الأخرى في المصحف سواء المتعلقة بعناوين السور والفواصل بين الآيات أو شمسات تقسيمات المصحف بانواها المختلفة، تلك التقسيمات التي تعددت من مستوى تقسيم المصحف نصفين إلى تقسيمه ستين حزبا.

كما يتضمن البحث دراسة تحليلية لخط المصحف كشفت عن ملامح اسلوب ناسخ المصحف في كتـابـة المتن القرآني، واوضحت علاقة هذا الأسلوب بكون المصحف اعد ليكون مصحفا تعليميا للقراءات السبع.

عثرت على هذا المصحف[١] أثناء إحدى زياراتي لجزيرة شندويل[٢] إحدى قرى مركز سوهاج بمحافظة سوهاج، وتبرز أهمية هذا المصحف من عدة نواحي تتمثل في أنه أعد إعدادا خاصا يتضمن أحكام القراءات السبع، كما أنه اعتمد في كتابة هذه الأحكام على ما ألفه الشاطبي، أحد أعلام القراءات بمصر في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ويتضمن هذا المصحف في بدايته مقدمة توضح ما تتميز به كل قراءة من القراءات السبع، مع الإشارة إلى رواة كل قراءة وأسانيدهم، وكذلك إشارة إلى تفسير بعض العلامات المكتوبة فوق النص القرآني وتتصل بالقراءات المذكورة.

ومن ناحية أخرى يوجد بآخر المصحف «سماع» ـ وهو بمثابة الإجازة؛ يسجل تقليداً علمياً جرت العادة به في مجال تخريج أجيال من القراء يجيدون هذا الفن. كما يعتبر المصحف نموذجا رائعا لأساليب إخراج مثل هذه المصاحف التعليمية، ويتضح ذلك في استخدام أكثر من خط لتمييز النص القرآني عن غيره وفي استخدام أحبار مختلفة الألوان استخدم كل منها في مواضع محددة، وكذلك استخدام علامات ورموز جرت العادة باستخدامها في إخراج المخطوط الإسلامي بصفة عامة، وتفسير ما استخدم منها في هذا المصحف في ضوء هذه القواعد يجلي جانبا مهما من الجوانب المتصلة بالمخطوطات الإسلامية وعلى رأسها المصاحف الشريفة .

ولهذا المصحف من الناحية الفنية الجمالية، أهمية خاصة تتصل بأسلوب زخرفة ديباجته والصفحة الأولى سيما الأشرطة التي تتضمن بيانات «سورة فاتحة الكتاب» وسورة «البقرة» وكذلك الصفحتين الأخيرتين من النص القرآني، سيما وأن هذه الزخرفة جمعت ما بين الزخارف الهندسية والباتية والكتابية واستخدم في تنفيذها الألوان والتذهيب. وتمتد هذه الأهمية إلى شكل الخط الذي كتب به المصحف وأسلوب تنفيذه. ويزيد من أهمية المصحف ـ من الناحية الأثرية ـ كون هذا المصحف مؤرخ بسنة ٧٢٣هـ/ ١٣٣٢م وقد ورد هذا التاريخ في موضعين بالمصحف أحدهما في المقدمة والآخر في نهاية السماع بآخر المصحف (أنظر لوحة ١، ٥)

الوصف العام للمصحف

المصحف حاليا في حالة سيئة من الحفظ، فَقَدَ دفتيه الأصليتين[٣]، وأصبح الآن عبارة عن أوراق مفككة، ويبلغ عدد أوراقه ٣٣٤ ورقة من الكاغد العربي السميك الذي يميل لونه إلى الاصفرار. وقياس كل منها ٣٨ سم طولا×٢٥سم عرضا، أي أنه من نمط المصاحف التي يزيد ارتفاع الصفحة فيها على عرضها «والذي عرف عند مؤرخي الفن باسم Format a la Francaise وهذا الشكل هو الذي كان

(١) هذا المصحف ملك السيد/ عبد الوهاب حفني الشريف من اشراف جزيرة شندويل، ويمتد نسبه إلى السيد/ على نور الدين ابن ابو القاسم الطهطاوي الذي ينحدر نسبه إلى على بن ابي طالب رضي الله عنه، وقد قطن على نور الدين الجزيرة بعد ان تزوج منها وانشأ بها مسجدا وتوفي ودفن بها في ضريح يقع خارج مسجده في الجهة الشمالية الشرقية، وكان على نور الدين هذا من الصالحين الكبار المشهورين بقراءة السبع (والاستزادة راجع (احمد رافع الحسين القاسمي الحفني الطهطاوي، **الثغر الباسم في مناقب سيدي ابي القاسم**: (القاهرة، د.ت)، ص ص ٤، ٣٨ ـ ٣٩، ٨١ ـ ٨٢. ويذكر مالك هذا المصحف عن اجداده انهم توارثوا هذا المصحف الذي كان ملكا لعلي نور الدين المذكور والذي توفي سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٠م بل انهم يبالغون في انه كتب هذا المصحف بيده بالرغم من انه كان ضريرا. وربما كان هذا الاعتقاد في ضوء ما ذكره أحد معاصريه شمس الدين البهنسي من انه دخل عليه ذات يوم في طبقة في داره «فوجد عينيه مفتوحتين وبيده قلم وهو يكتب» (احمد رافع، **الثغر الباسم**، ص ٣٨) ولكن هذا الاعتقاد خاطيء لان المصحف انجز في القاهرة، والذي يمكن قوله من هذه الروايات أن هذا المصحف قد آل الى على نور الدين في إطار شهرته بقراءة السبع سيما وأن هذا المصحف أعد إعدادا خاصا لتعليم القراءات السبع. كما سنوضح في الدراسة.

(٢) جزيرة شندويل بلدة كبيرة على الشاطي الغربي للنيل، تقع على بعد حوالي ٤٥٠ كم من القاهرة، وهي تتبع الآن مركز سوهاج ـ محافظة سوهاج بجمهورية مصر العربية «ولها شبه قوى بالمدن في ابنيتها وبها علماء وأشراف ومساجد جامعة وزوايا وأكبر مساجدها وأشهرها مسجد سيدي علي بن سيدي ابي القاسم الطهطاوي جد مَنْ بها من الأشراف ومقامه بها مشهور وهو في شمالها الشرقي وبها كثير من مقامات الأولياء (على باشا مبارك، **الخطط التوفيقية، عصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة** (بولاق، ١٣٠٥هـ)، جـ٢، ص ٢؛ أحمد رافع، **الثغر الباسم**، ص ٤١.

(٣) عملت للمصحف حافظة حديثة تجمع أوراقه المفككة بعض الشيء.

مألوفا في الكتب قبل الإسلام وبعده، وهو أيضا الشكل الذي لا يزال شائعا في الكتب حتى اليوم»[٤]

وقياس صفحات هذا المصحف يكشف عن اتباع النسبة الفاضلة في جمال المستطيل والتي يبلغ العرض فيها ثلثي الطول[٥] فقياس الصفحات بنفس النسبة تقريبا. كذلك فإن قياس طول المساحة المكتوبة في الصفحة بالنسبة إلى عرضها والبالغ تقريبا ٣١×٥ر٢٠ سم يلاحظ أنه بنفس هذه النسبة الفاضلة، وهو ما نتج عنه بالتالي انسجام في التكوين العام للصفحة نتيجة لهذا التناسب بين تحديد مساحة الصفحة ككل والمساحة المكتوب فيها.

ويبلغ عدد السطور في الصفحة الواحدة ثلاثة عشر سطرا، وهو عدد من السطور لا يتفق مع النسبة الفاضلة لعدد الأسطر في صفحة المصحف الشريف، وهي خمسة عشر سطرا[٦] وربما يرجع ذلك إلى الحاجة إلى توسيع المساحة بين السطور بغرض وضع الرموز والعلامات الخاصةبالقراءات السبع بالإضافة إلى علاماتالوقف والشكل التي دونت أعلى حروف المتن القرآني.

وكتب النص القرآني وعلامات شكله وكذلك علامات الوقف والوصل بمداد أسود، كما كتب علامات القراءات ومعظم الهوامش التي تفسر منهج القراءات السبع بمداد أحمر وكتبت عناوين السور وبياناتها الأخرى كمكان نزولها وعدد آياتها بمداد ذهبي، بينماكتبت بيانات شمسات أقسام المصحف بمداد أبيض واستخدم المداد الفضي في كتابة النص القرآني بديباجة المصحف ـ كما سنوضح ـ

ويبدأ المصحف بمقدمة موجزة في صفحتين تمثلان وجه ورقة واحدة وظهرها، كتبت بالخط النسخ، وهو الخط الذي استخدم أيضا في كتابة التعليقات والشروح بالهوامش وأعلى المتن القرآني، وكذلك «السماع» الذي بنهاية المصحف. وجمع الناسخ بين استخدام المداد الأسود والأحمر في كتابة هذه المقدمة.

وتتضمن المقدمة ما يشير إلى أن «كل ما في هذا الكتاب العزيز من القراءات السبع هو للشيخ الإمام أبي القاسم بن فيره الرعيني بن الشاطبي[٧] رضى الله عنه ونفع به»[٨] كما تضمنت هذه المقدمة إشارة سريعة لأعلام القراءات السبع والرواة عنهم وأسانيدهم مع بيان ما تتميز به كل قراءة. وفي آخر الصفحة الثانية ورد هذا النص الذي يشير إلى تأريخ المصحف «نفع الله به قارئه وناسخه ومصحوبه وجميع المسلمين وكان الفراغ من ذلك في رمضان المعظم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة للهجرة النبوية ».[٩]

ويلي المقدمة ديباجة المصحف وهي عبارة عن

(٤) اتخذ المصحف الشريف في مظهره الخارجي اشكالا ثلاثة: شكل قريب من المربع، وشكل يزيد العرض فيه على الارتفاع وشكل يزيد الارتفاع فيه على العرض، والشكل الأول نادر وعثر على مصحف منه موجود في مكتبة جامعة اسطنبول نسخ بالاندلس سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م وقياسه ٥ ر١١٧ و٥ ر١٨ سم، والشكل الثاني يسمى بالمصحف السفيني لانه قريب من شكل السفينة، ويطلق عليه مؤرخو الفنون في وصف الكتب الفورمة الايطالية Format a Litalienne) (للاستزاده راجع محمد عبد العزيز مرزوق، **المصحف الشريف. دراسة تاريخية وفنية** (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م)، ص ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٥) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، **الخط العربي من خلال المخطوطات** (الرياض، ١٤٠٦هـ)، ص ١٣٦.

(٦) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، **الخط العربي**، ص ١٢٦ وهناك نظام لعدد اسطر الصفة الواحدة في المصحف يبدأ من ٥:٣٠؛ مركز الملك فيصل، **الخط العربي**، ص ٦٤.

(٧) هو القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الإمام أبو محمد وأبو القاسم الرعيني الشاطبي المقرىء الضرير احد الأعلام ولد سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م قرأ على أبي عبد الله المقرىء الشريف، وسمع من ابي الحسن بن هذيل، وارتحل للحج فسمع من السلفي، واستوطن مصر واشتهر اسمه، وبعد صيته، وقصده الطلبة من النواحي، وكان إماما علامة كثير الفنون، منقطع القرين، رأسا في القراءات، حافظا للحديث، بصيرا بالعربية، واسع القلم، وسار الركبان بقصيدتيه حرز الأماني ـ وتختص بالقراءات السبع ـ والرائية ـ وتفصل عدد الآيات في القرآن ـ وخضع لهما فحول الشعراء، وحذاق القراء وتصدر للإقراء بالمدرسة الفاضلية، توفي سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، ودفن بتربة القاضي الفاضل، ومازالت قبته قائمة ملحقا بها مسجد (اثر رقم ٦٠٧ مربع رقم ١٢ط بخريطة آثار القاهرة رقم ٢) (للاستزادة راجع (الجزري، شمس الدين ابي الخير محمد بن محمد (ت ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)، **غاية النهاية في طبقات القراء**. عني بنشره، ج. برجستراسر، ط١ (لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٣٢م)، جـ٢، ص ص ٢٠ ـ ٢٣.

(٨) انظر اللوحة رقم «١».

(٩) انظر اللوحة رقم «١».

صفحتين متقابلتين مجدولتين مذهبتين ومزينتين باللونين الأزرق والبني في تداخل نباتي وهندسي رائع[١٠] سنعود لوصفها بالتفصيل عند الحديث عن الإخراج الفني للمصحف. ثم يلي هذه الديباجة النص القرآني الذي يبدأ بصفحة تتضمن سورة الفاتحة وأول سورة البقرة[١١]، ويلاحظ أن بهذه الصفحة شريطين زخرفيين يتضمن كل منهما اسم السورة وبياناتها كمكان النزول وعدد الآيات. ثم يلي ذلك بقية صفحات المتن القرآني مكتوباً بالخط الثلث بمداد أسود بينما كتبت عناوين السور وبياناتها بمداد ذهبي دون حصرها في أشرطة زخرفية. وفي هوامش هذه الصفحات تعليقات وشروح خاصة بالقراءات السبع مكتوبة بمداد أحمر فيما عدا الكلمة الأولى من كل تعليق فقد كتبت في حالات كثيرة بالمداد الأسود. (أنظر لوحة رقم٤) وتفصل الآيات فواصل زخرفية عبارة عن زهرة ملونة باللون الأزرق ومذهبة، كما توجد لاصفحات في الهامشين الأيمن والأيسر وأحيانا في الهامش السفلي شمسات زخرفية تحدد تقسيمات المصحف سنعود لدراستها بالتفصيل.

والصفحتان الأخيرتان من المصحف، وهما صفحتان متقابلتان تضمان سورة الفلق وسورة الناس يتميز إخراجهما الفني عن بقية صفحات المصحف بما فيهما من زخارف متنوعة سنعود لوصفها تفصيلا. وفي ظهر الصفحة الأخيرة يوجد «سماع» تم ختمه بالمصحف موضع الدراسة ـ في ليلة القدر ٢٦ رمضان سنة ٧٣٣هـ/ ٣سبتمر سنة ١٣٣٢م (أنظر اللوحة رقم ٥).

تأريخ المصحف

اتضح من كل من النصين الواردين في نهاية المقدمة ونهاية السماع أن هذا المصحف قد تم الفراغ منه في شهر رمضان سنة ٧٣٣هـ/ سبتمبر سنة ١٣٣٢م. كذلك يتضح من صيغة السماع أن هذا المصحف كان بجامع عمرو بالقاهرة حيث أتم سماعه الشيخ محمد بن عبد الملك بن عبد الكافي القشيري[١٢]المقرىء بهذا الجامع بقراءة المقرىء أحمد بن محمد العمرى[١٣]، وقد كان ذلك في ٢٦ رمضان سنة ٧٣٣هـ/ ١٧ سبتمبر ١٣٣٢م. أي أن السماع قد تم في نفس الشهر الذي تم فيه نسخ المصحف وتصويبه. ويوحي ذلك بأن هذا السّماع كان أول سماع يتم بهذا المصحف بعد الانتهاء من إخراجه[١٤] ولا نعلم بالضبط متى انتقل هذا المصحف إلى جزيرة شندويل، ولكن توارث هذا المصحف بين أجيال أشراف الجزيرة الذين ينحدرون من نسل على نور الدين بن أبي القاسم الطهطاوي (ت ٧٤١هـ ـ ١٣٤٠م) وما يذكر من أن هذا المصحف كان ملكا له يجعلنا نتصور أن انتقاله إلى الجزيرة ربما كان في الربع الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي .

المصحف بالقراءات السبع

يتميز هذا المصحف بأنه مصحف تعليمي أعد إعداداً خاصاً لتعليم القراءات السبع، وهو بذلك يمثل نموذجا من نماذج المصاحف التعليمية المتصلة اتصالا مباشرا بعلم القراءات في العصر المملوكي في الفترة التي تم إخراجه فيها. ويجدر بنا أن نعرض في عجالة لهذا العلم.

بعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، واستعر القتل في حروب الردة بالقراء لأي الذكر، طلب عمر بن الخطاب من الخليفة ابوبكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد، وتم ذلك من خلال الحفظة المشهود لهم بالاتقان، فكتب على قطع من الأدم (الجلد) وغيرها، وحفظ عند الخليفة ثم آل إلى

(١٠) انظر اللوحة رقم ٢.

(١١) انظر اللوحة رقم ٣.

(١٢) لم اعثر له على ترجمة في المصادر التي بين يدي.

(١٣) لم اعثر له على ترجمة في المصادر التي بين يدي.

(١٤) للاستزادة عن تقاليد السماع في العصر المملوكي راجع (شهاب الدين القسطلاني (ت ٩٢٣/ ١٥١٧م) **لطائف الإشارات لفنون القراءات**، تحقيق عامر السيد عثمان، عبد الصبور شاهين (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، ١٩٧٢م)، جـ ١، ص ٣٣٦ وما بعدها.

الخليفة عمر، حتى توفي، فانتقل الى ابنته حفصة.[١٥]

ومضى الناس يقرءون القرآن ويقرىء بعضهم بعضا بالحروف التي تلقوها عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن الحفظة المتقنين من الصحابة، وكان هؤلاء الحفاظ يختلفون في بعض الأداء حسب سماعهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتفرق المسلمون في الأمصار بعد الفتح، واشتد الخلاف حتى إذا كانت سنة ثلاثين للهجرة اجتمع في غزو أذربيجان وأرمينية أهل الشام وأهل العراق، واستمع بعضهم إلى بعض وهم يتلون الذكر الحكيم فلاحظوا وجوها من الخلاف، وتنازعوا حتى كاد أن يكفر بعضهم بعضا، واطلع الخليفة عثمان على الأمر، فأرسل إلى حفصة وطلب منها صحف القرآن لنسخها فأرسلتها، وكلف زيد بن ثابت بنسخها في المصاحف، وضم إليه عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال لهم إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم. وكتبوا ثمانية مصاحف وجهها إلى البصرة والكوفة والشام ومكة واليمن والبحرين وترك مصحفا بالمدينة، وأمسك لنفسه مصحفا سمي بالمصحف الإمام، وأمر بإحراق هذه المصاحف، فأحرقت مصاحف لبعض كبار الصحابة على نحو ما هو معروف من حرق مصحف أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود حتى لا يدع فرصة لأي خلاف ممكن[١٦] وأمر المقرئين في كل الأمصار أن يتمسكوا بتلك المصاحف وأن يقرئوا الناس على حروفها، وأطاعته الأمة، وأجمعت على ما تضمنه مصحفه، مهملة ماخلفها، من إبدال كلمة بأخرى. وهكذا أصبح مصحف عثمان هو المصحف الإمام في رسم المصاحف حتى وقتنا الحاضر.

ومع أن القرآن دون في مصحف عثمان، لم يتحول الأساس في تلاوته يوماً إلى الاعتماد على المصحف المكتوب، بل ظل الاعتماد منذ وجود الرسول صلى الله عليه وسلم على الرواية بالسند الصحيح المتواتر، فالأساس دائما الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تلقاه شفويا عنه صحابته، وتلقاه عنهم التابعون، وتوالى بذلك السند جيلا بعد جيل. ومنذ القرن الأول تجرد قوم في كل مصر من الأمصار العربية لتلاوة القرآن وضبطها والعناية بها، وبتلقيها الشفوي المروي بالتواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعنى ذلك أن قراءات القرآن سنة يتبع فيها الخالف السالف.

والسماع والمشافهة هما أساس القراءات. وتوالت أجيال القراء يتلونه وفق هذا المنهج والأسلوب. ولم يكن علماء القراءات قد تواضعوا حتى أوائل القرن ٣هـ/ ٩م على أئمة بعينهم يحملون عنهم وجدهم القرآن، فقد كان الأئمة يتكاثرون كما كان يتكاثر حملة القراءات عن أئمة القرن الثاني الهجري، ومنهم من كان يتقن القراءات، ومنهم من لم يكن كذلك، ولا ينكر ما بذل في هذه الأثناء من جهود علماء القراءات في تأليف المصنفات في قراءة كل امام وضبطها وتمييزها بجميع شاراتها وخصائصها؛ لكن ظاهرة كثرة الأئمة وكثرة حملة القراءات جعلت من الضروري أن يتجرد عالم من علماء القراءات أو طائفة من جهابذتها ليقابلوا بين القراءات الكثيرةالتي شاعت في العالم الاسلامي، ويستخلصوا للناس قراءات يحملونهم عليها، حتى لا يتفاقم الأمر، ويلتبس الحق بالباطل، وكان ابن مجاهدهو ذلك العالم الذي اختار بعد الحص والبحث الطويل سبعة من أئمة القراءات حمل عليهم المسلمين في جميع أقطارهم وأمصارهم، وبذلك لَمَّ الشعث وأدرك الأمة قبل أن يتسع بينها الخلاف في قراءات كتابها السماوي العظيم، على أنه عاد وألف كتابا في ذكر

---

(١٥) ابن مجاهد، ابو بكر احمد بن موسى بن مجاهد التميمي، **كتاب السبعة في القراءات**، تحقيق شوقي ضيف، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ص ١٠.

(١٦) ابن مجاهد، **كتاب السبعة**، ص ١١. وذكر «ابن عثمان» أن عقبة بن عامر كان أحد من جمع القرآن، ومصحفه بمصر بخطة على غير التألف الذي في مصحف عثمان وفي آخره كتبه عقبة بيده قال ابن يونس رايت له خطا جيدا ولم ازل اسمع شيوخنا يقولون مصحف عقبة لا يشكون فيه (ابن عثمان، موفق الدين عبد الرحمن بن أبي الحرم المكي بن عثمان الشارعي، **الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم المسمى مرشد الزوار إلى قبور الابرار**، مخطوط نسخة مصورة لدى الباحث حسام إسماعيل، ص ص ٤٤ ـ ٤٥)، ويشير هذا النص إلى مصحف من مصاحف الصحابة التي بقيت حتى بعد نسخ المصحف الإمام.

المقطع	الامام	رمزه	الراوى	رمزه	الرواى	رمزه	المصـر
ابج	نافع	ا	قالون	ب	ورش	ج	المدينة
دهز	ابن كثير	د	البزى	هـ	قنبل	ز	مكة
نصبع	عاصم	ن	شعبه	ص	حفص	ع	الكوفة
فضق	حمزة	ف	خلف	ص	خلاد	ق	الكوفة
رست	الكسائي	ر	أبو الحارث	س	الدورى	ت	الكوفة
حطى	ابو عمرو	ح	الدورى	ط	السوسى	ى	البصرة
كلمكم	ابن عامر	ك	هشام	ل	ابن ذكوان	م	الشام

الشواذ من القراءات. وتبع ابن مجاهد جمهور من العلمـاء والقراء في الأمة فحملو عنه قراءات هؤلاء السبعة وألفوا فيها مصنفاتهم الكثيرة على نحو ما هو معروف عن أبي عمرو الداني في ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م الشاطبى ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م[١٧] وهذا الأخير هو الذي اعتمد على مؤلفاته في كتابة التعليقات والأحكام والرموز المتعلقة بالقراءات السبع في هذا المصحف.

وتسهيلا للإشارة إلى أئمةالقراءات والرواةعنهم كان الاتجـاه إلى التـرمين، فقد اتخذ لكل اسم من أسمــائهم رمـز بعينـه عبـارةعن حرف من حروف الأبجـديـة يسجـل فوق الكلمـةالتي له فيها قراءة بعينهـا. ويـلاحـظ مثـل هذه الحـروف مسجلة في المصحف موضـــع الدراسـة ـ فوق الكلمـات التي اختلفت فيهـا القراءات ويحدد الرمز اسم صاحب القراءة. ويبين الجدول التالي هذه الرموز[١٨]، والخانة الأولى في هذا الجدول تجمع حروف إمام كل قراءة والرواة عنه وبترتيب يبدأ بقاريء المدينة ثم مكة ثم الكوفة ثم البصرة ثم الشام. والخانة الثانية للإمام ورمـزه ثم يلي ذلك خانـة كل راو من الرواة ورمـزه والخـانة الأخيرة تبين اسم المصر الذي ينتمي إليه الإمام والرواة عنه.

وبالإضافة إلى الرمز لأسماء أئمةالقراء والرواة عنهم بالحروف فقد كتبت أحيانا أسماء بعضهم بخط دقيق كالكسائي وورش وابن كثير فوق الكلمات التي لهم فيها قراءة بعينها (أنظـر اللوحـة رقـم ٥، ١٦، ١٨).

السمــاع (أنظر اللوحة رقم ٥)

يتـوارث المسلمـون ـ كمـا أشرنا ـ طريقة تلقي القـرآن وقـراءتـه قراءة صحيحة مجودة بالمشافهة والسماع ابتداء من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عصرنا الحالي. وقد تضمن هذا المصحف في آخـره سماعا كتب على ورقة الصقت بظهر آخر صفحة بالمصحف.

ونـص هـذا السمــاع :

«يقول العبد الفقير إلى الله تعالى محمـد بـن عبـد الملك بن عبـد الكـافي القشـيري أحـد طلبة العلم الشريف المقـرىء بالجمع العمري بمصر المحروسة زاده الله رفعـة، انني سمعت جميـع هذه الختمـة الربعـة العـظيمـة من......[١٩] الجـامعة للقراءات السبـع عن السـادة الأئمة الأعلام المشايخ السبع

---

(١٧) ابن مجاهد، **كتاب السبعة**، ص ص ١٥ ـ ١٦.

(١٨) استخدم الترميز بالحروف في علم القراءات استخدامات عدة، فمن الحروف ما يرمز لأسماء القراء والرواة عنهم كم هو مبين، ومنها ما استخدم ليرمز إلى كتب الفّت في هذا المجال (ابي عمرو عثمان بن سعيد الدالي (ت ٤٤٤هـ)، **المقنع في معرفة مرسوم مصاحف اهل الأمصار** مع كتاب **النقط**. تحقيق محمد احمد وهمان (سوريا: دار الفكر، ١٩٨٣م)، ص ١١ من المقدمة.

(١٩) النقاط ترمز إلى كلمة مفقودة.

والرواة عنهم رضي الله عنهم أجمعـ[ين][٢٠] من هذا المصحف الجليل العظيم بقراءة[٢١] العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن علي بن محمد العمري ثم قرأه علي وأنا أسمع قراءة صحيحة مضبوطة محررة إلى حد غاية الاجتهاد، وهديت إلى حضر [ة النبي][٢٢] صلى الله عليه وسلم، والله الموفق إلى ذلك وله الحمد على ذلك وعلى كل حال وكان الفراغ من ختمتها يوم الخميس سادس عن [تشرين][٢٣] سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة في ليلة القدر.

سمعت جميع هذه الختمة الجامعة للسبع على ما نص وشرح أعلاه في تاريخه.....

«محمد بن عبد الملك القشـ[ـيري][٢٤]

في مصـــــــر .....

عفا الله عـ[ـنـه][٢٥]

ويعـد هذا السمـاع نمـوذجـا جيدا من نماذج «السماع» التي لم يتوقف تسجيلها على المصاحف، ولكن وجـدت أمثلة منهـا أيضـا مدونـة في الكتب المخطوطة التي ألفت في القـراءات، ككتاب تهذيب قراءة أبي عمـران عبـد الله بن عامـر اليحصبى الشامي. لأبي عمرو عثمان بن عثمان المقريء المتوفي سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٣م.[٢٦]

ويسجـل هذا السمـاع تقليدا علميا ساعد على الارتقـاء بتخريجي أجيال من القراء المجودين على أيدي شيوخ القراءات الذين كان يسعى إلى البارزين منهم القاء لينالوا شرف إجازتهم بتسجيل «سماع» كهـذا لمن يجتـاز منهم الآداء بمستوى يجيزه هذا الشيـخ أو ذاك.[٢٧] وبـالإضـافة إلى ذلك فإن هذا السماع يسجل لنا اسم محمد بن عبد الملك بن عبد الكافي القشيري كمقريء بجامع عمرو بن العاص في سنـة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م كمـا يسجل لنا اسم أحد القراء الذين تتلمذوا على يديه. وهو أحمد بن علي بن محمد العمري. وهكذا يسجل هذا السماع ثمرة من ثمـرات النشـاط العلمي بجـامع عمرو، وجانبا من جوانب الدرس الذي كان فيه، فقد نقل المقريزي عن محمد بن عبد الرحمن الصائغ «أنه أدرك بالجامع قبـل وبـاء سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م بعضا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه»[٢٨] وكان بينها درس في القراءات.[٢٩]

الإخراج الفني للمصحف

استخدم في إخراج المصحف بالهيئة التي عليها أسـاليب فنيـة متنوعة نعرض لها تباعا ابتداء من إخراج ديباجته، فالصفحتين الأخيرتين اللتين زخُرفتا بمستوى فني رائع لا يقل أهمية عن الديباجة ثم بقية صفحات المصحف.

ديباجة المصحف[٣٠]

هذه الديبـاجـةعبـارةعن صفحتـين متقـابلتين تشتمـلان على ضروب متنـوعـة من فن الزخـرفـة

(٢٠) بقية الحروف مفقودة لكن واضح أن الكلمة اجمعين.

(٢١) الكلمة غير واضحة تماما لحدوث طمس لها لكنه يمكن أن تقرا «بقراءة».

(٢٢) بقية الكلمة والكلمة التي تليها مفقودة لكن في إطار السياق تم تكملة ما بين القوسين.

(٢٣) بقية الكلمة مفقودة لكن امكن تكملتها في ضوء ماذكر أن الختم كان في ليلة القدر.

(٢٤) تم تكملة الكلمة في ضوء ذكر الاسم كاملا في بداية السماع.

(٢٥) تم تكملة الكلمة في ضوء السياق والحرف الأول الباقي منها.

(٢٦) هذا المخطوط بمجموعة فرفور رقم ٤١٤٣ (راجع منشور مركز الملك فيصـل للبحـوث والدراسات الإسلامية، الخط العربي، ص ص ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢٧) الجزرى، غاية النهاية، جـ ٢، ص ١٠٣، ترجمة رقم ٨٢٦٨.

(٢٨) المقـريـزي، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (بيروت: دار صادر، د.ت)، جـ ٢، ص ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢٩) للاستزادة راجع المقريزي: **خطط** جـ ٢، ص ص ١٥٥ ـ ١٥٦؛ يوسف احمد، **جامع سيدنا عمرو بن العاص، سلسلة المحاضرات الأثرية**، ط ١ (القاهرة: مطبعة المعاهد، ١٩١٧م)، ص ص ١٤٩ ـ ١٥١.

(٣٠) تطلق على الصفحات الأولى المزخرفة في المصحف الشريف كلمة «سرلوح» وهي كلمـة فارسية الأصل مركبة من كلمتين معناهما «اللوح الذي في المقدمة أو في الرأس» ويطلق على هذه الصفحات أيضا «غرة المخطوط» وفي المصاحف تسمى هذه الصفحات أيضا بديبـاجة المصحف لوجود الصلة بينها وبين الديباج أو الحرير المختلف الألوان من حيث زخارفها. والوانهـا (للاستـزادة راجـع Arthur Upham Pope, *Survey of Persian Art*. Published the auspices of the American Institute for Iranian Art and Archeology (Oxford: University Press, 1939), V III, p. 1996 - 178. ومرزوق، **المصحف الشريف**، ص ١٠٢

والتذهيب والتلوين، وقوام الزخرفة تشكيل زخرفي هندسي مركب عبارة عن شكل مثمن في الوسط تقوم على أضلاعه الثمانية أربع نجوم خماسية الرؤوس حيث ترتكز كل نجمة على ضلعين متجاورين من أضلاع المثمن بالتوالي، ورؤوس النجوم الأربع محصورة داخل اطار مربع، وتحصر هذه النجوم بينها أربع كندات رؤوسها إلى الخارج، ومحصورة داخل مربع آخر، ويقوم على الضلعين المتقابلين في الرأس في كل كندة لوزتان رأس كل منهما إلى الداخل، ويؤطر كل ذلك الإطار المربع الخارجي الذي يحدد هذا التشكيل وعناصره المذكورة وأجزاء من أشكال نجمية وأجزاء عبارةعن أنصاف كندات محصورة بين هذا الإطار والنجوم الأربع واللوزات. ويحدد هذه العناصر الهندسية خطوط باللون الفضي والذهبي من الخارج إلى الداخل، ويوجد بداخل هذه العناصر والأشكال الهندسية وحدات من زخارف التوريق مكونة من أوراق نباتية مركبة متداخلة، يلاحظ أنها متنوعة؛ فالوحدة التي تتوسط المثمن الداخلي، تختلف في تصميمها عن الوحدات التي بداخل كل نجمة، وإن كانت الوحدات التي بداخل النجوم كلها متشابهة، كذلك تختلف هذه وتلك عن الزخارف النباتية التي بداخل الكندات، ويلاحظ أن الوحدات الزخرفية النباتية بداخل المثمن والكندات متقاربة في الشكل العام، ومنفذة باللون الذهبي والبني على أرضية زرقاء ساعدت على إبراز الوحدات الزخرفية النباتية لزيادة مساحة هذه الأرضية. واتبع الأسلوب نفسه في أجزاء الأشكال الهندسية ممثلة في انصاف الكندات، وأجزاء الأشكال النجمية بالأركان. أما النجوم الأربع فقد ملأتها الوحدات الزخرفية النباتية المنفذة باللون البني والذهبي بصورة تكاد تكون شبه كاملة حيث لم يتوافر للون الأزرق المستخدم في تكوين الأرضية سوى مساحة ضيقة جدا (أنظر لوحة رقم ٢، والأشكال من ١ ـ ٤).

ويحد هذا المربع الذي يضم هذا التشكيل الزخرفي السابق وصفه من الجانبين شريط ضيق من زخارف مجدولة، وتمتد أعلى وأسفل المربع والشريطين الجانبيين شريط من كتابات قرآنية منفذ بالمداد الفضي على أرضية مذهبة نصها ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون/ تنزيل من رب العالمين[٣١] بل هو قرآن مجيد/ في لوح محفوظ ﴾[٣٢] «صدق الله العظيم». ويؤطر ذلك كله إطار من جوانب ثلاثة، أحدها الجانب الخارجي والآخران العلوي والسفلي وهذا الإطار محدد من الجانبين بخط رفيع باللون الذهبي يليه إطار رفيع باللون البني.

ثم يلي ذلك من الخارج في الجوانب الثلاثة المذكورة شريط من زخارف التوريق المنفذة باللون الذهبي واللون الأزرق في بعض المواضع، ويوجد في الجانب الخارجي الرأسي من هذا الشريط ثلاث صور زخرفية بديعة، حيث يوجد بداخل كل صرة منطقة دائرية يمس محيطها محيط الصرة في القطاع الذي إلى الداخل، وتبقى مساحة كبيرة نسبيا من محيطها ومحيط القطاع الخارجي للصرة، فتبدو المساحة المحصورة بين الدائرة الداخلية ومحيط الصرة من الخارج في هيئة هلالية.

وتملأ المنطقة الدائرية وحدة زخرفيةنباتية مركبة منفذة بالألوان الأبيض والبني والذهبي على أرضية زرقاء، أما المنطقة الهلالية فيها زخرفة توريق منقذة باللون الذهب والبني، ومحيط الصرة من الخارج محدد باللون الذهبي، ويلاحظ أن المنطقة الهلالية بالصرة محددة باللون البني لتوضيح التفاصيل.

ويوجد بنهاية الشريط العلوي والسفلي والجهة الداخلية نصف صرة تشتمل كل منها على وحدة زخرفية نباتية باللون الذهبي والبني على أرضية زرقاء ويحد هذا الشريط من أعلى ومن أسفل، ومن الجانب الخارجي إطار عبارة عن خط باللون الذهبي محصور بين خطين باللون الأزرق، ورسم على هذا الإطار من أعلى وأسفل ومن الجانب الخارجي ورقة نباتية كأسية مثقوبة ومتكررة على مسافات متساوية عددها أربع من أعلى، ومثلها من أسفل وست في

(٣١) قرآن كريم: سورة الواقعة آية ٧٧ ـ ٨٠.

(٣٢) قرآن كريم: سورة البروج آية ٢١ ـ ٢٢.

الجـانب الخارجي للمستطيل ويلاحظ أن عدد هذه الأوراق يعكس النسبة الفاضلة بين عرضي القطاع المـزخرف من الصفحة وطوله حيث إن نسبة عرض هذا القطاع وطوله بنسبة ٢:٣ أيضا، وهي النسبة التي أضفت جمـالا لتناسب قياسات الصفحة مع قيـاسـات المسـاحـة المزخرفة والالتزام في كل ذلك بالنسبة الفاضلة لطول المستطيل إلى عرضه، وإذا ربطنا بين هذا الأسلوب في تحديد المناطق المزخرفة بهـاتـين الصفحتـين وبـين ما اتبـع في الصفحات الداخلية في كتابة المصحف والذي اتبع فيه الأسلوب نفسه، لاتضح أن منفذ هذا المصحف كان حريصا على التمسك بهذه النسبة الفاضلة.

ومن الوصف السـابق لديباجة المصحف يتضح مدى الإسراف الزخـرفي في إبـداعهـا، واستخـدام التذهيب والتلوين باللونين الأزرق والبني في إخراج هذه التصميمات الزخرفية الجميلة. ويعني ذلك أن هذا المصحف ـ موضع الدراسة ـ واحد من نماذج المصـاحف التي اشتملت على مثـل هذه الديبـاجة المذهبة والتي تبرز أهميتها في ناحيتين: الأولى منهما: تتصـل بالمـوقف الديني من زخـرفـة المصـاحف، والثانية: تتصل بالأهمية الفنية للتصميمات الزخرفية في عصر إخـراج المصحف بصفـة خاصة والفنون الإسلامية بصفة عامة.

وبـالنسبـة للنقـطة الأولى فإن زخرفة المصحف لقيت معارضة في بداية الأمر لكن هذه المعارضة لم تستمـر طويـلا حيث وجـدت الزخـرفة سبيلها إلى المصـاحف، وأثبتت وجودها في مواضع مختلفة فيه سيمـا في المنـاطق التي تفصل الآيات بعضها عن بعض، وكذلك السور، وفي الهوامش الخارجية سيما فيمـا يختص بالمنـاطق التي تكتب فيهـا بيـانـات الأحـزاب، أو السجـدات ومـا إلى ذلك. وإذا كانت زخرفة هذه المناطق قد لقيت بعض المعارضة فإنها سرعان ما تبخرت لتتطور زخرفة هذه المناطق تطورا كبيرا، عندما تبين للناس ما تؤديه هذه الزخارف من خدمات جليلة لمن يتلو القرآن في هذه المصاحف، فهي تحـدد الآيات والسور، وترشد القاريء إلى أحزاب القـرآن وأجزائه. لكن المعارضة بقيت شديدة فيما يختص بديباجة المصحف وكذلك ما يوجد من زخارف في الصفحتين الأولتين والأخيرتين من متن المصحف وهي الصفحات التي نالت اهتماما زخرفيا أكبر أيضا عن بقية الصفحات، وتستمد هذه المعارضة قوتها من أن هذه الزخـارف لا هدف لهـا إلا الجمـال الفني فحسب[٣٣] وبـالرغم من ذلك بدأ أيضـا الاهتمـام بزخـرفـة المصحف مسـايـرة لحب الجمـال الفني الواضح في شتى مجالات الفنون الإسلامية، وقد عثر على نماذج مبكرة من المصاحف بدأ فيها هذا الاتجاه منها مصحف يرجع إلى سنة ٢٨٧هـ/ ٨٩١م بمكتبة شستـر بيتي في مدينـة دبلن بإيرلندا، قوام زخرفة الصفحـة الأولى فيه زخارف هندسية بسيطة عبارة عن مستـطيـل تتـوسـطه دائـرة فيها نجمة ثمانية الرؤوس بداخلها دائرة أخرى مملوءة بخطوط صغيرة على أرضية ذهبية اللون يخرج من الجانب الأيسر المستـطيل زخرفةنباتية «توريق»[٣٤] كما يوجد مثال آخر «في مكتبة جان اسطنبول» وهو مصحف أندلسي نسخ سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م وهو يزدان في صفحته الأولى بمـربع بكل من زواياه زخرفة بسيطة تتصل بوسط جانبه الأيسر من الخارج دائرة صغيرة مملؤة بالتـوريق، وفي محيطهـا الخـارجي زخرفة مثلثات صغيرة، أما داخل المربع فيوجد مربع آخر أصغر منه قليلا ويملأ فراغ هذا المربع من الداخل دائرة مملؤة بزخارف هندسية جميلة، ويبدو أن الزخرفة هنا أكثر تعقيـدا من المثـال السابق.[٣٥] وكلما تطور العصر ازدادت زخـارف هذه الديباجات تعقيدا، ولعل هذا المصحف موضـع الدراسـةالذي يرجـع إلى سنـة ٧٣٣هـ أكبر دليل على ذلك فهو يمثل حلقة من هذه السلسلة المتـطورة من التعقيـد والإبـداع الزخرفي الذي تطور أكثـر وأكثـر في نمـاذج المصـاحف في العصـور التالية ، وقـد لاحظنـا أن زخرفة الديباجة

(٣٣) Richard Ettingausen, *ArabPainting* (New York, 1977), p. 177.
ومرزوق، **المصحف الشريف**، ص ص ١٠٠ ـ ١٠١)؛
قرآن كريم: سورة الواقعة آية ٧٧ ـ ٨٠.

(٣٤) Ettingausen *Arab*, p. 177 ؛ مرزوق، **المصحف الشريف**، ص ١٠٢.

(٣٥) مرزوق، **المصحف الشريف**، ص ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

تشتمل على تصميم زخرفي متطور عن التصميم الهندسي لهذين النموذجين كما أن الفنان المسلم جمع بين هذه التصميمات الهندسية، وتصميمات زخارف التوريق المتنوعة في أشكال أكثر تطورا وإبداعا. لكن الملفت للانتباه حقا هو الميل إلى استخدام أشكال هندسية زخرفية ينطلق تصميمها من نقطة مركزية أو زاوية مركزية ينطلق منها التصميم الزخرفي ككل، ومن بين هذه الأشكال كان المثمن الذي له رمزية تتفق أيضا ورمزية انطلاق الأشكال الزخرفية الهندسية الأخرى من زاوية مركزية وهي الرمزية التي تتوافق مع عقيدة التوحيد.(٣٦)

وفيما يتعلق بالأهمية الفنية لهذه التصميمات الزخرفية لهذه الديباجة فإنها تبرز من خلال الكشف عن الطريقة التي تم بها تنفيذ التصميم الهندسي لزخرفة هذه الديباجة. وهو التصميم الذي نفذ بطريقة «ضرب الخيط» التي شاع استخدامها في العصر المملوكي في إخراج التقاسيم الهندسية المختلفة الأشكال بواسطة الخيط من مراكز مختلفة سواء كانت تكوينات نجمية أو أطباق نجمية أو أشكال هندسية أخرى كالشكل الخماسي أو السداسي أو السباعي أو الثماني إلى آخره من هذه الأشكال التي تعتمد على أصول وقواعد منها تجميع الأشكال متعددة الأضلاع حجما وشكلا بحيث تتداخل مع بعضها عن طريق التكرار.(٣٧).

وحتى نتبين الطريقة التي نفذ بها التصميم الزخرفي الهندسي لديباجة المصحف الذي سبق وصفه قمنا بالآتي:

١ ـ توصيل المحاور التي تربط بين النقاط المتناظرة في التصميم والمارة برؤوس زوايا المثمن وزوايا رؤوس أشكال النجوم الأربع، وكذلك زوايا رؤوس الكندات. فتبين من هذا أن جميع هذه المحاور تتقابل جميعا في نقطة مركزية تمثل مركز التصميم الهندسي كله رمزنا لها بالحرف «أ»، كذلك تبين أن هذه المحاور تقسم الزاوية المتكاملة أ إلى ثمانية أقسام متساوية حيث إن الزاوية المحصورة بين كل محورين تساوي ٤٥°. كذلك اتضح تساوي أطوال المحاور من النقطة «أ» إلى رؤوس النجوم الأربع والكندات الأربع. كما أن هذه المحاور مارة في ذات الوقت برؤوس زوايا المثمن الداخلي. كذلك قمنا:

٢ ـ عدّ الخطوط المحددة لكل رأس من رؤوس النجوم الأربع في اتجاه الداخل فاتصل كل ضلعين لرأس زاوية بضلعين متناظرين من أضلاع المثمن الداخلي وذلك في استقامة واحدة مما يثبت أن تشكيل هذه الرؤوس تم بمد خطوط أضلاع المثمن عل استقامتها حتى تقابلت عند رأس كل نجمة. وبنفس الطريقة.

٣ ـ تم مد الخطين المحددين لجانبي كل كندة فتبين أيضا أنهما ناتجان عن ضرب الخيط الواصل من كل زاويتين متناظرتين من زوايا المثمن (شكل ٢).

٤ ـ ثم مد اضلاع المربع الداخلي في تصميم الحاصر لرؤوس الكندات لتصل إلى أضلاع المربع الخارجي الحاصر لرؤوس النجوم. ثم قمنا بحصر عدد النقاط التي تتلاقي أو تتقاطع فيها خطوط التصميم ككل فاتضح أنها «٦٠» نقطة. (أنظر شكل ٢، ٤).

ومن خلال ما تم عمله وفي ضوء ما تكشّف من حقائق يمكن أن نتابع خطوات تنفيذه كما يلي:

كان أول ماتم تنفيذه من هذا التصميم هو رسم

---

(٣٦) عفيف بهنسي، «معاني النجوم في الرقش العربي»، بحث بكتاب **الفنون الإسلامية: المبادىء والأشكال والمضامين المشتركة**، صدر عن الندوة العالمية باستانبول (أبريل، ١٩٨٣م) تحت إشراف مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية باستانبول (سوريا: دار الفكر، ١٩٨٩م)، ص ٦٠.

(٣٧) للاستزادة راجع عبد اللطيف إبراهيم علي، **دراسات تاريخية وأثرية في وثائق عصر الغوري**، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة القاهرة سنة ١٩٥٦م، الجزء الثاني، مصطلح ٦٢؛ محمد عبد الستار عثمان، «نظرية جديدة لتفسير تخطيط قبة الصخرة»، **العصور**، دار المريخ للنشر (١٩٨٨م)، المجلد الثالث، الجزء الثاني، ص ٢٤٨.

المثمن الداخلي الذي يمثل الوحدة الأساسية التي تنتج من ضرب أضلاعه وأوتاره بقية عناصر التصميم وقد اتبع في رسمه الخطوات التي جرت العادة باتباعها في رسم الأشكال الثمانية[٣٨] ويمكن تحديد خطوات رسم هذا المثمن فيما يلي:

١ ـ تم تنصيف طول الورقة المنفذ عليها التصميم من الجانبين في النقطتين «ب،جـ» وتم وصلهما بخط، وكذلك الحال بالنسبة للعرض في النقطتين «د،هـ» وتم وصلهما بخط ثان، وتقاطع الخطان في النقطة «أ» التي تمثل مركز الشكل المثمن.

٢ ـ بفتحة تعادل نصف قطر المثمن وبالارتكاز في النقطة «أ» تم رسم دائرة تقطع الخطين المتعامدين «ب،جـ،د ـ هـ» في النقاط ١، ٢، ٣، ٤ ثم تم وصل هذه النقاط فينتج المربع الذي تمثل زواياه هذه النقاط (١ـ٤).

٣ ـ تم تنصيف كل ضلع من أضلاع المربع في النقاط «هـ، و، ز، ح» ثم تم توصيل المركز «أ» بهذه النقاط ومدت الخطوط الواصلة لتقطع محيط الدائرة في النقاط «٥، ٦، ٧، ٨». ثم تم توصيل النقاط «١ ـ ٨» بالتتابع فنتج شكل المثمن.[٣٩]

٤ ـ تم مد كل ضلعين متناظرين من أضلاع المثمن على استقامتهما فتقابلت في النقاط «٩، ١٠، ١١، ١٢». (شكل ٣)

٥ ـ بفتحة للفرجار تعادل البعد بين «أ» وأي نقطة من نقاط التقاطع السابقة «٩ـ١٢» رسم دائرة ثم مد الخطوط الواصلة بين «أ» والنقاط «٥ـ٨» على استقامتها حتى تتقاطع مع الدائرة في نقاط أربع «هي ١٣ـ١٦» وبوصل هذه النقاط بالتتابع نتج المربع الداخلي الحاصر لرؤوس الكندات، وقد قطعت أضلاع المربع الداخلي وكذلك امتدادات الأضلات المتناظرة للمثمن في النقاط «١٧ـ٢٤».

٦ ـ بنفس الفتحة وبالاتكاز في النقاط «٩ـ١٢» تم رسم أربعة أنصاف دوائر تتقاطع[٤٠] في أربع نقاط هي «٢٥ـ٢٨» وبوصلها بالتتابع ينتج المربع الخارجي الحاصر لعناصر التصميم كله.

٧ ـ تم مد أضلاع المربع «١ـ٤» على استقامتها فتقاطعت مع امتدادات الأضلاع المتناظرة للمثمن في النقاط «٢٩ـ٣٦»، وتقاطعت مع المربع الداخلي في النقاط «٣٧ـ٤٤»، وتلاقت مع المربع الخارجي في النقاط «٤٥ـ٥٢».

٨ ـ ثم وصل كل من النقطتين «٤٥، ٤٦» والنقطتين «٤٧، ٤٨»، والنقطتين «٤٩، ٥٠» والنقطتين «٥١، ٥٢» ثم تم مد أضلاع المربع الداخلي على استقامتها لتتقابل مع الخطوط الواصلة بين النقاط السابق الإشارة اليها في النقاط «٥٣ـ ٦٠».

٩ ـ ثم مسح الخطوط الزائدة والتركيز على الخطوط الأساسية التي تتلاقى أو تتقاطع في النقاط السابق حصرها من «١ ـ ٦٠».[٤١]

مما سبق تتضح الطريقة التي نفذ بها هذا التصميم الذي أشار «برجوان» إلى نموذج مشابه له حفر على الخشب لكنه يرجع إلى فترة متأخرة نسبيا عن فترة تنفيذه في هذه الديباجة[٤٢] التي ترجع إلى سنة ٧٣٣هـ م، ولهذا أهميته في تاريخ نماذج مشابهة غير مؤرخة.

كما يلاحظ أن زخارف التوريق المنفذة في هذه الديباجة تشابه مثيلتها المنفذة على الجص في العمائر الدينية الباقية من العصر المملوكي البحري[٤٣]، وعلى

(٣٨) أنظر شكل رقم ٣، وراجع Issam El Said and Ays Parman, *Geometric Concepts* (London, 1976), pp. 3- 8.

(٣٩) أنظر شكل رقم ٢.

(٤٠) أنظر شكل رقم ٤.

(٤١) أنظر شكل رقم ٢،٤.

(٤٢) J. Bourgoin, *Arabic Geometrical Pattern & Design* (New York, 1973), PI. TT.

(٤٣) أنظر اللوحة رقم ٢ وبمقارنة بعض وحدات هذه الزخارف بزخارف قبة الخلفاء العباسيين تبين وجود تشابه واضح مما يعد قرينة على أن بناء هذه القبة كان في العصر المملوكي على يد الناصر محمد بن قلاوون، كما تشير إلى ذلك المصادر ـ والدراسات الحديثة (راجع علي بن جوهر السكري، **الكوكب السيار إلى قبور الأبرار**. تحقيق ونشر ودراسة محمد عبد الستار عثمان (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٢م)، ص ص ٣٩ ـ ٤٠، وأنظر شكل ٥ مكرر.

التحف التطبيقية الأخرى التي تشتمل على زخارف مشابهة، وهذه الأمثلة كلها تمثل مرحلة النضج التي وصلت إليها زخارف التوريق في هذا العصر .

والجمع بين استخدام اللون الذهبي واللون الأزرق في زخرفة هذه الديباجة يستحق وقفة خاصة فقد كان أحب الألوان إلى الفنانين الذين أبدعوا في إخراج المصاحف هما اللونان الأزرق والذهبي، وقد لعب هذان اللونان في الفن الإسلامي دوراً عظيما سواء استعملا كل لون بمفرده أو اجتمعا معا في تحفة واحدة كما هو الحال في المصاحف، ومن بينها المصحف، موضع الدراسة. واللون الذهبي كان مصدر إبهار للعرب قبل الإسلام[٤٤] وبعده، ولا أدل على ذلك مما ذكره ابن النديم عند كلامه عن خطاطي المصاحف من أن خالد بن أبي الهياج كان أول من اشتهر بكتابة القرآن بخط جميل وأنه كان هو الذي كتب الحروف المذهبة جزءًا من سورة الشمس على الجدار الجنوبي لمسجد المدينة المنورة.[٤٥]

ويعد استخدام الفسيفساء المذهبة في قبة الصخرة سيما في كتابة النصوص القرآنية بها بلون ذهبي على أرضية زرقاء من الأمثلة المادية الباقية الدالة على حب المسلمين منذ عهد مبكر للجمع بين هذين اللونين. وليس من المستبعد أن يكون ماء أو مداد الذهب، قد استعمل في ذلك العصر، في نسخ المصاحف، كما استعمل على جدران المساجد. ولكن يبدو أن استخدام الذهب في كتابة المصاحف وزخرفتها قد أوجد في البداية شيئا من الحرج لما في ذلك من إسراف، فاقتصر على استخدامه في فواصل الآيات وفواصل السور وزخارف الهوامش الجانبية في بعض الصفحات، وفي تجميل الصفحات الأولى والأخيرة، ولكن بمضي الوقت ضعف هذا الحرج، وأقدم الفنان على استخدامه في الكتابة، وفي الزخرفة على حد سواء.

وقد وصلت إلينا نماذج قليلة رائعة من مصاحف مكتوبة ومزخرفة بمداد الذهب لعل من أحسنها وأهمها مصحف السلطان قلاوون المعروض بالهيئة المصرية العامة للكتاب.[٤٦] ويعد المصحف موضع الدراسة ـ نموذجا من نماذج المصاحف التي استخدم مداد الذهب في زخرفة ديباجتها والصفحات الأولي والأخيرة من متن المصحف وكذلك فواصل الآيات والوحدات الزخرفية بهوامش بعض الصفحات لكن اقتصر على كتابة عناوين السور بهذا المداد، أما متن المصحف فقد كتب بمداد أسود عادي يناسب كونه مصْحَف لتعليم علم القراءات السبع.

الصفحتان الأخيرتان من المصحف (لوحة ٦، ٧ وشكل رقم ٥)

اهتم المزخرف بزخرفة الصفحتين الأخيرتين من المصحف بصورة لا تقل روعة وجمالا عن ديباجته، وبالصفحة اليمنى سورة الفلق وبالصفحة اليسرى سورة الناس، آخر سورة القرآن الكريم، واشتملت كل صفحة على شريط علوي، وآخر سفلي، له إطار مذهب محدد باللون البني زخارف التوريق باللون الذهبي والبني الفاتح على أرضية زرقاء، ويتوسط كل

---

(٤٤) يدلل على ذلك انبهار العرب قبل الإسلام بكنيسة القليس التي كانت تتميز بفسيفسائها المذهبة التي قلدوها في كنائسهم التي بنوها بنجران راجع: K. G. R. D. King, Some Reflections on the Umayyad Wall - Mosaic Tradition, *Ages*, Mars Publishing House, Vol. I., p.17.

كما يدلل على ذلك ما ذكر من روايات عن بناء عبد الله بن الزبير للكعبة وتكسية العمائر الأموية الدينية ابتداء من قبة الصخرة والجامع الأموي بدمشق، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة في العصر الأموي بالفسيفساء ذات الألوان المختلفة، ومن أهمها اللون الذهبي والفضي والأزرق. للاستزادة راجع. محمد عبد الستار عثمان «دلالات دعائية للآثار الإسلامية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان»، **العصور**، المجلد الرابع، الجزء الأول، (١٩٨٩م)، ص ٨٢.

(٤٥) ابن النديم، محمد بن اسحق المعروف باسحق بن يعقوب الوراق، **كتاب الفهرست في اخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، تحقيق رضا تجدد (طهران، ١٩٧١م)، ص ٩.

(٤٦) هذه المصاحف نشر موريتز بعض صور منها لكنه لم يدرسها. ، وهي الآن موضع دراسة أحد الباحثين من الناحية الزخرفية، ويعتبر هذا النموذج موضع الدراسة إضافة مهمة لها باعتباره نموذجا نادرا سيما من حيث كونه معدا للقراءات السبع.

شريط «خرطوش» به كتابات بمداد أبيض فضي، وكتابات الخرطوش العلوي تضم البيانات الخاصة باسم السورة وموضع نزولها، أما كتابات الخرطوش السفلي فتوضح عدد آيات السورة. ويحيط بهذه الكتابات زخارف التوريق وزخارف خطاوية ويؤطر الصفحة كلها من الجوانب الثلاثة العلوي والسفلي والجانب الخارجي: الأيمن في الصفحة التي إلى اليمين والأيسر في الصفحة التي إلى اليسار إطار مذهب يحده من الخارج والداخل خط بني فاتح.، ويلي هذا الإطار من الداخل، وكذلك الشريطين العلوي والسفلي زخارف التوريق، وهي عبارة عن فروع نباتية ذات أوراق رمحية، وأنصاف مراوح نخيلية، ويلاحظ أن المساحة التي تملؤها هذه الزخارف من أعلى وأسفل أعرض من المساحة التي في الجانب الخارجي، وقد ساعد على ذلك أن متن النص القرآني كتب في خمسة سطور فقط.

ويمس الإطار الخارجي في كل صفحة وحدات زخرفية عبارة عن صرتين صغيرتين في الطرفين، ومنطقة في الوسط عبارة عن قطاع من دائرة، وتشغل كل صرة من الداخل زخارف نباتية مكثفة ومذهبة وملونة باللون البني ويتخللها جزء صغير ملون باللون الأزرق، ولكل صرة إطار مذهب يحده من الخارج إطار بني رفيع يليه إطار رفيع دائري مذهب يليه إطار دائري باللون الأزرق تخرج منه براعم وتوريقات زخرفية دقيقة.[٤٧]

أما المنطقة الوسطى التي في هيئة قطاع من دائرة، فيها زخارف نباتية عبارة عن وحدة نباتية مركبة، يخرج منها تفريعات نباتية منفذة باللون الذهبي والبني على أرضية زرقاء، وهذه الزخارف ليست بنفس درجة كثافة الزخارف في الصرتين، مما يساعد على بروز الأرضية الزرقاء لعدم كثافة الزخرفة. وقد لجأ المزخرف إلى هذا الأسلوب المتنوع بين الزخارف النباتية المكثفة المذهبة وبين الزخارف النباتية قليلة الكثافة التي تشتمل على وحدة نباتية بعينها على أرضية زرقاء بمساحة كبيرة ساعدت على بروز العناصر النباتية، وشكلت تنوعا مع المناطق ذات الزخارف المكثفة المذهبة ذات المساحة الصغيرة الملونة باللون الأزرق، بما يؤكد وجود التنوع والترديد والانسجام بين المناطق الزخرفية المختلفة، ونلاحظ مثل هذا الأسلوب في زخرفة «الخرطوش» والمنطقتين اللتين تكتنفانه في الشريط العلوي والسفلي من كل صفحة، كما لاحظنا هذا الأسلوب في زخرفة ديباجة المصحف سواء في الوحدات الهندسية بالمربع أو في الصرر الدائرية في الإطار.

زخرفة بقية صفحات المصحف

بالرغم من الاهتمام بزخرفة ديباجة هذا المصحف وبالصفحتين الأخيرتين فإنه يلاحظ اقتصار الزخرفة بين السورة على كتابة اسم السورة، وعدد آياتها، ومكان نزولها بخط أقرب إل الخط اللؤلؤي منه إلى الخط الثلث المستخدم في كتابة هذا المصحف.

ويلاحظ أن عرض قطة القلم الذي استخدم في كتابة بيانات السورة أعرض من قطة القلم الذي استخدم في كتابة النص القرآني مع استخدام مداد الذهب في الكتابة بدلا من المداد الأسود المستخدم في كتابة النص القرآني، واستخدام حبر أزرق في الشكل والإعجام، مع ابداع في تشكيل بعض الحروف باستخدام العناصر الزخرفية المعتادة في زخرفة خط الثلث، وكذلك في وصل بعض الحروف المتباعدة بتشكيل زخرفي خطي جميل، كذلك طمس الناسخ بعض الحروف باللون الأزرق كالتاء المربوطة، ورأس الحاء[٤٨]

وكل هذا يضيف المزيد من الجمال لجمال خط عنوان السورة وبياناتها، ويميز المناطق الفاصلة بين السور عن النص القراني.

ويلاحظ حرص الناسخ على كتابة كل بيانات السورة في سطر واحد مما يضطره في بعض السور التي تزيد عدد كلمات بياناتها على المساحة المحددة للسطر، عن الخروج إلى الهامش الأيسر عن حدود الكتابة في الصفحة كلها.[٤٩]

(٤٧) انظر لوحة رقم «٦»، «٧».

(٤٨) انظر لوحة رقم «٨»، والشكل رقم «٦».

(٤٩) انظر لوحة رقم «٩».

وإذا كان هذا هو الاتجاه العام في تنفيذ أسماء السور وبياناتها، فإن الصفحة الأولى من المصحف والتي تضم فاتحة الكتاب وأول سورة البقرة حتى قوله تعالى ﴿ الذين كفروا سواء عليهم ﴾ خرجت عن هذا النسق حيث كتبت بيانات كل سورة في شريط زخرفي مذهب وبمداد أبيض على أرضية مذهبة وملونة باللون الأزرق في شريط سورة الفاتحة وهو الشريط العلوي بالصفحة أما شريط بيانات سورة البقرة فكتب بمداد أبيض على أرضية مذهبة. ونظراً لكثرة الكلمات التي تحدد بياناتها فلم تتوافر مساحة كافية لتلوين الأرضية باللون الأزرق كما في شريط سورة الفاتحة التي ساعدت قلةكلمات بياناتها على توفير مساحة استخدم المزخرف في تلوينها اللون الأزرق (أنظر اللوحة رقم ٣).

زخرفة الفواصل بين الآيات: (لوحة ٦، ٧)

رسمت الفواصل بين الآيات على هيئة زهرة سداسية البتلات بمداد أزرق ولونت باللون الذهبي، وحددت من الخارج بالمداد الأحمر(٥٠)، وهذا الشكل من الفواصل يمثل مرحلة من مراحل تطو رالفواصل بين الآيات والتي بدأت بترك فراغ بين كل آية وأخرى أوسع قليلا من الفراغ الذي كان يترك عادة بين كل كلمة وأخرى، ولا ننسى أن النبي صلى الله عليه وسلم عند تلاوته للقرآن الكريم كان يقف على رؤوس الآيات توجيها لأصحابة أنها رؤوس آيات، حتى إذا علموا ذلك وصل الآية بما بعدها طلبا لتمام المعنى، ومن هنا كان النساخون يتركون فراغا بين كل آية وأخرى في المرحلة الأولى، ثم استغل هذا الفراغ المتروك برسم نقطة فيه على هيئة مثلث. ثم استبدلت النقطة بشرط رسمت بعضها فوق بعض. ثم أحيطت هذه الشرط وتلك النقط بدوائر. وفي بعض المصاحف جعل النساخون بين كل خمس آيات دائرة كتبوا فيها من الداخل رأس حرف الخاء، وكانت تسمى هذه الزخرفة بالتخميسات كما جعلوا أيضا بعد كل عشر آيات دائرة كتبوا في داخلها رأس حرف العين وكانت تسمى هذه الزخرفة بالتعشيرات.

وفي المصحف موضع الدراسة كانت الفواصل بالشكل الذي وصفناه، ولم تستخدم الفواصل بين الآيات لتحديد التخميسات والتعشيرات ولكن استعاض النساخ عن ذلك بكتابة كلمة خمس عند نهاية كل خمس آيات وكلمة عشر عند نهاية كل عشر آيات باللون الأحمر في الهامش في اتجاه عمودي على سطور الكتابة. ويلاحظ أن اتجاه كتابة هذه التخميسات والتعشيرات في الهامش الأيمن يكون من أعلى إلى أسفل وفي الهامش الأيسر يكون من أسفل إلى أعلى(٥١)، وهذه التخميسات والتعشيرات لم تكن لتساعد فقط على عد آيات السورة بسهولة، ولكن كان وجودها في إطار الأسلوب التقليدي المتبع في تحفيظ وتجويد قراءة القرآن بالمصاحف والذي كان يتم بتحديد هذا العدد لمن يحفظ ويجود، حتى يتقن حفظه وتجويده لهذه الآيات، ثم ينتقل إلى الخمس والعشر آيات التي تليها وهكذا.

شمسات تقسيم المصحف

قسم المصحف إلى أقسام ويبدأ هذا التقسيم بتقسيمه نصفين، فأثلاث وأرباع، وأخماس، وأسداس، وأسباع، وأثمان، وأتساع، وأعشار ثم أنصاف الأسداس، فأنصاف الأسباع، فأنصاف الأثمان، وأنصاف الأتساع ثم كان التقسيم إلى أجزاء ثمانية وعشرين، والتقسيم إلى أجزاء ثلاثين، والتقسيم إلى أجزاء ستين.(٥٢)

كذلك فإن هناك تقسيمان أدق لكل جزء من أجزاء التقسيم إلى ثلاثين جزءاً وكذلك التقسيم إلى ستين جزءا، حيث قسم الجزء إلى أجزاء، فالجزء من تقسيم ثلاثين جزءا؛ قسم حزبين وقسم كل حزب أربعة أرباع وهذا التقسيم مازال مستخدما حتى يومنا هذا، كما أن الجزء من تقسيم ستين جزءا قسم هو

(٥٠) انظر اللوحات رقم ٩، ١٠، ١٤، ١٥.

(٥١) انظر اللوحات رقم٨، ٩، ١٠، ١٤، ١٥.

(٥٢) ابو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، **فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن**، مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية رقم ٣٥٩٩/ ٢٠٣١ج، ورقة ١٨ ـ ٢٥ والمخطوطة منسوبة خطأ لابي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) بعنوان **عجايب علوم القرآن**.

الآخر إلى أقسام ثمانية وهو أدق تقسيم في مجموعة التقسيمات التي سبق الإشارة إليها. وان كان تقسيم القرآن الى تخميسات وتعشيرات قد تكون أدق، إلا أن هذا التقسيم الأخير مختلف فهو تقسيم تكراري ينحصر في تحديد كل خمس آيات أو عشر آيات للقارىء. (أنظر لوحة رقم ٨، ١١، ١٣).

وقد اتبع في تقسيم هذا المصحف ـ موضع الدراسة ـ منهج تقسيمه إلى نصفين، وأثلاث، وأرباع، وأخماس، وأسداس وأسباع وأثمان وأتساع وأعشار كما قسم إلى أحزاب وفق التقسيم إلى أجزاء ستين، كما قسم كل حزب ثمانية أقسام فقد قسم الحزب نصفين وكل نصف ربعين وكل ربع ثمنين.

وفي إطار التقسيم إلى نصفين رسم المزخرف شمسة دائرية مذهبة بداخلها ما نصه آخرالنصف الأول، عند الآية التي تحدد منتصف القرآن الكريم وهي ﴿ جئت شيئا نكرا ﴾[٥٣] حيث إن النون والكاف من كلمة نكرا تتبع النصف الأول والراء والألف تتبع النصف الثاني من القرآن.[٥٤] ويلاحظ أن الشمسة وضعت في الهامش السفلي من الصفحة حيث يوجد بها من الجانب الأيسر شمسة أخرى من نمط الشمسات التي تحدد مواضع الأحزاب. وتكرار وضع شمستين متجاورتين كما في هذا الموضع أمر طبيعي لتطابق بعض مواضع التقسيم وفق التقسيمات التي اتبعت في هذا المصحف. ولكن يلاحظ أن عدد الشمسات في مواضع التطابق لا يزيد عن اثنتين حتى ولو كان الموضع ذاته موضعا لأكثر من تقسيمين (أنظر الملحق رقم ٢)

كذلك قسم المصحف إلى أثلاث وتشير إلى ذلك شمستان دائريتان مذهبتان، وكتب بداخل الشمسة الأولى ما نصه «الثلث الأول» وهذه الشمسة تقع عند رأس الآية ٩٢» من سورة التوبة عند قوله تعالى ﴿ ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ أما الشمسة الثانية الخاصة بتحديد موضع الثلث الثاني فتقع عند رأس الآية رقم ٤٥ من سورة العنكبوت عند قوله تعالى ﴿ يعلم ما تصنعون ﴾[٥٥]

وقسم المصحف إلى أرباع ولكن لم نعثر إلا على شمسة بيضية واحدة مذهبة بداخلها كتابة باللون الأبيض نصها «الربع الثالث»[٥٦] عند رأس الآية رقم ١٤٤ من سورة الصافات عند قوله تعالى ﴿إلى يوم يبعثون ﴾ والمعروف أن الربع الأول وفق التقسيم إلى أرباع عند رأس الآية رقم ٤ من سورة الأعراف عند قوله تعالى ﴿وهم قائلون ﴾ وتحدد شمسة الحزب رقم ١٥ موضعه أما الربع الثاني فيحدد موضعه شمسة النصف، وشمسة الحزب رقم ٣٠ أيضا. وهكذا تحدد المواضع الثلاثة التي تحدد تقسيم المصحف إلى أرباع.

أما التقسيم إلى أخماس فتحدد مواضعه شمسات بيضية الشكل مذهبة وبداخل كل منها بيانات الخُمس مكتوبة بالمداد الأبيض، وقد عثرنا بالمصحف على شمسات تحدد الخمس الأول الذي عند رأس الآية رقم ٨١ من سورة المائدة، والخمس الثاني عند رأس الآية رقم ٥٢ من سورة «يوسف»، والخمس الثالث[٥٧] عند رأس الآية رقم ٢ من سورة «الفرقان». ولم نعثر على شمسة تحدد الموضع الفاصل مابين الخمس الرابع والخمس الخامس والأخير، وتحدد هذا الموضع شمسة الحزب رقم ٤٨.

والتقسيم إلى أسداس؛ تحدد موضع السدس الأول شمسة دائرية مذهبة بداخلها كتابة بمداد أبيض نصها «السدس الأول[٥٨]»، ولا توجد شمسة تحدد السدس الثانني وأغنت عنها شمسة الثلث الأول، وكذلك الحال بالنسبة للسدس الثالث فقد حدد موضعه شمسة النصف، والسدس الرابع فقد حدد موضعه أيضا شمسةالثلث الثاني، أما الموضع الأخير وهو الموضع الفاصل بين السدس الخامس والسدس السادس الأخير عند رأس الآية رقم ٣٢ من سورة الجاثية فلم يستخدم في تحديده شمسة كما

(٥٣) قرآن كريم سورة الكهف آية رقم ٧٤ ـ أنظر اللوحة رقم (١٠).
(٥٤) ابن الجوزى، **فنون الافنان**، ورقة ١٨.
(٥٥) ابن الجوزى، **فنون الافنان**، ورقة ١٨.
(٥٦) أنظر الملحق رقم (١).
(٥٧) أنظر الملحق رقم (١).
(٥٨) أنظر اللوحة رقم (١).

هي العادة في تحديد مواضع التقسيم ولكن حدد بكتابة البيانات بمداد الذهب في الهامش، ونص هذه الكتابة «السدس الخامس».

وتحدد مواضع التقسيم إلى أسباع شمسات بيضية مذهبة بداخل كل منها كتابة بالمداد الأبيض تحدد رقم السبع، فعند الموضع الذي يحدد نهاية السبع الأول وبداية السبع الثاني من رأس الآية رقم ٦١ من سور النساء تجد شمسة، أما شمسة السبع الثاني الذي عند رأس الآية ١٧٠ من سورة الأعراف فبداخلها كتابة نصها «السبع الثاني» ولا توجد شمسة تحدد موضع السبع الثالث الذي عند رأس الآية ٢٥ من سورة «ابراهيم»، وكذلك السبع الرابع عند رأس الآية[٥٨] من سورة «المؤمنين».

أما السبع الخامس الذي عند رأس الآية ٢٠ من سورة سبأ، فتحدد موضعه شمسة بيضية بداخلها كتابة بالمداد الأبيض نصها «السبع الخامس» وتوجد شمسة بيضية أيضا تحدد موضع الفاصل بين السبع السادس والسبع السابع الأخير الذي عند خاتمة الفتح، وهذه الشمسة بيضية مذهبة وبداخلها كتابة بالمداد الأبيض ايضا نصها «السبع السادس».[٥٩]

أما تقسيم المصحف إلى أثمان فيلاحظ أن تحديد مواضع الأقسام ذات الأرقام الزوجية من هذا اعتمد في تحديدها على تطابق هذه المواضع مع مواضع الأرباع وموضع النصف السابق الإشارة اليها فالثمن الثاني يتطابق موضعه مع موضع الربع الأول، والثمن الرابع مع موضع النصف، والثمن السادس مع موضع الربع الثالث.

أما مواضع التقسيم ذات الأرقام الفردية وهي «الثمن الأول» عندخاتمة «آل عمران» والثمن الثالث عند رأس الآية ٤٤ من سورة «هود»، والثمن الخامس عند رأس الآية ٢٢٠ من سورة «الشعراء»، والثمن السابع عند خاتمة السورة «الطور» ويحدد موضع الثمن الثالث شمسة مستديرةمذهبة بداخلها كتابة بالمداد الأبيض نصها «الثمن الثالث» بينما نلاحظ أن شمسات الأثمان الأخرى كالثمن الخامس والسابع شمسات بيضية الشكل[٦٠].

كذلك قسم المصحف إلى أتساع بواسطة شمسات بيضية مذهبة بداخلها كتابة بالمداد الأبيض تحدد رقم التسع، فالتسع الأول الذي عند رأس الآية ١٥٠ من سورة آل عمران، ولم يعثر على شمسة تحدد موضع التسع الثاني الذي يحدد عند رأس الآية ٦٠ من سورة «الأنعام»، أما التسع الثالث فيحدد موضعه شمسة الثلث الأول لتطابق هذا الثلث مع موضعه فأغنت شمسة الثلث الأول عن عمل شمسة لهذا التسع، والتسع الرابع الذي عند رأس الآية ٢٠ من سورة «النحل» فتحدده شمسة باقية بداخلها كتابة نصها «التسع الرابع» وكذلك الحال النسبة للتسع الخامس الذي عند رأس الآية رقم ٢٢ من سورة الحج. أما التسع، السادس فتحد موضعة شمسة الثلث الثاني لتطابق موضعها مع موضع هذا التسع، لذلك أغنى وجودها عن عمل شمسة في هذا الموضع ولم نعثر على شمسة تحدد موضع التسع السابع المفترض أن تكون شمسته عند رأس الآية ٢١ من سورة «المؤمنين» فلا توجد عنده شمسة تحدده ـ وكذلك الحال بالنسبة للتسع الثامن.

والتقسيم إلى أعشار اعتمد في تحديد أكثر مواضعه على علامات التقسيمات السابقة المتطابقة معه أو على علامات الأحزاب وفق التقسيم إلى ستين حزبا حيث لم نعثر إلا على شمسة واحدة بيضية مذهبة بداخلها كتابة بالمداد الأبيض نصها «العشر الأول» الذي عند رأس الآية ٩ من سورة «آل عمران»، والعشر الثاني يتطابق موضعه من علامة الخمس الأول، والعشر الثالث يتطابق مع علامة الحزب رقم ١٨ الذي عند رأس الآية ٤٠ من سورة «الأنفال»، والعشر الرابع يتطابق موضعه مع شمسة الخمس الثاني التي أغنت عن عمل شمسة لهذا العشر، والعشر الخامس يتطابق مع النصف وشمسته أغنت أيضا عن عمل شمسة لهذا العشر، والعشر السادس يتطابق موضعه مع الخمس الثالث الذي أغنت شمسته عن تنفيذ شمسة تحدد هذا العشر،

(٥٩) انظر اللوحة رقم (١).

(٦٠) انظر اللوحة رقم ١٢، ١٣.

والعشر السابع الذي عنند رأس الآية ٣٠ من سورة الأحزاب يتطابق موضعه مع الحزب رقم ٤٢ الذي أغنت شمسته عن عمل شمسة لهذا العشر والعشر الثامن الذي عند رأس الآية ٤٦ من سورة «السجدة» وهو الموضع الذي يحدد أيضا الخمس الرابع، فقد حددته شمسة الحزب رقم «٤٨» لتطابق هذا الحزب مع هذا العشر والربع الخامس كما ذكرنا. أما العشر التاسع الذي يتحدد عند خاتمة الحديد فقد تطابق مع موضع الحزب رقم ٥٤ وقد أغنت شمسة هذا الحزب بذلك عن تنفيذ شمسة خاصة بتحديد هذا العشر.

أما التقسيم إلى ستين حزبا فيلاحظ أن المزخرف اهتم بتنفيذ الشمسات المحددة لهذا التقسيم، كما يلاحظ انه نفذ هذه الشمسات بأسلوب زخرفي يميزها، اعتمد فيه المزخرف على استخدام اللون الأزرق في تلوين إطار الشمسة حيث رسمت شمسات الأحزاب دائرية الشكل لها إطار باللون الأزرق[٦١] محدد باللون الذهبي ويختلف لون هذا الإطار بطريقة تميزه عن أطر الشمسات الدائرية الأخرى وكذلك البيضية في استخدام اللون الأزرق حيث لم يستخدم هذا اللون في أطر الشمسات الأخرى للتقسيمات الأخرى سواء كانت مستديرة أو بيضاوية.

وبحصر ما بالمصحف موضع الدراسة من شمسات الأحزاب تبين وجود ٥٩ شمسة وبمقابلة مواضعها على المواضع التي تحدد تقسيم المصحف إلى ستين حزبا تبين ما يلي:

١ ـ تطابق معظم مواضع هذه الشمسات مع مواضع التقسيم إلى ستين حزبا الموضحة في الملحق رقم [١].

٢ ـ أحيانا يضطر المزخرف لشغل هامش المصحف بالكتابات الهامشية الخاصة بالقراءات إلى اختيار الموضع المناسب في الهامش في مقابلة آيات تسبق الموضع المحدد أو تليه بمسافة يسيرة.

٣ ـ أغنت شمسات الأحزاب وفق التقسيم إلى ستين حزبا عن عمل شمسات لبعض التقسيمات السابقة سيما التي تتطابق مواضعها مع مواضع الأحزاب، وقد اتضح ذلك أثناء عرض هذه التقسيمات.

٤ ـ نفذت شمسات الأحزاب في الهامش الأيمن للصفحة أو في الهامش السفلي للصفحة لعدم توافر المساحة.

٥ ـ يوجد بكل شمسة كتابة باللون الأبيض على أرضية مذهبة بها زخارف توريق، وهذه الكتابة عبارة عن كلمة «حزب» دون تحديد رقم الحزب الذي يمكن تحديده بسهولة من خلال التقسيمات الأخرى.

٦ ـ تتميز شمسات الأحزاب أيضا بزخرفة إطارها الخارجي من الجهات الأربع الأصلية بإشعاعات أربعة تتبادل مع أربع تسنينات صغيرة مع مسافات متساوية محصورة بن الإشعاعات الأربع، وقد وجد لهذا الأسلوب في زخرفة إطار الشمسات أمثلة مشابهة له وإن كانت أكثر كثافة في عدد الإشعاعات والتسنينات إلا أن تصميم الشمسة من الداخل يشبه تماما شمسات المصحف موضع الدراسة. ولا يتضمن هذا المصحف تاريخا محددا وإنما ينسب إلى القرن ٨هـ/ ١٤م ويرجح تنفيذه بمصر أو الشام[٦٢] وتكشف المقارنة بين شمسات الأحزاب في المصحف موضع الدراسة والمصحف المذكور عن أن المصحف موضع الدراسة تمثل زخراف شمساته حلقة من حلقات تطور زخرفة الشمسات وتزداد أهمية هذه الحلقة باعتبار تاريخها المحدد ومكان تنفيذها.

خط المصحف

كتب هذا المصحف بالخط الثلث الذي شاع استخدامه في العصر المملوكي وهو أروع الخطوط منظرا وجمالا. وأصعبها كتابة واتقانا، فهو يمتاز عن خط النسخ بكثرة المرونة واتساع الكاسات، وتكثر فيه

(٦١) أنظر اللوحة رقم ١٠.

(٦٢) مركز الملك فيصل. **الخط العربي**. أنظر اللوحة المقابلة لصفحة ٦٤

اشكال معظم الحروف (ب، ج، ذ، ر، ع، ك، م، ن، هـ، لا، ى) ولذلك فإنه يمكن كتابة جملة واحدة من عدة مرات بأشكال مختلفة، ويكون التشكيل فيه بثلاثة أقلام قلم هو نفس سمك الكتابة ثم قلم أقل وقلم أقل، وتبدو الكتابة به كأنها سبيكة واحدة يملؤها التشكيل، والتشكيل يدخل فيه حليات كثيرة، وطمس الحروف ليس من قاعدة هذا النوع، ويطمس بعض أشكال الميم للتجميل، كما أن اتصالات الحروف ببعضها فيها شيء من القوة يتناسب مع عظمة ومرونة هذا النوع من الخطوط، وتختلف أساليب الخطاطين في كتابته، كما أنهم يختلفون في طريقة التشكيل والتجميل. كما يمكن كتابة هذا النوع بطريقة التركيب الخفيف أو بالطريقة المرسلة ويمكن أيضا كتابةهذا النوع بطريقة التركيب الثقيل أو إدخال الكتابة في أشكال هندسية وتلوينات زخرفية، وفيه أيضا يمكن عمل امتدادات بين الحروف ولكن يقل ذلك بسبب فخامة الحروف واستغنائها عن ذلك.[٦٣]

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصادر العربية المهتمة بتجويد الخط المحت إلى موازين يمكن أن يضبط وفقها تجويده، فقد قال صاحب رسائل اخوان الصفا: «ينبغي لمن يرغب أن يكون خطه جيدا، وما يكتبه صحيح التناسب أن يجعل لذلك أصلا يبني عليه حروفه، ليكون ذلك قنونا له يرجع في حروفه لا يتجاوزه ولا يقصر دونه» ثم تحدث عن هذا الأصل باعتبار أن طول الألف مثل عرضها سبع مرات.[٦٤]

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف «اعلم أن مقادير الحروف متناسبة في كل خط من الخطوط»، وقال الشيخ شرف الدين محمد بن عز الدين بن عبد السلام: «أن الألف بست نقط وباقي الحروف متفرعة عنها ومنسوبة اليها»[٦٥] وقال ابن مقلة في رسالته: «ان النسبة مقدرة في الفكر وأساسها أن تكون الألف قطر دائرة وأن الراء ربع دائرة وباقي الحروف متفرعة عنها ومنسوبة اليها»[٦٦]وقال القلقشندي: «والوجه في تصحيح الحروف أن يبدأ أولا بتقويمها مفردة مبسوطة ليفتح صور كل حرف منها، ثم يؤخذ في تقويمها مجموعة مركبة وأن يبدأ من المركب بالثنائي والثلاثي وأن يعتمد في التمثيل على توقيف المهرة في الخطوط العارفين بأوضاعها ورسومها واستعمال آلاتها».[٦٧]

وفي إطار ما سبقت الإشارة إليه من مميزات تميز الخط الثلث وما ذكر عن مقاييس لضبط تجويد الخط سنعرض لأسلوب ناسخ المصحف في كتابة متن النص القرآني.

فقد مال النساخ إلى توسيع كاسات الحروف، كما أنه نوع في أشكال الحروف ب، ج، د، ر، ك، م، ن، هـ، لا، ى.. (أنظر شكل ٦) واستخدم النساخ أكثر من قلم في تشكيل الحروف وتحليتها حفظ القلم الذي كتبت به الحروف وقلم أقل منه سمكا، ويلاحظ دخول حليات كثيرة في التشكيل (أنظر لوحة رقم ٨) ولم يطمس الخطاط حروف العين والميم إلا في حالات نادرة واتصالات الحروف بعضها بالبعض الآخر تتسم بالوضوح والقوة مما أضفى جمالا على الخط.

ونظراً لأهمية وضع علامات الإعراب فوق حروف النص القرآني أو تحتها فقد التزم الخطاط بكتابة هذه العلامات في مواضعها الصحيحة، كما أنه لجأ أحيانا إلى استخدام بعض العناصر لتحلية الخط سواء كانت على هيئة حروف أو على هيئة أشكال زخرفية أخرى من تلك التي جرت العادة باستخدامها في تحلية الخط الثلث[٦٨]

وتكشف دراسة خط المصحف بأن كاتبه كان ملتزما بقواعد كتابة خط الثلث سواء فيما يتعلق بحركة اليد بالقلم في الكتابة وما يجب أن يراعى في رسم كل حرف، وكذلك فيما يتعلق بتناسب الحروف ومقادير مساحاتها، وقد لاحظنا أيضا أنه مال إلى ترويس بعض الحروف غير الألف واللام ومثال ذلك

---

(٦٣) مركز الملك فيصل، الخط العربي، ص ٤٧.

(٦٤) مركز الملك فيصل، الخط العربي، ص ٣٥.

(٦٥) القلقشندي، احمد بن علي بن احمد (ت ٨٢١)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٨م)، جـ ٣، ص ٢٢.

(٦٦) مركز الملك فيصل، الخط العربي، ص ٣٥.

(٦٧) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٢٣.

(٦٨) مركز الملك فيصل، الخط العربي، ص ٤٧.

البـاء، والجيم، والدال والذال والراء والزين. والطاء والظاء والنون. وفيما يتعلق بطمس الحروف لاحظنا بُعد النـاسـخ عن طمسهـا ويندر أن نجد بعض الحـروف التي تطمس كالعـين المتـوسطة والأخيرة والغين والفاء والقاف والميم والهاء والواو واللام ألف - مطموسة وهنا تجب الإشارة إلى أن مثل هذه الحروف في عنـاوين السـور المكتوبة باللون الذهبي طمست بلون أزرق للزخـرفـة والتجميل ولم يكن رسمها في الأصل مطموسا (انظر اللوحة رقم ٩،٨).

ويلاحظ أن الخطاط لجأ إلى التركيب الخفيف في بعض الأحيـان مثـل كلمة «اللـه» كذلك يلاحظ أن الخطاط يميل إلى مد بعض الحروف كحرف (الراء، الميم، الواو «بهيئـة مبسوطة شبه مستقيمة وليست مقورة. وقد طغت هذه الظاهرة حتى أصبحت سمة مميزة لخط هذا المصحف، وقد مدت أيضا كاسات حروف السين، والصاد والنون والياء بهيئة متشابهة. ونظرا لكثرة وجود هذه الحروف في كلمات آى القرآن الكـريم سيما بالكلمات التي تنتهي بها هذه الآيات فإن تكرار رسمها بهذه الهيئة جعل هذه السمة من أبرز سمات خط هذا المصحف وأكثرها تكراراً ، وقد أضفى ذلك نوعا من التناغم في خط هذا المصحف، سيما وأن الخطاط وازن بين امتداد هذه الحروف إلى أسفل بهذه الهيئة وبين رسم حروف أخرى ممتدة بمستوى السطر كحرف الكاف الذي رسمه بهيئة مبسوطة.

وإذا كان مد الحروف السابقة بهيئة مبسوطة كان هو السمة الرئيسة في أسلوب ناسخ هذا المصحف فانه لم يلجأ إلى عمل امتدادات بني الحروف لعدم حاجته إلى ذلك لأن الحروف بما تتمتع به من فخامة غنيـة عن ذلك. وفيمـا يلي دراسـة لأسلوب كتـابة الحروف في خط يهذا المصحف اعتماد على ماورد في مصادر الخط العربي مع مقارنة بما قد وصل إليه الخطاطون المحدثون. وقبل أن نعرض لدراسة هذه الحروف تجب الإشارة إلى أن عرض قطة القلم الذي كتب به المصحف تبلغ واحد ونصف المليمتر تقريبا.

حـرف الألـــف

حرف الألف «شكـل عبـارة عن خط منتصب، ميـزانهـا في خط هذا المصحف سبع نقاط[٦٩] نقطة الابتـداء ثم يتبعها ست نقاط نزولا إلى أسفل. وقد غلب على الخـطاط استخـدام الألف المطلقة، وتبدأ بنقـطة من أعـلى - كما ذكرنا - وتنتهي بشظية من أسفـل (انـظر شكـل ٦/أ).[٧٠] ويلاحظ أن شظية الألف مدببة ومائلة إلى التحول أي إلى عدم الإشباع الخطي.

والألف الصاعدة يلاحظ أن بها تقوس ظاهر في الوسط جهة اليمين (شكل ١٦ب) وبصفة عامة فان رسم خطاط هذا المصحف لحرف الألف سواء المفردة أو الصاعدة قد اتخذ شكلا انسيابيا وقوة في الإرسال وكـذا في الإشباع - أي امتلاء جسم الحرف بمادة الكتابة - إذا ما قورن برسم الألف لدى الخطاطين المحدثين (شكل ٦جـ، ٦د).

وفيما يتعلق برسم أجزاء حرف الألف يلاحظ أن الجزء الأول الذي يسمى «زلف» أو رأس الألف، أو الهامة أو الترويس، عبارة عن خط مائل من يسرة إلى يمنة كتب بعرض سن القلم من أعلى إلى أسفل بطول نقـطتـين، والجـزء الذي يسمى «النصل» أو جسم الألف وطوله خمس نقاط، ينتهي بطرف يمثل الجزء الثالث، وهو عبارة عن شظية مسننة الطرف. (انظر شكل ٦هـ).

حرف الباء واخواتها

رسمت الباء والتاء بصور متشابهة لاتختلف إلا في الأعجـام. والباء المفردة تتكون من ثلاثة خطوط منتصب ومنسـطح ومقوس. ويذكر صاحب الميزان المـألوف «أن المنتصب يرسم مائلا بقدر ربع نقطة

(٦٩) النقطة هي سمك القلم الذي يكتب به الحرف، والنقطة سريعة تقاس بها جميع الحروف (انظر يحيى سلوم العباسي الخطاط، الخط العربي تاريخه وانواعه، ط ١ (بغداد : مكتبة النهضة، ١٩٨٤م)، ص ١٧١.

(٧٠) قام بإخراج أشكال الحروف كما هو موضح الخطاط كمال الشيخ فله مني جزيـل الشكـر على ماقـام به من جهـد ومـا ذكره من ملاحظات باعتباره متخصصا في إخراج الخط.

ومقداره حوالي نقطة ونصف أما المنسطح فيرسم بميل مقداره نصف نقطة في الجزء الأخير منه، تقدر مساحته بست نقاط مربعة، والمقوس يرسم مائلا إلى يسرة ومساحته، إذا جعل قائما مستويا، يكون بمقدار نقطة كاملة[٧١]. (شكل ١٧).

وقد رسم خطاط هذا المصحف الباء المفردة بالهيئة المجموعة في أغلب الحالات ، كما رسمت في بعض الأحيان بالهيئة المبسوطة، وقد استغل الخطاط هذه الهيئة في رسم حرف الباء في كثير من الحالات لشغل المساحة المتبقية في نهاية السطر إذا كان اتساعها يزيد على مساحة حروف الكلمة التي تكتب في هذه المساحة، لكن هذا لم يمنع الخطاط من رسم الباء المفردة بهذه الهيئةالمبسوطة في كلمات تقع في مواضع أخرى من السطر .

أماء الباء المبتدأة فقد رسمها الخطاط مروسة مع باقي الحروف فيما عدا حرف الياء حيث لوحظ عدم رسمها مروسة مع هذا بالحرف (شكل ٧ب). والباء المبتدأة مع حرف الراء يلاحظ أن الخطاط رسمها مروسة بدون سن (أنظر شكل ٧جـ).

ورسم الخطاط الباء المتوسطة بين حروف الكلمة بصورة متنوعة منها الباء ذات السن المتوسط العادي والباء ذات السن المرتفع قليلا.

وإذا عدنا إلى تتبع أشكال رسم أجزاء حرف الباء لدى خطاط هذا المصحف، فإننا نلاحظ أن الباء المفردة رسمت بدون سن في الترويس في البدء (شكل ٧د/١)، وفي صورة أخرى أخذت ترويسا منعكسا إلى أسفل على غرار خط الرقعة (٧د/٢). أما ميزان اجزاء حروف الباء فيلاحظ ان طول الجزء الأول «المنتصب» نقطة ونصف، وطول الجزء الثاني «المنسطح» ست نقاط، أما الجزء الثالث (المقوس) فقدر طوله بنقطة ونصف (شكل ٧/د/٣).

وتعددت كذلك أشكال رسم الباء المبتدأة فمنها مارسم بترويس غير مسنن وبطول نقطة واحدة؛ وهذا مع حروف (الباء والراء والنون (شكل ٧/هـ) كما رسمت بترويس غير مسنن وبطول نقطة ونصف وهذا مع الحروف الصاعدة مثل الألف والهاء المجموعة، وكذلك مع حروف الدال والفاء والكاف واللام (شكل ٧/و)، كما رسمت بترويس مسنن وبطول نقطتين مع حروف الجيم والعين والصاد والطاء والميم والواو والهاء والقاف، (شكل ٧/ز). والصورة الثالثة لحرف الباء المبتدأة يلاحظ أنها رسمت بترويس مسنن وبطول نقطتين ونصف، ويلاحظ أن هذه الصورة تكون مع الباء الراجعة فقط وتميل جهة اليسار بمقدار نقطة، (شكل ٧/ح).

أما الصورة الرابعة لرسم حرف الباء المبتدأة فقد بلغ فيها ارتفاع ترويسها المسنن ثلاث نقاط وبرسم يميل جهة اليسار بلغ نصف نقطة، وترسم هذه الصورة غالبا مع حرف السين (شكل ٧/ر)، وهناك صوراً أخرى لأشكال حرف الباء المبتدأ مأخوذة من الباء ذات الترويس المعكوس (أنظر شكل ٧/ى).

ومما سبق يتضح أن الخطاط لجأ إلى ترويس منتصب حرف الباء وأخواته في الهيئة المركبة، وسيتضح من دراسة رسمه لغير ذلك من الحروف أن ترويس الحروف سمة أساسية غلبت على خط هذا المصحف سواء في حرف الباء وأخواته أو غيرها.

الجيم وأخواتها

حروف الجيم والحاء والخاء رسم كل حرف منها بأسلوب مشابه للآخر وفق الصور التي استخدمها الخطاط في كتابة هذا المصحف. وكل حرف منها يتكون من شكل مركب من خطين: منكب ونصف دائرة (شكل ١/٨) والمنسطح والدائرة خمس نقاط.

والجيم نوعان زنادى ومحلق، والزنادي شكل مركب من أربعة خطوط منكب ومنسطح فمستلق فشكل يشبه المثلث والمنكب يبدأ بترويس ثم يرسم منه شكل يشبه القوسين مبتدأ من أعلى إلى أسفل ومن اليسار إلى اليمين، ويقدر هذا الطول بنحو ثلاث

---

(٧١) محمد افندي مؤنس، الميزان المألوف في وضع الكلمات والحروف. نشره مع مقدمه بعنوان (الخط العربي) د. جمال التوني (لندن: دار الكتاب المصري للطباعة والنشر، د.ت)، ص٣، ٤.

نقاط وانكبابه نقطة ونصف إلى جهة اليمين (٨/ب) والمنسطح مائل إلى يمينه بقدر نصف نقطة، وقطره خمس نقاط والمستلق: يتقابل مع المنكب بحزاء نصف المنسطح تقريبا ويقطع جزءاً من المنكب في طريقه للارتباط به ومساحته تقدر بنحو اربع نقاط (شكل ٨جـ) أما الشكل الشبيه بالمثلث يكون أحد زواياه من أسفل ومستديرا من كل زاوية قليلا، وذلك لخروجه عن كونه مثلثا. (شكل ٨د).[٧٢] وقد استخدم الخطاط هذا النوع من حرف الجيم في كتابة هذا المصحف ويلاحظ في رسمه انكسار في الشكل الدائري في الوسط، وانحدار في الطرف من جهة اليمين. وقد رسم الخطاط الشكل الشبيه بالمثلث بهيئة وصل فيها طول الفراغ الداخلي الأفقي نحو خمس نقاط والطول الراسي نحو ثلاث نقاط.

ويلاحظ أيضا أن انتهاء إجماع الطرف الأخير من المثلث غير منتظم حيث وجد أنه يترفع وينتهي بشظية (طرف) مدببة وأحيانا نجدها لا تتصل بالجزء المستلقى (شكل ٨أ).

أما النوع الثاني وهو المحلق، وهو شكل مركب من ثلاث خطوط: منتصب فمنسطح فمستلق؛ والمنتصب كسن الياء رسما وبدون ترويس مسن ومساحته بحوالي نقطتين، ويرسم مائلا إلى يمنة، وابتداؤه من أعلى إلى أسفل (شكل ٨/و)[٧٣] أما المنسطح فمائل إلى يمنة بقدر نقطة ومساحته من الخارج خمس نقاط ثم يتجه نحو الصعود مباشرة بعد استلقائه (شكل ٨/ز)[٧٤]. وقد لوحظ أن المنسطح في خط هذا المصحف له بداية مثل الباء بترويس ثم ينسلخ منها زلفا منكبا من أعلى إلى أسفل ومن اليسار إلى اليمين وبطول نقطتين كما ذكرنا. كذلك لوحظ أن حرف الجيم الملحق يتمشى مع جميع الحروف التي ترتكز على السطر وغيرها من صاعد وهابط دون مستوى السطر، ويتناسب أيضا مع الحروف شبه الصاعدة أي الحروف المقنطرة. والحروف الصاعدة هي الألف واللام والدال المتصلة والكاف المتوسطة المتصلة والمتطرفة المتصلة أيضا.

ومن الملاحظ أيضا أن الخطاط نوّع في أشكال الجيم فرسم الجيم بالصور المرسلة والموقوفة وكذلك المجموعة التي تنتهي بنهاية مثل المثلث الذي يرسم قاعدة من أعلى وزوايا مستديرة من أسفل.

الدال واختها

يذكر القلقشندي أن حرف الدال شكل مركب من خطين منكب ومنسطح ومجموعهما مساوٍ للألف[٧٥]، وقد اتبع خطاط هذا المصحف هذه النسبة في رسم الدال المفردة التي رسمت في هيئة مثلث على زاوية واحدة، وجمع طرفها جمعا يسيرا. بينما يذكر صاحب «الميزان المألوف» أنه مركب من ثلاثة خطوط: منكب ومستلق ومقوس، والمنكب في الرسم شبيه بنصف حرف الألف ويقدر بنحو ثلاث نقاط بعرض سن قلم الكتابة ويرسم من اليسار إلى اليمين بانحدار نقطتين ونصف النقطة (شكل ٩/أ)، أما المستلقي فمساحته أربع نقاط واستلقاؤه بميل نقطتين ونصف ويبدأ من اليمين إلى اليسار (شكل ٩ب) والمقوس يلي المستلقي صاعدا إلى أعلى بمقدار نقطتين، ويميل نصف نقطة جهة اليمين (شكل ٩/جـ)[٧٦].

وبمراجعة صور حرف الدال في رسم هذا المصحف نلحظ أن الجزء المستلقي لم يأخذ شكل الاستدارة في الاتصال، ولكن أخذ شكلا منكسرا، أي أن المنكب والمستلقي يحصران بينهما زاوية حادة (شكل ٩د)، وهو الشكل الذي أشرنا إلى أنه يتطابق إلى حد كبير مع وصف القلقشندي كذلك لجأ الخطاط إلى استعمال صورة الدال المختلسة أو المخطوفة، وغلب استخدامها في الكلمات بنهاية السطر لملاءمتها المساحة المتبقية، واستخدمها كذلك في مواضع أخرى من السطر في نهاية الكلمات تمشيا مع ما يسبقها من إرسالات (شكل ٩هـ). وإذا ما قارنا بين شكل الدال في رسم هذا المصحف ورسمها في العصور الحديثة نجد أنها ترسم بانسيابية أكثر

(٧٢) محمد افندي مؤنس، الميزان المألوف، ص ٢٥.

(٧٣) محمد افندي مؤنس، الميزان المألوف، ص ٢٦/ ٧ .

(٧٤) محمد افندي مؤنس، الميزان المألوف، ص ٢٧.

(٧٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٢٦.

(٧٦) محمد افندي مؤنس، الميزان المألوف، ص ص ٢٧ ـ ٢٨.

ووضوح وقوة في الإرسال والإجماع وأيضا الاختلاس وتنخفض وترتفع حسب ما هو متصل بها من حروف (شكل ٩ و)

الراء والزاي

شكل مركب من خطين منتصب ومتسلق، والمنتصب يقدر بنقطتين يزاد عليهما الترويس المسنن، ودرجة الميل نصف نقطة وعند الاتصال يحذف سن الترويس (شكل ١٠ أ). أما المستلقي فينحدر من اليمين إلى اليسار بطول يزيد عن الست نقاط والنهاية شبه مدببة (شكل ١٠ب)[٧٧] وقد استخدم الخطاط في كتابة هذا المصحف الراء المرسلة وهذا لتأكيد وتوضيح الرسم الخطي مما يدل على تحقيق أجزاء الحروف كما أن هذه الصورة التي اتبعها خطاط المصحف في رسم حرف الراء تتوافق مع اتجاهه العام في استخدام الصورة المرسلة لحروف أخرى، وهي ظاهرة يتضح تركيز الخطاط عليها. وما ينطبق على الراء ينطبق على الزاي.

السين والشين

يذكر القلقشندى أن حرف السين مركب من خمسة خطوط منتصب ومقوس ومنتصب ومقوس ومنتصب[٧٨] ، بينما يذكر صاحب «الميزان المألوف» وصفا أكثر تفصيلا فيذكر أنه من سبعة خطوط: منتصب، مقوس، منتصب، مقوس، منتصب، مستلق، مقوس؛ والمنتصب الأول كسن الباء رسما ومساحته نقطة واحدة، والمقوس الأول مساحته نقطة وترسم من يمنة إلى يسرة، والمنتصب الثاني مساحته نقطة ويميل إلى اليمين بمقدار نصف نقطة، والمقوس الثاني مساحته نقطة ونصف ويأخذ استواء أكثر من المقوس الأول وسنه أفقي، والمنتصب الثالث مساحته نقطتان ويتمثل في الجزء الأول من الكاسة، والمستلقي مثل الراء المجموعة يرتكز على نقطتين جهة اليمين ونقطة واحدة متجهة اليسار ويطلق عليه مصطلح «عرقة» والمقوس الأخير يطلق عليه مصطلح الشظية (الطرف) وهذا بطول نقطتين وبدخول جهة اليمين (شكل ١١ أ).[٧٩]

وإذا كان شأن كاسة السين في الخط الثلث كشأن كاسات الصاد والضاد والقاف واللام والنون والياء، فانه يلاحظ أن خطاط هذا المصحف قد رسم كاسة السين بصورة مختلفة مميزة حيث يلاحظ أنه أطال الكاسة وجعل درجة الميل أسفل كتف الحرف نقطتين ورفع النهاية أيضا بمقدار نقطتين وجعل طول الكاسة تتراوح ما بين ست نقاط إلى اثنى عشرة نقطة[٨٠] (شكل ١١جـ/ ١١هـ).

وكذلك يلاحظ أن الخطاط عمل مدات «كشايد» وأربطة بين حرف السين أو الشين وما يلي كل منهما وذلك لتوضيح وإظهار أسنان السين عما يسبقها أو يتلوها (شكل ١١ب).

الصاد والضاد

شكل مركب من ثلاثة خطوط مستلق ومنكب ومنسطح، والمستلقي ابتداؤه من يسرة إلى يمنة ومساحته ثلاث نقاط واستنلقاؤه على نقطتين (شكل ١٢أ)، والمنكب مساحته نقطتان طولا، والمنسطح كجسم الباء المرسلة (شكل ١٢ب)، والفراغ الداخلي لحرف الصاد (البياض) شبه مثلث قاعدته من أسفل ومساحته نقطة ونصف، وقد رسم خطاط المصحف كاسة الصاد بصورتين الأولى وهي الكاسة المجموعة بطول خمس نقاط، والثانية وهي الكاسة المرسلة التي رسمت بطول يزيد عن طول الباء، وقد يصل هذا الطول في بعض الحالات إلى ضعفي حرف الباء. وقد تناسب هذا مع اتجاه الخطاط في رسم العديد من الحروف الأخرى بالهيئة المرسلة.

ومن المعلوم أن ارتكاز حرف الصاد أو الطاء على نقطة من جهة اليمين أسفل الحرف تتيح الغرض لاتصال حرف الصاد بحرف يسبقه إذا وقع متوسطا

---

(٧٧) هناك صور اخرى لحرف الراء تستخدم في الكتابة كالراء المجموعة المدغمة (انظر شكل ١٠جـ، ١٠د).

(٧٨) القلقشندى، **صبح الأعشى**، جـ ٣، ص ٢٧؛ مؤنس، **الميزان المألوف**، ص ص ٣٤ ـ ٣٧.

(٧٩) مؤنس، **الميزان المألوف**، ص ٣٣.

(٨٠) يتضح هذا التميز من مقارنة رسم الخطاط لحرف السين برسم حرف السين لدى الخطاطين المحدثين (شكل ١٠جـ).

وقد راعى الخطاط هذه القاعدة في إجادة تامة. (شكل ١٢جـ).

الطـاء والظـاء

شكـل حرف الطاء كشكـل حرف الصاد إلا أن المنكب للصاد يزيد قليلا عن الطاء والزيادة بمقدار نقـطة واحـدة، كمـا أن الطاء تزيـد عن الصاد في المستلقي الصاعد إلى جهة اليمين فنجد طوله اربعة نقاط. (شكل ١٣أ) ومن الملاحظات البارزة في رسم خطاط المصحف أنه يرسم الطاء في حالة الانفراد أو التـطرف بزيـادة نقـطتين في النهاية ويرسل بطرف مدبب. كذلك يلاحظ أن ألف الطاء أو شارتها أقل بقليل من طول الألف المعتاد ويوضع في نهاية تلويزها (شكل ١٣ب) كذلك فإن بياض الفراغ الداخلي لباطن الحرف بلغ نقطة واحدة.

العـين والغـين

ترسم العـين في الخـط الثلث بأشكـال متنوعة، والعـين المفردة تماثل حرف الحاء والجيم في طرفها المقـوس وهي شكـل مركب من ثلاثـة خطوط مقوس ويطلق عليه رسم الحاجب وطوله ثلاث نقاط، ومنكب طوله نقـطتين ويكتب من أعلى إلى أسفل ثم نصف دائـرة.[81] ورسمت رأس العـين المبتـدأة المصـولة والمفـردة بصورة متشابهة إلا أن الخطاط لم يراع مسـاحـة الفـراغ الذي يليها، فتارة نجده أقل من النقطة مع الحرف الصاعد، وأخرى أكثر من النقطة، في حين أن المتعارف عليه أن يكون هناك فراغ بمقدار نقطة في أعلى رأس العين المبدأة.

كذلك يلاحـظ أن الجزء الذي في العين النهائية المفردة أو الموصلة به انكسار في الوسطي، كما أنه يميل إلى الانحدار إلى أسفل من جهة اليمين (شكل ١٤أ) والشظية مابين الهيئة المرسلة والمسبلة.

أمـا العـين الوسطية أو المعقودة[82] فهي شكل مركب من ثلاثـة خطوط منكب ومنسـطح ومستلق، والنكب مقوس قليلا وطوله ثلاث نقاط[83]، ويلاحظ أن الخـطاط رسمـه في هذا المصحف بهيئة مستقيمة، والمنسـطح مقـوس قليـلا أيضـا وطوله ثلاث نقاط، والمستلقي يسير من اليمين إلى جهة اليسار، ويلاحظ أن الفراغ الداخلي للعين «عين الحرف» يأخذ هيئة مثلث قاعدته من أعلى، (شكل ١٤ب)

الفـاء

شكل حرف الفاء المبتدأة يتكون من ثلاثة خطوط منكب، ومستلق ومنتصب، والمنكب مساحته نقطتان والمـستلقي استلقـاؤه من اليمـين مع الارتفـاع، والمنتصب كسن الباء بدون ترويس، ويلي ذلك في الفاء المفردة منسطح بطول ست نقاط ثم شظية بطول نقطة (شكـل ١٥أ) ويلاحظ أن الخطاط رسم رأس الفاء مائلة إلى أسفل من يسرة[84]، كما أن مساحة الفراغ أو بيـاض الفاء «البذرة» غير منتظم وصغير نسبيا بالنسبة لما هو متعارف عليه في العصر الحديث (شكل ١٥جـ).

أما الفاء المتوسطة فقد كتبها الخطاط بصورتين الصورة الأولى يلحظ فيها الفاء مرتكزة على السطر (خط الارتكاز) والصورة الثانية هي التي أتى بعدها حرف هابـط دون مستـوى السطر فرسمت مرتفعة بمقدار نقطة (شكل ١٥ب) والفراغ الداخلي في الفاء المتوسطة شبه مربع في حالة الفاء التي على السطر أما في حالة الفـاء المرتفعـة فيـلاحظ أن الفـراغ مستطـيـل.

القــاف

شكل مركب مثل رأس الفاء ابتداء وتوسطا، أما إذا كانت مفردة أو متطرفة فرأسها كالمفردة وكاستها ككاسة السين، ويلاحظ في خط المصحف أن امتداد الكاسات يزيد نقطة عن ماهو معتاد ومتعارف عليه حاليا بالنسبة للخطاطين المحدثين (شكل ١٦أ) كما استخـدم الخـطاط أسلوب الإرسـال في الكـاسات وخاصة في الكلمات التي تشغل نهاية السطر لشغل

---

(٨١) مؤنس، **الميزان المألوف**، ص ٣٧.

(٨٢) تسمى هذه العـين بأسماء أخرى منها ذات القرنين والكرسية والمثلثة المركبة، مؤنس، **الميزان المألوف**، ص ٣٧.

(٨٣) مؤنس، **الميزان المألوف**، ص ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٨٤) مؤنس، **الميزان المألوف**، ص ص ٣٧ ـ ٣٨.

المساحة (شكل ١٦ب)

الكـاف

يعتبر حرف الكاف من الحروف التي نوع وأبدع خطاط المصحف في رسمها. فقد استخدم الكاف المبتدئة البسيطة وهي تعرف اصلاحا «بالكاف المبسوطة»[٨٥] استخداما شائعا نظرا لأنها تأخذ جزءا كبيرا من طول القلم البسط. واستخدم أيضا الكاف المعراة سواء كانت مفردة أو متطرفة موصولة (شكل ١٧أ). ويلاحظ أن الكاف المبسوطة في خط هذا المصحف وجدت بنماذج منها ما يسمى باسم «الزلف» أو الترويس الهابط واتخذت شكل القوس، ونتيجة لذلك اتخذت الكاف الهيئة الثعبانية لوجود أكثر من جزء متلو يشبه شكل الثعبان. (١٧/ب).

والكاف المنبسطة شكل مركب من خمسة خطوط منتصب مقوس، ومستلق ومنسطح ومنكب ومنسطح. والمنتصب المقوس يبدأ من أسفل إلى أعلى بتقوس جهة اليمين، وقد يكون عبارة عن شظية بدايتها من أعلى إلى أسفل (شكل ١٧حـ) ومن يمنة إلى يسرة[٨٦]. وفي إطار تمكن خطاط المصحف ومحاولته إظهار براعته في هذا كان ماحدث من وصلة للشظية المذكورة، أو الترويس بما قبلها، وقد تكرر هذا الوصل بصفة خاصة مع الحروف ذات الكاسات، كحرف الصاد والنون والياء (شكل ١٧د) وغيرها المستلقي مقوس ومائل إل يسرة وطوله حوالي ثلاث نقاط كما أنه مستدير من جهة الرأس (شكل ١٧هـ)، والمنسطح مقوس كجسم الباء ومساحته حوالي ثمان نقاط ويبدأ من جهة اليسار إلى جهة اليمين، وقد لوحظ وجود انخفاض في الجزء المنسطح من اليسار وارتفاع من جهة اليمين ويتراوح هذا الانخفاض والارتفاع ما بين الربع والثمن من النقطة (شكل ١٧/و). والمنكب مثل حرف الطاء ومساحته من الخارج نقطتان، والمنسطح مثل المنسطح الأول ولكن يختلف في بداية الكتابة فانه يبدأ من اليمين إلى اليسار، ويزاد مع الجزء الأول بمقدار نقطتين، (شكل ١٧/و). والكاف المتوسطة في هذا المصحف، تكشف عن أسلوب مميز لخطاط هذا المصحف في رسمها حيث يلاحظ أنه رسمها بدرجة ميل مناسبة إلى جهة اليسار لتفادي الحروف السابقة لها، ولكي تأخذ شارتها ووضعها المناسب، كذلك اختلف رسمه لشارة الكاف (الرمز) كتابة ووزنا عما هو متعارف عليه حيث يلاحظ أن شارتها مثل شارة الكاف في الخط الديواني مع التقوس في الوسط، كما أضيف عليها شكل حرف الكاف الصغيرة في وسطه من أعلى وأسفل مكان الشارة التي بلغ طولها خمس نقاط، (شكل ١٧ ز)

ومن الجدير بالذكر أيضا أن الخطاط لجأ إلى استخدام الكاف المركبة المشكولة في المواضع التي لا تتوافر فيها المساحة لرسم كاف مبسوطة، ولذلك نلحظ تكرار أمثلتها في الكلمات التي بنهاية السطور ، وحيث لا تتوافر المساحة الكافية لرسم الكاف بصورتها المبسوطة.

اللام

حرف اللام شكل مركب من خطين منتصب ومنسطح[٨٧]، وقد رسم الخطاط اللام المفردة بالصورة المجموعة وكذلك بالصورة المطلقة، ورسم اللام المركبة المبتدأة بالصورة المحققة، أما اللام الأخيرة المتصلة بما قبلها فانها رسمت بالصورة المركبة المجموعة وبالصورة المركبة المطلقة. وبتفصيل طريقة الرسم يتضح أن اللام المفردة أخذت شكلا كشكل الكاف المجموعة المفردة والمنتهية غير المتصلة إلا أن كاستها ككاسة السين وزنا ورسما فيما عدا نقطة الارتكاز، فانها ترتكز على نقطة أسفل سطر الكتابة وينتهي دورانها على السطر الأسفل (النهاية السفلى (شكل ١٨أ).

كذلك لوحظ أن اللام المبتدأة وبها ترويس (زلف) بمقدار نقطة واحدة بها تقوس خفيف ومنتصبها يقدر بحوالي ست نقاط . كذلك يلاحظ أن كاسة اللام بها طول عما هو معتاد أي بزيادة نقطة حيث يبلغ الطول ست نقاط.

---

(٨٥) مؤنس، **الميزان المالوف**، ص ٤١.

(٨٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٣، ٣٠.

(٨٧) مؤنس، **الميزان المالوف**، ص ٤٥؛ سلوم، **الخط العربي**، ص ٢٢.

وبالنسبة للام المتوسطة فإنها تصعد من أسفل إلى أعلى ثم يعاد عليها نزولا ودوران صعودها متركز على نقطة، وفي حالة اتصالها بالحرف الصاعد بأخذ ذراعها أو امتدادها الأفقي طولا بلغ نقطتين (شكل ١٨ب)، ومع الحرف شبه الصاعد يصل الطول إلى نقطة واحدة. كذل يلاحظ أن الخطاط أرسل اللام في بعض الكلمات المنتهية بها لمواءمة نهاية السطور، (شكل ١٨حـ).

حرف الميم

استخدم الخطاط بصورة أساسية شكل حرف الميم المحققة والتي تعرف خطيا كذلك بالميم المرسلة والخنجرية.[٨٨] وحرف الميم بهذه الصورة شكل يتكون من أربعة خطوط: مستلق ومنتصب ومنكب ومستلق، والمستلق الأول يكتب من يسرة إلى يمنة ومساحته نقطتان واستلقاؤه نقطة (شكل ١٩أ)، أما المنتصب فهو كسن الباء رسما ومساحته نقطتان ويكتب مع المستلقي الأول من غير فصل (شكل ١٩ب)، أما المنكب فهو كمنكب رأس الفاء في حالة انفرادها، ومساحته نقطتان (شكل ١٨حـ) والمستلقي كمستلقى راء مرسلة رسما.[٨٩]

ويقدر رأس الميم المخففة في هذا المصحف بنقطتين، كما أن مساحة ضوئها تعادل نقطة، وهو مستطيل كالبيضة منتصب جهة اليمين، أما إرسالها فيقدر بسبع نقاط، كذلك يلاحظ أن نهايتها أو طرفها مدبب في بعض الأحيان ومشطي في أحيان أخرى (شكل ١٩و) وارتكاز الإرسال على نقطة واحدة. ويختلف هذا الأسلوب في الرسم عما هو معتمد حاليا لدى الخطاطين المحدثين حيث ترتكز على نقطتين، ويتراوح الإرسال بين خمس إلى ست نقاط، والميم المبتدأة المتصلة رأسها محققة، واستخدم الخطاط أيضا الميم المدغمة والميم المغلقة لكنه استخدام غير شائعا (شكل ١٩هـ).

النون

يذكر القلقشندي أنها شكل مركب من خط مقوس نصف دائرة[٩٠] والنون المجموعة في تفصيل أدق شكل مركب من ثلاثة خطوط منتصب ومستلق ومقوس، والمنتصب طوله نقطتان فأوله ترويس ويبدأ بنقطة بها تقوس، والمستلق يرتكز على نقطة وطوله ست نقاط، والمقوس طوله نقطة ويتصل بالجزء المستلقي[٩١]، (شكل ١٣٠). وفي رسم خطاط المصحف لحرف النون نلحظ أنه يلجأ إلى كسر الجزء الرأسي مع الجزء المقوس فينتج عن ذلك زاوية، كما يلاحظ أنه يحذف ترويس النون المتصلة المتطرفة.

وكعادته لجأ الخطاط إلى الشكل المرسل في رسم النون، ويكشف دراسة إرساله لحرف النون عن أنه استخدم نوعين من الإرسال الأول منها إرسال عادي مساحته ضعف حرف الباء طولاً (شكل ٣٠ب) والنوع الثاني يمكن عده من نواحي التجديد والابتكار لدى خطاط هذا المصحف، حيث أنه رسم النون بالجمع بين استخدام الإدغام والارسال في وقت واحد. وهكذا اكتسب الحرف شكلا جميلا (شكل ٢٠جـ) ومما تجدر الإشارة إليه أن رسم الحرف بهذه الصورة يأتي مع الحرف شبه الصاعد.

ومن طريف مايذكر أن الخطاط لجأ في بعض الحالات إلى رسم حرف النون باتجاه عمودي إلى أعلى مع محافظته على نسبة الإرسال - حيث أن هذه الصورة انحصرت في مواضع الكلمات بنهاية السطور التي لا تتسع المساحة لرسمها.

الهاء

الهاء المفردة شكل مركب من ثلاثة خطوط منكب انكبابة إلى يمنه قدر نقطة ونصف وابتداؤه بنقطة وطوله ثلاث نقاط، ومنسطح به تقوس خفيف وطوله نقطتان ويكتب من يمنة إلى يسرة. ومستلق استلقاؤه نحو اليمين ومساحته أربع نقاط ويكتب من أسفل إلى

---

(٨٨) مؤنس، الميزان المالوف، ص ٤٥.

(٨٩) مؤنس، الميزان المالوف، ص ٤٥.

(٩٠) القلقشندي، صبح الأعشى جـ ٣، ص ٣٢.

(٩١) مؤنس، الميزان المالوف، ص ٥٣، السلوم، الخط العربي، ص ٢٠٢

أعلى ومن اليسار إلى اليمين[٩٢]، ورسم الخطاط الهاء المفردة بالصورة المعراة، ويلاحظ أن الخطاط نوع في شكل رأسها فأحيانا يرسم هذه الرأس مقوسة بعض الشيء كما أنه يخفف عند صعوده بالقلم لرسم قفاها، (شكل ٢١ب)

أما الهاء المبتدأة فهي شكل مركب من نصف دال وفاء متوسطة إلا أن الفاء تأخذ في طريقها جزاء من نصف الدال وهي بهذه الهيئة في الرسم تشبه عين الهر ولذلك فإن مثل هذه الهاء تسمى اصطلاحا «بوجه الهر». (شكل ٢١أ) ورسمت الهاء المتوسطة بنفس الأسلوب ولكنها تركب فوق الحرف السابق لها. أما الهاء المنتهية المتصلة فاتصالها من أسفل اليمين جهة المنكب مثل حرف الدال، (شكل ٢١جـ)

الـواو

حرف الواو شكل مركب من ثلاثة خطوط مستلق ومنكب ومقـوس[٩٣] والمفرد فيها رأسها كرأس الفاء وبـاقيها كجسم الراء[٩٤] واستخدم كاتب المصحف نوعا واحدا من شكل الواو وهو الواو المرسلة لتحقيق وتـأكيـد قوة الإرسـال الخـطي من ناحيـة ولتوفير مساحات بين السطور توضع بها علامات القراءات من ناحية ثانية.

ويلاحظ أن إرسال الجزء المستلقي من الواو يرتكز على نقـطة واحدة جهة اليمين ومساحته طولا سبع نقاط (شكل ٢٢أ) وإذا ما قارنا بين رسم الواو بهذا الشـكـل في هذا المـصـحف والواو المـرسلة لدى الخـطاطين المحـدثين لاتضح أن الخلاف في درجة ارتكاز حيث إنها ترتكز على نقطتين لدى المحدثين بدلا من نقـطة واحـدة كمـا في هذا المصحف. كما أنم مساحة الإرسال تبلغ ست نقاط وليس سبعا كما أن طرف الإرسال منتهيا بشظية[٩٥]، (كشل ٢٢ب)

واستخـدام الواو المرسلة في هذا المصحف واءم أسلوب الإرسال في رسم الحروف الأخرى التي سبق الإشارة إليها، وتوافق مع الرغبة في توفير مساحات بين السـطور لرسم علامات القراءات. لكن هذا لم يمنـع الخطاط من أن يرسم الواو بالصورة المقورة عندما أتيح له ذلك سيما في عناوين السور فتكاملت مع جمال رسم عناوين السور وأضافت جمالا لجمالها.

الـلام ألـف

رسم كاتب المصحف اللام ألف المفـردة بصورة تكـاد تكـون واحدة وهي الصورة المحققة. ويتكون شكـل الحـرف من ثلاثـة خطوط منكب ومنسـطح ومستلق، والمنكب مائـل نحـو اليسار بمقدار ثلاث نقاط، والمنسطح مساحته نقطتان ودرجة ميله نقطة واحـدة، والمستلقي استلقـاؤوه نحو اليمين بمقدار خمس نقاط (شكل ٢٣). وغالبا ما تقاطعت اللام ألف المفردة مع الألف الذي يسبقها كما في كلمة «إلا» ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل إنه يلاحظ ـ سيما في عناوين السور ـ أن الناسخ لا يكتفي بهذا التقاطع ولكنه يصل اللام ألف مع حرف من حروف الكلمة التي تسبقـه ويـأتي من خلال هذا الوصـل وغـيره بتشكيل خطي جميل.

كذلك رسم الخـطاط اللام ألف المركبة بالصورة المخففـة وهي السـائدة في كتابة المصحف، ونلحظ أيضا نه استخدم أيضا اللام ألف الوراقية في بعض الأحيان (لوحة ٨) وهنا تجب الإشارة إلى أن الخطاط التـزم بهـذه الصـورة في كتابة «اللام ألف» في كل الكلمـات التي تضمنتهـا الصفحـة وهو ما يعكس اتجاهه إلى التجانس في اختيار الصور الخطية للحروف.

حـرف اليـاء

شكـل مركب من ثلاثـة خطوط مستلق ومنكب ومقوس[٩٦]،المستلقي كمستلقي رأس كاف بسيطة بدون ترويس هابط أو صاعد إلا أن طوله ثلاثة نقاط وينحـدر عل نقطتين (شكل ١٢٤) ، والنكب كمنكب حرف الفاء إلا أنه يبدأ كتابة من أعلى ومساحة طوله

(٩٢) مؤنس، **الميزان المألوف**، ص ٥٩.
(٩٣) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٣٤.
(٩٤) مؤنس، **الميزان المألوف**، ص ٦٣.
(٩٥) يحيى سلوم، **الخط العربي**، ص ٢٠٥.
(٩٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ ٣، ص ٣٤.

نقطتان، والجزء الثالث المقوس شبه كاسة السين كتابة.[٩٧] واستخدم كاتب المصحف أكثر من نوع في رسم الياء، ومنها الياء المجموعة ويبلغ طول كاستها ست نقاط كما استخدم الصورة المرسلة ويبلغ طول الياء فيها ضعف حرف الباء (شكل ٢٤ب)، كما أنه استخدم الياء الراجعة في الحالات التي تستلزم ذلك لظروف المساحة ويلاحظ ميل الخطاط إلى تركيب اليا الراجعة في كلمة «في» بهيئة تسمح غالبا بهذا التركيب في إطار منسجم مع التشكيل الخطي العام لسائر كلمات السطور ويعني ذلك أن ظروف المساحة التي تدعو إلى استخدام الياء الراجعة ليس فقط ما يتصل بضيقها كما في حالة الكلمات التي في نهاية السطر أو القريبة من النهاية ولكن ايضا استخدم في شكل المساحة الناتجة من شكل رسم بعض الحروف بهيئة توفر مساحة لرسم الياء راجعة فتملأ هذه المساحة بها وهكذا ينسجم التشكيل الخطي لكلمات السطر كله بصورة أفضل.

الأحبار المستخدمة في كتابة المصحف وزخرفته

اهتم المسلمون اهتماما واضحا بنسخ مخطوطاتهم وعلى رأسها المصحف الشريف، وأسسوا قواعد مهمة درجوا على الالتزام بها سيما في مجال تصحيح المخطوطات بعد كتابتها سواء اتصل هذا التصحيح بالإعجام (التنقيط) أو الإعراب (التشكيل) أو الشك في صياغة نصوص بعينها أو التأكيد من خطأ النص، ووضعوا لكل حالة من ذلك رمزا يسجلونه يشير إلى نوعية التصحيح، فحرف الحاء مثلا يرمز إلى الشك في نص، وحرف الصاد يرمز إلى تصحيح النص حيث يتم تصحيح النص في الهامش وكذلك وضعت رموز على الكلمات أو السطور المكررة في النص أو ضرب عليها.

كذلك وضعت قواعد لمن يريد تخريج شيء في الحاشية، ويسمى الملحق فيمكن وضع خط منعطف جهة التخريج في الهامش ويكتب التخريج وفق قواعد معينة وباتجاه محدد بآخره كلمة «صح» كذلك هناك من القواعد ما يحدد صفة كتابة القواعد على الهامش ولا يكتب في آخر صح كما في التخريج وبعضهم يكتب عليه خاتمة أو فائدة.[٩٨]

وكان استخدام ألوان أخرى من المداد غير المداد الأسود الذي يكتب به عادة متن الكتاب أمر مهم لتمييز بعض مواضع الكتابة في النص أو كتابة الهوامش سواء كانت تصحيحات أو تخريجات أو فوائد أو شروح. وكان المداد الأحمر من أكثر الألوان شيوعا في هذا المجال. وفي هذا المجال يقول ابن جماعة «لا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول بالحمرة فإنه أظهر للبيان وفي فواصل الكلام وكذلك لا بأس به على أسماء ومذاهب وأقوال أو طرق وأنواع أو لغات أو أعداد ونحو لذك ومتى فعل ذلك بين اصطلاحه في فاتحة الكتاب ليفهم الخائض فيه معانيها.»[٩٩]

وقد استخدم الحبر الأحمر وفق بهذه القواعد في مقدمة المصحف التي تضمنت الإشارة إلى المنهج المتبع في تسجيل أحكام القراءات في الهامش أو رموزها فوق المتن القرآني للمصحف، فقد ورد في نص هذه المقدمة أنه إذا «رأيت جايزة حمراء فوق كلمة هكذا إعلم أن فيها القراءات، وأنظر إلى حاشية المصحف تنظر ما قرئ مكتوب بالأحمر وإذا رأيت ميم الجمع عليهم، واليهم ولديهم وما أشبه (ك، وعلى الميم رفعة حمراء مع علامة تحقيقها حزمة سوداء فهي قراءة ابن كثير رضي الله عنه، وإذا رأيت ميم الجمع نحو عليهم وأنذرتهم أم لم تنذرهم هكذا فهي قراءة ورش عن نافع يضم إذا كان مابعدها همزة، فاعلم ذلك. فإذا رأيت شيئا من هذه العلامات فهو دليل على ماذكرنا».[١٠٠]

وقد كتبت حواشي المصحف بالمداد الأحمر فيما عدا الكلمة الأولى من كل حاشية فإنها كتبت بالمداد

(٩٧) مؤنس، الميزان المألوف، ص ص ٦٥ ـ ٦٦؛ سلوم، الخط العربي، ص ٢٠٧.

(٩٨) للاستزادة، راجع ابن جماعة الكناني (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، تذكرة السامع والمتكلم في ادب العالم والمتعلم (بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص ص ١٨٠ ـ ١٩١.

(٩٩) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص ١٩١.

(١٠٠) مقدمة المصحف الصفة الأولى (انظر لوحة رقم ١/١).

الأسود[١٠١] وكتبت رموز القراء فوق المتن القرآني بمداد أحمر ونقذت العلامات الأخرى المشار إليها في المقدمة بنفس المداد. واستخدم المداد الأحمر أيضا في كتابة كلمة «خمس» بعد كل خمس آيات «وعشر» بعد كل عشر آيات بالهامش بالهيئة التي تم وصفها قبل ذلك.

ولم يقتصر استخدام المداد الأحمر في الكتابة ولكنه استخدم في ما تم عمله من تكوينات زخرفية سواء في الديباجة أو في الصفحتين الأخيرتين أو في شمسات أقسام المصحف أو في الفواصل بين الآيات القرآنية.

واستخدمت أحبار أخرى بألوان أخرى، فقد استخدم في كتابة الآيات القرآنية بأشرطة ديباجة المصحف مداد فضي، واستخدم المداد الذهبي في كتابة عناوين السور وبياناتها واستخدم المداد الأبيض في كتابة بيانات شمسات المصحف المختلفة، كما استخدم المداد الأزرق في تشكيل وزخرفة بعض هذه العناوين، بالاضافة إلى استخدامه الأساسي هو والمداد الذهبي والبني في زخرفة الديباجة والصفحتين الأخيرتين والشريط العلوي بالصفحة الأولى الخاصة ببيانات سورة الفاتحة وفي شمسمات الأحزاب على وجه الخصوص.[١٠٢]

نتائج الدراسة

وقد تمخضت نتائج هذه الدراسة على الاستنتاجات الآتية:

١ ـ كشفت هذه الدراسة عن مصحف مملوكي نادر منفذ بالقراءات السبع بجزيرة شندويل.

٢ ـ حددت الدراسة تأريخ المصحف وتأريخ إخراجه.

٣ ـ تناولت الدراسة «السماع» الموجود بآخر المصحف وكشفت عن اسمين جديدين لقارئين من القراء بجامع عمرو بن العاص بالإضافة إلى أهميتها في تحديد تأريخ إخراج المصحف سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م.

٤ ـ فسرت الدراسة الرموز والهوامش المكتوبة فوق النص القرآني وبهامش المصحف واتصال ذلك بالقراءات السبع.

٥ ـ من خلال دراسة تحليلية متأنية تم الكشف عن الأسلوب الذي تم به تنفيذ التصميم الزخرفي الهندسي لديباجة المصحف. كما أوضحت الدراسة أهمية الزخارف النباتية فيها وتشابهها مع آثار معاصرة، وكان هذا التشابه من القرائن الدالة على نسبة هذه الآثار للعصر المملوكي.

٦ ـ من خلال دراسة تحليلية حددت الدراسة ملامح خط المصحف ومميزاته وميزانه وعلاوة لذك بكون هذا المصحف أعد ليكون مصحفا تعليميا لتعليم القراءات السبع.

---

(١٠١) انظر لوحة رقم ٤، ١٠، ١١، ١٣.

(١٠٢) وتشكل دراسة الأحبار في هذا المصحف موضوع بحث مستقل حيث تحتاج إلى تحليل الأحبار لمعرفة مكوناتها ومدى علاقة ذلك بما ورد في المصادر المعاصرة عن تركيب هذه الأحبار.

ملحـــق (١) بيـــان بتقسيمـــــات المصحـــف

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
انصاف	١ الكهف / شيئا نكرا	٢ الأخر								
اثلاث	١ التوبة / ٩٢	٢ ٤٥ / العنكبوت	٣ الى الأخر							
ارباع	١ الأعراف / ٤	٢ الكهف / شيئا نكر	٣ الصافات / ١٤٤	٤ الى الأخر						
خماس	١ المائدة / ٨١	٢ يوسف / ٥٢	٣ الفرقان / ٢٠	٤ السجدة / ٤٦	٥ الى الأخر					
اسداس	١ النساء / ١٤٧	٢ التوبة / التوبة	٣ الكهف / ٧٤	٤ العنكبوت / ٤٥	٥ الجاثية / ٣٢	٦ الى الأخر / القرآن				
اسباع	١ النساء / ٦١	٢ الأعراف / ١٧٠	٣ ابراهيم / ٢٥	٤ المؤمنون / ٥٥	٥ سبأ / ٢٠	٦ خاتمة / الفتح	٧ الى الأخر / القرآن			
اثمان	١ خاتمة / آل عمران	٢ الأعراف / ٤	٣ هود / ٤٤	٤ الكهف / شيئا نكر	٥ الشعراء / ٢٢٠	٦ الصافات / ١٤٤	٧ خاتمة / الطور	٨ آخر / القرآن		
اتساع	١ آل عمران / ١٥٠	٢ الأنعام / ٦٠	٣ التوبة / ٩٢	٤ النحل / ٢٠	٥ الحج / ٢٢	٦ العنكبوت / ٤٥	٧ المؤمنين / ٢١	٨ خاتمة / الرحمن	٩ آخر / القرآن	
اعشار	١ آل عمران / ٩٠	٢ المائدة / ٨١	٣ الأنفال / ٤٠	٤ يوسف / ٥٢	٥ الكهف / ٧٤	٦ الفرقان / ٢٠	٧ الاحزاب / ٣٠	٨ السجدة / ٤٦	٩ خاتمة / الحديد	١٠ آخر / القرآن
ستين حزبا ١ ــ ١٠	١ البقرة / ٧٥	٢ البقرة / ١٤١	٣ البقرة / ٢٠٢	٤ البقرة / ٢٥٢	٥ آل عمران / ١٥	٦ آل عمران / ٩٠	٧ آل عمران / ١٦٣	٨ النساء / ٢٣	٩ النساء / ٨٥	١٠ النساء / ١٤٧
١١ ــ ٢٠	١١ المائدة / ٢٣	١٢ المائدة / ٨١	١٣ الأنعام / ٣٥	١٤ الأنعام / ١١٠	١٥ الأعراف / ٤	١٦ الأعراف / ٨٧	١٧ الأعراف / ١٦٧	١٨ الأنفال / ٤٠	١٩ التوبة / ٣١	٢٠ التوبة / ٩٢
٢١ ــ ٣٠	٢١ يونس / ٢٥	٢٢ هود / ٥	٢٣ هود / ٨٧	٢٤ يوسف / ٥٢	٢٥ الرعد / ١٨	٢٦ خاتمة / ابراهيم	٢٧ النحل / ٤٢	٢٨ بنى اسرائيل	٢٩ الاسراء / ٩٦	٣٠ الكهف / ٧٤ شيئا نكرا
٣١ ــ ٤٠	٣١ مريم / ٨٠	٣٢ خاتمة / طه	٣٣ خاتمة / الأنبياء	٣٤ خاتمة / الحج	٣٥ النور / ٢٠	٣٦ الفرقان / ٢٠	٣٧ الشعراء / ١٥١	٣٨ النمل / ٥٥	٣٩ القصص / ٤٧	٤٠ العنكبوت / ٤٥
٤١ ــ ٥٠	٤١ لقمان / ١١	٤٢ الأحزاب / ٣٠	٤٣ سبأ / ٣٠	٤٤ يس / ٢٥	٤٥ الصافات / ١٤٤	٤٦ الزمر / ٣٠	٤٧ المؤمنين / ٤٠	٤٨ السجدة / ٤٦	٤٩ الزخرف / ٣٢	٥٠ الجاثية / ٣٢
٥١ ــ ٦٠	٥١ الفتح / ٧	٥٢ الذاريات / ٣٠	٥٣ الرحمن / ١١	٥٤ خاتمة / الحديد	٥٥ الصف / ٥	٥٦ خاتمة / التحريم	٥٧ الجن / ١٠	٥٨ خاتمة / المرسلات	٥٩ الغاشية / خاتمة	٦٠ آخر / القرآن

اسم السورة	رقم الآية	نوع التقسيم													
		إلى								حجاب					
		٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١ـ١٢	١٣/٢٤	٢٥/٣٦	٣٧/٤٨	٤٩/٦٠
سبأ															
ياسين															
الصفات	١٤٤			√				√						٤٥	
الزمر															
المؤمنين	—														
السجدة	٤٦				√					√				٤٨	
الزخرف															
الجاثية	٣٢					√								٥٠	
الفتح															
الذاريات															
الرحمن															
الحديد	خاتمة الحديد									√				٥٤	
الصف															
التحريم															
الجن															
الغاشية															
الطور															

ملحق (٢) «بيان بحصر المواضع المشتركة في التقسيم»

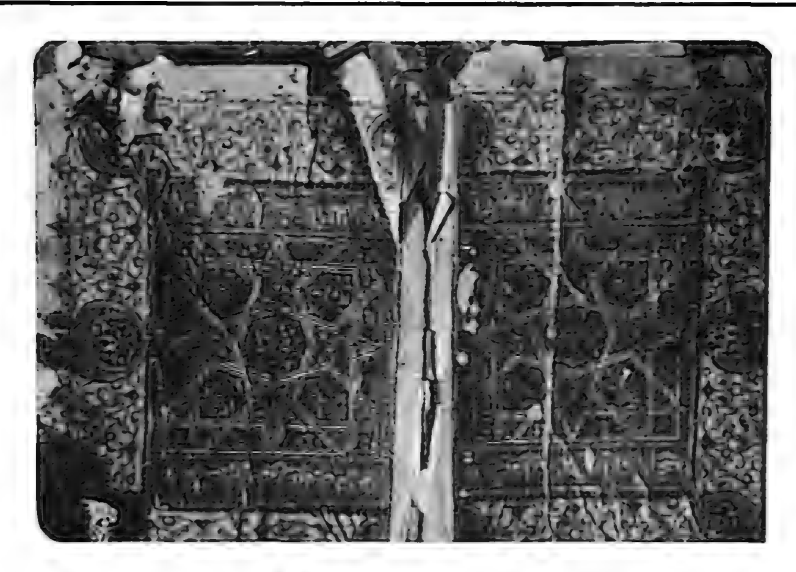
اسم السورة	رقم الآية	نوع التقسيم													
		٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	حزب ١-١٢	حزب ١٣/٢٤	حزب ٢٥/٣٦	حزب ٣٧/٤٨	حزب ٤٩/٩٠
البقرة	—														
آل عمران	٩٠									√	٦				
النساء	١٤٧					√					١٠				
المائدة	٨١				√					√	١٢				
الأنعام	—														
الأعراف	٤			√				√				١٥			
الأنفال	٤٠									√				٤٠	
التوبة	٩٢		√								٢٤				
يونس									√						
هود															
يوسف	٥٢				√					√					
الرعد															
إبراهيم	—														
النحل	—														
الاسراء															
الكهف	٧٤ شيئا نكرا	√		√		√		√		√			٣٠		
مريم															
طه															
الأنبياء															
الحج	—														
النور															
الفرقان	٢٠				√					√			٣٦		
الشعراء															
النمل															
القصص															
العنكبوت	٤٥		√			√			√					٤٠	
لقمان															
الأحزاب	٣٠									√				٤٢	



لوحة رقم (١ - أ): تبين الصفحة الأولى من مقدمة المصحف



لوحة رقم (١ - ب): تبين الصفحة الثانية من مقدمة المصحف بآخرها تاريخ كتابته.



لوحة رقم (٢) تبين ديباجة المصحف



لوحة رقم (٣): تبين الصفحة الأولى من متن المصحف بها سورة الفاتحة وأول سورة البقرة.



لوحـة رقم (٤) تبين إبتداء نص الهوامش وكتابته بالحبر الأسود وبالصورة شمسة حزب - الهامش السفلي



لوحة رقم (٥): تبين «السماع» بآخر المصحف وبآخر نصه التاريخ الذي تم فيه.



بسم الله الرحمن الرحيم
قل أعوذ برب الناس ملك
الناس إله الناس من شر
الوسواس الخناس الذي يوسوس
في صدور الناس من الجنة والناس

لوحة رقم (٦): تبين الصفحة اليمنى من الصفحتين الأخيرتين من المصحف.



بسم الله الرحمن الرحيم
قل أعوذ برب الفلق من شر
ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب
ومن شر النفاثات في العقد
ومن شر حاسد إذا حسد

لوحة رقم (٧): تبين الصفحة اليسرى من الصفحتين الأخيرتين المتقابلتين من المصحف.



لوحة رقم (٨): تبين طريقة كتابة عناوين السور ومحاولة زخرفتها زخرفة خطية.



لوحة رقم (٩): تبين خروج كتابة عنوان سورة النساء وبياناتها الى الهامش الأيسر.



لوحة رقم (١٠) تبين شمسة نصف القرآن.



لوحة رقم (١١): تبين شمسة السدس الأول.



لوحة رقم (١٢): تبين شمسة الثمن الثالث وهي مستديرة.



لوحة رقم (١٣): تبين شمسة اللمن الخامس وهي بيضاوية.



لوحة رقم (١٤) تبين نموذج توزيع سطور الكتابة على الصفحة.



لوحة رقم (١٥): تبين مدى الالتزام بان يكون عدد سطور الكتابة في الصفحة ١٣ سطرا.



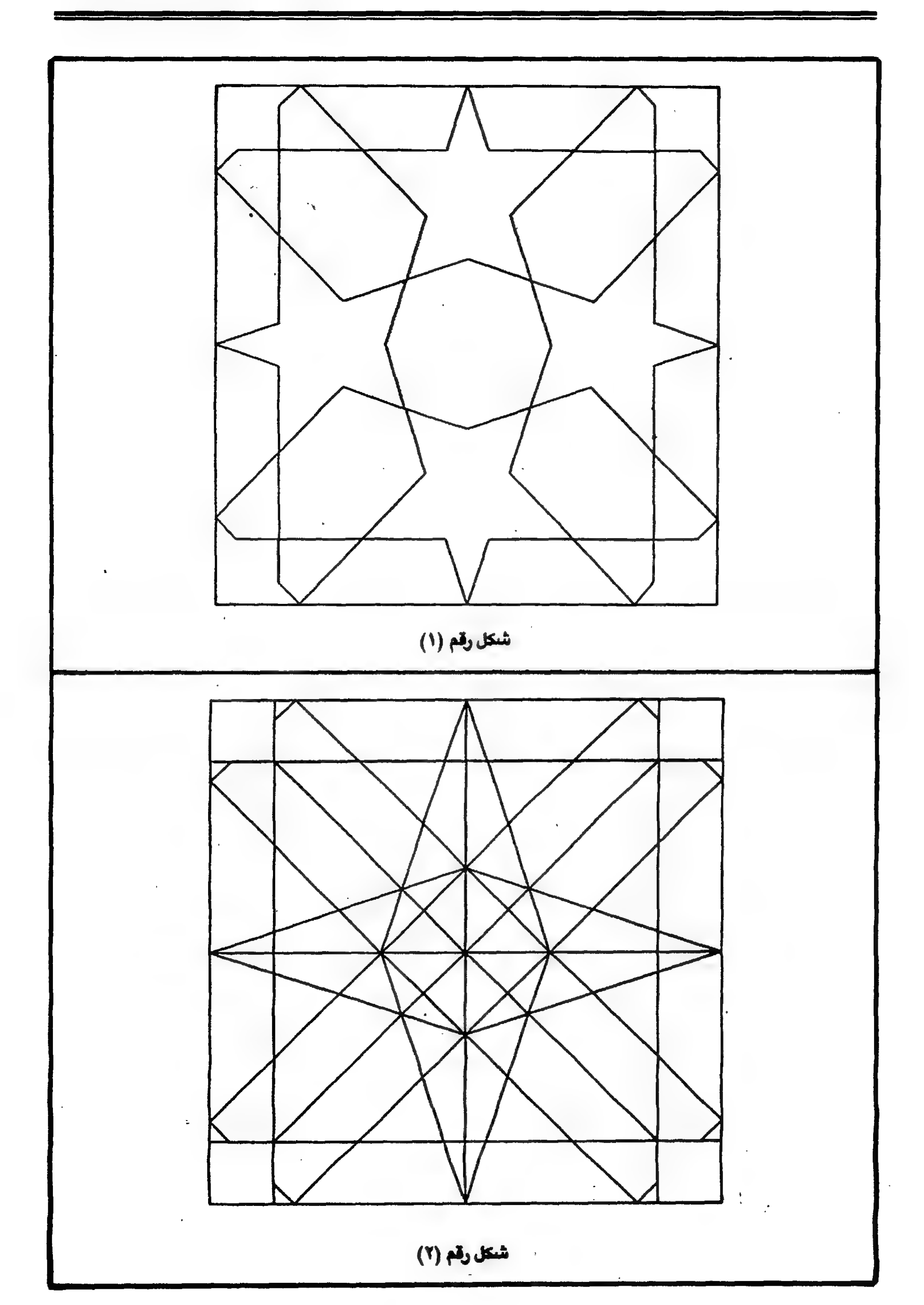
لوحة رقم (١٦): تبين نموذج ثان من صفحات المصحف التي تم عليها الدراسة الفنية للخط وبها تكرار الكاف الثعباني.



لوحة رقم (١٧) تبين نموذج من صفحات المصحف التي تم عليها دراسة الخط.

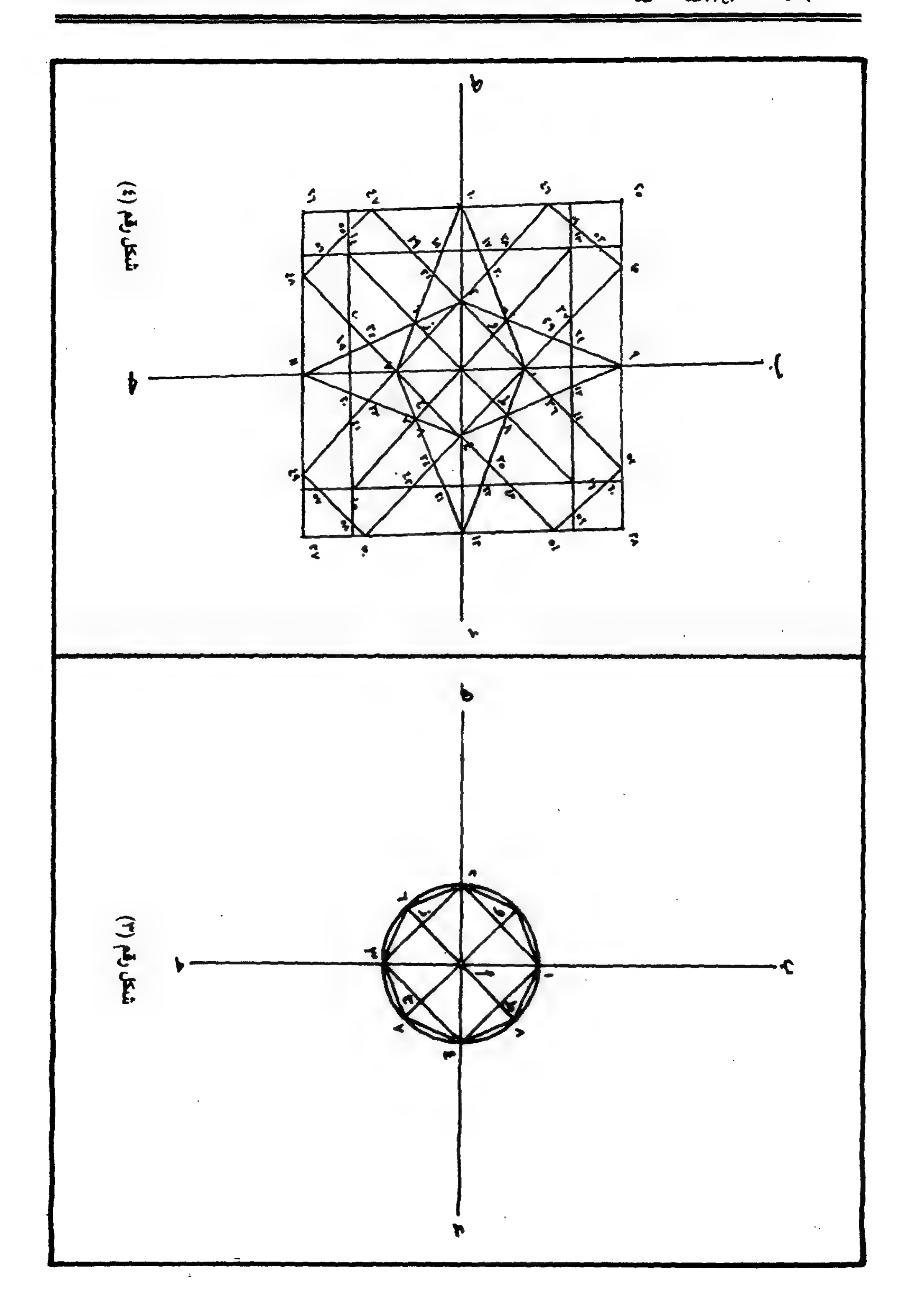


لوحة رقم (١٨) تبين نموذج ثالث من صفحات المصحف التي تم عليها دراسة الخط.



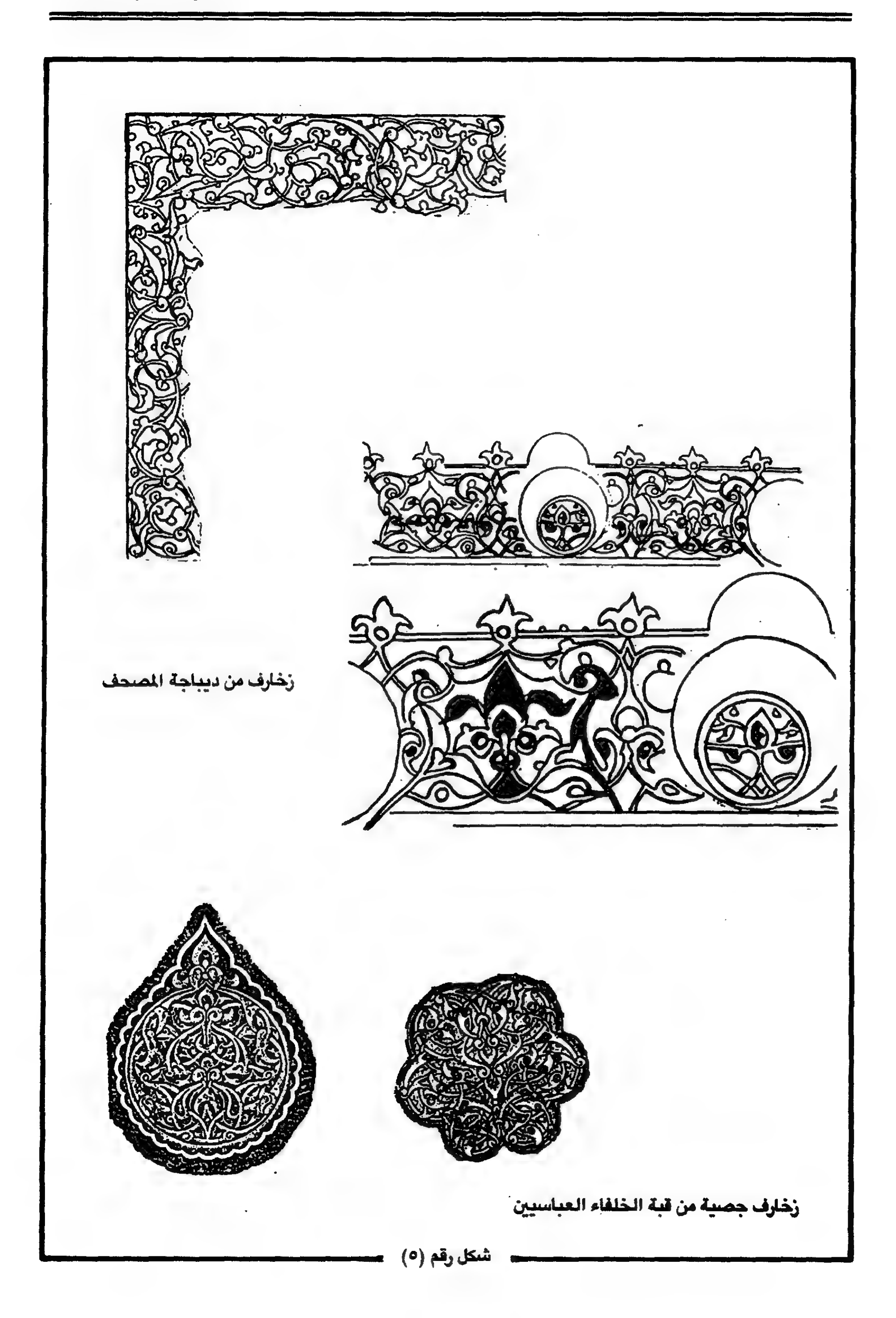
شكل رقم (١)

شكل رقم (٢)



شكل رقم (٤)

شكل رقم (٣)



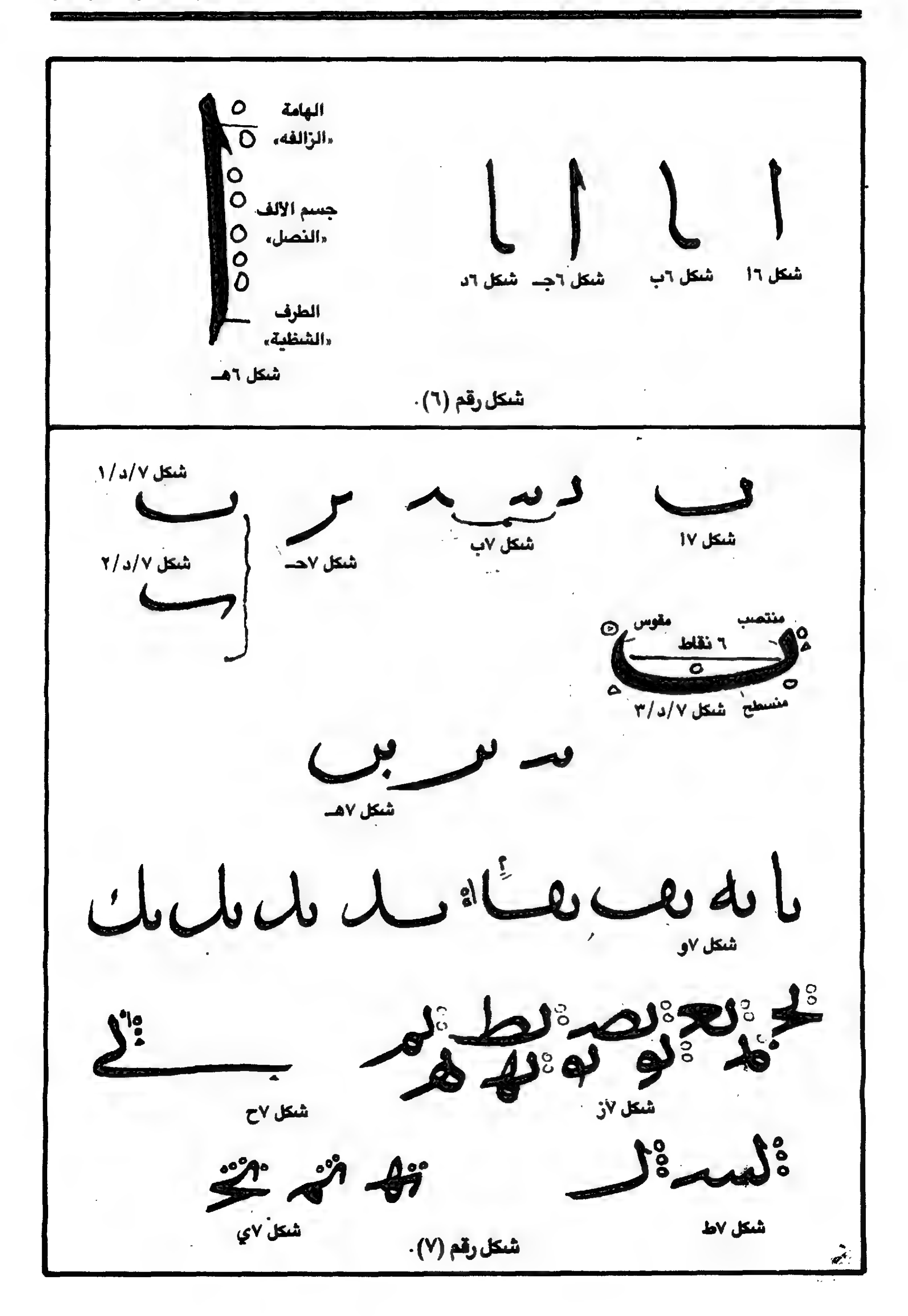
زخارف من ديباجة المصحف

زخارف جصية من قبة الخلفاء العباسيين

شكل رقم (٥)

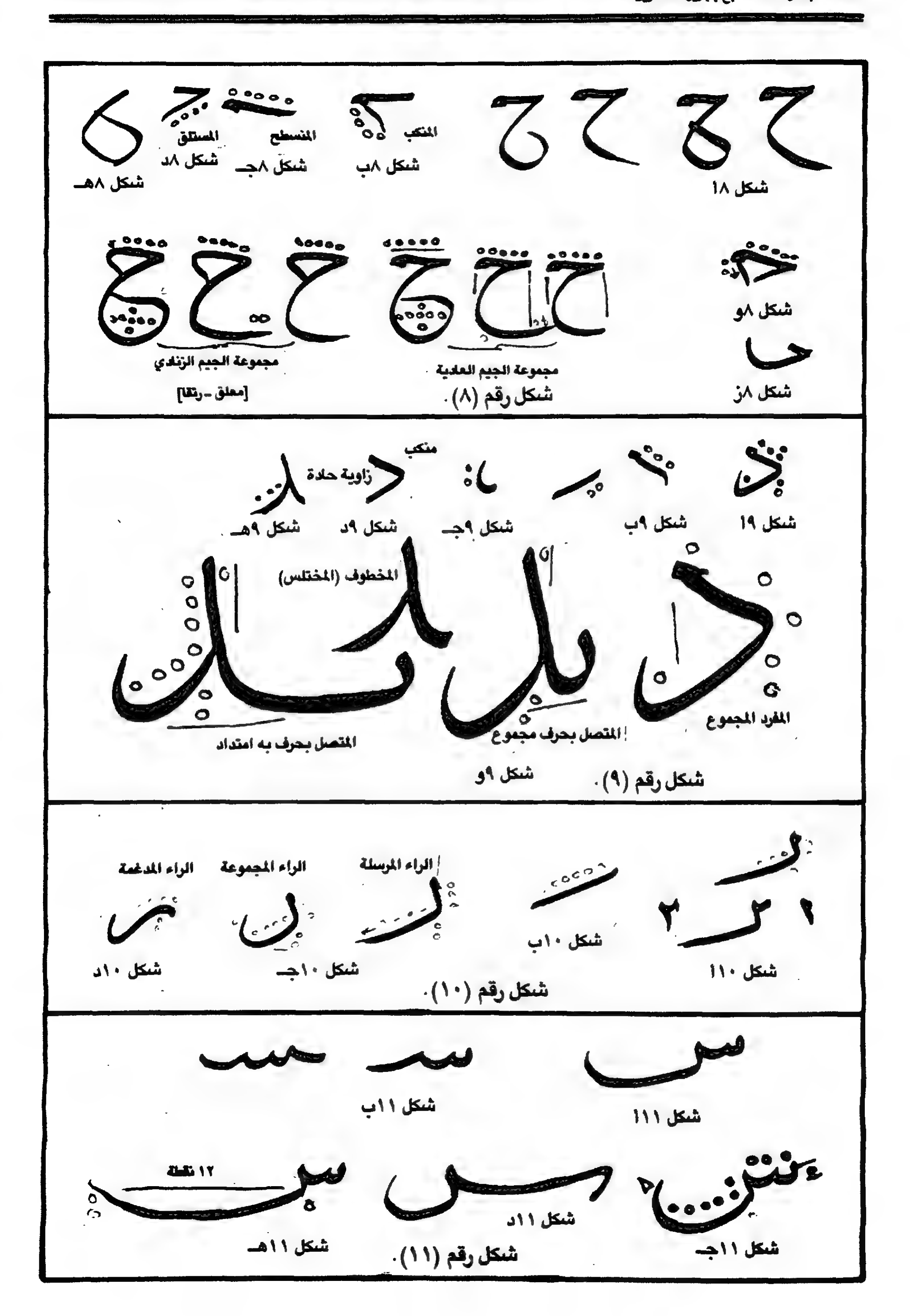
ا	ا ا ا	ا ا ا	ا ا ا
ب	ب ب با	ب بـا ـبـ	ب بب بب
ح	ح ح ـحـ	ـحـ ـحـ ـحـ	ـحا ح ح
د	د	ـد	ـد
ر	ر	ـر	ر
س	س ـسـ	ـسـ	ـس
ص	ص ـصـ	ـصـ	ـص
ط	ط	ـطـ	ـط
ع	ع ـعـ	ـعـ	ع ـع
ف	ف	ـفـ	ف ـفـ
ق	ق	ـقـ	ق ـق
ك	ك	ـكـ	ك ـك
ل	ل ل	لا ل	ل ـل
م	م ـمـ	ـمـ	م م
ن	ن	ـنـ ـنـ	ن
هـ	هـ	نهم ها	ة ـهـ
و	و	ـو	و
لا	لا	ـلا	لا
ى	ى	ـيـ ـيـ	ـى ـى

شكل رقم (٦)



شكل رقم (٦).

شكل رقم (٧).

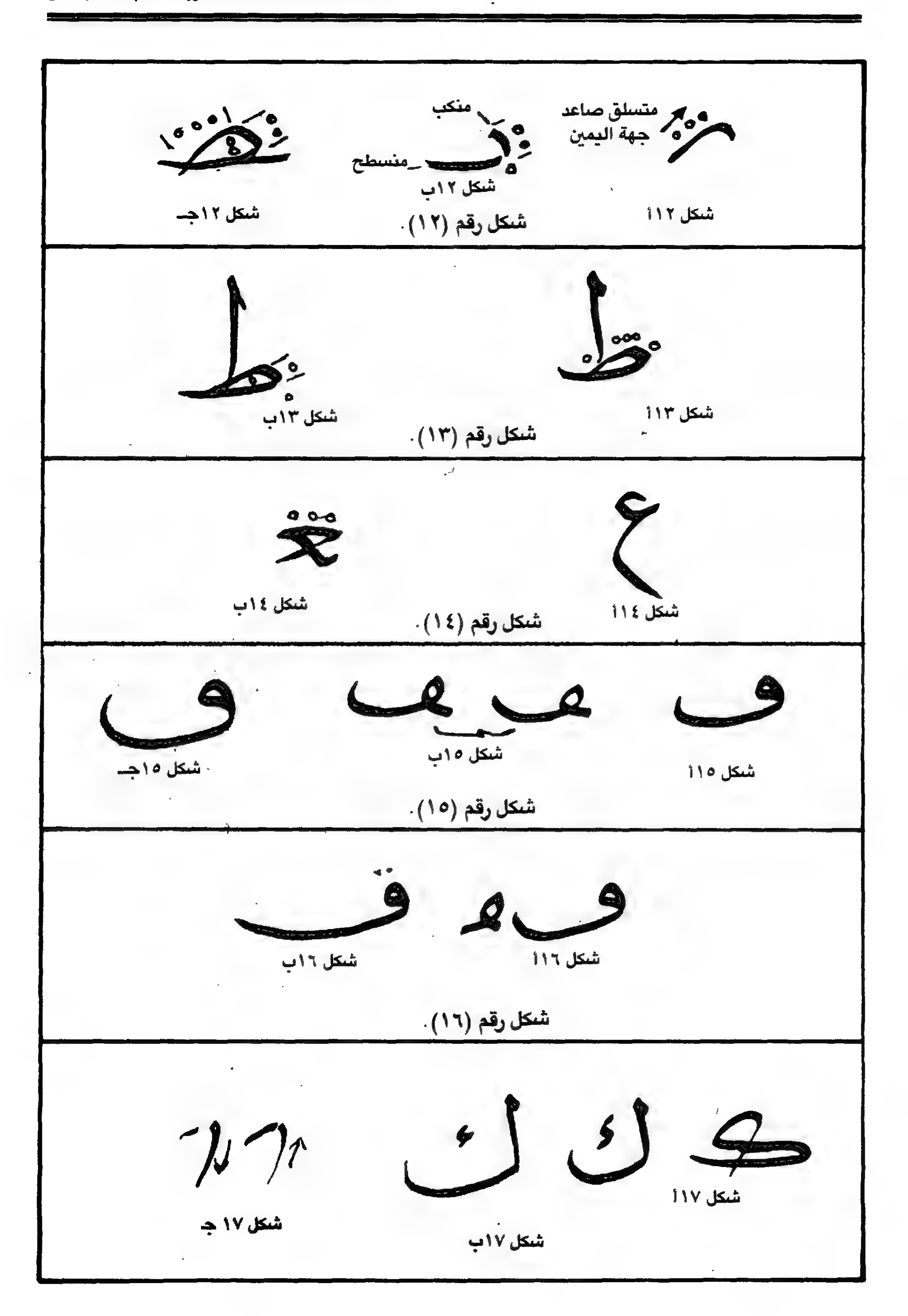


شكل رقم (٨).

شكل رقم (٩).

شكل رقم (١٠).

شكل رقم (١١).



شكل ١٢أ
شكل ١٢ب
شكل ١٢جـ
شكل رقم (١٢).

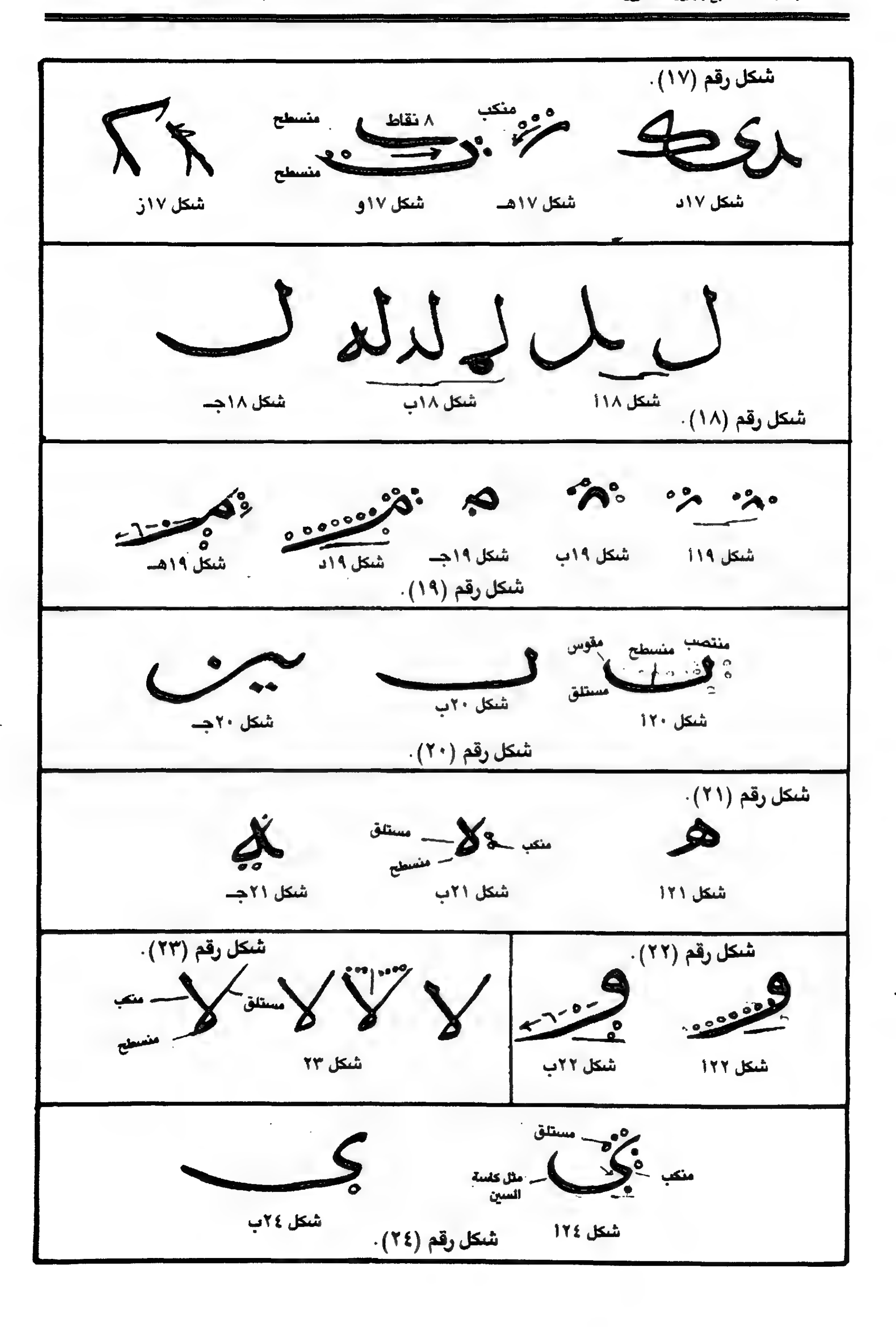
شكل ١٣أ
شكل ١٣ب
شكل رقم (١٣).

شكل ١٤أ
شكل ١٤ب
شكل رقم (١٤).

شكل ١٥أ
شكل ١٥ب
شكل ١٥جـ
شكل رقم (١٥).

شكل ١٦أ
شكل ١٦ب
شكل رقم (١٦).

شكل ١٧أ
شكل ١٧ب
شكل ١٧ جـ



شكل رقم (١٧).

شكل رقم (١٨).

شكل رقم (١٩).

شكل رقم (٢٠).

شكل رقم (٢١).

شكل رقم (٢٢).

شكل رقم (٢٣).

شكل رقم (٢٤).

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الأول، ١٩١ ـ ٢٠٦ (١٩٩٣م).

نص وثائقي يلقي أضواء جديدة على المدرسة السليمانية بالقاهرة

(٩٤٩ ـ ٩٥٠هـ / ١٥٤٢ ـ ١٥٤٣م)

للدكتور حمزة عبد العزيز بــدر

ملخص البحث : يهدف هذا البحث إلى حسم الخلاف الذي نشا بين الباحثين حول تاريخ هذه المدرسة، وايضا حسم الخلاف حول الغرض من إنشائها، وهل هي تكية ام مدرسة وذلك من خلال نشر نص وثـائقي عبـارة عن وثيقة استبدال باسم الوزير سليمان باشا الخادم مؤرخة بعام ٩٤٩هـ وردت ضمن حجة وقف الأمير قرقماس السيفي اتابك العساكر بمصر في سلطنة الغوري، وقد بدا الباحث بعرض جزء من وثيقة وقف الأمير قرقماس يصف الأماكن التي استبدلها سليمان باشا الخادم لإنشاء مدرسته المذكورة بحي السروجية بالقاهرة. وهو نص وثائقي يورد وصفا لتلك الأماكن سنة ٩١٦هـ ، وقت تحرير وثيقة وقف الأمير قرقماس المذكور، ثم يورد الباحث بعد ذلك وصفا وثائقيا لنفس الموقع سنة ٩٤٩هـ من خلال نص وثيقة الاستبدال الخاصة بالوزير سليمان باشا الخادم، ثم عرف الباحث بكل من الأمير قرقماس صاحب وثيقة الوقف الأصلية والوزير سليمان باشا الخادم واعماله المعمارية بالقاهرة وغيرها وكيف ان هذه المدرسة لم يرد لها ذكر ضمن وثيقة وقف هذا الوزير، إذ انها انشئت من فائض مال وقف سليمان باشا الخادم بعد عزله ومغادرته لمصر باربع سنوات، ثم تناول البحث نص وثيقة الاستبدال المذكورة مبينا اهمية موقع هذه المدرسة، وطريقة الحصول عليه، والمنشآت السابقة بذات الموقع، كما تناول البـاحث ايضا في دراسته هذه تخطيط المدرسة ووظيفتها، وكيف انها تمثل اتجاها جديداً في تخـطيـط وبنـاء المـدارس بمصر يختلف عن تخطيط المدارس في الطرز السابقة على العصر العثمـاني. ويختلف البـاحث مع ما ذهب إليه بعض الباحثين ـ في دراسات سابقة عن هذه المدرسة ـ من انها ظلت تستخدم كمدرسة حتى أواخر القرن ١٢هـ /١٨م، ثم تحولت بعد ذلك إلى تكية، ويرى انها وإن خططت معماريا كمدرسة على الطراز العثماني استجابة لرغبة المنشيء في إنشاء مدرسة تحمل اسمه بالديار المصرية، وايضا كما هو مثبت بنص تاسيسها، إلا انها لم تؤد الوظيفة التي أُنشئت من اجلها منذ اكتمال عمارتها سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣ ـ ١٥٤٤م او في اي وقت من الأوقات.

ويفسر الباحث ذلك بان إنشائها من فائض ربع أوقاف سليمان باشا ترتب عليه عدم تعيين مدرسـين وطلبـة بهـا، ومن ثم لم تستخـدم كمـدرسة حسب رغبة المنشيء ونص التاسيس، واستخدمت تكية للأروام القادمين إلى الديار المصرية، ويدلل الباحث على رايه باسانيد عديدة من الوثيقة ذاتها ، كما يورد أمثلة لحالات مماثلة ترجع إلى العصر المملوكي.

تعد المدرسة السليمانية أولى المدرستين اللتين أنشئتا على الطراز التركي بالقاهرة خلال فترة الحكم العثماني كلها، ومن ثم فهي ذات أهمية قصوى في التعرف على نمط مهم من الأنماط المعمارية للمنشآت التعليمية في ذلك العصر . وتهدف هذه الدراسة إلى حسم مشكلة تأريخها من جهة وإلى تحديد وظيفتها من جهة أخرى، وذلك من خلال نشر نص وثائقي مهم يلقي أضواء جديدة على هذه المدرسة العثمانية. وترجع أهمية النص المذكور إلى أنه يحسم الخلاف الذي نشأ بين الباحثين حول تأريخ هذه المدرسة[١]، كما أنه يحسم الخلاف أيضا حول الغرض من إنشائها وهل هي تكية أم مدرسة[٢]، وتوضح لنا تلك الوثيقة السبب في اختيار هذا الموقع بالذات، وأصوله العقارية وكيفية تمويل عملية إنشاء هذه المدرسة، وسنتناول في عجالة سريعة المنشىء والموقع مع وصف موجز لمخطط تلك المدرسة السليمانية. وهل كان لتلك المدرسة دور مهم في الحياة العلمية والصوفية في العصر العثماني ؟، وهو ما يمكن تسميته بتطور أدائها الوظيفي في ذلك العهد وتحولها من مدرسة إلى تكية محاولين الكشف عن الأسباب التي أدت إلى ذلك التحول، أو التغيير في الوظيفة التي أنشئت من أجلها. وتجدر الإشارة إلى أننا لا نتجه إلى دراسة هذه المدرسة دراسة وصفية أو دراسة تحليلية معمارية، وذلك مرده إلى تناول هذا الجانب بكثير من التفصيل في بعض الدراسات السابقة.[٣]

الوثيقة موضوع الدراسة:[٤]

وثيقة استبدال وقف باسم الوزير سليمان باشا الخادم مؤرخه بعام ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م، وملحقة بوثيقة وقف الأمير قرقماس السيفي أتابك العساكر[٥] بالديار المصرية في سلطنة الغوري.

وثيقة وقف الأمير السيفي قرقماس الأتابكي (امير كبير) ٩١٦هـ/١٥١٠م:

ص٢ ١٢ ـــ ... المقر

١٣ ـــ الإشرف الكريم العالى المولوى الاميري الكبيرى العضدى

١٤ ـــ الغوثى الغياثى الظهيرى الكفيلى المجاهدى

ص٣ ١ ـــ المرابطى الكافلى السيدى المالكى المخدومى السيفى قرقماس

٢ ـــ من ولى الدين كافل المملكة الحلبية الأشرفى أعز الله

٣ ـــ تعالى أنصاره.

ص٥٧ ٦ ـــ ... وجميع الاصطبلين المجاورين

---

(١) من أهم الدراسات التي تناولت هذه المدرسة رسالة دكتوراة أشارت إلى هذه المدرسة بأنها «المدرسة المنسوبة إلى سليمان باشا» ورجحت أن يكون تاريخ البدء في عمارتها سنة ٩٤٧هـ أو ٩٤٨ (١٥٤٠هـ / ١٥٤١م)، انظر مرفت محمود عيسى، «الطراز العثماني في منشآت التعليم بالقاهرة،» رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م، ص ص١٨٩ ـ ٢١٩.

(٢) علي باشا مبارك **الخطط التوفيقية الجديدة**، ط٢ (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٩م)، جـ٢، ص ١٤٤؛ محمد مصطفى نجيب، «العمارة في العصر العثماني،» بحث ضمن كتاب **القاهرة تاريخها فنونها آثارها** (القاهرة: مؤسسة الاهرام، ١٩٧٠م)، ص ٢٦٤؛ سعاد ماهر، **مساجد مصر واولياؤها الصالحون** (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٨٣م)، جـ٥، ص٩٥؛ عبد الرحمن زكي، **موسوعة مدينة القاهرة**، ط٨ (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٧م)، ص ص ٥٠ـ٥١.

(٣) ميرفت عيسى، «الطراز العثماني...» ، ص ٩٩.

(٤) وثيقة رقم ٩٠١ اوقاف، محفوظة بارشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة، والوثيقة المذكورة على هيئة كتاب مجلد يحتوي على ٢٠٩ صفحة، وبه عدة وقفيات غير مرتبة تاريخيا، اقدمها مؤرخ اول ربيع الآخر ٩٠٦هـ. وقد أشار د. محمد محمد أمين إلى وقفيات هذه الوثيقة ولم يذكر وثيقة الاستبدال المؤرخة ١٨ شوال ٩٤٩هـ، موضوع هذه الدراسة، والتي تقع في تسع صفحات من كتاب وقف الأمير قرقماس المذكور. محمد محمد أمين، **فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك** (القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨١م)، ص ٢٢٦.

(٥) اتابك العساكر : لقب أطلق في العصر المملوكي على القائد العام للجيش ويذكر القلقشندى أن لقب أتابك العساكر المحروسة كان يطلق أيضا كلقب فخري على النائب الكافل ومن في رتبته، انظر حسن الباشا، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار** (القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٥٧م)، ص٥٤؛ أحمد السعيد سليمان، **تاصيل ماورد في الجبرتي من الدخيل** (القاهرة: دار المعارف ، ١٩٧٩م)، ص ١٢.

المتنافذين.

٧ ـ المستجدين الانشا والعمارة الكاينين بظاهر القاهرة

٨ ـ المحروسة خارج باب زويلة والقوس بالقرب من

٩ ـ حدرة القسم تجاه سكن الواقف المشار اليه المشتمل كل

١٠ ـ منهما بدلالة المشاهدة على طوالتين ومتبن ومنافع

١١ ـ ومرافق وحقوق ويحيط بذلك ويحصره حدود أربعة الحد

١٢ ـ القبلى ينتهى إلى الطريق الفاصلة بين ذلك وبين سكن

١٣ ـ الواقف المشار إليه اعلاه وفيه باب مسدود بالبنا

١٤ ـ وبعضه الى ملك الأمير يشبك الأتابكي والحد البحرى

١٥ ـ الى مكان خرب ياتي ذكره وبعضه الى مكان جارفي

ص٥٨ ١ ـ الوقف المذكور والحد الشرقي بعضه ينتهى الى زقاق

٢ ـ هناك وبعضه الى حوش داخل في وقف الوافق المشار

٣ ـ اليه أعلاه والحد الغربى ينتهى الى خربة كبيرة وفيه بابان

٤ ـ للاسطبلين المذكورين أعلاه وجميع المكان الخرب الموعود

٥ ـ به أعلاه المجاور لذلك المشتمل على واجهة بها حانوت

٦ ـ خرب يعلوه طبقة خربه وباب مسدود ويحيط بذلك

٧ ـ حدود أربعة الحد القبلى ينتهى الى احد الاسطبلين المذكورين

٨ ـ والحد البحرى ينتهى الى الشارع

وفيه واجهة الحانوت

٩ ـ وطاقات الطبقة والباب المسدود والحد الشرقى ينتهى

١٠ ـ الى وقف المشار اليه أعلاه والحد الغربى ينتهى الى الخربة

١١ ـ المذكورة أعلاه بحد كل من ذلك وحدوده وحقوقه وما

١٢ ـ بذلك وينسب اليه من العلو من ذلك عند الواقف المشار اليه.

١٣ ـ أعلاه العلم الشرعى النافى للجهالة وقفا صحيحا شرعيا

١٤ ـ وحبسا صريحا مرعيا لا يباع ذلك ولا يوهب ولا

١٥ ـ يعار ولا يرهن ولا يناقل به ولا ببعضه قيما على أصوله

ص٥٩ ١ ـ محفوظا على شروطه وقفوله مسبلا على سبله التي تذكر

٢ ـ فيه الى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها وهو خير

٣ ـ الوارثين

ص ٨٤ وثيقة استبدال مؤرخة في ١٨ شوال ٩٤٩ هـ:ـ

١ ـ الحمد لله وحده

٢ ـ لما ورد اشارة مولانا الوزير الأعظم والمولى المفخم سليمان

٣ ـ باشا (كافل) المملكة الشريفة بالديار المصرية سابقا وهو

٤ ـ بالمملكة الرومية الان دام اجلاله على سيدنا ومولانا

٥ ـ قاضي القضاة شيخ مشايخ الاسلام ملك العلماء والاعلام الواثق

٦ ـ بالملك العلام مولانا محى الدين محمد بن مولانا عبد القادر

٧ ـ الناظر في الأحكام الشرعية بالديار المصرية[٦] المتولى على

---

(٦) محي الدين محمد بن عبد القادر: هو محمد بن عبد القادر الرومي، وهو أحد الموالى الرومية ايضا، يذكر الغزي انه أخذ عن جماعة من الموالي ايضا منهم الموالى محى الدين الفناري والمولى شمس الدين كمال باشا والمولى حسام حلبي والمولى نور الدين.

٨ ــ أوقاف مولانا الوزير المشار اليه بان خواطره متلقية

ص٨٥ ١ ــ مدرسته بالديار المصرية[٧] المتولى على أوقاف مولانا الوزير

٢ ــ المشار اليه[٨] في خطة من الخطط لاقامة شعاير الاسلام واحيا

٣ ــ العلم وغير ذلك مما سيستقر عليه الحال وتوجها فيه مولانا

٤ ــ قاضي القضاة المشار اليه مع المولى الزكى للنظر في ذلك وجال

٥ ــ فكرهما في الخطط لاقامة شعاير الاسلام واحياء العلم وغير

٦ ــ ذلك والمحلات وكان من جملة ما أحاط علمها به وكشفا

٧ ــ عليه الكشف الشافي في الاماكن الخربة الاتي ذكرها فيه الجارية

٨ ــ في وقف المرحوم الامير قرقماس الأتابكي الواقف المشار اليه

١٠ ــ فيه المشمول ذلك بنظر أخيه السيفي الماس ومعتوقه الأمير

١١ ــ دولار ماى[٩] الجهركسيين ورأى مولانا قاضي القضاة بأن

١٢ ــ الأماكن الأتي ذكرها فيه مناسبة بعرض مولانا الوزير

١٣ ــ المشار اليه ووجدها مشتملة على ساحة كبيرة متسعة.

١٤ ــ الفضا مسلوبة المنفعة وعلى أبنية خربة قليلة الجدوى

١٥ ــ في الاستغلال وسيل عن أصل وقف المرحوم قرقماس المشار

١٦ ــ اليه فيه هل في الوقف ما يعمر به فأجابوا بانه ليس في الوقف

ص٨٦ ١ ــ محصول يوفى العماره وحضر جمع من المهندسين وأرباب

٢ ــ الخبرة وجمع من المسلمين وكشفوا على ذلك الكشف التام

٣ ــ ووجدوا ذلك خربا وأخبروا أن ذلك متى استمر على حالته

٤ ــ التي هو عليها الان تزايد خلله وخرابه وآل امره الى سلب

٥ ــ الانتفاع بالكلية وان الحظ والمصلحة في استبدال ذلك

٦ ــ وعرض مولانا قاضي القضاة المومى اليه الأمر في ذلك على

٧ ــ الابواب الشريفة فورد على مولانا قاضي القضاة حكم شريف

٨ ــ من الابواب المشار اليها بالاذن في استبدال ذلك وفعل

٩ ــ ما شرح شرعا وقابل ذلك بالسمع والطاعة وتوجيه

١٠ ــ المتولى المذكور والناظران على وقف المرحوم قرقماس المشار

١١ ــ اليهما فيه وجمع من المستحقين والمهندسين وأرباب الخبرة

١٢ ــ الى حيث الاماكن المذكورة وتكلموا في قيمة ذلك على وجه

= ثم خدم خير الدين معلم السلطان سليمان، ثم ولي تدريس مدرسة قاسم باشا ببروسا، ثم سلطانية بروسا، ثم تنقل في المدارس حتى أعطى إحد الثمان، ثم ولي قضاء القضاة في مصر، ثم بالعساكر الأناضولية، وفي زمن توليه قضاء مصر أوكل إليه سليمان باشا وظيفة النظر الشرعي على أوقافه بها. انظر : نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، جـ٣ (بيروت: دار الافاق، ١٩٧٩م)، جزء ٢ ص ص٤٣ـ٤٤؛ ابن العماد، عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩م)، جـ٨، ص٣٣٩.

(٧) الوثيقة جميعها نسخة منقولة عن الأصل، ويبدو أن الناسخ قد سقطت منه بعض كلمات، أو قرأها قراءة خاطئة فأتت بعض الجمل مبتورة أو غامضة، غير أن النص في مجمله واضح ويمكن تتبعه بسهولة. وقد سقط الفعل من هذه الجملة.

(٨) سقطت الكلمة التي بين الحاصرتين، وإضافتها إلى النص لاتساق المعنى.

(٩) ذكرت وثيقة الأمير قرقماس أن النظر على أوقافه يكون لكل من أخيه شقيقه السيفي الماس، ودواداره الجناب العالي السيفي دولار ماي بن عبد الله السيفي قرقماس الأتابكي أحد الأمراء العشرات بالديار المصرية ، وثيقة الأمير قرقماس ص ٦٧ ، سطر ٤ ـ ٧ .

١٣ ـ الاحتياط لجهة الوقف المرقوم فوقع الاتفاق على القدر الذي

١٤ ـ سيعين فيه بعد اجهار الندا وانها الرغبات في مواطن الطالبين

١٥ ـ ومحلات الراغبين فلم يوجد راغب في ذلك القدر الذي ذكر

ص٨٧ ١ ـ فيه وأخبر المهندسون وأرباب الخبرة أن القدر الذي

٢ ـ قوم به ذلك الاتي تعيينه فيه فوق القيمة وان الحظ

٣ ـ والمصلحة والغبطة الوافرة لجهة الوقف المذكور في فعل

٤ ـ ذلك ولما تورت عنه بدلا بقاضى القضاة المشار اليه[١٠]

٥ ـ بعد بيان الاذن في استبداله ذلك وجريانه في الوقف

٦ ـ وكونه بصفات مسوغة للاستبدال[١١] وثبت واتضح لديه

٧ ـ بالطريق الشرعي المسوغات الشرعية المتضمنة لفعل ذلك

٨ ـ اذن الأمير الماس والامير دولارماى الناظر على الوقف

٩ ـ المذكور في ابدال الاماكن الاتي ذكرها فيه وبالمبلغ الذي

١٠ ـ سيعين فيه اذناً شرعيا بعد استيفا الشرايط الشرعية

١١ ـ على خلافه ويقضيه ذلك وموجبه اشترى الامير

١٢ ـ أحمد المتولى على أوقاف مولانا الوزير المشار اليه

١٣ ـ المأذون له في فعل ذلك من قبله بالطريق الشرعى

١٤ ـ مما تحت يده (من)[١٢] مال زوايد أوقاف الوزير المشار اليه

١٥ ـ من الامير الماس ودولار ماى الناظرين المذكورين

ص٨٨ ١ ـ فباعه بطريق الاذن المشروح جميع الاماكن الموعود

٢ ـ بذكرها فيه وذلك جميع الاصطبلين المتجاورتين المنافذين

٣ ـ الكاينين بظاهر القاهرة المحروسة خارجى بابي زويلة والقوس

٤ ـ بالقرب من حدرة الحنة القسمة تجاه سكن الواقف المشتمل

٥ ـ كل منهما بدلالة كتاب الوقف المنسوب للواقف المشار اليه

٦ ـ المسطر بأعالى يمنه المؤرخ بالأول من رجب سنة ست عشر

٧ ـ وتسعماية الثابت المختوم فيه من قبل الشيخ بدر الدين السعودى

٨ ـ الحنفي بدلالة أسجاله المسطر المؤرخ بأول رجب المذكور على

٩ ـ طوالتين ومتبن ومرافق وحقوق ويحيط بكامل ذلك

١٠ ـ ويحصره حدود أربع دل عليها المكتوب المذكور الحد

١١ ـ القبلى ينتهى بعضه الى الطريق الفاصل بين ذلك وبين سكن

١٢ ـ الواقف وفيه باب مدور بالبنا وبعصه الى ملك يشبك

١٣ ـ الاتابكي والحد البحرى ينهى بعضه الى المكان الخرب الاتى

١٤ ـ ذكره وبعضه الى المكان المنسوب للواقف المشتمل على الحوانيت

١٥ ـ الاتي ذكرها فيه و الحد الشرقي ينتهى بعضه الى زقاق هناك

ص٨٩ ١ ـ وبعضه الى حوش داخلي في وقف المرحوم قرقماس المشار

(١٠) هكذا في النص ويبدو أن صحتها «بدا لقاضي القضاة».

(١١) كون الموقع موضع التصرف بصفات مسوغة للاستبدال أي توافر فصل جريان بشهادة شاهدي عدل، ومحضر كشف من المهندسين وأرباب الخبرة تؤكد على تزايد خلل وخراب العين موضوع التصرف، وأن المصلحة في التصرف فيها، وشهادة ناظر الوقف بعدم توافر ما تعمر به تلك الأماكن من ريع الوقف.

(١٢) في الأصل الكلمة التي بين الحاصرتين «في»، وصحتها «من».

٢ ــ اليه والحد الغربى ينتهى الى خربة كبيرة وفيها باب الاسطبلين

٣ ــ المذكورين وجميع الخربة الكبيرة المجاورة لذلك وجميع

٤ ــ المكان الخرب المجاور لذلك المشتمل بدلالة كتاب الوقف

٥ ــ المذكور على واجهة بها حانوت خرب يعلوه (طبقة خربة)[١٣]

٦ ــ وباب مسدود ويحيط بذلك ويحصره حدود أربعة دل

٧ ــ عليها كتاب الوقف المذكور الحد القبلي ينتهي الى أحد

٨ ــ الاصطبلين المذكورين والحد البحري ينتهي الى الشارع

٩ ــ وفيه واجهة الحانوت وطاقات الطبقة والباب المسدود

١٠ ــ والحد الشرقي ينتهي الى مكان منسوب للوقف والحد

١١ ــ الغربي ينتهي الى الخربة الكبيرة المذكورة وجميع المكان الكاين

١٢ ــ بخط جامع قوصون المشتمل بدلالة مكتوب الوقف المسطر

١٣ ــ فيه المنسوب للواقف المشار اليه المؤرخ ايضا بالاول

١٤ ــ من شهر رجب الفرد سنة ست عشر وتسعماية المحكوم فيه

١٥ ــ من قبل مولانا المرحوم قاضي القضاة

سرى الدين عبد البر بن

ص٩٠ ١ ــ الشحنة[١٤] تغمده الله برحمته بدلالة اسجاله المؤرخ

٢ ــ بالثاني عشر من رمضان سنة سبع عشر وتسعماية على

٣ ــ ثلاث حوانيت وطباق ومنافع ومرافق وحقوق ويحيط

٤ ــ بذلك ويحصره حدود أربعة دل عليه المكتوب المذكور فيه

٥ ــ الحد القبلى ينتهي الى الزقاق المتوصل منه الى حدرة الغنم

٦ ــ والحد البحري ينتهي الى المكان المنسوب للواقف والحد

٧ ــ الشرقي الى بيت القرافى[١٥] وغيره والحد الغربي الى الشارع

٨ ــ الاعظم وجميع الحوانيت الخمسة المتجاورة الكاينة بالجهة

٩ ــ القبلية المحدودة بحدود أربعة الحد القبلى ينتهى الى

١٠ ــ الاصطبلين والخربة المعروفين بالوقف والحد البحرى الطريق

١١ ــ العام والحد الشرقى الى مسكن بالى والحد الغربى الى حانوت

١٢ ــ الزيات بحد ذلك كله وحدوده ومعالمه ورسومه

١٣ ــ الداخلة فيه والخارجة عنه المعلوم ذلك للمتعاقدين

---

(١٣) في الأصل «طبقة وخربة».

(١٤) سري الدين عبد البر بن الشحنة هو ابن قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفي، وهو محمد بن محمد بن محمود بن غازي الثقفي ثم الحلبي، وقد تولى محب الدين هذا عدة وظائف سنية منها قضاء حلب، وكتابة سرها ونظر جيشها، ثم ولي كتابة السر بمصر وقضاية قضاة الحنفية عدة مرات، ثم ولي مشيخة الخناقاة الشيخونية، ومات وهو شيخ بها سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م وتولى ابنه الشيخ سري الدين عبد البر بن الشحنة مشيخة الشيخونية عوضا عن أبيه، وفي سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م أخلع السلطان قانصوه الغوري على الشيخ سري الدين عبد البر بن الشحنة وقرره في قضاء الحنفية، وقد ولد سري الدين هذا بحلب سنة ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م تولى قضاء حلب ثم قضاء القاهرة، وصار جليس السلطان الغوري وسميره، ولسري الدين بن عبد البر مؤلفات عدة، توفي بحلب سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م.

أنظر: ابن اياس، أبو البركات محمد بن أحمد، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، ط٢ (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٤م)، جزء٣؛ ص٢١٤؛ جزء٤، ص٧؛ ابن العماد، عبد الحي بن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، جزء ٨، ص ٣٣٩.

(١٥) لعله بدر الدين محمد بن شمس الدين محمد القرافي المالكي، خليفة الحكم بالديار المصرية، توفي بالقاهرة في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٩١٢هـ ودفن بالصحراء. ابن العماد، **شذرات الذهب**، جـ٨، ص٥٩.

١٤ ــ المذكورين العلم الشرعى اشترا وبيعا شرعيين بمبلغ قام

١٥ ــ به الامير أحمد أغا المتولى المشار اليه من مال الزوايد

ص٩١ ١ ــ المرصدة تحريره المنبه على ذلك أعلاه وقدره من الفضة

٢ ــ الجديدة العثمانية ثلاثة عشر الف نصف قبض الناظران

٣ ــ المشار اليهما اعلاه من الامير أحمد المشار اليهما اعلاه

٤ ــ من الأمير الأحمد المشار اليه[١٦] عن ذلك بحساب الذهب

٥ ــ ثلاثماية دينار وسبعة عشر ديناراً من الذهب السلطانى

٦ ــ الجديد والبندقي وحصة على يده ثلاثة انصاف القبض

٧ ــ الشرعى بالمجلس ووضع القدر المذكور ضمن كيس وختم عليه

٨ ــ واستمر تحت ايدي الناظرين المشار اليهما الى أن يشترى

٩ ــ بذلك بدل عن الاماكن المذكورة من عقار أو حصة من

١٠ ــ عقار فيشتريا ذلك ليكون وقفا بدلا عن الاماكن المذكورة

١١ ــ في الحال والمال والتعذر والامكان والنظر والاستحقاق

١٢ ــ والشرط والترتيب واذن الناظران المشار اليهما للمتولى

١٣ ــ المذكور في قبض الاماكن المذكورة وتسلمها فاعترف بتسلمها

١٤ ــ التسليم الشرعى الكافي في مثل ذلك شرعا فبمقتضى ذلك

١٥ ــ صار المبلغ المذكور مستحقا لجهة الوقف أعنى وقف الامير

ص٩٢ ١ ــ قرقماس المشار اليه يصرف في مصرفه الشرعى بطريقه

٢ ــ الشرعى وصارت الاماكن المذكورة مستحقة لجهة

٣ ــ مولانا المقام الوزير المشار اليه يتصرف فيها التصرف الشرعى

٤ ــ جرى ذلك وحرر في ثامن عشر شوال سنة ٩٤٩هـ

كاتبه محمد عزالدين المحولى
الحاج محمود بن عبد الله انه حماد
القاضي ابى الخير القاضي بدرالدين[١٧]
مولانا القاضي شرف الدين يحى
الدمامي الحنفى

الأمير قرقماس الأتابكي

يذكر ابن اياس «أن الأمر الأتابكي قرقماش كان اميرا جليلا مبجلا معظما وكان أصله من مماليك الأشرف قيتباى ثم اعتقه»، وولى من الوظائف امرة اخورية الثانية[١٨]، ثم بقى مقدم الف ثم بقى رأس نوبة النوب، وقرر في نيابة حلب في دولة الأشرف جان بلاط ولم يتم ذلك[١٩]، ثم سجن بقلعة الشام لما توجه مع الأمير طومان باى الدوادار، فلما تسلطن قانصوه الغوري أفرج عنه من سجن قلعة دمشق فلما حضره قرره في أمر السلاح[٢٠]، ثم أصبح بعد ذلك أتابك العسكر بمصر عوضا من الأمير قيت الرجبي لما نفى إلى الإسكندرية سنة عشر وتسعمائة، فأقام في

(١٦) الجملة مضطربة لتكرارها من الناسخ بالإفراد والتثنية.

(١٧) هو القاضي بدر الدين السعودي الحنفي، انظر: الغزي، **الكواكب السائرة**، جـ١، ص١٥٧.

(١٨) أمير أخور: هو الناظر في أمور الاسطبلات والمناخات السلطانية ورئيس العاملين بها جميعا كما يرأس الأمير اخور طوائف من العاملين بالاسطبلات كالبيطارة والاوجاقية انظر: سليمان، **تاصيل ماورد**، ص١١.

(١٩) بالرغم مما يقرره ابن اياس في هذا لنص من أن تقريره في نيابة حلب في دولة الأشرف جان بلاط لم يتم، إلا أن حجة وقفه، وهي وثيقة رسمية محررة في ١٨ ربيع الأول سنة ٩١٦هـ تذكر أن وظيفته في ذلك الوقت «كافل المملكة الحلبية»، انظر حجة وقف الأمير قرقماس الأتابكي، ص٣.

(٢٠) قرر السلطان الغورى سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م الأمير قرقماس من ولي الدين في وظيفة أمير سلاح، وكانت رتبته في ذلك الوقت مقدم ألف، من أرباب الوظائف. ابن اياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٣٠.

الأتابكية ست سنين وشهرين إلا سبعة أيام.[٢١] وقد ذكر على باشا مبارك في خططه أن الأمير قرقماس توفي بالشام أيام واقعة الغوري سنة اثنين وعشرين وتسعماية كما في ابن اياس[٢٢]، وهو غير صحيح إذ أن وثيقة وقف الأمير قرقماس تشتمل على عدة حجج وقف إحداها مؤرخة في ١ رجب سنة ٩١٦هـ[٢٣]، تليها حجة أخرى ورد بها ما يمكن اعتباره تقريرا صحيا عن حالة الأمير قرقماس، إذ تذكر الحجة أن هذا الأمير «بدا له وهو في حال توعك بدنه وحضور عقله وفهمه في ثاني/ عشرى شهر رمضان المعظم سنة ست عشرة وتسعماية أن اشترط النظر على أوقافه المذكورة وعلى مدرسته وتربته اللتين أنشأهما بالصحراء.» ولم يلبث أن توفي الأمير قرقماس بعد ذلك بأيام معدوات» ويحدد ابن اياس وفاة الأتابكي قرقماس من ولى الدين اتابك العساكر بالديار المصرية في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ٩١٦هـ، ويضيف ابن ايـاس: «أن القـاهرة رجت لموته، وأن جنـازتـه كانت مشهودة مشى فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء كبير وصغير، وكذلك أعيان المباشرين ومشـاهـير الناس.»[٢٥] كما يضيف ابن اياس «أن السلطان الغوري صلى عليه في سبيل المؤمنى[٢٦] ثم توجهوا به إلى تربته التي أنشأها بالصحراء بجوار تربة الأشرف اينال فدفن بها داخل القبة.»[٢٧]

وتتضمن وثيقـة وقف هذا الأمـير وقف أعيـان وأطيان عديدة أهمها مدرسة بالصحراء قرب المدرسة البرقوقية بجوار خانقاه اينال، وهي التي دفن بها، كما سبق ذكره، وقد أنشأ بجوارها قصرا[٢٨] وسبيلا، وساقية، وحوشا لدفن الأموات وربعا وطباقا ومساكن للصـوفيـة، ووقف أوقافا عديدة للصرف عليها. كما تنص هذه الوثيقة أيضا على وقف العديد من أماكن السكنى والحواني داخل القاهرة وبظواهرها، نذكر من بينها سوقا للسلاح، ومجموعة حوانيت بالقرب من مدرسة السلطان حسن، ومجموعة منشآت ضخمة بخط جامع قوصون[٢٩]، من بينها مسكنه. كما امتلك هذا الأمير أيضا وكالة وطاحون بجوار حبس المقشرة داخل باب الفتوح[٣٠]، وبستانا بدمياط وآخر بدمشق

---

(٢١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص١٩٨، حوادث سنة ٩١٦هـ.

(٢٢) على مبارك، **الخطط**، جـ٥، ص١٧٧.

(٢٣) وثيقة رقم٩٠١ق أوقاف، ص٦٣.

(٢٤) الوثيقة السابقة، ص ٦٦.

(٢٥) ابن اياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص ص١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢٦) سبيل المؤمني: أثر رقم ١٦٨، وهو سبيل ومصلى أموات أنشأة الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله المؤمن أمير آخور بالديار المصرية قبل سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، ويقع هذا السبيل بأول شارع السيدة عائشة بالرميلة بالقلعة، وقد استخدم هذا المصلى مصلى رسمي للأمراء ووجوه الناس منذ إنشائه وذلك لقربه من القرافة، وقد تخربت هذه المنشآة وأعاد بناءها السلطان الغوري سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م وأنشأ بجوار السبيل حوضا لسقي الدواب وساقية ومغسلا برسم الأموات من المسلمين من الرجال والنساء والفقراء والمساكين والغرباء، انظر دراسة مفصلة عن هذا المصلى: عوض عوض الإمام، «الاصول الوثائقية للوثيقة الجامعة للسلطان الغورى،» رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة اسيوط، كلية الآداب بسوهاج ١٩٨٨م، ص٤٨٨.

(٢٧) مجموعة الأمير قرقماس المعمارية بقرافة الغفير (اثر رقم ١٦٢)، ويشتمل هذا المجمع المعماري على مدرسة ومدفن ذو قبة وحوش دفن وقصر وسبيل وكتاب وأورقة وبئر ساقية. انظر وثيقة وقف الامير قرقماس (أمير كبير) ص ص٤١ ـ ٦٣.

(٢٨) استخدم مصطلح «القصر» في العصر العثمانين للدلالة على حجرة أو قاعة تستخدم للتعبد أو قراءة القرآن أو خلوة لأصحاب المدفن، سواء كانت مفتحة الأجناب تعلو سبيل المدفن أو بعض ملحقاته الأخرى، أو كامله الجدران بالطابق الأرضي من المدفن، وقد اشارت إليها بهذا المفهوم الأخير وثيقة الأمير قرقماس ص ٥٠، سطر ٩، وهي وثيقة محررة في أول رجب سنة ٩١٦هـ وقد كانت القصور تعلو المنازل ايضا، وقد اكتسبت اسمها من اقتصارها على صاحب المنشأة. انظر عن مصطلح القصر وتطور استخدامه في العمارة الإسلامية، حمزة عبد العزيز بدر، «انماط المدفن والضريح في القاهرة العثمانية، رسالة دكتوراه غير منشورة بجامعة اسيوط، كلية الآداب بسوهاج، سنة ١٩٨٩، ص ١٥٨ حاشية (٢)، ص ٣٢٩ حاشية (١).

(٢٩) وثيقة الامير قرقماس الأتابكي (امير كبير) ص ص ١١ ـ ١٥، ١٨ـ٢٣، ٤٢ـ٤٥؛ انظر ايضا، محمد مصطفى نجيب، «مدرسة الأمير قرقماس امير كبير دراسة أثرية معمارية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م. .

(٣٠) حبس المقشرة: سجن كان يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكمي ويذكر المقريزي أن هذا السجن «كان مكانا يقشر فيه القمح ومن جملته برج من ابراج ـ السور على يمنة الخارج من باب الفتوح استجد بأعلاه دور لم تزل إلى أن هدمت خزانة شمائل فعين هذا البرج والمقشرة لسجن ارباب الجرائم وهدمت الدور التي كانت هناك في شهر ربيع الأول ـ سنة ثمان وعشرين وثمانمائة، وعمل البرج والمقشرة سجنا ونقل إليه ارباب الجرائم». ويصف المقريزى هذا السجن بانه من اشنع السجون

بالشـام وقيسـارية بدمشق، وأراضي قرية كاملة من أعمـال الرملة بالشـام، بالإضافة إلى أطيان عديدة بالبقاع، وبعلبك، وردين، ودير لاياس، وغيرها.[٣١]

وما يهمنا من كل هذه الأعيان والأطيان اصطبلين متجاورين من إنشائه وعمارته بظاهر القاهرة، خارج بابى زويلة والقـوس، بالقرب من حدرة القسم تجاه سكنـه، وهما اللذان تخربا بعد ذلك وآلا إلى الوزير سليمان باشا الخادم وأنشأ عليهما مدرسته الشهيرة كما سنرى.

سليمان باشا الخادم

يعد سليمان باشا الخادم خامس باشا عثماني عين لحـكـم مصر، وهـو أطول وزراء مصر عهـدا بحكمها، وأكثرهم عمارة بها، ومن ثم فهو من الوزراء المبكرين الذين لم تكن تنقصهم القوة أو السيطرة على مجريات الأمور بمصر فقد حكمها مرتين أولاهما تزيد عن عشر سنوات متصلة ابتداءً، من عام ٩٣١هـ/ ١٥٣٥م، وقـام خلال هذه الفتـرة بأعمـال إداريـة ومعمارية جليلة، فقد قام بعمل مساحة دقيقة لضبط أقـاليم مصر جميعهـا عرفت بدفاتر التربيع، حيث خصص لكـل ولايـة من ولايـات مصر دفتر خاص بهـا[٣٢]، وخـلال فتـرة حكمه الأولى كلفه السلطان العثماني ببناء أسطول مكون من ثمانين سفينة[٣٣]، ثم صدرت إليـه الأوامـر سنـة ٩٤١هـ/ ١٥٤٥م بقيادة الحملة المتوجهة إلى الهند.

ولسليمان باشا الخادم العديد من المآثر والعمائر شيدها خلال فترة حكمه لمصر، وقد ورد في وثيقة وقف باسم هذا الوزير، محفوظة في دار الوثائق القومية، ومـؤرخـة بعـام ٩٤١هـ/ ١٥٤٥م جميـع أعمـاله المعمـاريـة التي شيدها سواء بالقاهرة أو خارجها، ومنهـا مسجـده الشهـير بالقلعة المعروف بمسجد «سيـدي ساريـة»[٣٥]، وهـو أول مسجد أنشيء على الطراز العثمـاني بالقاهرة، ومسجده الكبير ببولاق، وقبة للشيخ «سعود المجذوب»[٣٦] بخط سويقه العزي خارج باب زويلة، ووكـالتان ببولاق إحداهما تعرف بالكبرى والأخرى تعرف بالصغرى، وقد كان بوسط الوكالة الكبرى مسجدا شأنها في ذلك شأن الوكالات الكبرى في ذلك العصر. كما أنشأ ببولاق أيضا خانا ومصبغـة، وكان له معصرة بشبرا، وسوق لصناعة وتجـارة الذهب والفضـة تجـاه عمـارة السلطان الغوري. كما أشارت وثيقة وقفة إلى أنه أنشأ وكالتين برشيد إحداهما تعرف بالكبرى والأخرى بالصغرى، بالإضافة إلى مسجد وصهريج ومزملة وميضـأة.

وإذا كانت وثيقـة وقف سليمـان باشـا الخادم السـابقـة الذكـر قد أحصت وأوردت نصا لجميع أعماله المعمارية التي أنشأها بمصر خلال فترة حكمه لها[٣٧]، إلا أن هناك عملين معماريين مهمين ينسبان إليه دون أن يرد لهما ذكر في وثيقة وقفه أولهما: مدفن ذو قبـة بجبانة المماليك بالقرب من خانقا، فرج بن برقـوق، وهي قبـة رائعـة اتبع في بنائها الأساليب المعمـاريـة والزخـرفية التي كانت سائدة في العصر المملوكي، وتشبه إلى حد كبير قبة مدرسة قاني باي

ـ واضيقهـا يقاسي فيه المسجونين من الغم والكرب مالا يوصف، ويستفاد من النص الوارد بوثيقة الأمير قرقماس أمير كبير أن هذا السجن كان قائما حتى نهاية العصر المملوكي وبدايات العصر العثماني.

انـظر عن هذا السجن: المقـريـزي، تقي الدين أحمد بن علي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (بيروت: دار صادر، د.ت.) جزء٢، ص ١١٨؛ وثيقـة وقف الأمير قرقماس الاتابكي (امير كبير) ص ص ١٨١ ـ ١٨٢؛ علي مبارك، **الخطط**، جـ٢، ص ٧٦.

(٣١) وثيقة وقف قرقماس الاتابكي ص ص ١٣٧، ١٣٩ـ٤٤، ١٧٧ـ١٨٠.

(٣٢) احمد شلبي بن عبد الغني، **اوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات**، الملقب بتاريخ العيني (القاهرة: طبع الخانجي، ١٩٧٨م)، ص ١٠٧؛ علي مبارك، **الخطط** جـ٢، ص١٤٤؛ ليـلى عبد اللطيف أحمد، **الإدارة في مصر في العصر العثماني** (القاهرة: جامعة عين شمس، ١٩٧٨م)، ص٦٣.

(٣٣) ابن عبد الغني، **اوضح الإشارات**، ص١٠٩، حاشية ٤٦.

(٣٤) يوسف الملواني، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، (مخـطوط بمكتبـة رفـاعة الطهطاوى بسوهاج، رقم ٢٨ تاريخ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية ٥٦٢٣ تاريخ)، ص ١٦٥؛ علي الدين الحنفي، **البرق اليماني في الفتح العثماني** (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤١٤ تاريخ)، ص ص ١٠ـ١١.

(٣٥) فهرس الآثار الاسلامية بالقاهرة، أثر رقم (١٤٢).

(٣٦) فهرس الآثار الإسلامية بالقاهرة، اثر رقم (١١٠).

(٣٧) وثيقـة وقف سليمـان باشا الخادم رقم ١٠٧٤ أوقاف، نسخة مصـورة لدى وزارة الأوقـاف عن الأصل المحفوظ بدار الوثائق القومية، بتاريخ سنة ٩٤١هـ/ ١٥٢٧م.

الرماح بالقلعة التي ترجع إلى أواخر عصر المماليك الجراكسة، ـ وتعد هذه القبة من أجمل القباب التي بنيت في العصر العثماني على الإطلاق[٣٨]، وتؤرخ بسنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م، أي في العام التالي لبناء المدرسة السليمانية، وقد فقدت القبة جميع كتاباتها، سواء نص التأسيس أو تلك الكتابات الطلائية المنفذة داخل القبة على الرقبة وأعلى الفتحات والمداخل وهي كتابات أتت عليها عوامل التعرية ولايمكن قراءتها حاليا[٣٩]، وللأسف فإن هذه الكتابات لم تسجل في أية دراسة سابقة، وتظل نسبة هذه القبة لسليمان باشا الخادم أمرا محيرا حتى نعثر على نص وثائقي، أو تاريخي يكشف عن تاريخ إنشائها ويؤكد على هذه النسبة، خاصة وأنها انشئت بعد عزله عن ولاية مصر للمرة الثانية سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م بست سنوات.

وثاني الأعمال المعمارية التي لم ترد في نص وثيقة وقف سليمان باشا والتي ينسب إنشائها إليه بعد مغادرته لمصر نهائيا، المدرسة السليمانية بشارع السروجية[٤٠] وإنشاؤه لمدرسة بالقاهرة سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م بعد تركه حكم مصر أمراً غير مستغرب إذ أن تعليم العلم يعد من الصدقات الجارية، كما أن الأوقاف التي رصدت للتعليم بمختلف مستوياته كانت دائما من الأعمال التي يحض عليه الإسلام ويتكفل بها أهل العقد وذوي الثروة والإمكانات، فقد نص سليمان باشا عند شرائه لقطعة الأرض التي عزم على إقامة المدرسة عليها على أنها «مدرسة لإحياء العلم وإقامة شعاير الإسلام» ولكن إنشاء سليمان باشا لمدفن في مصر بعد عزله وتوجهه إلى استانبول حيث أسند إليه منصب الصدارة العظمى[٤١] يعد أمراً شديد الغرابة.

وعلى أية حال فإن سليمان باشا الخادم لم يستمر في منصب الصدارة العظمى سوى مدة قصيرة حيث عزل من هذا المنصب سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، فهل كان على وعد من السلطان العثماني بإعادته واليا على مصر ـ خاصة وانه كان من المقربين إلى السلطان[٤٢]، فاصدر سليمان باشا أوامره إلى المتولى على أوقافه بإنشاء مدرسته التي تمت سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م، ثم بإنشاء مدفن له وتم ذلك سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م ولكن سليمان باشا كان في ذلك الوقت قد جاوز الثمانين عاماً واعتزل السياسة منزويا في داره، فهل كان يعتزم العودة إلى مصر ـ حيث أملاكه الواسعة فيقضي بقية عمره فيها، ويدفن في ثراها خاصة وأنه لم تكن له زوجة ولا ولد، فهو أصلا من الخصيان المخصصين للخدمة في البلاط، وتدرج حتى وصل إلى المناصب السالفة. ولكن كل تلك التساؤلات لم يعد ممكنا الإجابة عليها الآن، وتبقى الآثار قائمة تستوجب البحث والدراسة، وإذا كان أمر القبة بقرافة المماليك لا يزال غامضا ، ولا يزال أيضا مثارا لتساؤلات عدة فإنه بعد الكشف عن وثيقة الاستبدال الملحقة بوثيقة السيفي قرقماس قد أصبح في الإمكان الإجابة على العديد من التساؤلات الخاصة بالمدرسة من حيث التاريخ والموقع والوظيفة، والمدة التي استغرقها التشييد ومصدر تمويل عملية شراء الأرض وإقامة المنشآت عليها.

موقع المدرسة وطريقة الحصول عليه

صنف على باشا مبارك هذه المدرسة ضمن التكايا، وذكر أنها تقع بشارع السروجية على شمال الذاهب إلى الصليبة «عمرها الأمير سليمان باشا في سنة عشرين وتسعمائة»، كما وجد في تقرير مشايخها، وكان أصلها مدرسة تعرف بمدرسة سليمان باشا ثم صارت تكية وبها خلاو مسكونه بالدراويش القادرية.[٤٣]

---

(٣٨) حسن عبد الوهاب، «التأثيرات العثمانية على العمارة الإسلامية في مصر، مجلة المجلة، العدد ٣٣ (السنة الثالثة سبتمبر ١٩٥٩)، ص ٤٥، سعاد ماهر، مساجد، جزء ٥، ص ٩٩.

(٣٩) بدر، «انماط المدفن»، ص ص ٥٤ ـ ٥٩.

(٤٠) أثر رقم: ٢٢٥..

(٤١) ابن عبد الغنى، أوضح الإشارات، ص١٠٩.

(٤٢) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م)، ص ٩٤.

(٤٣) على مبارك، الخطط، جـ٦، ص ١٦١، والتاريخ الذي أورده على مبارك لإنشاء هذه المدرسة وهو سنة ٩٢٠هـ غير صحيح ويتناقض مع نص التأسيس المثبت أعلى المدخل. والقادرية التي ذكر ان دراويشها يسكنون خلاوي المدرسة هي إحدى الطرق الصوفية التي انتشرت في مصر في العصر العثماني، وتنسب هذه الطريقة إلى سيدي عبد القادر الكيلاني، وتميز اتباعها بالزي ـ

وتحدد وثيقة السيفي قرقماس الموقع الذي أنشئت عليه هذه المدرسة بأنه يقع بظاهر القاهرة المحروسة خارج بابي زويلة والقوس، بالقرب من حدرة القسم تجاه سكنى الواقف (السيفي قرقماس) بخط قوصون. وقد نجح الناظر على وقف سليمان باشا في الحصول على مساحة كبيرة من الأرض في هذا الموقع المهم بظاهر القاهرة الجنوبي إذ تنص الوثيقة على أن ذلك الموقع خارج بابي زويلة والقوس.[٤٤]

والواقع أن الحصول على مساحة كبيرة صالحة لإنشاء عمل معماري كبير في هذا الموقع المهم ـ الذي هو امتداد للشارع الأعظم ووسط أهم المدارس والعمائر المملوكية ـ كان في حد ذاته انجازا كبيرا لا يتيسر في كل وقت، بعد أن تكدست القاهرة وظواهرها وخاصة ظاهرها الجنوبي بمنشآت الخلفاء والسلاطين والأمراء، التي ترجع الى مختلف العصور الإسلامية حتى عصر سليمان باشا منشىء هذه المدرسة. ولم يكن من المتيسر توفير مثل هذه المساحة في ذلك المكان من القاهرة إلا من بقايا أعيان موقوفة متخربة، وقد كان ذلك أمرا طبيعيا ويتطلب إجراءات بعينها سنذكرها حالا، غير أنه كان دائما من الصعوبة بمكان الحصول على مساحة كبيرة متصلة من الأراضي الوقف، صالحة لإقامة منشأة كبيرة عليها.[٤٥] وقد أشارت وثيقة الوقف إلى أن قاضي القضاة محي الدين محمد عبد القادر، وأحمد أغا المتولى النظر على أوقاف سليمان باشا «جال فكرهما في الخطط والمحلات لإقامة شعاير الإسلام وإحياء العلم»[٤٦] ولا شك أنهما وجدا في هذا المكان بخط قوصون مساحة كبيرة متسعة الفضاء مسلوبة المنفعة، وقد كان الموقع الذي شيدت عليه المدرسة وملحقاتها يشتمل على بعض أبنية خربة «قليلة الجدوى في الاستغلال»[٤٧]، ومن ثم فقد كان هذا الموقع موفيا بالغرض، وأكثر الأماكن مناسبة لطلب الوزير سليمان باشا، ومن ثم بدىء في اتخاذ الإجراءات القانونية الخاصة بذلك[٤٨]، والمتمثلة في الخطوات التالية:

ورود طلب من الوزير سليمان باشا الخادم كافل المملكة المصرية (سابقا) إلى كل من أحمد أغا المتولي النظر على أوقافه، وقاضي القضاة الشيخ محي الدين محمد بن عبد القادر بالرغبة في إقامة مدرسة له بالديار المصرية، وطلب منهما البحث والتحري في مختلف خطط القاهرة عن مكان مناسب لذلك، فاستقر الرأي على مساحة كبيرة بها بضعة أماكن خربة من أوقاف الأمير قرقماس ـ الأتابكي (أمير كبير) رأى قاضي القضاة أنها مناسبة لغرض الوزير سليمان باشا.[٤٩]

محضر كشف بحضور جمع من المهندسين وأرباب الخبرة، وجمع من المسلمين قاموا بالكشف التام على تلك المساحة الكبيرة من أوقاف الأمير قرقماس، وما بها من أماكن خربة، شهدوا فيه «أن

الأخضر وكانت عمائمهم وبيارقهم بيضاء. أنظر توفيق الطويل، **التصوف في مصر إبان العصر العثماني** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م)، ص ٧٢، ٧٩.

(٤٤) بابا زويلة: بابان متجاوران كانا في الضلع الجنوبي من أسوار القاهرة أحدهما كبير والآخر صغير، ويذكر المقريزي أنهما بحذاء، مسجد سام بن نوح ولم يبق على عهد المقريزي من الباب الصغير سوى عقده، ومن ثم عرف بباب القوس، وقد أزيل بابا زويلة الأصليان وبنى بدر الجمالي بدلهما باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم ويضيف المقريزي أن ما بين باب المقوس وباب زويلة الكبير ليس من المدينة التي أسسها القائد جوهر، وإنما هو زيادة حدثت بعد ذلك، إذ لم تمض على انتشار القاهرة المعزية سوى ثلاثين عاماً حتى امتد العمران بظاهرها الجنوبي واستجدت حارات عدة على يمين ويسار الخارج من باب زويلة، وكان ذلك الموقع كله بساتين تعرف بجنان الزهري وبستان سيف الإسلام، ثم استجدت الحارات المذكورة مما استدعى بناء باب جديد وهو ما عرف بباب القوس، وكان ذلك على عهد الخليفة الحاكم بأمر الله. انظر: المقريزي، **الخطط** جـ١، ص ص ٣٦١ ـ ٣٦٤؛ عبد الرحمن زكي، **القاهرة تاريخها وآثارها ٩٦٩ـ ١٨٢٥** (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ص ص ١٤ـ١٥، حاشية (١)؛ محمد كمال السيد، **اسماء ومسميات من تاريخ مصر القاهرة** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م)، ص٣٧١.

(٤٥) Nelly Hanna, *Construction Work in Ottoman Cairo Supplement aux Annales Islamologiques*, N. Le Caire, 1984), 29.

(٤٦) وثيقة الأمير قرقماس الأتابكي ص ٨٥، سطر ٤ـ٦.

(٤٧) الوثيقة السابقة والصفحة، سطر ١٣..

(٤٨) انظر عن الإصطلاحات الخاصة بمثل هذه الاجراءات: الإمام، «الأصول الوثائقية».

(٤٩) وثيقة الأمير قرقماس ص ٨٥، سطر ١٠، ١١.

تلك المساحة مسلوبة المنفعة. وأن ما بها من أماكن خربة قليلة الجدوى في الاستغلال، وأن تلك الأماكن، متى استمرت على حالتها التي هي عليها وقت الكشف، تزايد خللها وخرابها وآل أمرها إلي سلب الانتفاع منها بالكلية» وثم سؤال النظارين على وقف الأمير قرقماس وهما الامير الماس والأمير دولارماى؛ «هل في الوقف ما تعمر به تلك الأماكن؟ وأجابوا بأنه ليس في الوقف ما يوفي العمارة، وأن الحظ والمصلحة في استبدال ذلك.»[٥٠] وبناء على محضر الكشف، وما شهد به ناظرا الوقف طلب قاضي القضاة من الأبواب الشريفة الإذن باستبدال تلك الأماكن.[٥١]

بعد ورود الإذن بالاستبدال، أي خروج العين من الوقف وانحلال الوقف عنها، اصبح لناظرا الوقف حرية التصرف فيها، ومن ثم بدأ اتخاذ الإجراءات الرسمية لوضع ذلك موضع التنفيذ. وتتكون تلك الإجراءات من عدة مراحل: أولاها إجراء ما يسمى «بفصل القيمة» أي تقدير قيمة الأرض والعقارات المزمع استبدالها وبيعها من الوقف. وقد قدرت قيمة الأماكن التي اشتراها وكيل سليمان باشا الخادم، وأقام عليها مدرسته بمبلغ قدرة ٣١٧ ديناراً من الذهب السلطاني الجديد البندقي[٥٢]، أما الخطوة الثانية فهي اعتماد المهندسين وأرباب الخبرة أن القدر الذي قومت به تلك الأماكن ٣١٧ ديناراً مبلغا مناسبا وأنه «فوق القيمة وأن الحظ والمصلحة والغبطة الوافرة لجهة الوقف المذكور في فعل ذلك.»[٥٣]وأما الخطوة الثالثة فتمثلت في القيام بمزاد علنى في موقع تلك الأماكن، بعد الاتفاق على الثمن المبدئي، وهو المبلغ السالف ذكره، حيث تم «إجهار النداء وانهاء الرغبات في مواطن الطالبين ومحلات الراغبين فلم يوجد راغب في ذلك القدر الذي ذكر.»[٥٤]

بعد ذلك قدم المستندات اللازمة لانجاز البيع من جانب البائعين (الأمير الماس والأمير دولار ماى). وتتكون المستندات أو المسوغات الشرعية اللازمة لانجاز البيع من: فصل جريان، أي شهادة بجريان تلك الأماكن في وقف الأمير قرقماس[٥٥]، واذن الاستبدال أو كتاب الاستبدال، الذي يخول لناظر الوقف إخراجه من الوقف على أي صفة، وإثبات كون تلك الأماكن بصفات مسوغة للاستبدال.[٥٦]

وبعد اتخاذ الإجراءات السابقة أصبح البيع ناجزا، وقبض الناظران المشار إليهما من الأمير أحمد أغا المتولى على أوقاف سليمان باشا الخادم المبلغ المتفق عليه، وقدره من الفضة الجديدة العثمانية ثلاثة عشر ألف نصف، قبض الناظران عنها ثلاثمائة دينار وسبعة عشر دينارا من الذهب السلطاني الجديد البندقي، «ووضع القدر المذكور ضمن كيس وختم عليه، وتسلم أحمد أغا الأماكن المذكورة تسلما شرعيا في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٩٤٩.»[٥٧] وقد أشارت الوثيقة إلى مصدر ذلك المبلغ الذي تم به شراء تلك المساحة من الأرض، وما عليها من بقايا أماكن خربة بأنه من مال الزوايد، أي الزيادات المتوافرة من أوقاف سليمان باشا الخادم[٥٨]، وهو

(٥٠) الوثيقة نفسها، ص ٧٦ سطر٥، والاستبدال هو أحد إجراءات التصرف في الوقف ويتم باستصدار اذن من قاضي القضاة أو نائبه يخول لناظر الوقف الحق في إخراج العين من الوقف وانحلال الوقف عنها، ومن ثم يصبح من الممكن التصرف فيها بسائر أوجه التصرفات الشرعية (انظر: الإمام «الأصول الوثائقية»، ص ص ٨ـ٩).

(٥١) الوثيقة نفسها، ص ٨٦، سطر ٦ـ٨.

(٥٢) الذهب السلطاني الجديد البندقي: نقد ذهبي مصري اختلفت قيمته باختلاف الزمان والمكان. انظر الكرملي، النقود العربية وعلم النميات، ط٢ (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٧م)، ص١٨٥.

(٥٣) وثيقة الأمير قرقماس، ص ٨٧، سطر ٢ـ٣.

(٥٤) وثيقة الأمير قرقماس، ص ٨٦ سطر ١٤، ١٥.

(٥٥) فصل الجريان هو شهادة بجريان مكان معين في ملك أو وقف شخص ما، وهي شهادة يوقع عليها شاهدا عدل، وتعتبر هي ومحضر الكشف المسوغات الشرعية التي يعتمد عليها قاضي القضاة في إصدار حكمه بالإذن باستبدال العين موضوع للتصرف، أي التصريح بخروجها من الوقف على أي صورة. انظر: الإمام «الأصول الوثائقية»، ص٨.

(٥٦) وثيقة الأمير قرقماس، ص٨٧، سطر ٥ـ٧.

(٥٧) الوثيقة السابقة، ص ٩١.

(٥٨) الوثيقة نفسها، ص ٨٧ سطر ١٤ وقد استثمر فائض مال أوقاف سليمان باشا ايضا في إنشاء وكالة ببولاق تكلفت أكثر من ١٦٠ ألف نصف فضة انظر: محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م)، ص ص ١٣٩ـ١٤٠.

المصدر الذي نرجح أنه تم من خلاله تمويل عملية بناء المدرسة أيضا.

المنشآت السابقة بالموقع

ورد بالوثيقة المذكورة أن الأماكن التي تم شرائها سنة ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م لبناء المدرسة عليها هي:

اصطبلان متجاوران متنافذان[٥٩] بظاهرة القاهرة المحروسة خارج بابي زويلة والقوس بالقرب من حدرة الحنة تجاه سكن الأمير قرقماس «وهي أماكن يرجع تاريخ وقفها ضمن أوقاف الأمير قرقماس الأتابكي إلى رجب سنة ٩١٦ هـ وللاصطبلان المذكوران ثلاثة أبواب بابان بالضلع الغربي وباب مذود بالضلع القبلي يطل على الشارع الفاصل بينها وبين منزل الأمير قرقماس الأتابكي.

مكان خرب مجاور للمكان السابق من الجهة الشمالية يشتمل على واجهة بها حانوت خرب تعلوه طبقة خربة، وجدير بالذكر أن هذا المكان كان على هذه الصفة منذ تاريخ وقفه ضمن أوقاف الأمير قرقماس سنة ٩١٦هـ.[٦٠]

ـ مكان آخر مجاور للأماكن السابقة بخط جامع قوصون يشتمل على ثلاثة حوانيت وطباق، وهو مكان يطل على الشارع الأعظم مباشرة. وهو موقع واجهة ومدخل مدرسة سليمان باشا حاليا، ويرجع تاريخ إدخال تلك الأماكن ضمن أوقاف السيفي قرقماس الاتابكي إلى ١٢ رمضان سنة ٩١٧هـ.

ـ خمسة حوانيت متجاورة تقع إلى الجنوب من الاصطبلين السابق ذكرهما.

تخطيط المدرسة ووظيفتها

ترجع الأهمية المعمارية لهذه المدرسة إلى أنها تمثل اتجاها جديداً في تخطيط وبناء المدارس بمصر، فهي تختلف في تخطيطها عن المدارس المصرية التي ترجع إلى الطرز السابقة على الطراز العثماني منذ بداية العصر الأيوبي وطوال العصر المملوكي، والتي غلب عليها منذ بداية العصر المملوكي أن تكون مدارس ذات تخطيط عبارة عن أواوين متقابلة إلا أنها تتفق معها في أن تخطيط البناء قد وضع بما يفي الغرض الذي أنشئت من أجله، فبينما نجد المدارس المصرية، الإيوبية والمملوكية تحتوي على مآذن ومنابر لاستخدام تلك المدارس كمساجد جامعة، نجد هذه المدرسة قد خلت من هذين العنصرين المهمين، لأن الغرض من إنشائها كان غرضا تعليميا فقط، مع وجود إيوان بجهة القبلة لإقامة الشعائر للدارسين بها.

ولا شك أن تخطيط المدرسة على هذا النحو يرجع إلى أصول تركية أناضولية، سواء من حيث التخطيط العام المكون من صحن مكشوف تحيط به خلاوي الطلبة تتقدمها البوائك من جميع الجهات عدا جهة واحدة هي جهة القبلة التي بها إيوان واحد يستخدم قاعة للدرس، أو من حيث عدم إقامة شعائر الجمعة والجماعة بها مع استخدام إيوان الدرس لصلاة الدارسين[٦١]، ونجد ذلك في كثير من نشآت سلاطين آل عثمان المبكرة في برصة وأدرنه ثم في استانبول. وحذا كبار الوزراء والأمراء حذو السلاطين ونذكر من مشآتهم تلك المجموعة التي أنشأها الصدر الأعظم اسحاق باشا (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) وتخطيط مدرسته يشبه في جوهره وإلى حد كبير هذه المدرسة السليمانية.[٦٢]

تطل الواجهة الرئيسة لمدرسة سليمان باشا، وهي الواجهة الشمالية الغربية على شارع السروجية، ويتوسطها مدخل المدرسة وعلى جانبيه حوانيت صغيرة تعلو ابوابها نوافذ بها شبابيك صغيرة من الخشب الخرط الدقيق، وقد تهدم جانب كبير من الجناح الأيسر من هذه الواجهة واندثرت معالمه بما كانت تحتويه من ملحقات للمدرسة (اللوحات ٢،١) ويتوج فتحة المدخل عتب يعلوه عقد عاتق ذو زخارف

---

(٥٩) مما يدل على أن مساحة هذين الاصطبلين مساحة متصلة ويؤدي كل منهما إلى الآخر.

(٦٠) انظر الوثيقة السابقة ص ٥٨، سطر ٤ ـ ١١.

(٦١) مرفت عيسى، «الطراز العثماني .....»، ص١٩٨.

(٦٢) عمل اسحق باشا صدراً أعظم لكل من السلطانين محمد الفاتح وبايزيد الثاني، انظر عن أعماله المعمارية وعن المدرسة المذكورة.

G. Goodwin , *A History of Ottoman Architecture* (Baltimore, 1971), p.116.

من الأربسك، ويعلو العقد العاتق مدورة ـ ذات زخارف مفرغة ثم يأتي نص التأسيس على لوح مستطيل من الرخام، وقد زخرفت جوانب فتحة المدخل بتربيعات حجرية ذات زخارف هندسية ونباتية (لوحة رقم٣)، ولهذه المدرسة واجهة أخرى هي الواجهة الجنوبية الغربية، وتطل على عطفة الليمون، وقد زخرفت هذه الواجهة بتقسيمها إلى خمس دخلات مستطيلة الجزء لسفلي منها نوافذ بها مصبعات نحاسية ودرف من الخشب، ويعلو النوافذ عتب من الصنجات الحجرية المزررة وقد زخرفت صنج أعتاب تلك النوافذ بزخارف متعددة فنجد الثلاث الوسطى منها مزخرفة بأشكال هندسية وزخارف نباتية (اربسك) بشكل دقيق. أما الجزء العلوى من تلك الدخلات فتشتغله نوافذ صغيرة من الخشب الخرط الدقيق.

أما تخطيط المدرسة فيتكون في جوهره من مبنى مستطيل يتوسطه صحن مكشوف تحيط به اربع بائكات تطل على الصحن (شكل رقم١) وتتكون كل منها من ثلاثة عقود نصف دائرية تقوم على أعمدة رخامية، ويبلغ عمق كل منها ٥٠ر٣م، وخلف تلك البائكات تقع حجرات وخلاوي الطلبة، وتغطي تلك الحجرات قباب نصف كروية كانت مغشاة ببلاطات من القاشاني الأخضر، وتفتح أبواب ونوافذ الحجرات أو الخلاوي المذكورة على البائكات، عدا البائكة الجنوبية الشرقية حيث يوجد بدلا من تلك الحجرات إيوان عميق (٦٠ر٣م) يتصدره محراب مجوف، تتقدمه قبة حجرية كروية تقوم على مثلثات تركية، ويكتنف المحراب عمودان مثمنان من الرخام وينتهي تجويف المحراب بطراز كتابي لآية قرآنية.

وعلى يمين ويسار ذلك الإيوان أربع حجرات أحدها استخدمت للدفن، حيث دفن بها كل من الشيخ رسول القادري والشيخ تبتل القادري، وهما من مشايخ الطريقة القادرية ، احدى الطرق الصوفية التي استخدمت هذه المدرسة تكية لها (لوحة رقم٤).

مدرسة أم تكية

بالرغم من أن النص الوثائقي الذي لدينا قد أشار في وضوح وصراحة إلى طلب الوزير سليمان باشا الخادم إنشاء مدرسة له بالديار المصرية «لاحياء العلم وإقامة شعائر الإسلام»[٦٣]، وأكد على ذلك أيضا نص التأسيس المثبت بأعلى المدخل ونص تلك الكتابات التأسيسية التي تنشر هنا لأول مرة في أربعة أسطر على النحو التالي:

١ ــ هذه المدرسة الشريفة أنشأها في دولة السلطان الأعظم والخاقان المعظم ولى ملوك العرب والعجم كاسر رقاب الأكاسرة قامع أعناق الفراعنة

٢ ــ الغازي في سبيل الله الملك المجاهد في إعلا كلمة الله فخر سلاطين آل عثمان السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان

٣ ــ أيد الله دولته وأيد شوكته إلى قيام الساعة الجناب العالي والمقر السامي معظم أركان الدولة ومعظم أعيان الشوكة صاحب

٤ ــ السيف والقلم ومدبر جمهور الأمم مولانا الوزير الأعظم سليمان باشا يسره الله لما شا في سنة خمسين وتسعماية من الهجرة النبوية تقبله الله منه قبولا حسنا ويرحم الله عبدا قايما. (لوحة رقم٥).

إلا أننا نختلف مع ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنها ظلت تستخدم كمدرسة حتى أواخر القرن ١٢هـ/ ١٨م[٦٤]، ثم تحولت إلى تكية بعد ذلك اعتمادا على ورودها باسم المدرسة السليمانية في حوادث متفرقة منذ إنشائها وحتى ذلك التاريخ، ونرجح أنها وإن كانت خططت معماريا كمدرسة على الطراز العثماني استجابة لرغبة المنشىء في إنشاء مدرسة له بالديار المصرية، لم تؤد الوظيفة التي أُنشئت من أجلها منذ اكتمال عمارتها سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م. أو في أي وقت من الأوقات، وأن ذكرها باسم المدرسة السليمانية وأحيانا المدرسة بقوصون لا

(٦٣) وثيقة الأمير قرقماس، ص ٨٥، سطر ٢ ـ ٣.

(٦٤) مرفت عيسى، «الطراز العثماني....»، ص ١٩٧. ولم تنشر هذه الباحثة في دراستها المذكورة نص التأسيس هذا، وإن كان الدكتور عبد الرحمن زكي قد نشر السطر الأول فقط من تاريخ التاسيس (عبد الرحمن زكي، **موسوعة القاهرة**، ص ٥١.

يعنى أنها كانت تؤدي وظيفة المدرسة في ذلك الوقت، ومن أمثلة ذلك ما يذكره الجبرتي في حوادث سنة ١١٢٣هـ من عسكرة بعض المماليك «بالمدرسة بقوصون» أو ماذكره من عسكرة أحمد أغا التفكجية بالسليمانية[٦٥]، أو إقامة على كتخدا بالمدرسة السليمانية بخط قوصون سنة ١١٢٣هـ.[٦٦] نقول أن كل ذلك لا علاقة له باستخدام تلك المنشأة كمدرسة أو تكية، وما ذكره الجبرتي سابقا كان وضعا مألوفا في معارك فئات المماليك المتناحرة وتحصنهم بالمساجد أو الوكائل والمنازل الخالية.

غير أن الجبرتي قد أورد نصا مهما عند ترجمته للشيخ الكاتب سليمان بن عبد الله الرومي المتوفى سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م، فقد ذكر أنه كانت له خلوة بالمدرسة السليمانية لا جتماع الأحباب [٦٧]، وهو نص يشير إلى استخدامها تكية لا مدرسة، ولم نجد ضمن كتابات الجبرتي أو غيره من مؤرخي ذلك العصر أية إشارة إلى التدريس بالمدرسة السليمانية، كما لم نعثر في أي من كتب التراجم للقرن العاشر الهجري عصر إنشاء المدرسة أو القرن الحادي عشر وما تلاه، على كثرة مصادر تلك التراجم[٦٨]، أي ذكر لمدرس بتلك المدرسة، ولم ترد أية إشارة أيضا إلى تلقى شخص ما للدرس بالمدرسة السليمانية. هذا بالإضافة إلى خلو ما طالعناه من وثائق ذلك العصر من أي إشارة ولو ضمنا لأداء تلك المدرسة للوظيفة التي أنشئت من أجلها، مما يؤكد على ما ذهبنا إليه من أنها لم تستخدم مدرسة في أي وقت من الأوقات وأنها أنشئت مدرسة واستخدمت تكية.

ونستطيع تفسير ذلك من خلال ماورد بوثيقة الاستبدال موضع هذا البحث من أن شراء قطعة الأرض التي أقيمت عليها المدرسة قد تم من مال زوائد أوقاف سليمان باشا، أي تلك الأموال التي توافرت بعد الإنفاق على مصارف الوقف المختلفة، ومن ثم فهو مصدر مؤقت، إن توافر في عام قد لا يتوافر في العام الذي يليه وبالتالي فهو ليس مصدرا دائما كالأعيان والأطيان أو حتى الجوامك الموقوفة ويصبح من غير الممكن أن ترتب منه مخصصات للمدرسين والطلبة وسائر وظائف المدرسة تعليمية أكانت أم إدارية أم إشرافية، ومن ثم نستطيع أن نقرر من خلال ماتضمنته وثيقة الاستبدال المذكورة أن المدرسة التي انشئت من مال زوائد أوقاف سليمان باشا بدء في إنشائها سنة ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م وكان الفراغ من عمارتها سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م، وأنه لم ترتب بها أية وظائف تدريسية ومن ثم لم تستخدم مدرسة واستخدمت تكية لإيواء الدراويش الأغراب منذ عصر إنشائها.

وصفوة القول أن النص الوثائقي الذي ننشره ضمن هذا لبحث يؤكد على النقاط الرئيسة التالية:

١ ـ أن هذه المدرسة أنشئت بناء على طلب من سليمان باشا الخادم بعد عزله عن باشوية مصر سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م وأيضا بعد عزله عن منصب الصدارة العظمى باستانبول سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م.

٢ ـ أن هذه المدرسة بدء في إنشائها سنة ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م، وليس في عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م وهي الفترة التي تولى فيها سليمان باشا الوزارة في الباب العالي كما ذكر في بعض الدراسات السابقة[٦٩]، وكان الفراغ من عمارة هذه المدرسة سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م.

٣ ـ أنها أنشئت مدرسة كما ورد بكل من الوثيقة ونص التأسيس خلافا لما أورده بعض

---

(٦٥) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**(بيروت: دار الجيل، د.ت)، ج١، ص٧١.

(٦٦) الجبرتي، **عجائب الآثار**، جـ١، ص٧٢.

(٦٧) الجبرتي، **عجائب الآثار**، جـ١، ص٣٣٢.

(٦٨) انظر: الغزي، **الكواكب السائرة**: ابن العماد، **شذرات الذهب** الجزء الثامن خاص بتراجم القرن ١٠: مصطفى الحموي، **فوائد الارتحال ونتائج السفر في أعيان القرن الحادي عشر**، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٩٢، تاريخ، محمد المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** (القاهرة: المطبعة الوهبية، ١٢٨٤هـ)، أربعة أجزاء؛ المرادي، السيد محمد خليل، **سلك الدر في أعيان القرن الثاني عشر**، ٢جـ (القاهرة ـ بولاق، ١٣٠١هـ) بالإضافة إلى تاريخ الجبرتي والعديد من المصادر الأخرى لتراجم ذلك العصر منذ الفتح العثماني وحتى عصر محمد علي.

(٦٩) مرفت عيسى «الطراز العثماني ...»، ص١٩٧.

الباحثين من إنشائها كتكية.(٧٠)

٤ ــ أنهـا أنشئت بخـط قوصون على موقع كان يشغله اصـطبلين وبضعة حوانيت خربة تم شرائها من أوقاف الأمير قرقماس الأتابكي.

٥ ــ يجب أن يشير إلى أن نص التأسيس يعكس رغبة المنشيء، كما أن شرط الواقف هو الملزم في اداء الوظيفة وأن المدرسة السليمانية لم تكن أول المـدارس التي حال عدم الوقف عليهـا وترتيب وظائف بها دون أدائها للوظيفة التي أنشئت من أجلهـا إذ أن الأوقـاف كان لها دائـمـا الدور الـرئيس في أداء المـدارس لوظائفهـا(٧١)، ويشـير المقـريـزي إلى حالات مماثلة ترجع إلى العصر المملوكي منها المدرسة الخروبية «بخط الشون قبلي دار النحاس من ظاهـر مدينـة مصر» التي أنشأها عز الدين الخروبي، ويضيف المقريزي أن عز الدين هذا توفي سنـة ٧٧٦هـ قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها فليس لها مدرس ولا طلبة.(٧٢)

ومن الأمثلة المشابهة أيضا مدرسة اينال خارج باب زويلة، ويذكر المقريزي أن الأمير اينال توفي قبل اتمـام عمارتها «فلم يعمل فيها سوى قراء يناوبون قراءة القرآن على قبره»(٧٣)، كما ذكر المقريزي مدرسة أخرى هي «مدرسة المحلي» وكانت تقع على شاطيء النيل ظاهر مدينة مصر أنشأها رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلي، «وأنفق في بنائها زيادة على خمسين ألف دينار» لكن لم يجعل بها مدرسا ولا طلبة على حد قول المقريزي.(٧٤)

والواقع أن ريع الأوقاف على تلك المدارس كان هو المصدر الأساسي في الإنفاق عليها، ويحدد بناء عليه عدد الطلبة والمدرسين.(٧٥)

وفيما يتعلق بمدرسة سليمان باشا هذه نستطيع أن نقرر أن إنشائها من فائض ريع أوقاف سليمان باشا ترتب عليه عدم تعيين مدرسين ورواتب للطلبة، مما أدى إلى تحول في وظيفتها فلم تستخدم كمدرسة حسب رغبة المنشي ونص التأسيس، ومن ثم فقدت الغرض الذي انشئت له ولم يبق لها إلا أن تستخدم كتكية للأروام القادمين إلى الديار المصرية.

---

(٧٠) نجيب، **العمارة**، ص ٢٦٤؛ سعاد ماهر، **مساجد**، جـ٥، ص٩٥؛ زكي ، **موسوعة**، ص ص ٥٠ـ٥١؛ هيئة الآثار المصرية، **فهرس الآثار الإسلامية**، اثر رقم ٢٢٥.

(٧١) محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية** (الكويت: عالم المعرفة، العدد ١٢٨، ١٩٨٨م)، ص٨٤.

(٧٢) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، جـ٢، ص٣٧٠.

(٧٣) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، جـ٢، ص٤٠١.

(٧٤) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، جـ٢، ص٣٦٨.

(٧٥) محمد عبد الستار عثمان، «نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية بالقاهرة»، رسالة دكتوارة مقدمة لجامعة اسيوط سنة ١٩٨٠، ص١٠٢.

العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، ٢٠٧ ـ ٢٤٢ (١٩٩٣م).

قلعتا لعلع وهندي بمكة المكرمة

دراسة تاريخية أثرية

للدكتور / هشام بن محمد علي عجيمي
والدكتور / عادل بن محمد نور غباشي

ملخص البحث : يشتمل هذا البحث على دراسة تاريخية أثرية لقلعتي لعلع وهندي بمكة المكرمة، تتبع فيها الباحثان الأسباب السياسية التي دفعت الشريف غالب بن مساعد أمير مكة إلى إنشائهما سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م. ودراسة موقعهما، حيث تحمي قلعة لعلع المدخل الشمالي بمكة المكرمة، أما قلعة هندي فتحمي المدخل الغربي. واشتملت الدراسة على تفصيل تاريخي لمراحل بناء كل قلعة على حده، ووصفها من واقع الطبيعة بالنسبة لقلعة لعلع، وما أوردته الوثائق عن تخطيط قلعة هندي التي لم يتبق من مبانيها إلا الموقع فقط. هذا إلى جانب إخضاع القلعتين لدراسة تحليلية ومقارنة للقلاع العثمانية في الحجاز وغيرها من القلاع في العالم الإسلامي من حيث الموقع والتخطيط.

الموقع وأسباب البناء

وصف الحق جل جلاله مكة المكرمة بأنها وادٍ[1]، ويمتد هذا الوادي من الناحية الشمالية الشرقية ويتجه نحو الجنوب الغربي تقريبا، ومازال هذا الوادي يعرف بوادي إبراهيم حتى الوقت الحاضر، وإن تعددت فيه أسماء الأحياء السكنية الموجودة فيه أو المشرفة عليه.

وبطبيعة الحال تحف بهذا الوادي سلسلتان من الجبال كل سلسلة متعددة القمم عرفت بأسماء مختلفة تتبعها المؤرخون والجغرافيون في الفترات التاريخية المختلفة.[2]

وتقع كلٌ من قلعة لعلع وقلعة هندي على السلسلة الجبلية الغربية التي ترتفع فيها عدة قمم عرفت بأسماء مختلفة أطلق عليها جبال مجازاً، أما من الناحية الجغرافية فهي متصلة اتصالاً مباشراً، (خريطة رقم ٢،١) وأشهر اسم عرفت به هذه السلسلة هو جبل «قعيقعان».

وعلى احدى قمم هذا الجبل المعروفة بمكة باسم «جبل لعلع» أو «جبل اللاسلكي» والواقعة شمال المسجد الحرام بنيت قلعة لعلع التي يبدو أنها اكتسبت اسمها من اسم هذه القمة، فضلاً عن ورود اسم «لعلع» على خارطة عثمانية لمكة المكرمة مؤرخة بسنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١.[3] كما عرفت هذه القلعة باسم قلعة «فلفل»، وعن أصل هذا الاسم أفاد

---

(١) قرآن كريم، سورة ابراهيم، آية رقم ٣٧.

(٢) انظر الموقع العام لكل من قلعة لعلع وقلعة هندي في الخريطة رقم (١) في هذا البحث. وعن أسماء هذه القمم انظر: الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن اسحاق، مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش (مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، جـ ٤، ص ٤٥، ١٧٣، ٢٠٦.

(٣) انظر الخريطة رقم (٢) في هذا البحث، وكذلك انظر خارطة مكة المكرمة في ابراهيم رفعت، مرآة الحرمين (د.م، د.ن، د.ت)، جـ ١، ص ١٨٣.

أحد المسنين[٤] بأنه يرجع إلى أن رجال الشريف غالب الذين شاركوا في بناء هذه القلعة بلغ عددهم ألف رجل عرف رئيسهم باسم فلفل.

أما القمة الثانية فهي قمة الهندي الواقعة غرب المسجد الحرام تقريباً، حيث بنيت عليها قلعة هندي التي اكتسبت اسمها أيضاً من اسم القمة التي بنيت عليها .

من خلال هذين الموقعين الحصينين يتضح أن قلعة لعلع تحمي المدخل الشمالي لمكة المكرمة، وهو مدخل منطقة المعلاه والحجون. أما قلعة هندي، فتحمي المدخل الغربي لمكة المكرمة عند منطقة الشبيكة وحارة الباب.

ويرجع بناء كل من قلعة لعلع وقلعة هندي إلى فترة الشريف غالب بن مساعد[٥] شريف مكة المكرمة (١٢٠٢ - ١٢٢٨هـ/ ١٧٨٧ - ١٨١٣م)، التي اتسمت فترته بصفة عامة بالاضطرابات الداخلية في الحجاز، فضلاً عن الحروب التي وقعت بينه وبين السعوديين في نجد.[٦] لذا نجد أن الشريف غالب بن مساعد قد وضع منذ السنوات الأولى لفترته هدفاً يقضي بعدم تمكين السعوديين من السيطرة على مكة المكرمة وبالتالي القضاء على مركزه، وتمثلت سبل تحقيق ذلك الهدف في اتجاهين:

الأول : مبادرته سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م بتوجيه الجيوش إلى نجد للقضاء على السعوديين إلا أنه لم يتمكن من ذلك ورجع إلى مكة[٧]، ثم تكررت محاولات الشريف غالب للقضاء عل السعوديين إلا أنه لم يستطع تحقيق أهدافه.

الاتجاه الثاني : هو نتيجة للاتجاه الأول، فعندما لم يستطع الشريف غالب القضاء على السعوديين، وفشلت أغلب حملاته وأبرزها حملته الخامسة عشرة سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م[٨] حول خطته من الهجوم إلى الدفاع، فعقد صلحاً مع الإمام سعود بن عبد العزيز سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م. وبموجبه قام الإمام سعود بن عبد العزيز سنة ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م بأداء فريضة الحج مع أعدادٍ كبيرةٍ من سكان نجد ومن هم تحت لوائه.[٩] كما قام بأداء فريضة الحج في السنة التالية ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م.[١٠]

إزاء هذه الأحداث رأى الشريف غالب بن مساعد تدعيم مركزه في فترة الصلح مع الإمام سعود بن عبد العزيز حيث يذكر عبد الله بن محمد عبد الشكور[١١] أحد المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث أن الشريف غالب خشي من الأعداد الهائلة التي حجت مع الإمام سعود بن عبد العزي فأمر بتحصين مكة. ومن ضمن هذه التحصينات قلعتا لعلع وهندي اللتين بنيتا سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م كما سيأتي.[١٢]

بهذا يتضح أن بناء كلٍ من قلعة لعلع وقلعة هندي كان ضرورة حتمية للشريف غالب بن مساعد للحفاظ على مركزه وحكمه في مكة المكرمة.

وتمثل كلٌ من قلعة لعلع وقلعة هندي نموذجين جيدين للقلاع الحربية في مكة المكرمة في العصر العثماني، وقد مر كلٌ منهما بعدة أحداث من الناحية المعمارية الأثرية، لذا فإنه من الأهمية بمكان تتبع تاريخ بناء كلٍ منهما ووصفها وترميمها والأساليب المعمارية المنفذة فيهما فضلاً عن تحليل النواحي

---

(٤) هو الاستاذ محمد سعيد عالم، مدير مدرسة اللاسلكي التي كانت في موقع القلعة نفسه.

(٥) غالب بن مساعد تولى شرافة مكة المكرمة من ١٢٠٢ - ١٢٢٨هـ. انظر زامباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون (بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٠هـ)، ص ٣٤.

(٦) عن أحداث فترة الشريف غالب بن مساعد انظر: أحمد زيني دحلان، **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام** (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٧هـ)، ص ص ٢٢٥ - ٩٨؛ وكذلك الشيخ عبد الفتاح راوه، **تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام** (الطائف: مكتبة المعارف، د.ت)، ص ص ٣٥١ - ٨

(٧) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد** (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د.ت)، ص ص ٨ - ٨٧؛ وكذلك الدحلان، **خلاصة الكلام**، ص ٣٦١.

(٨) ابن بشر، **عنوان المجد**. ص ص ١١٢ - ١٣.

(٩) الدحلان ،**خلاصة الكلام**، ص ص ٢٦٧ - ٨.

(١٠) الدحلان ،**خلاصة الكلام**، ص ص ٢٦٧ - ٨.

(١١) عبد الله بن محمد عبد الشكور، **تاريخ أشراف وأمراء مكة المكرمة**، مخطوط رقم ١٤٣٠ بمكتبة الحرم المكي الشريف، لوحة ١٥٧.

(١٢) انظر تاريخ بناء القلعتين في هذا البحث.

المعمارية فيهما ومقارنتهما ببقية القلاع من مختلف النواحي.

قلعة لعلع

تاريخ البناء

سبقت الإشارة إلى أن هذه القلعةبنيت في عهد الشريف غالب بن مساعد.[١٣] سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م[١٤] ثم حُولت إلى مستشفى عسكري كما تنص على ذلك خارطة مكة المكرمة المؤرخة عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ - ١٨٨١م بما نصه (خسته خانة عسكرى اتخاذ قلنان فلفل قلعه سنك مرتسم افقيسدر) أي رسم أفقي لقلعة فلفل عند اتخاذها مستشفى عسكريا.

والواقع أنه لم نتوصل إلى معرفة تاريخ تحويلها أو اتخاذها مستشفى عسكريا، إلا أنه من المحتمل أنها اتخذت لهذا الغرض سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٧٨م.

والمهم أنه لا توجد أدلة تاريخية أو أثرية تثبت تغيير تخطيطها حين تم اتخاذها مستشفى عسكريا.[١٥]

وفي العصر السعودي أُعيد بناء معظم أجزائها لإعدادها مركزاً للبرق ومدرسة لتعليم طلاب إدارة اللاسلكي[١٦] في الفترة من ١٣٦٣ - ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٣ - ١٩٤٤م، وهي حالياً مغلقة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

الوصف المعماري

يأخذ تخطيط المباني القائمة حالياً لقلعة لعلع الشكل المستطيل تقريباً، وتتجه أضلاعها نحو الجهات الأصلية تقريباً، وبلغت أطوال أضلاعها من الخارج مايلي: في الشمال ٣٢٫٩٧م، وفي الجنوب ٣٣٫٦٧م، وفي الشرق ٥٣م، وفي الغرب ٥٢٫١٧م (شكل رقم١).

ويتوسط مدخل القلعة الضلع الجنبي تقريباً، وهو كتلة تبرز عن مستوى سمت الجدار بمقدار ٤٫٨٥م، سقفت بقبوٍ متقاطع يقوم عل أربعة دعائم وعمودين (لوحة رقم ١).

وتتسع فتحة المدخل بمقدار ٢٫٦٥م، وتفضي إلى دهليز مستطيل مساحته ٧٫٥٣م × ٥م، سقف بقبو طولي يتجه من الشمال إلى الجنوب، ويقطعه قبوان متوازيان يتجهان من الشرق إلى الغرب (شكل رقم١، لوحة رقم ١٠،١١).

ويفضي كامل الضلع الشمالي لدهليز إلى ممرٍ يمتد بطول الضلع الجنوبي لمبنى القلعة، تفتح عليه حجرات الطابق الأرضي لهذا الضلع، وسقفه مسطح من خشب العرعر، وتبلغ مساحة هذا الممر ٣٠٫٦٠×١٫٧٠م.

وفتح على هذا الممر أربعة حجراتٍ تحفان بدهليز المدخل، اثنتان عن يمين الداخل: مساحة الأولى ٨م×٤٫٤٢م سقفت بقبو طولي يتجه من الشرق إلى الغرب بقطعة قبوان متوازيان يتجهان من الشمال إلى الجنوب (شكل رقم١)، ولهذه الحجرة ثلاث نوافذ عرض الواحدة منها ١٫٧٠م، اثنتان تطلان على خارج القلعة، والثالثة تطل على الممر مجاورة لباب الحجرة المتسع بالمقدار ١٫٥٠م.

أما الحجرة الثانية ، فتلاصق الحجرة الأولى، ومساحتها ٧٫٣٠×٤٫٥٥م سقفت بقبو طولي يتجه من الشمال إلى الجنوب يقطعه قبوان متوازيان يتجهان من الشرق إلى الغرب . ولهذه الحجرة أربعة نوافذ: اثنتان في جدارها الشرقي تتسع الواحدة مقدار (١٫٧٥م)، وواحدة في جدارها الجنوبي تتسع بمقدار ١٫٩٠م، وواحدة في جداره الغربي عرضها

(١٣) ابراهيم رفعت، مرآة الحرمين، جـ ١، ص ١٨٣؛ عبد الله بن محمد غازي الهندي، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، مخطوط مصور بمكتبة الحرم المكي الشريف تحت رقم ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، جـ لوحة ٢١٤.

(١٤) سالنامة مكة المكرمة سنة ١٣٠٣هـ ط ٢ (مكة: المطبعة الميرية، د.ت)، ص ١٥٩.

(١٥) انظر ترميمات قلعة لعلع في هذا البحث.

(١٦) مقابلة مع كل من الأستاذ الشيخ محمد سعيد عالم مدير مدرسة اللاسلكي سابقا والأستاذ برعي جاد مدير البرق بالهاتف السعودي، مكة المكرمة. وانظر كذلك ترميمات قلعة لعلع في هذا البحث.

١٠ر١م (لوحة رقم ٢، ١٣) ويصل بين الحجرتين باب عرضه ٨٠ر١م (شكل رقم ٢).

وعن يسار الداخل من الدهليز ممر تفتح عليه حجرتان، مساحة الأولى ٣٥ر٧×٤٤ر٤م سقفت بقبو طولي يتجه من الشرق إلى الغرب، ويقطعه قبوان متوازيان يتجهان من الشمال إلى الجنوب، ولهذه الحجرة ثلاث نواقد عرض الواحدة ٧٥ر١م، اثنتان في جدارها الجنوبي تطلان على خارج القلعة، وواحدة في جدارها الشمالي تطل على الممر مجاورة لباب الحجرة الذي عرضه ٦٥ر١م.

أما الحجرة الثانية فتلاصق الأولى، وبلغت مساحتها ٤٧ر٧×١٠ر٤م سقفت بقبو طولي يتجه من الشمال إلى الجنوب، يقطعه قبوان متوازيان يتجهان من الشرق إلى الغرب، ولهذه الحجرة أربعة نوافذ: اثنتان في جدارها الغربي عرض الواحدة (٧٠ر١م) وواحدة في جداره الجنوبي عرضها ٨٥ر١م وواحدة في جدارها الشرقي عرضها ١٥ر١م، شكل رقم ١، لوحة رقم ١، ١٤).

ويفتح الممر الموصل بين حجرات الضلع الجنوبي على فناء القلعة من جهة دهليز المدخل (لوحة رقم ١٩،١٥)، حيث يمر الداخل إلى الفناء تحت كتلة السلم الصاعد إلى الدور العلوي (لوحة رقم ١٢،١١).

وفناء القلعة مستطيل الشكل تقريباً، مساحته ٥ر١٨×٣٢م تلتف حوله مشتملات القلعة من جميع الجهات عدا الجهة الشرقية المكونة من سورٍ بني بحجر الدبش تتخلله مداميك الطوب الأحمر، كما تتخلله فتحات معقودة سُدت بمداميك الطوب الأحمر كذلك (لوحة رقم ٢٧).

وأول مشتملات الضلع الشمالي غرفة في الركن الشمالي الشرقي من فناء القلعة، مساحتها ٥٨ر٧م×٤٨ر٤م سقفت بسقف مسطح، ويصعد إلى باب هذه الغرفة بثلاث درجٍ ربع دائرية ترتفع عن مستوى أرضية فناء القلعة (لوحة رقم ٢٣)، وللغرفة أربعة نوافذ: اثنتان في جدارها الشرقي عرض الواحدة (٤٠ر١م)، ونافذة في جدارها الشمالي عرضها (٧٠ر١م)، ونافذة في جدارها الغربي عرضها (١م).

ويجاور باب هذه الغرفة سلم «نازل» سقف بعروق العرعر لتخفيف سمك الجدار ثم سقف بقبو ضحلٍ (لوحة رقم ٢٤، ٢٥) ينزل بدرج إلى حجرة تقع تحت مستوى فناء القلعة، وهذه الحجرة لها باب في جدارها الشمالي يفضي إلى خارج القلعة عُقد بعقد نصف دائري، وهو مسدود حالياً بالطوب الأسمنتي (لوحة رقم ٦).

وإلى جوار الغرفة السابق وصفها مساحة غير مسقوفة (لوحة رقم ٢٩) مساحتها ٦م×٨٠ر٤م بها حفرة حدثت نتيجة الأمطار وكشفت عن وجود خزان للماء سقف بقبو نصف دائري لوحة رقم ٢٢).

ثم نصل إلى حجرة مستطيلة مساحتها ٢٠ر١٠×٥م، وبروز مستطيل في ناحيتها الشمالية مقداره ٢م×٥م، وللحجرة أربعة أبواب ثلاثة في جدارها الجنوبي، وباب واحد في جدارها الشرقي عرضه ٧٥ر١م، وعُقدت الأبواب بعقود موتورة (لوحة رقم ٢٣) وللحجرة نافذة واحدة في جدارها الشمالي عرضها ٦٠ر١م وسقفت الحجرة بسقف مسطح.

ويلاصق الحجرة السابقة حجرةٌ مساحتها ١٠ر٥×٥م لها ناقذة في جدارها الشمالي عرضها ٩٠ر١م، وبابها في الجدار الجنوبي عرضه ٧٠ر١م وسقفت الحجرة بسقف مسطح.

ويلاصق الحجرة السابقة غرفة تقع في الركن الشمالي الغربي ، وهي آخر مشتملات الضلع الشمالي، مساحتها ١٥ر٨ × ٤٠ر٤م، لها ثلاث نوافذ اثنتان في جدارها الغربي سعتها ٥٠ر١ وواحدة في جدارها الشمالي عرضها ٩٠ر١م ويقع بابها في الجدار الجنوبي عرضه ٥٠ر١م، وسقفت الغرفة بسقف مسطح (لوحة رقم ٨، ٢٣.

أما مشتملات الضلع الغربي فتتكون من مجموعة من الحجرات تتقدمها مظلة ترتكز على أعمدة عُقدت بعقودٍ وتريةٍ تشرف على الفناء وسقفت بعروق العرعر (لوحة رقم ١٣، ١٨، ٢٠).

وأول مشتملات الضلع الغربي من الجهة الجنوبية حجرة مساحتها ٧٣ر١×٠٩ر٤م مدخلها من ممر الضلع الجنوبي عرضه ٢٠ر١م وليست لها نوافذ.

تلاصقها حجرةٌ مساحتها ٨٥ر٣×٧٥ر٢م مدخلها من ممر الضلع الغربي عرضه ١٥ر١م عُقد بعقد مدبب، ولها نافذةٌ في جدارها الغربي عرضها ٧٥ر٠م وسقفت الحجرة بقبوٍ نصف دائري (شكل رقم١، لوحة رقم ٢١).

وتلاصق الحجرة السابقة مساحة مقدارها ٤٦ر١×٨٠ر٥م سقفت بقبوٍ نصف دائري، ويحتوي سقفها على فتحة أصلية يحتمل أن تكون مدخنة مما يرجح استخدامها مكان للطبخ (لوحة رقم ١٨).

وخامس حجرات الضلع الغربي مساحتها ٤٠ر٣×١٠ر٤م سقفت بقبو ضحل، ولها باب من جهة الممر يتسع بمقدار ٣٠ر١م عقد بعقد نصف دائري، ولها نافذة في ضلعها الغربي عرضها ٧٠ر٠م.

أما الحجرة السادسة فتلاصق الحجرة الخامسة في هذا الضلع مساحتها ١٥ر٥×١٥ر٥م سقفت بقبوٍ ضحل، ولها باب من ناحية الممر عرضه ٣٠ر١م عُقد بعقد ضحلٍ، وللحجرة نافذتان في جدارها الغربي عرضها ٧٥ر٠م.

ويصل بين الحجرتين الخامسة والسادسة باب في الجدار الفاصل بينهما عرضه ٨٠ر١م وهو مسدود حاليا بالبناء.

أما الحجرة السابعة في الضلع الغربي فمساحتها ٥٠ر٣×٦٨ر٣م سقفت بقبو ضحل، ولها باب في جداره الشرقي عرض (١م) عقد بعقد نصف دائري، وليس للحجرة نوافذ (لوحةرقم ١٩).

والجدار الشمالي للحجرة السابعة يحتوي من الخارج على فتحة لخزان ماء عرضها ٦٠×٦٣سم عُقدت بعقد نصف دائري (لوحة رقم ٢٢).

الطابق العلوي

يتشابه الطابق العلوي بالطابق الأرضي لمشتملات قلعة لعلع في الضلعين الجنوبي والغربي، أما الضلع الشمالي فلا يحتوي على طابق علوي (شكل رقم ٢)

كما عُملت تقسيمات غرف الطابق العلوي في الضلع الجنوبي على نسق الطابق الأرضي، بزيادة غرفة واحدة فوق دهليزمدخل القلعة، واستغلت ظلة المدخل في عمل شرفة لهذه الغرفة (لوحة رقم ١) وسقفت الغرف بسقف مسطح من القندل والعرعر وجسور مسلحة حديثا أضيفت للتقوية.

أما الضلع الغربي فاستملت تقسيماته على أربع غرف فقط سقفت سقف مسلح حديث . (لوحة رقم ١٤، ١٥، ١٦، ١٨)

ترميمات قلعة لعلع

من خلال ما تم وصفه للمباني القائمة حالياً، واستناداً للخارطة المؤرخة عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م المعدة باشراف هيئةالأركان الحربية العثمانية، فضلاً عن المعلومات الميدانية التي تم التوصل إليهما، نصل إلى الحقائق الآتية:

اولا: مرحلة التاسيس: ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م

لايوجد نص أو إشارة تدل على أن المبنى المنشأ سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م أزيل تماماً أو أجزاء منه عند تحويل القلعة إلى مستشفى عسكري قبل سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م وعليه يمكن القول بأن التخطيط الوارد في الخريطة هو نفس تخطيط القلعة في مرحلة التأسيس المؤرخة سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م.

ويمكن حصر المباني المتبقية من هذه الفترة فيما يلي:

١ ــ حجرات الطابق الأرضي المستندة إلى الضلع الغربي، وبمقارنة مساحة هذه الحجرات على الطبيعة مع الخريطة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م نجد أنها تتطابق تماما ولا تختلف معها إلا في تحويل فتحة باب الحجرة الواقعة في الركن الجنوب الغربي، والتي تدل الخريطة أن مدخلها يطل على فناء القلعة (لوحة رقم ٢٩) بينما يقع مدخلها حالياً في الممر الواقع عن يسار الداخل إلى القلعة

وبالبحث تبين لنا موقع الباب القديم الذي سُد بمباني مجصصة (لوحة رقم ١٣، ١٤، شكل رقم ١).

كما نجد أن الاختلاف الثاني في الحجرة الواقعة في الشمالي الغربي، حيث وردت في الخريطة بدون فتحة باب، وحاليا لها فتحة باب، وبالبحث وجدنا آثار فتحة بالقرب من المدخل الحالي للغرفة تفضي إلى سرداب يفضي إلى هذه الحجرة (لوحة رقم ١٩).

٢ ـ السور الشرقي للقلعة من أصل البناء المؤرخ سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م تدل الخارطة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م على وجود تقسيمات لحجرات تستند على هذا السور وهي حالياً غير موجودة، ومما يؤكد أن السور الشرقي من أصل البناء الأول للقلعة وجود روابط حجرية لتقسيمات الحجرات التي كانت تستند على هذا السور (لوحة رقم ٤، ٥، ٦، ١٥، ٢٧).

٣ ـ أجزاء من أساس البرج الشمالي الغربي (لوحة رقم ٧).

٤ ـ كامل السور الغربي للقلعة، وحتى ارتفاع الطابق الأرضي فقط (لوحة رقم ٨).

٥ ـ الخزانان الأرضيان في فناء القلعة (لوحة رقم ٢٢، ٢٣).

ثانيا : إعادة البناء والترميم

وقد تم إعادة بناء وترميم أجزاء من القلعة في العهد السعودي في الفترة من عام ١٣٦٣ ـ ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤م، ويمثل هذا ما تم وصفه فيما سبق، إلى جانب إجراء بعض الترميمات الطفيفة التي لم تغير من أساس التخطيط.

وبهذا نصل إلى أن التخطيط الوارد في الخارطة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م يمثل التخطيط الأساسي للقلعة المنشأة سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م أما ماتم في العصر السعودي فيتمثل في إزالة ابراج القلعة الأربعة وبناء حجرات في واقعها مستفيدين من أسس الأبراج، وإضافة طابق علوي في كل من الضلعين الجنوبي والغربي.

قلعة هندي

تاريخ البناء والترميمات

من الثابت أن هذه القلعة بنيت في عهد الشريف غالب بن مساعد[١٧] شريف مكة كما سبق ذكره.

اما عن تحديد السنة التي أُنشئت فيها القلعة، فقد أورد الدحلان تاريخين مختلفين لذلك: الأول، انها أُنشئت سنة ١٢١٥هـ[١٨] ،والثاني ذكر فيه ما نصه[١٩] «وفي السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٢١هـ ـ الموافق ١٠/٩/١٨٠٦م ـ أمر مولانا الشريف أن يبنى له حصن على رأس الجبل المسمى بجبل هندي، وتم بناؤه في عاشر رمضان فحصنه بالرجال والذخائر». وقد اعتمد كل من أتى بعد الدحلان من مؤرخي مكة المكرمة[٢٠] هذا التاريخ أنه سنة إنشاء القلعة وهو عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م.

وعلى الرغم من عدم وجود نصوص صريحة أو ضمنية يمكن من خلالها ترجيح أحد التاريخين السابقين على الآخر إلا أنه يمكن التوفيق بينهما نظراً لقصر المدة الزمنية التي تصل إلى نحو ست سنواتٍ، مما يدفعنا إلى وضع الاحتمالات الآتية:

١ ـ إن تاريخ ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م هو نفس تاريخ إنشاء قلعة لعلع[٢١] ، لذا يحتمل أن الأمر صدر بإنشاء القلعتين، فنفذت قلعة لعلع وتأخر إنشاء قلعة هندي إلى سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م. وهذا الاحتمال أكثر ظهوراً من غيره

---

(١٧) سالنامة سنة ١٣٠٣هـ ص ١٥٩؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، جـ ١، ص ١٨٣؛ عبد الله غازي ، إفادة الأنام، جـ ٣ لوحة ٢١٤.

(١٨) سالنامة سنة ١٣٠٣هـ ص ١٥٩.

(١٩) الدحلان، خلاصة الكلام، ص ٢٩٢.

(٢٠) عبد الله غازي، إفادة الأنام، جـ ٣ لوحة ٢١٤؛ ابراهيم رفعت، مرآة الحرمين، جـ ١، ص ١٨٣؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة، ط ٦ (مكة المكرمة: مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ٥٠٣.

(٢١) انظر تاريخ بناء قلعة لعلع في هذا البحث.

نظراً لوجود عدة شواهد عليه، منها أن صدور الأمر بإنشاء عدة قلاع ثم إنشاء قلعة واحدة أمر غير مستغرب خاصة في الفترة العثمانية التي بنيت فيها هذه القلعة وأمثلتها كثيرة منها على سبيل المثال أن السلطان سليمان القانوني[٢٢] أمر في عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م بإنشاء عدة قلاع في طريق الحاج الشامي ولم تنفذ في هذا التاريخ إلا قلعة تبوك فقط.[٢٣]

٢ ـ إن التاريخ الذي نص عليه الدحلان في الخلاصة، وهو سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م يتضمن إنشاء حصن على جبل هندي، وقد يكون هذا الحصن أحد أبراج قلعة هندي وليس كامل القلعة.

٣ ـ إن كلاً من قلعة لعلع وقلعة هندي بدأ إنشائهما في سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م ولم تستكمل قلعة هندي بنائها لسبب أو لآخر مما دفع الشريف غالب بن مساعد أن يصدر أمراً آخر سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م ببناء حصن على جبل هندي وهو أحد أجزاء القلعة كما ورد في الاحتمال الثاني.

وعلى كلٍ، فإن خريطة مكة المكرمة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م قد احتفظت لنا بتخطيط قلعة هندي المنشأة في عهد الشريف غالب بن مساعد حيث ورد فيها ما نصه (هندي قلعة سنك هيئت عتيقة مرتسم افقي سيدر) أي رسم أفقي لقلعة هندي في هيئتها العتيقة (خارطة رقم ٢، لوحةرقم ٣٠).

وفي سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م انتهى والي الحجاز عثمان نوري باشا[٢٤] من إعادة بناء قلعة هندي بعد خرابها بشكل يستوعب طابوراً[٢٥] واحدا من العساكر.[٢٦] وقد احتفظت لنا خارطة مكة المكرمة المؤرخة عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م بتخطيط القلعة حيث ورد بها مانصه (هندي قلعة سنك قشله محول هيئت جديدة مرتسميدر) أي رسم لقلعة هندي في هيئتها الجديدة بعد تحويلها من قشلة.

وينص الغازي[٢٧] (أنه في يوم الاثنين ٨ صفر ١٣٣٥هـ/١٩١٦م انتهى ترميم البناء الذي خصص للقسم الابتدائي الراقي والقسم الثانوي من المدرسة الخيرية والهاشمية الجديدة على الجبل الهندي وافتتحت هذه المدرسة من اليوم المذكور لتقييد أسماء الطلاب)، وهذا التاريخ يقع في فترة حكم الشريف الحسين بن علي[٢٨] لمكة المكرمة.

ثم عادت القلعة تؤدي دورها العسكري بعد دخول الملك عبد العزيز آل سعود مكة المكرمة سنة

---

(٢٢) ولد السلطان سليمان القانوني في غرة شعبان سنة ٩٠٠هـ/ ٢٧/٤/١٤٩٥م، وتولى الحكم بعد وفاة أبيه السلطان سليم الأول سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، واستمر في الحكم إلى وفاته في سنة ٩٧٤/ ١٥٦٦م، وقد تقدمت الفتوحات في أيامه تقدماً عظيماً لم تصل إليه بعده، انظر محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، ط ٢ (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ص ١٩٨ ـ ٢٥٢.

(٢٣) انظر هشام عجيمي، «قلعة تبوك»، **مجلة جامعة ام القرى للبحوث العلمية**، العدد الثاني، السنة الأولى (١٤٠٩هـ)، ص ص ١٤١ ـ ٣؛ نقلا عن ابن العباس أحمد بن يوسف الدمشقي الشهير بالقرماني (ت ١٠١٩هـ)، **اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ** (بيروت: عالم الكتب، د.ت)، ص ٤٤٠.

(٢٤) كان عثمان نوري باشا والياً على اليمن قبل ولايته على مكة، ومن صفاته الصلاح والتقوى والورع والكرم، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة: عبد الواسع اليماني، **تاريخ اليمن**، ط ٤ (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ)، ص ص ٢٦٨ ـ ٩.

(٢٥) الطابور: فرقة من الجيش عددها الف جندي في الجيش العثماني.

(٢٦) محمد امين المكي، **خلفاي عظام عثمانية حضرتنك حرمين شريفينيدكي آثار مبرورة ومشكورة**، ترجمة عن التركية لم تنشر للدكتور سعد الدين أونال (همايونلرندن، ١٣١٨هـ)، ص ١٠ من الترجمة.

(٢٧) عبد الله غازي، **افادة الأنام**، جـ ٤، لوحة ١٨٣.

(٢٨) تولى الشريف حسين بن علي إمرة مكة المكرمة عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، وقام بالثورة العربية على الدولة العثمانية عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥ ـ ١٩١٦م، وتمكن من طرد العثمانيين من الحجاز، واستمر في الحكم إلى أن دخلت القوات السعودية الطائف عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، ومنها دخلت مكة المكرمة بعد تنازل الحسين بن علي عن الحكم لابنه علي الذي قاوم الجيش السعودي في جدة إلى عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م حيث تم تسليم زمام الحكم للمغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، انظر الشريف مساعد بن منصور آل عبد الله بن سرور، **جداول أمراء مكة وحكامها منذ فتحها إلى الوقت الحاضر** (مكة المكرمة: مطبعة النهضة الحديثة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص ٤٦.

١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، كما أفاد أحد المعاصرين[٢٩] في رواية عن أحد جنود[٣٠] الملك عبد العزيز أنها استخدمت مخزنا لحفظ الأسلحة في تلك الفترة.

ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد حُولت القلعة إلى مركز للإذاعة، ومدرسة لتحضير البعثات ومعهد لإعداد المعلمين. وفي سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م أُنشئت في أحد أجزاء القلعة أول كلية في المملكة العربية السعودية وهي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.[٣١]

الوصف المعماري: (شكل رقم ٣، لوحة رقم ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢)

لم يتبق من قلعة هندي أي جزء من أجزائها القديمة، ماعدا القاعدة التي تسوي المنطقة التي انشئت عليها القلعة سابقاً، والتي أُنشئت عليها مدرسة حاليا. وقد غلفت هذه القاعدة حاليا بطبقة من الأسمنت المسلح أخفت المعالم القديمة لها.

هذا وقد سبقت الإشارة إلى وجود خارطة مؤرخة سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م اشتملت على تخطيطين لقلعة هندي: الأول، عند إنشائها سنة ١٢١٥ ـ ١٢٢١هـ/ ١٨٠٠ ـ ١٨٠٦م، والثاني، في عهد والي الحجاز العثماني عثمان نوري باشا سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م وعليه يمكن تتبع مراحل تخطيط القلعة كما يلي:

تخطيط قلعة هندي عند إنشائها

يأخذ تخطيط القلعة الشكل المستطيل تقريباً، زودت بأربعة أبراج في أركانها مختلفة المساحة، ويأخذ تخطيط كل برجٍ من أبراجها الشكل الدائري المضلع من الداخل والخارج.

وتصل الأسوار بين أبراج القلعة الأربعة، واحتوى التخطيط على طابقين وممر للسور يصل بين أجزاء القلعة، كما احتوت الأبراج على طابقين أيضا، ويصل إلى ممرات الأسوار سلمان: يقع الأول عند البرج الشمالي الشرقي، والثاني عند البرج الجنوبي الغربي (شكل رقم ٣).

وزودت أبراج القلعة في طابقها الثاني بفتحات للمدافع وزعت كالآتي: البرجان الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي احتوى كل منهما على خمس فتحات للمدافع، كا احتوى البرجان الجنوبي الشرقي والشمالي الغربي على أربع فتحات.

أما مدخل القلعة فيقع في السور الشرقي، ويحتمل أن إدارة القلعة تحتل الغرفة الواقعة فوق المدخل، وهي غرفة مستطيلة الشكل تحتل غالب مساحة السور الشرقي، ومدخلها من ممر السور في جدارها الغربي وزودت بثلاث نوافذ.

ويحتمل أن المساحة المجاورة للبرج الجنوبي الشرقي كانت حماماً للطابق العلوي من القلعة.

وعلى الرغم من أن القلعة احتوت على ممراتٍ للأسوار في جهاتها الأربع، ووجود جدارٍ سائرٍ لهذه الممرات، إلا أنه يلاحظ عدم وجود فتحات للمزاغل في الجدار الساتر للمرات (لوحة رقم ٣١).

تخطيط قلعة هندي في عهد عثمان نوري باشا

إن ترجمة النص الوارد على تخطيط قلعة هندي في عهد عثمان نوري باشا والى الحجاز العثماني يؤكد أنها حُولت من قشلة إلى قلعة، وهذا يعني أن القشلة القديمة لم تهدم بالكامل بل أجري عليها تعديلات وإضافات في المساحة نتج عنها التخطيط الجديد للقلعة كما هو مثبت.

وبمقارنة تخطيط القشلة القديمة[٣٢] مع تخطيط

---

(٢٩) الأستاذ خالد السعد، مدير مدرسة عرفات المتوسطة والتي تحتل المدرسة حاليا موقع القلعة، ١٤١٢هـ.

(٣٠) هو الشيخ محمد ابراهيم الشايع، أحد جنود الملك عبد العزيز الذين تولوا حراسة القلعة.

(٣١) من مقابلة مع الشيخ عمر غزاوي أحد المسنين المعاصرين لدخول الملك عبد العزيز لمكة المكرمة سنة ١٣٤٣هـ.

(٣٢) من المحتمل أن المهندس عند توقيعه تخطيط قشلة هندي على الخريطة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ/ قد قلب اتجاه الشمال إلى الجنوب، وهذا الاحتمال له شواهد كثيرة سنوردها عند تتبع تخطيط القلعة في عهد عثمان نوري باشا والمتفقة مع الواقع الجغرافي.

القلعة بعد التحويل يتضح أن الأجزاء القديمة التي أبقي عليها هذا الوالي تتركز في البرجين الواقعين في الجزء الشرقي من القلعة، وهدم الطابق العلوي منهمـا.

بعد هدم الطابق العلوي من الجزء الشرقي من القشلة القديمة ظهر مدخل القلعة كما ورد استنتاجا من الخارطة، كما ظهر الطابق الأرضي للبرجين الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي، وعدم احتوائهما على فتحات للمدافع.

أما الأجزاء التي تمت إضافتها في عهد الوالي عثمان نوري باشا على تخطيط القشلة القديمة فيتمثل في الآتي:

١ ـ تعديل استطالة فناء القشلة القديمة وذلك بعمل حجرتين مستطيلتي المساحة، يفصل بينهما ممر. وبذلك تحول فناء القشلة القديمة إلى حجرتين تستوعب طابوراً من الجنود.

٢ ـ إنشاء سورٍ للقلعة غير منتظم الأضلاع يلتف حول القشلة القديمة وإضافة مساحات كبيرة للقلعة الجديدة، أهمها الفناء الجديد الواقع شمالي القشلة القديمة، كما ارتكزت على السور الجديد من الداخل عدة مرافق تتمثل في عدة حجرات، ثلاث حجرات في الجهة الشرقية واربع حجرات في الجهة الشمالية، بالإضافة إلى مجموعتين من الحمامات: أربعة منها في السور الشرقي، وأربعة عشر حماماً في السور الغربي.

٣ ـ بعد تحويل القشلة إلى قلعةٍ في عهد هذا الوالي تولدت عدة مستويات نتيجة التوسع في المساحة مما الى ضروة التغلب على هذه المستويات عن طريق إحداث تسع سلالم وزعت داخل مبنى القلعة الجديد عل النحو الآتي: الأول عند مدخل القلعة في الجهة الجنوبية الشرقية، وهو يؤدي إلى مستوى مدخل القشلة القديمة بعد تحويلها وهو في مستوى فناء القلعة الجديدة، أربعة سلالم في السورين الشرقي والغربي تصعدان إلى مجموعتي الحمامات والغرف. أما السلالم الأربعة الباقية فيقع اثنان منها في نهاية الممر الفاصل بين الحجرتين المحولتين من بناء القشلة القديمة واثنان ملاصقة لسورها من الجهة الغربية من الخارج (لوحة رقم ٣١).

٤ ـ إحداث مدخل ثانٍ للقلعة في السور الشمالي، واستمر وجوده إلى العصر السعودي كما سيأتي.

تخطيط قلعة هندي في العهد السعودي

ينص الصك[٣٣] الصادر لقلعة هندي المؤرخ ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م أن القلعة تحتوي على مباني قديمة وحديثة ومساكن سفلية وعلوية ومنافع شرعية مما يؤكد أن ما تم إنشاؤه في سنة ١٢١٥ ـ ١٢٢١هـ/ ١٨٠٠ ـ ١٨٠٦م وسنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م ـ كما سبق وصفه وتتبعه واستنتاجه ـ مازال باقياً حتى تاريخ صدور الصك. وفضلا عن ذلك، فقد قامت أمانة العاصمة المقدسة بتكليف من إدارة التعليم بمكة المكرمة المبني على حكم المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة بعمل تخطيط لموقع القلعة (شكل رقم ٣)

وبمقارنة هذا التخطيط بمخطط القلعة بعد تحويلها عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م نصل إلى الحقائق الآتية:

١ ـ إن باب القلعة الواقع في الجهة الشمالية يتطابق مع المدخل الحالي.

٢ ـ إن أساسات أضلاع أسوار القلعة الخارجية تتطابق مع ماهو موجود حالياً على الطبيعة.

٣ ـ أن الأجزاء المتبقية من القلعة القديمة (١٢١٥ ـ ١٢٢١هـ/ ١٨٠٠ ـ ١٨٠٦م) قد بقيت إلى سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، ثم أزيلت تلك المباني.

المواد المستخدمة وأساليب البناء

لم يتبق من بناء قلعة هندي إلا قاعدة البناء

---

(٣٣) الصك الصادر لقلعة هندي من المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة برقم ٧٨ وتاريخ ١٣/٧/١٣٨٨هـ.

كمـا سبـق بيانه.

أما الجدران القائمة في قلعة لعلع سواء القديمة منهـا أو المحـدثة في الترميمات فإنها قد بنيت من الحجـر البازلتي الدبشي، وهذا النوع متوافر بكثرةٍ حيث يستخرج من كافة جبال مكة المكرمة، والملاحظ على هذه الأحجـار أنها هذبت نصف تهذيب تقريباً واتبع في بنائها ما يشبه المداميك (لوحة رقم ٦، ٧، ٨).

وكسيت أغلب المبـاني القائمة لقلعة لعلع بطبقة من المـلاط سواء في الأجـزاء القديمة منها كالجزء الخارجي من السور الغربي (لوحة رقم ٩) أو الأجزاء المـرتكزة على السور الغربي من الداخل (لوحة رقم ٢٤، ٢٥، ٢٦) أو الأجزاء الحديثة الترميم والمضافة على مبنى القلعة (لوحة رقم ١، ٢، ٣)، التي عملت قبل استخدام القلعةمقراً لإدارة اللاسلكي.

وإلى جانب الحجـر البـازلتي الدبشي، استخدم الطوب الأحمر المحلي في بعض أجزاء القلعة كما في الأجـزاء العليا من السور الشرقي (لوحةرقم ٤، ٥) وأجزاء من السور الشمالي (لوحة رقم ٦، ٧).

ونـظرا لوقـوع قلعـة فلفل على قمة جبل لعلع ، أضطر المعمار لعمل دعائم حجرية للمباني الواقعة في المنـاطق المنحدرة كما في السور الغربي (لوحة رقم ٨، ٩) لخلق مستـوى أفقي سليم يمكن من إنشاء المشتملات الداخلية عليه.

كما أن موقع القلعة ووظيفتها العسكرية الأمنية أجبرت المعمار على بناء جدران سميكة بلغ سمكها في بعض المواقع ٢٠ر١م (لوحة رقم ١، ٢) إلا أن صعوبة المـوقـع الذي أدى إلى سمك الجدران كان مشكلة بالنسبة للمعمار الذي لابد أن يوفر الأحجار اللازمة للبنـاء، إلا أن المعمـار استـطاع التغلب على تلك المشكلة بأسلوبـين: الأول، عمـل الدعامات لتقوية السور في الجزء الغربي (لوحة رقم ٨، ٩) وبهذا لا يحتاج إلى زيادة سمك حائط السور وفي الوقت نفسه تسـاعـد هذه الدعائم على متانة السور. والأسلوب الثاني، استخدام العقود لتخفيف سمك الجدران كما يظهر في السور الشرقي من الخارج (لوحة رقم ٤، ٥).

التحليل والمقارنة

إن موقع كل من قلعتي لعلع وهندي وتخطيطهما لجديرة بالتحليل والمقارنة بما عرف من قلاع في العالم الإسـلامي في هذه الفتـرة، ذلك أن هاتين القلعتين تمثـلان نمـوذجين ممتازين لهذا النوع من المباني العسكرية في مكة المكرمة في العصر العثماني.

الموقـــع

سبقت الإشـارة إلى أن كلا من قلعة لعلع وقلعة هندي بنيتا على مرتفعين جبليين، وهذا الموقع في حد ذاتـه يمثل السياسة المتبعة في الدولة العثمانية في اختيار مواقع بناء القلاع في مكة المكرمة وهي اختيار المـرتفعـات وقمم الجبـال لبنـاء القـلاع وبقيـة التحصينات عليها، على عكس السياسية المتبعة قبل العصر العثمـاني والتي كانت لا تسمـح لولاة مكة المكـرمة ببناء أي نمط من التحصينات على الجبال والمرتفعات بمكة.[٣٤]

ومن ناحيةٍ أخرى، فإن اختيار موقع كلٍ من قلعة لعلع وقلع هندي اختيار تحصيني موفق، فقلعة لعلع تحمي المدخل الشمالي لمكة المكرمة وهو مدخل منطقة المعـلاه والحجـون، أما قلعة هندي فتحمي المدخل الغـربي عنـد منطقة الشبيكة وحـارة البـاب كمـا سبق ذكـره.[٣٥]

وتتشابه كل من قلعة لعلع وقلعة هندي من حيث المـوقـع مع مجموعة كبيرة من القلاع العثمانية في الحجـاز كقـلاع طريق الحـاج المصري مثـل قلعة المـويـلح[٣٦] ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م التي بنيت على تلة مرتفعـة، وكذلك برج ضبا العثماني[٣٧] ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م الذي بني على ربوة مرتفعة تشرف على البحر

(٣٤) هشام عجيمي، «التحصينات الحربية لمكة المكرمة حتى نهاية العصر المملوكي، «بحث معد للنشر، النتائج.

(٣٥) انظر الموقع وأسباب البناء في هذا البحث.

(٣٦) هشـام عجيمي، «قلعـة المويلح»، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة أم القرى ١٤٠٣هـ، ص ١٢

(٣٧) هشـام عجيمي، «قـلاع الأزنم والوجه وضبا: دراسة معمارية حضـاريـة»، رسـالة دكتـوراه غير منشـورة، جامعـة أم القرى ١٤٠٧هـ، ص ٩٥، وثيقة رقم (٢)، ص ص ١٣١ ـ ١٩٦.

الأحمر من ناحية الغرب، وعلى مدينة ضبا من الشمال والجنوب والشرق.

كما تتشابه القلعتين موضوع البحث من حيث الموقع مع قلعة تبوك[٣٨] ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م إحدى القلاع العثمانية الواقعة على طريق الحاج الشامي. كما أن القلاع العثمانية في جنوب الحجاز في منطقة عسير بنيت أيضا في مناطق حصينة مرتفعة كقلعة «الدقل» ١٣٣٢ ـ ١٣٣٧هـ/ ١٩١٢ ـ ١٩١٨م، وقلعة «شعار» ١٢٩٠ ـ ١٣٢٥هـ/ ١٨٧٣ ـ ١٩٠٧م.[٣٩]

ولا شك أن الأمثلة السابقة تؤكد استمرار سياسة العثمانيين في اختيار المناطق المرتفعة لبناء القلاع في منطقة الحجاز، وهذا الاختيار مبني على أسس حربية صرفة نفذه العثمانيون في قلاع الأناضول بشكل واضح كما في قلعة رومِلي حصار ١٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م[٤٠]، وقلعة شنك[٤١] ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م، ومعظم القلاع العثمانية في الأناضول[٤٢].

التخطيط

على الرغم من بناء كل من قلعة لعلع وقلعة هندي على مرتفعين إلا أن الشكل العام لتخطيط كل منهما قد أخذ الشكل التربيعي شبه المنتظم تدعمه الأبراج الركنية (شكل رقم ١، ٣ لوحة رقم ٢٩، ٣٠)

وهذا الأسلوب في التخطيط بشكله العام مألوف في معظم القلاع العثمانية في الحجاز كما في قلعة المويلح[٤٣] ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م وقلعة الوجه ١٠٢٥هـ[٤٤] أو قلعة الوجه ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م الواقعتان في طريق الحاج المصري، وقلعة تبوك ٩٦٧هـ[٤٥]/ ١٥٥٩م الواقعة على طريق الحاج الشامي. كما نلاحظ ذلك في التحصينات العثمانية في منطقة عسير كما في قلعتي «الدقل» و «شعار».[٤٦]

ونجد مثالاً لهذا التخطيط في الأناضول كما في قلعة شنك ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠[٤٧].

وقد استطاع المعمار أن ينفذ هذا الشكل في قلعة لعلع بأن يستغل معظم مساحة قمة المرتفع من ناحية وعمل جدران سميكة مدعمة من الخارج بدعائم عرضية وطولية في المناطق المنخفضة كما يظهر في السور الغربي من الخارج (لوحة رقم ٨، ٩) أما في السور الغربي فنلاحظ أنه استطاع أن يتغلب على شدة انحدار المرتفع بأن جعل سمك الجدران أكثر من متر واحد مما دفعه إلى عمل دخلات معقودة في نهايتها العليا على مستويين (لوحة رقم ٤، ٥) للتقليل من استعمال الأحجار في البناء مع زيادة ارتفاع السورين الشرقي والغربي عنهما في السورين الشمالي والجنوبي (لوحة رقم ١، ٢، ٤، ٥، ٧)

أما في قلعة هندي فيبدو أن الوالي عثمان نوري باشا عند إصلاحه وترميمه وإضافاته في قلعة هندي أضطر إلى عمل جدارين من الناحية الغربية والجنوبية لخلق مستوى أفقي سليم ينشيء عليه المشتملات الخارجية من مبنى القلعة (شكل رقم ٣).

ومن حيث توزيع المشتملات من الداخل في كل من قلعة لعلع وقلعة هندي، فإننا نلاحظ نموذجين

---

(٣٨) عجيمي، **قلعة تبوك**، ص ص ١٣١ ـ ١٩٦.

(٣٩) عبد المنعم رسلان، «بعض استحكامات منطقة عسير الحربية في العهد العثماني»، **مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي بجامعة أم القرى**، العدد السادس (١٤٠٣هـ)، ص ص ٣٧٩ ـ ٤٢٨.

(٤٠) Ekrem Hakki Ayverdi, *Osmanli Mimarisinde ilk devri* (Istanbul: Fatih Cemiyeti, Baha Matbaasi, 1976), cild 5, sehife 450.

(٤١) Ekrem Hakki Ayverdi, *Ilk 250 senenin Osmanli Mimarisi* (Istanbul: Fatih Cemiyeti NO: 72, Baha, Matbaasi, 1979), sehife 158, 159.

(٤٢) يستشف ذلك من خلال استعراض مواقع قلاع الأناضول وحول هذا انظر:

Nazmi Sevgen, *Anadolu Kaleleri* (Ankara: Dogusltd sirketi Matabaasi, 1959), 1. Cilt, sckiller.

(٤٣) عجيمي، «قلعة المويلح»، المسقط الأفقي للقلعة.

(٤٤) علي غبان، «قراءة جديدة لنقش قلعة الزريب بالوجه»، **مجلة كلية الآداب بجامعة الملك سعود**، المجلد الخامس، العدد الأول (١٤١٣هـ)، ص ٣٠٠.

(٤٥) عجيمي، «قلعة تبوك»، المسقط الأفقي للقلعة.

(٤٦) عبد المنعم رسلان، «بعض استحكامات منطقة عسير الحربية»، تخطيط رقم ١، ٢.

(٤٧) Ekrem Hakki Ayverdi, *Ilk 250 senenin Osmanli mimarisi,* sehife 158.

مختلفين: في قلعة لعلع تستند الحجرات والغرف على الأسوار من الداخل. وهي تتماثل في ذلك مع قلاع طريق الحاج المصري والشامي ولانجد مثالاً لذلك في قلاع الأناضول مما يوحي بأنه أسلوب مستمد من القلاع المملوكية في طريق الحاج المصري كقلعة نخل ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، وقلعة العقبة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، وقلعة الأزنم ٩١٦هـ/ ١٥١٠م.[٤٨]

أما في قلعة هندي فإننا لا نعرف تفصيلاتها الداخلية فسواء التي تمت عند الإنشاء سنة ١٢١٥ ـ ١٢٢١هـ/ ١٨٠٠ ـ ١٨٠٦م أو التي أحدثها الوالي عثمان نوري باشا سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م إلا أنه يستنشف من خلال خريطة الموقع العام (شكل رقم ٣) لقلعة هندي سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م أنها كانت مخصصة لإقامة الجند ثم جرت إضافات سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م تخدم مبنى القلعة وهذا الأسلوب في التخطيط العام هو الأسلوب العثماني المتبع في القلاع العثمانية في الأناضول، حيث نجد مبنى ضخم يتوسط مبنى القلعة متعدد الطوابق يستخدم لإقامة الجنود وإدارة القلعة، وأبراج موزعة على الأسوار متعددة الطوابق تستخدم لإقامة الجنود أيضا كما نلاحظ ذلك في قلعة شنك (شكل رقم ٦) ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م على سبيل المثال.

وهذا الأسلوب من التخطيط نجد له مثالين في الحجاز، حيث نفذ في كل من قلعة «شعار» (شكل رقم ٤) وقلعة «الدقل» (شكل رقم ٥) في منطقة عسير. وبهذا تكون قلعة هندي ثالث الأمثلة لهذا الأسلوب من تخطيط القلاع العثمانية في الحجاز.

خاتمـــــة

تتلخص أهم النتائج التي توصل إليها الباحثان في الآتي:

من حيث الموقع: تقع قلعة لعلع على قمة جبل لعلع المتفرع من جبل قعيقعان وهي بموقعها هذا تحمي المدخل الشمالي لمدينة مكة المكرمة جهة المعلاة والحجون. أما قلعة هندي فتقع على قمة هندي المتفرعة من جبل قعيقعان أيضا وهي تحمي المدخل الغربي لمدينة مكة المكرمة جهة الشبيكة وحارة الباب.

ويرجع بناء كلٍ من قلعة لعلع وقلعة هندي إلى سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م، في فترة الشريف غالب بن مساعد التي امتدت فترة حكمه من ١٢٠٢ ـ ١٢٢٨هـ/ ١٧٨٧ ـ ١٨١٣م، وكان بناؤهما ضرورة حتمية في فترة الصلح المبرمة بين الشريف غالب بن مساعد والإمام سعود بن عبد العزيز سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م، ليحافظ الشريف غالب على مركزه وحكمه في مكة المكرمة.

وقد حُولت قلعة لعلع إلى مستشفى عسكري حوالي سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م ولم يتأثر تخطيطها بهذا التحويل. ورممت في العصر السعودي في الفترة من ١٣٦٣ ـ ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤م لإعدادها مركزاً للبرق ومدرسة لتعليم طلاب إدارة اللاسلكي. وتتركز المباني المتبقية من سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م في أجزاء من أساس البرج الشمالي الغربي، وكامل السور الغربي وحجراته، والخزانان الأرضيان الواقعان في فناء القلعة.

أما قلعة هندي التي لم يتبق من مبانيها سوى القاعدة المسوية لقمة الجبل، فإن إحدى الوثائق المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م احتفظت لنا بتخطيط القلعة المنشأة سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠ ـ ١٨٨١م، فضلا عن تخطيطها بعد إصلاحها وإضافة أجزاء أخرى اليها في عهد والي مكة العثماني عثمان نوري باشا سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م. وأجري ترميم على قلعة هندي في عهد الشريف الحسين بن علي سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م لإعدادها مدرسة للقسم الابتدائي الراقي والقسم الثانوي من المدرسة الخيرية والهاشمية. أما في العهد السعودي فقد استخدمت بادىء الأمر مخزناً

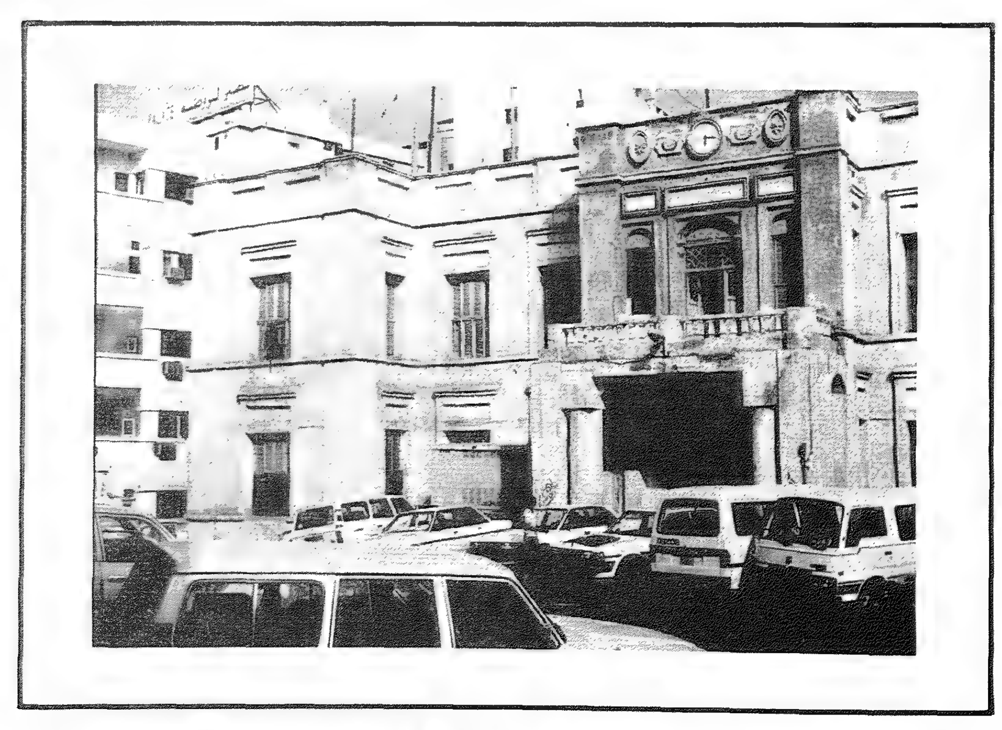
(٤٨) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، د. ت)، ص ص١٣٥، ١٣٦، ١٥٠ ـ ١٥١؛ عبد المنعم عبد العزيز رسلان، «الأزنم خانا وبرجا»، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي بجامعة أم القرى، العدد الرابع (١٤٠١هـ)، ص ٣٦٧.

للسلاح في فترة دخول الملك عبد العزيز مكة المكرمة سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٤٤م، ثم حولت إلى مركز للإذاعة ومـدرسة لتحضير البعثات ومعهد لإعداد المعلمين، وفي سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م أنشئت في أحد أجزائها أول كليـة في المملكـة العـربية السعودية وهي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.

هذا وقـد تأثـرت كلٌ من قلعة لعلع وقلعة هندي بالبيئـة التي أُنشئت فيهـا حيث استخـدم الحجر البازلتي الدبشي والطوب الأحمر المحروق.

وأسفـر التحليل لكلٍ من قلعة لعلع وهندي من حيث المـوقع والتخطيط ومقارنته ببقية قلاع العالم الإسلامي أن موقعي القلعتين يثبت استمرار سياسة العثمانيين في اختيار قمم الجبال لبناء تحصيناتهم الحـربية سواء في مكة المكرمة أم في الحجاز أم في بعض طرق الحاج أم في مصر أم في آسيا الصغرى، وذلك على عكس سيـاسـة الحكـومات التي سبقت العثمانيين في حكم مكة المكرمة التي اتبعت سياسة عدم السماح لأشراف مكة ببناء أي نوع من أنواع التحصينات على قمم الجبال والمرتفعات.

أما من حيث التخطيط فيشكل تخطيط القلعتان عند إنشائهما التخطيط المألوف في القلاع الحجازية وهـو الشكـل التربيعي المدعم بالأبراج في الأركان بصفةٍ عامةٍ. أما تخطيط قلعة هندي بعد الإضافات التي اضيفت سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م في عهد الوالي عثمان نوري باشا، فهو يتبع الشكل الغير المنتـظم لتخـطيـط القلاع وبذلك تعتبر ثالث أمثلة القـلاع العثمانية في الحجاز التي نفذت على هـذا الشكـل الغـير المنتظـم وهـي بذلـك تشـابه قـلاع الأناضـول .

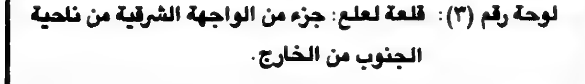


لوحة رقم (١): قلعة لعلع: الواجهة الجنوبية، ويظهر مدخل القلعة وحجرة الركن الجنوبي الغربي من الخارج والتي كان يقوم مكانها البرج الجنوبي الغربي.



لوحة رقم (٢): قلعة لعلع: الواجهة الجنوبية، وتظهر الحجرة الجنوبية الشرقية من الخارج والتي كان يقوم مكانها البرج الجنوبي الشرقي.





لوحة رقم (٣): قلعة لعلع: جزء من الواجهة الشرقية من ناحية الجنوب من الخارج.



لوحة رقم (٤): قلعة لعلع: السور الشرقي من الخارج، وتظهر العقود المخففة لسمك الجدران



لوحة رقم (٥): قلعة لعلع: السور الشرقي من الناحية الشمالية الشرقية من الخارج.



لوحة رقم (٦): قلعة لعلع جزء من الواجهة الشمالية من الخارج.



لوحة رقم (٧): قلعة لعلع: الواجهة الشمالية من الخارج.



لوحة رقم (٨) قلعة لعلع الواجهة الغربية من الخارج، وتظهر سواند الأسوار المتبقية من البناء القديم.

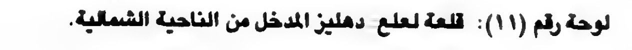


لوحة رقم (٩): قلعة لعلع: الواجهةالغربية من الخارج، من الناحية الشمالية الغربية.



لوحة رقم (١٠): لقطة لعلو دهليز المدخل ويظهر اسلوب التسقيف





لوحة رقم (١١): لقطة لعلو دهليز المدخل من الناحية الشمالية.



لوحة رقم (١٢): قلعة لعلع: الممر الواقع على يمين الداخل من دهليز القلعة.



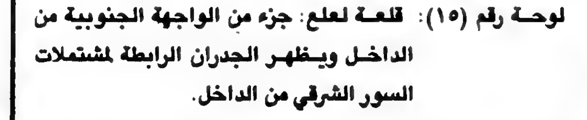


لوحة رقم (١٣): قلعة لعلع: .الممر الواقع على يسار الداخل من دهليز القلعة.



لوحة رقم (١٤): قلعة لعلع: الواجهة الجنوبية من الداخل.





لوحة رقم (١٥): قلعة لعلع: جزء من الواجهة الجنوبية من الداخل ويظهر الجدران الرابطة لمشتملات السور الشرقي من الداخل.



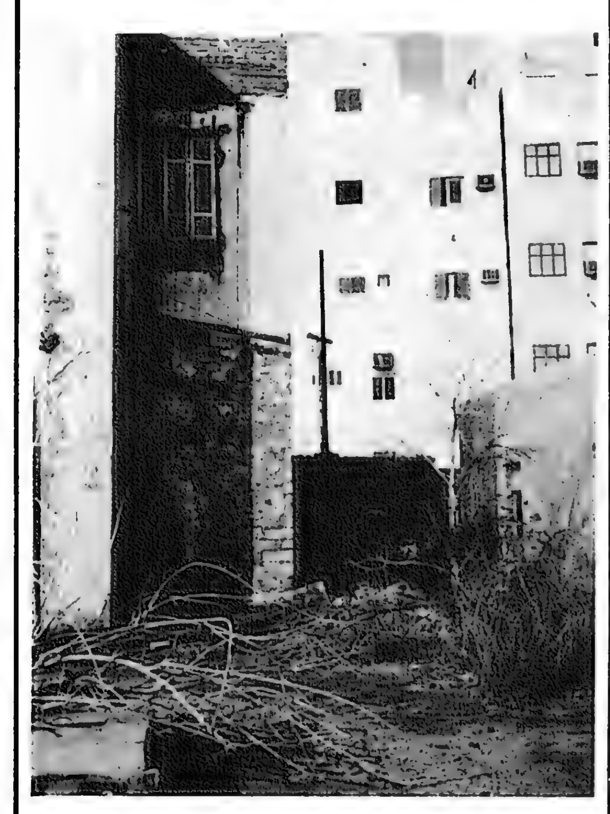
لوحة رقم (١٦): قلعة لعلع: السلم الصاعد إلى الطابق العلوي في الضلع الجنوبي، وتظهر طريقة بنائها وتسقيف بيت الدرج.

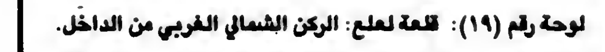


لوحة رقم (١٧): قلعة لعلع: الضلع الجنوبي من الداخل، ويظهر الممر المفضي إلى فناء القلعة من دهليز المدخل.



لوحة رقم (١٨): قلعة لعلع: الواجهة الغربية من الداخل.





لوحة رقم (١٩): قلعة لعلع: الركن الشمالي الغربي من الداخل.



لوحة رقم (٢٠): قلعة لعلع: الممر الواقع امام مجموعة حجرات الضلع الغربي وتظهر العقود المحمولة على الاعمدة والمطلة على فناء القلعة.



لوحـة رقم (٢١): قلعة لعلع: احدى حجرات الدور الارضي في الضلع الغربي، ويظهر أسلوب التسقيف بالقبوات.



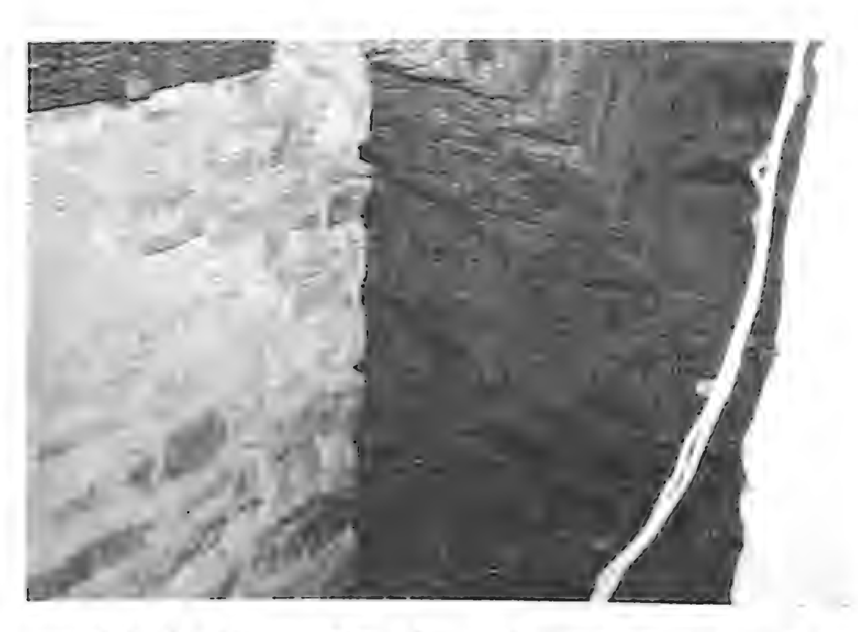
لوحة رقم (٢٢): قلعة لعلع: فتحة خزان الماء في الضلع الغربي.



لوحة رقم (٢٣): قلعة لعلع: الواجهة الشمالية من الداخل.



لوحة رقم (٢٤) قلعة لعلع فتحة السلم النازل إلى حجرة الركن الشمالي الشرقي.



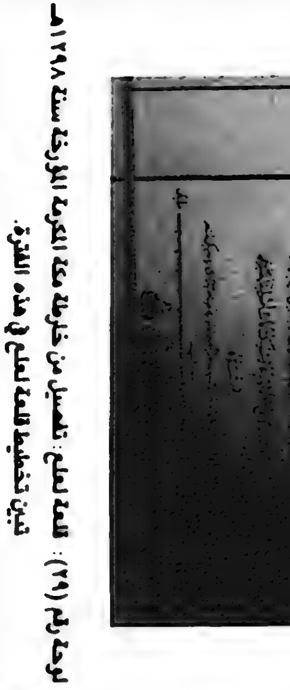
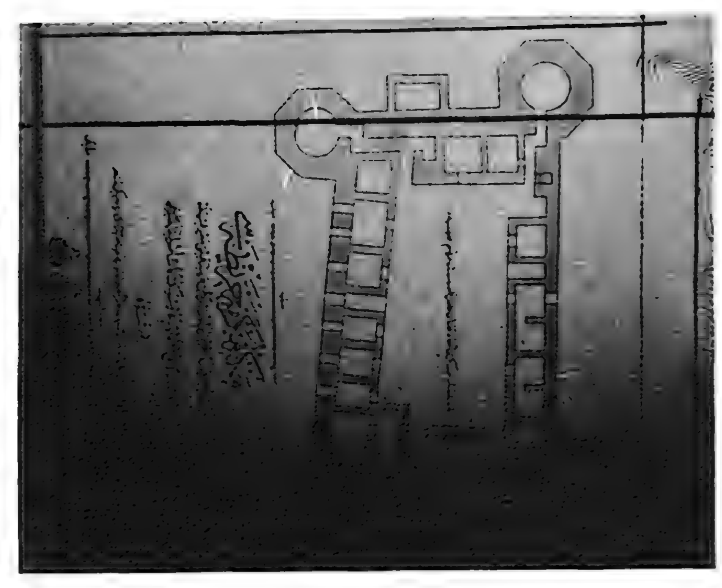
لوحة رقم (٢٥): قلعة لعلع أسلوب تسقيف وبناء السلم النازل إلى حجرة الركن الشمالي الشرقي.



لوحة رقم (٢٦): قلعة لعلع: اسلوب تسقيف خزانن الماء الذي كشف عنه انهيار ناتج عن مياه الأمطار.



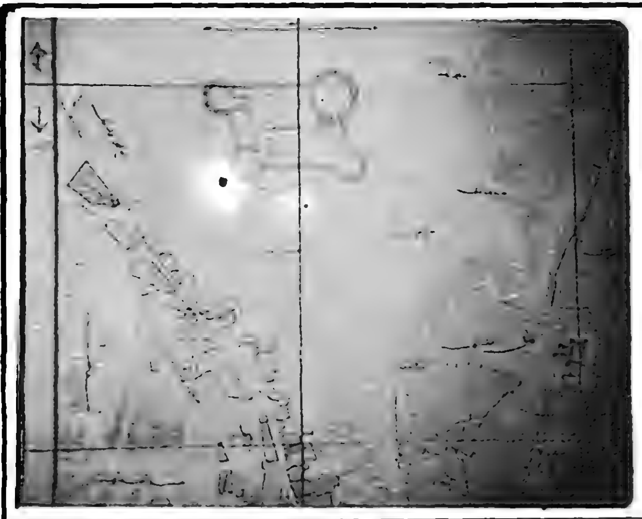
لوحة رقم (٢٧): قلعة لعلع: السور الشرقي من الداخل، ويظهر استخدام الطوب.

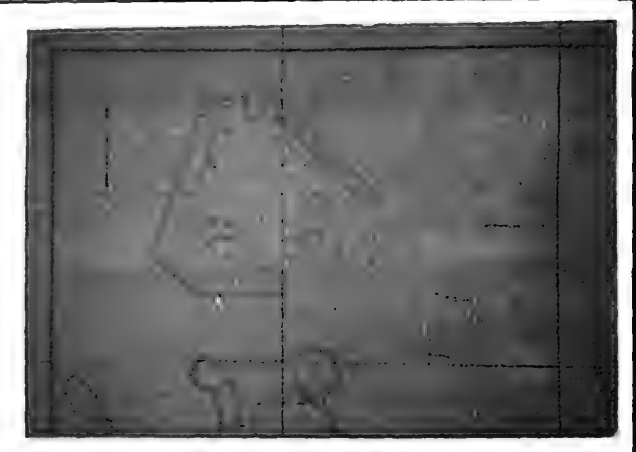
لوحة رقم (٢٩): قلعة لعلع: تفصيل من خريطة مكة المكرمة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ تبين تخطيط القلعة لعلع في هذه الفترة.



لوحة رقم (٢٨): قلعة لعلع: خريطة مكة المكرمة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ عن مكتبة جامعة اسطنبول.



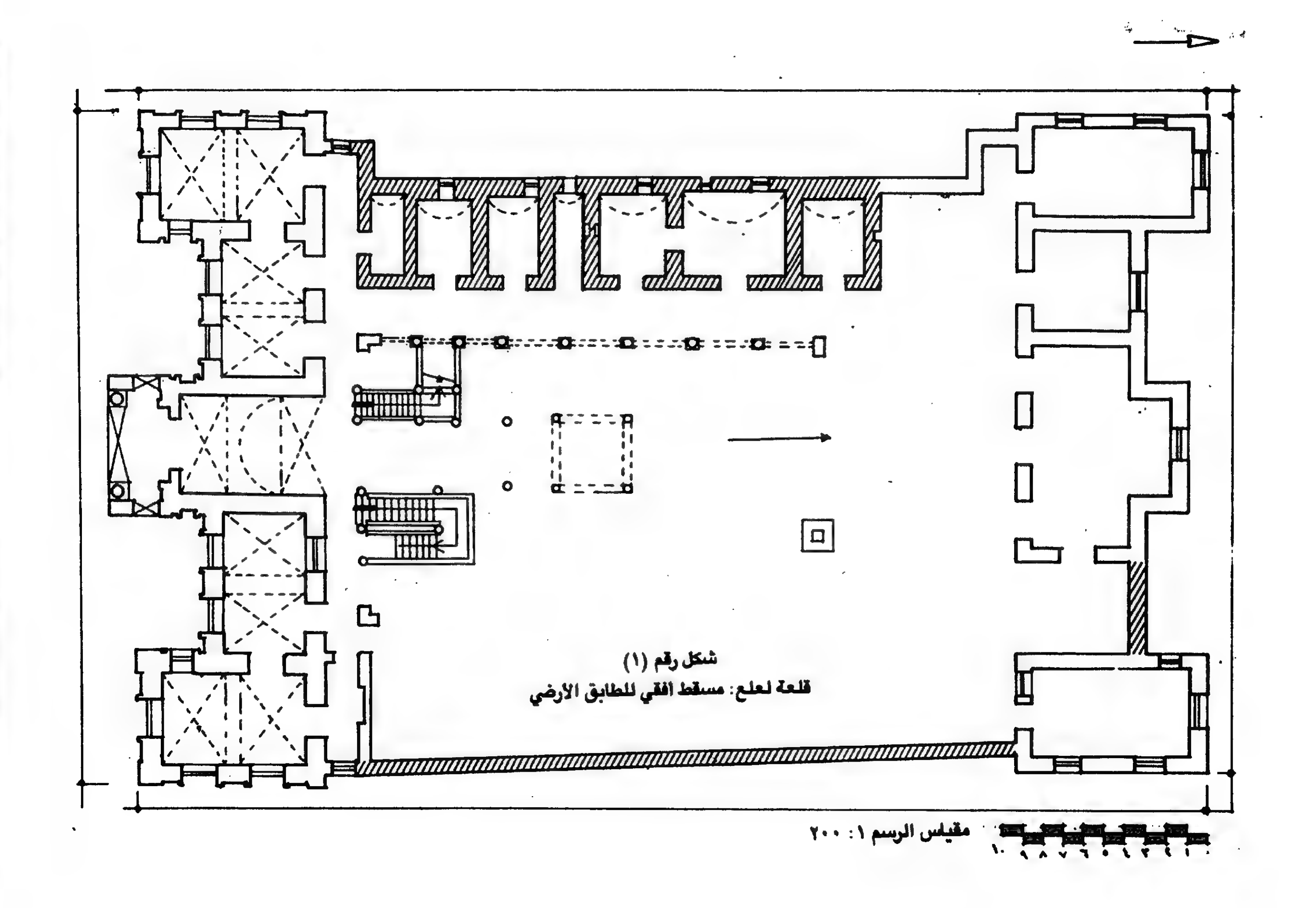
لوحة رقم (٣٠): قلعة هندي: تفصيل من خارطة مكة المكرمة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ تبيّن تخطيط قلعة هندى قبل هذا التاريخ.



لوحة رقم (٣١): قلعة هندي: تفصيل من خارطة مكة المكرمة المؤرخة سنة ١٢٩٨هـ تبين تخطيط قلعة هندي في هذه الفترة.

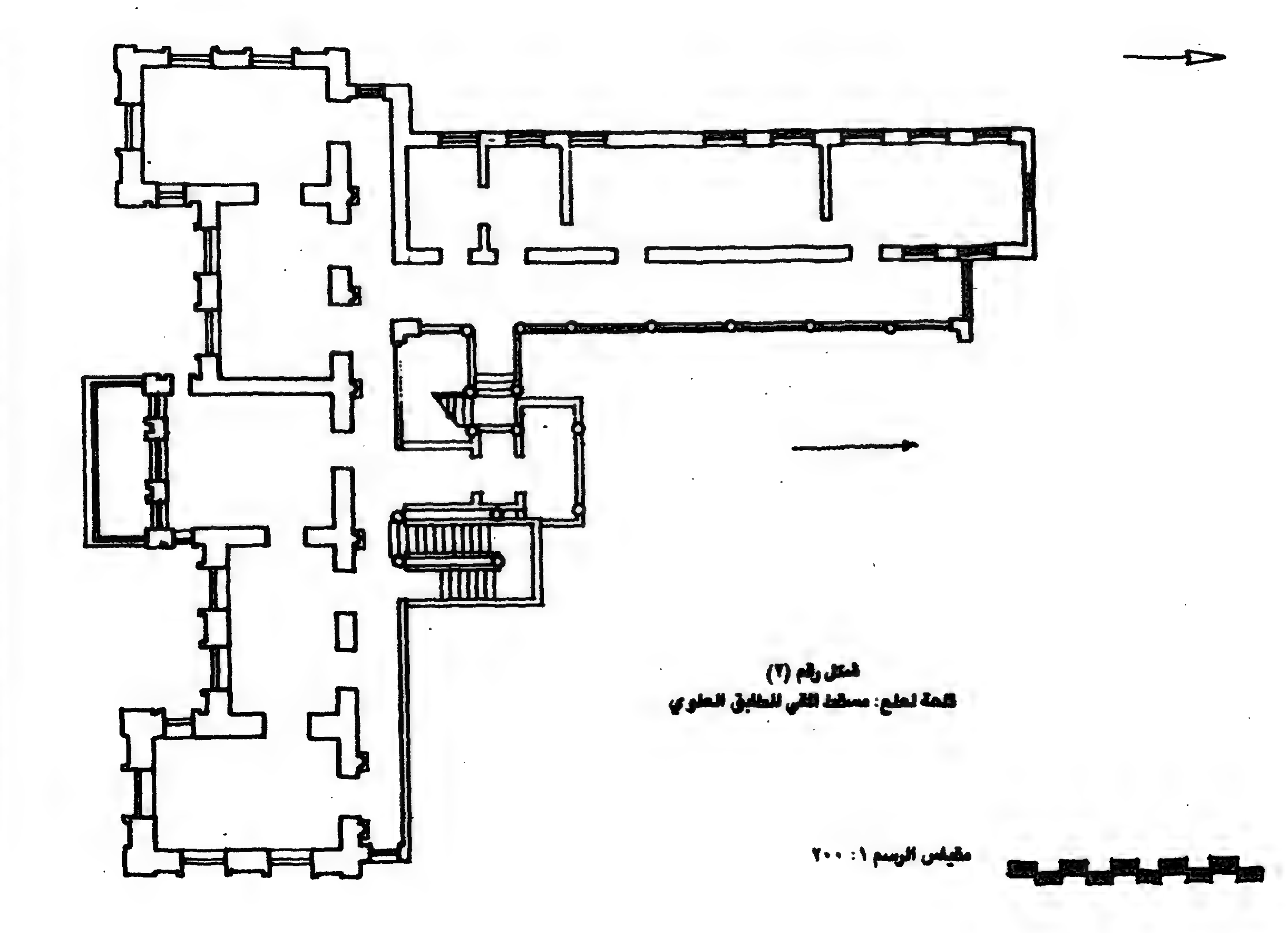


لوحة رقم (٣٢): قلعة هندي، عن سنوك هورخرونية.

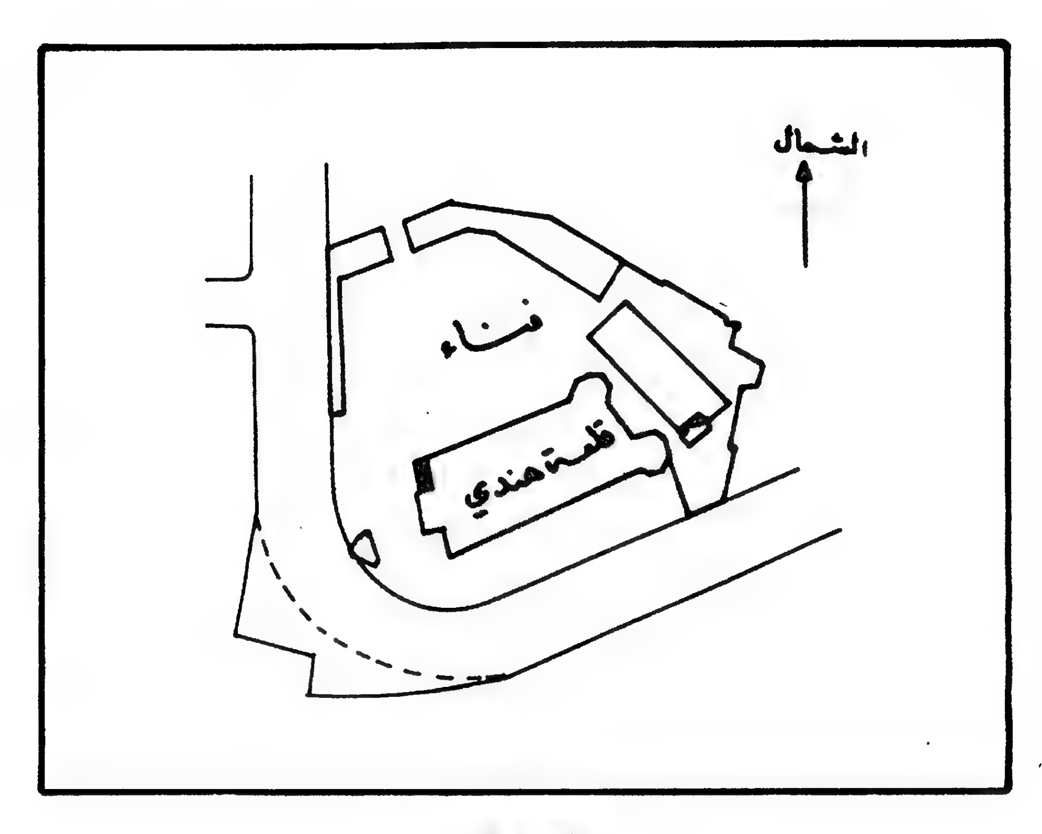


شكل رقم (١)

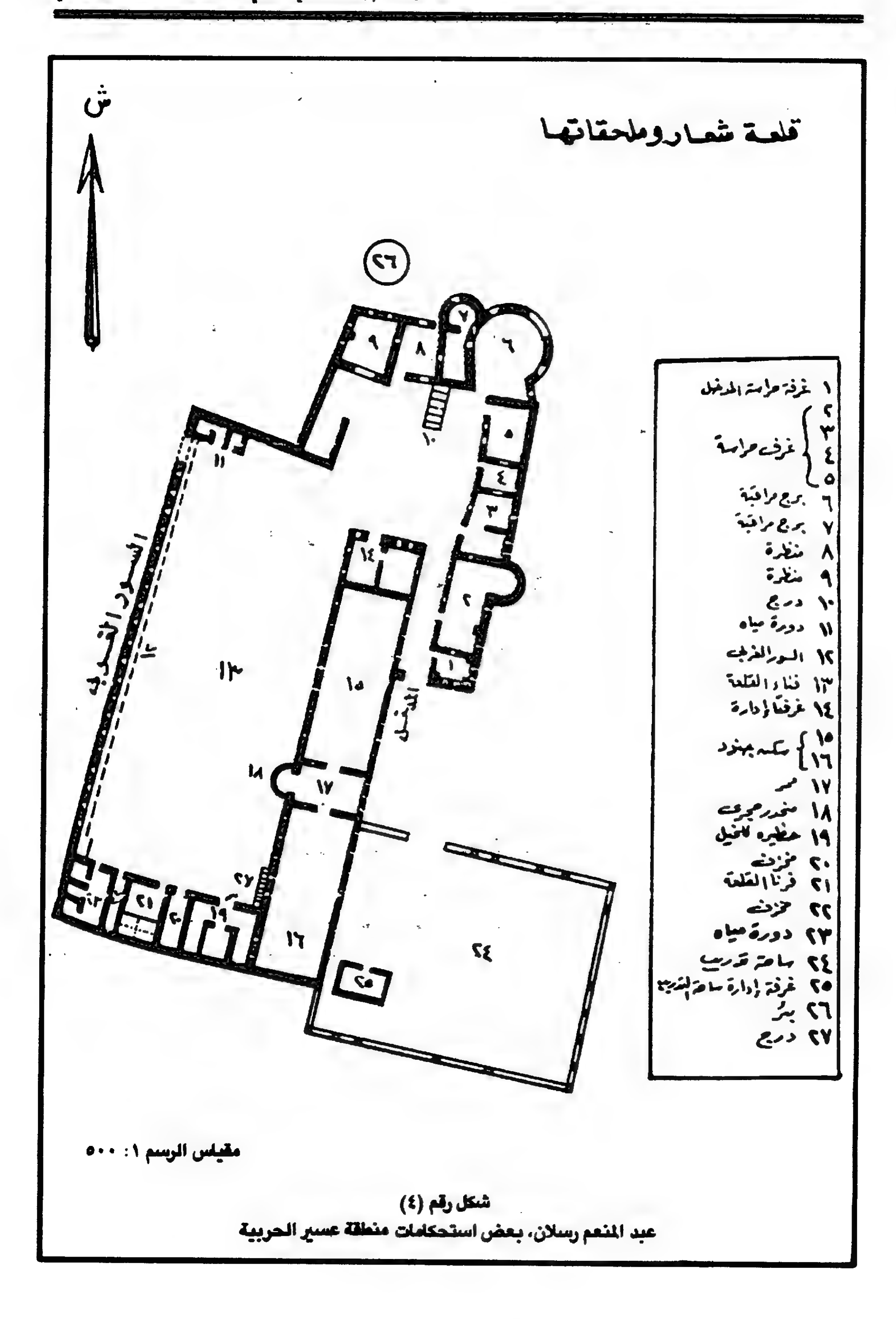
قلعة لعلع: مسقط أفقي للطابق الأرضي



شكل رقم (٣)
القلعة لعلع: مسقط أفقي للطابق العلوي

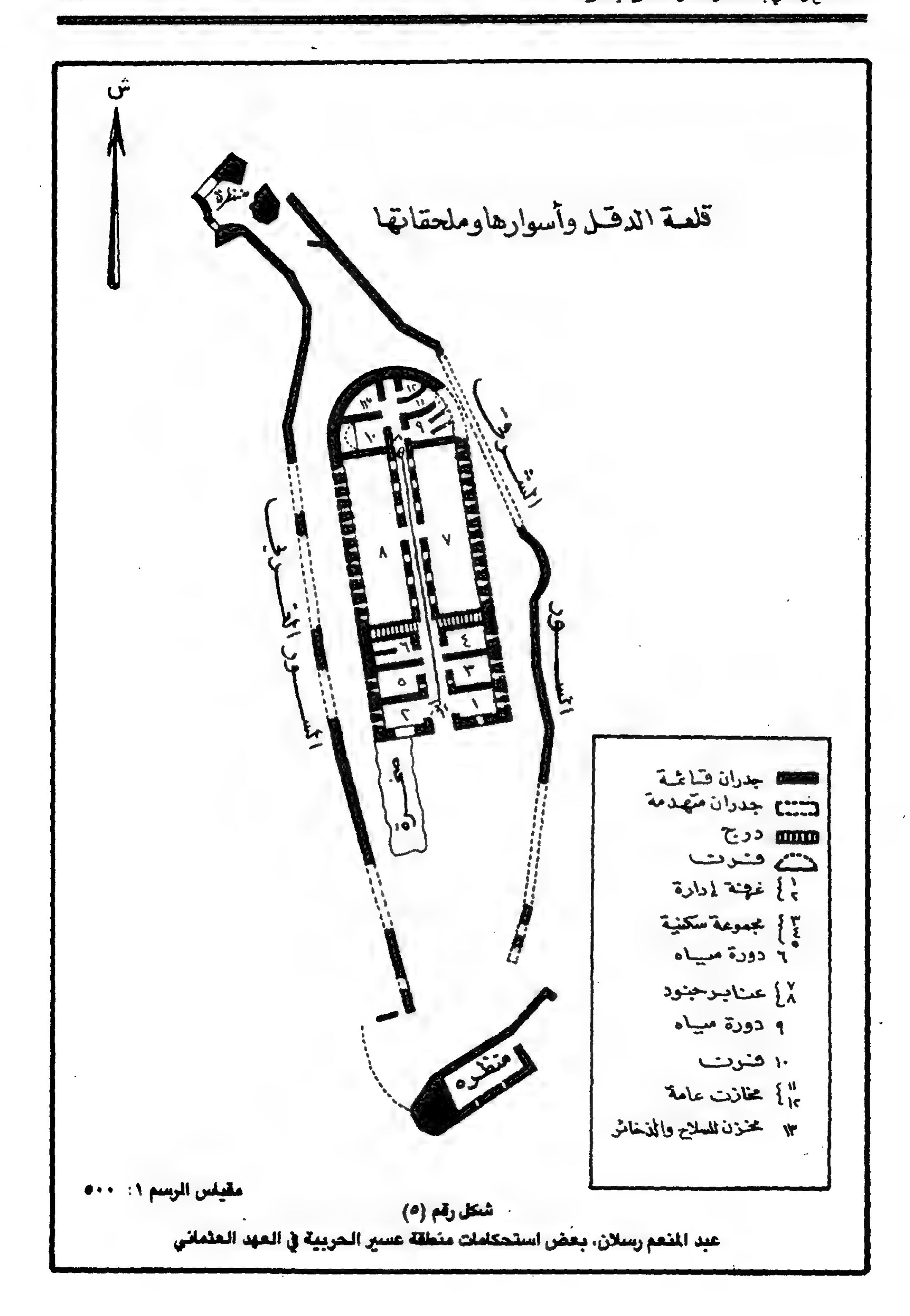


شكل رقم (٣)
الموقع العام لقلعة هندي، سنة ١٣٨٧هـ
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠ (عن أمانة العاصمة المقدسة)



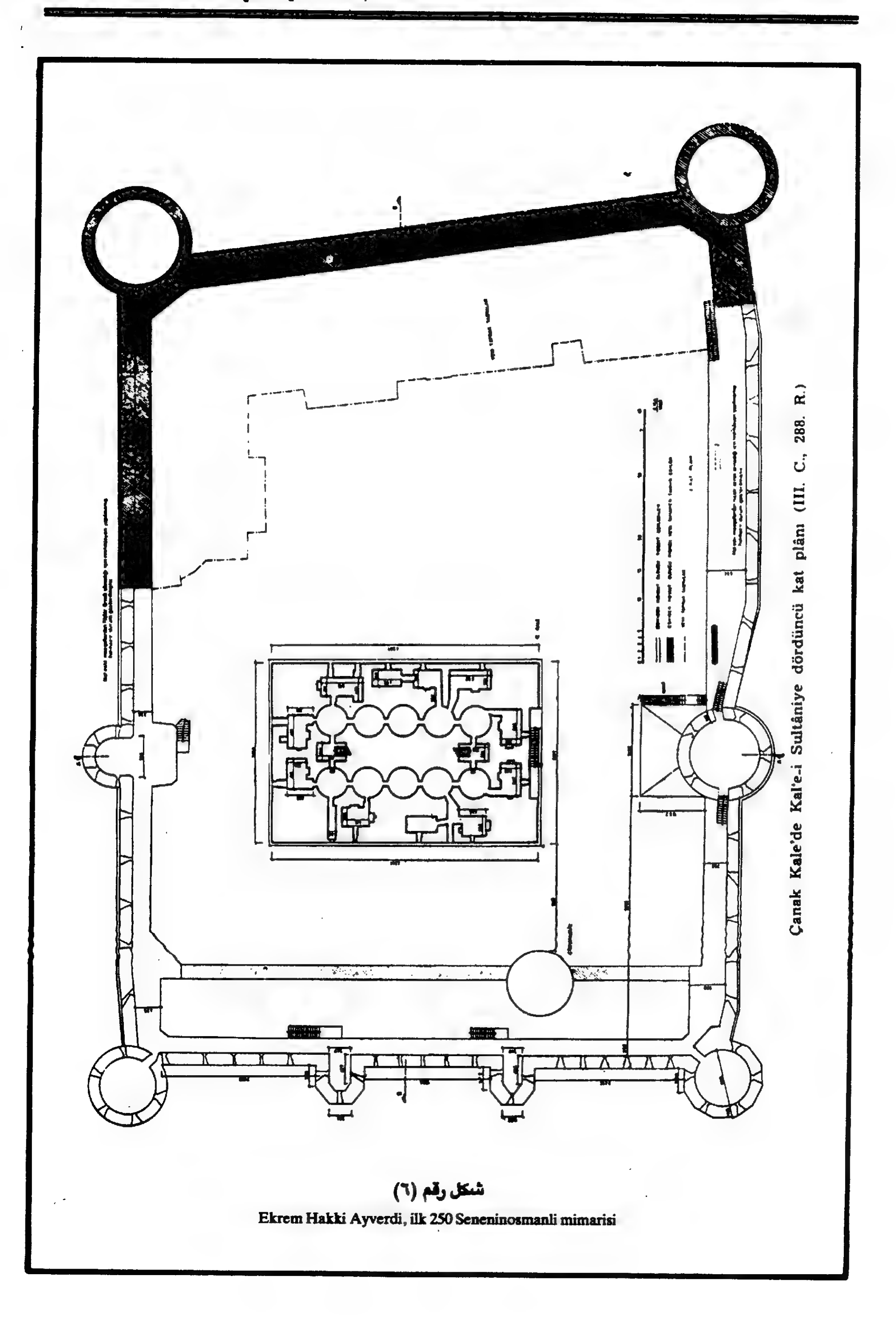
شكل رقم (٤)

عبد المنعم رسلان، بعض استحكامات منطقة عسير الحربية



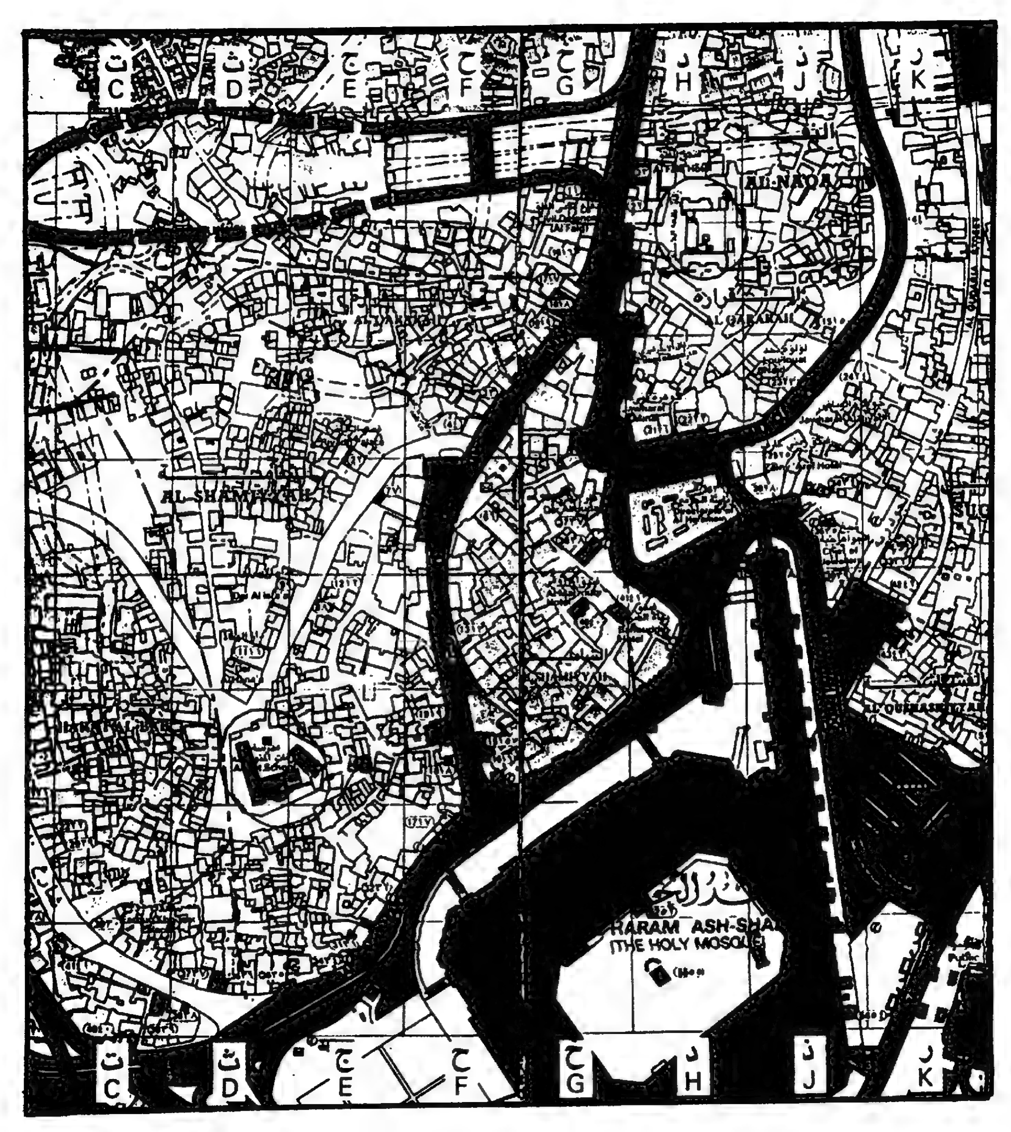
شكل رقم (٥)

عبد المنعم رسلان، بعض استحكامات منطقة عسير الحربية في العهد العثماني



شكل رقم (٦)

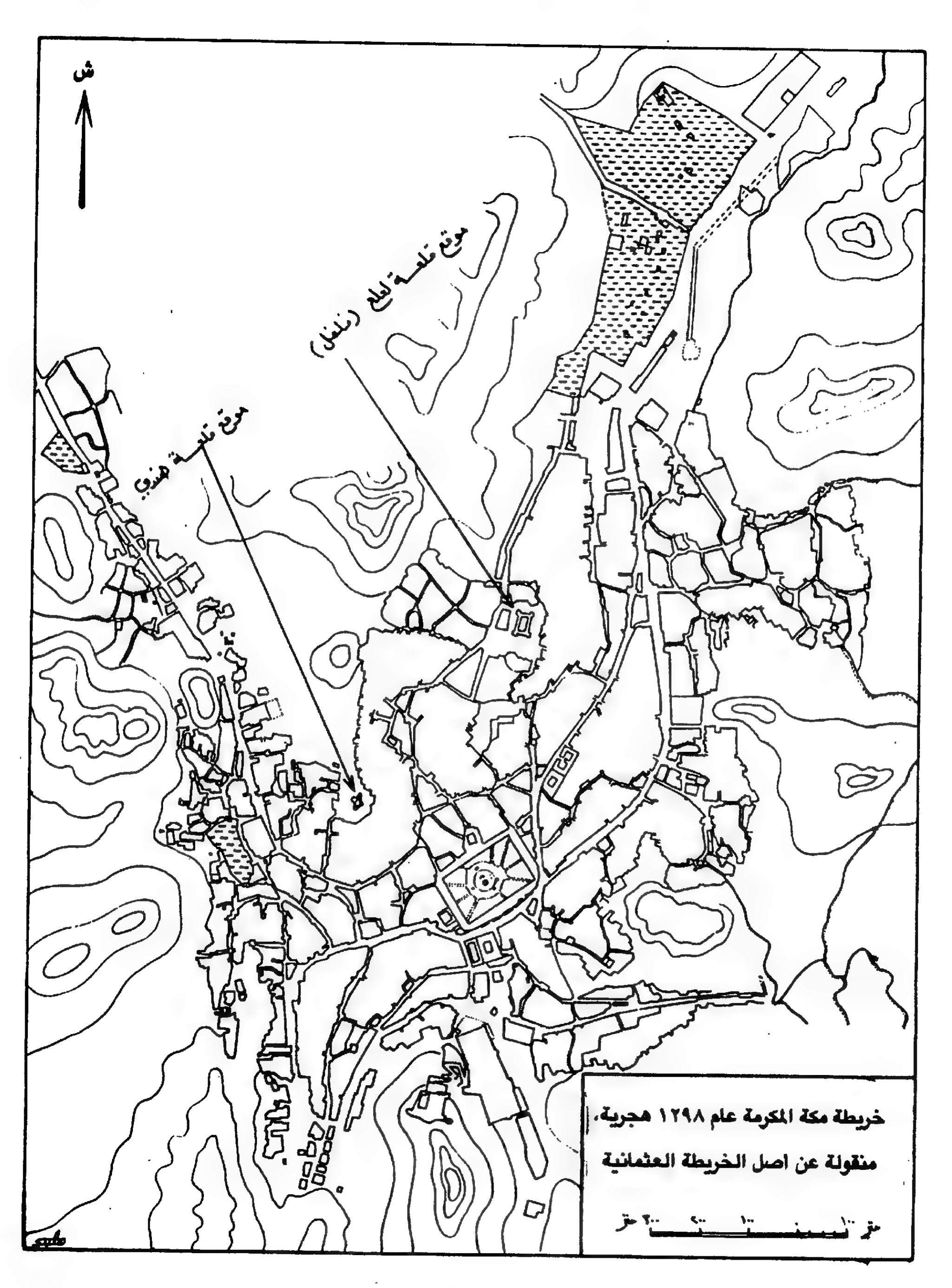
Ekrem Hakki Ayverdi, ilk 250 Seneninosmanli mimarisi



خريطة رقم (١)

موقع قلعة لعلع وقلعة هندي حالياً

(عن المهندس زكي فارس)


ش
موقع قلعة لعلع
موقع قلعة هندي
خريطة مكة المكرمة عام ١٢٩٨ هجرية،
منقولة عن اصل الخريطة العثمانية

خريطة رقم (٢)

العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، ٢٤٣ ـ ٢٤٨ (١٩٩٣م).

نشأة القصة [الأمريكية] القصيرة[(١)]

تأليف بريت هارت[(٢)]

ترجمة الدكتور محمد بن سليمان القويفلي

بما أن عادة النقاد الأفاضل جرت على ربط اسم كاتب هذا المقال بتأصيل القصة الأمريكية القصيرة، فربمـا كان هذا سببا معقولا لعرض التأملات الآتية المتولدة من ملاحظاته الشخصية خلال الثلاثين سنة الماضية، من ناحية، ومن ناحية أخرى، من تجربته في تقديم هذا النوع من الأدب على صفحات «المجلة الغـربيـة» Western Magazine عنـدمـا كان يرأس تحريرها في بداية تلك الفترة. غير أن كاتب المقال بعيد عن ادعاء الاختراع أو نسبة أصل القصة القصيرة إلى تلك المناسبة. ذلك أن القصة القصيرة، بوصفها شكلا أدبيا، كانت معروفة تماما في أمريكا في النصف الأول من القرن [التاسع عشر]. وربما كانت سرعة الحياة الأمريكية ـ التي يضرب بها المثل ـ من عوامل قصر القصة القصيرة التي كانت الشكل الأدبي الذي ظهـرت من خلاله أكثر الأعمال تميزا لكبار الكتاب الأمريكيين وفازت برضى القراء عامة. فلقد كتبها بو Poe ، سيد هذا الفن بلا منازع حتى اليوم. ومنحها كل من لونجفيلو Longfellow وهوثورن hawthorne وقار الأعمال الكلاسية الإنجليزية.

لكن قصـة تلك الفتـرة لم تكن القصة القصيرة الأمـريكيـة كما هي عليه اليوم؛ إذ لم تمثل الحياة الأمـريكيـة، ولا العـادت الأمـريكيـة، ولا التفكـير الأمـريكي. ولم تتصف بالحيـوية ولا التلقائية فيما يتصل بملاحظة الأمريكي العادي وتجربته؛ فلم تقم بأي محاولة لتبرز تفكيره أو لتعي تميز أسلوب تعبيره الذي كانت تعـده مبتـذلا. ولم تتعـاطف مع تلك المفـارقات والمفاجآت الدراماتيكية التي هي عجائب الحضـارة الأمـريكيـة. ولم تنظر بعين الاعتبار إلى تنوعات البيئة والتحديدات الجغرافية، وحقيقة الأمر هي انهـا لم تكن تعـرف إلا القليـل عن الجغرافيا الأمريكية. وكانت متجنبة لكل ماهو أمريكي متميز، إلا ماجـاء على سبيـل الانتقـاد. وعـلى الرغم من الأسلوب الرفيـع الذي وظفـه بعض أساتذة كتابة القصة القصيرة في تلك الفترة، فقد كانت قصصهم إقليمية (Provincial) بصورة واضحة.

أن نتبـين الأسبـاب التي أنتجت هذه الظاهـرة اسهل علينا من أن نعين مناسبة أوفترة زوالها بشكل محدد. إن ما سميناه أدبا أمريكيا في تلك الفترة كان مبدعا على الطرائق الإنجليزية، ومبنيا على النماذج الإنجليزية. فلقد حلق أفضل الكتاب في حقول بعيدة بحثا عن الإلهام، أو تقيدوا بمادة محلية، وعلى الرغم من تأملهم وطنهم فنيـا، فإنهم قلمـا كانـوا جيدي

(١) Bret Harte, "The Rise of the Short Story," *The Cornhill Magazine*, (July, 1899).

وقد اعتمدت هذه التجربة على نص المقالة الوارد في:

Hoolis Summers (ed.), *Discussions of the Short Story* (Boston: D.C.Heath and Co, 1966), pp. 5-9.

(٢) بريت هارت (١٨٣٦ ـ ١٩٠٢م) من أعلام الأدب الأمريكي في القرن التـاسـع عشر. كتب القصـة القصيرة والروايةوالشعر والمسرحية. واشتهر على المستوى العالمي بفضل قصصه القصيرة خاصة التي نجحت في تكوين جمهور عريض لها في امريكا وفي اوروبا.

وللمـزيد عن هذا الكاتب وغيره من الكتّاب الامريكيين البارزين، انظر: نبيل راغب، موسوعة ادباء امريكا (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م).

الملاحظة سواء أكانوا كتابا تاريخيين أم أسطوريين.

فلقد اقام الأدب [الأمريكي] على حاشية ضعيفة من حواشي شواطيء الأطلسي متلقفا ما تلقيه الشواطيء الأخرى، مستمعا إلى غمغمة تلك الأراضي الأخرى، بدلا من أصوات أرضه الخاصة، التي عبر عنها إما بتعامل مزيف مع الحياة في المدن، وإما بسخرية صريحة من الطموحات الاجتماعية في الأقاليم، كما فعل آرفنغ Irving لذا ظهر الكثير من الأدب «الرفيع»، فكان ثمة أمريكيون على شاكلة أديسون Addison ، وستيل Steele ولامب Lamb كما برزت صحف إقليمية تحاكي صحيفتي «ذي سبكتيتور» "The Spectator" ، و «ذي تاتلرز» "The Tatlers" . لقد كان الإحساس نفسه انجليزيا، حتى أن سكتش آرفنغ الحزين في «الزوجة» "The Wife" كان صدى لأسلوب «روزاموند جراي» Rosamond Grey .

كما كانت هنالك صور للحياة الأمريكية على طريقة كتاب المقال الانجليزي، بلا أدنى محاولة لتفهم الشخصية الأمريكية. ولم يكن لدى الأديب تعاطف يذكر مع الجماهير الخشنة نصف المتمدينة التي كانت تصنع تاريخ بلاده. وإذا حدث أن تعامل الكاتب مع هذه الجماهير؛ فليكونوا مقابلا وضدا يبرز بوضوح بطله ذا السمة الإنجليزية التي لاتخطؤها العين. غير أنه في تقليده الأعمى للأجانب لم ينجح في الاستفادة من تقديرهم السريع لأهمية التجديد. ولقد اقتضى الأمر أن يبدأ التجديد رجل (إنجليزي) من خلال إبراز ظرف اللهجة الأمريكية وحيويتها، أو لهجة «اليانكي» "Yankee" ، ألا وهو القاضي هالبورتن Haliburton . غير أنه نجح في إبراز لهجة «سام سلك» "Sam Slick" أكثر من شخصيته. ومع أن قصة «مارجريت» "Margaret" للدكتور جد Judd - وهي من أوائل القصص الأمريكية - تضمنت صورة حيوية لحياة المزارعين في نيو إنجلند، وتميزت لونها المحلي الصارخ، فقد كانت في حوادثها ومعالجتها لموضوعها تقليدا محضا للتراجيديا الريفية الإنجليزية.

ويبدو، في حقيقة الأمر، أنه على حين أن الأمريكيين كانوا قد تخلصوا من التبعية للإنجليز في الحكومة والسياسة والتطور القومي، وأدهشوا العالم القديم بأفكارهم التطبيقية الأصيلة والمبتكرة، إلا أنهم لم يحرروا أنفسهم أبدا من قيد تقدم الأدب الإنجليزي. وهذا هو الوضع الذي تصوره العبارة الساخرة القديمة: «من يقرأ كتابا أمريكيا؟»، التي ربما جعلت أكثر حدة بالقول: «لا توجد كتب أمريكية.»

لكن في حين أن الخيال الأدبي الأمريكي كان رازحا آنذاك تحت تأثير التراث الإنجليزي، كانت هناك ظاهرة غير متوقعة آخذة في التطور لتحد من قوة تأثير ذلك التراث. تلك كانت الفكاهة Humour ذات النوعية الأصيلة والمتميزة كأصالة وتميز البلد والحضارة التي ظهرت فيها. وقد برزت الفكاهة في البداية من خلال الأحدوثة أو «الحكاية». وكانت، بسبب طبيعة بدايتها، تنقل مشافهة؛ فانتشرت في الحانات، وفي اللقاءات في «دكان القرية»، وأخيرا على السنة «الخطباء السياسيين» في اللقاءات الجماهيرية، حيث أثبتت الحجج وعرضت المباديء السياسية في قالب «قصصي فكه». وغزت الفكاهة حتى التجمعات العسكرية، والمنابر الكنسية. ثم حصلت أخيرا على موقع في الصحف العامة. ولكنها، إينما وجدتها، اتصفت بشدة أصالتها وجدتا وتفردها وتميزها إلى حد جعلها تعرف في الخارج وتقدر بوصفها «قصة أمريكية».

وعلى الرغم من الصقل الأدبي الذي تلقته في الصحافة، والذي غير من طبيعتها في البدء، فإن خصائصها العامة بقيت على ما هي عليه، فقد كانت مكثفة ومختصرة وموحية في الوقت نفسه. واتسمت بمبالغات ممتعة، أو كانت أعجوبة في التقليل من الحقائق. ولم تعبر عن لهجة جماعة أو منطقة ما فحسب، بل تعدت ذلك إلى التعبير عن طرائق تفكيرها. كما جددت الاهتمام باللهجة الدارجة. ومن فقرة من اثنى عشر سطرا نمت لتحتل نصف عمود، محتفظة على الدوام بإيجاز تعبيرها ولباقته، إذ كانت خصما للإسهاب أيا كان نوعه، ولم تقبل الكتابة الناعمة ولا رقة الأسلوب، وعبرت تعبيرا مباشرا عن غرضها. ولم

تقيد نفسها باعتبارات تتصل بالضمير، ولم تتسم بالكياسة، كما جردت نفسها من المسؤوليات الأخلاقية، ومع ذلك كانت مبدعة! وشيئا فشيئا طورت طابعها الخاص المتمثل في تقديم صورة مؤثرة لجماعة أو إقليم في حادثة لا تتجاوز عدة أسطر، مع وصولها دائما إلى غرضها من غير إطناب. لقد أصبحت - ومازالت - مقوما أساسيا من مقومات الأدب الصحفي. ذلك كان أصل القصة «الأمريكية» القصيرة.

ومع أن هذه البدايات اكتسبت من الشعبية مالم يكتسبه الأدب الأمريكي الجاد أو الرفيع، فقد ظلت هزلية محضة. وكان من النتائج المباشرة لذلك ظهور عدد من الكتّاب الهزليين في أعمدة الصحف اليومية الذين اشتركوا في الصبغة الشعبية المهيمنة مع استقلال كل منهم بخصوصية نسبية. وقد بدأ في أول الأمر وكأنهم يفقدون تدريجيا القدرة على الكتابة القصصية بسبب اهتمامهم بتطوير الشخصية الشاذة eccentric الموظفة بصفة رئيسة أداة للمقولات اللاذعة، والمواقف العبثية، والهجاء السياسي. واستقبل الجمهور هؤلاء الكتاب استقبالا حماسياً. وكانوا واسعي الشهرة في أيامهم. وربما كانوا معروفين في أمريكا وخارجها أكثر من كتاب نيويورك وبوسطن الهزليين الأكثر أكاديمية والأقل شعبية، وكانت النغمة الشعبية تظهر دائما حتى في ماتميز به كل منهم، وقد عاشت صورة رجل الأستعراض الذكي الرائعة التي قدمها «ارتيموس وارد» "Artemus Ward"[٣] على الرغم من تهجئته السيئة الأكثر تلقائية. ولكن هؤلاء الكتاب لم يؤثروا على فن القصة المعاصر لهم؛ إذ استمر كتّاب القصة القصيرة والطويلة في طرقهم العتيقة الطراز، وقيمهم الأخلاقية الرائعة، وعاطفيتهم الشديدة البالغة الاهتراء، وأبطالهم وبطلاتهم الذين لالون لهم، المنتمين إلى الطبقة الأولى من المجتمع الإقليمي.

ولم تحدث الاضطرابات الاجتماعية أي شيء جديد في رواية الرومانس Romance فقد اعطتنا حرب المكسيك فكاهيات هوسيا بجلو Hosea Biglow الممتعة، ولكنها لم تعطنا قصصا دراماتيكية. وانتج الصراع ضد العبودية قبل حرب العصيان رواية سياسية ناجحة ذات صبغة حزبية - على النمط القديم - اتسمت بالتعاطف مع العبيد، بيد أنها لم تتضمن شخصيات أمريكية خالصة، خلا شخصية الزنجي «توبسي» "Topsy" والنيو انجلندية «الآنسة أوفيليا» "Miss Ophelia" وحرب العصيان نفسها التي كانت مثمرة - إذا جاز التعبير - في مجال الشعر والبلاغة، كانت عقيمة من ناحية رواية الرومانس، باستثناء رواية إدوارد إيفريت هيل "Edward Everett Hale" الفنية المتعاطفة «الرجل الذي بلا وطن» The Man Without a Country وقد كان للحرب آثار تمثلت في قيام المحاربين بأعمال تراجيدية، وتقديمهم تضحيات تجسدت في ساحة المعركة، وفي تشتت البيوت والعوائل. وفي الصراع ذي الوحشية الهائلة والبسالة المتهورة ضد المنطق والواجب الذي جرى بالقرب من بيوت المزارع الصغيرة والحقول الكبيرة. وتمثلت ايضا في إعادة بعث البيوريتانية Puritan والشهامة في محيط متوحش ذي قفار غير مطروقة ومستنقعات مهلكة وجبال وعرة. كما تجسدت في التحمل الصبور للغازي والمغزو. لكن هذه الآثار لم تجد صدى لها في رومانسيات تلك الفترة.

ومن دخان المعركة التي غطت نصف قارة انسابت إلى صفحات الصحف شخصيات مبهمة، بيد أنها حقيقة لفتيات بريئات من الشمال صورن بطلات أو حسناوات أنيقات يعملن ممرضات، ويقمن بتخفيف آلام خريجي هارفارد أو ييل المجروح بعمق، والذي لم يُفهم كما ينبغي، ذلك العاشق الذي سعى ليدفن قلبه في الصراع، ويبدو من غير المعقول انه حتى السنين الأخيرة لم يسجل قلم كاتب رومانسي شيئا يرتفع في قيمته إلى جلال ذلك الحدث.

ولكن إن كانت الحرب لم تنتج قصة امريكية

---

(٣) ارتيموس وارد هو الاسم المستعار للكاتب الصحفي/ الأدبي الأمريكي C. F. Browne تشارلز فيرار براون (١٨١٩ - ١٨٩١م) الذي اشتهر بكتاباته الساخرة. (م).

متميزة، فقد عملت على تقريب الأديب من حرفته أكثر من ذي قبل؛ إذ فتحت عينيه على ظروف معيشية لم يتصورها من قبل. فكشفت له عن جماعات تحكمها عادات وأخلاقيات تختلف عما ألفه، لكنها إنسانية وأمريكية بعمق. وكان قد عرف عن الجانب الثانوي من حياة بعض تلك الجماعات من الكتاب الفكهين المشار إليهم سالفا؛ لكن حقائق الحرب الشرسة ووطأة الظروف اسبغت فجأة على تلك الجماعات واقعا محزنا أو درامتيكيا. وسواء حصل معرفته بتلك الجماعات بوصفه جنديا أوضابطا، أو كان [بعد انتهاء الحرب] أحد أبناء الشمال "carpet - bagger" الذين شخصوا نحو البيوت المقفرة في الجنوب والجنوب الغربي [التماسا لغنيمة باردة]، فقد عرف بنفسه شيئا عن القيمة الرومانتيكية والتصويرية القصصية لحيوات تلك الجماعات.

وكان كثير من أصحاب المواهب المصقولة ذوي الطموحات الأدبية، وكثير من كتاب الصحف غير المتفرغين ضمن الجنود المتطوعين. وكانت تركيبة الجيش غير متجانسة. فقد اختلطت كتائب من الشرق بكتائب من الغرب، وارتفعت الكلفة بين موظفي المدن المتأنفين وزملائهم من سكان مناطق الغابات البعيدة. واقتسم الطالب الجامعي حديث التخرج جرايته مع الفلاح نصف المتعلم. لقد تعرف الاتحاد [اتحاد الولايات] لأول مرة على عناصره المكونة لبنائه. كما عرف المواطنون بعضهم بعضا. ولابد أن الأديب رأى أبطالا وبطلات في أمكنة لم يبحث عنهم فيها من قبل. وشهد مواقف لم يحلم بها عل الإطلاق، بيد أنه لم يجرؤ على تجربتها إلا منذ عهد قريب. وهذا دليل مخز على قوة تحكم التقاليد الأدبية الموروثة، والأمر الأكثر غرابة أن الأديب [أديب الولايات الشرقية] انتظر حتى اتخذت المبادرة [مبادرة التغيير والخلاص من التقاليد الأدبية الموروثة] حضارة أكثر فجاجة ووحشية وغربية more western هي حضارة كاليفورنيا!

لقد جذب اكتشاف الذهب إلى منحدر القارة الباسيفيكي سكانا أكثر تباينا وأكثر غرابة. وأبعدت هجرتا ١٨٤٩و ١٨٥٠م المزارعين عن محاريثهم والتجار عن متاجرهم والطلاب عن كتبهم. فكل صنعة كانت ممثلة في الجمع المتنافر من الباحثين عن الذهب. وساهمت أوربا ومستعمراتها في تضخيم عدد هؤلاء المغامرين ـ وكانت أمام المغامرين، أيا كان هدفهم، مخاطر عظيمة، ورحلة طويلة شاقة ـ وقد أتي أقرب الباحثين عن الذهب من مسافة تربو على ألف ميل. ومن المسلم به أنهم كانوا، بالضرورة، مسلحين مسبقا بالإقدام والإيمان والصبر. وكانوا شباباً بصفة رئيسة، حتى أن وجود رجل أشيب الرأس في المناجم في الأيام الأولى كان مثار دهشة وموضوع احترام وتبجيل طبيعيين . فكانوا تبعا لذلك أحرارا من كل عوائق السابق أو الموروث في ترتيب حيواتهم وإنشاء مساكنهم البدائية.

وكان ثمة أخاء فريد في هذه الجمهورية المثالية التي دخلها جميع الرجال أحرارا ومتساوين. فلم تكن الفروق والامتيازات الناتجة عن أوضاع سابقة معروفة، حتى أن سجل حياة الفرد وسمعته لم يكونا مصدر نفع إن كانا حسنين أو مبعث حرج في حال سوئهما. لقد قبل الرجال على ماكنوا عليه فعليا، وعلى الدور الذي يمكن أن يقوموا به في المعسكر أو المستعمرة. ولم يكن وضع الإنسان الاقتصادي، مهما تدنى، ولا وضاعة مهنته مصدر حرج أو خجل. ولم يثر نجاح الفرد أية غيرة أو حسدا؛ فما كان نصيب رجل اليوم، قد يكون حظا لآخر غدا. ويضاف إلى بساطة الناس المثالية ذلك المحيط ذو المشاهد الأخاذة، والنبات الذي كان رائعا في كثرته ونمائه الطبيعي. وقد أبرز هذه الصورة بحدة وقوعها وسط الخرائب المنقوضة التي خلفتها سيطرة الأسبان السابقة على المنطقة، والذين لا تزال آثارهم باقية في مشن Mission وبريسديو Presidio ولا يزال أحفادهم الشرعيون الشجعان يعيشون ويتنقلون بصورة زاهية وجلية خلافا لغزاتهم النشطين. وهذا كله يعني أن مناخا لظهور أعمال رومانتيكية ودراماتيكية لا مثيل له في التاريخ قد وجد.

لكن أدب منحدر الباسيفيكي المبكر، كان شعبيا مثل أدب ساحل الأطلسي الذي تميز بفكاهته. فقد توشحت الصحف المحلية باللماحية wit والهجاء.

ومثلمـا حدث في الشرق أوجـدت الصحف المحليـة ظرفاءها المتميزين المعروفين. وينبغي أن نذكر أوائل رواد الفكـاهـة الكاليفورنية خصوصا، مثل الملازم ديـربي Derby المهندس الحربي في جيش الولايات المتحدة مؤلف سلسلة السخريات الجذابة المعروفة بـ «مـذكرات سكيبوب» "Squibob Papers" ولاحقة المشهـور عالميا مارك توين Mark Twain الذي قدم «ضفدع كالافر القافز» "The Jumping Frog of Calavers" إلى أعمدة الصحف الأسبوعية. ومنذ ذلك الحـين كتب ميجور بيرس Major Bierce في «رسالة سان فرانسسكو الإخبارية» "The San Francisco News Letter" التي كان المسـاهم الرئيس فيهـا ـ أعمالا من أدق الرومانسيات تصويرا للحرب الأهلية. وكـان من أكثر الدوريات الأدبية الأسبوعية سبقا، بالاضافة إلى «رسالة سان فرانسيسكو الإخبارية»، صحيفة «العصر الذهبي» "The Golden Era" التي نشر فيها كاتب هذا المقال كتاباته التصويرية الأولى. و «الكاليفورني» "The Californian" التي قدم فيها، بوصفه رئيس تحرير، «الروايات المكثفة» "The Con-densed Novels" وهي تقليد ساخر لمشاريع منافسيه في حقل الصحافة. وقد كانت تلك المساهمات أمريكية الصبغة إلى حد ما. غير أن المدهش، مرة أخرى، أن الرومـانسيات الأكثر أدبية ورومانتيكية وتخييلا لم تتصف بصبغة قومية. والأعمال الأدبية الأكثر جدية وبقاء في الذاكرة على صفحات المجلة الأدبية الوحيدة «الرائـد» "The Pioneer" كانت روايـة رومـانسية روحانية، ودراسة سيكولوجية، وقصيدة عن صورة شكسبير الشندوية The Chandos picture of Shakes-peare وبتلك التجـربـة الوحيدة في تحرير صحيفة، دعى كاتب المثـال إلى تولي مسـؤوليـة تحرير «عبر البـراري الشهـريـة» "Over Land Monthly" أكبر مشـاريـع المجـلات طمـوحـا حتى ذلك الوقت في كاليفـورنيـا. فقام بدعوة أفضل الكتاب للمساهمة فيها. وعند فحصه المواد استعداداً لإصدار العدد الأول أصيب باحباط لاكتشافه أن القصص المقدمة تعـاني من عدم التميز الشائع نفسه. كانت هنالك مقالات أدبية جيدة، وصور أدبية لرحلات إلى البلاد الأجنبية، وبعض المقالات الواصفة للموارد الطبيعية في كاليفـورنيا، وكانت ممتازة من وجهة نظر تجارية وإعلانية. لكنه فشل في العثور على أي شيء يتصل بالحيـاة الزاهية الجموح التي اثرت فيه تأثيرا قويا بوصفـه تلميذ مدرسة كسول في البداية، وباعتباره مدير مدرسة شاب وسط سكان من عمال المناجم في النهاية.

وفي خضـم هذه الحـيرة عزم على محـاولة سد النقص بنفسه، فكتب قصة «حظ معسكر صاخب "The Luck of Roaring Camp" لكنهـا قصرت عن تحقيق غرضه ومثاله، مع أنه آمن إيمانا عميقا بأنه صور فيهـا كثـيرا «مما رآه وجزءا من حياته». وأن موضـوعه وشخصياته كانت، بلا ريب، كاليفورنية، وكذلك الحال بالنسبة لمعالجته لها. بيد أن ظروفا غير متوقعة تدخلت هنا؛ فقد اعترض الطابع والناشر على نشر القصة؛ لأنها خرجت فعليا عن الخط التقليدي من ناحية الموضوع والمعالجة والمغزى الأخلاقي! أما تقديم أم الطفل اللقيط «حظ» المنبوذة المهجورة، ولغة الشخصيات فقد لقيا اعتراضا وتحذيرا جادين. لذا اضـطر الكـاتب إلى استعمال حقه باعتباره رئيس تحرير لينقذ مساهمته سيئة الطالع من الإهمال.

وعنـدمـا ظهـرت أخـيرا لاحظ بفزع أن الطابع والناشر عبرا، في حقيقة الأمر، عن الرأي العام المحلي، وأن صحـافـة كاليفـورنيا مازالت تخضع لسيطرة محافظة الشرق [شرق أمريكا] وتقليديته القديمتين. وانـه عنـدما تنجو قصة «حظ معسكر مزدهر» من الاتهام بأنها «غير لائقة» و «مفسدة» كانت تستقبل ببرود بوصفها «شاذة»، و «غريبة». والأكثر غرابة أن تنتقـد من منـطلق «إقليمي» في صحيفة ذات طابع ديني وصفت القصة أنها، إلى حد بعيد «غير مؤيدة للهجـرة»، وأنهـا بلاشك، لا تشجع «استثمار رأس المال الأجنبي [في كاليفورنيا]».

ولكن قبـول نقـاد الولايـات الشرقية وأوربا لها باعتبارها انطلاقة جديدة مكن الكاتب من أن يتبعها بقصص أخرى ذات صبغة مماثلة. وما أثلج صدره ـ زيادة على ذلك ـ أنه وجد في الكتاب المساهمين في المجلة ميلا نحو التخلص من قيود محافظتهم. ومن خلال اطلاعـة على صورة قصصية أصيلة ورائعة

تصور خادم سيرك يدعى «سنتربول بل» "Cen-trepole Bill" كان سعيدا بالتعرف على أحد الكتاب الخارجين [عن النمط السائد] والترحيب به.

إن مصطلح «مقلد» "Imitator" المستعمل غالبا من قبـل النقاد الذين يدَّعون بأن كاتب هذا المقال اخترع هذا النوع من الأدب ـ كما سبقت الإشارة ـ هذا المصطلح لا ينطبق بعدل على أولئك الذين نأوا بأنفسهم عن الطرائق التقليدية، وسعوا إلى تصوير الحياة حولهم بأمانة. إن كل ما يدعيه كاتب المقال هو أنـه بين لأولئـك الكتاب أن هذا أمر يمكن تنفيذه. ولسنا بحاجة إلى إخبار القارىء العادي عن الصدى الذي وصل إليه اتقان كتابة هذا النوع من القصة، وأي جاذبية لنكهة وأسلوب ذاتيين أضفيا عليها من لدن كتَّاب أمثال هاريس Harris وكابل Cable ، وبيج Page ومارك توين في «هكلبري فن» "Huckleberry Finn" ، ومؤلف «جبال سموكي العظيمة» The Great Somky Mountains والآنسة ولكنز Miss Wilkins لذلك يبدو جليا أن خصوصية القصة الأمريكية القصيرة تكمن في معالجة الحياة الأمريكية المتميزة، مع المعرِفة التامة بخصائصها، والتعاطف مع أساليبها، وتجنب الإهمـال المقصـود لتعـابـيرها اليومية، والشاعرية البسيـطة الكـامنة في أساليبها حتى تلك المعرفة في الشعبية. وتجنب أي التزام أخلاقي مسبق، عدا ما يفـرضـه منطق القصة نفسها. وعدم حذف إلا ما يفرضه التصور الفني للقصة دون استجابة للسلطة التقليـديـة. إن القصة الأمريكية المعاصرة تتصف بهـذه الصفـات. وقصـة الـيوم هـي بـذرة الأدب الأمريكـي المقبل.

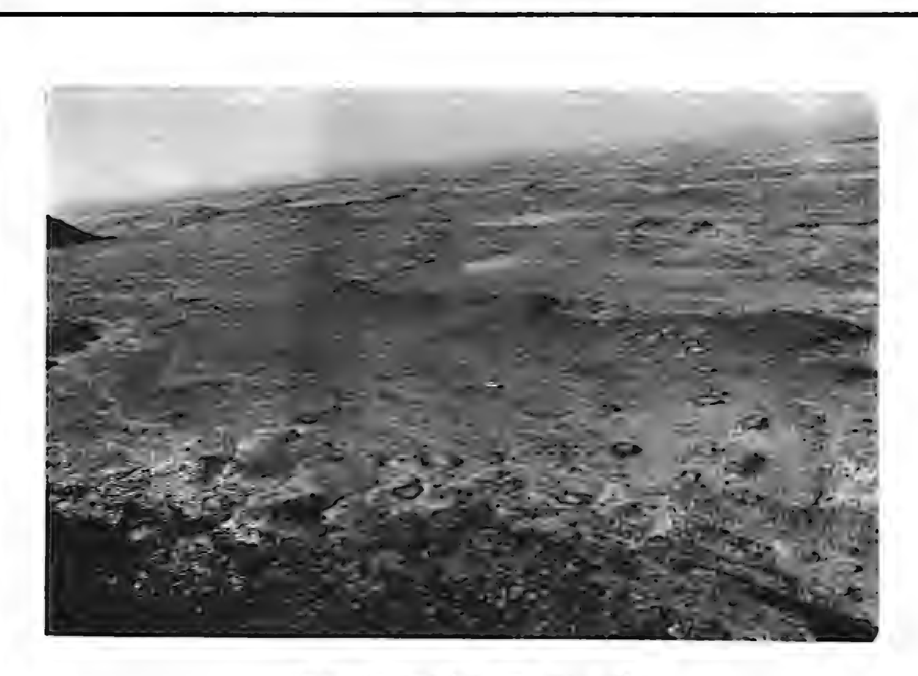


Fig. 5 General view of the room units



Fig. 6 A view of the west part of the room units.



Fig. 5 General view of the room units



Fig. 6 A view of the west part of the room units.

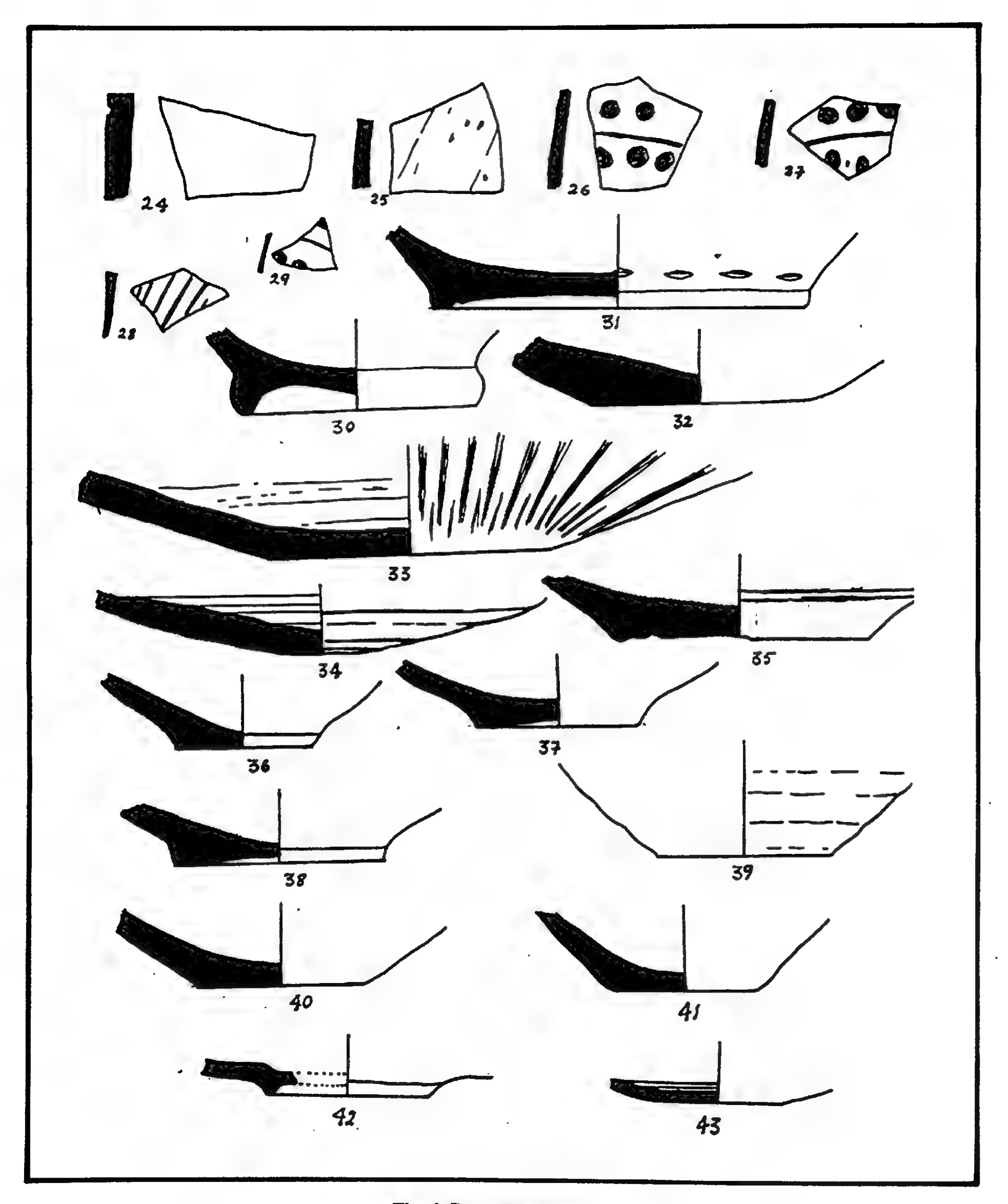


Fig. 4. Pottery drawings

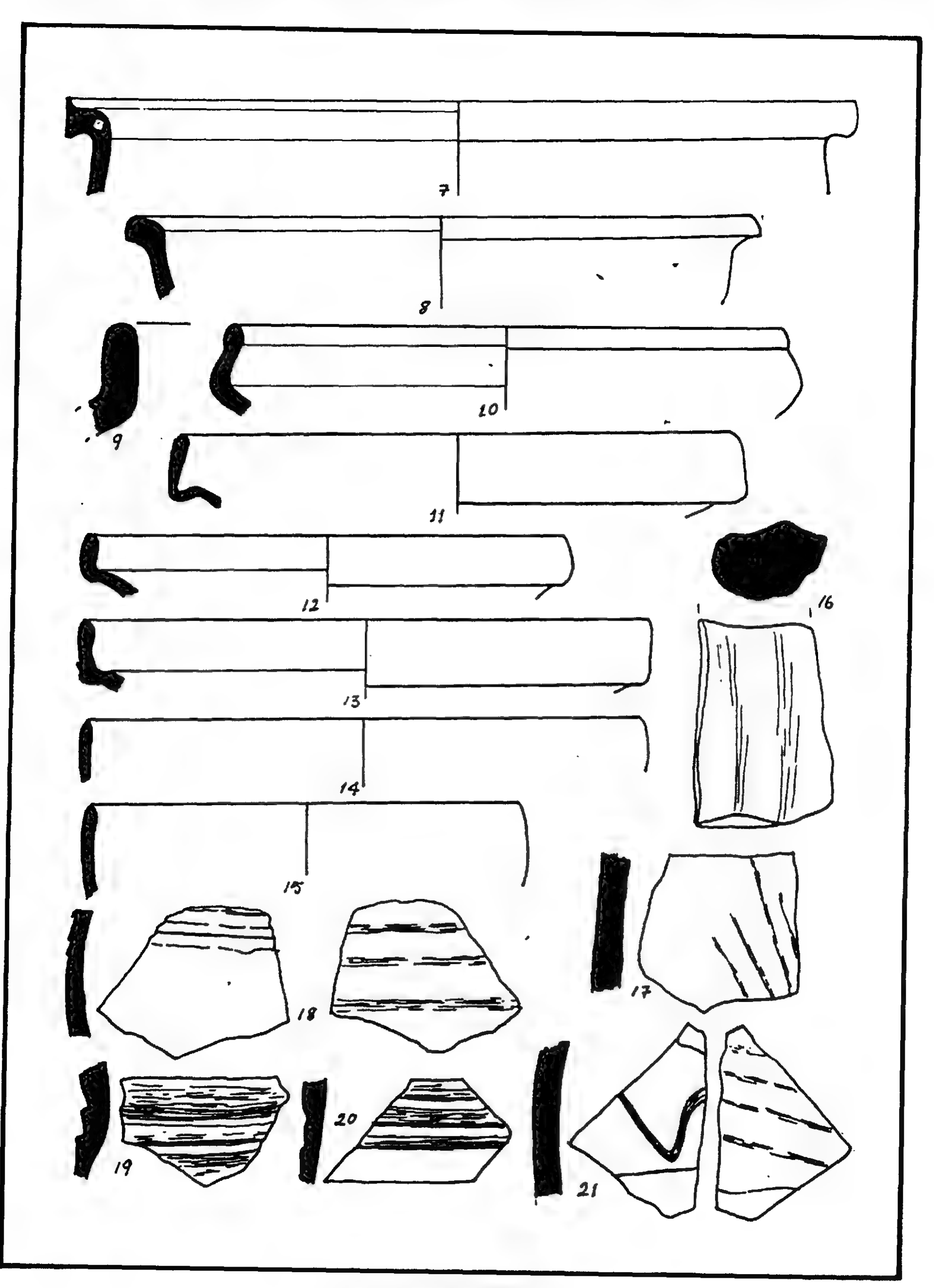


Fig. 3. Pottery drawings

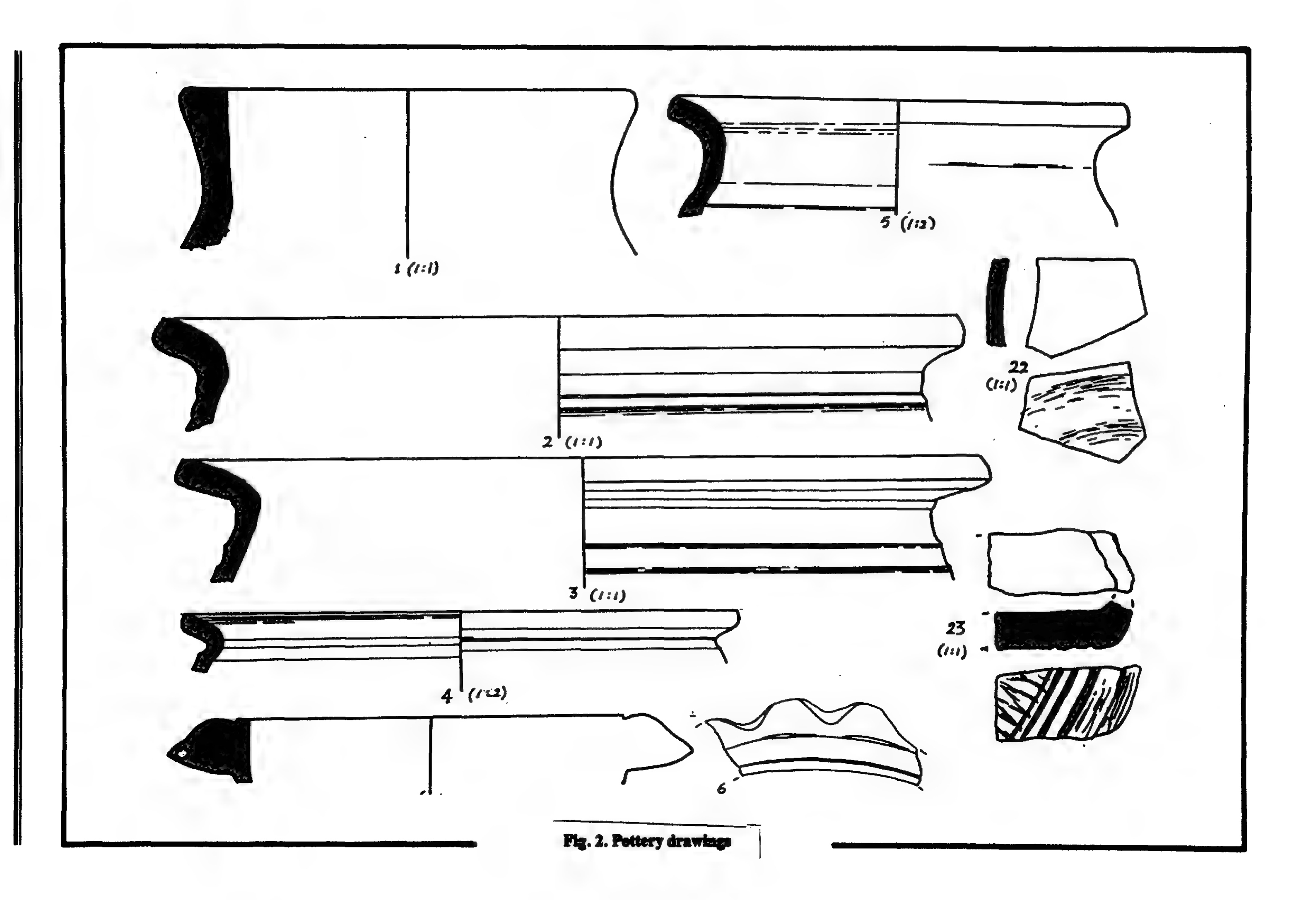


Fig. 2. Pottery drawings

Map 1 Location of the site.

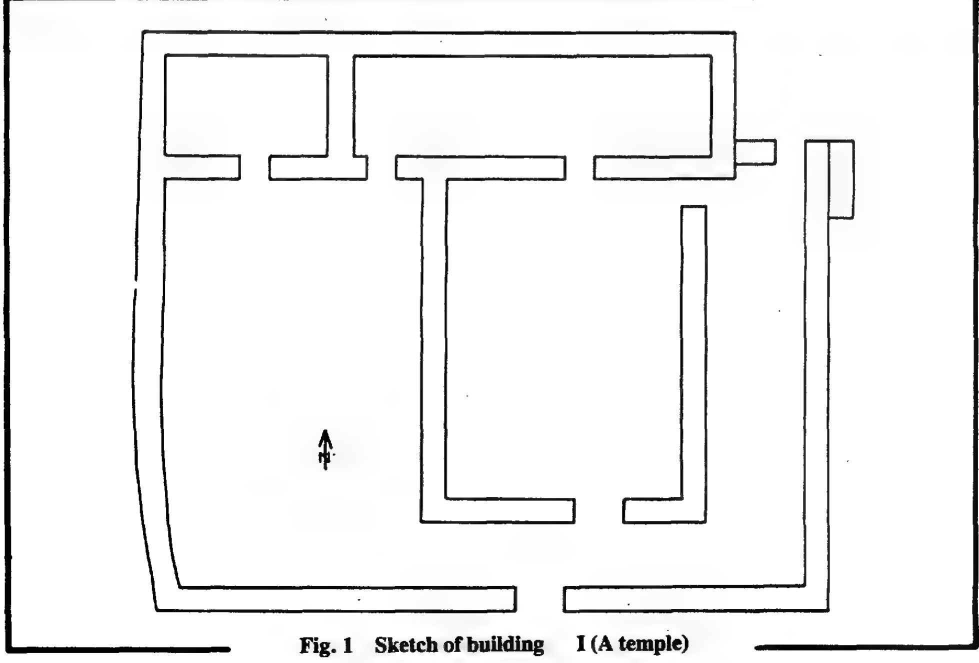


Fig. 1 Sketch of building I (A temple)

27. See No. 26.
28. "Egg-shell" fragment of plate, painted with straight lines, red surfaces.
29. See Nos. 26, 27.
30. Ring base, red ware, red wash on exterior, small grits.
31. Fragment of ring base, light red ware, red wash on exterior, very well burnished on the exterior oval shape incision on lower body, small grits.
32. Base and body fragment, flat base, light reddish brown ware, reddish yellow wash on interior, large grits.
33. Fragment of flat base and part of body, light red ware, reddish brown slip on exterior, sun-ray pattern, small and large grits.
34. Fragment of base, dark grey ware, small and large bits.
35. Fragment of flat base, blue glaze on both interior and exterior, incised decoration, small grits.
36. Base and body fragment, disk base, brown ware, brown wash on exterior and reddish yellow on interior, small grits.
37. Base and body fragment, disk base, reddish yellow ware, smooth surfaces, small and large grits.
38. Base and body fragment, disk base, light red wash on both surfaces, smoothed surfaces, small grits.
39. Base and body fragment, disk base, light red ware, pinkish slip on interior, small grits.
40. Base and body fragment, flat base, light red ware, pink wash on interior, small grits.
41. Base and body fragment, flat base, light red ware, well levigated.
42. Base and body fragment, ring base, light red ware, small grits.
43. Base and body fragment, flat base, light red ware, red slip on interior, grooved lines on inside, well levigated.

B.C. - A.D. 1st century.[29]

Since the pottery of Qyāl site resembles that which has been found at different Nabataean sites, it can be dated to the 1st century B.C.-A.D. 1st century presumably, the site was abandoned by the beginning of the second century A.D. when Petra was overpowered by the Romans, consequently, Nabataean trade and caravans have been effected.

Catalogue of Pottery (Figs. 2 – 4)

1. Fragment of Jar rim, slightly everted rim, with thickened flat lip, light red ware, red slip on both surfaces, small and large brownish grit.
2. Fragment of Jar rim, heavy out-turned, light red ware, firing traces on both surfaces, incised lines below rim, large black and brownish grit.
3. Fragment of Jar rim, heavy out-turned, light brown ware, firing traces on exterior surface, incised straight lines below rim, large black grits.
4. Fragment of Jar rim, heavy out-turned, light red ware, red wash on interior of rim, small grits.
5. Fragment of Jar rim, out-turned, red ware, red wash on exterior surface, small grits.
6. Cooking pot fragment, out-turned rim with notched decoration and inside groove, pale yellow slip on exterior, small grits.
7. Cooking pot fragment, heavy out-turned rim with inside groove, light red ware, pale yellow slip on exterior, smooth surfaces, small grits.
8. Cooking pot fragment, out-turned rim, red ware, small white and brownish grits.
9. Cooking pot fragment, straight rim, light brown ware, greyish brown wash on exterior rim, large grits.
10. Plate fragment, inverted rim, pinkish slip on both surfaces, small grits.
11. Plate fragment, inverted rim, light red fine ware, reddish yellow wash.
12. Plate fragment, slightly in-turned rim, red fine ware, smoothed on exterior, tracing of firing on both surfaces.
13. Plate fragment, slightly inverted rim, reddish yellow ware, reddh brown wash on exterior, smoothed surfaces, small grits.
14. Bowl fragment, slightly inverted vertical rim, reddish yellow fine ware, red wash on exterior, smoothed surfaces, small grits.
15. Bowl fragment, slightly inverted vertical rim, light brown fine ware, yellow slip on exterior, smoothed surfaces small grits.
16. Handle fragment, grooves on upper part, light red ware, traces of firing on exterior, small grits.
17. Body fragment, light red ware, reddish brown slip on exterior, incised lines, smoothed surfaces, smal and large grits.
18. Body fragment, reddish brown slip, incised decoration, smooth surfaces, small grits.
19. Body fragment, reddish brown slip, grooved decoration, small grits.
20. Body fragment, reddish brown slip, grooved decoration, small grits.
21. Body fragment, light red ware, well levigated, incised straight and wavy lines, small grits.
22. Body fragments, light red ware, greyish brown slip on exterior, red wash on interior, small grits.
23. Body fragment, dark green glaze on exterior, pale olive glaze on interior, incised decoration.
24. Body fragment, green glaze on exterior, pale olive glaze on interior.
25. Body fragment, red ware, very well levigated on exterior, small and large grits.
26. "Egg shell" fragment of painted plate, red surfaces, brown coloured dots.

(29) Parr, "A Sequence", p. 370; painted Nabataean ware was discovered during recent excavation at Mad'in Salih, see: Daifullah al-Talhi, M. al-Ibrahm, and J. M. Mursi, "Preliminary Report on al-hijr Excavations during the First Season 1406, 1986", *Atal*, II (1988), pp. 47-57.

rawet, temples.

To the south and west of the building there are stone enclosures, whose walls consist of one or two courses of sandstone masonry. These walls probably had some function with the site as a military post.

3 – Building II (Fig. 8)

This building is located about 200 m to the west of the room units at the foot of the mountain. It consists of a large enclosure in the form of U shape, with its long adxis oriented north-south, and its western wall is longer than the eastern one. Northern side of the structure is completely opened, and there is no sign of any foundation. Walls are preserved to more than one meter in height. At the south eastern side of the building there is a door opening which leads into the structure. At the middle of its interior traces of a wall probably was dividing it into two parts.

Building technique and stone masonry used, were of different nature compared to that found at other parts of the site. However, the well known sherds found on other parts of the site, (other than three greenish coarse sherds which we could not identify), were absent here. The plan of the structure suggests that function of the building was not domestic or for dwelling purpose. Building technique is similar to that of Marid castle at Dūmat al-Jandal.[22]

From the evidence now available it is not possible to have an exact date of the site. Hopefully, future work may reveal more evidence. In the light of the present work the building appears to belong to a pre-Nabataean period.

Inscriptions

More than 20 Nabataean inscriptions were found within the room units, on the sandstone rocks at the southern and northern edges of the site, as well as on the sandstone surfaces. Most of them are in bad condition, being weathered. However, they are significant for the identification of the site. Three Thamudic inscriptions were also found at the northern side of the room units. They seem to be contemporary with the site, since we found one of the text inside one of the room, and represent Thamudic involvement in Nabataean trade.

Pottery (Figs. 2 – 4)

More than 200 sherds were collected from different parts of the site out of which 43 sherds are present in this study. The most common shapes are that these sherds come from Jars, Cooking pots, Plates, Bowls and Small cups. These are either medium coarse or fine painted and unpainted wares. Surface treatment of some sherds are burnished or smoothed and in many cases coated with a slip or wash. Large number of sherds can be identified as Nabataean and are comparable to the material found in many Nabataean sites, such as Petra[23], Er Rueihi[24], Umm Harga[25], and Dūmat al-Jandal.[26] Seven sherds of the "egg-shell" type, painted with straight lines and scattered dots, were collected from the site (Nos. 26 – 29, Fig. 4). This well known Nabataean fine ware has been found in most of Nabataean sites in Jordan, such as Petra[27], as well as Mad in Sālih in northern Arabia[28], and it has been dated to 1st century

(21) Patrich, *The Formation*, p. 44, a, d.

(22) Al-Muaikel, "Critical study", pp. 106-136.

(23) P. J. Parr, "A Sequence of Pottery from Petra", In: J. A. Sanders (ed.), *Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century* (New York: n.p., 1970), Fig. 2, No. 17, Fig. 3, Nos. 23, 30, 37; M. A. Murray, and J. C. Ellis, *A Street in Petra* (London: n.p., 1940), Pls. XIII, XXVII, XXIX; P.C. Hammond, *The Excavation of the Main Theater at Petra, 1961-1962, Final Report* (London; n.p., 1965), p. 80, pl. Lix.

(24) B. Macdonald, *The Wadi el-Hasa Archaeological Survey 1979 – 1983, West – Central Jordan* (Waterloo: Wilfrid Laurier University Press, 1988), p. 210.

(25) Macdonald, *The Wadi el-Hasa*, p. 208.

(26) Al-Muaikel, "Critical Study", p. 18, Figs, XVII, XXVIII.

(27) Murray and Illis, *A Street*, pl. XIII, Nos, 46, 50; P.C. Hammond, "Pattern Families in Nabataean painted ware," *JA*, 63 (1959), p. 375.

(28) Winnet and Reed, *Ancient Record*, pp., 179, 181; Parr, "Preliminary Survey", pp. 23, 35.

the technique suggested for the Midianite temple at Timna,[13] however the temple dated to the second millennium. In Tihamah region a similar manner of roofing used to a recent time, but instead of tent a hut used.

The rooms which are located at the northern side are well preserved, because they were built on a relatively elevated area than those in the western side. Therefore, their walls were well protected. All units into the open area which they surround it from three sides except on the east.

A large number of pottery sherds were collected from the rooms and the nearby area, mainly the open rectangular area enclosure. Seven of the collected sherds are well known Nabataean "eggshell" painted ware. The remaining sherds comprised of the number of fine plain Nabataean rims and body sherds as well as a large quantity of incised decorative sherds. A number of Nabataean and few Thamudic inscriptions were also found on the surface of the sandstone rock at the edge of the site.[14] The archaeological and epigraphical evidence confirm the identity of the Nabataean with the site. The nature and character of the site has certain resemblance with that of Khirbet Amri, located 25 km south-south east of Azraq in Jordan, however N. Glueck had identified it as a Caravan station.[15] P. Parr also briefly mentioned a possible site at Qurayyah[16]. The peculiar location of the site in the remote area within the highest mountains in the region, and the discovery of Nabataean inscriptions[17] eastern side of the site, mentioning a number of Nabataean military ranks clearly suggested that the site was a Nabataean military post which guarded the trade routes passing through Wadi al-Sirḥān and traversing eastern and southern Arabia.

2 – Building I (Fig. 1)

This building is situated on top of a large low summit at the eastern part of the mountains overlooking the room units on the south. Building is rectangular, 17.60 × 15.40 m. Its main doorway is located in the middle of its southern wall, while another side entrance is at its northern corner. Main doorway leads to an open courtyard of spacious room measuring about 8.30 × 5.80 m and having three door openings. The main door is at its southern side, and second leading to a rectangular room at its north side, while the third one is at the northeastern corner which leads to a corridor on the east. To its north and along the northern side of the building there are two rooms, a small one at the northwestern corner, and a large rectangular room to the east. The walls of the building are built of sandstone masonry, and their present height is less than one meter. However, its original height must have been more than the present height since a large quantity of fallen stones may be of walls were found scattered around. Inside the building was found plain and incised pottery sherds, they are identical to some of the sherds collected from the room units, however painted and fine Nabataean ware resembling those found in nearby room units was not found here. Nevertheless, their similarity to those from the room units suggests that the building and the room units were probably contemporary. The plan of the building and its position on top of the summit suggest a religious nature more than secular, and most probably a Nabataean temple, since the Nabataeans do not have a regular temple plan[18]. Moreover, the plan has some resemblance with the sanctuary at Ras al-Aniyah[19], near Kaf in Wadi al-Sirḥān and slight resemblance with Khirbat Tannur[20], and Qas-

(13) Patrich, *The Formation*, p. 174, III 58.

(14) S. al-Theeb has suggested that these inscriptions date to the 1st century B.C. – A.D. 1st century.

(15) Glueck, "Wadi Sirhan", p. 15.

(16) P. J. Parr, G. L. Harding, and J. E. Dayton, "Preliminary survey in N.W. Arabia, 1968", *BIA*, Nos. 8, 9 (1986-69), p. 229.

(17) Winnett and Reed, *Ancient Record*, pp. 142-144, Nos. 1-14.

(18) Patrich, *The Formation*, p. 45.

(19) Winnet and Reed, *Ancient Record*, pp. 59, 60, Fig. 74.

(20) N. Glueck, *Deities and Dolphins* (London: n. p., 1965), p. 621.

writer was able to carry out excavations at al-Jawf, where Nabataean material culture was also obtained from Marid castle and its surroundings at Dūmat al-Jandal. This confirmed Nabataean presence at al-Jawf, from the 1st century B.C. until the end of Nabataean period[9].

Epigraphs provides a further evidence of Nabataean activities in the area. Inscriptions which have been published by Winnett, particularly a tomb-stone from Dūmat al-Jandal dating to the thirty fifth of the reign of Aretas IV A.D. 24[10], and the inscription published by Savignace which records a dedication of sanctuary at Dūmat al-Jandal dated to the reign of King Malichu II A.D. 40-70.[11] In a recent field investigation at al-Jawf, a number of Nabataean inscriptions have been recorded by the present writer. The inscriptions testify to the Nabataean involvement in al-Jawf as early as the first century B.C.

The site of Qyal, subject of this paper, adds new cogent prove of the Nabataean presence in Northern Area.

Location and General Description: (See Map 1)[12].

Qyāl site is situated about 12 km north west of Sakākā, and is accessable by an asphalt road which ends 2 km short of the site. The road was intended to connect the farms, which are located north west of Sakākā, with the city. The site which has not been previously mentioned was discovered by the writer during the summer of 1990. Site is named after Qyāl mountain due to its being located on the low summit and the southern foot of the mountain. Typography of the location constitutes a hight leveled area ovelooking the whole surroundings. Qyāl mountain are considered to be the highest peak in the area. Therefore, this physical features could shed some light on the function of the site, the subject of our study.

Architectural remains at the site consist of three distinctive features: (A) Group of room units located at the souther foot of the mountain, (B) Building I, situated on top of the low summit of the mountain, and (C) Building II, located 200 m to the west of the room units.

1 – The Room Units (Figs. 5, 6)

Remains of these units spreading over an area of about 150 × 200 meters and forming a succession of detatched rooms built along the west and northern edge of the elevated spot (Fig. 5). They consist more than 23 separate units, twenty of them formed of circular and semicircular rooms. The remaining three units constiute two semidetached rectangular rooms and one rectangular single room. In addition to a large rectangular enclosure to the south east of the units. Rooms units vary in their sizes. The circular ones are of 2-7 m in diameter, whereas the rectangular ones are 3.10 × 5.40m to about 5.50 × 6.00 m. All units are built of dry sandstone masonry, which is now in state of dilapidation, except of two of the rectangular units which appear to be better preserved than the rest of the rooms.

The remains of all room units are well preserved and are visible above the bedrock. Therefore, the height of the walls could be determined as number of them have preserved their original walls to a height of more than one meter. We may assume that the original height of walls was of the same average as some of the standing walls, since the site has not been covered by sand and does not seems to have been reoccupied after it was abondoned.

The height of walls suggest that a tent was probably used for roofing the rooms in the same way as

(9) Al-Muaikel, "Critical Study", pp. 89-96, 243.

(10) Winnet and Reed, *Ancient Record,* pp. 142-146, No. 16.

(11) R. P. Savignac, and J. Starcky, "Ure inscription nabate'enne provenant du Djof", *R. B,* Lxiv, (1957), pp. 196-217.

(12) During a survey undertaken by the writer in 1986 and more recent survey by the writer and S. al-Theeb, in summer of 1990, more than 50 Nabataean texts were recorded, those and other published by Winnett will appear in a book, in Arabic, about Nabataean period in al-Jawf by the writer and S. al-Theeb.

Ages, Vol. 8, Part 1, 5-16(1993)

QYĀL – A NABATAEAN MILITARY POST N. W. OF SAKĀKĀ, SAUDI ARABIA

Dr. Khaleel I. Al-Muaikel

Abstract. **This study deals with a new Nabataean site discovered recently by the present writer in the Jawf region. The location and character of the site suggest that it was a Nabataean military post. This is evidenced from the pottery collected from the site which comprises well known painted Nabataean sherds and was never been found before in the area, and by the Nabataean inscriptions. The site is dated to the 1st century B.C. – A. D. 2nd century.**

Background

Nabataean presence in northern Arabia is attested by numerous existing monuments and archaeological finds. The fact that northern Arabia formed the sourthern part of the Nabataean Kingdom is now largely accepted among scholars[1].

Trade routes, which passed through the Oases of northern Arabia brought in the Nabataeans into the area[2]. Neighbouring places, like Wadi al-Sirḫān and al-Jawf, were also vital to the Nabataean Caravan trade. N. Glueck has suggested that through Wadi al-Sirḫān the Nabataeans were able to penetrate into Syria and establish a strong foothold there[3]. Nabataean Caravans, were affected by Roman discovery of the monsoon secret[4], which shifted the traffic through Wadi al-Sirḫān[5], and consequently Dūmat al-Jandal became a focal point for goods passing through the ports of eastern Arabia. From then, they were transfered by the Nabataeans to Um al-Jimal and Bosra[6]. Evidence of Nabataean control in Wadi al-Sirḫān has been confirmed by the discoveries made by Winnett at Qurryāt al-Milh[7], and by Parr at al-Jawf[8]. The present

(1) J. Patrich, *The Formation of The Nabatean Art* (Jerusalem: The Hebrew University, 1990), p. 21.

(2) K. I. Al-Muaikel, *"Critical Study of the Archaeology of the Jawf Region of Saudi Arabia with Additional Material on Its History and Early Arabic Epigraphy"*, unpublished Ph.D. Thesis, University of Durham, Durham, 1988, p. 16.

(3) N. Glueck, "Wadi Sirhan in North Arabia", *BASOR*, 96 (1944), p.11.

(4) Al-Muaikel, "Critical Study", p. 43; J. A. Montgomery, *Arabia and the Bible* (Philadephia; n.p., 1934), p. 71; A. H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea* (London; n.p., 1912), p. 5, 6.

(5) For Wadi al-Sirhan See: Glueck, "Wadi Sirhan", pp. 7-17; G. W. Bowersock, *Roman Arabia* (London: Harvard University Press, 1983), pp. 154-159; S.T. Parker, *Roman and Saracens: A History of the Arabian Frontier* (Winona Lake: American Schools of Oriental Research, 1986), p. 116.

(6) Bowersock, *Roman Arabia*, p. 156; I. Abbas, *Tarikh dawlat 'al-anbat* (Amman: Dar al-Shuruq, 1987), p. 107 (in Arabic).

(7) F. V. Winnett, and W. L. Reed, *Ancient Records from North Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, 1970), pp. 59-60.

(8) R. M. Adams, P. J. Parr, M. Ibrahim, and A. S. al-Mughanum, "Preliminary Report on the First Phase of the Comprehensive Archaeological Survey Program," *Atlal* I (1977), p. 38; al-Muaikel, "Critical study", pp. 15-19.

All MSS should be addressed to :

- Mars Publishing House,
P. O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia.
The Arabic Publishing & Distribution House Ltd.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

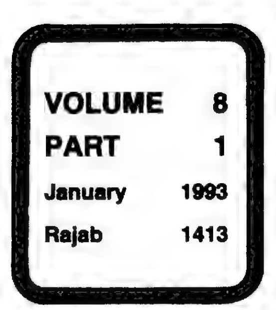
Ages, Vol. 8, Part 1, 1-16 Eng., 1-248 Ar.(1993)

English Section

القسم العربي



A Semi - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies


VOLUME 8
PART 1
January 1993
Rajab 1413



Published by: **Mars Publishing House London**



مجلة علمية نصف سنوية، مُحكّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الثامن
الجزء الثاني
يوليو ١٩٩٣م
محرم ١٤١٤هـ



تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن



المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم يتفق بشأنها مع :

ـ دار المريخ للنشر – ص ب : ١٠٧٢٠ الرياض : ١١٤٤٣ – المملكة العربية السعودية

ـ الدار العربية للنشر والتوزيع – ٤٩ جولد هوك رود، لندن – W128QP – المملكة المتحدة

الاشتراكات السنوية :

ـ المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي

ـ الدول العربية (٣٥) دولارا أمريكيا أو ما يعادلها .

ـ الدول الأوروبية (٤٠) دولارا أمريكيا

ـ أمريكا وكندا (٤٥) دولارا أمريكيا

ـ استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولارا أمريكيا

العصور، المجلد الثامن ، الجزء الثاني، ٢٤٩ ـ ٤٧٠ القسم العربي، ١٧ ـ ٣٤ القسم الانجليزي (١٩٩٣م).

المحتــويات

القسم العربي

English Section

العصور، المجلد الثامن، الجزء الثاني، ٢٥٥ ـ ٢٦٦ (١٩٩٣م).

سمات مشتركة بين فخار وسط الجزيرة العربية وشمالها الغربي

للدكتور **عبد العزيز بن سعود الغزي**

ملخص البحث : **يتناول هذا البحث درسة مقارنة لمجموعة من الكسر الفخارية التقطت من موقع بئر وطيف في واحة العلا، شمالي غرب المملكة العربية السعودية، بأنماط جمعت من موقع «٣٠/٢٠٧» بواحة الخرج في الإقليم الأوسط للمملكة، ومن خلال المقارنات أمكن الاستدلال على وجود سمات مشتركة بخصائص متجانسة بينهما، الأمر الذي يشير إلى تراث فخاري مشترك في فترات ما قبل الإسلام. ويحتوي البحث على تصنيف للمجموعة الفخارية، ومقارنة لها بما يماثلها في مواقع شمالي غرب المملكة العربية السعودية، وثم قدم مقارنة لنفس المجموعة مع فخار الموقع «٣٠/٢٠٧»، واستنتاجاً بخصوص تأريخها.**

مقدمـــة

تعتمد هذه الدراسة على مجموعة من الكسر الفخارية تتكون من ثلاث عشرة كسرة التقطت من موقع يُعرف محلياً باسم «قلعة بئر وطيف»، الواقع إلى الجنوب الغربي من الخريبة بحوالي ٥٠٠م وذلك أثناء المسح الأثري الذي قام به الزميل عبد الله نصيف عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.[1] واعتمدت المنهجية التي استخدمت في تصنيف هذه المجموعة أسلوب التصنيف بموجب لون العجينة الفخارية، مع محاولة الاستعانة بالسمات الأخرى مثل البنية، والشكل، والصناعة، والزخرفة، وعليه فقد وضعت المجموعة الفخارية في ثلاثة أنماط.

النمط الأول: فخار بني (قطع، ١ـ٧)

تتسم بنية هذا النمط بعجينة بنية غير نقية تشوبها كسر حصى متوسطة الحجم غالبيتها تظهر بلون بني يميل للعسلي؛ ويخالطها، أحياناً، كسر بلون أسود أو أبيض، وتعكس درجة معقولة من الصلابة والجفاف مما يدل على شواءٍ عالي الحرارة، لكنه غير متساوٍ، نظراً لظهور لب (Core) رمادي اللون في أغلب الكسر تتفاوت سماكته من كسرة لأخرى، ولأن العجينة تختلف في لونها من قطعة لأخرى، وأحياناً يتغاير اللون في القطعة الواحدة.

استخدمت البطانة (Slip) في هذا النمط، وهي بصفة عامة بنية اللون، وأحياناً تميل للبني الفاتح،

---

(١) A. A. Nasif, *An Historical and Archaeological Survey of al Ula with Special Reference to Its Irrigation System* (Riyadh: King Saud University Press, A.H 1408/1988), p.26, and Map 4.

وعلى الرغم من أن الموقع يعرف اليوم باسم «قلعة بئر وطيف»، إلا أن عبد الله نصيف يعتقد بأنه جزء من موقع الخريبة المعروف، انفصل عنه نتيجة للنشاط الزراعي في المنطقة ولإنشاء سكة حديد الحجاز. وبخصوص اسم «قلعة بئر وطيف» فهو في نظره اسماً حديثاً ارتبطت نشأته بإنشاء السكان الحاليين لتل القلعة ومزرعتها المجاورة لها. عبد الله آدم نصيف، محادثة شفهية، في جامعة الملك سعود بالرياض، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ولمزيد من المعلومات وخريطة للموقع انظر: سليمان عبد الرحمن الذييب وعبد الله آدم نصيف، «نقوش نبطية من العلا في المملكة العربية السعودية،» **العصور**، المجلد السادس، الجزء الثاني (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤، وانظر ايضا: Nasif, *An Historical*, p. 103. PI. CLXV; P.J. Parr, L. Harding, and J. Dayton, "Preliminary Survey in N. W. Araibia". *Bulletin of the Institute of Archaeology*, nos, 8-9 (A.H. 1390/ 1970), p. 203.

أو البني الضارب للسواد، أو البني المحمر. فإذا كانت بلون بني فاتح، فإنها تكون رقيقة السمك وملتصقة على البدن. أما إذا كانت البطانة باللون الضارب للسواد، فإنها تكون غير سميكة وملتصقة على البدن، غير المتقن، فتظهر على شكل نقط صغيرة كاسية البدن بكامله مع ترك فراغات صغيرة الحجم. وعندما تكون البطانة باللون البني المحمر، فإنها تكون أكثر سمكاً من سابقتها، وملتصقة على البدن، ومتماسكة، وتظهر بشكل قشرة سميكة يمكن فصلها عن سطح الكسرة، وتعكس إعتناء في إعدادها وتطبيقها. وبصفة عامة، يلاحظ إن البطانة في هذا النمط قد تكون على السطح الخارجي للإناء وتشمل السطح الداخلي للحافة. وفي بعض النماذج تظهر على السطحين الداخلي والخارجي معاً. ويتخلل البطانة أحياناً حبوب بيضاء تتفاوت في كثافتها من كسرة لأخرى، ويعتمد ذلك التفاوت على درجة إتقان وإعداد البطانة نفسها.

ولقد استخدم في زخرفة هذا النمط أربعة أساليب تنفيذ. **أولها**، أسلوب الحز الذي استخدم لتنفيذ عناصر زخرفية ممثلة بخطوط مستقيمة وبسيطة، أو أشكال هندسية شبيهة بأنصاف مثلثات محصورة بحزوز على شكل سنابل القمح، أو أشكال ربما تكون بقايا أحرف كتابية أو علامات وسم (شكل ٢: ٦). **وثانيها**، أسلوب الإضافة الذي نفذ بإضافة شريط أفقي له حافة مسطحة. **وثالثها**، أسلوب الضغط بالإبهام الذي زخرف به الشريط المذكور أنفا؛ وذلك باستخدام بطن الإبهام وجانبه على التوالي لتشكيل سلسلة متتابعة من المنخفضات تختلف في أحجامها بطريقة رتيبة فمرة عريضة ومرة أخرى ضيقة (شكل ٢: ٥) **ورابعها**: أسلوب التضليع الذي نفذ به سلسلة من المنخفضات المتوالية أفقيا، مشكّلة سلسلة أخرى من الحافات المتبادلة معها بصورة متتالية (شكل ٢: ٧).

النمط الثاني: فخار رمادي (قطع، ٨ ـ ٩)

يظهر هذا النمط بعجينة رمادية وغير نقية. على الرغم من وجود الشوائب، إلا أنها تكون قليلة وبشكل حبيبات بيضاء صغيرة في حالة كون العجينة ذات صلابة عالية وتماسك ممتاز، وهو ما يلاحظ على كسر الآنية الصغيرة والتي تكون عادة ذات وزن ثقيل بالنسبة لحجمها. أما إذا كانت الكسر من إناء كبير كتلك التي تستخدم لحفظ الأشياء، فإنها تكون مسامية (Porous)، وتكثر فيها كسر الحصى متوسطة الحجم التي تكون غالبيتها كلسية، على الرغم من احتفاظ العجينة باللون الرمادي ونفس درجة الصلابة. ويؤكد لون العجينة وجود طريقة شواءٍ بمحيط خالٍ من الأكسجين «مختزل» (Reduced Firing) حيث حجب الصانع الأكسجين عن مكان الاشتعال للخروج بهذا اللون.

استخدم في هذا النمط بطانة بنية داكنة، ومتماسكة جداً، ورقيقة، ولاصقة بالبدن بصورة ممتازة، ومشوبة بحبوب بيضاء صغيرة الحجم وبدرجة تركيز خفيفة جداً. وتظهر البطانة على السطح الداخلي، والسطح الخارجي. وعندما تكون البطانة على السطح الداخلي تكون أكثر إتقاناً سواء في السمك، أو الالتحام بالبدن، أو النقاوة في التركيب. وقد يظهر هذا النمط بدون بطانة، وفي هذه الحالة تكون سطوح الإناء منعمة بقطعة قماش مبللة. ويتضح أن الآنية الصغيرة قد صنعت باستخدام الدولاب الفخاري، أما الآنية الكبيرة فقد صنعت باليد المجردة.

النمط الثالث: فخار رملي (قطع، ١٠ ـ ١٣)

يتميز هذا النمط بعجينته الرملية المتفاوتة في درجة لونها من كسرة لأخرى. وعجينة هذا النوع عالية الصلابة، لكنها طرية الملمس، وذات مسامية. وتمتزج بها شوائب من حصي متوسطة الحجم وبنية اللون، والتي تظهر، أحياناً، على سطح الكسرة. يبدو أن الكسر التابعة لهذا النمط قد تعرضت لعملية تنعيم متوسطة الجودة أنجزت باستخدام قطعة قماش مبللة.

تظهر على بعض الكسر بطانة بنية مغبرة نوعاً ما ومتماسكة جداً، ويلاحظ أنها قد فقدت بعض أجزائها سواء من على السطح الداخلي أو السطح الخارجي

للإناء. ويظهر في هذا النمط طبقة من الدهان (Paint) الأحمر الداكن على السطح الداخلي للإناء، كما أنه يغطي السطح الخارجي للحافة. ويظهر، أحياناً، بلون بني ضارب للسواد على السطح الداخلي للإناء. ويلاحظ سهولة تقشر طبقة الدهان، مما يدل على أنها سميكة ولم يمتصها سطح الإناء. كما يشير إلى أنها قد أضيفت لسطح الإناء بعد الشواء، أو أن إعدادها لم يكن جيداً، والاحتمال الأول هو الأرجح. لا تظهر على هذا النمط عناصر زخرفية محددة، عدا بعض الحافات والمنخفضات المتوالية أفقيا، والتي، ربما، تعكس إيحاءً زخرفيا، على الرغم من أنها قد تكون ناتجة عن طريقة الصناعة المستخدمة (شكل ١١:٤). حيث لوحظ آثار اللفائف (Coiling) في صناعة بعضها، مما يدل على أن الأواني مصنوعة بواسطة دولاب فخاري بدائي يدار باليد أو يدور حوله الصانع، أو مصنوعة باليد المجردة.

الدراسة المقارنة

يعتبر ما نشرته البعثة الكندية عام ١٩٧٠م أول الأعمال التي تطرقت للأواني الفخارية من موقع الخريبة في العلا. ولقد ذكرت البعثة أنها لاحظت انتشاراً كثيفاً للفخار على سطح التل الأثري، وتعتقد أن بعضه ناتجاً عن حفريات قام بها بعض المواطنين بحثاً عن حجارة جاهزة لاستخدامها في بناء مساكنهم.[٢] وتشير دراسة البعثة إلى أن الامتداد الزمني لفخار الخريبة قد يكون من القرن التاسع قبل الميلاد وحتى العصر الإسلامي الوسيط.[٣] ولكن، أثبتت الدراسات اللاحقة أن الخريبة قد هجرت قبل الفترة الإسلامية بزمن طويل، وربما كان ذلك خلال القرن الأول قبل الميلاد.[٤] كما أشارت دراسات أخرى إلى أنها قد تكون هجرت أبكر مما ذكر، وذكرت القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد كتاريخ محتمل.[٥]

ويوجد في مجموعتنا كسرة خشنة لون عجينتها محمر يميل للوردي، وعليها بقايا حزوز قد تكون في الأصل أحرف كتابية قديمة. ويوجد ضمن مجموعة البعثة الكندية كسرة فخارية اقترح لها تأريخ يعود إلى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد تماثل كسرة مجموعتنا في لون العجينة وتركيبها، وكذلك الزخرفة خصوصاً ما يعتقد بانها أحرف كتابية (شكل ٦:٢).[٦] كما توجد في مجموعة البعثة نفسها بعض الكسر بعجينة لونها محمر يميل للوردي، وتحمل عناصر زخرفية محززة، متمثلة بخطوط مستقيمة أو متعرجة تظهر على البدن أو الحافة. وتشبه في تلك السمات والخصائص بعض كسر مجموعتنا (شكل ٦:٢).

وقد نشرت بعثة بريطانية من جامعة لندن مجموعة فخارية من الموقع نفسه عام ١٩٧٠م. وتوصل أعضاء البعثة إلى أن أغلب المجموعة الفخارية المكتشفة تعود لفترة زمنية تمتد من القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن الأول قبل الميلاد[٧] استناداً إلى عدم وجود أي فخار نبطي مبكر أو هلينستي متأخر ضمن المجموعة.[٨] وتؤيد البحوث الأثرية[٩] والدراسات التاريخية[١٠] الحديثة هذا الاستنتاج، خصوصاً فيما يتصل بنهاية الفترة. كما يذكر أعضاء البعثة أن أغلب الفخار المكتشف يظهر بعجينة لونها رملي متفاوت بين البني والأحمر، وغير نقية، وصلبة. وتظهر عليه بطانة أو تغشية (Wash) في بعض الأحيان، وعليه عناصر زخرفية نفذت بالحز. ونلاحظ ان جميع السمات المذكورة توجد في مجموعتنا (نمط١). إضافة إلى ذلك، فقد أشاروا إلى وجود نماذج قليلة تتسم بعجينة رمادية نقية، وهذا ما نجده في مجموعتنا

---

(٢) F. V. Winnett and W. L. Reed, *Ancient Records from North Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, A.H. 1390/1970), p. 177.

(٣) Winnett and Reed, *Ancient Records*, p. 177, Fig. 83, nos. 1,2,4; Fig. 84, nos, 1, 5-6, 9.

(٤) A. A. Nasif, "The Identification of Wadi-Qura and the Acient Islamic Site of al-Mibyat", *Arabian Studies*, vol. v, (A.H. 1399/1979), p. 1-19; Nasif, *An Historical*, pp. 11, 114-115.

(٥) G. Bawden, "Khief al-Zahrah and the Nature of Dedanit Hegemony in the al-Ula Oasis" *Atlal*, no. 3 (A.H. 1399/1979), p. 71.

(٦) Winnett and Reed, *Ancient Records*, Fig. 83, no.4.

(٧) Parr et al., *Preliminary Survey*, p. 213.

(٨) Parr et al., *Preliminary Survey*, pp. 213-214.

(٩) Bawden, *Khief al-Zahrah*, pp. 71-72.

(١٠) انظر هامش ٧.

أيضـا (شكـل ٣:٩). ونضيف لما ذكـروه أن هذه العجينة قد تكون رمادية وخشنة معاً، إذا شُكل منها إناء كبير (شكل ٣:٨).

وتأتي بعد ذلك دراسة جارث بودن التي انجزت عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، حينما قام بمسح جزء من مدخل وادي المعتدل وحفر بعض الخنادق الاختبارية في موقـع خيف الزهـرة الواقـع في الجانب الشمالي للوادي مباشرة شرق نقطة التقائه بوادي العلا.[١١] ويحتوي الموقع على بقايا معمارية، كما تنتشر الكسر الفخارية على سطحه[١٢]، وعلى جميع أجزاء منطقة المسـح، وقرب المنشآت المعمارية. وقد جمعت أغلب الكسر الفخـاريـة المنشـورة من على سطح المنطقة السكنية والخنادق الاختبارية التي لا يزيد عمقها على ٥٠سم.[١٣] وتـوحي النتيجة التي توصل لها جارث بودن أن المجمـوعـة الفخـاريـة متشاربهة، وتماثل المجموعات المنشورة سابقاً من الخريبة. أما بالنسبة للتأريخ فقد اقترح أن المجموعة تعود للقرون الستة السـابقـة للقـرن الأول قبـل الميـلاد. ومن وصفه لمجموعته[١٤] نجد أن هناك أوجه شبه مع مجموعتنا تتمثل في:

- استخدام الزخرفة المحززة (نمط١).
- لون العجينة الفخارية (شكل ٣:١).
- صفة الخشونة في العجينة الفخارية (شكل ٣:١).
- استخدام الدهان الأحمر (نمط ٣).

وقـد ذكـرت بعثـة جامعـة لندن إمكانية مقارنة الفخـار الخشن من مدائن صالح بمـا وجـدتـه في الخـريبـة، ولكنهـا لم تقـطـع في مسألة التأريخ.[١٥] وأكدت الحفريات الحديثة في مدائن صالح أن هناك نوعاً من الفخار غير المدهون يشابه فخار الخريبة غير المدهون، أطلق عليه اسم الفخار الخشن، ووصف بأنه يحمل بطانة بنية مطبقة على عجينة بنية مائلة للاخضرار أو الاصفـرار. كما ذُكر أنه يشابه فخار قريّة وتيماء الخشن والمتوسط السمك.[١٦] ولكن العمل الحلقي الأخـير الذي نشر حديثاً بخصوص الحجر فـي مدائـن صالح لم يربط الفخار المذكور أو أية معثورة أثرية أخرى بمكان اكتشافها.[١٧] على الرغم من أن الصـورة الفـوتـوغـرافيـة المنشـورة عـن الحفرية توحـي بوجود فترات استيطان مختلفة.[١٨] لذلك فإنه من الصعوبة بمكان معرفة البقعة التي أتى منهـا الفخار في الحفرية المذكورة، أو المواد الأثرية الأخرى المصاحبة، والتي لو تيسرت لكان بالإمكان التحقق من المدلول الزمني له بصورة أكثر دقة. وعلى الرغم من ذلك فإن أهمية الإشارة إليه في التقرير تأتي من تأكيد وجود هذا النوع من الفخار بعد سبع عشرة سنة من ذكره لأول مرة. ومن الوصف الوارد عنه في تقريرهم نجد أن هناك تشابهاً مع نمط ١ في دراستنا.

وبمقـارنة المادة الفخارية من موقع «٢٠٧/٣٠» بالإقليم الأوسط في المملكة العربية السعودية بهذه المجموعة، لوحظ أن هناك أوجه شبه متعددة تتلخص في النقاط التالية:

١ ـ إن نمط ١ في هذه الدراسة يبدو مشابهاً لنمط ٩ في فخار موقع ٢٠٧/٣٠.[١٩] فبعد مقارنة الكسر من كلا الموقعين نرى أنها تشترك في عدة نقاط، هي:

(أ) لون العجينة ومحتوياتها.

(ب) طريقة الشي.

(جـ) لون البطانة وتماسكها وسمكها.

(د) الزخرفة الحبلية المضافة، والمحززة، والمصبعة.

---

(١١) Bawden, *Khief al-Zahrah*, p. 65, and, Pl.44.

(١٢) Bawden, *Khief al-Zahrah*, pp. 65-69.

(١٣) Bawden, *Khief al-Zahrah*, pp. 68, and Pls. 45-47.

(١٤) Bawden, *Khief al-Zahrah*, pp. 68-71, and Pls. 45-47.

(١٥) P.J. Parr, L. Harding, and J. Dayton, "Preliminary Survey in N. W. Arabia". *Bulletin of the Institute of Archaeology*, no. 10, (A.H. 1392/1972), p. 23.

(١٦) محمد البراهيم وضيف الله الطلحي، «تقرير مبدئي عن نتائج حفرية الحجر»، **الأطلال**، عدد١١، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٦٦.

(١٧) البراهيم والطلحي، **تقرير مبدئي**، ص ص ٦٠ ـ ٦٦.

(١٨) البراهيم والطلحي، **تقرير مبدئي**، لوحة ٤٩.

(١٩) Abdulaziz Saud al-Ghazzi, *A Comparative Study of Pottery from A Site in the al-Kharj Valley, Central Arabia*, Unpublished Ph. D. Thesis, Institute of Archaeology, University College, Univesity of London, (A.H. 1410/1990), p. 167-168.

(هـ) صلابة العجينة الفخارية ونشوفتها.

٢ ــ إن نمط ٢ في هذه الدراسة يشابه نمط ١٠ في موقع ٢٠٧/٣٠.[٢٠] يظهر التشابه في نواحي عديدة أهمها العجينة الصلصالية، وثقل وزن الكسرة بالنسبة لحجمها.

٣ ــ يشابه نمط ٣ في هذه الدراسة نمط ٧ في موقع ٢٠٧/٣٠ في ظهور طبقة دهان سطحية متقشرة (شكل ٤: ١٣).[٢١]

إن التشابه مع فخار موقع ٢٠٧/٣٠ واضح، خاصة مع نمط ١ في هذه الدراسة الذي يظهر وكأنه نسخة من نمط ٩ في الموقع المذكور مما يدل على تراث فخاري مشترك، أو اتصال بشري بين المنطقتين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الدراسات التي أجريت قبل عشرين سنة تقريباً اقترحت حدوث هجرة من العلا إلى منطقة اليمامة خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. كما أشارت إلى أن الدراسات الأثرية في المستقبل قد تؤكد ما ذهبت إليه.[٢٢] ومن دراسة هذه المجموعة الفخارية نستطيع أن ندعم ما ذهبت إليه تلك الدراسات، مع التأكيد بأن هذه المسألة بحاجة لمزيد من الدراسة لمواد أثرية من كلا المنطقتين.

ومن دراسة هذه المجموعة يتضح لنا، أيضاً، أن لها ما يشبهها في المواقع المهمة في الإقليم الشمالي الغربي للمملكة العربية السعودية مثل قُريّة الواقعة على بعد ٧٠كم شمالي غرب تبوك، وتيماء، ومدائن صالح، والخريبة. ولهذا فمن المحتمل أن هذه الأنماط الفخارية تعود لفترة استيطان واحدة في تلك المواقع.

وبالنسبة للفترة التاريخية التي تعود إليها مجموعتنا هذه، فإنه من المحتمل ألا تتجاوز النصف الأول للألف الأول قبل الميلاد، وذلك استناداً إلى النقاط التالية:

(أ) وجود قطع أخرى، التقطت من الموقع ولم تنشر بعد، مدهونة بعناصر زخرفية تؤرخ للفترة المذكورة أعلاه.[٢٣]

(ب) ظهور الزخرفة المدهونة في نمط٢، حيث نشرت بعثة جامعة لندن كسرة مشابهة.[٢٤]

(جـ) اكتشاف نمط ١ في قصر الحمراء في تيماء جنباً إلى جنب مع الفخار المدهون.[٢٥]

(د) اكتشاف نمط ١ في خيف الزهرة في العلا جنبا إلى جنب مع الفخار المدهون.[٢٦]

وعليه فإنه يعتقد أن هذه الأنماط تمثل نسخاً غير مدهونة للفخار المدهون في الموقع. وحيث إن الفخار المدهون يؤرخ للفترة الأدومية في جنوبي الأردن وفلسطين (نهاية القرن التاسع وبداية القرن السادس قبل الميلاد)، فإن الاحتمال الأرجح هو أن تؤرخ هذه المجموعة للفترة الديدانية في واحة العلا والتي تعاصر زمنياً الفترة الأدومية أو جزء منها. ولكن ليس هناك سبيل لمعرفة الفترة التي استمر فيها إنتاج الأنماط المتمثلة في هذه المجموعة إلا عن طريق عمل ميداني أثري يوضح التسلسل الطبقي في موقع الخريبة في واحة العلا.

كما يتضح لنا، أيضاً، انه من الأفضل عدم دراسة الفخار المدهون بمعزل عن الفخار غير المدهون في أي موقع أثري. فمن المعروف للجميع أن إنتاجاً معيناً في فترة معينة لابد ان يجمع أنماط تناسب أذواق مختلفة وتؤدي وظائف متنوعة. وعليه فيكون فيه المدهون وغير المدهون، والخشن والنقي ... الخ..

وصف المقطع

١ ــ جزء من حافة (Rim) وبدن (Body) عجينته

---

(٢٠) al-Ghazzi, *A Comparative Study*. p. 169.

(٢١) al-Ghazzi, *A Comparative Study*. pp. 156-157.

(٢٢) عبد الرحمن محمد الطيب الأنصاري، «لمحات عن القبائل البائدة في شبه الجزيرة العربية، **المنهل**، مجلد ٣٠، جزاء ١، (١٣٨٩ ــ ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص ٦٣.

(٢٣) لقد شاهدنا الرسم الذي في حوزتنا للقطع المذكورة، اما القطع ذاتها فهي في حوزة الدكتور عبد الله آدم نصيف، قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(٢٤) Parr et al., *Preliminary Survey*, (A.H. 1390/ 1970), Fig. 5, no.

(٢٥) حامد أبو درك وعبد الجواد مراد، «تقرير مبدئي عن حفريات وتنقيبات قصر الحمراء في تيماء، الموسم الثالث ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، **الأطلال**، عدد١٠ (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، لوحة ١٤٩.

(٢٦) Bawden, *Khief al-Zahrah*, p. 68.

حمراء برتقالية، ومتماسكة جداً، وله لب أسود، وبطانة بنية داكنة ومتقشرة من على السطح الداخلي والسطح الخارجي، كما انه صلب وذو شواء مؤكسد (Oxidizing firing)، وتضم بنيته شوائب من كسر حجارة بيضاء صغيرة كعامل مساعد (Temper)، وهو دولابي الصناعة.

٢ ــ جزء من حافة وممسك (Handle) عجينته حمراء برتقالية، وهو دولابي الصناعة عدا الممسك.

٣ ــ جزء من حافة وبدن عجينته رملية تميل للون الوردي، وغير نقية، وله بطانة بنية فاتحة ومتقشرة من على السطح الخارجي والسطح الداخلي للحافة، وهو صلب وناشف رغم أن الشواء غير جيد، وتضم بنيته شوائب من كسر حجارة متوسطة الحجم وتبّن مضاف كعامل مساعد، وهو دولابي الصناعة.

٤ ــ جزء من قاعدة وبدن عجينته بنية فاتحة وغير نقية، ومسامية، وله لب رمادي، وهو متوسط الصلابة وناشف، وذو شواء مزدوج متوسط الجودة، وهو دولابي الصناعة.

٥ ــ جزء من بدن عجينته حمراء تميل للون الوردي، وغير نقية، ومتوسطة التماسك، وله لب رمادي، وبطانة بنية فاتحة على السطح الداخلي، وبطانة بنية غامقة وغير نقية على السطح الخارجي، وهو صلب وناشف، وذو شواء مؤكسد بشكل جيد، وعليه زخرفة إبهامية مضافة، وهو دولابي الصناعة.

٦ ــ جزء من بدن عجينته حمراء تميل للون الوردي، وغير نقية، ومسامية، وله لب أسود، وبطانة بنية غامقة ومتطايرة وغير سميكة ولاصقة على السطح الخارجي، وهو صلب وناشف، وغير متقن الشواء، وهو دولابي الصناعة، وعليه زخرفة محززة.

٧ ــ جزء من بدن عجينته بنية تميل للون الرملي الداكن، وغير نقية، ومسامية، وله لب رمادي، وبطانة بنية داكنة وغير نقية على السطح الخارجي، وربما بطانة بنية فاتحة على السطح الداخلي، وذو شواء غير جيد، وهو دولابي الصناعة، وعليه تضليع على السطح الخارجي.

٨ ــ جزء من حافة وبدن عجينته رمادية، وغير نقية، ومسامية، وله ربما بطانة رمادية تميل للون البني على السطح الداخلي والسطح الخارجي، وذو شواء مختزل غير جيد، وهو صلب، دولابي الصناعة.

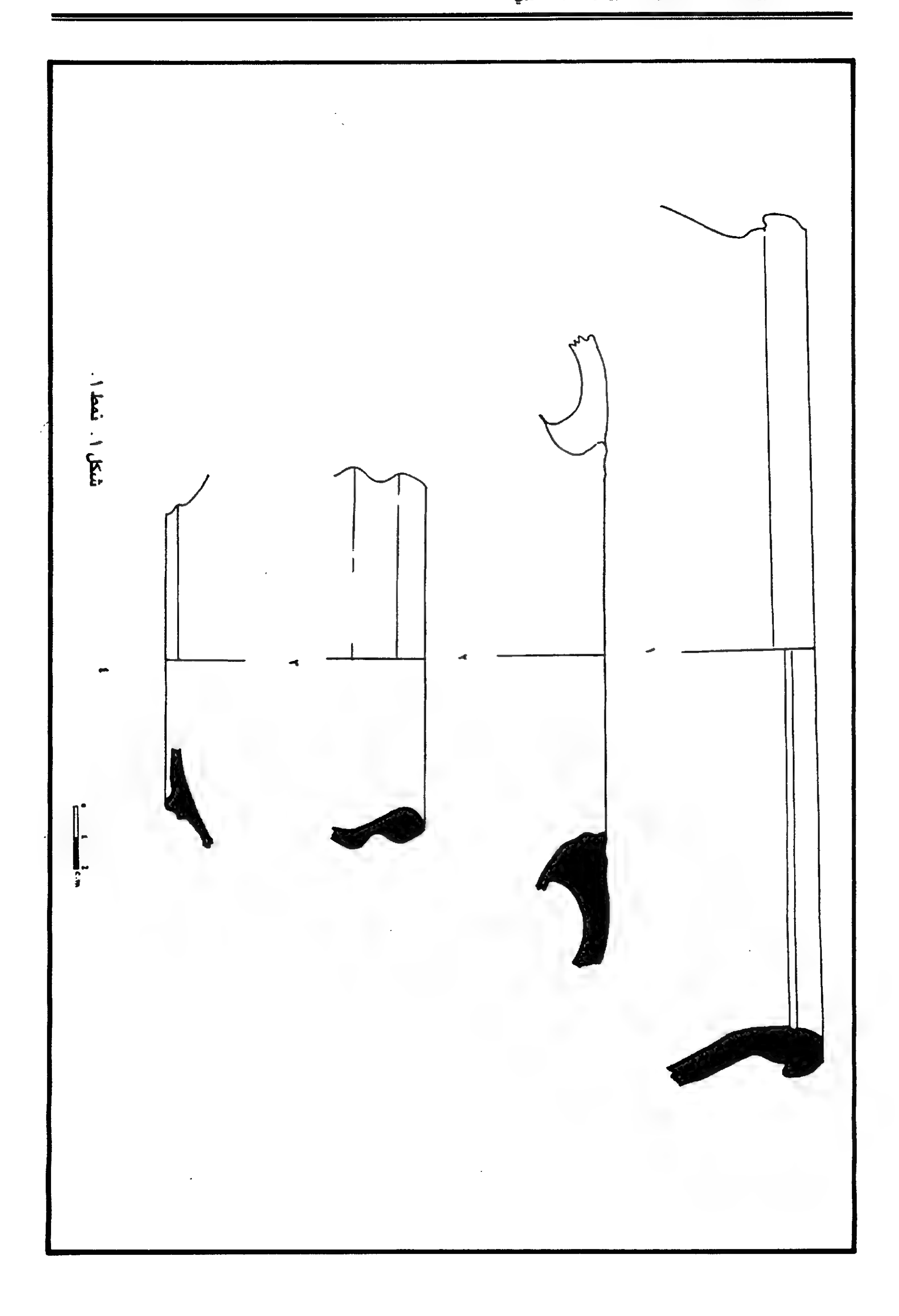
٩ ــ جزء من قاعدة وبدن عجينته رمادية، ونقية، ومتماسكة، وله بطانة بنية داكنة على السطح الخارجي، وهو صلب، وذو شواء مختزل بشكل ممتاز، وهو دولابي الصناعة.

١٠ ــ جزء من حافة وبدن عجينته رملية اللون تميل للون البني الفاتح، وغير نقية، ومتماسكة، وله بطانة بنية داكنة على السطح الداخلي والخارجي، وهو صلب، وذو شواء مؤكسد بشكل جيد، وعلى سطحه الخارجي بقايا أملاح.

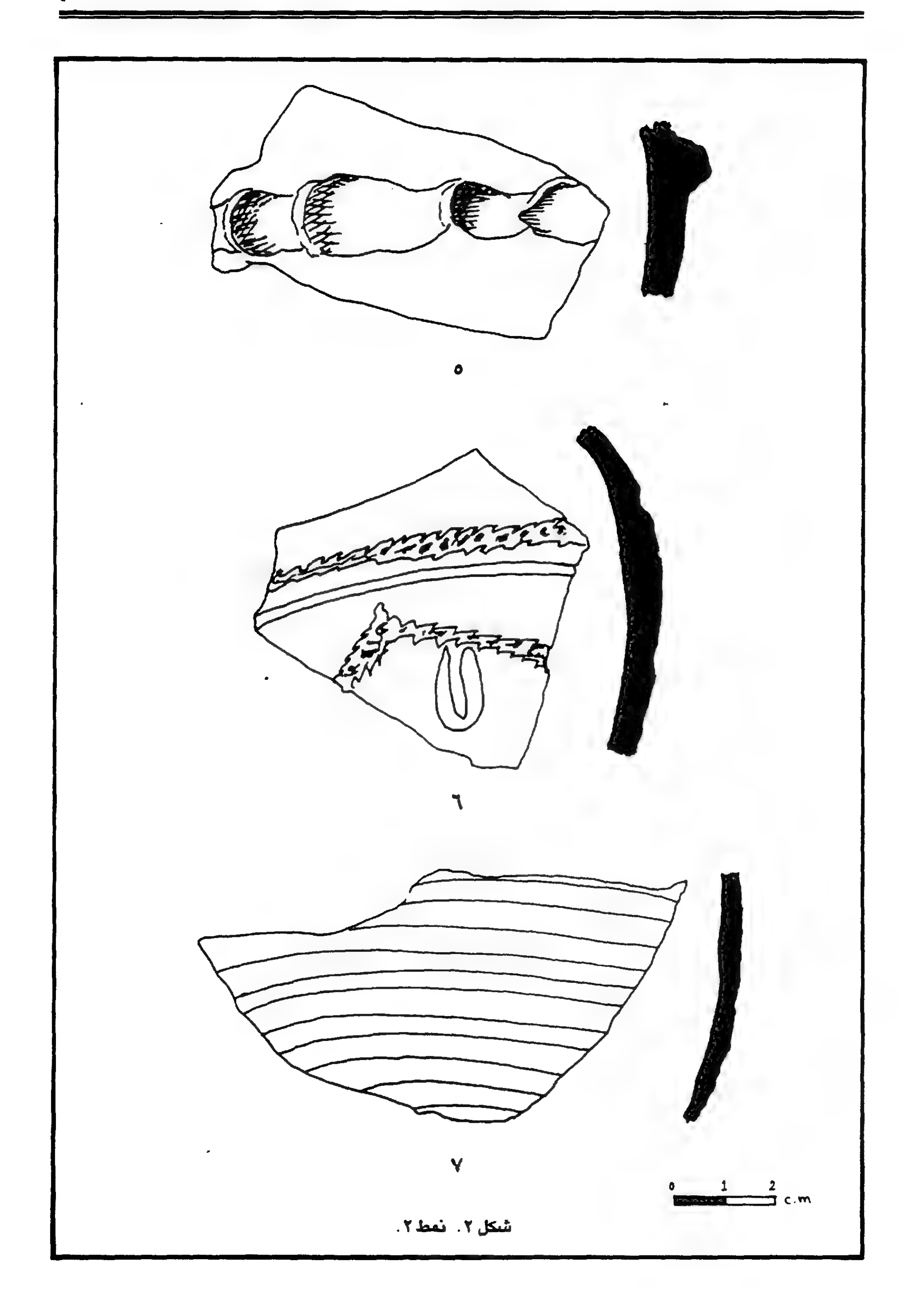
١١ ــ جزء من حافة وبدن عجينته تميل للون الوردي ومشوية للون البني الداكن قرب السطح الخارجي، وغير نقية، ومسامية، وله بطانة بنية اللون وسميكة على السطح الداخلي، وهو متوسط الصلابة، وذو شواء مؤكسد بشكل جيد، وهو دولابي الصناعة، وربما انه صناعة يدوية.

١٢ ــ جزء من حافة وبدن عجينته رملية محمرة، وغير نقية، ومسامية، وله لب رمادي، وعليه دهان أحمر سميك ومتقشر من على السطح الداخلي وربما السطح الخارجي، وهو متوسط الصلابة، وذو شواء مؤكسد بشكل جيد، وهو دولابي الصناعة.

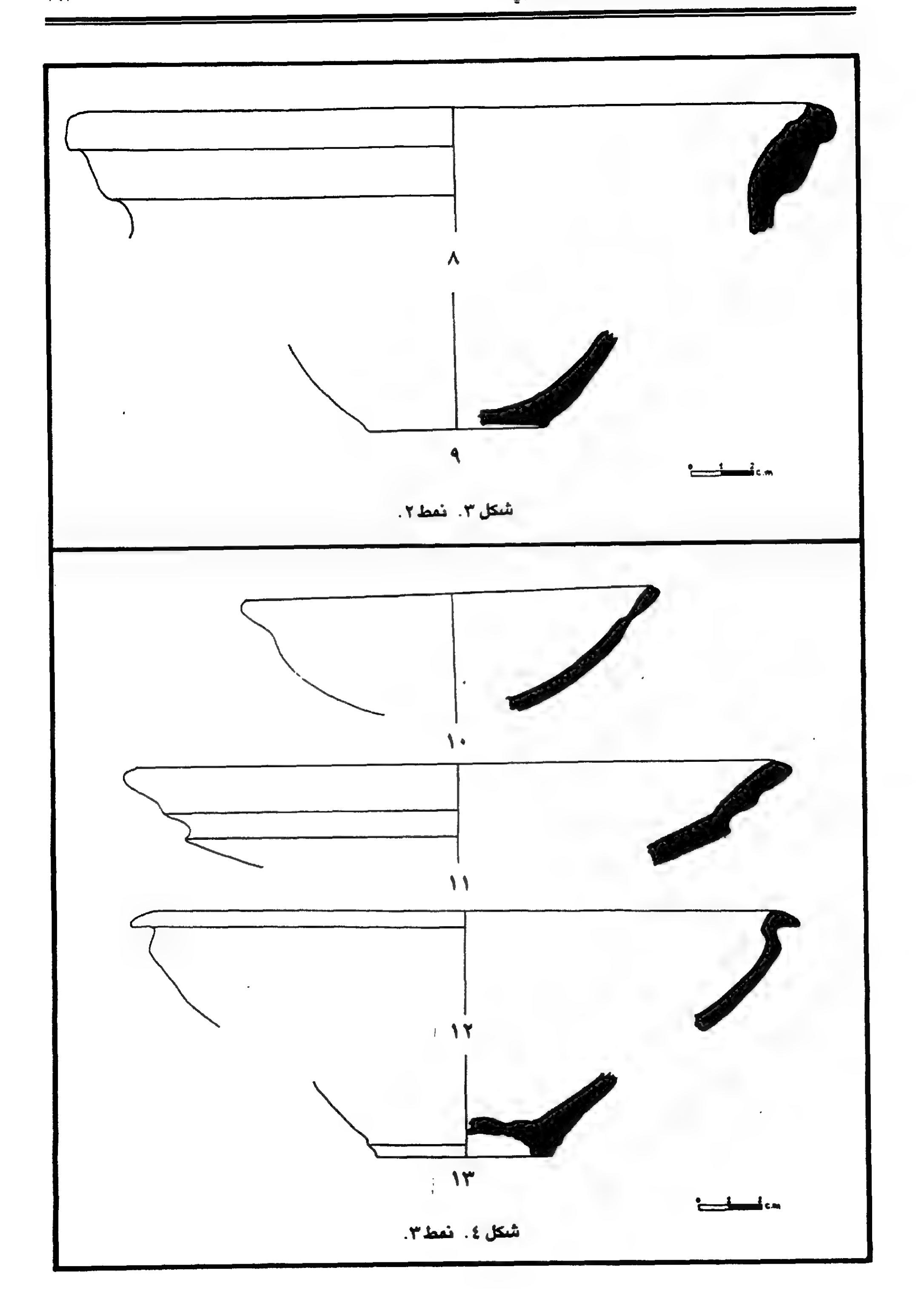
١٣ ــ جزء من قاعدة وبدن عجينته رملية اللون يميل للون الوردي، وغير نقية، ومسامية، وعلى سطحه الداخلي دهان سميك ومتقشر وبلون بني/ ارجواني، وهو متوسط الصلابة، وذو شواء مؤكسد بشكل جيد، وهو دولابي الصناعة.



شكل ١. نمط ١.

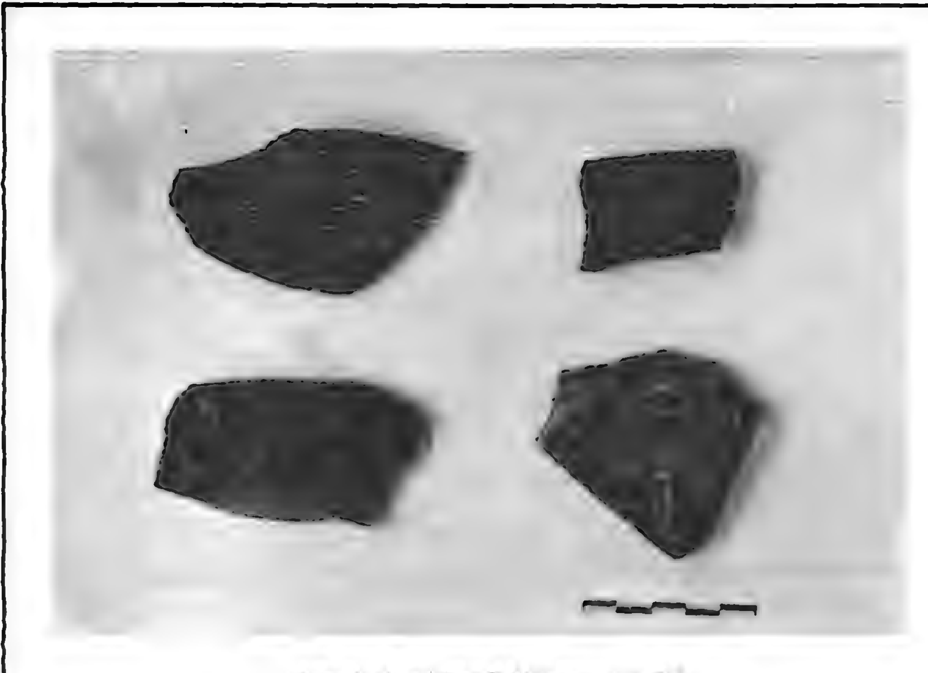


شكل ٢. نمط ٢.



شكل ٣. نمط ٢.

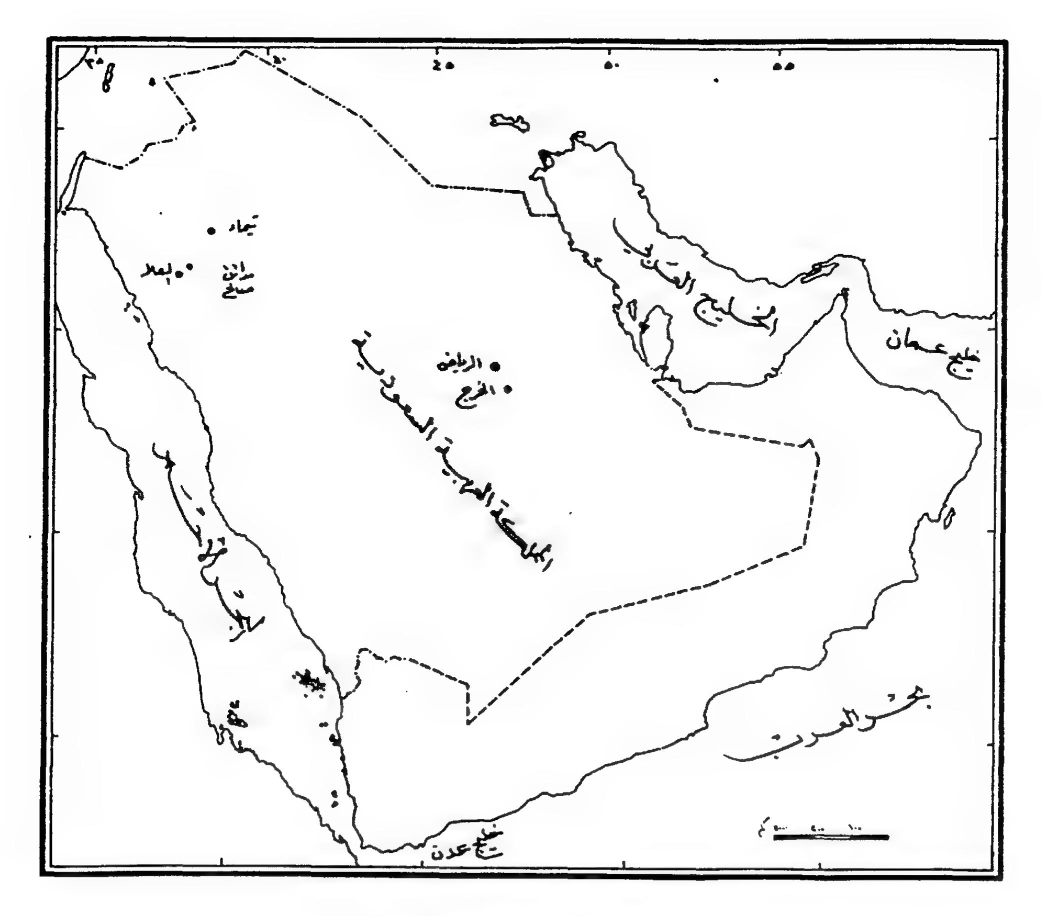
شكل ٤. نمط ٣.



شكل ٥: ١ صورة لنماذج من نمط ١: بئر وطيف



شكل ٥: ٢ صورة لنماذج من نمط ٩. موقع ٢٠٧ - ٣٠ (الغزي، ١٩٩٠)



خريطة تبين المواقع التي جمعت منها الكسر الفخارية

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الثاني، ٢٦٧ ـ ٢٨٨ (١٩٩٣م).

الأبنية المعمارية في خربة دوحلة/ النعيمة في شمالي الأردن: دراسة أثرية

للدكتور صالح خالد ساري

ملخص البحث : دوحلة قرية زراعية في شمالي الأردن شهدت سكناً متواصلاً منذ العصر الروماني وحتى بداية العصر العثماني. يظهر هذا السكن بوضح في أبنية القرية التي مازالت بقاياها قائمة بارتفاعات مختلفة. امكن تمييز وحدتين إنشائيتين غربية وشرقية في المنطقة (A) يفصل بينهما ممر ترابي عريض. أقيمت هاتان الوحدتان خلال مرحلتين مستقلتين، وقد اختلفت تقنية ووظيفة بناء المرحلة الإنشائية الثانية عنها في المرحلة الأولى. أُرِّخت المرحلة الإنشائية الأولى في المنطقة (A) إلى العصر البيزنطي وصدر الإسلام وذلك بناءً على القرائن الأثرية، بينما أُرخت المرحلة الإنشائية الثانية، والتي جاءت غرفها في معظم الحالات ملتزمة بتخطيط نظائرها في المرحلة الأولى، إلى العصرين الأيوبي والمملوكي.

ومن جانب آخر فللموقع اهمية كبيرة، فهو احد المواقع التي يظهر فيها التدمير الأيقوني واضحاً في أرضية الكنيسة التي أزيلت منها، بقصد، صور لكائنات حية. وبهذا دليل قوي على مناهضة مثل هذه الصور.

أكدت التقنيات الأثرية بأن المنطقة (A) سبق وان تعرضت لحالات تخريب متعمد وقلب غير منتظم لطبقاتها الترابية خصوصا داخل غرفها السكنية. يعتقد بان هذا التخريب الطبقي قد حصل مع نهاية العصر المملوكي.

لغايات استيضاح وبيان وظيفة بعض الإنشاءات المعمارية في المنطقة (A) وللكشف عن طبقات ترابيةغير مقلوبة لتساعد في إعطاء تاريخ اكثر دقة، فإننا نوصي بضرورة الاستمرار في تنقيب هذه المنطقة لمواسم أخرى قادمة.

الموقع

دوحلة هي خربة أثرية واقعة على هضبة مرتفعة في منطقة سلسلةِ جبال عجلون في شمالي الأردن، يصل ارتفاعها نحو ٩٠٠م عن مستوى سطح البحر. والهضبة زراعية ملائمة لنمو المزروعات الموسمية والأشجار الدائمة. تربتها حمراء اللون في معظمها ماعدا منطقة السكن*، وهي مفككة وذات حبيبات كبيرة. والهضبة منحدرة بدرجات متفاوتة، تتوسط جهتها الشمالية منطقة قليلة الانحدار استخدمت كمنطقة سكنية في فترات زمنية مختلفة. يظهر شكل الهضبة متقعراً من منتصفه، حيث ترتفع الجهات الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية ارتفاعاً ملحوظاً عن منسوب التقعر، وبذلك يكون هذا التقعر قد أعطى الخربة الأثرية ميزة استراتيجية بصده للرياح

* استخدم الباحث في هذا البحث كلمة «سكن» بدلاً من كلمة «استيطان» التي اعتادها الباحثون اعتقاداً منه انها الانسب.

الـموسميـة الشرقيـة والغـربيـة على حدٍ سواء. أما الجهة الشمالية للخربة فهي عبارة عن منحدر متدرج يؤدي إلى وادي الزاغ.

تبعد الخربة حوالي ٢٥كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة إربد، وإلى الجنوب الغربي من بلدة النعيمة بنحـو ٤كم. وترتبط الخربة مع بلدة النعيمة بطريق ترابيـة في طور التعبيـد. يحيـط بالموقع، خاصة في الجهتـين الشرقية والشمالية، عدد كبير من الخرب الأثرية تتفاوت في قربها أو بعدها عن هذه الخربة[١] (انظر الشكل رقم ١، ٢).

تمتاز الجهتان الشرقية والغربية لهضبة الخربة بصخـرهـا البكـر الذي ظهر نتيجة لعوامل التعرية المختلفـة وبسبب شدة انحـدارها. وتظهر الكهوف الطبيعيـة المتفـاوتـة الحجم في مناطق مختلفة من الخربة وبالأخص في الجهتين المذكورتين والتي تمتاز في معظمها بأبواب لها فتحات عريضة وغير منتظمة الشكل. تؤدي بعض هذه الكهوف إلى غيرها بوساطة فتحة داخلية. كما يظهر أيضا في الجهة الشرقية من الخـربـة بعض الكهـوف المنحوتة في الصخر التي استخدمت كمقابر خلال العصر البيزنطي.

تكمن أهمية هذا الموقع بأنه واحد من المواقع التي شهـدت تدمـيراً أيقـونياً واضحاً في كنائسها. ذلك التـدمـير الذي شهـدنـاه في كلٍ من أم الرصـاص (ميفعة) وماعين.[٢] كما شهدناه كذلك في كلٍ من لوحة فسيفساء الخريطة في مأدبا[٣] وفي مصلّى ثيوتكس في صياغة[٤] وفي كل من كنيستي بيت حنينا[٥]، وكنيسة خربـة أسيدا.[٦] إلا أنها جميعاً أُرخت إلى ما قبل القرن الثامن الميلادي، كما أن التدمير فيها لم يكن بهـذه الدرجـة من الوضـوح كمـا هـو عليـه فـي كنيسـة دوحلة.

لغـايـات البحث والتنقيب الأثري جرى تقسيم الخربة إلى مناطق رئيسة أهمها: منطقة (A) التي تقع في الجزء الغربي من الخربة ومنطقة المقابر البيزنطية الواقعـة في الجهـة الشرقيـة منهـا، ثم منطقة (C) والواقعة إلى الشرق من المنطقة الأولى (A) [٧] (انظر الشكل رقم ٣).

يهـدف هـذا البحث إلـى التعرف علـى المنطقة (A) مـن الموقـع .

تاريخ البحث الأثري

١ ــ المسوحات الأثرية

أجـرى للمـوقع مسحان؛ الأول قام به سيغفرد متمـان Siegfred Mittmann) حيث أجـرى مسحـاً للمـواقع الأثرية في شمالي الأردن وذلك بين الأعوام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦م. أشارت نتائج المسح إلى أن خربة دوحلة قد سكنت في العصر البيـزنـطي والعصـور الإسـلاميـة المختلفـة الأموية والعباسية والأيوبية والمملوكيـة.[٨] أمـا المسح الثاني فقد قام به معهد

(١) صالح ساري، «تقرير أولي عن نتائج التنقيبات الأثرية في خربة دوحلة ـ النعيمة. الموسم الأول ـ صيف ١٩٩٠م» **حولية دائرة الآثار العامة**، مجلد ٣٥، عمان (١٩٩١)، ص ٥.

(٢) غازي بيشـة، «مناهضة الصور وتشويهها في ضوء الأرضيات الفسيفسائية المكتشفة في أم الرصاص وماعين، بلاد الشام في العصر العباسي ١٣٢هـ/ ٧٥٠م ـ ٤١٥هـ/ ١٠٥٩م». **المؤتمر الدولي الخـامس لتـاريـخ بلاد الشـام**. تحرير محمد عدنان البخيت ومحمـد يونس العبادي. (عمان، ١٩٩٢م)، ص ٤٨٦؛ غازي بيشـة، «ملاحظات حول كنيسة القديس اسطفان في أم الرصـاص (ميفعـة) تاريخهـا واهمية زخارفها الفسيفسائية»، **حولية دائرة الآثار العامة**، مجلد ٣١ (١٩٨٧م)، ص ص ١١ـ ١٦؛

M. Piccirillo, "The Umayyad Churches of Jordan" *Annual of the Department of Antiquities of Jordan*, Vol. XXVIII (1984), pp. 331-341.

(٣) C.H. Kraeling, *Gerasa: City of the Decapolis* (New Haven, 1983), pp. 298-299.

(٤) M. Saller and J. Sylester, *The Memorial of Moses on Mount Nebo, Part I, Jerusalem* (1941), pp. 233-234.

(٥) D. Baramki, "An Early Christain Basilica at Ein Hanniya," *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine* 3/3 (1933), p. 115, Pl. XXXVI.

(٦) M. Avi Yonal, "An Early Christian Church at Khirbat Asida," *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine* 3/1 (1933), pp. 17-20, Pl. IX: 2,XI:1,2.

(٧) صالح ساري، «تقرير أولي (١٩٩١)، ص ٥،٩.

(٨) S. Mittman, "Beitrage Zur Siedlungs und Territoria lges-chichte des Nordlichen Ostjordanlandes" (Wiesbaden, 1970), p. 70, 260.

الآثار وانثروبولوجيا/ جامعة اليرموك عام ١٩٨٩م وتحت إشراف الباحث. أكدت نتائج المسح الأخير وجود سكن ابتداء من العصر الروماني في منطقة التقعر، وفي الجهة الشرقية من الخربة استمر وبدون انقطاع حتى مستهل العصر العثماني. كما أكدت وجود نشاط إسلامي كثيف يعود للعصرين الأيوبي والمملوكي خاصة وذلك بناء على الشواهد الأثرية المختلفة في منطقة التقعر إضافة إلى وجود بقايا معمارية وفخارية من العصر الأموي والعباسي والعثماني المبكر. انظر المادة الفخارية.

في ضوء هذا المسح فقد تقرر إجراء التنقيبات الأثرية في أجزاء مختلفة من الموقع.

٢ ــ التنقيبات الأثرية

أجرى معهد الآثار والانثروبولوجيا ثلاثة مواسم متتالية للتنقيبات الأثرية خلال الأعوام ١٩٩٠ و ١٩٩١ و ١٩٩٢م (انظر الشكل رقم٤). وكانت التنقيبات ذات بعدين؛ الأول لغايات الكشف عن تاريخ السكن وطبيعة النشاط البشري في الموقع بينما كان الثاني لغايات تدريب طلبة الدراسات العليا من قسم الآثار على العمل الميداني.[٩]

ركز الفريق تنقيباته الأثرية في الموسم الأول عام ١٩٩٠م في المنطقة (A) ومنطقة المقابر، حيث فتح سبعة مربعات في المنطقة (A) باتساع ٤×٤م لكل منها بعد أن تُركت مسافة نصف متر في كل جانب من جوانبها. تم الوصول في بعض هذه المربعات إلى سطح الصخر البكر. أما في منطقة المقابر فقد نقبت مقبرة واحدة أعطيت رقم (١) (انظر الشكل رقم ٥) وهي مقبرة منحوتة في الصخر الجيري، احتوت على ثلاث حجرات متباينة الاتساع ومختلفة فيما بينها من حيث عدد وحداتها الدفنية. بينما ركز الفريق تنقيباته في موسمه الثاني عام ١٩٩١م في كل من المنطقة (A) والمنطقة (C) وقد استمر التنقيب في المربعات القديمة من المنطقة (A) جانبا إلى جنب مع مربعات أخرى جديدة. أما أعمال التنقيب في المنطقة (C) فقد أشتملت على ثمانية مربعات لها نفس أبعاد المربعات الأخرى والتي وصل التنقيب في بعض منها إلى سطح الصخر البكر. وعلاوة على ذلك فقد نُقبت مقبرة بيزنطية أخرى في الجهة الجنوبية الشرقية من الخربة أعطيت رقم (٢) (انظر الشكل رقم ٦). وهي كالمقبرة الأولى منحوتة في الصخر الجيري، وتتشكل وحداتها الدفنية من قبور مبنية من الحجر الجيري ومنحوتة بشكل متقن، ولكنها موزعة على نحو غير متكافيء على جوانب المقبرة. وفي الموسم الثالث عام ١٩٩٢م استأنف الفريق تنقيباته في المنطقة (A) وذلك بفتح مربعات أخرى جديدة لها مواصفات المربعات السابقة. هذا فضلا عن تنقيب مقبرة بيزنطية ثالثة أعطيت الرقم (٣) (انظر الشكل رقم ٧).

أعمال التخريب في الخربة

تشير نتائج التنقيبات الأثرية المتعاقبة في الخربة بأن المناطق المحفورة والمشار اليها آنفاً قد تعرضت لعمليات تخريب وتدمير بدرجات مختلفة. وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال معظم مربعات المنطقة (A) والتي تخلو من تسلسل الترتيب الطبقي لصخورها. فقد ظهرت الطبقات الترابية مقلوبة بشكل عكسي لتراكمها الحضاري داخل الغرف السكنية المكتشفة. كما تبيّن أن معظم المخلفات المادية لكل من العصر الأيوبي والمملوكي وكذلك العثماني المبكر قد جاءت فوق سطح الصخر البكر مباشرة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد تراكمت المخلفات المادية البيزنطية إلى الأعلى من المخلفات السابقة. وعليه يعتقد بأن هذا التخريب ربما حصل في أواخر العصر المملوكي ومستهل العصر العثماني.

امتد هذا التخريب إلى الأرضية الفسيفسائية التي كُشف عنها في الجزء الشمالي الغربي من المنطقة (A)، أزيلت من الأرضية صور لكائنات حيّة قد تكون طيوراً أو حيوانات أو أشكالاً آدمية، وقد تم ترقيع مكانها بمكعبات فسيفسائية كما سيرد ذكره

(٩) صالح ساري، «تقرير أولي عن نتائج التقنيات الأثرية في خربة دوجلة ـ النعيمة. الموسم الثاني ـ صيف ١٩٩١»، **حولية دائرة الآثار العامة** مجلد ٣٦. عمان (١٩٩٢)، ص ٣٩٨.

فيما بعد تختلف عن المكعبات الأم من حيث اللون والتقنية والحجم (انظر الشكل رقم ٨). كما تعرضت منطقة المقابر لأعمال تخريب متعمّد قام به العابثون بالآثار، وآية ذلك العثور على مواد حديثة الصناعة بداخل هذه المقابر.

أما المنطقة (C) فلا تقل درجة التخريب التي لحقتها عنها في المنطقتين السابقتين، حيث كُشف عنه أثناء التنقيب في المقبرة الأيوبية/ المملوكية التي عُثر فيها على هياكل عظمية غير مكتملة، هذا فضلا عن العثور على أكثر من هيكل واحد داخل القبر الواحد، ناهيك عن التخريب الذي أصاب المسجد الذي اكتشف حديثاً والمجاور لهذه المقبرة من الجهة الشرقية.(١٠)

دور الموقع خلال فترات سكناه

في ضوء التنقيبات الأثرية المتعاقبة في الموقع لم يتمكن الباحث من تحديد اتساع الخربة، إلا أنّ كثافة السكن تركزت في منطقتي (A) و (C) . ومن المتوقع أن تمتد منطقة السكن إلى الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية وذلك بناء على بقايا الجدران والتي تشكل مع بعضها غرفاً بأحجام مختلفة.

يمكن اعتبار الخربة بأنها كانت قرية زراعية مهمة خلال فترات سكناها المختلفة. ويُعتقد بأنها شهدت خلال العصرين الأيوبي والمملوكي سكناً مكثفاً، كما تشير إلى ذلك الدلائل المادية التي عُثر عليها في منطقة (A) أثناء مواسم التنقيبات. تمثل هذه الدلائل أنواعاً شتي من الحبوب مثل العدس والكرسنة والقمح والشعير وبقايا ثمار الزيتون وكذلك كثافة الأشجار المعمّرة ذات الجذوع الضخمة، وهي متعددة، والتي مازالت تغطي معظم المساحات المحيطة بالخربة. هذا فضلا عن وجود مخلفات أخرى، وبالأخص في غرفة A2 ـ كما سيرد ذكره تفصيلا فيما بعد ـ والتي تدلل على وجود حيوانات في القرية الزراعية الأيوبية والمملوكية. يعزز ذلك وجود العديد من الآبار العميقة والمتسعة في الخربة التي يعتقد أنها كانت تستخدم في جمع مياه الأمطار لغايات الاستعمال اليومي للسكان وحيواناتهم. وفوق كل ذلك المعصرة التي عثر عليها في المنطقة الجنوبية الغربية من المنطقة (A).

المواد المستخدمة في الأبنية المعمارية في المنطقة (A).

استخدم أهالي الخربة مواد مختلفة في أبنيتهم هي:

الحجارة: تعد الحجارة الجيرية بمختلف الأحجام المادة الأساسية في الإنشاء المعماري للمنطقة وذلك بسبب غزارة توافرها في الموقع نفسه وفي المناطق الجبلية المحيطة به. وقد استخدمت الحجارة على هيئتين، مشذبة وأخرى من غير تشذيب.

التراب: استخدم التراب المجبول والتراب العادي يفي الأبنية المعمارية. أما المجبول منه فقد استخدم لأغراض متعددة أهمها إنشاء الأرضيات، كما ظهر ذلك واضحاً في كل من الغرفة D والغرفة E ؛ وكذلك في قصارة الجدران من الداخل أو من الخارج أو كليهما معا، كما ظهر في الغرفة E. كما استخدم في قصارة الأرضيات، وذلك تهيئة لعمل أرضية فسيفسائية فوقها مثل غرفة A1 أو في بناء الجدران الحجرية، وذلك بإضافتها إلى صفوف الحجارة لغرض ملء الفراغات بينها من أجل زيادة تماسكها خشية الهدم، خاصة وأن المادة الترابية أقل كثافة من المادة الحجرية، وعليه تكون مقاومة سطح الأساس للوزن الذي يحمله قوية.(١١) أما التراب العادي فقد استخدم لعمل أرضية مدكوكة للساحة التي تتوسط الوحدتين الإنشائيتين.

---

(١٠) ساري، «تقرير أولي ١٩٩٢»، ص ٣٩٦.

(١١) محمد نبيل سالم، **ميكانيك التربة** (حلب: منشورات جامعة حلب، كلية الهندسة، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥م)، ص ص ٧٦ ـ ٧٧.

الفسيفساء: استخدمت المكعبات الفسيفسائية ذوات الألوان المختلفة في إنشاء أرضية الكنيسة وذلك في الجهة الشمالية الغربية من المنطقة (A) .

أما تقنية مواد البناء فيمكن التمييز بين نوعين أساسيين منها؛ التقنية الأولى التي تتمثل في بناء المرحلة الإنشائية الأولى وذلك خلال العصرين البيزنطي والأموي، وحجارة هذه المرحلة كانت مستطيلة الشكل مشذبة، وقد استخدم التراب المجبول في الحشوة التي تتوسط حجارة الواجهة وبين صفي المدماك الداخلي والخارجي من البناء نفسه. وتتمثل التقنية الثانية في المرحلة الإنشائية الثانية وذلك خلال العصرين الأيوبي والمملوكي. أُعيد فيها استخدام حجارة المرحلة الأولى خاصة المشذبة منها والتي جاءت فوقها. يغلب على هذه المرحلة استخدام التراب بكثرة في الجدران الحجرية.

جاءت معظم الأبنية الإنشائية الأولى فوق سطح الصخر البكر في معظم المناطق المكتشفة. بينما جاء بعضها الآخر فوق طبقة أوعدة طبقات ترابية مرصوصة بهدف الحصول على مقاومة أكبر أو الإقلال من نفاذ الماء وامتصاصه إلى جانب الإقلال من الهبوط في التربة، وذلك لعدم استواء سطح الصخر الطبيعي، خاصة وأن المنطقة (A) واقعة على السطح الشمالي الغربي لموقع الخربة.[١٢]

التزم تصميم بناء المرحلة الإنشائية الثانية في معظمه بنظيره في المرحلة الأولى فجاء فوقه وقد شغل المساحة والاتساع ذاته. أما في حال عدم وجود بقايا بناء من المرحلة الأولى فان بناء المرحلة الإنشائية الثانية كان يقوم على عدة طبقات ترابية تكون العلوية منها مرصوصة وبينها مجموعة من الحجارة الصغيرة.

الوحدتان الإنشائيتان في المنطقة (A)

كشفت مواسم التنقيبات الأثرية في المنطقة (A) عن مجموعة من الأبنية المعمارية وقد نُقبت أجزاء يسيرة منها بشكل كامل حتى الصخر البكر. يمكن تقسيم تلك الأبنية المكتشفة إلى وحدتين إنشائيتين منفصلتين بواسطة ممر ترابي عريض؛ الوحدة الإنشائية الغربية الواقعة إلى الغرب من هذا الممر، والوحدة الإنشائية الشرقية، وقد جاءت محاذية له من الشرق. تتكوّن كل وحدة من مجموعة من الغرف. لتسهيل تحديد وفهم الغرف الممتدة بين المربعات فقد أعطيت رموزا كالتالي:

غرفة A1 وتمتد وبشكل جزئي بين المربعات C4 و D3 و D4 و E3 و E4 .

غرفة A2 وتمتد وبشكل جزئي بين المربعات C4 و C5 و D4 و D5 و E4 و E5.

غرفة B1 وتمتد وبشكل جزئي بين المربعات D5 و D6 و E5 و E6 .

غرفة B2 وتمتد وبشكل جزئي بين المربعات E5 و E6 و F5 و F6.

غرفة D وتمتد وبشكل جزئي بين المربعات D8 و D9 و E8 و E9.

غرفة E وتمتد وبشكل جزئي بين المربعات D9 و D10 و E9 و E10 . أما الجدار C1 فيمتد في المربع D7 (انظر الشكل رقم ٤).

الوحدة الإنشائية الغربية

دلت نتائج التنقيبات الأثرية التي أُجريت في المنطقة (A) على أن الوحدة الإنشائية الغربية قد استخدمت كمنطقة سكنية خلال عصور مختلفة. وبناء على الدلائل الأثرية المكتشفة يعتقد بأن هذه الوحدة كانت تتألف من طابقين. تألف الطابق الأول خلال المرحلة الإنشائية الأولى (البيزنطية ـ الأموية) من ثلاث غرف وساحة بُنيت جدرانها ملاصقة لبعضها.

الغرفة A2

وتنحصر بين جدارين لحجرتين أحدهما شمالي وآخر شرقي وبين قطع صخري مرتفع من الجهتين الجنوبية والغربية، وهذا القطع غير منتظم الشكل.

---

(١٢) سالم، **ميكانيك التربة**، ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

يحتوي هذا القطع الصخري الطبيعي الذي يشكل الواجهة الغربية للبناء على فتحة منتظمة الشكل تؤدي إلى كهف طبيعي يمتد تحت الأرضية الفسيفسائية.

تبلغ قياسات هذه الغرفة ٥,٣٠م شرقاً ـ غرباً و ٧,٧٠م شمالاً وجنوباً.

الجدار الشمالي: يتألف بقايا هذا الجدار من صفين من المداميك الحجرية المتقابلة بعرض يصل في معدله ٠,٧٥م، وترتفع بقاياه من اثنين إلى ثلاثة مداميك. يلتقي هذا الجدار مع نظيره الشرقي بزاوية قائمة [انظر مقطع «١»].

الجدار الشرقي: يتألف بقايا هذا الجدار من صفين من المداميك الحجرية المتقابلة بعرض يصل في معدله ٠,٩٥م. يحتوي هذا الجدار على مدخل في نصفه الجنوبي والذي يبلغ عرضه حوالي ٠,٨٥م. يعتقد بأنه يؤدي إلى الداخل بدرجة داخلية. عُثر بداخل هذه الغرفة، إلى الشمال من البوابة، على جدار بنيت أساساته وبشكل متوازٍ مع الجدار الشمالي للغرفة. يمتد هذا الجدار من الواجهة الداخلية للجدار الشرقي إلى الغرب مسافة أربعة مداميك وبعرض صفين من الحجارة الكبيرة بينهما حجارة صغيرة محشوة. يعتقد أن هذا الجدار كان يحمل عقد البناء المكون من طابقين (انظر الشكل رقم ٤).

الغرفة B1

تقع إلى الشرق من الغرفة الأولى A2 . الجدار الغربي لهذه الغرفة هو نفسه الجدار الشرقي للغرفة الأولى A2 . أما جدارها الجنوبي فيتألف من صفين متوازيين من الحجارة المشذبة، وترتفع بقاياه من اثنين إلى ثلاثة مداميك حجرية. والجدار مقصور بالملاط الطيني من الداخل والخارج. وقد أصاب التدمير جدارها الشرقي أكثر من الجدران الأخرى. يُعتقد أن الجزء الشمالي من هذا الجدار كان يتخلله باب يؤدي إلى داخل الغرفة ومن ثم إلى غرفة A2 و B2. تبلغ قياسات هذه الغرفة ٥,٢٥ شمالاً ـ جنوباً و ٤,٦م شرقاً ـ غرباً.

الغرفة B2

وتقع إلى الشمال من الغرفة B1 وجداراها الشرقي والغربي هما امتداد لذات الجدارين الشرقي والغربي للغرفة B1 . يلتقي جدارها الشمالي بزاوية قائمة مع هذين الجدارين. أما الجدار الجنوبي فان بقايا أساسه مدمر بشكل كامل. يُعتقد بأن الجدار الجنوبي كان يتخلّله ممر يؤدي إليها من خلال غرفة B1 . تبلغ قياسات هذه الغرفة ٥,٠٠م شرقاً ـ وغرباً و ٥,٢٠م شمالاً ـ جنوباً.

تألف الطابق الثاني خلال المرحلة الإنشائية الأولى من غرفة واحدة A1 . بُني الجزء الغربي لهذا الطابق فوق الصخر البكر ، وقد نُحت بوساطة أدوات حادة. تمّ تمييز نوعين من أدوات النحت المستخدمة لتسوية سطح الصخر وذلك من خلال ما تركته من آثار. النوع الأول ذو رؤوس مدببة يصل عرضها ما بين ٥ـ٩ مم. أما النوع الثاني فهو ذو رؤوس مستطيلة يصل عرضها ما بين ١,٥ ـ ١,٥مم. يعتقد أن الجزء الشرقي من الغرفة كان يقوم على جدارين حجريين وذلك في الجهتين الشرقية والشمالية وفوق القطع الصخري من الجهة الجنوبية. يرتفع منسوب الطابق الثاني قرابة ٤,٠٠م عن منسوب أرضية الطابق الأسفل.

تتألف أرضية هذا الطابق من ثلاث لوحات فسيفسائية تشكل في مجموعها أرضية لبناء يتجه شرقاً ـ غرباً وذلك لأسباب ثلاثة رئيسة. أول هذه الأسباب أن مدخل البناء جاء متخللاً جداره الغربي بدليل العثور على درجات ثلاث جاءت بشكل طولي منحوتة في الصخر وفي وسط الواجة الغربية. وثانيها أن الأرضية الفسيفسائية تحتوي على مزهرية فخارية تتجه فوهتها إلى الشرق. أما السبب الثالث فهو الكشف عن ثلاثة جدران حجرية لهذا البناء، بينما لم يعثر على الجدار الشرقي الرابع. وعليه يُعتقد بأن هذه الغرفة كانت ترتفع كطابق ثانٍ فوق غرفة A2 وذلك بناء على دلائل أهمها: امتداد بقايا الجدار الشمالي للغرف بنفس اتجاه وعرض ومواصفات

الجدار الشمالي للغرفة A2 ، وكذلك الجدار الجنوبي لكليهما. كما كشف عن قاعدتي عمودين عند النهاية الشرقية للأرضية الفسيفسائية وعند القطع الصخري، وكشف أيضاً عن قاعدتين أخريين عند الواجهة الغربية للغرفة. وعليه فمن المرجّح أن سقف الطابق الثاني كان قائماً على ستة أعمدة، أربعة منها فوق الأرضية الصخرية واثنان قائمان على سقف الطابق الأول (انظر الشكل رقم ٤).

الأرضية الفسيفسائية في الطابق الثاني A1 خلال المرحلة الإنشائية الأولى

كشف خلال عام ١٩٩٠م عن بقايا أرضية فسيفسائية أقيمت على أرض صخرية مستوية السطح. ظهر تحت الأرضية مباشرة كهف شكّل جزءا من الطابق السفلي الممتد باتجاه الشرق. انظر الفرق في مستوى الارتفاع بينهما في المخطط ـ الشكل رقم ٤. استخدمت مكعبات الفسيفساء ذوات الألوان الأبيض والأسود والأحمر والبرتقالي والزيتي في تشكيل الأرضية المنسجمة الألوان وما عليها من صور. أما الفسيفساء فكان على مستويين اثنين من حيث التقنية، الأصلي منها ذو تقنية رفيعة اما المكعبات التي أضيفت في مرحلة لاحقة لإنشاء المبنى فقد كانت أقل درجة من الأولى. يمكن تمييز ثلاث لوحات فنية في الأرضية. جاءت اللوحة الفسيفسائية الأولى على يمين المدخل ويبلغ عرضها قرابة ٢,٥٠م، أما طولها فمن المعتقد انه كان يمتد حتى الواجهة الشرقية للطابق الثاني. تتشكل هذه اللوحة من مجموعة من المربعات المتساوية الحجم تحتوي في مراكزها وبشكل متكرر على مكعبات صغيرة. أما اللوحة الثانية فجاءت تتوسط اللوحة الأولى والثالثة وتمتد مقابل مدخل البناء. يبلغ عرضها قرابة ٢,٢٠م، وتتشكل من مجموعة من المعينات المتجانسة في حجمها وشكلها، وتحتوي على خطوط متموجة جاءت على شكل مجموعة متوازية لتصل بين الضلع الخارجي للمعينات وطرف اللوحة من الجهة الجنوبية. كما تحتوي هذه المعينات على أشكال مختلفة في مركزها؛ منها أشكال جامدة، ومثال ذلك المزهرية التي سبق ذكرها ومنها تلك التي تتوسط مركز المعينات والتي أزيلت من مكانها وأعيد ترقيعها بوساطة مكعبات فسيفسائية أخرى اختلفت عن الأصلية من حيث اللون والحجم. أما الأجسام التي أزيلت فيعتقد أنها كانت صوراً لكائنات حيّة ـ الشكل رقم ٤، ٨ ـ أما اللوحة الثالثة فهي الشمالية من الأرضية الفسيفسائية ويبلغ عرضها قرابة ٣,٠٠م. وتتشكل من مجموعة من المعينات تساوت حجماً وشكلا ومضمونا وتشابهت محتويات مراكز معيناتها مع نظيرتها الأولى.[١٣]

من المرجح أن التغيير الذي أصاب الأرضية الفسيفسائية قد حصل في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي في ظل حركة الأيقونات، أي بعد صدور مرسوم يناوىء الصور المقدسة في الكنائس عام ٧٣٠م.[١٤]

وعليه نستطيع القول بأن ما لحق بالأرضية الفسيفسائية لا يمكن تفسيره بأنه تخريب أو تدمير، كما يذهب معظم علماء الآثار والتاريخ، بل هو تغيير قام به البيزنطيون أنفسهم ليكون بمثابة رسالة وجهها المناهضون لحركة الأيقونات التي هي حركة منظمة ومدروسة بعناية فائقة وآية ذلك مجموعة القرائن الأثرية؛ فقد أزيلت، بعناية، صورة لكائنات حيّة واستبدل مكانها وباهتمام بالغ، قطع فسيفسائية ومن غير صور وذلك لغايات تبليغ الناس أسس ومبادىء الحركة الجديدة.[١٥] (انظر الشكل رقم ٨).

من المعتقد أن هذا المبنى كان يمثل كنيسة صغيرة وأنها استمرت بأداء وظيفتها في خدمة أهالي دوحلة المسيحيين منذ تاريخ إنشائها وحتى نهاية العصر الأموي، وذلك اعتماداً على الأدلة التالية:

(١٣) ساري، «تقرير أولي ١٩٩١»، ص ٨٠٧.

(١٤) بيشة، «مناهضة الصور»، ص ٤٨٦.

(١٥) Robert Schick, "Christianity in the Patriarchate of Jerusalem in the Early 'Abbasid Period, *Proceedings of the 5th International Conference on the History of Bilad al-Sham*. Muhammad Adnan al- Bakhit and Robert Schick (eds.) 'Amman (1991), pp. 74-78.

إن شكل بناء الطابق الثاني والممتد شرقاً ـ غرباً يوحي بشكل الكنيسة، هذا فضلا على احتوائه على التقسيمات الرئيسة للكنيسة وهي الصحن والرواقين الجانبيين حيث كان المصلّون يأخذون مكانهم في الأقسام الثلاثة. ويمكن تخيل الحنية، مكان وقوف القساوسة والمشرفين على الطقوس الدينية، في الجهة الشرقية بالرغم من أن عوامل التدمير قد أتت عليها بالكامل. من المعتقد كذلك بأن الطابق السفلي كان مستخدما لأداء وحفظ الأغراض المرتبطة بالكنيسة.

الطابق الأول في الوحدة الإنشائية الغربية خلال المرحلة الإنشائية الثانية (الأيوبية والمملوكية)

لم تختلف الغرف من حيث العدد عن مجموعة الغرف التي عرفناها في المرحلة الإنشائية الأولى باستثناء إضافة جدار C1 الذي يحيط بساحة عامة مكشوفة (انظر الشكل رقم ٤).

الغرفة A2

جاء تصميم هذه الغرفة على نسق تصميمها في المرحلة الإنشائية الأولى، حيث بنى جدارها فوق بقايا الجدارين من المرحلة الأولى. وقد أعيد استخدام بقايا الجدار الحجري المنشأ في النصف الشمالي للغرفة وذلك بإضافة جدار فوقه من الحجارة الكبيرة الحجم والمعاد استخدامها جنباً إلى جنب مع الحجارة المتوسطة والصغيرة غير المشذبة. كما أعيد استخدام مكان المدخل من المرحلة الإنشائية الأولى (انظر مقطع٢). ومن الجدير بالذكر العثور على حجر وبه ثقب في الجدار الشمالي لهذه الغرفة في الجزء السفلي من بقايا المرحلة الثانية، إلا انه من الصعوبة بمكان اعتباره مكان بوابة وذلك لعدم ملاءمة وضعه في الجدار لهذه الغاية، وعليه يُعتقد بأنه نُقل من مكان آخر من نفس المنطقة أعيد استخدامه في البناء في المرحلة الإنشائية الثانية.

تم إضافة بعض العناصر الإنشائية في داخل الغرفة (A2) وأهمها قاعدة عمود تكوّنت من حجرين مربعي الشكل وسطحهما مستوٍ، وإلى الأسفل منهما عُثر على كمية كبيرة من الحجارة الصغيرة التي استخدمت لتسوية الأساس الترابي فوق الأرضية الملاطية من المرحلة الإنشائية الأولى. شُيدت هذه القاعدة على يسار المدخل وارتبطت مع الجدار بوساطة مدماك حجري بني من الحجارة الصغيرة غير المشذبة. من المرجح أن الهدف من بناء هذه القاعدة هو حمل سقف الطابق الأول. كما عثر على بنائين نصف دائريين أقيما إلى الواجهة الجنوبية من الجدار المبني في النصف الشمالي للغرفة. بلغ قطر كل واحد منها قرابة ٠,٥٥م. وقد عثر فيهما على بقايا حبوب وقش وهي متفحمة وعليه يرجح بأن هذين البنائين استخدما كمعالف للحيوانات. كما عُثر في الجزء الجنوبي الغربي من الغرفة على بقايا بناء حجري يرتفع ثلاثة مداميك بُني من حجارة غير مشذّبة جاءت في صف واحد فقط على شكل يدل بأنه كان منحنياً باتجاه الغرب، خاصة وأن جهتيه الجنوبية والشمالية الغربية لم تحفرا بعد. بالإضافة إلى ذلك، فقد عُثر في داخل هذا البناء المنحني على بقايا مواد عضوية متفحمة مثل الحبوب والقش وروث الحيوانات، لذا يُعتقد بأنه استخدم إما كمخزن لعلف الحيوانات وإما كمخزن لروث الحيوانات، بعد تعرضها للشمس والهواء كي تجف، لاستخدامه وقوداً للطوابين المكتشفة في غرفة B2.

الغرفة B1

جاء تصميم هذه الغرفة على نسق نظيره خلال المرحلة الإنشائية الأولى. كُشف جداراها الغربي والجنوبي وهما مبنيان فوق أساسات الغرفة من المرحلة الأولى. أما جداراها الشرقي والشمالي فقد تعرضا للتدمير الذي أتي عليهما. يبلغ معدل ارتفاع بقايا جداريها المكتشفين قرابة ٠,٩٠م. لم يعثر على دلائل تشير إلى وجود باب في إحدى جدرانها وذلك بسبب شدة التدمير وللانحدار الصخري الذي جاء خلف الجدار الجنوبي، لذا يُعتقد بوجود باب في الواجهة الشرقية للغرفة بُني خلال هذه المرحلة (انظر الشكل رقم ٤).

الغرفة B2

لا يختلف تصميمها عنه في المرحلة السابقة ولكن تقنية البناء قد اختلفت قليلا، بني الجدار الغربي في نصفه الشمالي على نحو أعرض منه في بقية جدران الغرفة. تغلب الحجارة الصغيرة والتربة على مادة البناء الأخرى. يلتقي الجدار الغربي مع الجدار الشمالي بزاوية شبه قائمة، أما الجدار الشمالي فانه يمتد عند زاويته الشرقية وبشكل منحن باتجاه الجنوب ليصبح جداراً شرقياً للغرفة ذاتها. ينتهي الطرف الجنوبي للجدار الشرقي على نحو مفاجيء دون أن يصل إلى نهاية الغرفة الجنوبية إذ من المعتقد بأنه دمر في مرحلة لاحقة. عُثر أثناء تنقيبات عام ١٩٩٢م على بقايا جدارين في الجهة الشرقية من الجدار الشرقي يُعتقد بأنهما أقيما لتدعيمه وذلك لأن عرضه جاء على نحو أقل من بقية الجدران. قد يكون هذا التدعيم أُنشيء في مرحلة لاحقة وذلك لأن مستوى أساسه جاء مرتفعاً عن مستوى أساس بناء الجدار الشرقي لهذه المرحلة الإنشائية.

عُثر بداخل هذه الغرفة من الجهة الشمالية على طابونين وهما بحالة جيدة يفصل بينهما جدار طولي مكون من مدماك حجري واحد عرضا وارتفاعا يبلغ طوله قرابة ١,٧٠م. تبلغ قياسات غرفة الطابون الشرقي قرابة ٢,٥٠م شرقا ـ غربا و ٥,٢٠ شمالا وجنوبا. وقد عُثر إلى الشرق من الطابون على حجرين، الأول، وهو الشمالي، وقد جاء أملس الوجه الأعلى وتبلغ أبعاده ٠,٦٥م×٠,٥٠م يعتقد بأنه كان يستخدم لرق العجين قبل دفعه إلى الطابون لغرض خبزه. أما الحجر الثاني، وهو الجنوبي، فهو شبه منتظم ويعتقد بأنه كان معداً لجلوس من يقوم بإعداد الخبز. أما غرفة الطابون الغربية فتبلغ أبعادها ١,٠٥ شرقاً ـ غرباً و٥,٢٠ شمالاً ـ جنوباً. عُثر في داخل الطابونين على بقايا من قشر البيض والمواد المتفحمة. لم يُعثر على دليل واضح بوجود باب في إحدى جدران الطابون إلا أنه من المرجح أن يكون الباب في الجدار الجنوبي المدمّر (انظر الشكل رقم ٤).

الجدار C1

يمتد هذا الجدار شرقاً ـ غرباً بطول يبلغ قرابة ٥,٨٠م وبعرض يبلغ في معدله ١,٤٠م. أما بقايا ارتفاعه فيبلغ ١,٢٠م (انظر مقطع ٣). كشفت التنقيبات الأثرية أن هذا الجدار بُني في المرحلة الإنشائية الثانية فوق العديد من الطبقات الترابية. كان الهدف من بنائه أن يكون جداراً استناديا لمنع تدفق التراب والمياه إلى داخل الوحدة السكنية. تنقطع النهاية الشرقية للجدار بشكل واضح. وعند نهايته الشرقية يظهر ممر ترابي عريض فاصلاً بين الوحدتين الغربية والشرقية. وإلى داخل هذا الجدار توجد ساحة مكشوفة خالية من الأبنية المعمارية.

وفي المرحلة الإنشائية الثانية (الأيوبية والمملوكية) فيعتقد أنه أعيد استخدام الغرفة (A1) في الطابق الثاني من البناء وذلك بنفس قياسات المرحلة الأولى.

الوحدة الإنشائية الشرقية

كشفت أعمال التنقيبات الأثرية لموسم عام ١٩٩٢م التي أجريت في المنطقة (A) عن جزء من هذه الوحدة والتي مرت بمرحلتين إنشائيتين مختلفتين كان أقدمها خلال العصر البيزنطي والتي استمر استخدمها كما هي خلال العصر الأيوبي. أما المرحلة الإنشائية الثانية فقد حصلت في ظل العصر الأيوبي والمملوكي. وقد تمثل العصر العثماني المبكر في بناء الجدران الاستنادية وذلك لغايات استخدام الموقع كمنطقة زراعية. تتكون هذه الوحدة من بقايا غرفتين شبه مكتملتين ومتصلتين مع بعضهما ومن بقايا جدار في الجهة الشمالية الشرقية من الغرفة D، يعتقد أن هذا الجدار كان يشكل جداراً شمالياً لغرفة ثالثة، كما تم الكشف عن جزئين من جدارين ملاصقين للواجهة الشرقية لجدار الغرفة E الشرقي ويتجهان صوب الشرق. من المؤكد أن إجراء مزيد من التنقيبات في المستقبل سيكشف عن بقية عناصر هذه الوحدة الإنشائية والعلاقة بينها (انظر الشكل رقم ٤).

المرحلة الإنشائية الأولى

بني في هذه المرحلة الغرف التالية:

الغرفة D

تنحصر هذه الغرفة بين جدران حجرية أربعة: ثلاثة منها وهي الجدار الشرقي والجدار الجنوبي والجدار الغربي أعيد استخدمها خلال المرحلة الإنشائية الثانية. أما الجدار الشمالي فهو مدمر في معظمه ويقع إلى الداخل من الجدار الشمالي للمرحلة الإنشائية الثانية. يتكون هذا الجدار الشمالي من بقايا صفين من الحجر ذي الحجم الكبير والمتوسط، أما بقية ارتفاعه فهو غير معروف وذلك لعدم استكمال التنقيب فيه إلى أساسه السفلي. وعليه يكون شكل الغرفة مستطيلا تبلغ قياساتها ٤,٣٠م شرقاً ـ غرباً و٣,٧٥م شمالاً ـ جنوباً. كما تم الكشف عن أرضيات ثلاث معمولة من التراب الجيري المجبول، وكانت هذه الأرضيات مستخدمة أثناء هذه المرحلة (الإنشائية الأولى)، وذلك بناء على القرائن الأثرية الفخارية فيها خاصة، أما بخصوص مدخل هذه الغرفة فلم يتم التوصل إلى مكانه وذلك لشدة التدمير الذي لحق بجدران الغرفة الأربعة، إلا أنه غالباً ماكان في الجدار الشرقي (انظر الشكل رقم ٤).

الغرفة E

ظهرت هذه الغرفة مستطيلة الشكل وبلغت قياساتها ٣,٤٠م شرقاً ـ غرباً و ٥,٠٠ شمالاً ـ جنوباً. أما ارتفاع جدرانها فقد بلغ بين مدماك حجري واحد وثلاثة ينحصر بينها أرضيات ثلاث معمولة من المادة ذاتها التي شاهدناها في أرضيات الغرفة (D) وعلى المستوى نفسه. يُعتقد أن مدخل هذه الحجرة كان في جدارها الجنوبي الذي لم يُستكمل تنقيبه بعد.

يلاحظ أن بناء المرحلة الإنشائية الأولى في هذه الوحدة قد تعرض لتخريب ظهر واضحاً في العناصر المعمارية حيث لم يبق من جدران هذه الوحدة سوى بعض الأجزاء من أساساتها.

المرحلة الإنشائية الثانية

الغرفة D

جاءت هذه الغرفة مستطيلة الشكل بلغت قياساتها ٤,٧٥م شرقاً ـ وغرباً و٣,٧٠م شمالاً ـ جنوباً. ترتفع بقايا جدرانها ما بين خمسة إلى ستة مداميك حجرية. يمتد بين جدرانها أرضية مستوية معمولة من التراب الجيري المجبول، ويتراوح سمك هذه الأرضية ما بين ٥ـ٧سم التي يكثر فيها الفخار من العصرين الأيوبي والمملوكي. ظهرت جدرانها غير متجانسة في العرض والشكل حيث يمتد الجدار الجنوبي بشكل شبه مستقيم وشبه قائم في صفة الخارجي. كما يلاحظ أن عرض الجدار الغربي غير متجانس أيضا حيث يبلغ عرضه عند التقائه مع الجدار الجنوبي قرابة ٠,٦٠م ثم يأخذ بالاتساع المتدرج. تظهر بقايا هذا الجدار في نصفه الشمالي وهي مكونة من صف واحد من الحجارة هو الصف الداخلي. يعتقد أن الصف الخارجي قد تعرض للتخريب والهدم ما عدا أساسه الذي مازال قائما. يلتقي الطرف الشمالي لهذا الجدار بزاوية منفرجة مع الجدار الشمالي. كما يتصف الجدار الشمالي بهذه الغرفة بعدم تجانس عرضه وبشدة التخريب الذي أصابه. بلغ عرض الطرف الغربي لهذا الجدار نحو ١,٠٠م أما في منتصفه فقد بلغ نحو ١,٢٠م، وكذلك جزؤه الشرقي فقد لحقه التدمير أيضا. بلغ بقايا ارتفاعه في المعدل ٢,٠٠م (انظر مقطع ٤).

يعد الجدار الشرقي من أكثر الجدران تدميراً لهذه الغرفة، ومن المعتقد بأن عرضه كان يبلغ ٠,٧٥م وذلك اعتماداً على بقاء بعض الحجارة التي مازالت قائمة في مكانها الأصلي لهذا الجدار. لم تكشف التنقيبات الأثرية عن مكان باب هذه الغرفة، إلا أنه يعتقد بأنه كان في الجدار الشرقي المدمر (انظر الشكل رقم ٤).

الغرفة E

ظهرت مستطيلة الشكل بلغت قياساتها ٥,٠٠م شمالاً ـ غرباً. ترتفع بقايا جدرانها ما بين أربعة إلى

ستة مداميك حجرية. وتمتد أرضية ملاطية مستوية ومعمولة من التراب الأبيض المجبول بين جدران هذه الغرفة. ينخفض مستوى هذه الغرفة قرابة ٠,٢٠م عن ارضية نظيرتها الغرفة D وجدران هذه الغرفة غير منتظمة الشكل والعرض حيث بلغ عرض الجدار الجنوبي في معدله قرابة ٠,٩٥م وتستمر الجهة الشرقية لهذا الجدار بالانحناء التدريجي إلى الجهة الشمالية وذلك حتى تشكل الواجهة الشرقية لجدار الغرفة. الواجهة الشرقية كذلك غير منتظمة العرض حيث بلغ عرضها عند نهايتها الجنوبية قرابة ١,٣٠م، ويزيد قليلاً باتجاهه نحو الشمال ولكنه سرعان ما يبلغ أضيق نقطة في عرض الحائط عند نهايته الشمالية التي تبلغ في المعدل ٠,٧٠م. يصل بقايا ارتفاع هذا الجدار في معدله ١,٢م (انظر مقطع ٥).

يتميز الجدار الشمالي بضيق في عرضه يبلغ معدله ٠,٦٠م ويتهدم معظم صفه الداخلي، كما يلتقي هذا الجدار مع الجدارين الشرقي والغربي بزاوية شبه قائمة، ويصل بقايا ارتفاعه في المعدل ٢,٠٠م. أما عن الجدار الغربي فهو مدمر في معظمه إلا أنه يمكن معرفة عرضه المكون من صفين من الحجارة الذي يبلغ قرابة ٠,٧٥م وذلك من خلال بقايا الحجارة الأصلية التي ما زالت قائمة في مكانها في هذا الجدار الذي تبلغ ارتفاع بقاياه قرابة ١,٥٠م (انظر مقطع ٦).

من المعتقد أن جدران المرحلة الإنشائية الثانية كانت مقصورة بالملاط الطيني الأبيض، فقد عُثر على بقايا قصارة مكونة من طبقتين على الواجهة الخارجية للجدار الشرقي للغرفة D، كما عُثر أيضاً على بقع من القصارة وهي متراكمة عند جوانب بعض الجدران للغرفتين D و E.

وصف المادة الفخارية

فيما يلي وصف للمادة الفخارية التي جاءت من مربعات مختلفة من المنطقة A وقد رُتِّبت في لوحتين:

اللوحة الأولى

١ ــ مربع B4، جزء من جسم جرة ذات عجينة زبدية اللون، السطح الخارجي مغطى ببطانة زبدية اللون أيضاً ومزودة بزخارف بنية اللون. الصناعة بالدولاب. أموي/ عباسي.

٢ ــ مربع B4، طبقة ٥. جزء جسم جرة ذات عجينة زبدية اللون تحتوي قليلا من الشوائب، السطح الخارجي مغطى ببطانة زبدية باهتة ومزوّدة بزخارف بلون بني ضارب إلى الحمرة. الصناعة بالدولاب. أموي/ عباسي.

٣ ــ مربع D5، طبقة ٢٣. جزء من مقبض يتوّجه من أعلى نتوء صغير وعجينة خشنة تحتوي قليلا من الشوائب. السطح العلوي مزخرف بلون بني في أشكال مختلفة. الصناعة يدوية. أيوبي/ مملوكي.

٤ ــ مربع D5، الطبقة السطحية. جزء من جسم إناء ذي عجينة خشنة. السطح الخارجي مزخرف بخطوط متقاطعة باللون البني الداكن على سطح مغطى ببطانة زبدية اللون. الصناعة يدوية. أيوبي/ مملوكي.

اللوحة الثانية

١ ــ مربع B4، طبقة ٥. جزء من جسم جرة ذات عجينة مائلة إلى اللون البرتقالي المحمر ونقية نسبياً. السطح الخارجي مغطى ببطانة لها لون العجينة نفسها ومزودة بزخارف بنية اللون. الصناعة بالدولاب. عباسي.

٢ ــ مربع B4 طبقة ٥. جزء من جسم إناء ذي عجينة مائلة إلى اللون البرتقالي المحمر، وتحتوي على قليل من الشوائب صغيرة الحجم وبلون أسود. السطح الخارجي عليه بطانة بلون أحمر باهت تعلوه زخرفة متموجة. الصناعة بالدولاب. عباسي.

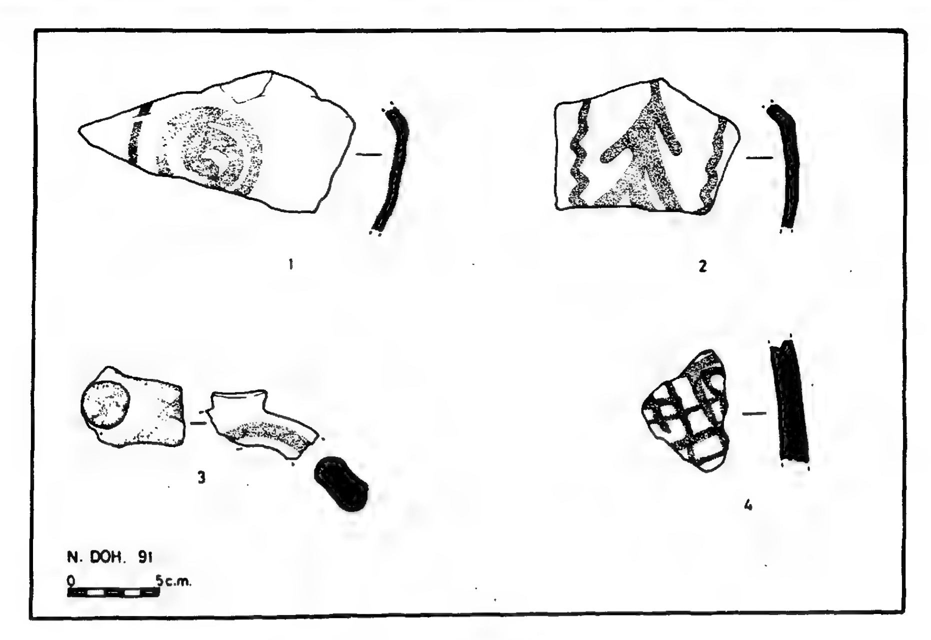
٣ ــ مربع B6، طبقة ٤. جزء من جسم إناء كبير

الحجم، العجينة صلبة تحتوي شوائب جيرية دقيقة. السطح الخارجي عليه زخرفة بالتحزيز. اللون أحمر برتقالي. الصناعة يدوية. بيزنطي/ أموي.

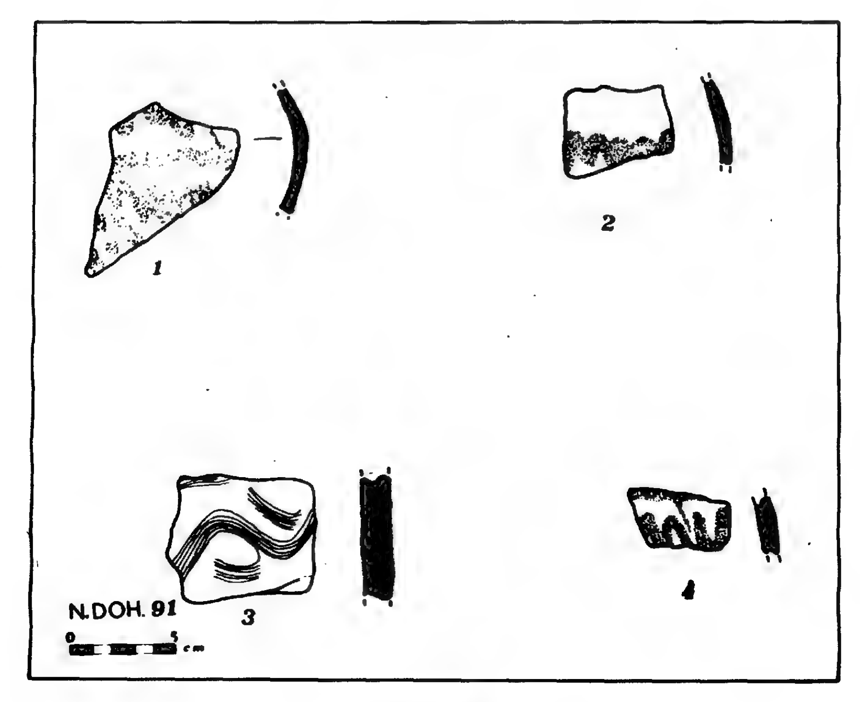
٤ ــ مربع B4 ، طبقة ٥. جزء من جسم إناء، العجينة بلون أحمر والسطح الخارجي مغطى ببطانة ذات لون أحمر ضارب إلى البني تعلوه زخرفة متموجة بلون بني. الصناعة يدوية. عباسي.

شكر وتقدير

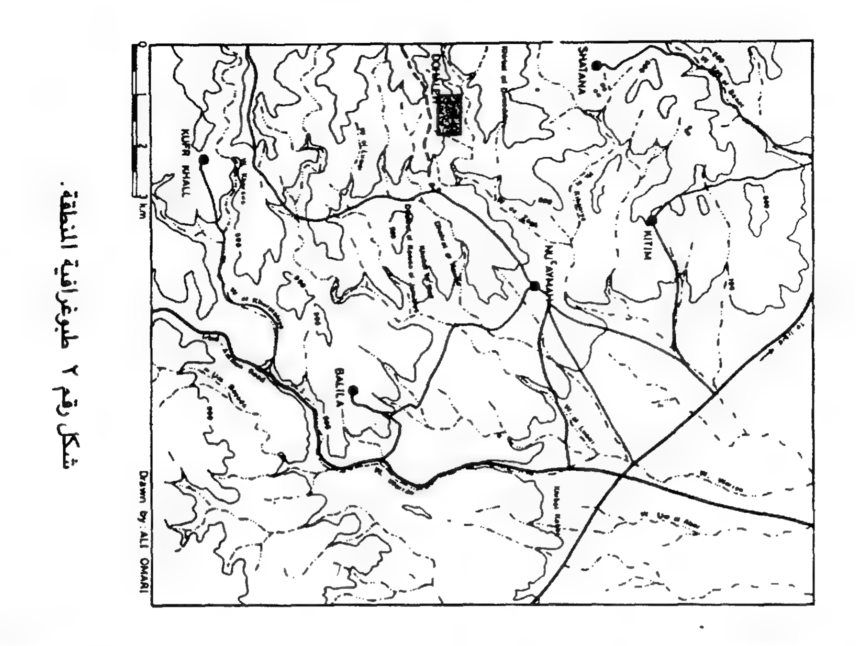
يشكر الباحث عمادة البحث العلمي والدراسات العليا/ جامعة اليرموك لدعمها هذا البحث كما يشكر السيد/ صلاح هودلية الذي ساعد في إعداده.



اللوحة الأولى

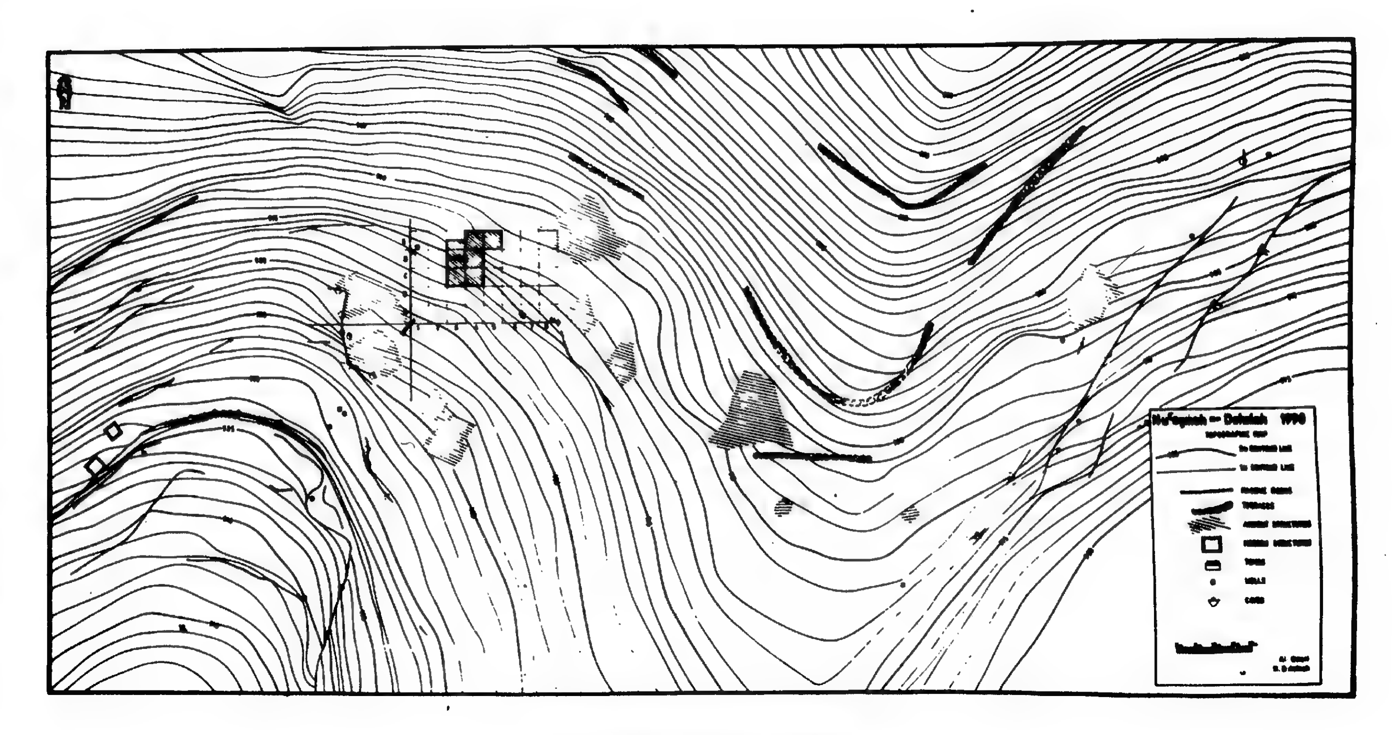


اللوحة الثانية



شكل رقم ٢ طبوغرافية المنطقة.

شكل رقم ١ موقع خربة دوحلة.

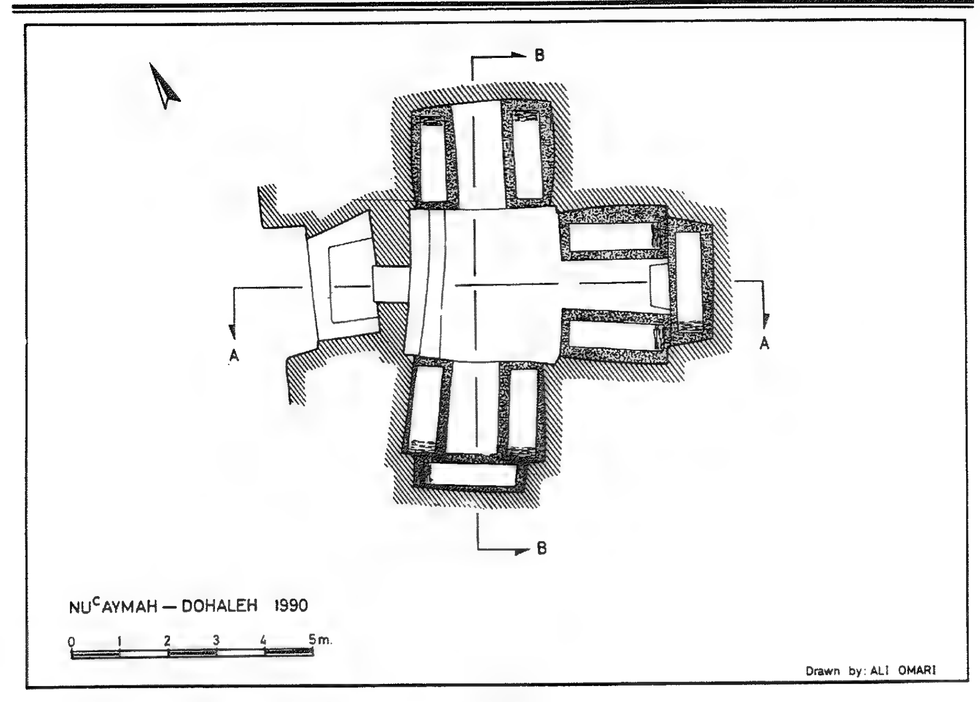


شكل رقم ٣ طبوغرافية الموقع.

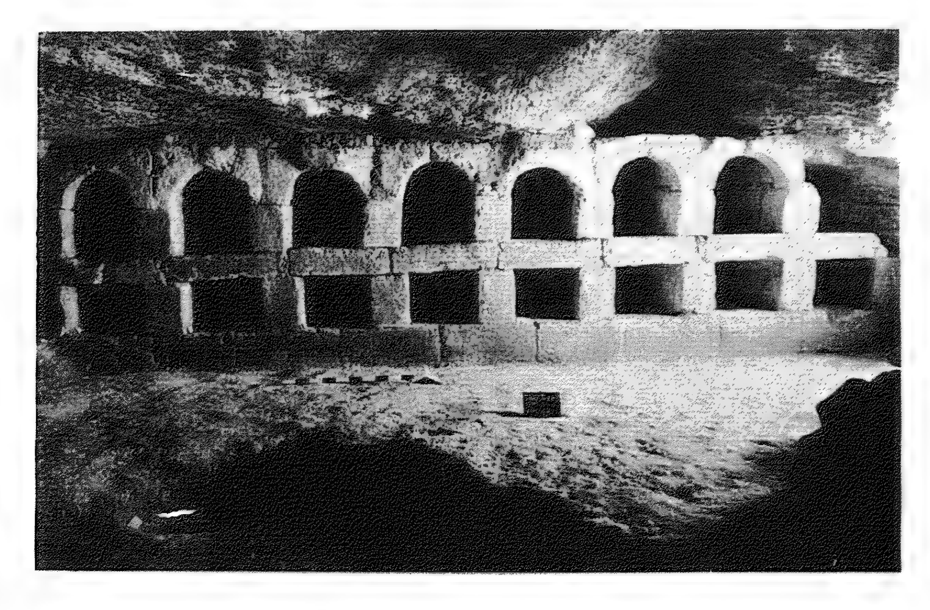
Byzantine Early Islamic Period
Ayyubid Mamluk Period
Modern Period
Restored Spot
Basin

Nu'aymah-Dohaleh 1990, 1991, 1992
Area A

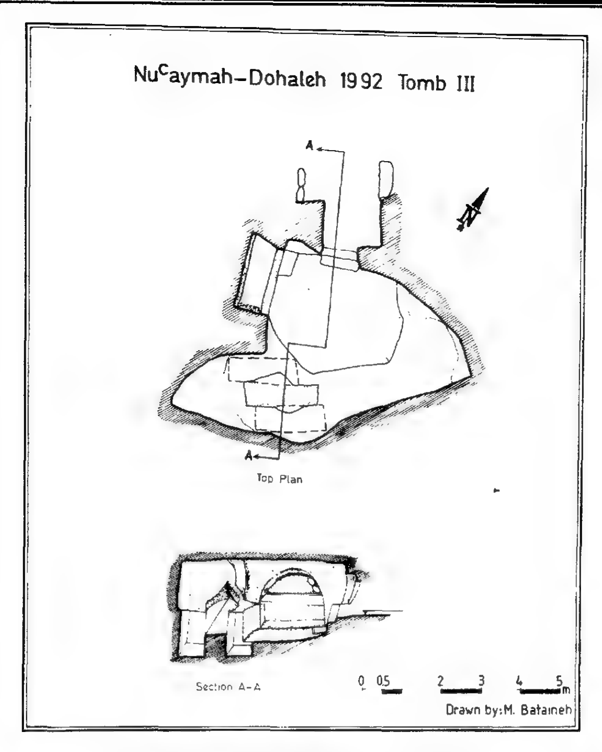
شكل رقم ٤ مسقط أفقي للمنطقة (A) في ضوء مواسم التنقيب الثلاثة.



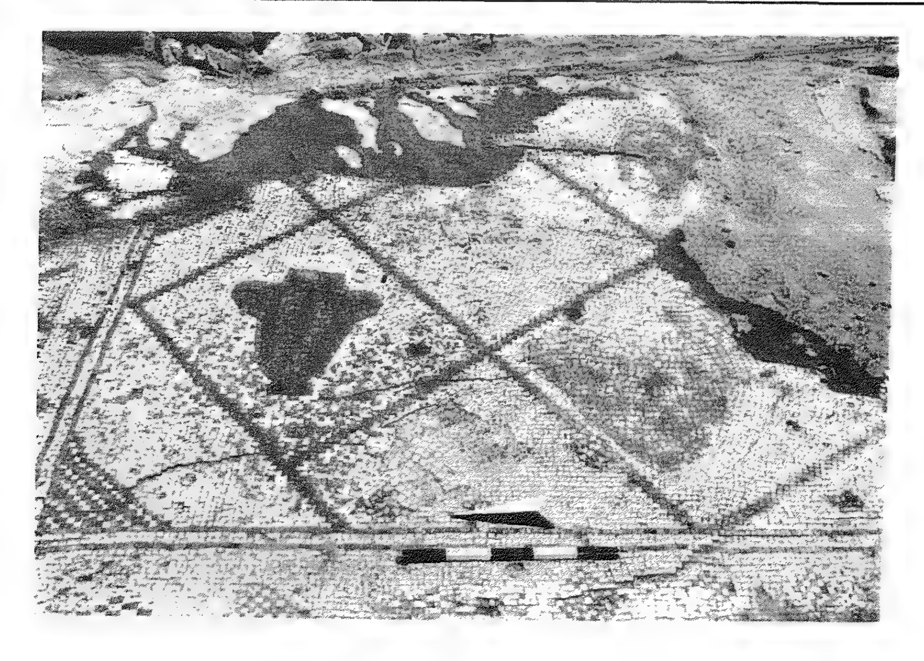
شكل رقم ٥ مسقط أفقي للمقبرة رقم «١».



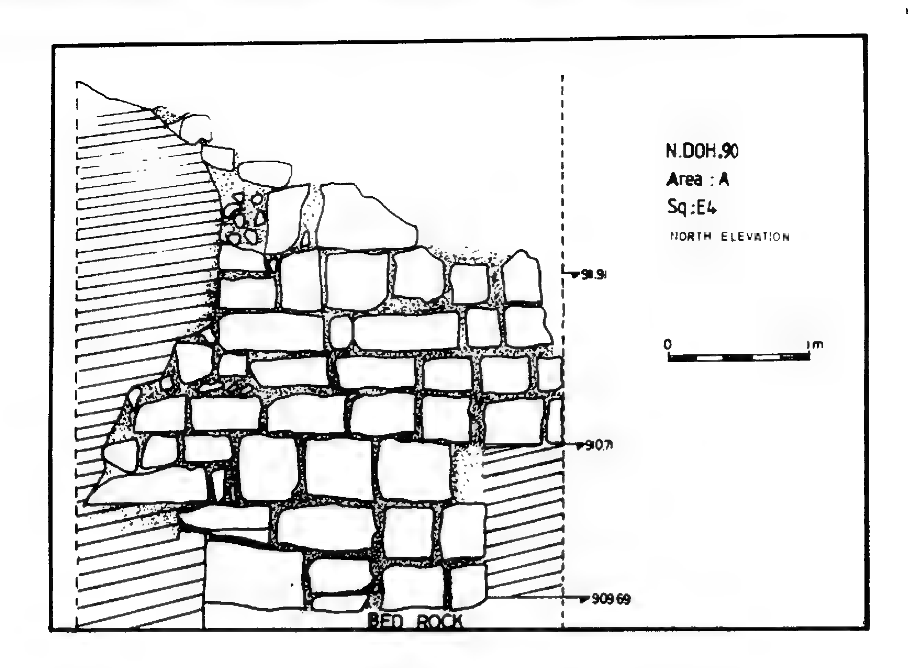
شكل رقم ٦ صورة المقبرة رقم «٢» من الداخل.



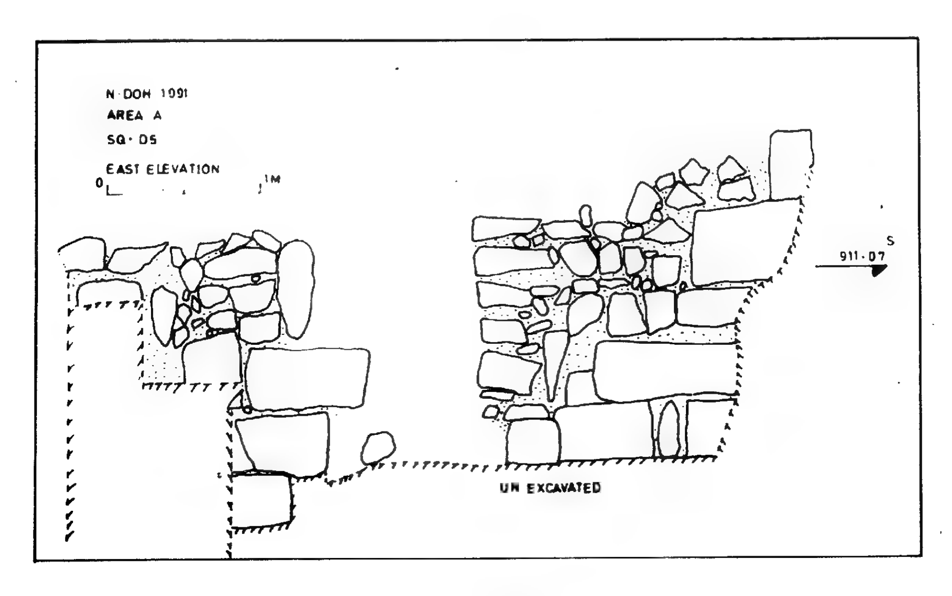
شكل رقم ٧ مسقط أفقي للمقبرة رقم «٣».



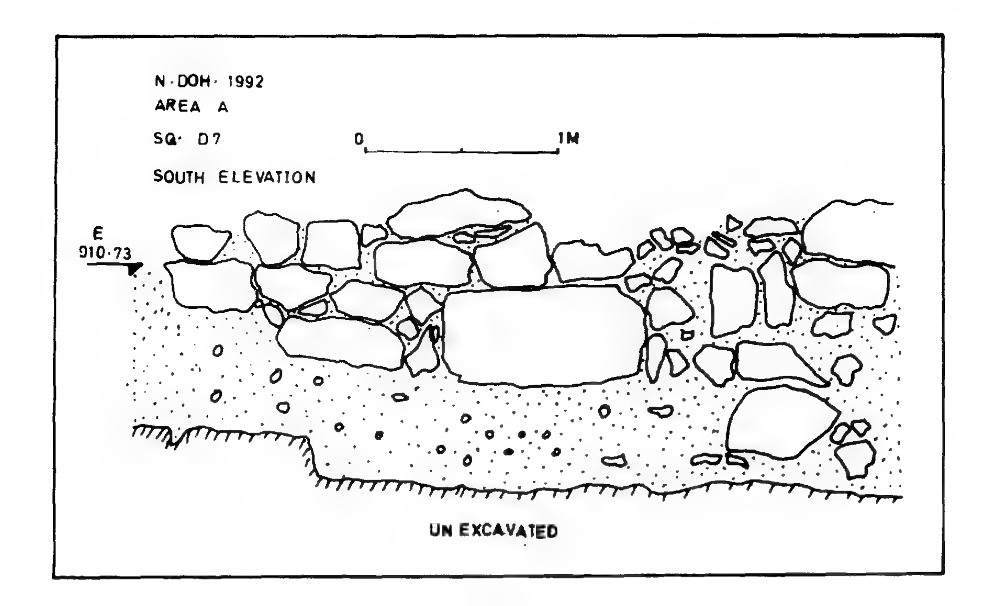
شكـل رقم ٨ صورة تمثـل التـدمـير الايقـوني في الأرضية الفسيفسائية.


N.DOH.90
Area : A
Sq :E4
NORTH ELEVATION
0
1m
911.91
910.71
909.69
BED ROCK

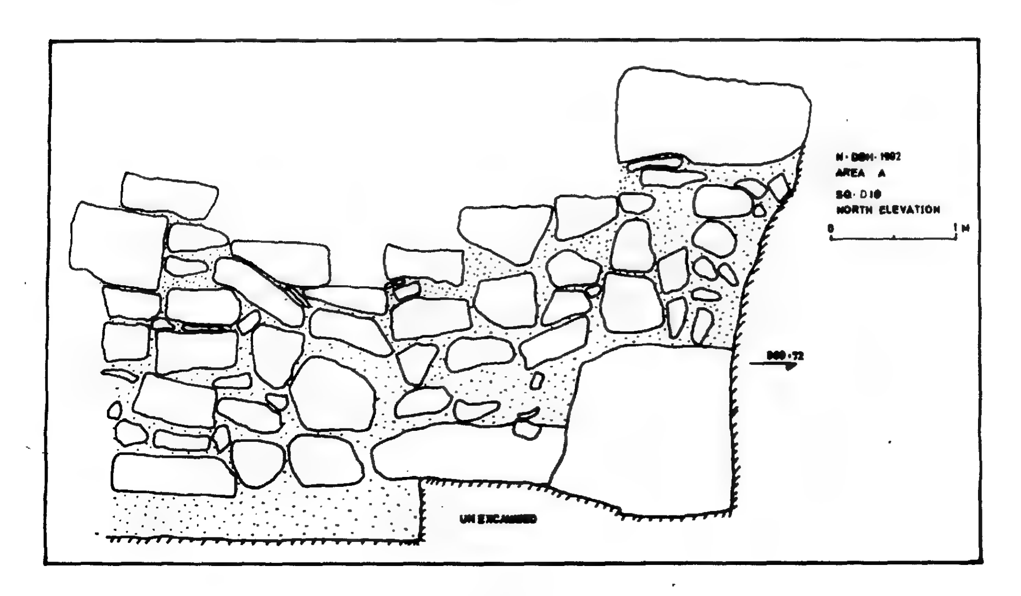
مقطع «١»


N·DOH 1991
AREA A
SQ· D5
EAST ELEVATION
0
1M
S
911·07
UN EXCAVATED

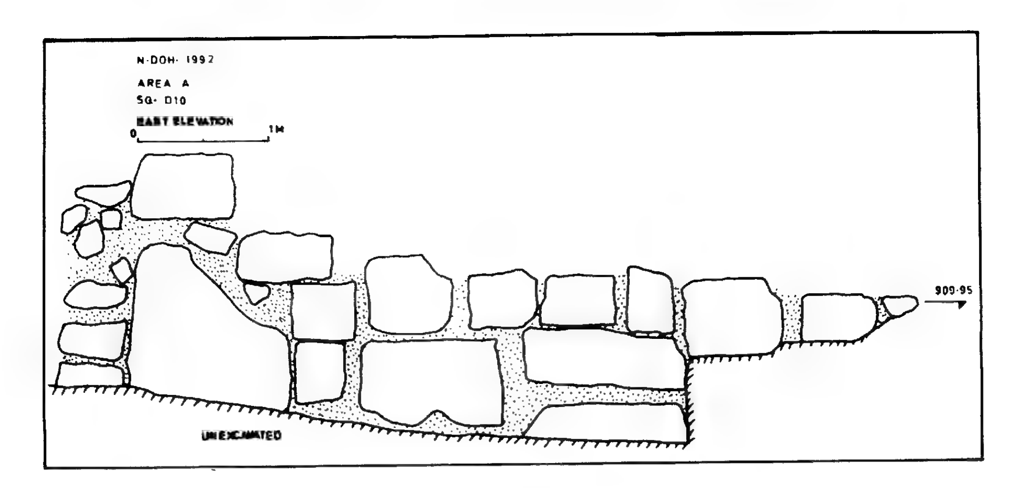
مقطع «٢»


N·DOH· 1992
AREA A
SQ· D7
SOUTH ELEVATION
0
1M
E
910·73
UN EXCAVATED

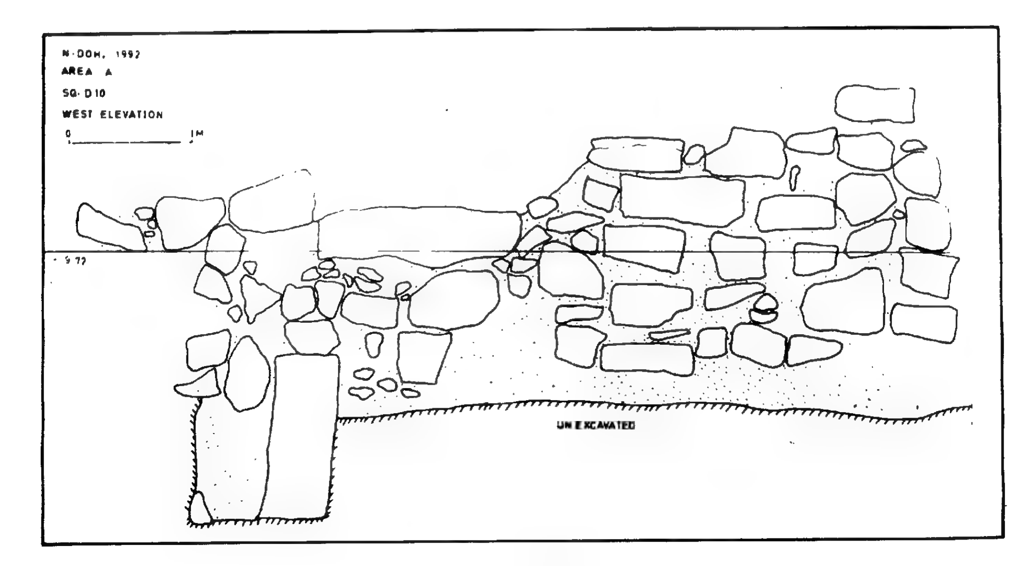
مقطع «٣»


AREA A
NORTH ELEVATION
0
1M

مقطع «٤»


N-DOH- 1992
AREA A
SQ- D10
EAST ELEVATION
0
1M
909-95
UNEXCAVATED

مقطع «٥»


N-DOH, 1992
AREA A
SQ- D10
WEST ELEVATION
0
1M
UNEXCAVATED

مقطع «٦»

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الثاني، ٢٨٩ ـ ٣١٠ (١٩٩٣م).

دراسة تصنيفية مقارنة لمجموعة غير منشورة من الدمى الجنوبية

للدكتور **حميد إبراهيم المزروع** [١]

ملخص البحث : **يتناول هذا البحث دراسة مجموعة غير منشورة من الدمى الفخارية الآدمية جمعت من مواقع أثرية غير معروفة في جنوبي الجزيرة العربية. تتكون هذه المجموعة من إحدى وعشرين دمية، صنفت إلى أنماط أساسية وفرعية بناء على عدة معايير رئيسة، أهمها: أشكال الدمى، أنواع الزخارف الموجودة عليها، هذا بالإضافة إلى الطريقة التي اتبعت في صناعتها.**

تناقش هذه الدراسة أهمية هذا النوع من الفنون العربية النادرة والتي لا يُعرف عنها إلا النذر اليسير. ومن خلال الدراسات المقارنة مع مواد مشابهة لها، في الحضارات القديمة المجاورة تم التوصل إلى بعض الاستنتاجات التي تشير إلى أن هذا النوع من الفن يحمل في مضمونه بعض المفاهيم الدينية القديمة، والتي كانت تمارس في جنوبي الجزيرة العربية قبل الإسلام.

مقدمـــة

كانت لنتائج الحفريات الأثرية التي قامت بها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان في كل من تمنع ومأرب (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢)، دوراً كبيراً ليس في إثراء معرفتنا عن آثار وتاريخ الممالك العربية الجنوبية فحسب، بل أيضاً ساهمت في ظهور العديد من الأبحاث العلمية المتخصصة بدراسة الفنون اليمنية خاصة المنحوتة منها والمعدنية. وعلى الرغم من ذلك فمعرفتنا بالفنون اليمنية ومفاهيمها القديمة لاتزال في مراحلها الأولى، فعلى سبيل المثال لا توجد حتى الآن أي دراسة توضح مراحل التطور الأسلوبي والتقني للمشغولات التقليدية. أما فيما يتعلق بالمشغولات الفنية الفخارية، مثل الدمى الآدمية أو الحيوانية، فلا نكاد نعرف عنها إلا القليل، حيث إن الدراسة الوحيدة كالتي أمدتنا بمعلومات قيمة عن هذا النوع من الفنون الجنوبية المبكرة هي التي قام بها الباحث الألماني كارل راثجنز (Carl Rathjens) [٢] التي تناول فيها تصنيف ودراسة مجموعة من الدمى الفخارية الآدمية والتي يعتقد، حسب ما يذكره راثجنز، بأن أغلبها جاء من منطقة السودة والبيداء في الجوف، أما البعض الآخر فجاء من وادي سبأ وفي دراسته التصنيفية اعتمد راثجنز على أشكال الدمى بصورة أساسية، وبذلك قسم مجموعته والمتكونة من ثلاث وعشرين دمية إلى عشرة أنواع.[٣] وسوف نتطرق في ثنايا هذا البحث إلى بعض الآراء التي اقترحها راثجنز عن مجموعته بعد استعراضنا أولاً لمادة هذا البحث.

تحتوي مادة هذا البحث على إحدى وعشرين دمية آدمية محفوظة بقسم الآثار والمتاحف ـ جامعة الملك سعود بالرياض[٤] مصنوعة من مادة الصلصال

---

(١) يتقدم المؤلف بجزيل الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري، عميد كلية الآداب لمنحه الفرصة في دراسة مادة هذا البحث.

(٢) Carl Rathjens, *Sabaeica* (Hamburg, 1955), 11 Teil, pp.40 - 60, Phot's. 79 - 136, Figs. 134 - 144.

(٣) Rathjens, *Sabaeica*, pp.41 - 57.

(٤) اشترى قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود هذه المجموعة عام ١٩٧٠م، ولا يوجد في سجلات القسم ما يشير

المحروق، ويبلغ معدل أطوالها ١١ ـ ١٢ سنتمتراً، كما أن أغلبها في حالة حفظ جيدة[٥]، وتكمن أهمية الدمى موضوع البحث ليس فقط لكونها ثاني أكبر مجموعة من الدمى العربية الجنوبية المعروفة إلى الآن بل أيضا لأنها تكشف عن جانب من الجوانب الفنية لحضارة جنوب الجزيرة العربية، يضاف إلى ذلك أن بعض هذه الدمى تحمل دلالات ورموز دينية لم يسبق ظهورها على الدمى الجنوبية المعروفة. ونظراً لتباين الأساليب الفنية لدمى موضوع البحث سنحاول استعراضها بناء على دراستنا التصنيفية لها.

تقع هذه الدراسة في أربعة أقسام تشمل هذه المقدمة، والدراسة التصنيفية، والدراسة المقارنة، ثم المصنف.

الدراسة التصنيفية

إن الهدف الأساسي من الدراسة التصنيفية Typological study هو تسهيل عرض وطرح مادة البحث حسب معايير التصنيف الفنية وهي أشكال الدمى، أنواع الزخارف الموجودة عليها وكذلك التقنية المتبعة في الصناعة، وبناء على تطبيق هذه المعايير تم تقسيم مادة هذا البحث إلى ثلاثة أنماط رئيسة وأخرى فرعية وبذلك يشمل النمط مجموعة الدمى التي تشترك ببعض الخصائص الأسلوبية المميزة. أما الدمي التي تنفرد بأساليبها الفنية فقد أدرجت تحت أنماط مستقلة.

النمط الأول

يتمثل هذا النمط في أغلب الدمى التي تصور الأشكال الأنثوية المبينة في اللوحات ١ـ١٩، (الأشكال ١ـ١٩) وقد صنفت تحت نفس النمط لاشتراكها بالمعايير الفنية الآتية:ـ

أ) الشكل

تعد هذه المجموعة متجانسة جدا من حيث الشكل Form حيث تتسم جميعها بأشكالها الأسطوانية المصمتة، كما أن أغلبها لها قواعد مستديرة، عريضة ومنبسطة، وهذا ما يدل على أنها صممت لترى وهي واقفة. أما الأيدي فهي غير متبلورة، فقد شكلت بصورة أولية على هيئة بروز مثلث الشكل تقريباً ومسحوباً إلى الخارج على جانب الجسم دون التعرض إلى إيضاح تفاصيل الأيدي كما هو الحال لوسط وأطراف الجسم السفلية؛ وتجدر الملاحظة هنا إلى أن بعض الأيدي تحوي على ثقبين على الأطراف (اللوحات ٦،١١؛ الأشكال ٦،١١)، مما يوحي بأن بعض هذه الدمى كانت تعلق. أما الرؤوس فشكلت بأسلوب بسيط ركز الفنان فيه على إبراز ملامح الوجوه خاصة الأنوف والعيون، حيث تتميز الأنوف بأشكالها المفلطحة البارزة والتي لا تتناسب بأي حال في أحجامها مع الرؤوس الصغيرة. أما العيون فقد مثلت بطريقتين متباينتين في التقنية، الأولى بأسلوب الوخز الغائر Deep impression وهذا ما يمكن ملاحظته في معظم دمى هذا النمط (اللوحات ١ ـ ١٥)، الطريقة الثانية هي بإضافة أقراص مستديرة (Applied discs) على جانبي الأجزاء العلوية من الوجوه (اللوحات ١٦ ـ ١٧).

ب) الزخارف

بالإضافة إلى تجانس دمى النمط الحالي من حيث أشكالها الإسطوانية فهي أيضاً تتشابه بأنواع الزخارف Decorations الموجودة عليها، فيلاحظ أن معظمها تشترك بنوعين من العناصر الزخرفية البسيطة والمنفذة بأسلوبين مختلفين في التقنية، الأسلوب الأول الزخرفة بواسطة التحزيز Incision ، حيث نفذت بهذا الأسلوب الخطوط المائلة على الصدور والرقاب. إن اختلاف وتيرة هذا النوع من الزخرفة يثير احتمالية أكثر من رأي فيما يتعلق بوظيفة هذه الزخرفة؛ فالاحتمال الأول، والأكثر قبولا، هو أن هذه الخطوط (اللوحات ١ ـ ٥، ٨، ٩، ١٥، ١٧، ١٨) نفذت للتعبير الرمزي عن قلائد لتزيين الصدور، خاصة تلك الخطوط الواقعة أسفل الرقبة، أما الاحتمال الثاني فهو عدم استبعاد كون بعض

= إلى المواقع التي جاءت منها.

(٥) لمزيد من المعلومات أنظر تحت عنوان **المصنف** من هذا البحث.

هذه الخطوط ربما نفذ لتحديد ملامح الأجزاء العلوية من الثياب. وبالنسبة للخطوط القصيرة الواقعة على وسط الرقبة (اللوحات ١ ـ ٥، ٧، ١١، ١٥، ١٧، ١٨)، فربما تشير إلى ثنايا الرقبة.

الأسلوب الثاني من الزخرفة نفذ بواسطة التنقيط Dots حيث أنجز الفنان بهذا الأسلوب أكثر من نوع من الزخارف غير المعقدة، لعل أبرزها وأفضلها انتظاما من حيث الشكل هي تلك النقاط المرتبة على شكل خط أفقي تقريباً يمتد من اليمين إلى اليسار أو العكس على جهة الصدور (اللوحات ١، ٢، ٤، ٦، ٧، ١٧). كما أن بعض الدمى تحتوي على نقاط منظمة في خطين متوازيين على الرقبة (اللوحة ١٦) وذلك للتعبير عن قلادة لتزيين العنق. أما الزخارف الأخرى فليس لها أشكال معينة فهي عبارة إما عن مجموعة من النقاط المنتشرة على أسفل جهة البطن (اللوحة ٢) أو ثلاثة نقاط مرتبة بشكل مثلث أو خط عمودي على جهة البطن (اللوحات ١، ٧). وتجدر الإشارة هنا أنه على الرغم من تنوع واختلاف أساليب هذه الزخارف فإنها تشير إلى أن هذه الدمى ليست عارية، كما تبدو للمشاهد للوهلة الأولى، بل أنها مكسية بنوع من الثياب الطويلة التي تغطي الأقدام.

ج) التقنية

إن تشابه دمى النمط الأول من حيث الأشكال الأسطوانية والزخارف يدل بوضوح على أنها متأثرة بنفس المدرسة الفنية وبالتالي لابد وأنها مرت بمراحل متشابهة في الصناعة. فالظاهرة الأولى هي أن جميعها مصنوعة باليد ولم يتم استخدام العجلة أو القالب في عملية التشكيل. حيث تمثلت المرحلة الأولى في تحضير الغضار الذي يبدو من خلال الفحوصات العينية بأنه غضار ذو حبيبات ناعمة وخالي من الشوائب (Fine clay) يميل لونه للإحمرار بسبب احتوائه على نسبة عالية من المَغْرة (اكسيد الحديديك) كما أن لظروف الحرق تأثيرها على اللون[٦]، في المرحلة الثانية تم الإعداد الأولي لتشكيل الدمية عن طريق دحرجة قطعة صغيرة من الغضار على سطح منبسط وبذلك حصل الفنان على الشكل الإسطواني المصمت للدمية. بعد ذلك تم تشكيل القواعد المستديرة الشكل بوساطة الضغط أو ضرب أحد أطراف ذلك الشكل الإسطواني على سطح منبسط. أما الأيدي فقد اكتسبت أشكالها الحالية بسحب أجزاء الغضار الناتج من عملية الضغط على الصدور، ولذلك جاءت الأيدي غير متبلورة الأشكال، ربما يعود هذا إلى عدم كفاية كمية الغضار اللازم لتشكيل الأيدي كاملة، وبأسلوب السحب أيضاً تم تشكيل الأنوف حيث أعطيت الشكل المرغوب بعملية سحب أجزاء بسيطة من الغضار بأطراف أصابع اليد. وقبل عملية التجفيف والحرق، تم إنجاز الزخارف وكذلك العيون بأداة حادة مصنوعة إما من الحديد أو الخشب.

من الناحية التقنية يمكن إدراج الدمى المبينة في (اللوحات ١٦ ـ ١٩) كنمط متفرع من دمى النمط الأول، وذلك لتميز هذه الدمى في أسلوب تشكيل العيون والأثداء والتي صممت بطريقة الإضافة Applied في حين نجد أن العيون في باقي الدمى شكلت بطريقة الوخز Deep impression ، أما الأثداء بأسلوب السحب. نستخلص مما سبق بأن الدمى المصنفة في النمط الأول (اللوحات ١ ـ ١٩)، متأثرة إلى حد كبير بنفس الخطوط الفنية، وبالتالي من المحتمل جدا أنها تعود إلى نفس الورشة الفنية، كما لا يستبعد بأنها جاءت من نفس الموقع أو من مواقع خاضعة لنفس التقليد الفني.

النمط الثاني

يحتوي النمط الحالي على الدمية الموضحة في اللوح (٢٠أ، ب)، تتميز هذه الدمية النادرة على الرغم من فقدان نصفها السفلي بسمات فنية تختلف عن دمى النمط الأول. فمن حيث الشكل؛ يلاحظ بأن الرقبة طويلة وعريضة إذا ما قورنت بدمى النوع الأول، كما ركز الفنان في هذه الدمية علي تفاصيل الرأس خاصة الشعر والذي رتب على شكل ست ضفائر طويلة تصل إلى الكتف (اللوح ٢٠ب). إلا أن

(٦) Henry Hodges, *Artifacts: An Introduction to Early Materials and Teehnology* (New Jersy: Humanities Press, 1981), p.40

الأيدي في هذه الدمية تتشابهة مع دمى النمط الأول من حيث الوضعية وطريقة التشكيل، ومن ناحية أخرى فهي تشابه بعض دمى النمط الأول، (اللوحات ١١،٦) في وجود ثقبين على أطراف الأيدي.

ومما يعكس أهمية الشخصية الممثلة في هذه الدمية، هو وفرة الحلي ونوعيتها، حيث زينت الرقبة بأربع قلائد صغيرة ومفصصة، وأخرى كبيرة لتزين الصدر. ولإبراز الجانب الديني لهذه الدمية، صور الفنان رمز الإله عثر مع مرافقته الشمس على بطن الدمية؛ وعثر كما هو معروف من الآلهة الرئيسة التي عبدت في جنوبي الجزيرة العربية قبل الإسلام، وغالباً ماكان يرمز له في الفنون اليمنية القديمة بشكل الهلال مع قرص الشمس.[٧] أما فيما يتعلق بنوع الغضار، فيتبين من خلال الفحص الأولي لمكسر هذه الدمية بأنه غضار ذو حبيبات متوسطة الخشونة، كما يحتوي على بعض البقايا العضوية Organic remains ، وهو بذلك يختلف عن نوع الغضار المستخدم في صناعة دمى النمط الأول والذي يتميز بحبيباته الناعمة والخالية من الشوائب.

النمط الثالث

يتمثل هذا النمط في الدمية التي تصور ذكر (اللوحة: ٢١، الشكل ٢٠). وهي تعتبر نسبياً أكثر واقعية من الدمى السابقة، بالذات من ناحية تبلور أشكال الأيدي المثنية على الخصر. أما الأرجل فشكلت بطريقة أولية، وربما ضممت بالأصل لتشكل قاعدة لوقوف الدمية، ولذلك أصبحت غير متناسقة مع حجم الجسم. وبالنسبة لنوعية الزخارف المنفذة على الصدر والرقبة فهي من السمات المميزة لهذه الدمية حيث زين الجزء الأعلى من الصدر بعدد من الخطوط المتقاطعة على شكل شبكة، نفذت باستخدام طلاء أحمر اللون قان. وبنفس الطريقة زينت الرقبة بعنصر زخرفي بسيط يتكون من خط أفقي يتوسط الرقبة ويتصل بزخرفة الصدر بخطوط رأسية قصيرة (الشكل ٢٠)، ويذكرنا هذا النوع من الزخارف المميزة بتلك الزخارف الشبكية الشكل التي ظهرت على بعض الأواني الفخارية المكتشفة في موقع حجر بن حميد[٨]، والمصنفة ضمن الأواني المدرجة تحت النمط رقم ٤١٠٠، حيث نجد تشابه قريب ليس فقط بنوعية الزخرفة ولكن أيضا في اللون.

الدراسة المقارنة

نستخلص من الدراسة التصنيفية لدمى هذا البحث بأننا نتعامل مع ثلاثة أنماط من الدمية الآدمية، استمدت خصائصها الفنية من ورش محلية متباينة في أساليبها الفنية، إلا أنها مع ذلك متأثرة بنفس التقليد الفني العام، وهي النزعة إلى التجريدية في تشكيل الأشخاص المصورة، وربما يشير هذا إلى توافق الأهداف التي صنعت من أجلها هذه الدمى.

تعد الدراسة التي قام بها كارل راثجنز من الدراسات الوحيدة التي تناولت الدمى الآدمية المكتشفة إلى الآن في جنوبي الجزيرة العربية، وقد اعتمدت دراسته على مجموعة متنوعة من الدمى غير المعروفة المواقع ويبلغ عددها الإجمالي ثلاث وعشرون دمية، تسع منها غير مكتملة ومطموسة المعالم. جاءت معظم هذه الدمى من منطقة السودة والبيدا في الجوف، أما البعض الآخر فجاء من وادي سبأ، وفي دراسته التصنيفية والمبنية على أشكال الدمى، قسّم راثجنز مجموعته إلى عشرة أنماط[٩]، حاولنا توضيح وإدراج المعلومات الخاصة بها في الجدول التالي:

(٧) A. Jamme, Le Patheon Sud-Arab Pre-Islamique d'Apres Les Sources E Pigraphiques, *Le Museon*, LX. 1-4 (1947), p.146.

(٨) W. Van Beek, *Hajar Bin Humeid. Investigations at a Prelslamic Site in South Arabia* (Baltmore: Johns Hopkins Press, 1969), p. 98, PL. 35 C and PL. 36 E.

(٩) Rathjens, *Sabaeica*, pp.41-57.

جدول يوضح انواع الدمى التي نشرها راثجنز

	أنواع الدمى الآدمية	المنطقة التي جاءت منها	العدد
١	دمى ذات رؤوس تشبه الطيور	السـوددة	١
٢	دمى ذات أنوف مستديرة	السـوددة	٥
٣	دمى ذات أعناق طويلة	السـوددة، وادي سبـأ	٢
٤	دمى ضخمة	السـوددة، وادي سبـأ	٢
٥	دمى تحمل زخارف	البيداء، مأرب	٣
٦	دمى لها ثنايا في البطن	البيداء، مأرب	٣
٧	دمى مكسية	السـوددة	٢
٨	دمى جالسة	؟	١
٩	دمى ذات عيون البومة	وادي سبأ	٢
١٠	دمى ذات أنوف مستقيمة	السـوددة	٣

من هذه الأنماط العشرة لا يوجد أي نمط يتطابق تطابقاً كاملاً من الناحية الفنية مع أنماط هذا البحث، ويمكن القول أن أوجه التشابه تقتصر على بعض السمات الفنية العامة مثل وضعية شكل الأيدي غير المتبلورة لأشكالها الطبيعية، خاصة لتلك الدمى المدرجة في الثلاثة الأنماط الأولى من مجموعة راثجنز.[١٠]

وفيما يتعلق بأهمية هذه الأنواع من الدمى فيعتقد راثجنز بأنها تحمل تأثيرات دينية خارجية وأنها ليست محلية الصنع ولكن مستوردة[١١]، ويميل راثجنز إلى الاعتقاد بأن دمى النمط الأول من مجموعته لها أهمية جنائزية تتعلق بعبادة الأجداد فهو يقارن هذا النوع من العبادة لدى ماهو معروف عند السومريين والآشوريين والبابليين.[١٢] في حين يرى راثجنز بأن دمى النمط العاشر من مجموعته تمثل آلهة الخصوبة والتكاثر.[١٣] ولأن راثجنز من انصار المدرسة التي تعطي تأريخاً مبكراً لظهور الممالك العربية الجنوبية، وعلى الرغم من أن هذه الدمى لم تكشف في طبقات أو مواقع مؤرخة فقد نسب راثجنز مجموعته إلى ما بين الألف الثالث والثاني قبل الميلاد وقد أيده في هذا الرأي وليم البريت[١٤]، إلا أن الأخير غير رأيه فيما بعد وأكد في أحد الأبحاث المنشورة للباحثة برتا سيجل على أن مجموعة راثجنز تعود بتاريخها إلى العصر الحديدي[١٥] (١٢٠٠ق.م ـ ٩٠٠٠ق.م)، فمن حيث الأهمية نتفق مع رأي راثجنز على أن هذه الدمى لها أهمية دينية، فقد أظهرت الدراسات التي أجريت على الدمى الآشورية والبابلية[١٦] وكذلك التي كشف عنها مؤخراً

(١٠) Rathjens, Sabaeica, Photos 79-84, 87-90, 100-103.

(١١) Rathjens, *Sabaeica*, p.59.

(١٢) Rathjens, *Sabaeica*, p.43.

(١٣) Rathjens, *Sabaeica*, p.59-60.

(١٤) Rathjens, *Sabaeica*, p.60.

(١٥) Segall, Berta, "Sculpture from Arabia Felix: The Earliest Phase" *Ars Orientalis, The Art of Islam and The East*, Vol.2. (Germany, 1957), p.37.

(١٦) Van Buren. *Clay Figurines of Babylonia and Assyria* (Yale: Yale University Press, 1930), Vol. XVI. p. XIViii.

في كلا من بلاد الشام[١٧] وشرقي الجزيرة العربية[١٨] على أن هذا النوع من الدمى ليست لعب أطفال كما يعتقد الكثير، بل صنعت لأغراض دينية متنوعة اعتمدت من ناحية على شكل الدمية وما تحويه من رموز أو دلالات معينة ومن الناحية الأخرى على طبيعة مكان العثور مثل المعابد أو المقابر. وتتجلى الأهمية الدينية لدمى موضوع البحث في أكثر من ناحية لعل من أهمها ظهور، ولأول مرة رمز الإله الرئيس الجنوبي «عثر» المتمثل برمزه المعروف الهلال مع الشمس[١٩] على الدمية المدرجة في النمط الثاني (اللوحة ١٢٠أ)؛ وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن الدمية صنعت لهدف ديني فهي إما أن تكون دمية مقدمة كنذر للإله «عثر»، أو استخدمت كتعويذة لجلب الخير ولطرد الأرواح الشريرة، ويبدو أن الاحتمال الأخير أكثر ترجيحاً خاصة إذا ما أخذ في الاعتبار وجود الثقبين على أطراف الأيدي مما يوحي على أن الدمية كانت تعلق وهذا ينطبق أيضا على بعض الدمى المدرجة في النمط الأول (اللوحات ١١،٦) حيث يلاحظ أيضا وجود الثقوب على الأيدي.

مما سبق يمكن القول بأن هذا النوع من الدمى صنع وبدون شك في جنوبي الجزيرة العربية وليس مستورد، كما وأن هذه الدمى جاءت لتعكس عن مفهوم ديني يرتبط في الغالب بحياة المتعبد أو صاحب الدمية، ذلك لأنه وإلى الآن لم تكشف لنا الحفريات التي تمت في جنوبي الجزيرة عن وجود هذه الدمى في المقابر. لذلك فإن هذه الدمى قد صنعت إما لتقدم كنذور للإله «عثر» أو لغيره من الآلهة الجنوبية أو ربما استخدمت كتعويذة.

المصنّف

يحوي هذا المصنف على الوصف وبعض المعلومات المتوافرة عن كل دمية من دمى البحث. رتبت الدمى بناء على تقديمها في دراستنا التصنيفية لها، ولذلك يبدأ المصنّف أولاً بالدمى المدرجة تحت النمط الأول والتي أعطيت الرقم المتسلسل من ١ - ١٩، اللوحات ١ - ١٩، يلي ذلك دمى الأنماط الأخرى.

رقم ١ : (اللوحة ١ ـ الشكل ١)
رقم السجل : م.أ.ج / ٧٧
الطول : ٢ر١٣ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل مائلة قليلاً إلى اليسار عند الصدر، لها قاعدة مستديرة. الأيدي غير واضحة المعالم. زينت الرقبة وأعلى الصدر بحزوز مائلة، في حين زين الصدر بخط مائل من النقط الغائرة. ثلاث نقاط أيضا نفذت على البطن. بروزان أحدهما مفقود لتمثيل الصدر .

رقم ٢ : (اللوحة ٢ ـ الشكل ٢)
رقم السجل : م.أ.ج / ٢١
الطول : ٨ر١١ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل مائلة إلى اليمين، لها قاعدة بيضية الشكل تقريبا. مثلت العيون بإسلوب الوخز. أما الأيدي فغير متبلورة لأشكالها الطبيعية. تحتوي الرقبة على حز واحد، أما أعلى الصدر فزين بخطين مائلين نفذا بأسلوب التحزيز. كما زين الصدر بخط مائل من النقط الغائرة. مثلت الأثداء بطريقة السحب. هناك مجموعة من النقاط غير محددة الأشكال تنتشر على البطن.

رقم ٣ : (اللوحة ٣ ـ الشكل ٣)
رقم السجل : م.أ.ج / ٨٦
الطول : ٤ر١٠ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل ذات قاعدة دائرية. الأنف مفلطح الشكل نفذ بطريقة السحب. الأيدي بدائية الشكل. زينت الرقبة بعدة حزوز مائلة، في حين زين

(١٧) Amer Abdel - Jalil, *A Study of the Clay Figurines and Zoomorphic Vessels of Trans - Jordan During the Iron Age with Special Refernece to Their Symbolism and Function,* Unpublished Ph. D. thesis (University of London, 1980), pp.316-320.

(١٨) سيد انيس هاشم، **الأشكال الفنية الفخارية في ثاج** (الرياض: إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، ١٤١٢هـ)، ص ١٧.

(١٩) Jamme, "Le Patheon", p.146.

الصدر بخطين مائلين من النقاط الغائرة.

رقم ٣ : (اللوحة ٤ ـ الشكل ٤)
رقم السجل : م.أ.ج / ٢٥
الطـول : ٤ر٩ سم
المـــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل ذات قاعدة دائرية فقدت جزء من جهتها الأمامية، الأيدي بدائية الشكل. نفذت العيون بأسلوب الوخز، أما الأنف فشكل بطريقة السحب. زينت الرقبة بخط مائل، أما أعلى الصدر فزين بخطين نفذا بالتحزيز. كما زين الصدر بخط مائل من النقط الغائرة، أما الصدر فصوّر ببروازين متقاربين.

رقم ٥ : (اللوحة ٥ ـ الشكل ٥)
رقم السجل : م.أ.ج / ٣٧
الطـول : ١٢ سم
المـــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل فقدت جزئها الأسفل. نفذ الأنف بطريقة السحب والعيون بالوخز. زين كل من الرقبة والصدر بحزوز مائلة قليلاً. أما الصدر فمثل ببروزان الأيسر أعلى قليلاً.

رقم ٦ : (اللوحة ٦ ـ الشكل ٦)
رقم السجل : م.أ.ج / ٣٢
الطـول : ٨ر١٢ سم
المـــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل لها قاعدة مستديرة. شُكّل الأنف بأسلوب السحب والعيون بإسلوب الوخز. تتشابه الأيدي بطريقة تشكيلها ووضعيتها للدمى السابقة. زين الصدر بسبع نقاط محدورة تبدأ من نهاية اليد اليمنى وحتى نهاية اليد اليسرى. صّور الصدر بواسطة بروزان غير متساويان من حيث الارتفاع والشكل.

رقم ٧ : (اللوحة ٧ ـ الشكل ٧)
رقم السجل : م.أ.ج / ٩١
الطـول : ٥ر١٥ سم
المـــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية إسطوانية يزيد سمكها باتجاه قاعدتها الدائرية الشكل. صورت العيون بإسلوب الوخز. يوجد هناك خط محزز على أعلى الرقبة ربما يمثل ثنايا الرقبة. شكلت الأيدي بوساطة بروزان بسيطان، وتحوي اليد اليسرى على نقطتين نفذتا بأسلوب الوخز، هناك ثلاث نقاط أيضا على وسط الصدر. أما الأثداء فصورت على شكل بروزان بسيطان. هناك بقايا مادة جبسية على أعلى الصدر مما قد يوحي بأن هذه الدمية ربما كانت مطلية.

رقم ٨ : (اللوحة ٨ ـ الشكل ٨)
رقم السجل : م.أ.ج / ٣٩
الطـول : ٦ر١٠ سم
المـــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل ذات قاعدة دائرية غير مستوية، شُكِّلت العيون بأسلوب الوخز. الرقبة طويلة وعريضة نسبياً إذا ما قورنت بالدمى السابقة. زين الصدر بخطين مائلين أنجزا بأسلوب التحزيز. أما الأثداء فصورت بهيئة بروازين دائريين.

رقم ٩ : (اللوحة ٩ ـ الشكل ٩)
رقم السجل : م.أ.ج /١٠٦
الطـول : ٧ر١٣ سم
المـــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل فقدت جزئها الأسفل. العيون شكلت بأسلوب الوخز. الرقبة تحوي على ثلاثة خطوط مائلة نفذت بطريقة التحزيز. هناك مجموعة من النقاط الغائرة على الصدر والتي ليس لها مدلول معين. مثلت الأثداء ببروزان غير متساويان في الارتفاع.

رقم ١٠ : (اللوحة ١٠ ـ الشكل ١٠)
رقم السجل : م.أ.ج / ٤٢
الطـول : ٦ر١١ سم
المـــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل يميل جزئها الأعلى قليلاً إلى الوراء، ولها قاعدة مستديرة ومنخفضة من جهة الوسط. العيون مشابهة للدمى السابقة، والأنف

شُكل بأسلوب السحب. تحتوي الرقبة على خط رفيع محزز. أما الأثداء فشكلت بهيئة بروازين صغيرين منخفضين نسبيا.

رقم ١١ : (اللوحة ١١ ـ الشكل ١١)
رقم السجل : م.أ.ج / ١٦
الطول : ١ر١٥ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل لها قاعدة مستديرة. الرقبة طويلة، عليها ثلاثة خطوط محززة. الأيدي بدائية الشكل. يوجد على طرف كل يد ثقب صغير ربما لتعليق الدمية. مثلت الأثداء ببروازين صغيرين.

رقم ١٢ : (اللوحة ١٢ ـ الشكل ١٢)
رقم السجل : م.أ.ج / ١٠٤
الطول : ٣ر١٥ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية ذات قاعدة دائرية مقعرة. تعرض وجه الدمية لبعض التشويه، كما تعرضت الدمية للكسر عند منتصفها. ويذكرنا السطح المنقر لهذه الدمية بالدمية المبينة في المصنّف رقم ٩.

رقم ١٣ : (اللوحة ١٣ ـ الشكل ١٣)
رقم السجل : م.أ.ج / ١٠١
الطول : ٢ر١٤ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل لها قاعدة دائرية مقعرة قليلا. الأنف مفلطح الشكل شُكِّل بأسلوب السحب. يبدو بأن هذه الدمية كانت بالأصل مطلية بطبقة جبسية بيضاء، وهي بذلك تشابه الدمية المدرجة في المصنف رقم ٧.

رقم ١٤ : (اللوحة ١٤ ـ الشكل ١٤)
رقم السجل : م.أ.ج / ٤٤
الطول : ٦ر١٣ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل تميل إلى اليسار باتجاه قاعدتها الدائرية. شكلت العيون بطريقة الوخز، أما الأنف فبطريقة السحب. صورت الأيدي على شكل بروازين على شكل مثلث. في حين شكلت الأثداء ببروازين غير متساويين في الحجم والارتفاع.

رقم ١٥ : (اللوحة ١٥ ـ الشكل ١٥)
رقم السجل : م.أ.ج / ٤٩
الطول : ١ر١٥ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية ذات قاعدة دائرية كبيرة تتميز بوجود حافة بارزة الأيدي بدائية الشكل تميل قليلاً إلى الأمام. معالم الوجه تشابه الدمى السابقة. زين الصدر وأسفل الرقبة بثلاثة خطوط مائلة نفذت بأسلوب التحزيز.

رقم ١٦ : (اللوحة ١٦ ـ الشكل ١٦)
رقم السجل : م.أ.ج / ٥٧
الطول : ١٥ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل ذات رأس صغير نسبياً وقاعدة دائرية مستوية. تتميز هذه الدمية عن الدمى السابقة بطريقة تشكيل العيون الدائرية والمشكلة بإسلوب إضافة أقراص دائرية تحتوي على ثقب في الوسط وكذلك الأثداء المضافة. في حين يلاحظ في الدمى السابقة أن العيون نفذت بأسلوب الوخز، أما الأثداء بأسلوب السحب. زينت الرقبة الطويلة بصفين من النقاط الغائرة. يتضح من بقايا المادة الجصية أن هذه الدمية كانت مطلية بطبقة رقيقة بيضاء من الجص.

رقم ١٧ : (اللوحة ١٧ ـ الشكل ١٧)
رقم السجل : م.أ.ج / ٩٦
الطول : ١ر١٦ سم
المادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل لها قاعدة دائرية. اليد اليمنى مكسورة والطبقة السطحية السفلى للدمية مكشوطة مُثلت العيون والأثداء بنفس أسلوب الدمية السابقة. زينت الرقبة والصدر بخمسة خطوط متوازية نفذت بطريقة التحزيز.

رقم ١٨ : (اللوحة ١٨ ـ الشكل ١٨)
رقم السجل : م.أ.ج / ٩٨
الطـول : ٤ر١٢ سم
المــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

دمية أسطوانية الشكل لها قاعدة دائرية. ملامح الوجه غير مشغولة. الصدر والرقبة مزينة بعدة خطوط متوازية نفذت بأسلوب التحزيز. شكلت الأثداء بهيئة بروازين الأيمن هرمي الشكل. يبدو بأن هذه الدمية قد تعرضت للعوامل الجوية ذلك لزوال معظم أجزاء الطبقة السطحية للدمية.

رقم ١٩ : (اللوحة ١٩ ـ الشكل ١٩)
رقم السجل : م.أ.ج / ٨٧
الطـول : ٩ر١١ سم
المــادة : صلصال ناعم ـ مائل للحمرة

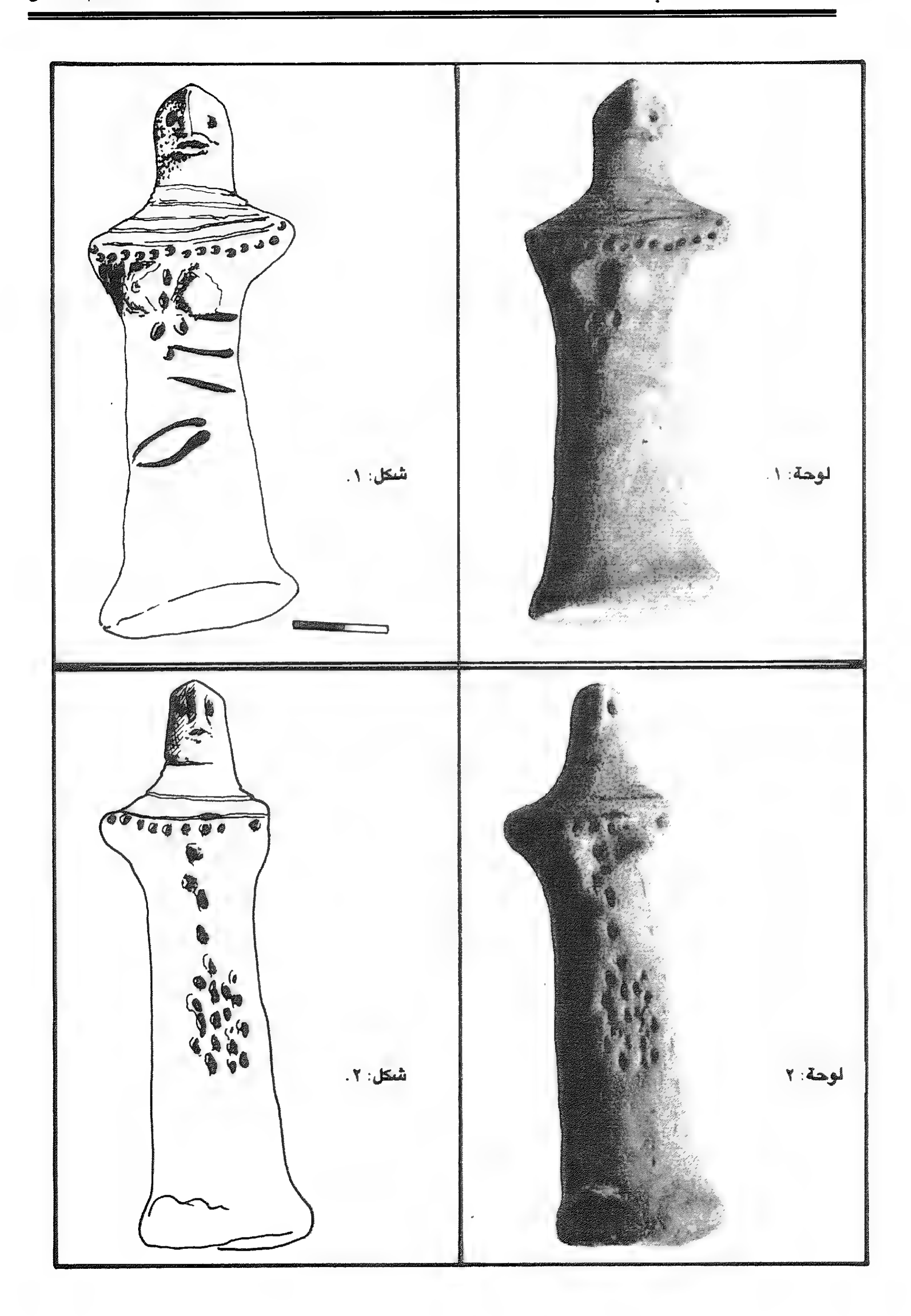
دميـة أسـطوانيـة ذات قاعدة دائرية مستوية، الأنف مشـطوف، العيـون دائـريـة أنجزت بطريقة الوخـز. فقدت اليد اليسرى جزءا من طرفها. زينت الرقبة بعدد من النقط الغائرة. صّور الثدي بإضافة قرص دائري الشكل.

رقم ٢٠ : (اللوحة ١٢٠.ب)
رقم السجل : م.أ.ج / ٢٩
الطـول : ٥ر١١ سم
المــادة : صلصال متوسط الخشونة يحتوي على بقايا مواد عضوية

دميــة فقــدت نصفهـا السفـلي. الرقبـة طويلة وعريضة، زينت بأربع قلائد مفصصة ومتوازية. أما الشعر فصور على هيئة ست ضفائر طويلة تصل إلى الكتف (٢٠ب). كمـا زين الصــدر بقـلادة كبـيرة مفصصة. الأيدي غير متبلورة لأشكالها الطبيعية، تحتوي على ثقبين ربما لتعليق الدمية. لعل من أهم ما يميز هذه الدمية بالإضافة إلى وفرة الزخارف، ظهور رمز الإله عثر على بطن هذه الدمية، حيث يظهر رمز الهلال يحتضن قرص الشمس.

رقم ٢١ : (اللوحة ٢١ ـ الشكل ٢٠)
رقم السجل : م.أ.ج / ١١١
الطـول : ٦ر١٤ سم
المــادة : صلصال ناعم ـ يميل لونه إلى الإحمرار

دمية تصور ذَكَر. تعتبر الأيدي أكثر واقعية إذا ما قورنت بالدمى السابقة. الأنف مفلطح انجز بأسلوب السحب. أما العيون والفم فغير منجزة. تتميز هذه الدمية بنوعية زخارفها، حيث زين الصدر بعدد من الخطوط المقاطعة على هيئة شبكة نفذت باستخدام طلاء أحمر قان. كما زينت الرقبة بعنصر زخرفي بسيط يتكون من خط أفقي يتوسط الرقبة ويتصل بزخرفة الصـدر بوساطة خطوط رئيسة قصيرة. أما الأرجل فهي كبيرة ويبدو بأنها صممت لتشكل قاعدة.

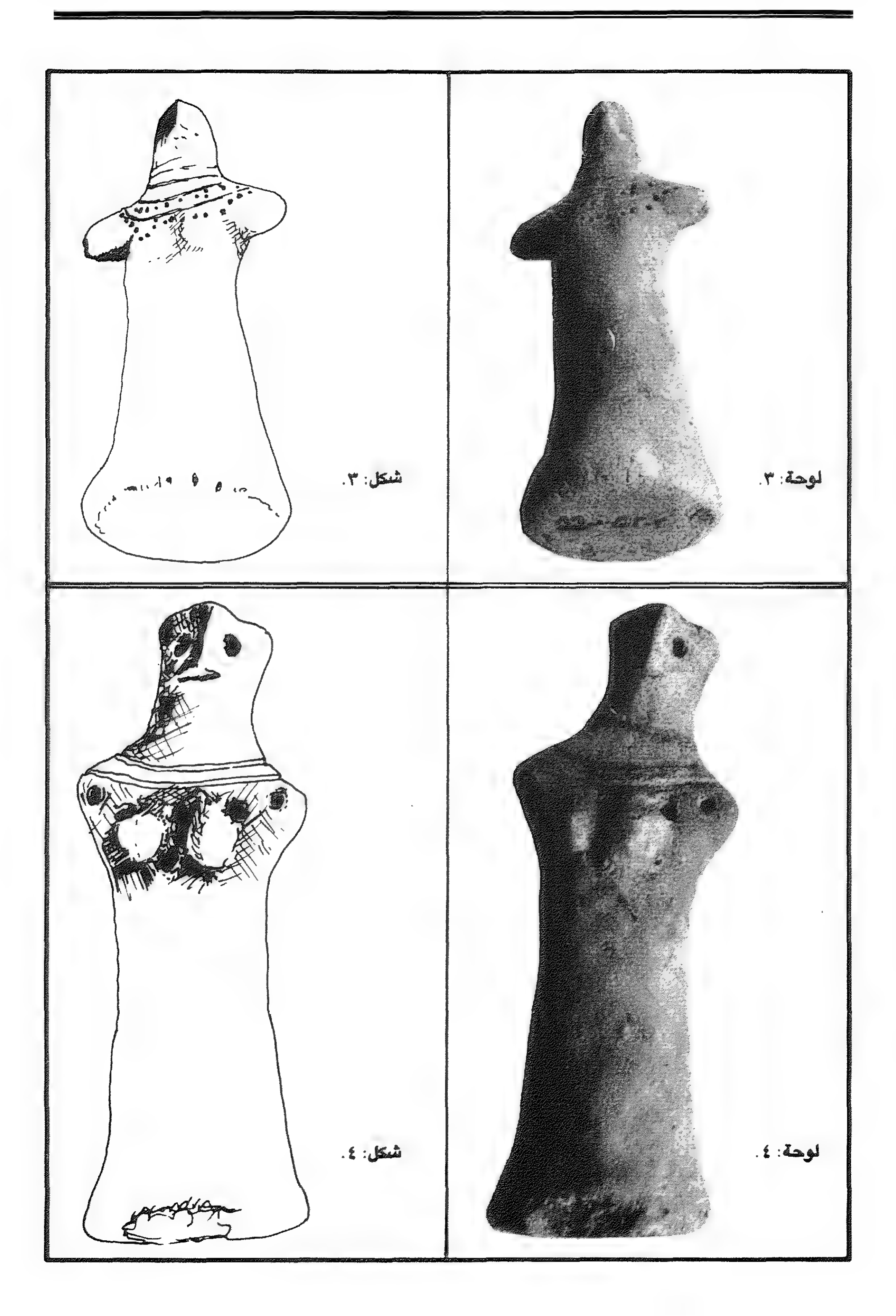


شكل: ١.

لوحة: ١.

شكل: ٢.

لوحة: ٢

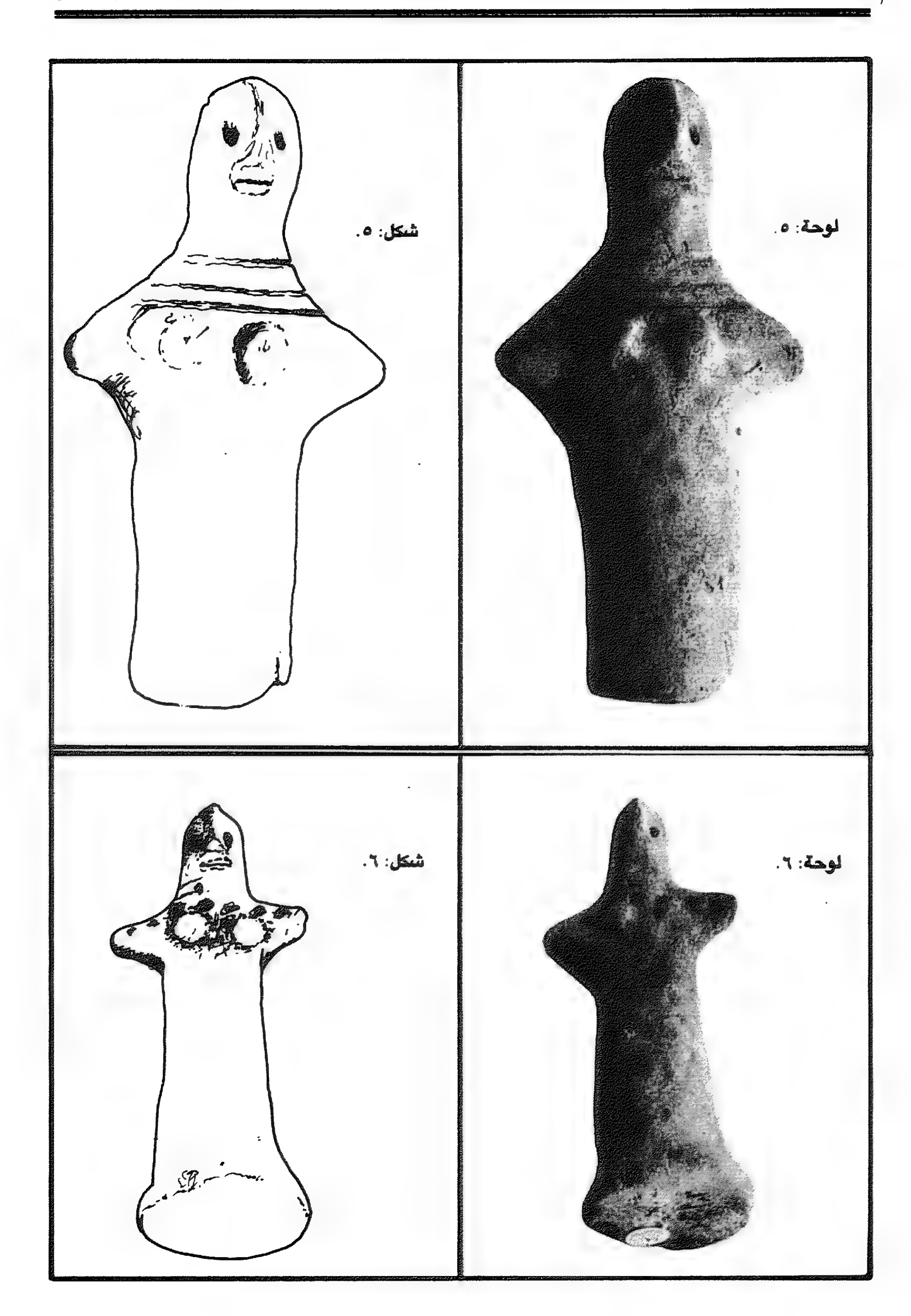


لوحة: ٣.

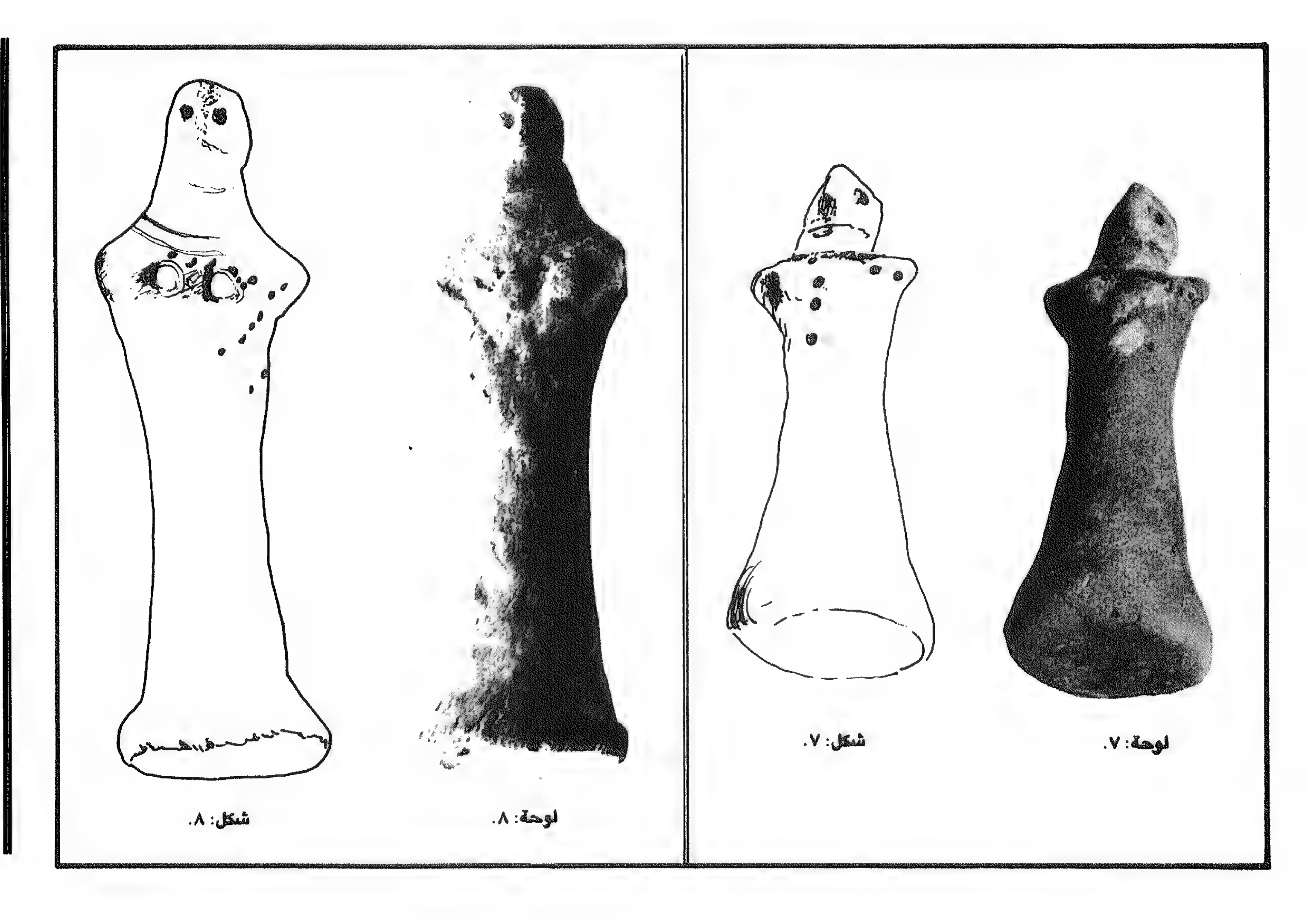
شكل: ٣.

لوحة: ٤.

شكل: ٤.



لوحة: ٥.
شكل: ٥.
لوحة: ٦.
شكل: ٦.

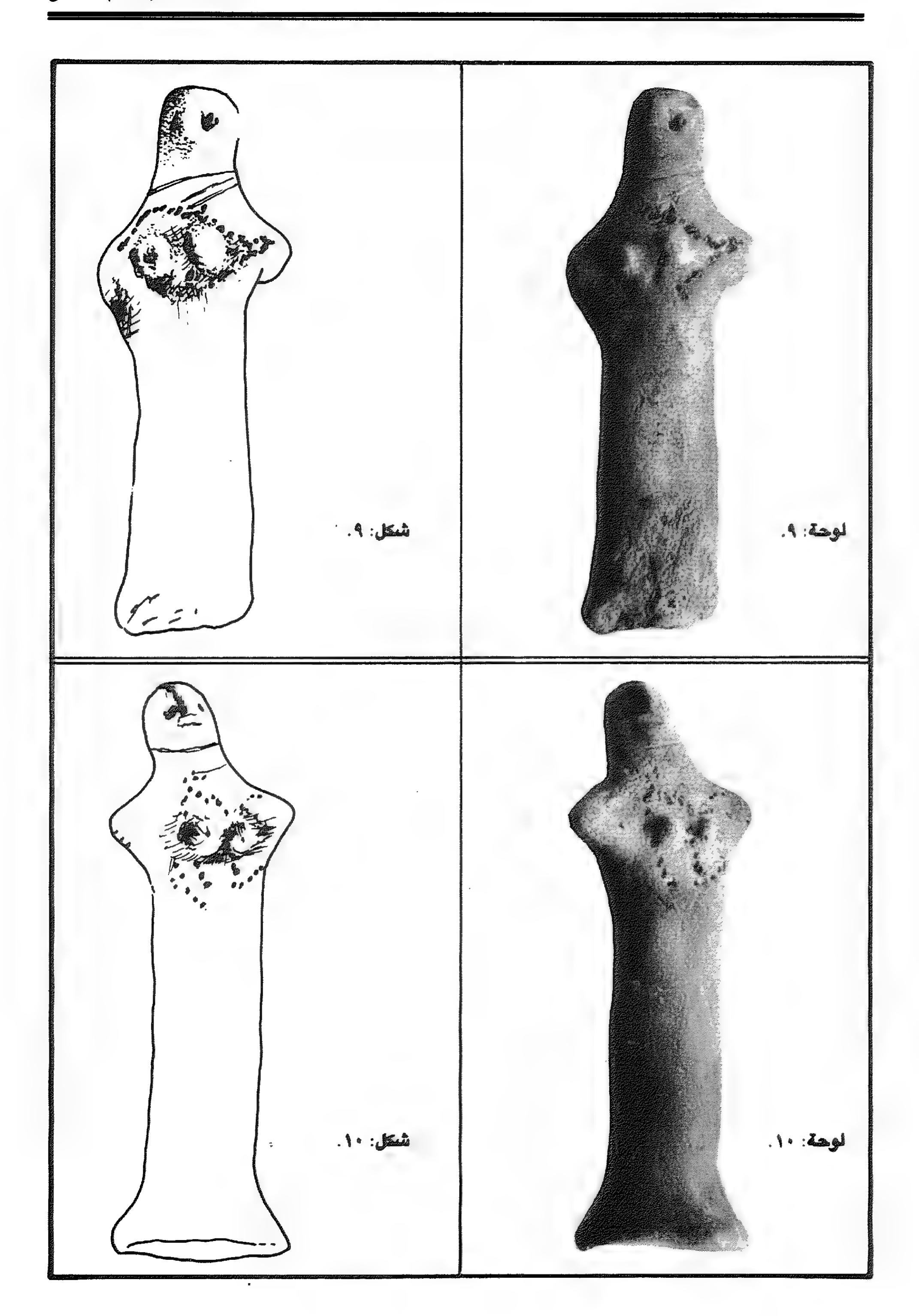


لوحة: ٧.

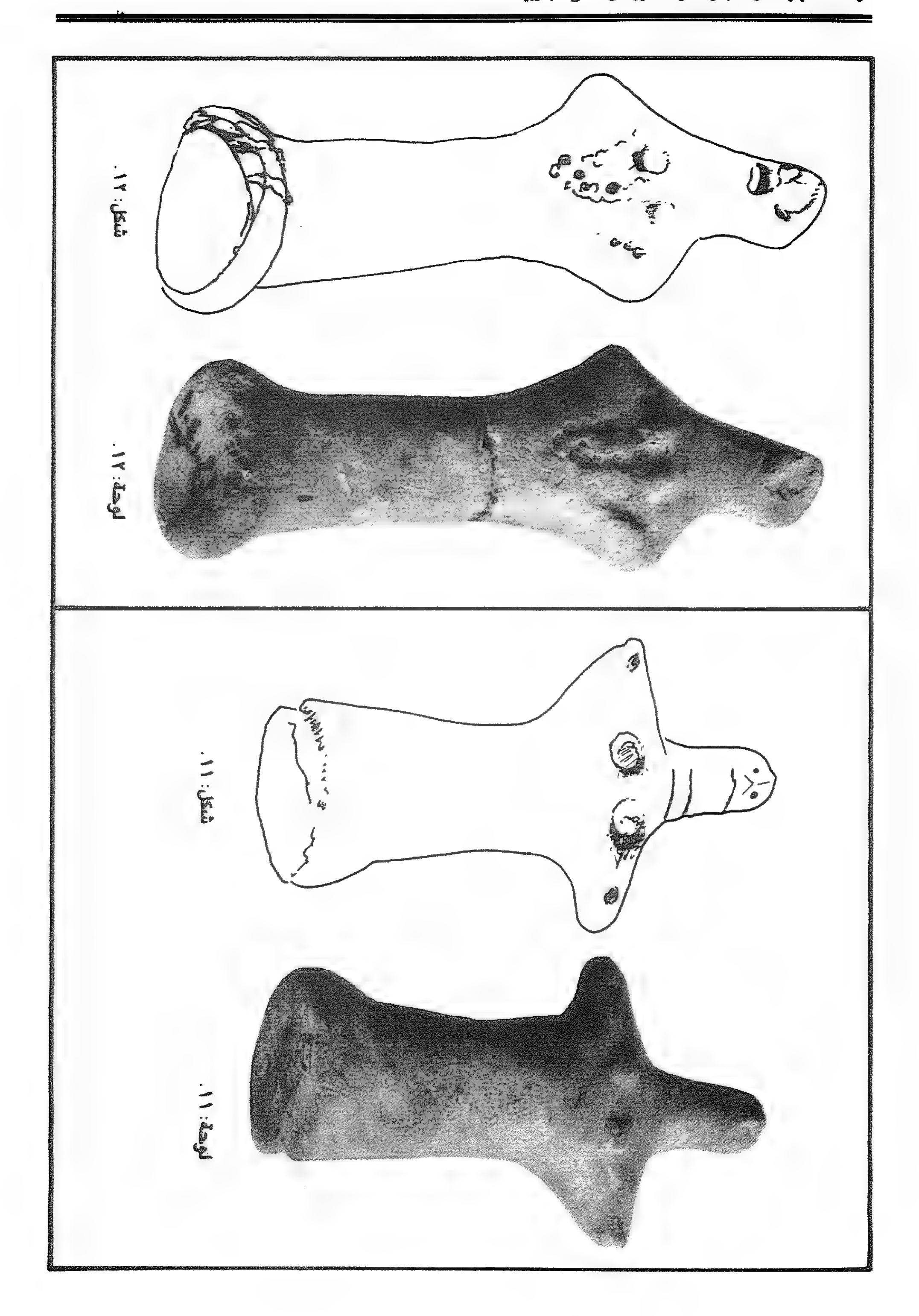
شكل: ٧.

لوحة: ٨.

شكل: ٨.



لوحة: ٩.
شكل: ٩.
لوحة: ١٠.
شكل: ١٠.

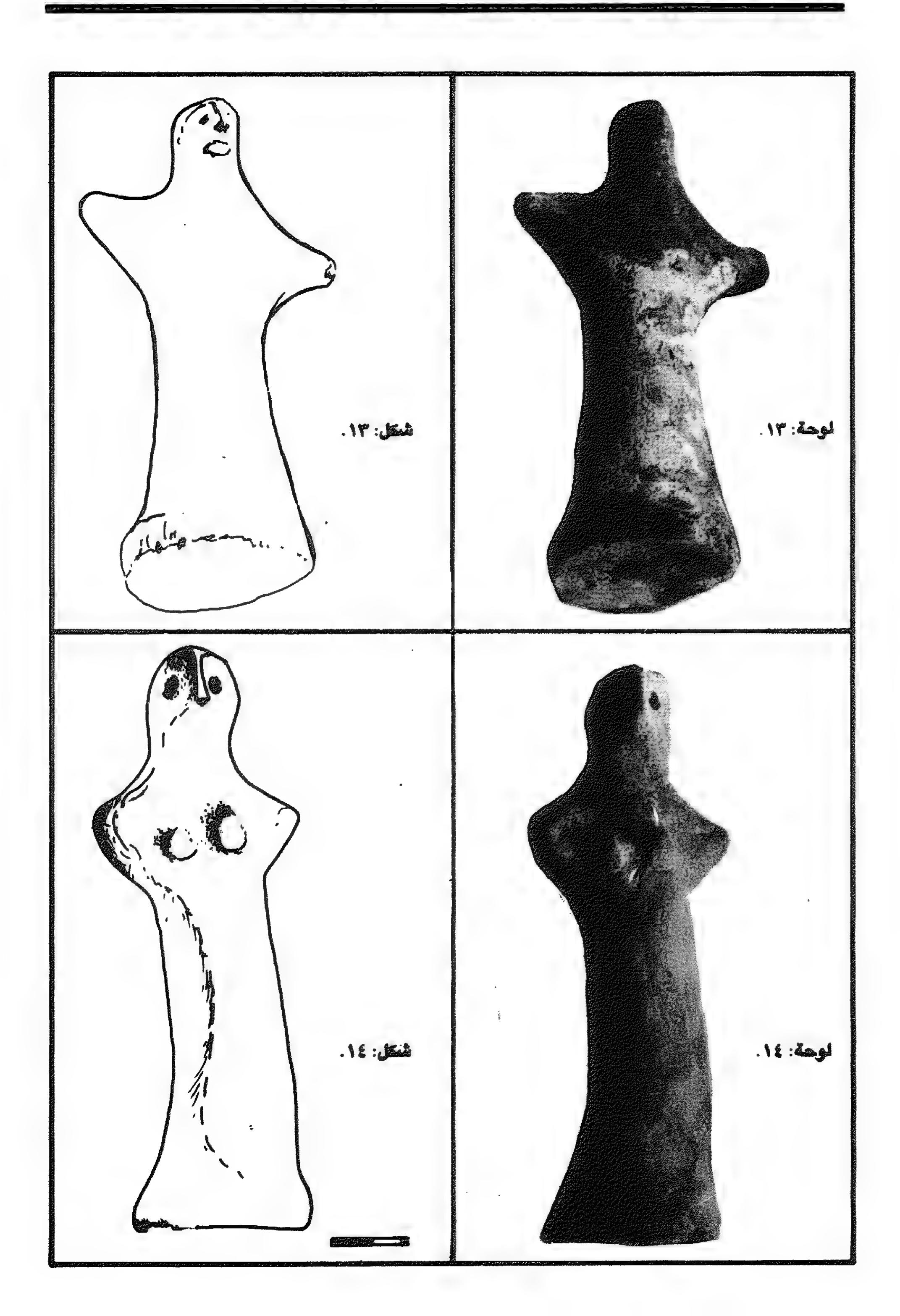


شكل: ١٢.

لوحة: ١٢.

شكل: ١١.

لوحة: ١١.

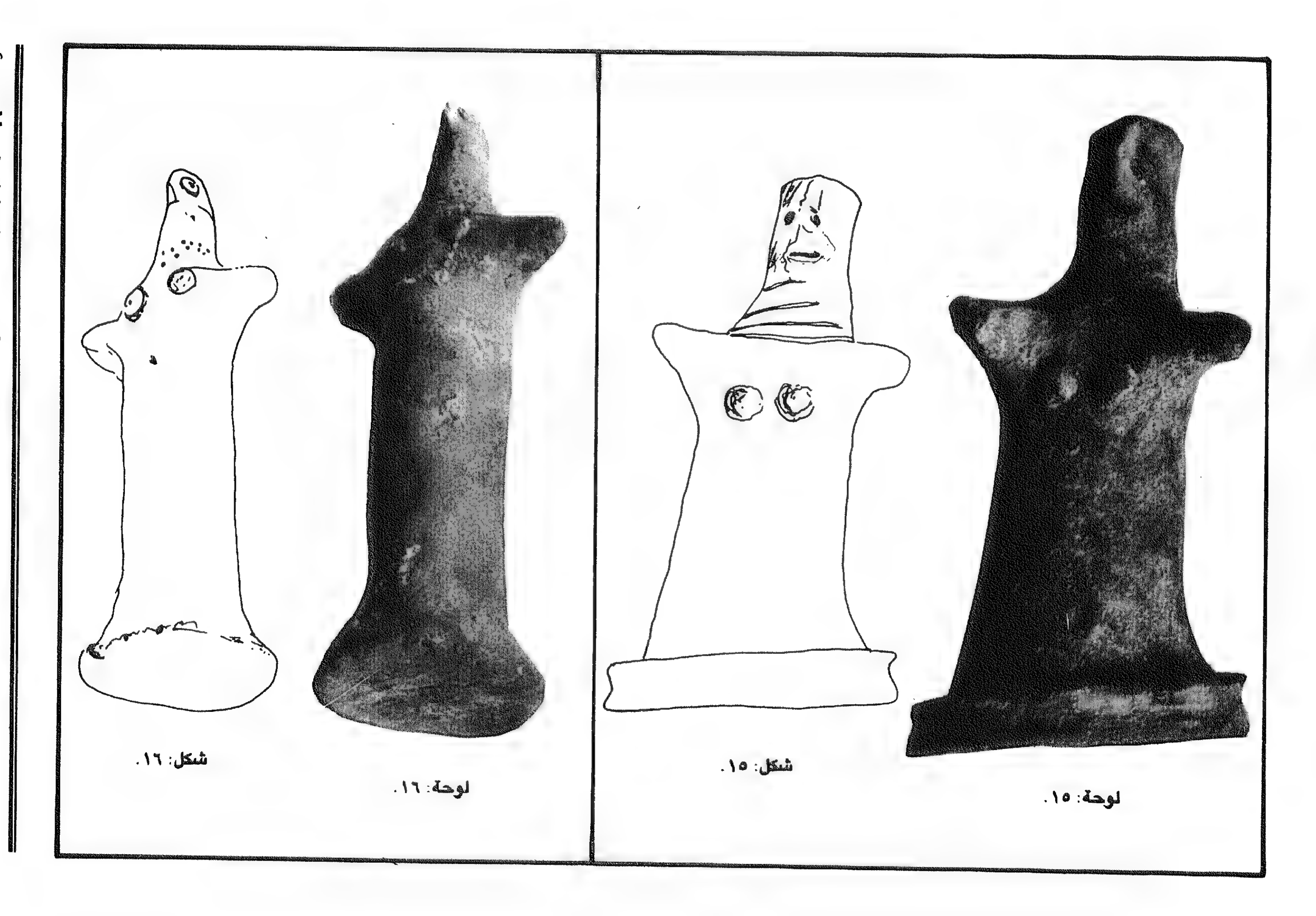


لوحة: ١٣.

شكل: ١٣.

لوحة: ١٤.

شكل: ١٤.

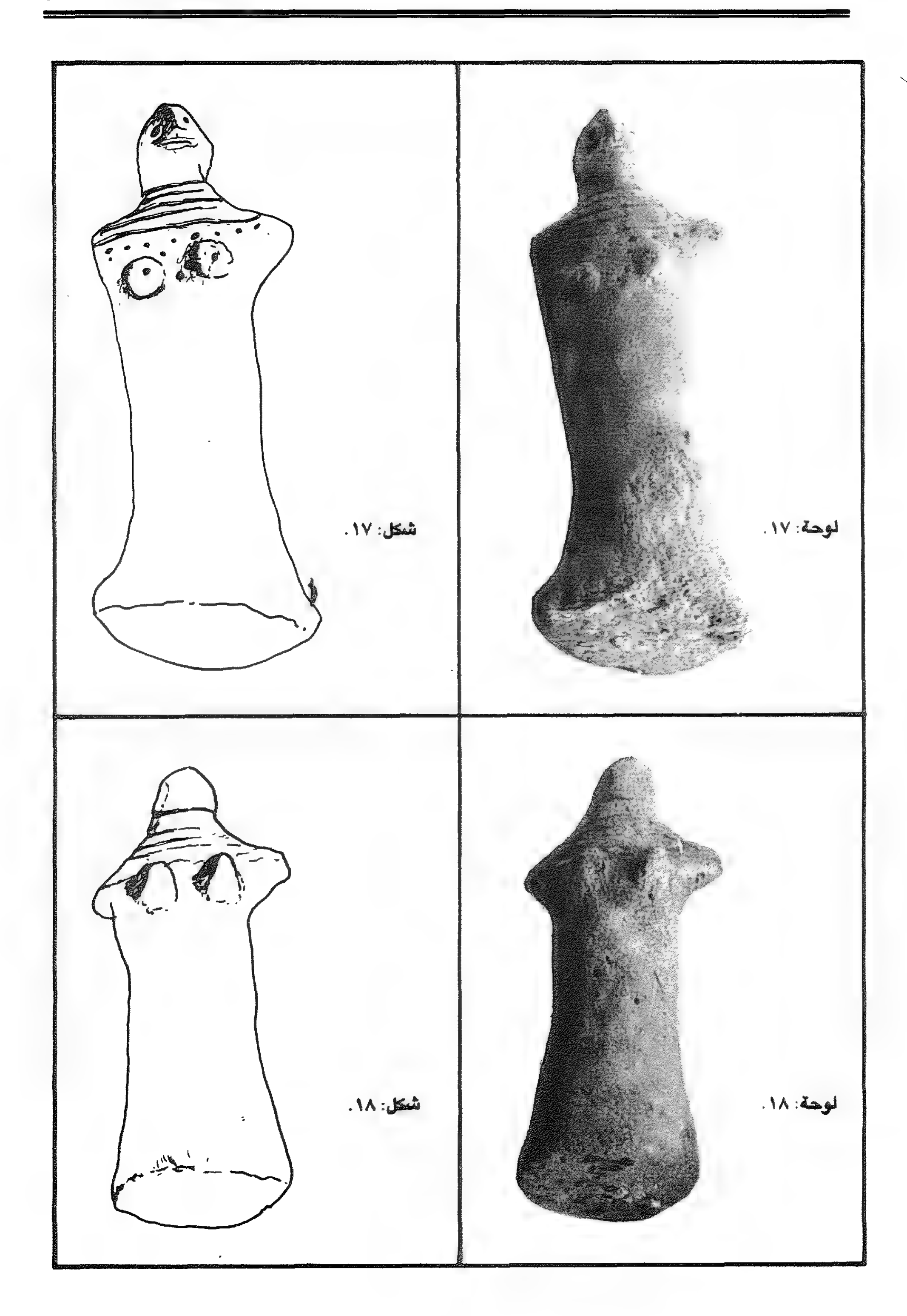


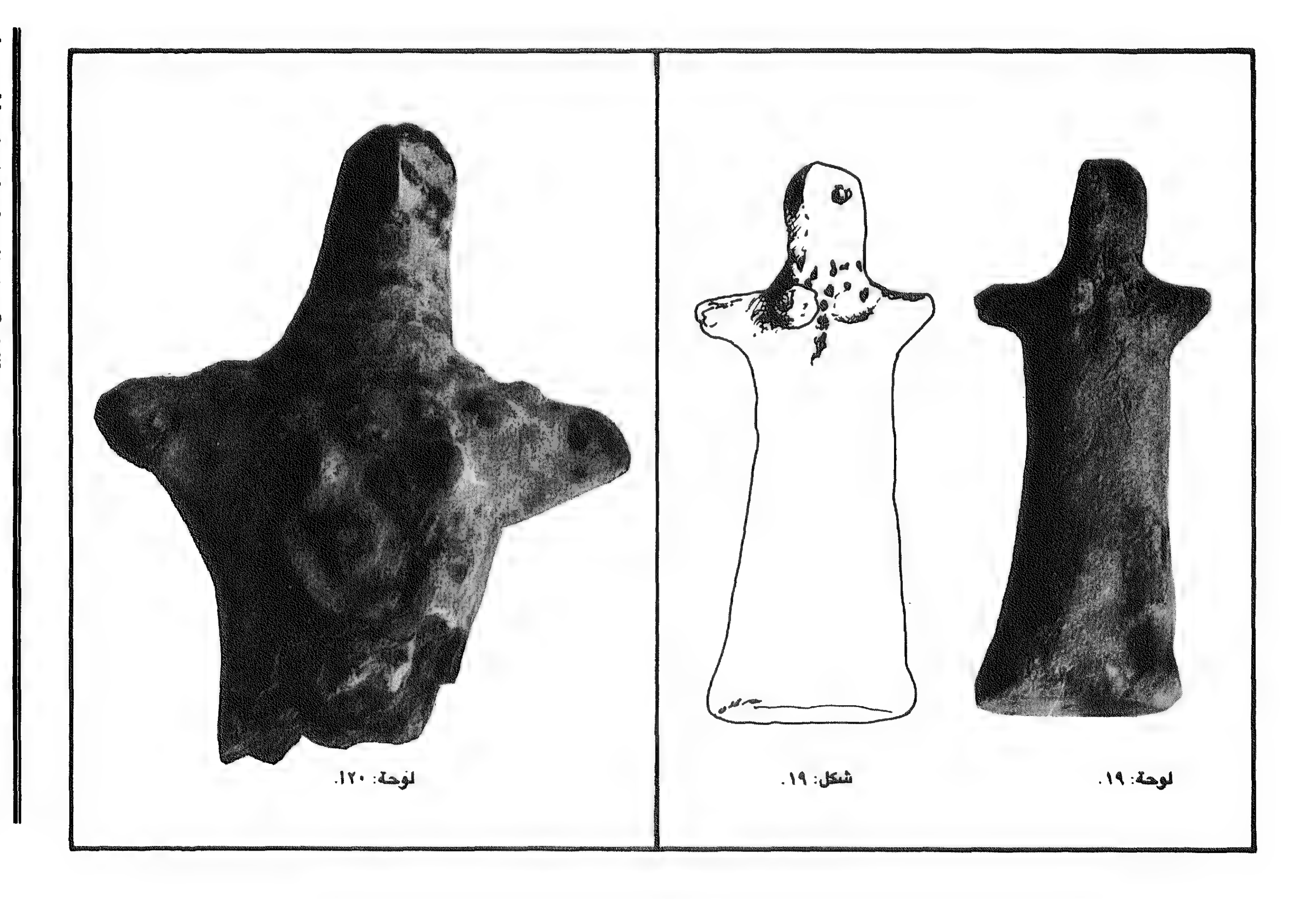
شكل: ١٦.

لوحة: ١٦.

شكل: ١٥.

لوحة: ١٥.

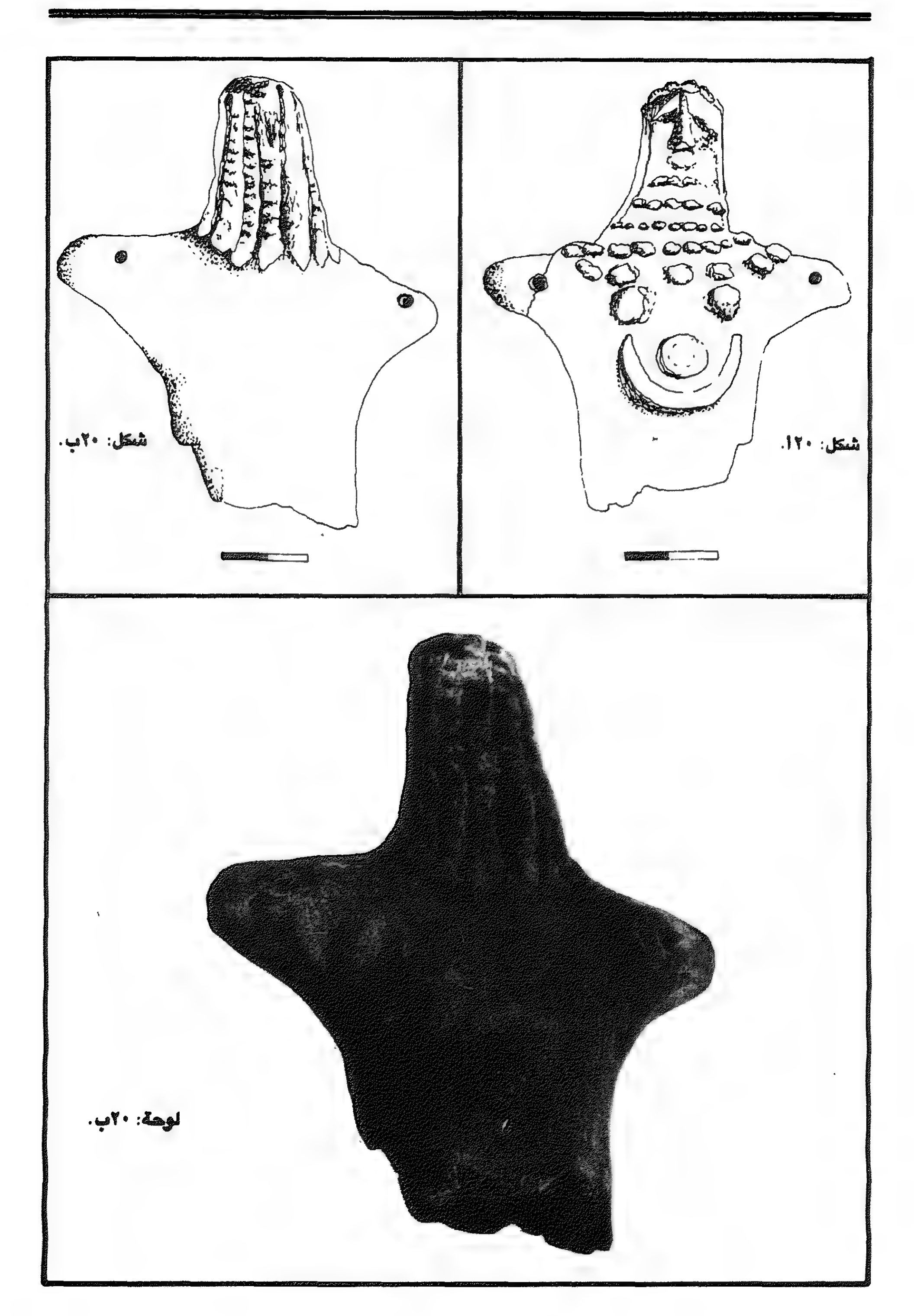

لوحة: ١٧.
شكل: ١٧.
لوحة: ١٨.
شكل: ١٨.



لوحة: ١٢٠.

شكل: ١٩.

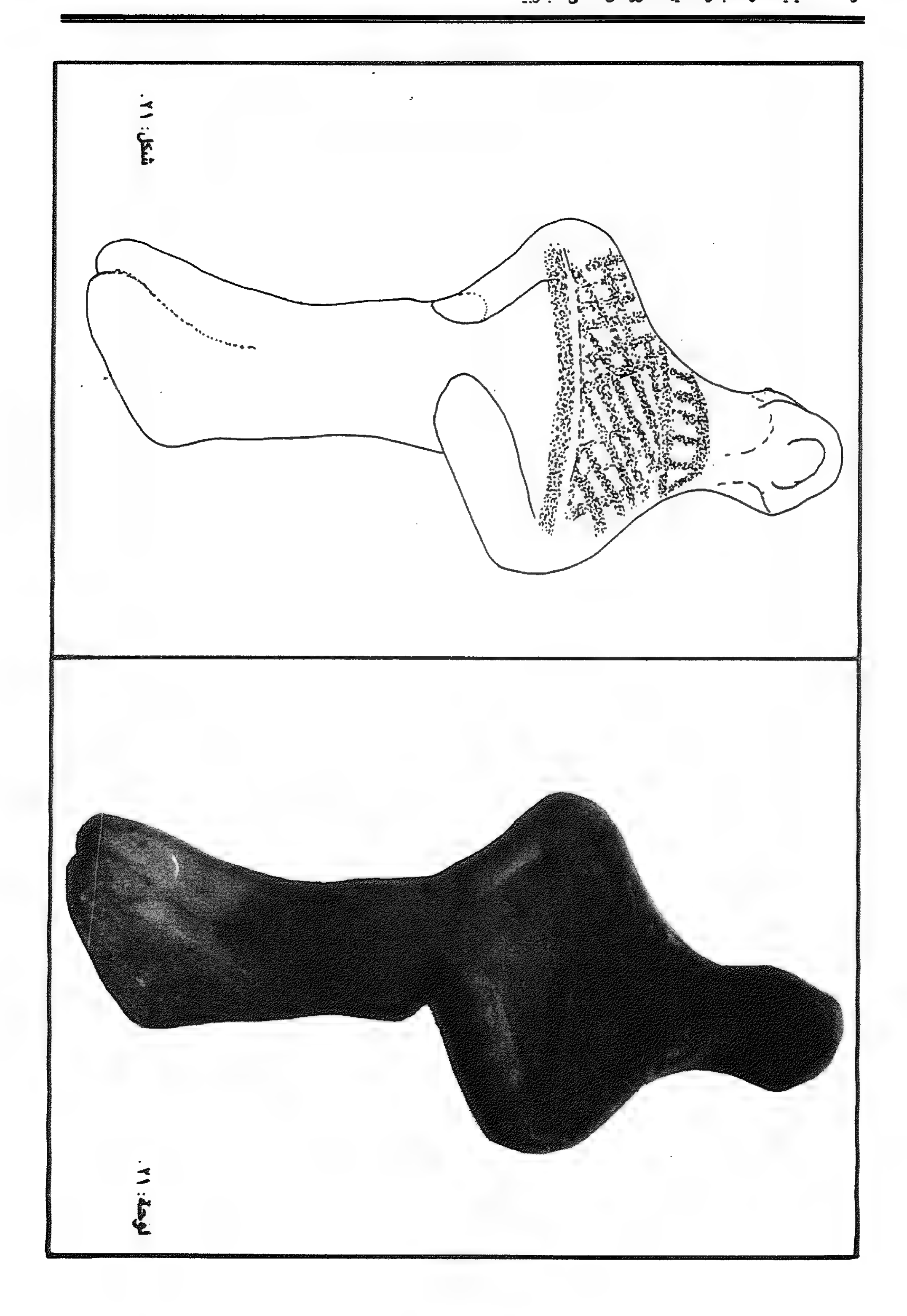
لوحة: ١٩.



شكل: ٢٠ب.

شكل: ٢٠أ.

لوحة: ٢٠ب.



شكل: ٢١.

لوحة: ٢١.

العصور، المجلد الثامن، الجزء الثاني، ٣١١ ـ ٣٢٠ (١٩٩٣م).

الوظائف الحكومية والعسكرية في مملكة الأنباط

للدكتورة **هتون أجواد الفاسي**

ملخص البحث : **ظهرت مملكة الأنباط منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد (٣١٢ق.م) في المكتبة التاريخية لديودورس الصقلي على أرجح الأقوال، وربما قبل ذلك (القرن٨ق.م)، وقد استمرت حتى اسقطها الرومان وضموها إلى الولاية العربية عام ١٠٦م، وكانت عاصمتها الرقيم (البتراء) لكن أراضيها امتدت في كل اتجاه شمالا حتى دمشق عام ٨٤ق.م، وغرباً حتى غزة وسيناء، وشرقا حتى دومة (الجوف) وجنوبا حتى الحجر (مدائن صالح) التي بنوها في القرن الأول للميلاد، وربما تُظهر لنا الأيام امتدادا أكبر وأوسع. وقد ترك الأنباط لنا حضارة رفيعة المستوى كما نرى في الهندسة والمعمار والزراعة والخزف وغير ذلك. ومن خلال ما تركه لنا الأنباط من نقوش كتابية بخطهم الآرامي ـ النبطي، ولغتهم العربية ـ الآرامية نبحث عن إرث الأنباط الإداري، إن صورة المناصب الحكومية أو العسكرية التي نجدها في النقوش النبطية ليست صورة تشرح السُلَّم الإداري أو العسكري ومهامه، إنما هي مجرد ألقاب مرفقة بأسماء أصحاب النقوش أو آبائهم نحاول استنطاقها قدر الإمكان.**

أخو الملك

يبدو أن الأنباط عرفوا منصب الوزارة أو ما هو مشابه له، بمعنى نائب الملك أو الممثل الخارجي له، إذ يذكر سترابو أن الملك كان له رجل من هذا القبيل من رفقائه يدعى «الأخ»[١]، والنموذج الوحيد الذي وصل إلينا لهذا المنصب هو سيلايوس أو سلي الذي رافق حملة اليوس جالوس إلى جنوبي الجزيرة العربية عام ٢٦ق.م[٢]، ويسميه ش. كليرمون ـ جانو بالوزير[٣]، وقد عرف سيلايوس بلقب آخر هو «أخو الملك»[٤]، ومن غير المعروف إن كان هذا اللقب

---

(١) Strabo (d. A. D. 24), *Geography*, tran. H. L. Jones (London: LCL, 1989), 16: 4: 21.

(٢) Sh. Jameson, "Chronology of the Campaigns of Aelius Gallus & C. Petronius", *JRS*, Vol. 58 (1968), p.77

كان سلي يقوم بدور السفير لبلاده في الخارج، وقد زار بلاط هيرود الكبير ووقع في غرام سالومي أخت هيرود، وبادلته هي ذلك الحب، وكانت شديدة الحرص على أن تتزوجه، وعندما طلبها للزواج من هيرود اشترط عليه أن يعتنق الديانة اليهودية فرفض وغادر البلاط غاضبا. كما انه كانت له محاولات في كسب ود الإمبراطور اغسطس (٢٧ق.م ـ ١٤م)، فضلا عن مكائده لهيرود التي أدت إلى حدوث جفوة بينه وبين اغسطس. ثم شارك سلي في حملة اليوس جالوس على جنوب الجزيرة واتهمه سترابو بتضليل الحملة، لكنه لم يحاكم على ذلك مما يدل على أن اتهام سترابو لم يكن حقيقيا فقد استمرت علاقة سلي بالبلاط الروماني إلا أن مكائده الكثيرة قادته الى حتفه إذ حكم عليه الامبراطور، بعد محاكمته، بالإعدام عام ٤ق.م. إحسان عباس، **تاريخ دولة الأنباط** (عمان: دار الشروق، ١٩٨٧م)، ص ص ٥٤ـ٥٧، وهذا يدل على وجود نوع من التبعية النبطية للرومان.

(٣) A. Kammerer, *Petra et la Nabatene, (Texte)* (Paris: Librairie Orientale Paul Geuthner, 1929), p. 183.

(٤) في نقش عثر عليه في Miltes ، مزدوج: نبطي ـ يوناني، في معبد لابولو: «س (لي) أخو الملك، بن تيم (و) لبركة الملك عبادة، في شهر ت (بت)»، واليوناني: «(سل) ايوس أخو الملك قدم هذا إلى جوبيتر دو (شرا) Kammerer. *Pe*..., pp. 210 - 211;

مختصاً بسيلايوس بذاته، لوجود نوع ما من القرابة تربطه بالملك كالأخوة مثلا، أو أنه لقب عام يقوم مقام لقب وزير باللغة المحلية أو ولي العهد، والجدير بالذكر أن كلمة «أخو» في اللغات السامية كلمة مطلقة غير محددة المعنى إذ أنها تشمل كل العلاقات الإنسانية تقريبا والصداقة والحلف ومختلف درجات القرابة التي تربط بين رجل وآخر[٥] (ماعدا علاقة الأبوة والبنوة المباشرة)، وبشكل عام ومن خلال سيرة سيلايوس نستطيع ان نتصور «أخو الملك» نائبا للملك في حال غيابه، وممثلا دبلوماسيا له في البلاطات الأخرى، ومبعوثه في المهمات الخاصة، وربما قائداً عسكرياً أيضا، فقد كان الجنود الأنباط الألف المرافقون لحملة اليوس جالوس تحت قيادة سيلايوس، ويسمى سترابو وظيفته بنائب الملك أو الوصي، وعند الرومان تعني الوالي Epitropos [٦]، وربما المقصود بها كما لدى جوزيفوس، حاكم العربية، Procurator [٧]، لكن يجب الحذر من التعميمات، ذلك أننا لا نستطيع تأكيد تكليف أخي الملك أو الوزير النبطي بكل هذه المهام إذ ربما كانت خاصة بسيلايوس للطموح الذي عرف عنه وسعيه وراء السلطة وربما حرصه على الإمساك بزمام أكبر قدر من السلطات، حتى في حالة اعتمادنا على ما يذهب إليه ش. جانو Ch. Clermont - Ganneau من أنه كان يوجد أخ اخر أو وزير في البلاط الملكي خاص بالملكة «شقيلة» في عهد حكمها إلى جانب ابنها رب ال ٢ (٧١ ـ ١٠٦م)، يدعى «انيسو»، (أو أنيشو، أو عبيسو، أو عبيشو)، فيذكر أنه لقب في نقش ب «أخو الملكة» وربما كان وزير زوجها الملك مالك٢ (٤٠ ـ ٧٠م) وبعد وفاته وسيطرتها على الحكم في عهد ابنها اتخذته وزيرا لها[٨]، أو أنه أخوها فعلا، لكن هذا الخبر لا يضيف جديداً إلى معرفتنا بوظيفة الوزير النبطي ومهامه.

الوالي (الأسرتج)

من المناصب المهمة التي تلي ذلك منصب «حاكم الولاية أو الاقليم»، فيذكر سترابو وجود حاكم يدعى حارثة، وهو أحد أقرباء الملك عبادة ٣ (٣٠ـ٩ق.م) الذي استقبل الجيش الروماني حين حط رحاله في ميناء لويكي كومي[٩]، ومن غير المعروف ما هي مهمة حارثة هذا بالتحديد لكن الأرجح أن يكون نائب الملك أو حاكم المنطقة ذلك أن سترابو ينعت تلك المنطقة ب «أرض أريتاس»[١٠] أي حارثة، ومما يميز هذه الأرض أن مدينة لوكي كومي الساحلية تقع ضمن حدودها، فان كانت هذه المدينة تقابل «عينونة» أو الوجه أو «قرنا»[١١]، فان أراضي هذه النائب قد تمتد من أقصى جنوب خليج أيلة حيث تقع مدينة مغاير شعيب (البدع) النبطية، التي يمتد وادي ومستوطنة عينونة جنوبها[١٢] وربما حتى أقصى حدود الأنباط الجنوبية التي تمتد إلى الحجر النبطية، التي من المستغرب أن

(٥) W.R. Smith, *Kinship & Marriage in Early Arabia* (London: AMS Press, 1903), p.51.

(٦) Strabo, *Geography*, 16: 4: 23

(٧) F. Josephus (d. A. D. 93), *The Works of F. Josephus, The Jewish War, The Jewish Antiquities*, tr. Whiston George (Bell & Sons, 1890) JW, 1: 487; Aant, XVI: 27.

(٨) Ch. Clermont - Ganneau في كتابه Recueil d'archeologie oriental, 2: 380 يتناول موضوع «الوزير» ولديه كثير من الاستنتاجات، لكنه ليس متوافرا لدى المؤلف وهذه المعلومات ترد لدى Kammerer, *Petra*, Petra, pp. 378, 381, 522.

(٩) Strabo, *Geogruphy*, pp. 16: 4: 24.

(١٠) Straobo, *Geography*, 16: 4: 24.

(١١) G. W. Huntingford (tr. & ed), *The periplus of the Erythraean Sea* (London: Hakluyt Society, 1980), 9, Strabo, *Geography*, 16: 4:24.

وجد في عينونة الواقعة شمالي غرب الجزيرة مستوطنة نبطية / رومانية، انظر، م. انجراهام، ت. جونسون، ب. الريحاني وأ. الشتلة، «برنامج المسح الأثري الشامل لأراضي المملكة العربية السعودية ١٩٨٠م، التقرير الميدني عن مسح المنطقة الشمالية الغربية مع لمحة موجزة عن مسح المنطقة الشمالية **اطلال**، عدد ٥، (١٩٨١م)، ص ٧٢ ويصل الى هذه النتيجة ل.ب. كيروان في، L. P. Kirwan, "Where Search for the Ancient Port of Leuke Kome" *SHA II* (Riyadh, 1984), pp. 55 - 61

وتؤكدها نتائج التنقيبات الأثرية، لكن هناك رأي آخر ل ب. غارتيه و ج.سال، إذ يذهبان إلى أن لويكي كومي هي منطقة «الوجه» الحالية أو «قرنا» التي بجوارها P. L. Gartier & J. F. Salles, "Frontieres Meridionales du Domaine Nabateen" in J.F. Salles (ed.),*L 'Arabie et ses Mers Bordieres* (Lyon: GS Maison de l' Orient, 1988) p. 187.

(١٢) انجراهام وآخرون، ص ٧١.

سرابو لم يأت على ذكرها ضمن ولاية حارثة[١٣]، فان كان هذا الخبر حقيقة وغير خاطي فربما كان دلالة على وجود حكم مباشر على بعض الأقاليم المهمة كالحجر، التي كانت بمثابة عاصمة ثانية للأنباط بل انها كانت منافسة للرقيم في نهاية ق١ق.م - ق١م. وهناك احتمال آخر هو أن تكون الحجر تحت حكم الوزير الأول وإحدى وظائفه، فجوزيفوس ينعت سيلايوس «بحاكم العربية»[١٤]، وهذا احتمال كبير. وفيما يبدو أن الحجر كانت إقليما ذا استقلالية إدارية وعسكرية من نوع ما.

وهناك إشارة أخرى إلى حاكم لمدينة دمشق، فيذكر أن بولس، القديس النصراني، هرب من دمشق ومن «والي حارثة الملك [الذي] كان يحرس مدينة الدمشقيين»[١٥]، وهذا على الأرجح والى الملك حارثة ٤ (٩ ق.م - ٤٠م) الذي استمر يرسل إليها ولاته منذ ٨٥ ق.م (منذ عهد حارثة ٣ (٨٤ - ٧١ق.م)، وكانوا لايزالون يرسلون إليها حتى العام ٤٠م فهو التاريخ الذي يعطي لزمن إقامة بولس في دمشق. ويعتقد جونز أن الوجود النبطي في دمشق قد استمر حتى استولى عليها الإمبراطور الروماني نيرون عام ٦٢ - ٦٣م[١٦]، بينما يعتقد ر. ستاركي وغيره بأن والي حارثة هذا لم يكن سوى رئيس لجالية تجارية نبطية بدمشق ذي نفوذ كبير ولا يعني أكثر من ذلك[١٧] ومازال هذا الأمر يطرح الكثير من التساؤلات التي ما زالت بحاجة لإجابة.

ويمكن تصور وجود حاكم آخر في منطقة حوران، ربما في بصرى، قد يمتد نفوذه إلى منطقة وادي السرحان والجوف حيث كانت توجد جالية نبطية وعلى الأغلب حامية عسكرية تتخذ من قلعة مارد بدومة الجندل حصنا لها، إذ وجد بدومة (الجوف) نقش نبطي يذكر قائدا لحصن دومة[١٨]، هذا فضلا عن التنقيبات التي أجراها خليل المعيقل في دومة وسكاكا حيث وجد كمية كبيرة من الفخار النبطي في إحدى الطبقات، بالإضافة إلى المخربشات النبطية المنتشرة في المنطقة.[١٩]

يبدو أن نواب الملك على الولايات كانوا يدعون «أسرتجا» أو «الأسرتج» وهي كلمة إغريقية Strategos مؤرمة تعني قائداً عسكريا وذلك في بلاد اليونان، إلا أنها في العصر الهلنستي كانت «لقبا لموظفين ذوي سلطات سياسية وعسكرية واسعة» واستخدمت مصر البطلمية كلقب لحاكم الولاية أو المقاطعة، وفي غيرها[٢٠] لكن ج. كانتينو يفسرها بأنها تعني قائد المشاة[٢١]،وهو فيما يبدو المعنى اللغوي للقب وليس الاصطلاحي الذي عرف به في العصور اللاحقة.

ويؤكد هذا المعنى ملاحظتنا على نقوش الحجر وغيرها ذلك أننا نصادف هذا اللقب بشكل ملح يوحي بتوالي العديد من الأسرتجات عليها، ويتكرر فيها اسم

---

(١٣) وذكرت مدينة ساحلية باسم «اجرا» Strabo, *Geography*, 16:4: 24. Egra التي يعتقد انها الوجه الحالية، Kirwan,"Where Search...:" p. 55.

نرى هنا تضارب آراء الباحثين حول اجرا ولويكي كومي ومقابلتها بمدينة الوجه الحديثة، لكن أحدث الاكتشافات الأثرية التي قادها د. علي غبان تؤكد ان منطقة الوجه بل احدى قراها المسماة «أكرى» هي على الأرجح ما يقابل «اجرا» النبطية خاصة وأنه وجد بالقرب منها بقايا معبد هلنستي الطراز ذو تيجان نبطية تماثل تيجان الأعمدة المنحوتة على واجهات الحجر، أنظر علي بن إبراهيم بن حامد غبان، «الآبار السلطانية بوادي الزريب الوجه» **العصور**، المجلد الخامس، الجزء الثاني، (١٩٩٠م)، ص ص ٢٥٩ - ٢٦٠؛ و «اكتشاف ميناء مدائن صالح جنوب الوجه» **رسالة الجامعة، جامعة الملك سعود، الرياض**، العدد ٤٨٠، (٢٣ ذو القعدة ١٤١٢هـ)، ص ١.

(١٤) أنظر الفقرة السابقة.

(١٥) العهد الجديد، رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس، ١١: ٣٢.

(١٦) أ. هـ. م. جونز، **مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية**، ترجمة د. إحسان عباس، أول طبعة باللغة الإنجليزية ١٩٣٧م، (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م)، ص ١١٨.

(١٧) F. E. Peters, "The Nabataeans in the Hawran", *JAOS*, vol. 97/3 (1977), p. 217.

(١٨) R. Savignac and J. Starcky, "Une Inscription Nabateenne Provenant de Djof", *RB*, vol.64 (1957), p. 198.

(١٩) Kh. I. al Muaikel, *A Critical Study of the Archaeology of the Jawf Region of Saudi Arabia with Material of Its History & Early Arabic Epigraphy*, Unpub. Ph. D. Diss., Univ. of Durham, 1988, p. 18, 103.

(٢٠) *The Oxford Classical Dictionary*, N. G. L. Hammond & H. H. Scullard (eds), 2nd ed (Oxford: The Clarendon Press, 1979), "Strategoi"

(٢١) J. Cantineau, *Le Nabateen*, le edit. 1930 (Osnabruck: Otto Zeller, 1979), vol. II:66.

واحد منهم يدعى «ربيب ـ ال» (CIS, II, 287, JS 43N) ، ويبدو أن ربيب ـ ال كان أسرتجا مهما، فضلا عن تكرار اسمه في نقشين فإن أحد أبنائه أصبح أسرتجا كذلك وهو «ملكو» (CIS, II, 224) وابنه الآخر له نقش باسمه «دمسي بر ربيب ـ ال» (CIS, II, 287) (أي دمسي بن ربيب ـ ال) لكن النقش لا يبين ما اذا كان هو الآخر أسرتجا، وهي عائلة كانت كما يبدو ذات نفوذ في الحجر ودومة ووادي رم.[٢٢]

ومن نقوش الأسرتجات المؤرخة نقشان مؤرخان بسني حكم حارثة ٤ (٩ق.م ـ ٤٠م) عامي ٤٥ (٣٦م) (CIS, II, 213) و ٤٨ (٣٩م) (CIS, II,214) ، ونقشان مؤرخان بالعام الثاني من حكم مالك٢ (٤٠-٧٠م) (٤٢م)؟، والعام ٢٤ (٦٣م) (JS 38N) ، ومن عهد رب ال (٧٠ ـ ١٠٦) نقس يؤرخ بالعام ٢٠ (٩٠م) (CIS, II, 224).

ومن أسماء هؤلاء الرجال، «تيمو» (CIS, II, 213) ، «مطيو بر (أي بن) أوفرنس» (CIS, II, 214) ، «ملكو أسرتجا بر ربيب ـ ال أسرتجا» (أي مالك الأسرتج بن ربيب ال الأسرتج) (CIS, II, 224) ، «الأسرتج الذي بالحجر» من غير اسم لكنه في عهد مالك٢ (JS 38N) «غنمو بر (أي بن) دمسفس» (CIS, II,.234) ، «سلي بر (أي بن) عيدو» (JS 6 N) ، «عبد حرتت» (CIS,II, 319) ، ونقش غير واضح يبدو أنه يعني «عبد الهي» من قبيلة «مرهنات (مرهبات)» أو «بن مرهنات (مرهبات)» (CIS, II, 238) . أما النقش المثير للغرابة فهو الذي يؤرخ بحكم أسرتجين معا (CIS, II, 235) ، وهو نقش[٢٣] يجعلنا نتساءل إن كانت قوة هذين الحاكمين العسكريين قد وصلت إلى درجة من الاستقلالية جعلت مجموعة من الأعيان تؤرخ انشاءها لمعبد بأعوام حكمهما؟ أو أن يكونا قد فرضا نفسيهما بالقوة على الحجر، وبالتالي تكون قوة ملك الأنباط قد تراخت إلى حد كبير في جنوب دولته، فان كان هذا الافتراض صحيحا، فنقترح أن يكون هذا الحدث تم في عهد رب ال ٢ إذ لم يكن هناك أضعف من عهد آخر ملوكهم، وافتراض آخر نطرحه هو احتمال أن يكون أعيان المدينة قد اتخذوا لأنفسهم قيادة مستقلة ربما تعبر عن روح تحررية ما أو حتى ثورة، أو تغير سياسي مهم. ومن ناحية أخرى يثير التأريخ بعهد الاسرتجين التساؤل عما إذا كان هذا نظاما اتخذه أهل الحجر لفترة ما، باشتراك حاكمين عسكريين في حكم المدينة، فان كان هذا ما حدث: هل يمكن أن يكون له صلة بنظام ال «برايتور» Praetor الروماني؟ إذ انه منذ حوالي العام ٢٤٢ق.م. أصبح لدى روما في العصر الجمهوري برايتوران بعد ان كان بها واحد يشرف على الأمور القضائية في روما ليتولى الثاني أمور الفصل في القضايا التي يكون أحد طرفيها أو كلاهما من الأجانب، ومع التوسع الروماني وإنشائهم للولايات، أصبح يولى على كل ولاية برايتور لحكمها والنظر في قضاياها[٢٤]، وإذا وجدنا أن المعجم الكلاسيكي يجعل المقابل اللاتيني للستراتيجوس هو البرايتور[٢٥] نستطيع أن نقرب هذا الاحتمال أكثر فأكثر .

ونقش آخر يشير إلى أهمية خاصة أضيفت إلى الأسرتج إذ أنه خصص لأسرتجي الحجر ألف سلعين حارثية (العملة النبطية) من غرامة التعدي على قبر «ترصو الهفرك بر (بن) تيمو» (*JS 38 N*) ويساوي النقش بينه وبين ملك الأنباط مالك ٢ في هذه الغرامة، ويؤرخ النقش ب٦٣م.

ويبدو من بعض النقوش أن هذه الوظيفة كانت وراثية كما في حالة ملكو الأسرتج بر ربيب ـ ال الأسرتج بر دمسفس، بل ان د.جراف D.Graf وضع شجرة عائلة لهذا الجد، الذي اتضح له من عدة مخربشات نبطية وإغريقية صلة بعضهم بعضا وتكوينهم لعائلة واحدة بها ثلاثة أسرتجات معروفين وتنتشر نقوشهم بين الحجر ودومة ووادي رم، وهاك الشجرة:

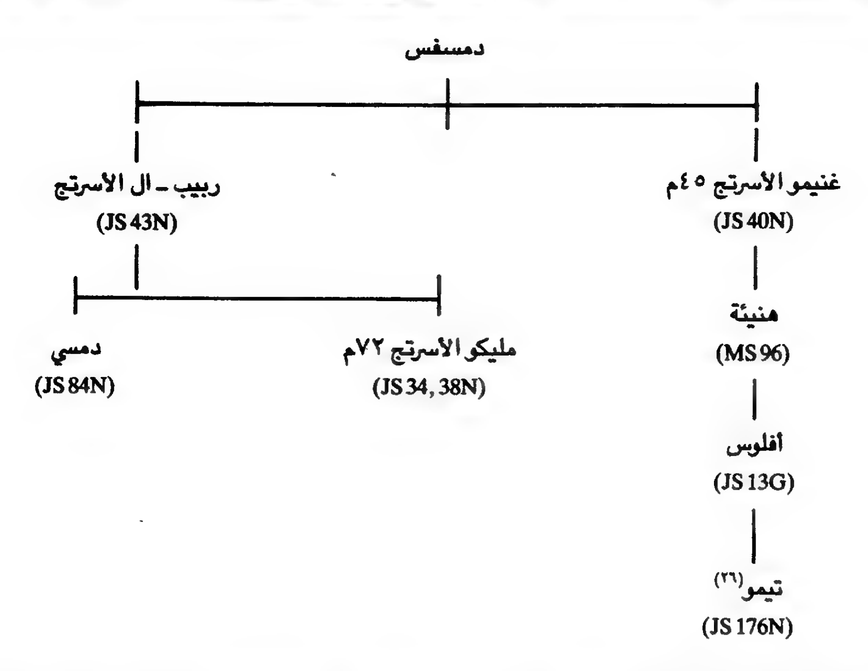
---

(٢٢) Savignac & Starcky, "Une Inscription...", pp. 200-203; Gartier & Salles, "Frontieres...," p.187.

(٢٣) وردت إشارة إلى حالة مشابهة لدى التدمريين في نقش (*CIS*, II, 3913) أنظر: Savignac & Starcky, "Une Inscription," p. 202"

(٢٤) ابراهيم نصحي، تاريخ الرومان (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٣م)، الجزء الأول، ص ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٢٥) OCD, "Strategoi" .



وسنجد ملاحظة التوارث كذلك في نقوش مؤاب.

كما تنوعت الوظائف الحكومية في العائلة الواحدة مثل الأسرتج والهفركا: «مطيو الأسرتج بر (بن) أوفرنس الهفرك» (CIS, II, 214)، و «سلي الأسرتج بر (بن) عيدو الهفرك» (JS 6N).

والأسرتج لم يقتصر على ولاية الحجر فحسب إذ يرد ذكر هذه الوظيفة في مناطق أخرى من المملكة النبطية، كمنطقة مؤاب مثلا، التي عرفنا حاكمين لاثنتين من مدنها هما «مادبا» و «أم الرصاص».(٢٧) فيذكر قيام عبد عبدت (عبد عبادة) ببناء مقبرة لأبيه الأسرتج عام ٤٦ من حكم حارثة ٤=٣٧م (CIS, II, 196). وقام أسرتجا أم الرصاص يعمدو (يعمرو) ببناء شاهد قبر لأخيه الأسرتج «ملكو بر (بن) عبيشو» (مالك بن عبيشة) عام١ من حكم مالك٢ =٣٩م (CIS, II, 195).

يعتقد ك.أ. كوك C. A. Cooke أيضا أنه كان هناك نوع من توارث الوظائف بين الآباء والأبناء أو الأخوة(٢٨) إذ أنها أوضح في هذين النقشين منها في نقوش الحجر، ويعتقد كذلك أن الأسرتج النبطي كان حاكما على إقليم صغير قياسا على هاتين المدينتين، اللتين كان الفاصل بينهما وادي زرقاء ـ معين.(٢٩) ويلفت هذا النقش انتباهنا إلى تفاصيل نظام الأسرتج أو النيابة أو الولاية، ذلك أن عبد عبادة الأسرتج أمضى في منصبه وسلطته «زمنين» لمدة ٣٦ سنة في عهد حارثة ٤ أي أنه تولاها لفترتين زمنيتين. فهل يعني هذا أن مدة ولاية الأسرتج الرسمية تمتد إلى ١٨عاما؟، إن لدى أ.هـ.م جونز تعليلاً آخر وهو أن الأسرتج كان يلي ولايته مدى الحياة.(٣٠)

وقد امتد هذا النظام إلى أقصى شمال الحدود النبطية شمال شرقي دمشق حيث مدينة «ضمير» فقد

---

(٢٦) D. Graf, "Qura Arabiyya & Provincia Arabia" P.L. Gatier (ed.), *Geographie Historique au Proche-Orient*, (Paris, 1990), p. 199.

(٢٧) C. A. Cooke, *"A Text book of North Semitic Inscriptions,"* (Oxford: Clarendon Press, 1903), p. 247
تقع أم الرصاص إلى الجنوب الشرقي من مادبا على بعد ١٦ ميلا.

(٢٨) Cooke, *Atext book*, P. 247.

(٢٩) Cooke, *A Textbook*, pp. 247 - 8
حكم الأنباط هذه المنطقة في القرن الأول ق.م فقط،
Kammerer, *Petra*, p. 382.

(٣٠) جونز، ص ١١٩.

وجد بها نقش إنشائي أو صرحي Monumental لبناء اقامه «هانيء بر (بن) معتق (محرر) جدلو برت (بنت) بجرة أم أدرمو الأسرتج ونقيدو بالتبني، ابني عبد ـ ملكو الأسرتج (CIS, II, 161) حيث يبدو أن أدرمو الأسرتج هو خال صاحب النقش بالتبني، وزوج خالته أسرتجا أيضا. ويؤرخ النقش بالتأريخين الروماني (وهو في الواقع السلوقي)، وبالنبطي وهو ٢٤ من حكم رب ـ ال ٢=٩٤م، أي في نهاية عهد الأنباط.

ونتساءل كيف يكون للأنباط، في عصر ضعفهم، امتدادا إلى شمالي دمشق، بل وأن يكون بها ممثل عسكري مثل هذا الأسرتج، ذلك أن الخال أدرمو لا يبعد عهده عن ابن الأخت هانيء صاحب النقش كثيرا، وما يمكن أن نذهب إليه عندما نعرف بأن نظام الأسرتج لم يكن مقصورا على الأنباط بل كان معمولا به في الشرق الأدني الهلنستي[٣١]، إن هذه المنطقة ربما بقيت تحت سيطرة الأنباط إسميا فحسب، أو أن يكون السكان أو فئة منهم مازالت على ولائها القديم للأنباط، أو أن أصولها عربية نبطية وليست آرامية فاستمروا على التأريخ بسني ملوكهم، بالرغم من استيلاء الرومان على المنطقة منذ دخل بومبيي سوريا ٦٤ق.م. ويدل النقش من جهة أخرى على أن لغة السكان المحليين لم تزل الآرامية ـ النبطية ـ العربية، لكني لا اعتقد أن الفترة البسيطة (٨٤ ـ ٧١ق.م) التي حكم فيها الأنباط دمشق كانت كافية لتغيير لغة السكان أو ترك هذا الأثر بعد أكثر من قرن ونصف القرن على فقدان دمشق، لذا فاني أرجح أن إحدى قبائل أو عشائر الأنباط المتحالفة معها قد استقرت بالمنطقة منذ دخول الأنباط أول مرة واستمروا فيها حتى بعد مجيء الرومان.

أما النقش الآخر المثير للتساؤل فهو من صيدا بفينيقيا[٣٢]، حيث يرد في هذا النقش النبطي ذكر أسرتجا كذلك، وذكر الاله النبطي دوشرا (ذو الشرى) ومؤرخ بالعام الخامس من عهد حارثة ملك الأنباط (CIS, II, 160)، فان كان هذا هو حارثة٣ الذي بلغت في عهده المملكة أوج اتساعها، فالنقش يؤرخ بالعام ٨٣ق.م، وهو الأرجح، أي في الفترة نفسها التي وصل وسيطر فيها على دمشق، وهذا النقش يدلنا على أن امتداد نفوذ الأنباط السياسي وصل إلى البحر حتى عين على صيدا، إحدى أكبر المدن الفينيقية، أسرتجا أو نائبا عن الملك، وربما كانت منطقة «النبطية» اللبنانية الحديثة صدى لذلك التأريخ.

الهفرك

من المناصب الحكومية الأخرى التي عرفناها في المجتمع النبطي منصب ال «هفركا» (بالآرامية) أو «الهفرك»[٣٣]، وهي كلمة من أصل يوناني Eparchos تعني قائد الفرسان[٣٤]، وقد وجدنا العديد من النقوش التي يحمل فيها أشخاص هذا اللقب بلغت ١٣ نقشا.

ومن قواد الفرسان الذين عرفناهم من نقوش الحجر، الهفرك «فرون» والنقش مؤرخ بحياة ابنة ليوافق ٢٧م (CIS, II, 207)، فقد يسبق الهفرك الأب هذا التاريخ بجيل أو أكثر.

---

(٣١) OCD, "Strategoi"

(٣٢) كان يقطن لبنان في تلك الفترة شعب عربي يدعى «اليطوريون» أو «الايتوريون»، تمتد اراضيهم إلى لبنان الشرقي وجنوبي سوريا وشمالي فلسطين، ظهروا في التاريخ منذ غزو الإسكندر لسوريا، واختفوا بعد ذلك حتى عام ١١٥ق.م حيث بداوا في تكوين كيانات سياسية مستقرة متحضرة، عاصمتهم الدينية «بعلبك ـ هليوبولس»، والسياسية «جرهاء» أو «جراء»، ولدى العرب «عين الجر»، وباليونانية «خالكيس». وقد اصطبغت ممالك اليطوريين بالصبغة الهلينية لكنهم حافظوا على اصولهم العربية وإثباتها. وقد شوه اليهود والإغريق تاريخ الايتوريين بتصويرهم بأنهم شعب متعود على قطع الطريق واللصوصية. ومنذ عام ٥ق.م. اخذ نفوذ الحكام الايتوريين يمتد الى ج/ش لبنان حيث البثنية والتراخونية والحورانية مطوقين بذلك دمشق ومسيطرين على تجارتها وطرقها، فقام أهلها بالاستغاثة بالملك حارثة٣ عام ٨٣ أو ٨٠ ق.م، لمزيد من التفصيلات انظر: جونز، ص ص ٢١،٥٧ـ٥٨؛ مصطفى كمال عبد العليم، «الايتوريون عرب لبنان القدماء»، العصور، المجلد الأول، الجزء الأول، (١٩٨٦م)، ص ١٧،٩.

(٣٣) يختلف وهذا اللقب عن لفظة «هفركيا» Eparchia التي تعني «الولاية العربية» وهي غالبا ما تستخدم في النقوش التي سجلت بعد ضم مملكة الأنباط إلى الرومان وسميت بـ «الولاية العربية» A. Negev, "Nabataean Inscriptions," from Avdat (Obodo) II" *IEJ*, vol.13 (1963), pp. 118 - 120.

(٣٤) Cantineau, *Le Nabateen*, vol. II, p.88.

الهفرك «أوفرنس»، والنقش مؤرخ بحياة ابنه مطيو الأسرتج عام ٣٩م (CIS, II, 214) .

الهفرك «عيدو»، ويؤرخ النقش بعام ٤٩م (CIS, II, 221) .

الهفرك «ترصو بر (بن) تيمو» عام ٦٣ (JS 38N) . ويعاصر هذا الهفرك أسرتجا لم يحدد اسمه وإنما نسب إلى الحجر «أسرتجا حجرا».

الهفرك «عيدو»، ويؤرخ بعهد ابنه الأسرتج زمن الملك مالك٢ (٤٠-٧٠م) (JS 6N) .

الهفرك «شمش - جرم»، (CIS, II, 331)

الهفرك «سعد الهى»، (JS, I59N) ، والمخربشة تذكر صنما لهذا الهفرك، أي تمثالا.

وفي الجوف حيث يُعتَقد وجود حامية نبطية، تتأكد من خلال هذا النقش (الذييب - المعيقل٥)[٣٥] الذي يرد فيه ذكر لهفرك يحمل لقباً آخر وهو فارس.

لا تصادفنا في هذه النقوش أي دلالات مهمة توضح وظيفة الهفرك كما وجدنا نسبيا في وظيفة الأسرتج، سوى أن هذين المنصبين يقترنان ببعضهما لدى بعض العائلات التي يكون أحد أفرادها أسرتجا أو هفركا، مما يوحي بأنه ان كان هناك توارثاً في المناصب أو تخصص طبقة معينة أو عائلات بعينها في وظيفة ما، فانها تتوالى بين هاتين الوظيفتين وكأن احدهما نائبا للآخر فيمثلان تكاملا بين السلطة السياسية (أسرتجا) والسلطة العسكرية (هفركا).

وكما لاحظنا وجود نظام الأسرتج في مؤاب ودمشق، إذ نجد نقوشا تشير الى وجود الهفرك في هذه المنطقة، فمن مادبا بمؤاب عثر على نقش مزدوج نبطي - يوناني يؤرخ بالسنة الثالثة من ولاية هفرك بصرى، وفق ترجمة النص النبطي، بينما النص اليوناني يترجم بالسنة الثالثة للولاية أو هفركية بصرى، (ذلك أن عاصمة الولاية العربية كانت بصرى)، وعلى العموم فكلا الاحتمالين قائم[٣٦]، ومن بصرى نجد نقشا يذكر ابنة لهفركا يدعى «عبد الجا» (CIS, II, 173) ، وفي سهوة الخضر بحوران هفركا آخر يدعى «غوثو» (Lit 96N) يؤرخه أ. ليتمان E. Littmann إما بعام ٥٥ أو ٩٠ أو ١٢٧م.[٣٧]

أما سيناء التي لم يرد منها أي ذكر لأسرتج حتى الآن، يذكر فيها الهفرك، بل ان نقشا من «وادي مكتب» يؤرخ بحكم أو نيابة هفركا لم يذكر اسمه وانما ذكرت السنة ٨٥ له (CIS, II, 964) ، التي يبدو أنها لا تعني الهفرك نفسه وإنما نظام الهفركية، وعبَّر عنه الكاتب بكلمة «الهفركية»، ولكن هذا النقش يخرج عن نطاق زمن البحث إذ أنه يقابل العام ١٩٠م. لكن هناك نقش آخر غير مؤرخ في الوادي نفسه عبارة عن سلام إلى الهفرك «عبد حرتت» (CIS, II, 790) ، وهذا لا يعني أن نظام الهفركية أو النيابة العسكرية كان موجودا بشكل محدد في سيناء بل ربما كان قائدا يولي على القوافل المتجهة إلى مصر والآيبة منها عبر شبه الجزيرة، أو أنه القائد العسكري أو نائب الملك على مستوطنات القبائل النبطية أو أحلافها في سيناء، خاصة في منطقة فيران.[٣٨]

وظائف أخرى

- يعتقد أنه كان هناك منصباً آخر عثر عليه في نقش بالجوف يدعى «رب مشريتا» ويوازي لقب Stratopedaches كما يرى ر. ستاركي R. Starcky ، وهو غير ال Strategos ، أنه منصب بينه وبين الهفرك Eparchos وأقرب للأخير، أي أنه منصب عسكري لكن من تفاصيل النقش تبدو فيه مهام مدنية، وصاحب هذا المنصب، كما يعتقد ر. ستاركي، هو «غنمو (غنيمو) بر (بن) دمسفس» (CIS, II, 234) المذكور اسمه في نقوش الحجر، ويرجح أن هذا الرجل تولى مصبه في الجوف أولا ثم ترقى وولي أسرتجية

(٣٥) اشكر الدكتورين سليمان الذييب وخليل المعيقل لسماحهما لي باستخدام نقوشهما في هذا البحث، والتي لم تنشر بعد.

(٣٦) J. T. Milik, "Nouvelles Inscriptions Nabateennes", *Syria*, vol. 35 (1958), pp. 243 - 246.

(٣٧) E. Littmann, *Nabataean Inscriptions* (Leiden: Brill, 1914),p.71

(٣٨) A. Negev, *The Inscriptions of Wadi Haggag, Sinai* (Jerusalem: ...chaeology, 1977b), p. 73.

الحجر، ولا بد أنه تولاها في فترة ما بعد عام ٤٤م وهو العام الذي يؤرخ به نقش الجوف. ويعتقد أن لهذا الأسرتج أخاً آخر يدعى «ربيب ال» ورد ذكره في مخربشة في الجوف، موقع القلعة، (MS 3) [٣٩] ومن الصعوبة بمكان معرفة ما إذا كان رئيس حامية الجوف تابعاً لمقاطعة أو ولاية الحجر، أو أنه يرجع مباشرة للعاصمة، الرقيم. [٤٠]

● ومن المناصب الحكومية الأخرى التي وردت إلينا إشارة عنها، ال «كليركا»، وهي كلمة إغريقية Chiliar-chos تعني قائد الألف رجل[٤٠]، والإشارة إليها كانت في نقش وحيد من الحجر عن قبر انشأه «ملكيون فتورا لأبيه حنينو هفستيون-كليركا» في العام ١٧ لحارثة ٤=٨م (CIS, II, 102) .

● لقب آخر نجده في نقش فريد، وهو «قنطرين» واسمه «عبد سعد الهي بر (بن) زبدا وحنه» (CIS, II, 217) يؤرخ إما ب٣، أو١٣، أو ٢٣م أي بداية عهد حارثة ٤ (٩ق.م - ٤٠م). وهذا اللقب يذكرنا بحديث صاحب الطواف حول البحر الأريتري عن وجود «كنتوريو» في ميناء لويكي كومي في شمال شرقي البحر الأحمر التابعة لمالك ملك الأنباط.[٤٢] والكنتوريا لدى الرومان هي إحدى الوحدات الرومانية المكونة من ١٠٠ رجل وقائدهم يدعى كنتوريو Centurio [٤٣]، وهذه الحامية مخصصة لحماية هذا الميناء المهم تجاريا، ولتشرف، كما يبدو، على جباية ربع التجارة المارة بالميناء.[٤٤]

وفي هذا النقش يذكر قنطرين أو كنتوريون ذو اسم ونسب عربي وفي ذلك دلالة واضحة على أن هذا المنصب كان موجودا في الحجر منذ بداية القرن الأول الميلادي، أي أنه سابق لخبر صاحب الطواف، ومن جهة أخرى، ومن معرفتنا لاسم هذا القائد يتأكد لدينا أن موظفي هذه المناصب ذات التسميات الرومانية كانوا من السكان المحليين أو الأنباط كما يرى ج.و. بورسوك.[٤٥] لكن المثير للتساؤل أن هذا النقش عثر عليه على مقبرة بالحجر، بمعنى أن هذا الكنتوريون كان من سكان الحجر وقائدا بها، بينما كنتوريو الطواف كان في لويكي كومي، التي إن كانت هي «عينونة»، فهي تبعد عن الحجر مسافة ليست بالقصيرة (ح ٢٥٠-٣٠٠كم) فهل هذا يعني أنه كان هناك كنتوريونيان أحدهما في الحجر والآخر في لويكي كومي، وإن كان هذا صحيحا أفلا تتعارض مهمة الكنتوريون مع الأسرتج والهفرك، ففي هذه الحالة سنجد في الحجر وجودا عسكريا أكثر من اللازم، وإن كانت هناك آراء تؤكد هذا المعنى وتستدل به على

---

(٣٩) انظر الشجرة السابقة.

(٤٠) Savignac and Starcky, "Une Inscription....", pp. 200 - 203; Gartier & Salles, "Frontieres....", p. 187

ونص النقش:

(١) «دا محرمتا دي بنه غنمو رب

(٢) مشريتا بـ [مـرد] سفط (يقرأها ر. ستاركي: ب [ر د] مسفس) لدوشرا اله

(٣) جيا ا دي ب [دوم] ت وحدت يته وا وسف.

(٤) به ملك فتورا دي بدومت بر حزا.

(٥) بسنت خمس لملكو ملكا ملك نبطو»

التفسير:

(١) هذا المعبد الذي بناه غنيم رئيس

(٢) المعسكر (أو الحامية) بن دمسفس إلى الاله دوشر

(٣) جايا، الذي بدومة. وجدده وأضاف اليه.

(٤) مالك الكاهن، الذي بدومة، بن حازا.

(٥) عام ٥ للملك ملكو (مالك) ملك الانباط.

Savignac & Starcky, "Frontiers...," p. 215

(٤١) Ch. Murray, *Latin - English Dictionary* (Edinburgh: London: Cambridge UP, 1989), chiliarch.

ولهذا اللقب مفهوم آخر يرتبط بالمناصب الدينية وهذا ليس موضعه.

(٤٢) Perpiplus,19 ومالك المقصود في هذا النص هو مالك٢ (٤٠ - ٧٠م)، ذلك أن كتاب الطواف يؤرخ بـ ٦٠م،

W. H. Schoff, (tran. & ed) *The Periplus of The Erythraean Sea*, 2nd. (New Delhi: Oriental books Reprint Corporation, 1974), pp. 7-15.

ووفق رأي جاكلين بيرين ان الكتاب متأخر إلى القرن الثالث الميلادي، لكن ل. كاسون ينتقد نظريتها ويؤكد على تأريخ القرن الأول الميلادي. انظر،

L. Casson (tran. & ed.), *The Periplus Maris Erythraei* (Princeton: Princeton Uniu Press, 1989), p.7.

(٤٣) J. Lempriere, *A Classical Dictionary* (London: Routledge & Kegan Paul Ltd., 1788 - 1948), "Centuria; Huntingfod, *The Periplus;* p. 64"

(٤٤) Schoff, *Periplus*, 19.

(٤٥) G W. Bowersock, *Roman Arabia* (London: Havrard UP, 1983), pp. 70-71.

هدف الملك حارثة٤ الذي عمد إلى خلق موقعاً احتياطياً خلفي له في الحجاز عندما كان يعاني من مشكلات في بلاط أغسطس، وذلك في حال إصرار الرومان على الاستيلاء على منطقة عبر الأردن أو شرق الأردن، ويستدل من كثرة أسماء العسكريين المدفونين في المقابر المنحوتة، على الصفةالعسكرية للمدينة الجديدة، الحجر.(٤٦)

وإلا فلن يبق لنا إلا انتظار نتائج التنقيب في عينونة وما فيها من نقوش، أو «الوجه» أو «قرنا» وفق النظريات الأخرى.(٤٧) لكن لا يغرب عن بالنا أن القنطرين هي رتبة عسكرية تلي الأسرتج والهفرك، فليس مستغربا أن يوجد الثلاثة معا طالما أنهم يرأسون أعدادا مختلفة من الأفراد.

وقد عرفت طبقة أخرى من العسكر وهم «الفرسان» الذين ظهرت لهم مخربشات كثيرة في الحجر والجوف. مثل المخربشة (JS 170N) التي تنص على «سلم اسكرس بر فرسا»، أي السلام على اسكاروس بن «فارس» (وفق ترجمة (JS) لكن الترجمة الصحيحة هي «الفارس» اذ أن الألف الأخيرة هي أل التعريف في الآرامية. إن هذه المخربشة تدل على وجود طبقة من الفرسان في الحجر، وتتأكد هذه النظرية التي يؤكدها ج.و. بورسوك(٤٨) من تكرار النقوش التي تذكر الفرسان، وعلى مسافة قصيرة شمالي العلا نقشت الخربشة التي تذكر الفارس المكلف بالمراقبة، على صخرة عند الموقع المسمى «مقعد الجندي» (JS 246N) ، «فرسيا نطرين» وهي إشارة إلى اختصاصات الفرسان وتميزها، وهذه المخربشة لا تختص بفارس واحد إنما يذكر مع رفقائه «فجبروهي»(٤٩) ولقبهم في صورة الجمع أي أنهم جميعا فرسان مراقبة، وقد يكون لاسم الموقع «مقعد الجندي» وموضوع المخربشات صلة فبقي الذكر في لاوعي الأجيال، وإشارة أخرى إلى اسم الفارس فحسب ولقبه «فرسا» (HS 227N) في موقع على الطريق بين ددان والحجر يدعى «قبر الجندي»، وهذا اسم آخر مثير للتساؤل. وفي الجوف مثلا «أسدو بر منتنو ... أ فلهي بني فرسيا» (Theeb) وفرسيا هنا مثنى فارس. وهناك نقوش أخرى في حوزة سليمان الذييب وخليل المعيقل لم ينشرا منها سوى نقش واحد نشره سليمان الذييب في أطروحته للدكتوراة(٥٠)، وهو السابق الذكر، ويبلغ عدد نقوش الجوف التي يرد فيها ذكر لفرسان عشر مخربشات (الذييب ـ المعقيل) (الأرقام: ٤، ٥، ٧، ١٤، ١٦، ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٤٤). وهناك نقش الجوف سابق الذكر الذي يخرج منه ر. سافينياك R. Savignac بالتأكيد على وجود حامية عسكرية نبطية كانت مرابطة بـ «دومة».(٥١) وفيها مخربشة أخرى ترد فيها وظيفة عسكرية جديدة وهي «الكاتب العسكري» «مطيبنا».(٥٢)

ونتساءل في هذا السياق ماذا عن الجمّالين أو الهجانة رماة النبل، إنها الفئة الوحيدة تقريبا التي استمرت في البقاء حتى بعد سقوط الأنباط، فيذكر جراف ان الأمبراطور تراجان قد حوَّل فرق أو فيالق الرماة الأنباط إلى ست وحدات من «كتائب تراجان البترائية» Cohortes Petraeorum Ulpiae كما كون جناحا من الجمالين ala Ulpia dromedauiorum ، الذي تمركز في سوريا، ضمن المقاطعة العربية(٥٣)، وقد عثر على العديد من النقوش والمخربشات الإغريقية والرومانية في منطقة وادي القرى مثل (JS 4,6, 10G) (قبر الجندي). إن ما يبدو هو أن هذا السلاح (سلاح الهجانة) كان أساسيا ومهما في

(٤٦) Bowersock, *Roman Arabia*, 57.

(٤٧) انظر حاشية ١١.

(٤٨) Bowersock, *Roman Arabia*, p.58.

(٤٩) «حبر» تعني مجموعة أو شركة، في الآرامية واليمنية،

A. F. L. Beeston, M. A. Ghul, W.W. Muller and J. Ryckmans, (eds.) *Sabaic Dictionary* (Louvain-la-Neuve: Edition Peeters, Beyrouth, Librairie du Liban, 1982), p. 782.

(٥٠) S. al Theeb, *A Comparative Study of Aramaic & Nabataean Inscriptions from North West Saudi Arabia*, Unpub. Ph. D. Diss. Durham Univ., 1989, p. 207.

(٥١) Savignac & Starcky, "*Une Inscription*....," p. 199.

(٥٢) وفق ترجمة الذييب والمعيقل، رقم ٨، نقوش الجوف خاصة سليمان الذييبي وخليل المعيقل.

(٥٣) F. D. Graf, "The Saracens & the Defense of the Arabian Frontier", *BASOR*, vol. 229 (1978), p.7; Bowersock, *Roman Arabia*, pp. 96, 107.

يتكون الجناح ala من الفرسان الرومان وجنود الحلفاء من غير الرومان خاصة الفرسان منهم.

الجيش النبطي خاصة بعد أن طور العرب رحل الجمل فأصبح أكثر سهولة في الحركة مع استعمال القوس والنشاب، وكان هذا التطوير من صالح الرومان.(٥٤) رغم أن و. دوستال يرى ان العرب أجروا تغييرا وتطويرا في أسلحتهم أيضا رافق اختراع الرجل العربي الشمالي، أو الشداد في نهاية الألف الأول ق.م، وهي براعة استخدام الرمح الذي كان يستخدمه الخيالة.(٥٥)وقد وصلتنا نقوش عن هجانة وجمالين في سيناء وشرق مصر من موقع «بئر دخل وراس جمسا، وموقع أبو دراج»، يؤرخ النقش الأول بالقرن الثالث الميلادي، أما الثاني فبدون تأريخ(٥٦)، ويعبر عن الجمال بلفظ «ميقتبيا» وهي كلمة عربية فصحى، وإن كانت الإشارة متأخرة إلا أن احتمال وجودها من زمن أقدم عندما كان للأنباط دولة وكيان، احتمال كبير.

ويرى أحد الباحثين في تحليل تاريخي للوضع السياسي في الحجر، أنها كانت محكومة خلال الربع الأول من ق١م بكليركا وكنتوريون، ثم فجأة في ٢٧م جاء أول ذكر لأسرتجا وبعد عقد الزمان ٣٦م نجد قبرا أقيم لابنة أسرتجا، وفي ٣٩م قبر آخر لأسرتجا الابن بن اسرتجا الأب، ومن ٥٠م فصاعدا يزداد الأسرتجات والهفركات في الحجر، هذا فضلا عن موظفين عسكريين ذوي رتب عالية. ويستنتج أ. نقب من ذلك أن الحجر تعرضت لهجوم من قبائل عربية دفعت رجلا من الأسرة الحاكمة (حارثة سترابو) وحاشيته وجنرالاته العسكريين وربما كل الجيش النبطي، للانتقال إلى الحجر ليسيطروا على هذا المد.(٥٧)

قائمة الاختصارات

BASOR Bulletin of The American School for Oriental Research.
BSOAS Bulletin of the School of Oriental & African Studies.
IEJ Israel Exploration Journal
JAOS Journal of the American Oriental Society
JRS Journal of Roman Studies
PEO Palestine exploration Quarterly
RB Revue biblique
SHA I Studies in the History of Arabia. Sources for the History of Arabia. 2ps.
SHA II Studies in the History of Arabia. Pre Islamic Arabia
JA Josephus. Flavius. The Jewish Antiquities
JW Josephus. Flavius. The Jewish War
LCL Loeb Classical Library
OCD Oxford Classical Dictionary
G Greek
N Nabataean
CIS.II @ Corpussenoi Inscriptionum Semiticarum. Inscritiones Aramaice
JS @ Jausen. A. J. & Savignac. R.. Mission Archiologique en Arabie I 1907. II 1909
Lit @ Nabataean Inscriptions
MS @ Milik. J.T. & Starcky. J. in Ancient Records from North Arabia. by F. V. Winnett & W. L. Reed
Theeb @ S. alTheeb. A Comparative Study of Aramaic & Nabataean Inscriptions from North-West Saudi Arabia.

(٥٤) Graf, "The saracens...," p. 17.

(٥٥) W. Dostal, *The Development of Beduin Life in Arabia seen from the Archaeological Material SHA I*, Part 1 (Riyadh: Riyadh UP, 1979), p. 129.

(٥٦) E. Littmann, "Nabataean Inscriptions from Egypt", BSOAS, vol. 15 (1953), inscription 34, 46a.

(٥٧) A. Negev, Numismatics & Nabataean Chronology", *PEO*, vol.114, (1982), pp. 120 - 122.

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الثاني، ٣٢١ ـ ٣٧٨ (١٩٩٣م).

دراسة للكتابات العربية على نقود المشرق الإسلامي في العصر الأموي

للدكتور محمد بن فهد الفعر

ملخص البحث : لعله من نافلة القول بأن المسكوكات الإسلامية من أهم الوثائق الصادقة في تفسير كثير من المجالات التاريخية والاقتصادية والفنية بما تحمله من كتابات ونقوش وعبارات تتضمن اسماء الحكام والقابهم في الدولة التي قامت على إصدارها لتضفي على حكمها شرعية تعتد بها وتؤيدها، وقد كان إهتمام الباحث بالكتابات الواردة على الآثار الإسلامية في كل ما سبق له من دراسات علمية الأمر الذي دفعه إلى الاتجاه للكتابات المنقوشة نقشاً بارزاً على النقود، ويختص هذا البحث في نقود المشرق الإسلامي حيث امكن التركيز على المراحل التي بدأت تظهر فيها الكتابات العربية أول الأمر على المسكوكات تحت تاثير الدراهم الفضية السلسانية، او تحت تاثير الدنانير الذهبية، أو الفلوس النحاسية البيزنطية، ثم تنتقل الدراسة إلى كتابات النقود العربية الخالصة والتي تمتد من سنة ٧٤هـ على الدنانير ومن سنة ٧٢هـ على الفلوس ومن سنة ٧٨هـ على الدراهم، في ضوء ما وصلنا حتى الآن من مجموعات المسكوكات الإسلامية، وهكذا يغطي البحث فترة العصر الأموي منذ قيام الدولة سنة ٤١هـ إلى نهايتها سنة ١٣٢هـ، وكان لابد من الرجوع إلى ما نشر عن نقود الأمويين تقريباً من قبل الباحثين في علم النّميّات بهدف حصر العبارات التي وردت منقوشة وفق الأساليب الفنية المتعلقة بتطور الكتابات العربية، فضلاً عن الرجوع إلى بعض نقود الأمويين التي يحتفظ بها بعض الهواة مثل مجموعة الأستاذ إبراهيم قوزملي أحد الهواة الأتراك باستانبول حيث صورت بإذن خاص لمتحف قسم الحضارة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وهكذا لزم البحث أن يشتمل على صور النقود التي رجع إليها الباحث عند تفريغ الكتابة والحروف العربية في جداول خاصة لمعرفة تطورها.

المقدمة

لاشك أن النقود الإسلامية تُعدُّ وثائق مهمة لا يسهل الطعن في قيمتها من حيث تحقيقها لكثير من الحوادث السياسية التي تتعلق بفتح المدن حرباً أم صلحاً وذلك من واقع كتاباتها المنقوشة التي قد يظهر فيها اسم الخليفة أو الأمير أو حكام الأقاليم مما يسد فراغاً في جداول الأسر الحاكمة في الدولة الإسلامية

وبقدر ما توضح لنا كتابات النقود الإسلامية علاقة هذه الأسر الحاكمة ببعضها بقدر ما توقفنا على المذهب الديني أو السياسي الذي ينتمي إليه الحاكم الذي يضرب هذه النقود[1] لا سيما وأن النقود كما يذكر ابن خلدون من أهم شارات الملك[2] والسلطان لذلك كان «امتياز ذكر الاسم في الخطبة ونقشه على النقود هو أول ما يهتم به حاكم جديد بمجرد

(١) عبد الرحمن فهمي، موسوعة النقود العربية، فجر السّكة العربية (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٥م)، ص ٢٢.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة (القاهرة: المطبعة البهيّة، ١٢٨٤هـ)، ص ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

اعتلائـه العرش»[٣].

ومن هذا المنطلق فرضت كتابات النقود الإسلامية أهميتها على المشتغلين بالتاريخ والآثار الإسلامية كي يعـيروهـا الاهتمـام الشـديـد كوثائق مؤكدة يمكن الحصـول عليهـا في مجمـوعات المتاحف والمكتبات العالمية ومجموعات الهواة الخاصة.

أذكر ذلك كي ألفت الأنظار إلى أهمية ما تحمله النقود الإسلامية منذ فجر تعريبها من كتابات بارزة على جميـع أنـواعهـا من الدنانير الذهب والدراهم الفضة والفلوس النحاسية أو البرونزية.

وهنـا سيتنـاول البـاحث بالدرسة الكتابات على النقـود في العصر الأمـوي[٤] من خلال تقسيمه إلى قسمـين رئيسين، يندرج تحت كل قسم مايمكن أن نشير إليه من دنانير ودراهم وفلوس للوقوف على تطور الكتابات العربية.

والحق أن النقود الإسلامية مازالت المجال المهم جداً لتتبـع فن الخـط العـربي من خلال العصور التاريخية، ورقي الخطاطين الفنانين، ودقة تنفيذهم للكتابات باتزان رائع.

فالقسم الأول من هذه الدراسة يتعلق بالكتابات العربية على نقود عصر الانتقال من الدراهم العربية الساسانية، والدنانير والفلوس العربية البيزنطية ثم دراسـة كتـابـات النقود الإسلامية الخالصة التي ستغطي القسم الثاني من هذه الدراسة.

أولا: الكتابات على نقود عصر الانتقال:

١ ـ الكتابات على النقود العربية الساسانية

يمكن القول منذ البداية أن البلاد التي فتحها الله على المسلمـين في عهـد الخليفـة الراشـد عمـر بن الخطاب كانت تشتمل، من وجهة النظر النقدية، على مجـالين متميزين يتمثلان في منطقة يتعامل شعبها بالنقـود الفضية في العراق وفارس، وأخرى يتعامل أهلها بالنقود الذهبية والبرونزية[٥] في الشام ومصر، وقد اقتضت حكمة العرب الإدارية الإبقاء على هذا النظام النقدي منذ صدرت الأوامر العمرية بذلك من المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية، فقد كتب عمـر بن الخـطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد بمقدار الجزية بالدراهم على أهل الورق أي الفضة، وبالدنانير على أهل الذهب[٦]، وظل العرب يتعاملون بالنقود الساسانية حتى بعد انتهاء حكم الساسانيين بمقتل يزدجرد الثالث[٧] (٣١هـ/ ٦٥١م)، كما ظلت دور الضرب الساسانية تصدر نقودا عربية ساسانية واكتفى العـرب بوضـع الكتابات العربية في هامش الوجه مثل «جيد» [لوحة رقم ١/١] أو «لله الحمد» ٢/١ أو «بسم الله» [لوحة رقم ٣/١] أو «بسم الله ربي» [لوحة رقم ١/٢] أو «بسم الله ـ محمد رسول الله» [لوحة رقم ٢/٢] أو «بسم الله ـ الملك» [لوحة رقم ٣/٢] أو «بسم الله العزيز» [لوحة رقم ١/٣] أو «بسم الله ولي الأمر» [لوحة رقم ٢/٣] أو «بسم الله ـ لا إله إلا الله ـ وحده ـ محمد رسول الله» [لوحة رقم ٣/٣]، وكـان ذلك أولى خطوات التعـريب للنقـود الساسانية[٨] التي نشرت منها أعداد كثيرة ترجع إلى العصر الأموي وهو ما يهمنا الآن.

غير أننا نلاحظ أنه لا يوجد واحد من هذه النقود الفضيـة يحمل اسم الحاكم العربي باللغة العربية قبـل العصر الأمـوي حتى أطلق على هذه النقـود الخالية من أسماء الحكام اسم «الدراهم المُغْفَلة Anonymous».

(٣) Stanley Lane - Poole. *Fasti Arabici*. Numismatic Chroicle (1885 - 1887). ep.. 2.

(٤) يقتصر هذا البحث على النقـود الأموية في المشرق بينما يحضر المؤلف بحثاً آخر للنقود الأموية في المغرب والأندلس لينشر في حينه إن شاء الله.

(٥) James Kir Kaman. "The Mints of Iraq during the Omayyad Abbsid Period." *Sumer*, Vol. 1, nos. 2 (Baghdad, 1945), p.. 15.

(٦) عبد الرحمن بن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها** (القاهرة طبعة هنري ماسية، ١٩١٤م)، ص ١٥٢.

(٧) عن النقود العربية الساسانية التي ضربت باسم يزدجرد الثالث بعد مقتله وعليها كلمة «جيد» بالعربية أو «بسم الله» راجع، Johon Walker, *Arab-Sassanian Coins* (London, 1941), p. 3, PL.I, no.2.

(٨) أبو الفرج العش، **كنز أم حجرة الفضي** (دمشق: المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٧٢م)، ص ص ١٩ـ٢١، الأرقام ١٥٦، ١٥٩ ورقم ١٥٩ درهم معاوية وعليه بالعربية (بسم الله)، والاسم بالبهلوية وأرجع تاريخه إلى سنة ٤١هـ.

ويرى بعض الباحثين أن النقود الساسانية المُغفلة ظلت تضرب حتى سنة ٤١هـ إلى أن ضرب الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان الدراهم العربية الساسانية ووضع اسمه «معاوية أمير المؤمنين» بالبهلوية عليها بدلاً من اسم كسرى وولاته، بينما ظهرت على دراهمه العبارة العربية «بسم الله».(٩)

ويلحق بالدراهم المُغفلة سلسلة من الدراهم لم يرد عليها اسم دار الضرب بالعربية، وقد ظلت تضرب حتى سنة ٦٤هـ على الأقل إذ ظهرت بعد ذلك على الدراهم العربية مدينة الضرب دمشق لأول مرة سنة ٧٣هـ.(١٠)

وقد شهد عصر الدولة الأموية كثيراً من الخارجين على سلطة الخلافة منذ البداية، ولعل أشهر هذه الحركات حركة الخوارج والزبيريين، وقد ضربوا دراهم عربية ساسانية يهمنا منها ماورد عليها من نقوش عربية ومأثورات مذهبية كتلك التي ضربها قطري بن الفجاءة زعيم الخوارج الأزارقة لمدة عشر سنوات، وقد ضربها بشعار الخوارج «بسم الله ـ لاحكم إلا الله» [انظر اللوحة رقم ٤] بعد سيطرته على كرمان وفارس منذ سنة ٦٨هـ ولم يقض عليه وعلى نقوده غير المهلب بن أبي صفره الذي اضطر قطري إلى الانسحاب أمامه إلى منطقة جبلية عالية بطبرستان حيث انقلب به فرسة وقتل سنة ٧٨هـ.(١١)

ومن المعروف من دراهم قطري أنها ضربت في اردشيرخره وبيشابور(١٢) سنة ٦٩ و٧٥هـ، وتتركز نفوذ الزبيريين في هذه الفترة الأموية السابقة على التعريب الكامل للسكة في نقود كل من عبد الملك بن الزبير وأخيه مصعب بن الزبير، أما عبد الله فقد تغلب على الأمويين وانفرد بالحجاز ومصر والعراق وبعض أجزاء من الشام والأقاليم الشرقية اعتباراً من سنة ٦١هـ إلى ٧٣هـ، وقد ضرب دراهمه على الطراز العربي الساساني وسجل اسمه ولقبه بالبهلوية فظهر النص «عبد الله بن الزبير» على دراهم الرّي سنة ٦١هـ وكرمان المؤرخة سنة ٦٣هـ، كما ظهر النص «عبد الله أمير المؤمنين» على دراهم كرمان أيضاً سنة ٦٤هـ أما النص العربي فقد جاء فقط «بسم الله».(١٣)

أما مصعب فقد ضرب دراهم ساسانية عربية بعد أن تولى لأخيه عبد الله حكم البصرة والكوفة بعد نجاحه في القضاء على ثورة المختار ، بن أبي عبيد وقتله سنة ٦٧هـ، فظهرت دراهم مصعب عربية ساسانية وعليها باللغة العربية «مصعب ـ حسبه الله» أو «مصعب ـ بسم الله» [انظر اللوحة رقم ٥ /١] وظل حكم الزبيريين تضفي على شرعيته ماضربوه من نقود إلى أن قضى عليها الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان(١٤)، فقد قتل مصعب سنة ٧٢هـ، أما عبد الله فقد قتل بمكة

---

(٩) العش، كنز أم حجرة، رقم ١٥٩، ص ص ٢١ ـ ٢٢، راجع، Walker, *Arab-Sassnian*, pp. 25-27.

(١٠) يعتبر "Walker" أن الدراهم العربية الساسانية ظلت تضرب حتى سنة ٦٣هـ ولكن العش نشر درهماً وحيداً مؤرخاً بسنة ٦٤هـ، راجع،

Al-Ush, Muh, Abu- l- Fraraj, *"Silver Hoard of Damascus,* (Damascus: Directorate General of Antiquities and Museums, 1972), p. 165-6, No. 12.

وعلى غلاف مجلة اليرموك للمسكوكات، م٤، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ظهرت صورة درهم ضرب حمص سنة ٧٢هـ دون إيراد التفاصيل العلمية عنه.

(١١) عن دراهم قطري الفجاءة، راجع، العش، كنز أم حجرة، رقم ١٦٥، ١٦٦، ص ص ٢٥ـ٢٦، لوحة ٦، والنقود العربية الإسلامية بمتحف قطر (الدوحة: وزارة الاعلام في دولة قطر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، رقم ١٤١، ص ص ٩٩ ـ ١٠٣، وانظر، Walker, *Arab-Sassanian*, I, pp. 112 - 113, 122 -3na, M53,

وعن الخوارج ونقودهم راجع، فهمي، موسوعة النقود. ص ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(١٢) عن أردشيرخره من أقاليم فارس منذ العصر الساساني، راجع، فهمي، موسوعة النقود، ص ٥١.

وعن بيشابور أو سابور، راجع Walker, *Arab- Sassanian*, p. Cxxxvii

(١٣) العش، كنز أم حجرة، رقم ١٦٤، لوحة ٦، وعن مدينة كرمان، انظر، فهمي، موسوعة النقود، ص ٢٧٤، وقد ورد لفظ الجلالة «الله» فقط على درهم كرمان سنة ٦٣هـ، راجع، Walker, *Arab-Sassanian*, pp. xIi, xIii.

وعن درهم سنة ٦١هـ من ضرب الري، راجع العش، النقود بمتحف قطر، رقم ٢٧، ص ٦٣ وقد وردت عليه البسملة «بسم الله».

(١٤) عن دراهم عبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير، راجع، ناصر النقشبندي، الدرهم الإسلامي المضروب على الطراز الساساني (بغداد: د.ن ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، ص ص ٦٢ ـ =

المكرمة سنة ٧٣هـ، وكوفيء الحجاج بتوليته على الحجاز سنة ٧٥هـ وضم إليه عبد الملك بعد ذلك العراق وماولاه شرقاً.

وبعد قضاء الحجاج على الزبيريين تماماً وتوليته مقاليد الأمور في معظم ممتلكات الدولة الأموية أخذ يضرب الدراهم عربية ساسانية باسمه ولكننا نراه هنا يزيد من الكتابة العربية على الدراهم ومن بينها اسمه بالعربية كذلك «الحجاج بن يوسف». [انظر اللوحة رقم ١/٢، ٥/٢_٣، ١/٦]، وقد ضربت من هذه الدراهم أنواع في اردشيرخره سنة ٧٨هـ سجل عليها التاريخ ومكان الضرب بالبهلوية، وظهرت الكتابات الكثيرة الأخرى على وجه الدراهم ونصها:

«الحجاج بن يوسف» إلى اليمين من صورة كسرى النصفية وفي الهامش الخارجي للدرهم في اتجاه عقرب الساعة ورد:

«بسم الله/ لا إله إلا ا/لله وحده محمد / رسول الله» ويفصل بين كل مجموعة من العبارات الهلال والنجمة.[١٥]

وليس بالضرورة أن ترد شهادة التوحيد والرسالة المحمدية على كل دراهم الحجاج العربية الساسانية بل بعضها اكتفى بورود عبارة «بسم الله ربي» كما في درهم بيشاور ضرب سنة ٨١[١٦] أو عبارة «لله الحمد» واسمه باللغة العربية كذلك كما في درهم بيشاور سنة ٨٣هـ.[١٧]

أما دراهم الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) وهو صاحب الإصلاح النقدي المعروف بتعريب النقود لأنه نقلها من الطراز والكتابات الساسانية والبيزنطية إلى النصوص العربية الخالصة فقد ضربت دراهمه في اردشيرخره وبيشابور ودربجرد ومرو وعليها اسم الخليفة وتاريخ الضرب ومكانه باللغة البهلوية منذ سنة ٧١ إلى ٧٥هـ، بينما ظهرت عليها البسملة فقط باللغة العربية «بسم الله».[١٨]

كما ضرب عبد الملك دراهم أخرى عربية ساسانية وعليها مدينة دمشق باللغة العربية، كما ظهر التاريخ مع شهادة التوحيد والرسالة المحمدية بالعربية كذلك فضلا عن لقبه أمير المؤمنين «خلفت الله»[١٩] وذلك في دراهم سنة ٧٣، ٧٤، ٧٥، وبعضها لا يحمل مكان الضرب[٢٠] ولكنها تحمل الضرب فقط بالعربية مع شهادة التوحيد والرسالة المجمدية كما في درهم سنة ٧٥هـ وهو مضروب على الطراز الساساني وعليه صورة الخليفة عبد الملك وعلى جانبيه «خلفت الله ـ أمير المؤمنين»[٢١] [اللوحة رقم (٦)] وانظر تفريغ الكتابات الخاصة بالدراهم في مرحلة التعريب [لوحة رقم ٧].

٢ ـ الكتابات على النقود العربية البيزنطية

في أحدث الأبحاث عن نقود الأمويين للدكتور مايكل بيتس Michel Bates بعنوان «مسكوكات سورية»[٢٢] يميل إلى تقسيم النقود الأموية إلى ثلاثة أطوار أولها من سنة ٧٢ ـ ٧٤هـ ويسميها فترة

= ٦٩، ١١١؛ العش، كنز ام حجرة، ص ص ٢٣_٢٤، راجع ايضا.

Walker, *Arab-Sassanian*, pp. xxv, xxxiv, xli,

وعن نقود مصعب بن الزبير، راجع أيضا،

Walker, *Arab-Sassanian*, pl. xix, nos, 4,5.

(١٥) عن دراهم الحجاج، انظر، العش، كنز ام حجرة، رقم ١٩٩ ضرب اردشيرخره سنة ٧٨هـ، ورقم ٢٠٠ ضرب سنة ٧٦هـ، ورقم ٢٠١ ضرب بيشابور سنة ٧٧هـ، لوحة ٩، ص ص ٣٩ ـ ٤٠؛ والعش، النقود بمتحف قطر، رقم ١٣٢، ١٣٤ ضرب بيشابور سنة ٧٩هـ، راجع أيضا،

Walker, *Arab-Sassanian*, pl. nos7, 8,9 nos. 229, 230 pl.118

(١٦) Walker, *Arab-Sassanian*, p. 120, The 17, pl, xxiI, no3.

(١٧) راجع، العش، كنز ام حجرة، رقم٢٠٥، ص ٤١؛ العش، النقود بمتحف قطر، رقم ١٣٩، ص ٩٨.

(١٨) راجع Walker, *Arab-Sassanian*, pp. 27, 28, 29.

وعن تعريب النقود انظر، فهمي، موسوعة النقود، ص ص ٢٨ ـ ٥٣.

(١٩) لاحظ هنا أن التاء كتبت مفتوحة وليست مربوطة.

(٢٠) Walker, *Arab-Sassanian*, pls., xxxi, 4, 5, p.23.

ويذكر بيتس Bates في بحثه، مسكوكات سورية في فترة الخلافة الأموية مجلة اليرموك للمسكوكات (الترجمة العربية)، ص ص ٤١،٤٧، أن أحد الهواة يقتني درهما ضرب سنة ٧٢هـ سك في حمص

(٢١) Walker, *Arab-Sassanian*, no Zub., 1, fig 2, p. 25.

وانظر، النقشبندي، الدرهم الإسلامي، ص ٥٨ والنص يتفق مع اللقب السابق الإشارة إليه في الهامش رقم(١)

(٢٢) مايكل بيتس، «مسكوكات سورية في فترة الخلافة الأموية»، =

الصور الإمبراطورية، وثانيها من سنة ٧٤ ـ ٧٧هـ ويسميها فترة الصور العربية أو «طور الخليفة الواقف»، وثالثها من سنة ٧٧هـ إلى نهاية الدولة الأموية أي سنة ١٣٢هـ، وهو طور النقود ذات الكتابات، غير أننا في حديثنا عن دراسة وتحليل الكتابات العربية على النقود الأموية لا نستطيع أن نأخذ بهذا التقسيم ذلك لأن الكتابات العربية ظهرت مبكرة على الفترات الثلاث، لذلك وجب أن نأخذ بتقسيمها وفق المنهج الذي سرنا عليه وهو دراسة الكتابات على نقود عصر الانتقال ثم الكتابات على النقود بعد تعريبها تماماً لاسيما وأن الفترة الأولى والثانية من تقسيم الدكتور مايكل بيتس فترتان متداخلتان من حيث الكتابات الواردة على هذه النقود، وربما يصلح تقسيم بيتس Bates فقط لدراسة الجوانب التصويرية والزخرفية على نقود الأمويين وهو ما يخرج عن موضوعنا هنا

ومن هذا المنطلق تنقسم الكتابات على النقود العربية والبيزنطية إلى قسمين هما:

١ ـ الدنانير العربية البيزنطية وهي التي ضربت وفق الطراز البيزنطي مع تحوير شاراتها وظهور الكتابات العربية عليها تدريجيا [انظر اللوحة رقم (٨/١)]

٢ ـ الفلوس العربية البيزنطية وماظهر عليها من كتابات عربية مع تحوير شاراتها المسيحية والإبقاء على بعض الحروف اليونانية واللاتينية.

اما القسم الأول الخاص بالدنانير العربية البيزنطية فهو ما يدفعنا إلى القول منذ البداية بأن المجال النقدي في الشام ومصر من ممتلكات الدولة البيزنطية كان يسير على قاعدة الذهب[٢٣] Gold standard حتى بعد زوال السيادة البيزنطية وضم هذه الأقاليم إلى دار الإسلام، كما تحدثنا المصادر التاريخية عنن محاولات مبكرة لإصلاح النقود الذهبية منذ عهد معاوية بن أبي سفيان التي يشير إليها المقريزي في شذور العقود[٢٤] بأن أول دنانير إسلامية ضربت بصورة الخليفة معاوية على الطراز البيزنطي ولكن للأسف لم تصل إلينا قطعة واحدة من هذه الدنانير، بل وصلت إلينا دنانير الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) التي ضربها على الطراز البيزنطي[٢٥] فتبنى طراز الإمبراطور هرقل وولديه هرقليوناس وقسطنطين مع الإبقاء على الحروف اللاتينية وتحوير الشارات المسيحية بحذف رأس الصليب ليجعله يمثل حرف [T] أو كُرَةْ على مدرجات أربع في ظهر الدينار وأحاط القائم في ظهر الدينار بعبارات عربية بالخط الحجازي البارز تنص على شهادة التوحيد والرسالة المحمدية اتجاه عقرب الساعة ونصها «بسم الله لا إله إلا الله وحده ـ محمد رسول الله» [انظر اللوحة رقم ٨/٢ـ٣)] ثم انتقل عبد الملك بعد ذلك إلى خطوته الجريئة بحذف صور العائلة الإمبراطورية من الدنانير وحلت محلها صورة الخليفة بلباسها العربي متقلدا سيفه علامة الإمامة والجهاد عند المسلمين، وقد وصلتنا من هذا الطراز اقدم دنانير عبد الملك المؤرخة بسنة ٧٤هـ[٢٦]، وقد زاد حجم الكتابات العربية في هذا الطراز على الوجه والظهر فبينما على

= وقد ورد إلينا مترجماً إلى اللغة العربية في مجلة «اليرموك للمسكوكات»، المجلد الثاني، العدد الأول (عمان، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ص ص ١٥ـ٥١، وعنوانه بالانجليزية،

Michel Bates, *The Coinage of Syria Under the Umayyads.* 692-750. A.D.

- والبحث اصلاً قد نشر بالإنجليزية في الندوة الثالثة للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، مجلد ٢ (عمان، ١٩٨٩م)، ص ص ١٩٥ـ٢٢٨.

(٢٣) يقصد بهذا التعبير أن المعدن الذي يتخذ قاعدة للنقد Ealon Monetaire اي أساسا للنظام النقدي في الدولة هو الذهب الذي يصبح وحده نقوداً قانونية لها قوة إبراء غير محدودة، انظر، عبد الحكيم الرفاعي، **الاقتصاد السياسي** جـ١، (القاهرة، د.ن، ١٩٣٦م)، ص ص ٤٤٥ ـ ٥٠٣، فهمي، **موسوعة النقود**، ص ٥٧.

(٢٤) المقريزي، **شذور العقود في ذكر النقود** (القاهرة: دار نشر الكرملي، ١٩٣٩م)، ص ٣٤.

(٢٥) عن الإصلاح النقدي لعبد الملك بن مروان، راجع فهمي، **موسوعة النقود**، ص ص ٣٦ ـ ٤٨.

(٢٦) فهمي، **النقود العربية ماضيها وحاضرها**، ط٢ (مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية، ١٩٨٧م)، ص ٣٤؛ وانظر، فهمي، «تعريب النقود ومدلوله الحضاري»، مجلة المنهل، عدد خاص بالأثر =

الوجه أصبحنا نقرأ شهادة التوحيد والرسالة المحمدية التي ظهرت لأول مرة على دنانير الخليفة ذات الصور الثلاث للعائلة الإمبراطورية ثم توالى ظهورها بعد ذلك على وجه الدينار حول صورة الخليفة بينما نقش على الظهر في اتجاه عقرب الساعة البسملة وتاريخ الضرب منذ سنة ٧٤هـ، واستمر على التوالي إلى سنة ٧٧هـ [انظر اللوحة رقم ٣/٨]، ويحتفظ متحف كراتشي والمتحف البريطاني والمكتبة الأهلية بباريس ومتحف جمعية النميات الأمريكية بنيويورك بنماذج من هذه الدنانير الانتقالية للخليفة عبد الملك والمصورة بصورته التي أزعجت الإمبراطور جستنيان الثاني[٢٧]، وقد كانت بينه وبين عبد الملك معاهدة تعهد عبد الملك بن مروان أن يدفع للبيزنطيين إتاوة يُقدِّرها البعض بثلاثمئة وخمسة وستين ألف دينار[٢٨]نظير نقل الفدائيين الجراجمة أو المردة Maradaites بعيداً عن حدود الدولة الإسلامية حتى يتفرغ عبد الملك للقضاء على حركات الخوارج والزبيريين، ولكن الإمبراطور جستنيان الثاني رفض قبول هذا النوع من الدنانير العربية ونقض المعاهدة وقامت الحرب بين الخليفة والإمبراطور وانتصر المسلمون على الروم في موقعة سبستبوليس انتصاراً ساحقاً، ويعلق لوبز Lopez على هذه الحرب بقوله «لم تكن مجرد صدام بين حاكمين أحدهما هادىء رزين والآخر متهور، ولكنها كانت تحدياً وصراعاً بين حضارة قديمة تفخر بتراثها الديني وسلطتها العالمية من ناحية وبين دولة فتية تحتم عليها أن تفسح مكانها لعقيدتها الدينية الخاصة بها ولحقوقها الخلافية من ناحية أخرى».[٢٩]

والمهم أنه في سنة ٧٧هـ أصبح لدينا دنانير من طرازين أحدهما دنانير بكتابات عربية وتأثيرات بيزنطية تتمثل في القائم المتوج بكرة فوق مدرجات أربعة ومن حوله كتابات عربية تنص على البسملة وشهادة التوحيد والرسالة المحمدية، وعلى الوجه تظهر صور العائلة الإمبراطورية التي يحل محلها بعد ذلك صورة الخليفة عبد الملك من ٧٤ـ٧٧هـ، وثانيهما: طراز عربي خالص لا يحمل غير الكتابات العربية على الوجه والظهر ، وهكذا تصبح سنة ٧٧هـ حداً فاصلاً بين الطراز الانتقالي للدنانير الذهبية ذات الكتابات العربية وصورة الخليفة عبد الملك، والطراز العربي الخالص الذي سنتعرض لكتاباته في القسم الثاني من هذا البحث.

وعن تفريغ حروف كتابات الدنانير في مرحلة التعريب [انظر اللوحة رقم ٩].

أما فيما يتعلق بالنقود النحاسية أي الفلوس العربية البيزنطية Follis[٣٠] فقد ضربت في العصر الأموي على يدي حكام الأقاليم وفقاً لاحتياجات شعوبهم باعتبارها نقوداً مساعدة، لذلك ارتبط هذا النوع من النقود منذ الفتح الإسلامي بتلك التقسيمات الإدارية في الدولة الإسلامية في الشام حيث جند دمشق وفيه مركز الدولة وعاصمتها، وقد أصدرت دمشق مجموعات كثيرة من الفلوس ذات التأثيرات البيزنطية والكتابات العربية وتقدر بثلاثة عشر نوعاً رتبها ووكر Walker في جداول خاصة[٣١]،

= والآثار (رمضان/ شوال ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ص ٣٨٢ ـ ٣٩٣، ودينار سنة ٧٤هـ يوجد حاليا في متحف كراتشي بباكستان.

(٢٧) كانت الدولة البيزنطية لا تسمح لأحد في العالم أن يضرب الذهب بغير صور الأباطرة البيزنطيين كحق لهم وحدهم، انظر فهمي، **موسوعة النقود**، ص ٤٧ وعن المردة أي جراجمة اللكام انظر، فيليب حتى، **تاريخ العرب**، ترجمة محمد مبروك نافع (القاهرة: د. ن، ١٩٤٩م)، ص ٢٥٦، وانظر أيضا، ابراهيم العدوي، **الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية** (القاهرة: د. ن، ١٩٥١م)، ص ٥٨.

(٢٨) مايكل بيتس، «**مسكوكات سورية**»، الترجمة، ص ٢١.

(٢٩) Lopez, *Mohammed et Charlemagne*.

ترجمه للعربية توفيق اسكندر في، بحوث في التاريخ الاقتصادي، (القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٦١م)، ص ١٢٠.

(٣٠) اشتق لفظ الفلس من اللفظ اليوناني Follis وتقدر وحداته في الدولة البيزنطية منذ عهد جستنيان الأول بالنُّميّ Nummia لذلك تعددت قيمته، وتراوحت بين أربعين إلى ٣٣ إلى ١٢ إلى ٦ نميَّات مع الإشارة للقيمة بتسجيل حرف من حروف الأبجدية اللاتينية على الفلس راجع، فهمي، **صنج السَّكة في فجر الإسلام**، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٧م)، ص ٣٦، فهمي، **موسعة النقود**، ص ٦٣ وانظر ايضا،

Adolf Grohmann, *Chrestomatie Zur Arab PapyrusKunde*, 1, (Brogue, 1955), p. 214; *Encyclopedia of Islam*,. Art, "Fals"

(٣١) انظر، مايكل بيتس، «**مسكوكات سورية**»، الترجمة العربية،

وبعض هذه الفلوس الدمشقية مؤرخ اعتباراً من سنة ٨٧هـ وبعضها غير مؤرخ [انظر اللوحة رقم ١٠].

ويعتقد أنه من الصعب الجزم بأن إصدار النوعين من هذه الفلوس كان متزامناً أو يسبق أحدهما الآخر، ومن بين مدن الضرب التي أصدرت فلوساً عربية بيزنطية في جند دمشق مدينتي بعلبك وعمّان، وقد استقل كل منهما بنقوده النحاسية.[٣٢]

ولعل أبرز الخصائص المشتركة بين هذه الفلوس هي تلك الصور الإمبراطورية البيزنطية والحرف اللاتيني الكبير M والصغير اللين m وكلاهما رمز لقيمة الفلس النقدية من النميّات أصغر الوحدات النقدية طرّاً، فيعني هذا الحرف عند وروده على الفلس أن قيمته أربعين نمياً Nummia ومن حول هذا الحرف نقشت الكتابات العربية مع الإشارة إلى عبارة «ضرب دمشق جاين»[٣٣][انظر اللوحة رقم ١١/١ـ٢] وغير جند دمشق أصدر الجند الثاني وهو جند حمص في تاريخ مبكر فلوساً يؤرخ بعضها بسنة ٧٢هـ وهو في إحدى المجموعات الخاصة، كما أصدرت حمص مجموعات من الفلوس ذات كتابات عربية من بينها اسم «عبد الملك أمير المؤمنين» بالخط الحجازي البارز حول صورته وهو واقف.

أما الجند الثالث وهو جند قنسرين أو حلب وهما مدينتا السك الرئيستان في هذا الجند فيلاحظ على ما أصدرتا من فلوس صورة الخليفة عبد الملك واقفاً ومن حوله الكتابات العربية باسمه ولقبه.

«لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين» بينما الكتابات العربية على ظهر هذه الفلوس تنص على شهادة التوحيد والرسالة المحمدية «لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله»[٣٤] [انظر اللوحة رقم ١٠،١١].

أما الجند الرابع وهو جند الأردن فعاصمته الرئيسة طبرية، وقد أصدرت فلوساً عربية بيزنطية مميزة لصور الأشخاص الثلاثة وحرف M ولكنها لم تصدر قط فلوساً بصورة الخليفة عبد الملك وهو واقف[٣٥] وهناك مدينتان في جند الأردن غير طبرية هما مدينة بيسان وجرش[٣٦]، وقد أصدرت كل منهما فلوساً بكتابات يونانية وحرف M وانفردت بيسان بإصدار فلوس كبيرة الحجم وصورة الإمبراطور البيزنطي، كما أصدرت فلوساً صغيرة الحجم قيمتها عشرين نميّا أي نصف قيمة الفلوس الكبيرة.

ويأتي بعد ذلك الجند الخامس من التقسيم الإداري للشام وهو جند فلسطين في أقصى الجنوب من الأجناد الأربعة السابقة، وقد سك هذا الجند فلوساً في ايليا في فلسطين أي القدس وهي فلوس عربية بيزنطية تحمل صورة الخليفة عبد الملك وعليها كتابات تنص على الرسالة المحمدية باللغة العربية (محمد رسول الله).

أما مدينة الرملة عاصمة هذا الجند فقد أسست حوالي سنة ٩٠هـ وضربت فلوساً بعد الإصلاح النقدي لذلك لن نتحدث عنها هنا ونحن نتعرض هنا لفلوس ما قبل التعريب.

ويتضح لنا من هذا العرض للفلوس العربية البيزنطية أنها مرت في مرحلتين تتمشيان مع تاريخ الدنانير الأموية، مرحلة تبدأ من سنة ٧٢ـ٧٤هـ وهي مرحلة الطراز ذي الصور الأمبراطورية البيزنطية المقلدة، وقد صدرت منها مجموعات كبيرة في دمشق وحمص وقنسرين وطبرية وايليا فلسطين مع ظهور الكتابات العربية على ظهر هذه الفلوس[٣٧] [اللوحة رقم ١١].

= ص ٣١،

Walker, *Arab-Byzantine and Post Reform Umaiyad Coins* (London, 1956), pp. 207-213.

(٣٢) راجع، بيتس، «**مسكوكات سورية**»، الترجمة، ص ٣١؛ وانظر، رافت النبراوي، «فلوس عمّان وجرش في صدر الإسلام»، **مجلة اليرموك للمسكوكات**، م١، السنة الأولى (١٩٨٩م)، ص ص ١٥ـ٢٠.

(٣٣) Walker, *Arab-Byzantine*, p.6, ns.12

(٣٤) Walker, *Arab-Byzantine*, no 106, pl, VII, p. 33, no 132, p, 39.

(٣٥) عن فلوس طبرية، راجع Walker, *Arab Byzantine*, nos. 43-51.

(٣٦) عن فلوس بيسان راجع Walker, *Arab Byzantine*, pp. 1,2 no,1. وعن فلوس جرش راجع، رافت النبراوي، «فلوس جرش وعمان في صدر الإسلام»، ص ص ٢٠ـ٢١.

(٣٧) نقش على فلوس دمشق وعمّان شهادة التوحيد على الوجه والظهر، راجع بيتس، **مسكوكات سورية**، الترجمة، ص ٢٩ [انظر لوحة ١١ من هذا البحث].

أما المرحلة الثانية فهي ترتبط بظهور الخليفة الواقف عبد الملك بن مروان وتبدأ من سنة ٧٤ ـ ٧٧هـ وهي السنة التي تعتبر الحد الفاصل بين الفلوس في مرحلة الانتقال وبين الفلوس المعربة تعريباً كاملاً.

ثانيا: الكتابات على النقود العربية الخالصة

١ ـ النقود الذهبية[٣٨]

تطور ضرب النقود الذهبية على يدي الدولة الأموية منذ الإصلاح الذي قام به عبد الملك (٧٤هـ ـ ٧٧هـ) فظهر أول دينار بكتابات عربية خالصة ولا أثر لأي تأثير بيزنطي في سنة ٧٧هـ. ويبدو أن هذا النوع من الدنانير العربية ضرب في أواخر سنة ٧٧هـ إذ أنه لدينا، كما سبق أن أشرنا، هنا دنانير عبد الملك ذات الصورة للخليفة الواقف ومؤرخة سنة ٧٧هـ، وتتابع سك النقود العربية ذهبية أكانت أم فضية أم نحاسية، ولكن أصبح التمييز بين الدنانير التي ضربت في دمشق العاصمة أو مصر أوالمدينة المنورة بالحجاز تحتاج إلى تحليل ودراسة الكتابات البارزة المنقوشة عليها، لمعرفة تطور الخط العربي والوقوف أيضا على الفروق بين ضرب مدينة أو اقليم وآخر مادامت النقود الذهبية، ومعظم الفلوس بصفة خاصة، لم يسجل عليها مكان الضرب باستثناء دنانير الحجاز وشمالي إفريقيا والأندلس.

وهكذا وعلى مدى ستة وخمسين عاماً من عمر النقود الأموية العربية، اي أكثر من خمسة عقود (٧٧ ـ ١٣٢هـ) [انظر اللوحات من ١٣ـ٢٠] أصبحنا أمام مشكلة تحتاج إلى دراسة متأنية للحروف العربية الواردة على النقود الأموية عن طريق التعرض لسلسلة النقود التي صدرت وأمكن ترتيبها سنة بسنة اعتبارا من ٧٧هـ تاريخ التعريب المحدد حتى نهاية دولة الأمويين بالمشرق.

ويجب أن نشير هنا أن مما زاد المشكلة تعقيداً فيما يتعلق بالنقود الذهبية أن هذه النقود تشابهت نصوصها الكتابية بصفة عامة في وجه الدينار أو ظهره وحتى فيما يتعلق بحروف كتابات أجزاء هذه الدنانير من انصاف أو أثلاث فيما عدا فروق تتعلق بإضافة بعض الحروف او حذفها او وضع نقط الإعجام في النصوص أوحذفها.

أما الدينار العربي الأول فقد وردت عليه النصوص التي أصبحت مثالاً تحتذيه الدنانير الأموية التي ضربت في تواريخ متتابعة وهذا نصها:

الوجه	الظهر
مركز (في ثلاثة سطور)	مركز (في ثلاثة سطور)
لا إله إلا	الله أحد الله
الله وحده	الصمد لم يلد
لاشريك له	ولم يولد
هامش (عكس اتجاه عقرب الساعة)	هامش (عكس اتجاه عقرب الساعة)
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله	بسم الله ضرب هذا الدينر في سنة سبع وسبعين

وإن نظرة سريعة إلى هذه الكتابات يتضح من مضمونها أنها تشير إلى عقيدة الدولة الأموية المسلمة، فظهر على الوجه في مركزه وهامشه شهادة التوحيد والرسالة المحمدية التي اقتبس النقاش نصوصها من الآية (٣٣) من سورة التوبة ومن الآية (٢٨) من سورة الفتح والآية (٩) من سورة الصف.

أما كتابات مركز الظهر فهي اقتباس قرآني من الآيات الأربع من سورة الإخلاص، ورغم حرص الضرّاب على تسجيل تاريخ الضرب إلا أن الدنانير الأموية نادراً ماظهر عليها تاريخ الضرب وخاصة في المشرق باستثناء دنانير الحجاز[٣٩]، ولعل هذه الحقيقة تصل بنا إلى الاستنتاجات التالية:[٤٠]

(٣٨) اختلف المنهج في القسم الثاني عن القسم الأول من البحث من حيث الكتابات على الدنانير والدراهم والفلوس هنا لأن الدينار يعتبر العملة الرئيسة والدراهم والفلوس هي العملة المساعدة في الدولة الأموية.

(٣٩) سبقت الإشارة إلى أن هذا البحث ينصب على النقود الأموية في المشرق دون المغرب إذ أن كتابات شمالي أفريقيا والأندلس الأموية ورد من بينها أسماء دور الضرب على الدنانير اعتباراً من سنة ١٠٠هـ.

(٤٠) وهناك افتراضات أوردها بيتس Bates عند كلامه عن المسكوكات النحاسية السورية ولكن مثل هذه الافتراضات تنسحب بالأهمية على الدنانير الذهب وهي النقود الرئيسة اكثر من الفلوس النحاسية التي ترك لحكام الاقاليم ضربها، راجع، بيتس، «مسكوكات سورية»، الترجمة، ص ٢٨.

١ ــ ربما كانت قوالب السك تنقش في العاصمة الأموية دمشق ثم يتم توزيعها على بقية دور الضرب الأموية في المقاطعات.

٢ ــ أو أن الدنانير كانت تضرب في دار ضرب متنقلة مع توفير عمال فنيين لقوالب السك.

٣ ــ وربما أخيراً تكون الدنانير الأموية تضرب في العاصمة دمشق بلا أسماء ويسجل على بعضها أسماء مدن من المهم ذكرها على الدنانير مثل «معدن أمير المؤمنين بالحجاز» كما ضرب في دنانير سنة ١٠٥هـ [انظر اللوحة رقم ١٧/ ١٢٩أ].

وعلى أي حال فإننا مع هذه الاقتراحات لا نستطيع أن نصل إلى قول فصل إلا بعد دراسة كتابات ونقوش الدولة الأموية، لأن الاختلاف في طريقة نقش الحروف الكتابية ودقة حفر قوالب السك في الدولة الأموية يعتبر حجة دامغة للوصول إلى الرأي القائل بأن سك النقود الأموية في العصر الأموي كان مركزياً وفي العاصمة دمشق وحسب.

ومن تحليل النصوص الكتابية ومضمونها ومفردات الكلمات المضافة أو المحذوفة في نصوص النقود الأموية نحاول أن نصل إلى تفسير محتمل لأماكن الضرب لهذه الدنانير الذهبية إذ نرى مثلاً كلمة «في» قد حذفت من بين النصوص الكتابية على الدنانير اعتباراً من سنة ٨٠هـ، ونجد أيضا أن بعض دنانير سنة ١٠٥هـ لا ترد أية إشارة بين النصوص الكتابية لمكان السك بها بينما نجد بعض الدنانير في هذه السنة يرد عليها عبارة «معدن أمير المؤمنين بالحجاز».

ويفسر بعض الباحثين[41] كلمة «معدن» على أنها دار السك لتقابل الكلمة الإنجليزية Mint، ولكن الحقيقة أن كلمة معدن في رأينا قد تعني أيضا معنى «منجم» رغم ورودها على بعض الدراهم الأموية قبل اسم مكان السك مثل «معدن باجنيس ومعدن الشاس»، وهنا أيضا في الدنانير الأموية الحجازية «معدن أمير المؤمنين بالحجاز» مما يحدو بنا إلى الاعتقاد بأن هذه الدنانير الحجازية قد ضربت من ذهب منجم بني سليم جنوب غربي المدينة المنورة، وكان سكها في المدينة نفسها.[42]

لأنه إذا سلمّنا بأن الدنانير الذهبية كنقود رئيسة كانت تضرب في العاصمة دمشق فما بال تلك الفلوس النحاسية التي ورد عليها «ضرب بالمدينة معدن أمير المؤمنين»، وكان أول من نشر عنها الأستاذ سمير شما أحد هواة النقود السعوديين بجدة لذلك فإننا نؤيد تفسيره من أن كلمة معدن تعني «منجم» وأن الدنانير الذهبية سنة ١٠٥هـ التي ورد عليها معدن أمير المؤمنين بالحجاز قد ضربت بالمدينة.[43]

نقطة أخرى مهمة في كتابات الدنانير الأموية وهي وضع بعض النقاط أي نقط الأعجام على الحروف العربية أو أسفلها وفي مكانها الصحيح أو منحرفة عن مكانها الصحيح، ولعل ذلك يقودنا إلى افتراض أن هذه النقط قد تمثل مرحلة ظهور نقط الإعجام على كتابات الدنانير، ولكن يناهض هذا الافتراض أن الكتابة العربية على الدنانير ليس بالضرورة أن تحمل نقط الإعجام في نقود الأمويين لاسيما وأن هذه النقاط وردت أيضا على الدراهم، فهل هذا يقودنا إلى افتراض آخر هو أن النقاط كانت تعبر عن وجود دارين للسك إحداهما مخصصة لضرب الدنانير الأموية والأخرى لضرب الدراهم إلى أن تم ضم الدارين معاً فلم تعد هناك حاجة إلى وضع نقاط في مكانها من الحروف الكتابية أو في غير مكانها بل

---

(٤١) العش، **كنز ام حجرة**، ص ١٨، حاشية ٤، العش، **النقود بمتحف قطر**، ص ٢٦.

(٤٢) G. C. Miles, *Rare Islamic Coins* (New York, 1950), p.21, no. 118; Walker, *Arab-Byzantine*, pp. lxxxix, xc.

وراجع بحث «**مسكوكات سورية**»، الترجمة، ص ٢٥، حاشية ٢٤، ص ٤٤ حيث يشير إلى ماوصل إليه من رأي يتعلق بضرب دنانير معدن أمير المؤمنين في نفس دار الضرب التي ضربت دانير ١٠٥هـ وليس عليها معدن أمير المؤمنين، أي أن دنانير معدن أمير المؤمنين لم تضرب بالحجاز.

(٤٣) سمير شما، «المدينة معدن أمير المؤمنين»، **مجلة المسكوكات**، العدد السابع، (١٩٧٦م)، ص ص ١٠٦ ــ ١٠٩، وقد أورد شما دنانير مؤرخة سنة ٩١ ــ ١٩هـ ورد عليها «معدن أمير المؤمنين» دون ظهور لفظ الحجاز عليها، وعن دنانير سنة ١٠٥هـ المغفلة من اسم المدينة ودنانير الحجاز سنة ١٠٥هـ، راجع عبد الرحمن فهمي، **موسوعة النقود**، ص ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦.

وحذفها تماماً سنة ١٠٨هـ ومابعدها بعد أن أصبحت دار السك المركزية واحدة، ولكن ربما ينقض هذا الرأي أن الدنانير الأموية لم تكن تضرب فقط في دمشق بل وفي مصر أيضاً بل وفي رأينا في المدينة المنورة بالحجاز كذلك.(٤٤)

ومهما كانت النتائج التي توصلنا إليها بشأن ضرب الدنانير الأموية في دمشق العاصمة أو في غيرها من المدن من ممتلكات الدولة الأموية فإننا لا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى تلك الملاحظات المتعلقة بحصر النقاط التي وردت على الحروف الكتابية في النقود الذهبية الأموية كي نفسح المجال أمام الباحثين لاستنتاجات أخرى موفقة سواء أكانت هذه النقود من الدنانير أم أجزاء منها لاسيما وأن الأمويين اهتموا بضرب هذه الأجزاء تحقيقاً لمرونة العمليات التجارية للتعامل بحاجيات تقل قيمتها أو تزيد على الدينار قليلاً بنص الدينار أو ثلثه [انظر اللوحات رقم ٢١ - ٢٣] أما كتابات هذه الأجزاء فقد وردت على النصف كما يلي:(٤٥)

وجه	ظهر
مركز: بسم الله	مركز: لا إله ا
الرحمن	لا الله
الرحيم	وحده
هامش: ضرب هذا النصف سنة	هامش: محمد رسول الله
إحدى وتسعين	أرسله بالهدى ودين الحق

وردت على الثلث هكذا:

وجه	ظهر
مركز: بسم الله	مركز: لا إله إ
الرحمن	لا الله
الرحيم	
هامش: ضرب هذا الثلث	هامش: محمد رسول الله
إحدى وتسعين	أرسله بالهدى ودين الحق

٢ - الدراهم الفضية

يعد درهم أرمينية أول درهم معرب تعريباً كاملاً حتى الآن إذ يحمل تاريخ ضرب(٤٦) سنة ٧٨هـ، وقد يؤكد ذلك ما يعتقده مؤرخو النميات الإسلامية من أن الدراهم صارت مع الدنانير وفق بداية التعريب ونقصد بذلك سنة ٧٧هـ.(٤٧)

وأما بخصوص كتابات الدرهم الإسلامي المعرب تعريباً كاملاً في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي سمح لولاة الأقاليم بضربه شريطة ذكر اسم دار الضرب واضحاً على وجه الدرهم مقترناً بتاريخ الضرب مما أمدنا بأسماء كثير من دور الضرب(٤٨)[انظر اللوحات رقم ٢٥-٣٠] الإسلامية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه مما دفع الباحث إلى أن يقوم باختيار نماذج حتى يتسنى له من خلالها الوقوف على مهارة الخطاط الكاتب الذي يقوم بنقش حروف كتاباته مقلوبة في قوالب السك لتخرج لنا كتابات عربية سليمة على وجه النقود وظهرها فهي تتمثل فيما يلي:

وجه	ظهر
مركز: (في ثلاثة أسطر)	(في أربعة أسطر متوازية)
لا إله إلا	الله أحد الله
الله وحده	الصمد لم يلد و
لا شريك له	لم يلد ولم يكن
	له كفوا احد

---

(٤٤) راجع أيضاً، Michel Bates, "Geography, and, Numismatics in the First Century of Islamic, Coinge," *Revue, Suisse de Num*, Vol. 65 (1986), p. 231.

(٤٥) راجع العش، **النقود بمتحف قطر**، رقم ٦١٤، ٦١٥، ص ص ١٥٢ - ١٥٣، والصور باللوحة رقم ٥٤ للنصف وبنفس اللوحة ٥٤ رقم ٦١٥ للثلث. وكلاً من النصف والثلث مؤرخ بسنة ٩١هـ من عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وعن تفريغ حروف الكتابات على النقود الذهبية، انظر اللوحة رقم ٢٤ من هذا البحث.

(٤٦) ناصر النقشبندي ومهاب درويش البكري، **الدرهم الاموي المعرب** (بغداد: سلسلة كتب التراث، ١٩٧٤م)، ص ص ٢٢ - ٢٤، لوحة رقم ١٢٤.

(٤٧) عبد الرحمن فهمي، **النقود العربية ماضيها وحاضرها**، ص ٣٧.

(٤٨) عند دور الضرب انظر، فهمي، **موسوعة النقود**، ص ٢٥٠ وما بعدها، انظر Edward von Zambaur, *Die Munzpragungen des Islams*, Band I (Weisbaden, 1908), p.68.

هامش: (لايفصله عن الكتابات المركزية فاصل يدور عكس اتجاه عقرب الساعة) نصه: «بسم الله ضرب هذا الدرهم (دار الضرب تاريخ الضرب)	هامش: (يفصله عن الكتابات المركزية دائرة خطية ويدور في عكس اتجاه عقارب الساعة) نصه: «محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»

وعند تحليلنا لكتابات الدراهم الإسلامية يجب أن ننوه إلى أمر هو اتساع قطر صحيفة الفضة المضروبة مما هيأ للنقاش أو الكاتب الخطاط أن يكمل نصه خاصة في ظهر الدرهم حيث أكمل الاقتباس القرآني من سورة الإخلاص وجعله في أربعة أسطر متوازية ونص الهامش المقتبس من سورة التوبة الآية (٣٣) أو من سورة الفتح الآية (٢٨) أو سورة الصف الآية (٩) قوله تعالى: حتى «ولو كره المشركون» وعلى الرغم من ذلك نجد النقاش يضيف دائرة زخرفية على وجه الدرهم حتى لا يترك فراغاً يحيط بالكتابات المركزية والهامشية، وهذا يخرجنا عن دائرة بحثنا الذي يهتم بالكتابات دون الزخرفة.

وقد حرص الباحث أن جمّع سنوات الضرب من سنة ٧٨هـ وحتى سنة ١٣٢هـ دون أن يعير اهتماماً لتتبع دور الضرب، وقد اجتهد قدر استطاعته في عمل تفريغات لحروف الكتابة العربية على الدراهم في هذه الفترة الأموية حتى يمكن الاستفادة بمقارنتها مع سائر الكتابات العربية الأخرى على الآثار الإسلامية معتمداً في هذا على ما نهجه بالنسبة للدنانير فيما بين سنتي ٧٧هـ ـ ١٣٢هـ [انظر اللوحة ٣١].

٣ ـ الفلوس النحاسية والبرونزية

يجب أن نضع في الاعتبار منذ البداية أن الفلوس تعدُّ نقوداً مساعدة سمح الخليفة لجميع الأمصار بضربها لمرونة المعاملات التجارية والمعيشية، لذلك تعددت أشكال كتاباتها واختلفت نصوصها [انظر اللوحات من ٣٤ ـ ٤٤] غير أنها اتفقت معظمها في الاحتفاظ بشهادة التوحيد على الوجه والتي كانت تنقش عادة في ثلاثة أسطر متوازية في المركز:

الوجه	الظهر
مركز: لا إله	كان يدون عليه عبارة
إلا الله	محمد
وحده	رسول
	الله

وقد يحتفظ الفلس بهامش للوجه أو للظهر يدوَّن فيه مكان الضرب كدمشق مثلاً أو الرملة أو عمّان أو جرش أو الأردن أو القدس، وقد يحتفظ الهامش الآخر باسم الأمير أو الوالي الذي أمر بضربه.

وأما عن حروف كتابات الفلوس ففي الحقيقة لا يمكن تصنيفها ضمن مالاحظناه من قوة كتابات الدنانير والدراهم الأموية [انظر اللوحة رقم ٤٥] مما يقف دليلاً على أن الدولة أولت اهتماماً كبيراً بالدنانير والدراهم الأموية، أو بصيغة أخرى يمكن وصف حروف كتابات الفلوس بأنها ذات طابع محلي، بمعنى أن الكاتب أو الخطاط لا يكون على درجة من المهارة والتفوق الذي يجعله في مصاف الخطاط الماهر الذي كتب في حاضرة الدولة الأموية بدمشق أو غيرها من دور الضرب المهمة في الأمصار الإسلامية.

مما سبق يتضح لنا مدى اهتمام الدولة منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وقيامه بتعريب النقود تعريباً كاملاً من سنة ٧٧هـ وحتى نهاية الدولة الأموية في سنة ١٣٢هـ بكتابات ونقوش النقود الإسلامية من دنانير ودراهم أمدتنا بتطور لحروف الكتابات العربية التي يمكن للباحث في الآثار الإسلامية الاستفادة من أشكال حروفها سواء كانت حروفا مفردة أو متصلة بحروف سابقة أو لاحقة مبتدأة أو وسطى أو منتهية ومقارنتها بسائر الكتابات على الفنون التطبيقية أو الصناعات الفنية أو العمائر الدينية أو المدنية أو الحربية والتي في اعتقادي كانت تنهج منهج قاعدة كتابية تختص بالحرف نفسه على الرغم من اختلاف طرق التنفيذ والتي اعتقد أنها أصعب الطرق التنفيذية عن سائر الصناعات الأخرى والتي يلزمها اتباع طرق خاصة سواء بحفر الكتابات حفراً مباشراً على القالب الفولاذي أو حتى

قوالب الاستنساخ[٤٩] تلك التي تتم فيها الكتابات مروراً بمراحل كثيرة تبتدىء بنقش الحروف غائرة ومقلوبة حتى تعطي كتابات عربية ذات حروف سليمة على المعدن ذهباً كان أم فضة أم نحاساً.



١ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامشه كلمة [جيد].



٢ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامشه كلمة [لله الحمد].



٣ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامشه كلمة [بسم الله].

لوحة رقم [١]. دراهم فضة في مرحلة التعريب على النمط الساساني.

(عن: Walker, *Arab-Sassanian Coins,* PL.1, PL.XX11, no, 5)

(٤٩) منصور بن بعرة الكاملي، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمي (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م)، ص ٢٤؛ فهمي، موسوعة النقود، ص ٢٧.




١ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامشه عبارة [بسم الله - محمد رسول الله].




٢ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامشه عبارة [بسم الله - ربّي].




٣ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامشه عبارة [بسم الله - الملك].

لوحة رقم [٢]. دراهم فضة في مرحلة التعريب على النمط الساساني.

(عن Walker, *Arab-Sassanian Coins*, Pl. XIX, no.9, Pl. IV ورقم ٣ من Pl.III)




١ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامشه عبارة [بسم الله ـ العزيز].




٢ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامشه عبارة [بسم الله ولي الأمر].




٣ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في هامش وجهه [بسم الله ـ لا إله إلا الله ـ وحده ـ محمد رسول الله]. وفي مركز ظهره [دمشق ـ أربع وسبعين].

لوحة رقم [٣]. دراهم فضة في مرحلة التعريب على النمط الساساني.

(عن: Walker, *Arab-Sassanian Coins*, PLs. XV, XXXI)




١ ــــ درهم فضة في هامش وجهه [بسم الله - لاحكم إلا الله].




٢ ــــ درهم فضة في هامش وجهه [لا حكم إلا الله].




٣ ــــ درهم فضة في هامش وجهه [لا حكم إلا لله]

لوحة رقم [٤]. دراهم فضة على النمط الساساني ضرب قطري بن الفجاءة:

(عن: العش، النقود العربية الإسلامية في متحف قطر، رقم ١٤١، لوحة ٦، وكنز أم حجرة، لوحة رقم ١٦٦)



١ ــ درهم فضة في هامش وجهه في سطرين [الحجاج بن/ يوسف].

٢ ــ درهم فضة في هامش وجهه في سطرين [الحجاج بن/ يوسف].

لوحة رقم [٥]. دراهم الحجاج بن يوسف على النمط الساسانى

(عن: Walker, *Arab-Sassanian Coins*, PL. XXI, no. 8 ; والعش، **كنز أم حجرة**، لوحة ٩ رقم ٢٠٠).




١ ــ درهم فضــة في مرحلة التعريب يحمل في مركز الوجه حول صورة كسرى عبارة [ضرب في سنة/ خمس/ وسبعين]. وفي هامشه [بسم الله ـ لا إلا إلا الله ـ وحده محمد ر/سول الله. وفي الظهر في المركز صورة الخليفة الواقف وعلى يمينه [أمير المؤمنين] وعلى يساره [خلفت الله]




٢ ــ درهم فضة في مرحلة التعريب في دائرة وجهه [بسم الله لا ا ـ له إلا الله و ـ حده محمد رسول الله] وفي الظهر في المركز محراب أسفله سهم أو حربة وعلى يمين المحراب [أمير المؤمنين] وعلى يساره [خلفت الله] وداخل المحراب على يمين الحربة [نصره] وعلى يسار الحربه لفظ الجلاله [الله].

لوحة رقم [٦]. دراهم فضة للخليفة عبد الملك بن مروان على النمط الساساني و في مرحلة التعريب:

(عن: Walker, *Arab-Sassanian Coins* (p., 25, PL XXXI, no, 5)

حعط

لله الحمد

لسم الله

لسم الله الملك

لسم الله العرلا

لسم الله ولي الامر

لسم الله رب الحكم

لسم الله ربي

لسم الله محمد رسول الله

لسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله

لا حكم الا لله

لسم الله لا حكم الا لله

لسم الله محمد

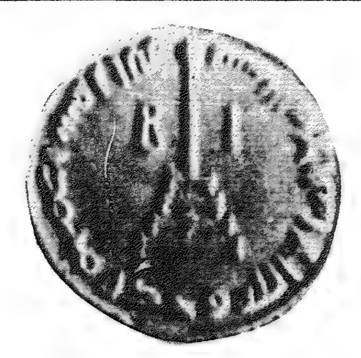
الحجاج بن يوسف

لسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله ــــ ملك وسسلر دمسو

ارسرو سسلر دمسو صرب ع سله حمسر و سسلر

امير المومنين خلفة الله

لوحة رقم [٧]. تفريغ لكتابات الدراهم الفضية في مرحلة الانتقال من الساساني وحتى تعريب عبد الملك الكامل للدرهم. (راجع جدول الحروف، لوحة ٤٦)




١ ــ دينار في مرحلة التعريب في الوجه صورة الإمبراطور ووليديه وفي الظهر كرة تعلو قائم على مدرجات أربعة وعلى يمين القائم حرف B وعلى يساره حرف I باللغة الاتينية ويحيط المركز هامش يدور مع اتجاه عقرب الساعة نصه [بسم الله لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله].




٢ ــ الخطوة الثانية من خطوات التعريب في الوجه الخليفة الواقف متمنطقا سيفه يدور حوله هامش مع عقارب الساعة نصه [بسم الله لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله].
وفي الظهر الكرة التي تعلو القائم والمدرجات ثم هامش يدور مع عقارب الساعة يحمل تاريخ سنة [أربع وسبعين].




٣ ــ دينار على نسق رقم (٢) عدا سنة الضرب التي حملها الدينار وهي سنة سبع وسبعين.

لوحة رقم [٨]. دنانير ذهب أموية في مراحل التعريب
وفي فترة الانتقال من البيزنطي إلى التعريب الكامل.

(Walker, *Arab-Byzantine*, PL. VIII. :عن)

بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله

بسم الله لا اله الا الله و حده محمد رسول الله

بسم الله ضرب هذا الدينر سنة اربع وسبعين
خمس وسبعين
ست وسبعين
سبع وسبعين

لوحة رقم [٩]. تفريغات لكتابات الدنانير الأموية في مراحل التعريب الكامل منذ سنة اربع وسبعين وحتى سنة سبع وسبعين (راجع جدول الحروف، لوحة ٤٦)



لوحة رقم [١٠]. فلوس نحاس اموية في مرحلة التعريب تحمل صورة عبد الملك بن مروان واقفا في الوجه وفي الظهر كرة يقطعها قائم على مدرجات ثلاثة ويدور حول الوجه - والظهر نصوص كتابية وتحمل الارقام ١، ٢، ٣. (عن: Walker, *Arab -Byzantine*, PLs., VI, VII)



لوحة رقم [١١]. فلوس نحاسية اموية في مرحلة التعريب يحمل بعضها صورة عبد الملك بن مروان واقفا في الوجه وفي الظهر حرف M أو m أو الكرة الفلكية التي يقطعها القائم على مدرجات اربعة وتحمل ارقام ١، ٢، ٣. (رقم ١ أو ٢ عن: Walker, *Arab -Byzantine*, PLs., VI, VII) (ورقم ٣ عن: مجلة اليرموك للمسكوكات، المجلد الأول، العدد الأول، لوحة١).

لبسد الله عبد الملك امير المومنين
لا اله الا الله وحده محمد رسول الله

لوحة رقم [١٢]. تفريغات لكتابات وردت على فلوس اموية في مرحلة التعريب: (راجع جدول الحروف، لوحة ٤٦)

امير المومنين
خليفة الله
لا اله الا الله وحده محمد

لبسد الله عبد الملك امير المومنين
لا اله الا الله وحده محمد رسول الله

[بسم الله عبد الملك أمير] المومنين
لا اله الا الله وحده [محمد رسول] الله

لوحة رقم [١٣]. تفريغات لكتابات وردت على فلوس عبد الملك بن مروان في مرحلة التعريب:
(راجع جدول الحروف، لوحة ٤٦)




١ ــ دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة سبع وسبعين.




٢ ــ دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة ثمان وسبعين.




٣ ــ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة تسع وسبعين.

٤ ــ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة ثمنين.

٥ ــ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة إحدى وثمين.

لوحة رقم [١٤]. دنانير ذهبية أموية معربة تعريبا كاملاً من سنة ٧٧هـ ـ ٨١هـ

(رقم ١ من مجموعات المتحف الإسلامي بالقاهرة) «بإذن سابق» (والأرقام من ٢ إلى ٥ من مجموعة الأستاذ قوزملى أحد الهواة الأتراك باستانبول) (بإذن خاص مصورة لمتحف كلية الشريعة بمكة)



٦ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة ثنتين وثمنين.



٧ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة ثلث وثمنين.



٨ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة أربع وثمنين.



٩ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة خمس وثمنين.



١٠ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة ست وثمنين..



١١ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة سبع وثمنين..



١٢ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة ثمان وثمنين..



١٣ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة تسع وثمنين..



١٤ ـ ظهر دينار ذهب معرب تعريبا كاملا يحمل تاريخ سنة تسعين.

لوحة رقم [١٥]. دنانير ذهبية أموية من سنة ٨٢هـ ـ ٩٠هـ

(عن. مجموعة قوزملي بإستانبول)



١٥ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة إحدى وتسعين.



١٦ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثنتين وتسعين.



١٧ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثلث وتسعين.



١٨ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة أربع وتسعين.

١٩ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة خمس وتسعين.



٢٠ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ست وتسعين.



٢١ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة سبع وتسعين.

٢٢ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثمان وتسعين.





٢٣ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة تسع وتسعين.

لوحة رقم [١٦]. دنانير أموية تحمل تاريخ من سنة ٩١ ـ ٩٩هـ

(عن: مجموعة قوزملي بإستانبول)



٢٤ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة مئة.



٢٥ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة إحدى ومئة.



٢٦ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثنتين ومئة.



٢٧ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثلث ومئة.



٢٨ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة أربع ومئة.

٢٩ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة خمس ومئة.



١٢٩ ــ دينار ذهب أموي ضرب معدن أمير المؤمنين بالحجاز سنة خمس ومئة.

لوحة رقم [١٧]. دنانير اموية تحمل تاريخ من سنة ١٠٠ ـ ١٠٥هـ

(عن: مجموعة قوزملي بإستانبول) (عن: فهمي، **الموسوعة**، لوحة٥)



٣٠ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ست ومئة.



٣١ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة سبع ومئة.



٣٢ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثمان ومئة.



٣٣ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة تسع ومئة.



٣٤ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة عشر ومئة.



٣٥ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة إحدى عشر ومئة.



٣٦ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة اثنى عشرة ومئة.



٣٧ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثلث عشرة ومئة.



٣٨ ـ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة أربع عشرة ومئة.

لوحة رقم [١٨]. دنانير أموية تحمل تاريخ من سنة ١٠٦ ـ ١١٤هـ

(عن: مجموعة قوزملي)



٣٩ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة خمس عشرة ومئة.



٤٠ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة ست عشرة ومئة.



٤١ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة سبع عشرة ومئة.



٤٢ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة ثمان عشرة ومئة.



٤٣ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة تسع عشرة ومئة.



٤٤ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة عشرين ومئة.



٤٥ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة إحدى وعشرين ومئة.



٤٦ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة ثنتين وعشرين ومئة.



٤٧ ــ ظهر دينـار يحمل تاريخ سنة ثلث وعشرين ومئة.

لوحة رقم [١٩]. دنانير أموية تحمل تاريخ من سنة ١١٥ ــ ١٢٣هـ

(عن: مجموعة قوزملي)



٤٨ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة أربع وعشرين ومئة .



٤٩ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة خمس وعشرين ومئة .



٥٠ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ست وعشرين ومئة .



٥١ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة سبع وعشرين ومئة .



٥٢ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثمان وعشرين ومئة .



٥٣ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة تسع وعشرين ومئة .



٥٤ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثلثين ومئة .



٥٥ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة إحدى وثلثين ومئة .



٥٦ ــ ظهر دينار يحمل تاريخ سنة ثنتين وثلاثين ومئة .

لوحة رقم [٢٠]. دنانير أموية تحمل تاريخ من سنة ١٢٤ ــ ١٣٢هـ

(عن مجموعة قورملي)




١ ــ نصف دينار ضرب سنة إحدى وتسعين.




٢ ــ نموذج ثان لنصف دينار ضرب سنة إحدى وتسعين.




٣ ــ نصف دينار ضرب سنة أربع وتسعين.

لوحة رقم [٢١]. أنصاف دنانير ذهب أموية

(عن: مجموعة قوزملي)




١ ــ ثلث دينار ضرب سنة إحدى وتسعين.




٢ ــ ثلث دينار ضرب سنة ثنتين وتسعين .




٣ ــ ثلث دينار ضرب سنة أربع وتسعين.

لوحة رقم [٢٢]. أثلاث دنانير ذهب اموية.

(عن: مجموعة قوزملي)




٤ ـــ ثلث دينار ضرب سنة ست وتسعين




٥ ـــ ثلث دينار ضرب سنة تسع وتسعين.




٦ ـــ ثلث دينار ضرب سنة ميه




٧ ـــ ثلث دينار ضرب سنة ثلث ومية.

لوحة رقم [٢٣]. أثلاث دنانير أموية.

(عن: مجموعة قوزملي)

وجه

مركز	هامش
لا اله الا الله وحده لا سريك له	محمد رسول الله ارسله بالهدى ودىں الحو لىظهره على الدىں كله

ظهر

مركز	هامش
الله احد الله الصمد لم ىلد ولم ىولد	ىسم الله ضرب هذا الدىنر سىه سىع و سىعىں

سنوات الضرب

ىمان	ىمىں	عسر
ىسع	ىىلىں	احدى عسره
احدى	مىه	اىىى . اىىى عسره
ىىں		عسرىں
ىلث		ىىں وعسرىں
اربع		ىلىں
خمس		
ست		
سىع		

اجزاء الدنانير

ظهر دينار معدن امير المؤمنين بالحجاز	مركز	ظهر
الله احد الله الصمد لم ىلد ولم ىولد معدن امىر المومنىں بالحجار	لا اله ا لا الله وحده	ىسم الله الرحمں الرحىم

هامش: معدں امىر و مىىه

هامش: ضرب هذا النصف

هامش: ضرب هذا الثلث

لوحة رقم [٢٤]. تفريغ لكتابات الدنانير واجزائها في العصر الاموي



١ ــ درهم فضة ضرب إصطخر في سنة تسع وسبعين

٢ ــ درهم فضة ضرب جى في سنة تسع وسبعين

٣ ــ درهم فضة ضرب أردشيرخره في سنة تسع وسبعين

لوحة رقم [٢٥]. دراهم فضية أموية

(عن: Walker, *Arab-Byzantine Coins*, PL., XIV, no. 268, PL. XIV, no. 325.)




٤ ـــ درهم فضة ضرب في جندي سابور في سنة ثمنين.




٥ ـــ درهم فضة ضرب اليابان في سنة إحدى وثمنين.




٦ ـــ وجه درهم ضرب في سنة إحدى وثمنين.

٧ ـــ وجه درهم ضرب في سنة إثنين وثمنين.

لوحة رقم [٢٦]. دراهم فضية اموية

(عن: Walker, *Arab-Byzantine Coins*, PL., XVI, nos, 309, 319,327)



٨ ــ وجه درهم ضرب في جي في سنة أثلث [كذا] وثمنين

٩ ــ وجه درهم ضرب في ابرقباذ [كذا] في سنة ثلث وثمنين

١٠ ــ وجه درهم ضرب أردشيرخره في سنة تسعين.

١١ ــ وجه درهم ضرب في إصطخر في سنة تسعين

١٢ ــ وجه درهم ضرب التيمره في سنة تسعين.

١٣ ــ وجه درهم ضرب جندي سابور في سنة تسعين.

لوحة رقم [٢٧]. دراهم فضية اموية

(عن: Walker, *Arab-Byzantine Coins*, PLs., XVI, nos, 328, XVI,nos, 328, XVI, nos 369, ANs 24.)



١٤ ـ وجه درهم أموي ضرب جي في سنة تسعين



١٥ ـ وجه درهم أموي ضرب بهقباذ الأوسط في سنة تسعين



١٦ ـ وجه درهم أموي ضرب جندي سابور في سنة إحدى وتسعين



١٧ ـ وجه درهم أموي ضرب ابرشهر في سنة اثنتين وتسعين



١٨ ـ وجه درهم أموي ضرب ابرشهر في سنة ثلث وتسعين



١٩ ـ وجه درهم أموي ضرب التيمره في سنة أربع وتسعين

لوحة رقم [٢٨]. دراهم فضية اموية

(عن: Walker, *Arab-Byzantine Coins*, PLs. XIV, nos. 253, 254, XVI, nos. 312, 321, 329, ANs, 22. 23).



٢٠ ــ وجه درهم أموي ضرب أردشيرخره في سنة خمس وتسعين.

٢١ ــ وجه درهم أموي ضرب أبرشهر في سنة خمس وتسعين

٢٢ ــ وجه درهم أموي ضرب اصطخر في سنة خمس وتسعين.

٢٣ ــ وجه درهم أموي ضرب التيمرة في سنة ثمان وتسعين

٢٤ ــ وجه درهم أموي ضرب أرمينيه في سنة تسع وتسعين

٢٥ ــ وجه درهم أموي ضرب أرمينيه في سنة ثمان ومية

لوحة رقم [٢٩]. دراهم فضية اموية

(عن: Walker, *Arab-Byzantine Coins*, PLs., XN, nos, 261, 265. XVI, nos., 256, 274, ANs, 23.)




٢٦ ـ درهم فضة ضرب بلخ في سنة خمس عشرة وميه



٢٧ ـ وجه فضة ضرب بلخ في سنة ثمان وعشرين وميه



٢٨ ـ وجـه فضة ضرب الجزيرة في سنة ثمان وعشرين وميه



٢٩ ـ وجـه فضة ضرب الجزيرة في سنة ثلثين وميه

لوحة رقم [٣٠]. دراهم فضية أموية

(عن: Walker, *Arab-Byzantine Coins*, nos., 307, 308, 316, 318.)

ظهر		وجه	
الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد	مركز	لا اله الا الله وحده لا شريك له	مركز
محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.	هامش	بسم الله ضرب هذا الدرهم باصطخر في سنة تسع وستين	هامش

مدن الضرب

جى - امار - جندي سابور - اصهاد - ارد سيرخره
السمره - اصهاد الاوسط - ابرشهر - ارمينية - بلخ -
الجزيرة.

سنوات الضرب

تسع	ستين	خمس عشره
احدى	ثمن - ثمنين	ثمان وعشرين
احدا	سبعين	ثلثين
اثس (كذا)	مئه	
اثلث (كذا)		
ثلث		
اربع		
خمس		
ثمان - ثمان		
تسع		

لوحة رقم [٣١]. تفريغات لحروف كتابات نصوص الدراهم الفضية الاموية

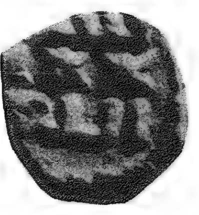
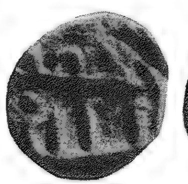
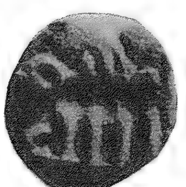
(تفريغ لكتابات الدراهم الاموية)




١ ــ فلس أموي في الوجه [لا إله إلا / الله وحده/ لاشريك له]
في الظهر [أمر الله/ بالوفاء و/ العدل].




٢ ــ فلس أموي في الوجه [لا إله /الا الله/ وحده]
في الظهر [مثل رقم[١]].

٣ ــ فلس أموي في الوجه
[بسم الله].
في الظهر [محمد رسول ا] لله.

٤ ــ فلس أموي في الوجه
[بسم ★ / الله]
في الظهر [الزكه ـ كذا ـ/ الله]

لوحة رقم [٣٢]. فلوس أموية نحاسية وبرونزية بعبارات البسملة والتوحيد والوفاء والعدل

(عن: Walker, *Arab-Byzantine*, PL. XXV, nos., 727, 729, 738.)




٥ ــ فلس أموي في الوجه [بسم]

★

الله

فى الظهر [محمد ٥ ٥ ٥]

(٥)

[ر] سول الله]




٦ ــ فلس أموي في الوجه [بسم

★

الله

في الظهر [مـ] حمد

الله [رســ]ول الله




٧ ــ فلس أموي في الوجه [بسم الله/ الملك لله]

في الظهر محمد

★

رسول الله.

لوحة رقم [٣٣]. فلوس أموية نحاسية وبرونزية بعبارات البسملة والتوحيد

(عن: Walker, *Arab-Byzantine*, PL. XXV, nos., 117, 740, 742.




٨ ــ فلس أموي في الوجه ٥ (ر) ٥

سول الله

في الظهر الملك [٥ (٥ ٥ ٥

لله




٩ ــ فلس أموي في الوجه: محمد رسول الله

في الظهر: الملك لله




١٠ ــ فلس أموي في الوجه: محمد ر / رسول الله

في الظهر : نفقة في سبيل الله

لوحة رقم [٣٤]. فلوس أموية نحاسية وبرونزية بعبارات دينية

(عن: Walker, *Arab-Byzantine*, PL. XXV, nos., 118, 119, 120.)




١١ ـــ فلس نحاس:

في الوجه	في الظهر
محمد ر	نفقه
سول الله	سبيل الله




١٢ ـــ فلس نحاس في الوجه: لا إله/ إلا الله/ وحده

في الظهر : محمد / رسول/ الله

هامش يدور في عكس اتجاه عقرب الساعة نصه [بسم الله ضرب بالأردن]




١٣ ـــ فلس نحاس

في الوجه: في ثلاثة سطور

الله

احد الله

الصمد

وهامش عكس اتجاه عقرب الساعة نصه

[لا اله الله وحده لا شريك له]

وفي الظهر: ثلاثة سطور متوازية

محمد/ رسول/ الله

وهامش عكس اتجاه عقرب الساعة نصه:

[بسم الله ضرب هذا الفلس بارمينية وجاز]

لوحة رقم [٣٥]. فلوس اموية نحاسية وبرونزية

(عن: Walker, *Arab-Byzantine*, PL. XXV, nos., 13, 743, 746:)




١٤ ـــ فلس في الوج: في ثلاثة اسطر

لا اله / الا الله / وحده

وهامش في الوجه عكس اتجاه عقرب الساعة نصه [بسم الله مما أمر به]

وفي الظهر

محمد / رسول / الله

وهامش في الظهر نصه [بسم الله ضرب هذا الفلس بارمينية]




١٥ ـــ فلس في الوجه في ثلاثة سطور يعلوها نجمه

الحمد لله / محمد ر / سول اللـ[ـه]

في الظهر نجمه

ونص هو ضرب اطـ[ر]/ بلس سنة / مئة.




١٦ ـــ فلس في الوجه في اربعة سطور بسم الله / لا إله إلا الله وحده لا شر / يك له

في الظهر [الحمد لله ضرب باطر / بلس / سنه / عشرين

لوحة رقم [٣٦]. فلوس اموية نحاسية وبرونزية

(Walker, *Arab-Byzantine*, PL. XXV, nos., 748, 750, p122. :عن)




١٧ ــ فلس أموي مثل رقم (١٦)




١٨ ــ فلس في المركز ثلاثه اسطر

محمد / رسول / الله

في هامش الوجه عكس اتجاه عقرب الساعة [ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله].

في الظهر في المركز نص [بأمر/ مرون بن/ بشير]

وهامش عكس اتجاه عقرب الساعة

[بسم الله ضرب هذا الفلس بحمص]




١٩ ــ فلس في المركز في ثلاثة اسطر

لا اله / الا الله / وحده

وهامش عكس اتجاه عقرب الساعة نص:

[ضرب هذا الفلس سنة عشر وميه]

في الظهر في ثلاثة أسطر

[محمد / رسول / الله]

وفي هامش الظهر عكس اتجاه عقرب الساعة [بسم الله ضرب هذا الفلس بحمص]

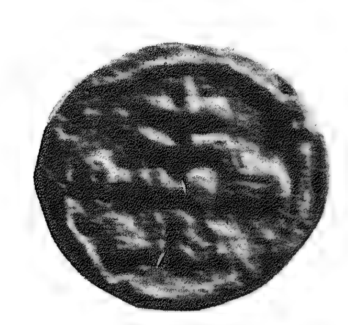
لوحة رقم [٣٧]. فلوس اموية نحاسية وبرونزية

(عن: .Walker, *Arab-Byzantine,* PLs. XXV, nos., 751, XXVII, p. 128, 807



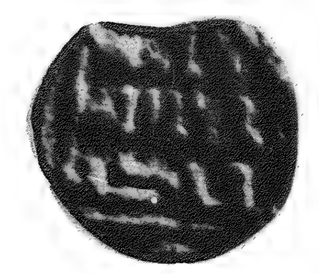

٢٠ ــ وردت في المركز وردة من ست بتلات ✱ حولها هامش يدور اتجاه عقرب الساعة ونصه [لا إله إلا الله وحده].

وفي الظهر وردت نجمة خماسية في المركز ★ حولها هامش عكس اتجاه عقرب الساعة نصه: [ضرب هذا الفلس بدمشق]




٢١ ــ فلس في الوجه في ثلاثة أسطر نصه: [لا اله/ الا الله / وحده]

وفي الظهر شجيرة ذابت خمس ورقات واسفلها عبارة [دمشق / جائز]

٢٢ ــ فلس مماثل لرقم (٢١)

لوحة رقم [٣٨]. فلوس اموية نحاسية وبرونزية ضرب دمشق

(Walker, *Arab-Byzantine*, PL. XXVII, nos., 812, XXVII, 816, The. 15. :عن)




٢٣ ـ فلس أموي في الوجه في ثلاثة أسطر نص٠ [لا اله/ الا الله / وحده]
وفي الظهر وردة من ست بتلات ونص [ضر ★ / ب ن بدمشـ[ـق].




٢٤ ـ فلس أموي في الوجه نص في ثلاثة اسطر [لا اله / الا الله / وحده وفي الظهر ن
محمد / رسول الله / دمشق




٢٥ ـ فلس أموي في الوجه نص في ثلاثة سطور [لا اله / الا الله / وحده]
في الظهر [ضرب / بدمشق / للفس ★ ن ★]

لوحة رقم [٣٩]. فلوس اموية نحاسية وبرونزية ضرب دمشق

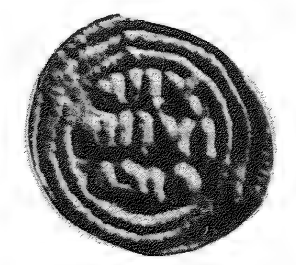
(عن: Walker, *Arab-Byzantine*, PL, XXXVII, nos., 819, 822, 828)




٢٦ ـ فلس أموي في الوجه في ثلاثة أسطر [لا اله/ الا الله / وحده]
وفي الظهر نص :[ضرب / هذا / الفلس / بدمش]
في هامش الظهر نص غير مقروء




٢٧ ـ فلس أموي في الوجه في ثلاثة أسطر [لا اله / الا الله / وحده] وفي مركز الظهر [ضرب / هذا / الفلس / بدمشق]
وهامش يدور عكس اتجاه عقرب الساعة [بسم الله ربي الله محمد رسول الله]

٢٨ ـ فلس أموي مثل رقم (٢٧) تماما.

لوحة رقم [٤٠]. فلوس أموية نحاسية وبرونزية ضرب دمشق

(عن: Walker, *Arab-Byzantine*, PL., XXVII, nos., 829, p.129, 832)




٢٩ ـ فلس أموي في الوجه نص [بسم الله] في الظهر نص [الحمد لله]




٣٠ ـ فلس أموي في الوجه نص: [لا إله / الا الله / وحده] في الظهر نص في ثلاثة أسطر أيضا ففي المركز [محمد / رسول / الله]

وهامش في الظهر يدور عكس اتجاه عقرب الساعة [بسم الله ضرب هذا الفلس في دمشق]




٣١ ـ فلس أموي مثل رقم (٣٠) وبدلا من (في) نقشت «باء» فصارت الكلمة «بدمشق».

لوحة رقم [٤١]. فلوس أموية ضرب دمشق .

(عن: (Walker, *Arab-Byzantine,* PL, XXVI,nos. 734, pl XXVII, nos., 835, 836)



٣٢ ــ فلس أموي مثل رقم (٣٠)



٣٣ ــ فلس أموي في مركز الوجه نص من ثلاثة أسطر [لا اله/ الا الله/ وحده]
وفي هامش الوجه عكس اتجاه عقرب الساعة نص [أمر به عبد الله الوليد أمير المؤمنين]
وفي الظهر ثلاثة أسطر نصها [محمد / رسول/ الله]
وهامش الظهر يسير عكس اتجاه عقرب الساعة ونصه [بسم الله ضرب هذا بدمشق سنه سبع وثمنين].



٣٤ ــ فلس أموي: الوجه به نص من ثلاثة اسطر [ضرب/ بدمشق/ سنة] ويستكمل النص في الظهر [ست و / عشرين/ ومية].

لوحة رقم [٤٢]. فلوس أموية نحاسية وبرونزية ضرب دمشق

(عن: Walker, *Arab-Byzantine*, PL, XXVII, nos., 838, p. 130, 841)



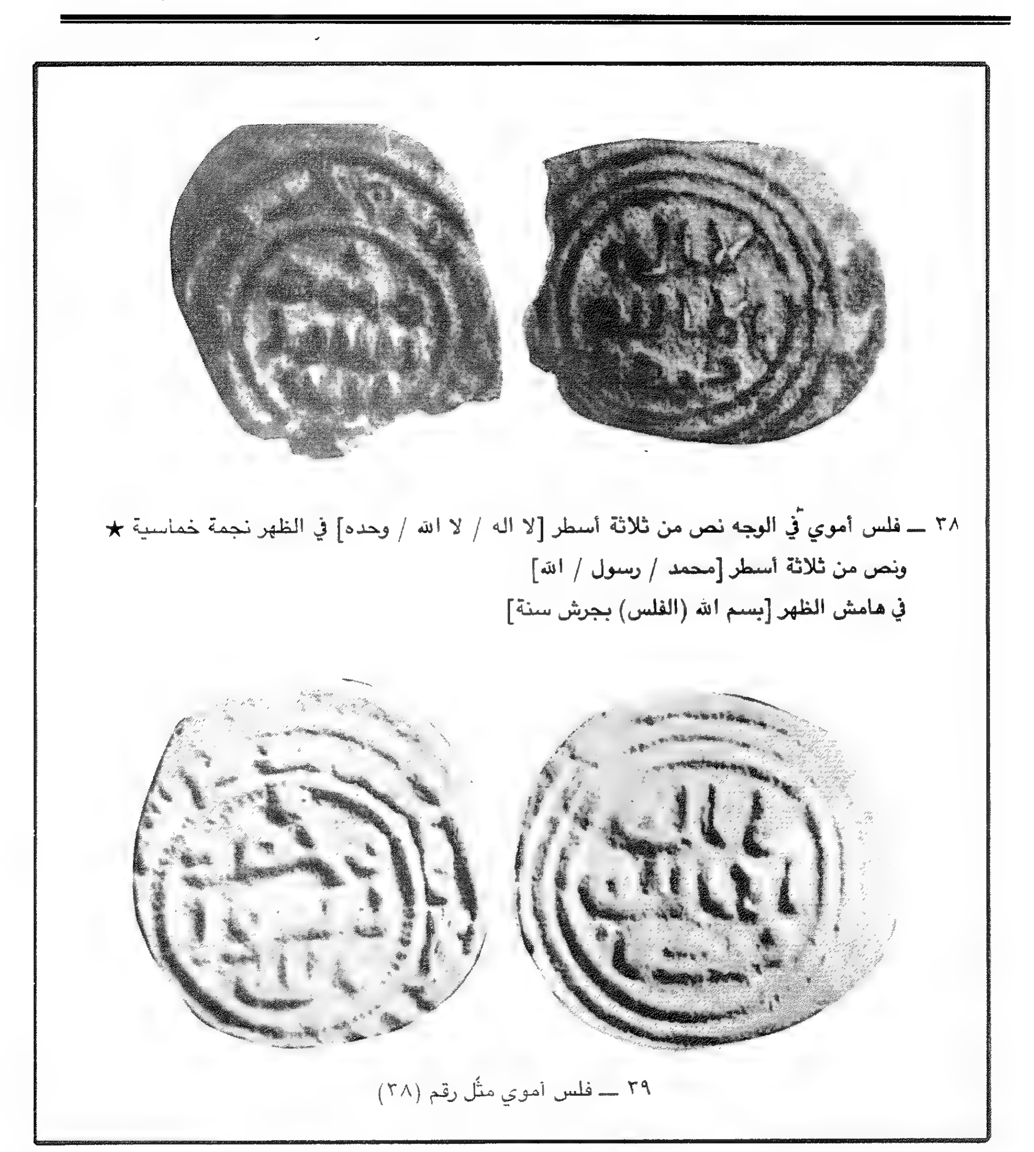
٣٥ ــ فلس أموي في مركز الوجه نص [لا اله / الا الله / وحده]
وفي مركيز الظهر [ورده أو شجيره على هذا النحو ←
ونص [بسم الله ضرب الفلس بالرمله].

٣٦ ــ فلس أموي مثل رقم (٣٥)

٣٧ ــ فلس أموي في الوجه نص من ثلاثة أسطر: [لا اله ا / لا الله / وحده]
وفي الظهر شجيره ونص من ثلاثة أسطر [محمد / رسول / الله]
هامش الظهر عكس اتجاه عقرب الساعة مثل رقم (٣٥)

لوحة رقم [٤٣]. فلوس أموية نحاسية وبرونزية ضرب «الرملة»

(Walker, *Arab-Byzantine*, PL. XXVII, nos., 846, 848, p.131. :عن)

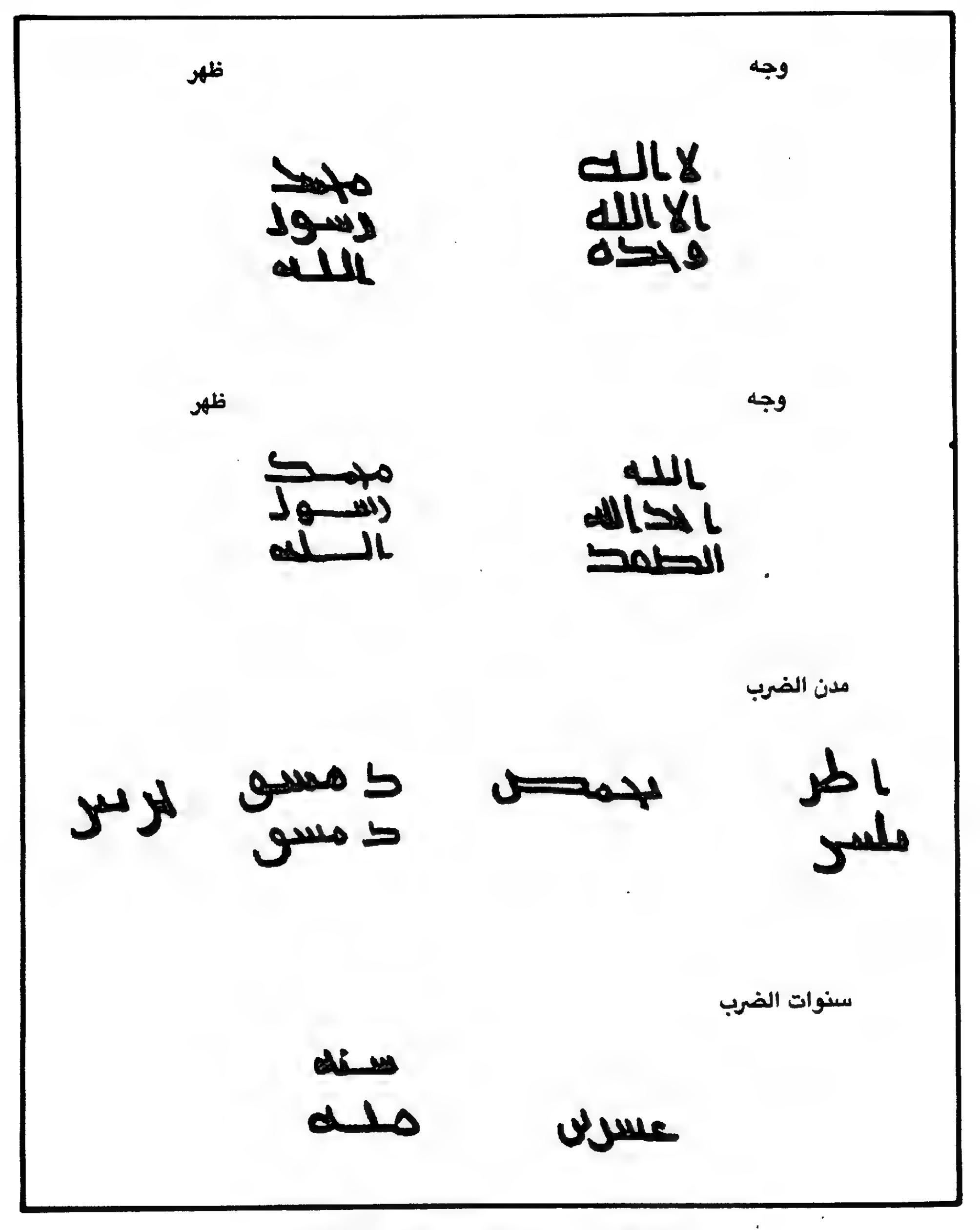


٣٨ ــ فلس أموي في الوجه نص من ثلاثة أسطر [لا اله / لا الله / وحده] في الظهر نجمة خماسية ★ ونص من ثلاثة أسطر [محمد / رسول / الله]
في هامش الظهر [بسم الله (الفلس) بجرش سنة]

٣٩ ــ فلس أموي مثل رقم (٣٨)

لوحة رقم [٤٤]. فلوس أموية نحاسية وبرونزية ضرب جرش

(عن: رأفت النبراوي، «فلوس عمان وجرش»، **مجلة اليرموك للمسكوكات** لوحة ٥، مسلسل ٩، ١٠)



لوحة رقم [٤٥]. تفريغ لكتابات الفلوس الأموية

لوحة رقم [٤٦]. جدول الحروف العربية على نقود مرحلة التعريب في العصر الأموي

الحروف الهجائية	على الدنانير				على الدراهم				على الفلوس			
	المفرد	الأول	الأوسط	الأخير	المفرد	الأول	الأوسط	الأخير	المفرد	الأول	الأوسط	الأخير
ا	ا				ا ا ا ا ا				ا ا			
ب ت ث		بـ		ـب		بـ بـ		ـب		بـ بـ	ـبـ	ـب ـب
ج ح خ	ح		ـحـ			حـ حـ	ـحـ	ـح		حـ	ـحـ	ـح ـح
د ذ	د			ـد	د			ـد ـد ـد				ـد ـد
ر ز	ر				ر ر			ـر	ر			ـر
س ش	س						ـسـ ـسـ	ـس		سـ	ـسـ	
ص ض		صـ				صـ						ـص
ط ظ										ط		
ع غ			ـعـ	ـع		عـ عـ	ـعـ	ـع ـع ـع		عـ عـ	ـعـ	
ف						فـ		ـف				
ق								ـق			ـقـ	
ك							ـكـ	ـك				ـك
ل	ل	لـ	ـلـ	ـل		لـ	ـلـ		ل		ـلـ ـلـ	
م		مـ	ـمـ	ـم		مـ	ـمـ ـمـ	ـم ـم ـم		مـ	ـمـ	
ن				ـن				ـن		نـ		
هـ	ه ه			ـه	ه			ـه ـه ـه				ـه
و	و			ـو	و و			ـو ـو	و			ـو
لا	لا لا لا				لا				لا			
ى			ـيـ			يـ	ـيـ	ـى		يـ	ـيـ	

لوحة رقم [٤٧]. جدول الحروف العربية على النقود العربية الخالصة في العصر الأموي

الحروف الهجائية	على النقود الذهبية				على الدراهم				على الفلوس			
	المفرد	الأول	الأوسط	الأخير	المفرد	الأول	الأوسط	الأخير	المفرد	الأول	الأوسط	الأخير
ا												
ب ت ث												
ج ح خ												
د ذ												
ر ز												
س ش												
ص ض												
ط ظ												
ع غ												
ف												
ق												
ك												
ل												
م												
ن												
هـ												
و												
لا												
ى												

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الثاني، ٣٧٩ ـ ٣٩٦ (١٩٩٣م).

قصور المتوكل في شعــر البحتري

للدكتورة نورة الشملان

ملخص البحث : تناولت هذه الدراسة قصور المتوكل كما رسمتها أبيات البحتري، وقد اعتمدت الدراسة على المقابلة بين ما ذكره المؤرخون وما قاله البحتري، وبالبحث في ديوان البحتري عن تلك القصور المنسوبة للمتوكل، تبين الاضطراب الشديد في نسبة القصور إلى أصحابها. وبينت الدراسة أن وصف القصور كان عند الشاعر وسيلة وليس غاية، وأنه غالبا ما كان يزاوج بين الوصف والمدح، ويقطع أحياناً على قارئه لذة الوصف بإقحام المدح. كما بينت الدراسة أن هذا الفن ولد عند البحتري حين اتصل بالمتوكل، وأنه في البداية كان عبارة عن وقفات قصيرة لا تشبع نهم الباحث، وأن هذا الفن نضج فيما بعد، وتمثل هذا النضوج في وصف الشاعر لقصور المعتز والمعتمد، كما أظهرت دراسة شعر البحتري أنه لم يكن شديد الانبهار بمظاهر الحضارة والعمران، بل ظل ذلك البدوي العاشق للماء والخضرة والحيوان. ومن هنا فقد أبدع في وصف البرك والفوارات وحير الحيوان أكثر من إبداعه في رسم الرياش وروعة الفن المعماري.

وبينت الدراسة أن الشاعر حاول أن يربط بين الطبيعة والعمران وأن يجمع بين القديم والجديد، وأنه اعتمد على التأثير النفسي والشخصي، فالقصران يتعانقان ودجلة تغار من البركة.. الخ وبينت الدراسة أن وصف الشاعر لقصور المتوكل لا يدل على أنه عاش في تلك القصور وعرف خباياها، بل يدل على أن مكثه فيها لم يتجاوز الجلوس في حدائقها وحول بركها وتوقفت الدراسة عند غياب القصر الهاروني في شعر البحتري، وهو من قصور المتوكل المشهورة، ويعود ذلك إلى الوصف الرائع لهذا القصر في ديوان علي بن الجهم العدو اللدود للبحتري، ويرجح أن البحتري ربما أدرك أنه لن يضيف شيئا إلى ما قاله علي بن الجهم، وبخاصة وأنه لم يملك زمام هذا الفن بعد.

١ ـ علاقة البحتري بالمتوكل

من يتصفح ديوان البحتري يدرك العلاقة التي ربطت بينه وبين المتوكل، فقد بلغ عدد القصائد والمقطوعات التي قالها فيه خمساً وعشرين قصيدة ومقطوعة، وتتدرج هذه القصائد في الطول، فقد بلغ عدد أبيات أقصرها أحد عشر بيتاً، قالها مرحباً بالخليفة حين ذهب إلى دمشق في شهر صفر سنة ٢٢٤هـ، وقد روت كتب التاريخ أن المتوكل عزم على المقام بدمشق، ونقل دواوين الملك إليها، وأقام بها شهرين ثم عاد إلى سامراء[١] ومطلع القصيدة.

العيشُ في لَيْـل «داريّـا» إذا بردا
والرح نمــزجهــا بالمـاء من بردى [٢]

(١) ابن عساكر، أبوالقاسم علي بن أبي محمد الحسن (٤٤٩ ـ ٥٧١هـ)، تاريخ دمشق (بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٩م)، جـ٣، ص ١٧.

(٢) البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي (ت٢٨٤هـ)، ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨م)، جـ ٢، ص ٧٩.

أما أطول قصيدة قالها فيه فهي القصيدة التي مدح بها حين صالح بني تغلب، وقد بلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين بيتاً، وتطرق في هذه القصيدة إلى ذكر قصور المتوكل، وإن لم يصفها وصفاً مفصلاً، ومطلع القصيدة:

مُنى النَّفس في أسماء لو تستطيعُها
بهــا وجـدهـا من غادةٍ وولوعها[٣]

أما بقية القصائد فقد تنوعت موضوعاتها، فمنها قصائد التعزية والرثاء ويمثل ذلك قصيدته التي قالها في رثاء أم المتوكل والتي مطلعها:

غروبُ دَمـعٍ من الأجفـان تنهمِلُ
وحـرقـةٌ بغليـلِ الحـزن تشتعل[٤]

ومنها قصائد سياسية ـ إن صح هذا التعبير ـ ويمثل ذلك قصيدته التي قالها سنة ٢٢١هـ، وذلك حيث تمت المفـاداة بين الروم والمسلمـين، وقد ذكر المـؤرخون أن ملكة الروم «تدورة» قتلت من أسرى المسلمين اثنى عشر ألفاً وأرسلت تطلب المفاداة لمن بقي منهم فاستجاب المتوكل ووقع الفداء، وكان عدد المسلمين من الرجال سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً ومن النساء خمساً وعشرين امرأة.

ومطلع القصيدة:

قل للسحـاب إذا حدتـه الشمـأل
وسرى بليــل ركبـــهُ المـتـحـمــلُ

ويشير إلى خضوع الروم للخليفة فيقول:

ورأيت وَفـد الروم بعد عنادهم
عرفـوا فضـائلك التي لا تجهل

ويشير إلى دهشة وفد الروم من رقي دار الخلافة وما وصلت إليه من تقدم أذهلهم فيقول:

حضروا السماط فكلما راموا القرى
مالت بأيـديـهــم عقــول ذهَّــلُ
تهـوى أكـفـهـم إلى أفـواهـهـم
ممــا يرى أو ناظر متــأمــل
ويــود قومـهـم الألى بعـثـوا بهم
لو ضمهم بالأمس ذاك المحفـلُ[٥]

وبلغت علاقة البحتري بالمتوكل مبلغاً جعل المتوكل يستعين به في صناعة الشعر، فهو يطلب منه مراضاة جاريتـه قبيحـة أم المعتز، ويستجيب الشاعر لذلك فيخاطب قبيحة على لسان المتوكل قائلاً:

تَعَـالَيتِ عن وَصْـلِ المُعَنَّى بكِ الصَّبِّ
وآثـرتِ بعـد الدَّارِ منـا على القُـرْبِ
وحَـمَّـلتـنــي ذنـبُ الفـراق وإنــهُ
لذَنْـبِـكِ إن أنـصفتِ في الحُكْم لاذنْبي[٦]

وذكر الصولي أن قبيحة حين سمعت هذا الشعر عادت إلى المتوكل، وأن المتوكل وصل البحتري.[٧]

والمرجح أنه اتصل بالخليفة بعد اتصاله بالفتح ابن خاقان، فقد نقل يحي بن البحتري عن أبيه أنه قال: «أول مدَحَتْ به الفتح بن خاقان»

هب الدار ردت رجـع ما أنت قائله
وأبـدى الجواب الربع عما تسائله

وأنشدتها إياه في سنة ثلاث وثلاثين ومئتين[٨].

ويذكر أن الفتح اهتز طرباً لقوله:

وقـد قلت للمعـلي إلى المجـد طرفه
دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله
صفت مثلمـا تصفـو المدام خلاله
ورقت كمـا رقَّ النسيم شمائله

ويذكر أنه وصله بخمسة آلاف درهم وطلب منه أن يصنـع شعـراً ينشـده الخليفة بعد أن ينتهي من الصلاة والخطبة يوم عيد الفطر، فصنع قصيدة

---

(٣) البحتري، **ديوان**، جـ ٢، ص ١٢٩٦.
(٤) البحتري، **ديوان**، جـ ٣، ص ١٨٨٧.
(٥) راجع حول هذا الموضوع:
ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم (ت.٦٣٠هـ) **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، جـ ٧، ص ٧٦؛ البحـتـري، **ديـوان**، جـ ٣، ص ١٦٠٣؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٢٤٩هـ)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم (القاهرة: دار المعارف بمصر، د.ت)، جـ١، ص ٥٣.
(٦) البحتري، **ديوان**، جـ ١، ص ٣٩.
(٧) الصـولي، أبـو بكـر محمـد بن يحي (ت ٣٣٥هـ)، **اخبـار البحتري**، تحقيق صالح الأشتر، ط ٢ (دمشق: المجمع العلمي العربي، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م)، ص ٨٧.
(٨) الصولي، **اخبار البحتري**، ص ٩٣.

مطلعها:

أبـر على الأنـواء نائلك الغمـر
وبـنـت بفخـر ما يشـاكله فخـر

ويذكر أنه عندما بلغ إلى قوله:

بهـرت قلوب السـامعـين بخـطبـة
هي الزهـر المبثـوث واللؤلؤ النثر

التفت المتوكل إلى الفتح، وقال له: هذا شاعرك؟ فأخذ الفتح يصفه له فأمر له الخليفة بعشرة آلاف درهم، ويذكر أن الفتح صيَّره من جلساء المتوكل.[٩]

ومن يعـود إلى أول الخبـر والسنة التي حددها الصـولي - وهي سنـة ثلاث وثلاثين ومئتين - ويقرأ القصيـدة يجـد أن القصيـدة تتحـدث عن مسـير الخليفة إلى الشام بدليل قوله:

هنيئـاً لأهـل الشـام أنك سائر
إليهم مسير القطر يتبعه القطر

ومسير الخليفة إلى دمشق حدده المؤرخون بسنة مئتـين وواحد وأربعين للهجرة[١٠]، ومن هنا فإن هذه لم تكن القصيدة الأولى.

وقـد ذهب حسن كامـل الصـيرفي محقق ديوان البحتري إلى أن قصيدة البحتري الدالية التي مدح بها المتوكل هي أول قصائده فيه، وذكر أن البحتري قد قالها سنة ٢٣٥هـ، وربما استقام هذا الزعم مع مضمون القصيدة، فقد كانت قصيدة تقليدية جعل لها مقدمة غزلية رقيقة هي أجمل ما في القصيدة، ثم تحدث عن الممدوح حديثاً موجزاً ومدحه بصفات لا تشكـل أيـة خصـوصيـة للمتوكل مما يدل على أن العلاقة بينهما لم تتوطد بعد.

أقـول: إن ما يجعلنـا نتـردد في مجاراة محقق الديوان في أن هذه القصيدة هي أول قصيدة قالها البحتري في المتوكل ماجاء في أخبار البحتري للصولي من أن البحتـري قال: «كنت أمـدح المتوكل مقوِّماً لفـظي غير مرسل نفسي، فقال الفتح، وكان والله ما علمت قوى الأدب حسن المعرفة بالشعر - ليس بك حاجة في مدح أمير المؤمنين إلى مثل هذا، ليِّن كلامك حتى يفهم، فإنـه يلذ ما يفهم فعلمت أنه نصحني فمدحته بأشعاري التي منها:

لي حبيب قد لج في الهجـر جدا
وأعـاد الصـدود منـه وأبـدى

وهو مطلع القصيدة التي ذكر الصيرفي أنها من أوائل شعر البحتري في الخليفة، ويذكر أنه بعد أن رق شعره فيه قربه ووصله[١١]، ونستفيد من الخبر السابق أن هناك قصائد أخرى سبقت تلك القصيدة، ولعل في التعليق الذي أورده عبد القاهر الجرجاني على قصيـدة البحتري التي مدح بها المتوكل والتي مطلعهـا:

عن أي شغـر تبـتـسـم
وبـأي طرف تحـتـكـم

ما يفيد أن تلك كانت أول قصيدة قالها البحتري فـي المتوكـل.

قال عبد القاهر: «لا يمكـن ادعاء أن جميع شعر البحتري في قلة الحاجة إلى الفكر والغنى عن فضل النظر كقوله: فؤادي منك ملآن... وقوله: عن أي ثغر تبتسم.. وهل ثَقُلَ على المتوكل قصائده الجياد حتى قل نشاطه لها واعتناؤه بها إلا لأنه لم يفهم معانيها، كمـا فهم معـاني النـوع النـازل الذي انحـط له إليـه»[١٢] ومـمـا يعضـد هذا الخبر ما اجمعت عليه مصـادر كثـيرة من وقوع حادثة في مجلس المتوكل ملخصها أنه حين أنشد البحتري المتوكل قصيدته التي مطلعها:

عن أي ثغـر تبـتـسـم
وبـأي طرف تحـتـكـم

(٩) الصولي، اخبار البحتري، ص ٩٢.
(١٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ.
(١١) الصولي، اخبار البحتري، ص ١٧.
(١٢) الجرجاني، ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، اسرار البلاغة في علم البيان والبديع، تصحيح السيد محمد رشيد رضا، ط ١ (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص ١٢٤.

وكان على عادته التي عرف بها يختال ويتزاور في مشيته ويهز رأسه إعجابا بشعره ويخاطب نفسه قائلا: أحسنت والله، ثم يقبل على المستمعين ويقول: مالكم لا تقولون: أحسنت هذا والله لا يحسن أحد أن يقول مثله.

وهو على هذه الحالة من الفرح والإعجاب بالذات، فإذا بالمتوكل يغمز أحد جلسائه ـ وهو شاعر مشهور بخبث اللسان، ومن الحاقدين على البحتري لأنه زاحمه عند الخليفة. إنه الشاعر أبو العنبس طلب منه أن يوقع بالبحتري فقال للبحتري:

من أي سلح تلتقم
وبأي كفٍ تلتطمْ

فضحك المتوكل وغضب البحتري واستشار أحمد بن يزيد المهلبي في مغاداة سامراء إلى منبج بغير إذن الخليفة فقد ضاع الأدب وهلك، فنصحه ألا يفعل فالملوك تمزح بأكثر من هذا فشكا أمره إلى الفتح فوصله صلة جعلته ينسى الإساءة التي لحقته من سخرية الخليفة وجليسه.[١٣]

ويبدو أن البحتري استمع إلى الناصحين فبقي عند الخليفة إلى آخر يوم في حياته، فقد شهد مصرعه على يد ابنه المنتصر سنة ٢٤٦هـ.

ورثاه بقصيدته التي مطلعها:

محل على القاطول أخلق دائرة
وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

وفيها يشير بألم إلى غدر الابن بأبيه إذ يقول:

تَخَفيّ له مغتاله تُحت غرةٍ
وأولى لِمَنْ يغتاله لو يجاهره[١٤]

وهكذا ودّع هذا الخليفة الحياة التي أحبها وكتبت له هذه النهاية المفجعة وشاعره المفضل يشهد ذلك ويسجله.

ويروي الصولي عن البحتري أنه قال: «قال لي المتوكل يوماً: قل فيَّ شعراً وفي الفتح، فإني أحب أن يحيا معي ولا أفقده فيذهب عيشي ولا يفقدني فيذل، فقل في هذا المعنى، فقلت أبياتاً:

سيدي أنت كيف أخلفت وعدي
وتثاقلت عن وفاء بعهدي

وقلت فيها:ـ

لاأرتني الأيام فقدك يافتح
ولا عرفتك ما عشت ـ فقدي
أعظم الرزء أن تقدم قبلي
ومن الرزء أن تؤخر بعدي
حسداً أن تكون إلفًا لغيري
إذ تفردت بالهوى فيك وحدي

٢ ـ المتوكل وبناء القصور

تولى المتوكل الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢هـ، ودامت خلافته خمس عشرة سنة فقد قتل على يد ابنه المنتصر وأعوانه سنة ٢٤٧هـ[١٦]

وصف السيوطي المتوكل فقال (كان المتوكل جواداً ممدحاً يقال: ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطاه المتوكل...).[١٧]

ووصف المسعودي أيامه فقال: «كانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا أيام ضراء».[١٨]

وقال أيضاً: «كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها في استقامة الملك وشمول الناس بالأمن

(١٣) راجع تفاصيل هذه الحادثة في المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، شرح وتقديم مفيد محمد قميحة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م)؛ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن حمد القرشي (٢٨٤ ـ ٣٥٦هـ)، **الأغاني**، تحقيق إبراهيم الإبياري (القاهرة: دار الشعب، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، جـ١٨، ١٧٣.

(١٤) الصولي، **اخبار البحتري**، ص ٨٨.

(١٥) البحتري، ديوان، جـ ٢، ص ١٠٤٧.

(١٦) الصولي، **اخبار البحتري**، ص ٨٥.

(١٧) السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٦م)ص ٥٥٦.

(١٨) راجع اخبار المتوكل في المسعودي، **مروج الذهب**، جـ ٤، ص ٤٣.

والعدل ».[١٩]

وقال ابن العمراني: «... كان المتوكل كريم الطبع سهل الحجاب مليح الأخلاق».[٢٠]

ويشير ابن العمراني إلى أن المتوكل كان يسعى لكسب قلوب الرعية. وكان يحاول أن يكسب طاعة الناس بالحب. فقد كان يعيب على من سبقه من الخلفاء الذين أخذوا الناس بالشدة والقوة، لذا فقد كان زمانه صافياً وأيامه لحسنها أعياداً.[٢١] وكان المتوكل محباً للحياة مقبلاً على ملذاتها، فأنفق الأموال الطائلة التي تأتيه من خراج الهند والصين والترك والزنج والحبشة وأقاصي ثغور المغرب في مظاهر الترف التي اشتهر بها.[٢٢]

وقد قيل أنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار، وفي وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل.[٢٣]وكان يركب في سبعمئة ألف فارس.[٢٤]

ومن أهم مظاهر الترف التي اهتم بها المتوكل بناء القصور، فقد كان من الذوق، فانصرف إلى بناء قصور فخمة في سامراء، كثر عددها حتى بلغت تسعة عشر قصراً، أنفق عليها أموالا طائلة[٢٥] ويشير المؤرخون إلى ما كان يقام في تلك القصور من حفلات من ذلك مارواه ابن العمراني عن حفل أقامه المتوكل في قصر الجعفري قال: «...ونصب سماطاً طوله أربعة فراسخ، في البستان الذي غرسه بسامراء، ويعرف بالجعفري، وكان طوله سبعة فراسخ، ممتداً على شاطىء دجلة، في عرض فرسخ. فقيل أنه امتلأ ذلك اليوم من الخلق، ووضعت التماثيل من العنبر والكافور ونوافح المسك بين أيدي الناس في جملة الرياحين والمشمومات. وكانت تنقل من الخزائن بالزبل والغرائر، وكل من شرب قدحاً تناول منها شيئاً فشمّه وأدخله في كمه أو سلمه إلى غلامه. وكلما نفدت أعيد بدلها. وهكذا من طلوع الشمس إلى غروبها... أما المتوكل فقد كان جالساً على سرير من ذهب مرصع بالجواهر، وولاة العهد وقوف بين يديه، وعليهم التيجان المرصعة. ويذكر أن الأواني والسيوف والتراسي كلها من الذهب، الذي يخطف الأبصار بلمعانه، وبخاصة عندما تقع عليه أشعة الشمس»[٢٦] ومن صور ولع المتوكل بكل مظاهر الترف مارواه الشابشتي من أن الخليفة قال لندمائه: أرأيتم إن لم يكن أيام الورد لا نعمل شاذ كلاه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين لا يكون الشاذ كلاه إلا بالورد. فطلب أن تضرب دراهم ملونة كأنها الورد. وطلب أن يكون للخدم ملابس جديدة. وفي يوم تحركت فيه الريح أوقف خدمه، وطلب منهم أن ينثروا الدراهم، فكانت كأنها الورد المتطاير، وكان ذلك من أحسن أيام المتوكل وأظرفه. وشاذ كلاه هي لفظة فارسية بمعنى فرح وكل بمعنى ورد واه بمعنى عظيم فيكون معنى الكلمة يوم الفرح العظيم.[٢٧]

واشتهر المتوكل بميله إلى اللهو، وكان مولعاً بمهاترة جلسائه الذين كثيراً ما كانوا يتمادون في السخف في مجلسه.

ولم تكن اهتمامات المتوكل مقصوره على حياة اللهو فحسب، بل كانت له اهتمامات جادة من ذلك ما ذكره البيروني من تأخيره لموعد جباية الخراج، وذلك حتى يجنب الزراع التعجيل في الحصاد قبل نضج الزرع، وتأخير الاحتفال بعيد النيروز سبعة عشر

---

(١٩) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٢٩٤.

(٢٠) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٦، ص ٣٠.

(٢١) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (المتوفي في حدود سنة ٥٨٠هـ)، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائي (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٧٣م)، ص ١٧٧.

(٢٢) ابن العمراني، الأنباء، ص ١٧٨.

(٢٣) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٤، ص.١٢٢.

(٢٤) ابن العمراني،الأنباء، ص ١٧٧.

(٢٥) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ٢٩٤.

(٢٦) الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (ت٣٨٨هـ)، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٣ (بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، ص ١٥٩.

(٢٧) ابن العمراني، الأنباء، ص ١٧.

تبدو المبالغة في هذا الاخبار واضحة جلية فالرقم الذي أورده المؤلف لعدد الفرسان الذين يسيرون مع الخليفة يفوق ارقام المقاتلين في الحروب العظيمة، كما أن السماط الذي بسطه الخليفة والذي بلغ طوله أربعة فراسخ أي ما يساوي بالقياس الحديث اثنا عشر ميلا يبدو بعيدا عن التصديق، ولكن تبقى لهذه الأخبار دلالتها وهي شغف المتوكل بالبذخ وحبه للأبهة وإظهار هيبة الحكم.

يوما، وقد أشار البحتري إلى ذلك في قوله:

إن يوم النيروز مذ عاد
للعهد الذي كان سنة أردشير
أنت حولته إلى الحالة الأولى
وقد كان حائراً يستدير[٢٨]

أما بالنسبة للقصور فقد أحصى النويري قصور المتوكل فقال «فأما قصور المتوكل فهي: الكامل والجعفري وبركوانا، والعروس، والبركة، والجوسق، والمختار، والغريب، والبديع، والصبيح، والمليح، والقصر، والبرج، والتوكلية، والقلاية.[٢٩]

ولو بحثنا عن أسماء هذه القصور في شعر البحتري الذي مدح به المتوكل لوجدنا بعضها وافتقدنا بعضها الآخر. ولتبين لنا قدر من الاضطراب في نسبة القصور إلى أصحابها. ولإيضاح ذلك نبدأ بتناول هذه القصور مرتبة بالترتيب الذي وضعه عليها النويري.

قصر الكامل

لم نجد له ذكراً في قصائد البحتري التي مدح بها المتوكل، مما ينفي كون هذا القصر من قصور المتوكل، ولو كان من قصور المتوكل لأشار إليه البحتري في قصائده الكثيرة التي مدح بها المتوكل، ووصف مجموعة من قصوره، ومما يؤكد أن النويري كان مخطئا في نسبة هذا القصر ما رواه الصولي في أخبار البحتري، فقد نقل عن ابن البحتري أنه قال «...حدثني أبي قال: لما بنى المعتز قصر الكامل، دخلت عليه فأنشدته القصيدة التي مطلعها:

لو كان يعتب هاجر من واصل..

وذكر أن المعتز طرب كثيراً لسماع هذا الوصف، وقال للبحتري ياوليد ما انشدتني قط إلا اطربتني.[٣٠]

وفي القصيدة بيت يؤكد أن المعتز هو الذي بنى الكامل، فهو يخاطبه قائلا:

لما كملت روية وعزيمة
أعملت رأيك في ابتناء «الكامل»

ووصف البحتري لهذا القصر يدل على أنه قد ملك زمام هذا الفن، فهو يصف ما في القصر من روعة الفن المعماري، وما أبدعه المهندسون فيه من حوائط زجاجية كأنها لجج البحر، وأرض رخامية مزخرفة وسقوف مذهبة صقيلة، فهو يقول:

ذُعِرَ الحَمَامُ وقد ترنَّم فَوقَهُ
من منظرٍ خَطِرِ المَزِلَّةِ حائلِ
رُفعت لنمخرقِ الرِّياحِ سُمُوكُهُ
وزهتْ عجائبُ حسنِه المتخايلِ
وكأن حيطانَ الزجاجِ بجوِّه
لججٌ يُمُجْن على جنوبِ سواحلِ
وكأنّ تفويفَ الرخامِ إذا التقى
تأليفُهُ بالمنظرِ المتقابلِ
حبك الغَمامِ رصفْنَ بين منمَّرٍ
ومسيَّرٍ ومقاربٍ ومشاكِلَ
لبستْ من الذَّهبِ الصقيلِ سُقوفُهُ
نوراً يضيء على الظلامِ الحافلِ

وتمضي القصيدة على هذا المنوال من الوصف.

إننا لا نجد هذا الاهتمام بالفن المعماري في قصائد البحتري التي مدح بها المتوكل مما يدل على أن هذا الفن قد تطور في شعره.[٣١]

الجعفري

ذكر ياقوت أن المتوكل بنى الجفري بموضع يسمى الماحوزة، وأنها ستحدث عنده مدينة انتقل إليها، وأقطع القواد منها قطائع، فصارت أكبر من سامراء، وشق إليها نهراً فوهته على عشرة فراسخ من الجعفري، يعرف بجبة دجلة، وفي هذا القصر قُتل

---

(٢٨) الشابشتي، **الديارات**، ص ١٥٩.

(٢٩) البيروني، أبو الريحان محمد بن احمد الخوارزمي (٣٦٢ ـ ٤٤٠هـ)، **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، ط١ (ليبزج، ١٩٢٣م)، ص ٣٢.

(٣٠) النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ ـ ٧٣٣هـ)، **نهاية الارب في فنون الادب** (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، د.ت)، جـ١، ص ٤٠٦.

(٣١) الصولي، **اخبار البحتري**، ص ١٠٦.

المتوكل في شوال سنة ٢٤٧هـ، فعاد الناس إلى سامراء.[٣٢]

ويبدو أن قصر الجعفري قد بني بعد أن ملّ المتوكل من قصر البديع وقصر المختار، يعزز ذلك ما ذكره الطبري في أحداث سنة ٢٤٥هـ من أن المتوكل أمر ببناء الماحوزة وسماها الجعفري، وجدّ في بنائها وأمر بنقض القصر المختار والبديع، وحمل سورهما إلى الجعفري.[٣٣]

ويصف بناء الجعفري فيذكر أنه لم ير مثله في علوه، وأنه شق فيه نهراً، وأنه أجبر الناس على بيع بيوتهم المجاورة للقصر ليستفيد من الأراضي القريبة ويجعلها تابعة لقصره[٣٤]. لقد كان الجعفري على درجة عالية من الأبهة، وبداخله غرائب وعجائب، فقد كانت سقوفه مطلية بالذهب، وحيطانه ملبسة بصفائح الزجاج. وقد أشار الشاعر إلى الصرح الممرد من قوارير، والذي كان به الخليفة يباهي ملك سليمان.

ذكر ياقوت أن أبا العيناء دخل على المتوكل في قصره الجعفري سنة ٢٤٦هـ، فقال له: ما تقول في دارنا هذه؟ فقال: إن الناس بنو الدور في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك، فاستحسن كلامه.[٣٥] وقال عنه اليعقوبي: إنه أكثر القصور شؤماً لأن الخليفة قُتِلَ فيه.

وذكر ابن العمراني أن اخليفة المستعين الذي تولى الخلافة بعد المنتصر، أمر بحمل الفرش الذي كان للمتوكل في قصر الجعفري، فكبان ذلك الفرش على ثلاث مئة جمل.[٣٧]

أما الحتري فقد وصفه في قصيدته التي مطلعها:

إن الظباء غداة سفح محجر
هيجن حر جوي وفرط تذكرِ

وفيها يقول:

في رأس مشرفة حصاها لؤلؤ
وترابها مسكٌ يشابُ بعنبرِ
مخضرةٌ، والغيثُ ليس بساكبِ
ومضيئةٌ والليلُ ليس بمقمِرِ
ملأت جوانبه الفضاء وعانقت
شرفاته قطع السحَاب الممطر
وتسير «دجلة» تحته ففناؤه
من لجة غمر وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح، فتنثني
أعطافه في سائحٍ متفجر[٣٨]

فالبحتري يوضح في هذه الأبيات أن هذا القصر بني على أرض مرتفعة، محفوفة بالرياض وهو قصر شاهق يقرن علوه بعلو الخليفة. وإذا كانت هذه القصور صوراً من تقليد الخلفاء العباسيين لحضارة الروم والفرس فإن هذا القصر قد فاق ما بنوه، ويؤكد الشاعر صفة العلو في هذا القصر فهو يعانق السحاب، فإذا نظر الناظر إليه من الأعلى راعه منظره. وإذا نظر إليه من الأسفل فهو لا يقل جمالاً. إن الأبيات السابقة تظهر براعة البحتري في مزج الألوان بريشة فنان مبدع فحصى الأرض كاللؤلؤ الأبيض والتراب كالمسك الممزوج بالعنبر ويتعانق اللونان الأخضر والأبيض في خضرة الأرض وإشراقها. وصورة شاعرنا متحركة تنبض بالحياة، فالنهر يجري والأشجار تنثني وتتمايل ويعتمد على التضاد والجمع بين المتناقضات لاثارة الدهشة وليستخلص صورة جميلة فالأرض مخضرة دون مطر ومضيئة دون قمر. وتبرز مقدرة الشاعر في اختيار الألفاظ الموحية حين يجعل شرفات القصر تعانق السحاب ولا يخفي ما تحمله كلمة العناق من إيحاء وتأثير.

(٣٢) البحتري، **ديوان**، جـ٢، ص ١٦٤٩.

(٣٣) ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، ط ١ (بيروت: دار صادر، ١٩٥٥م)، جـ٧، ص ٥٦.

(٣٤) الطبري، **تاريخ**، جـ ١، ص ٥٦.

(٣٥) الطبري، **تاريخ**، جـ ١، ص ٥٦.

(٣٦) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ ٧، ص ٦٢.

(٣٧) اليعقوبي، أحمد بن اسحق بن جعفر وهيب بن واضح (ت٢٩٢هـ)، **تاريخ اليعقوبي** (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، جـ٢، ص ١٤٣.

(٣٨) ابن العمراني، **الأنباء**، ص ١٢٤.

إذا عدنا إلى الأبيات وجدنا الصلة بين مقدمة القصيدة ووصف القصر تكاد تكون مفقودة، فبينما شاعرنا يتحدث عن سلمى وثبات حبه لها مهما فعلت في قولــه :

لاابتغي أبداً بسلمى خلة
فلتقترب بالوصل أو فلتهجر !

كأني بالشاعر يفر من هذا الاعتراف إلى الحديث عن قصر المتوكل ويمهد لهذا الوصف بالإشادة بالخليفة.

قد تمَّ حسن الجعفريِّ ولم يكن
ليتمَّ إلَّا بالخليفة جعفرَ
ملكٌ تبوَّأ خير دار إقامة
في خير مبدًّي للأنام ومحضرِ

وينطلق من ذلك إلى أبيات يزاوج فيها بين وصف الخليفة ووصف القصر مزاوجة تجعل الفصل بين الاثنين شاقة، ويكرر الحديث عن الفناء والشرفات العالية، والأشجار التي تلاعبها الرياح وكأنها فتاة مفناج .

ومن يقرأ القصيدة لا يجد فيها رغم عناونها وصفا للقصر ولا تحديداً لمعالمه، اللهم إلا تحديد الموقع، فهو على دجلة، وبتعبير أدق على جبة دجلة أو ما يسمى بالقاطول.

أما طراز البناء وصور الزخرفة فلا نجد لها ذكراً. كما أن من يقرأ القصيدة يتبين له أن اهتمام الشاعر بالخليفة يفوق اهتمامه بالقصر ، وما ذكره للقصر إلا إتمام لمآثر الخليفة.

يبدو من القصيدة أن الأمر الذي لفت انتباه الشاعر وحرك شاعريته في القصر يبدو في ثلاثة مظاهر هي:

١ ــ ارتفاع القصر، فقد أكد علوه في ستة أبيات من مجموع عشرة أبيات خصصت لوصف القصر.
٢ ــ الرياض الخضر التي أحاطت بالقصر، وقد أشار إليها في بيتين.
٣ ــ النهر الذي يجري تحته.

أما بقية الأبيات فهي مزج بين وصف القصر ووصف الخليفة، وكأن عظمة القصر مأخوذة عن عظمة بانيه.

ويطالعنا وصف لهذا القصر في قصائد أخرى مدح بها الشاعر الخليفة المتوكل، وخصص جزءاً منها لوصف الجعفري. ويلفت أنظارنا إلى حديقة الحيوان أوحير الحيوان الذي الحق بالقصر، وما فيه من أنواع الحيوانات المفترسة والأليفة. ولعل إشارته إلى هذه الحديقة الضخمة تبطل من زعم أن حدائق الحيوان من مظاهر الحضارة الغربية.

فحديقة الحيوان هذه تحتوي على ألفين من الوحوش، وهي شاسعة تقع على نهر نيزك ـ وهو نهر حفره المعتصم ليروي الأرض المجاورة، ويبدو لي أن هذه هي الحير التي جرت فيها مبارزة الفتح بن خاقان للأسد، والتي وصفها البحتري بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

اجدك ما ينفعك يسري لزينبا
خيال إذا آب الظلام تأوبا

والتي يقول فيها:

غداة لقيت اللَّيثَ والليثُ مخدِر
يُحددَ ناباً للّقاء ومخلبَا
يُحصِّنه من نهر نَيْزَك مَعْقِل
منيعٌ تسامى غابة وتأشَّبا
يرود مغاراً بالظواهر مُكْثباً
ويحتلُّ روضاً بالأباطح مَعشِبا
يلاعب فيه أقحواناً مفضضا
يبص، وحوذاناً من الماء مُذْهبا
إذا شاء عادى عانةً أو عدا على
عقائل سرب أو تقنص رَبْرِبَا[٣٩]

أما وصفه لبركة القصر الجعفري التي قلّما يتعرض باحث للحديث عن البحتري دون أن يقف عند أبيات من ذلك الوصف الرائع الذي يدل على عشق وهيام، فهو يقول:ـ

يامَنْ رأى البركة الحسناء رؤيتها

---

(٣٩) البحتري، ديوان، جـ٣، ص ص ١٠٤٠ ـ ١٠٤٢.

والآنسات إذا لاحَتْ مغانيها
بحسبها أنَّها من فضل رتبتها
تُعَدُّ واحدةً، والبحرُ ثانيها
ما بال دجلة كالغيري تنافسها
في الحسن طوراً وأطواراً تباهيهَا
أما رأت كالىء الإسلام يكلأها
من أن تُعابَ وباني المَجْدِ يبنيها
كأن جنّ «سليمان» الذين ولوا
إبداعها فأدقُّوا في معانيها
فلو تمرُّ بها «بلقيسُ» عن عرض
قالت: هي الصَّرح تمثلاً وتشبيها
تنحطُّ فيها وفودُ الماء معجلةً
كالخيل خارجةً من حبل مُجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة
من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً
مثل الجواشن مصقولاً حواشيها
فرونقُ الشمس أحياناً يضاحكها
وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلاً حسبت سماءً ركبت فيها
لا يبلغ السَّمك المحصور غايتها
لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساط مجنحةٍ
كالطَّير تنفض في جو خوافيها
لهن صَحنٌ رهيبٌ في أسافلها
إذا انحططن، وبهوٌ في أعاليها[٤٠]

إن الشاعر يلجأ إلى التشخيص البديع حين يجعل دجلة تغار من البركة، ويستفيد من ثقافته القرآنية في تشبيه هذه البركة بالقصر الذي بناه سليمان لبلقيس، والذي ورد في الآية ٤٤ من سورة النمل في قوله تعالى ﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير ﴾. وقد استخدم البحتري هذه الصورة في قصيدة مدح بهما المعتز، وأشار إلى قصره فقال:

فوق صرح ممرد من قواريـ ـر غريب التأليف والتحريد
لو بدا حسنه لجن سليما ن لخروا من ركع وسجود[٤١]

ولقد أبدع البحتري أيما إبداع في تصويره لجريان الماء من نهر نيزك إلى البركة، وهو وصف يوحي بأن النهر مرتفع، فالماء ينحدر من مكان عال كالخيل المنطلقة. فهو يستغل الصور القديمة في وصف المظاهر الحضارة.

ومياه هذه البركة بيضاء نظيفة كاللجين، إذا هبت عليها الريح تكسرت فكأنها الدروع المصقولة.

وتبدو هذه البركة في كامل زينتها وبهائها حين تسطع عليها أشعة الشمس، على حين تبدو حزينة حين يسقط المطر فكأنها والمطر يتبادلان البكاء، وكأنها والشمس يتبادلان الابتسام. أما في الليل فيكتمل جمالها حين تنعكس النجوم على سطحها، فكأن النجوم مركبة فيها لفرط صفائها ولمعانها. وهذه البركة شديدة الاتساع، لها حوض متصل بها من الأسفل، ولها بهو متصل بها من الأعلى، وعلى جانبيها تماثيل الدلفين، ولكثرة مياه هذه البركة فإن البساتين البعيدة تكتفي بمياهها فتستغني عن المطر، وهي مبالغة لطيفة أراد بها الشاعر أن يؤكد كثرة مياه هذه البركة.

ولا ينسى شاعرنا وهو ينشد هذه القصيدة أنه شاعر متكسب فيربط بين تدفق ماء البركة وتدفق عطاء الخليفة بهذه البيت:

كأنها حين لَجَّتْ في تدفقها
يد الخليفة لما سال واديها

ويقف عند الدكتين اللتين يجلس عليهما الخليفة وحاشيته للتمتع بمنظر البركة فيشبههما بالشعريين، وهما أسطع الكواكب وأقرهما إلى الأرض.

ويبدو أن البحتري كان معجباً بهاتين الدكتين، فقد أشار إليهما في قصيدة أخرى مدح بها المتوكل إذ قال:

وأرى الدكتين بينهما

(٤٠) البحتري، ديوان، جـ١، ص ١٩٩.

(٤١) البحتري، ديوان، جـ٤، ص ٢٤١٨.

أفـواف روض كالوشي في ألوانـه
في ضروب من حُسْنِ نَرْجِسِـه الغضّ
ومـن آسِـةَ ومـن زعـفـرانِـهِ[٤٢]

فإذا أضفنا ما قاله في هذين البيتين عن الدكتين إلى ما قاله عنهما في القصيدة الأولى اكتملت صورة الحسن والبهـاء.

ومن حديث البحتري عن البركة وعن حير الحيوان يتبين لنا أن المتوكل وفر لقصره جميع مظاهر الحضارة. ولعل اهتمامه بما يقع خارج القصر من ملحقات يجعلنا نسرح في الخيال في تصور ما يحويه داخل القصر من فخامـه وأبهـة، وإن لم يُفْصِل البحتري في ذلك، كان المتوكل فخوراً بقصره هذا يتشوق لسماع رأي الناس فيه، وتجدر الإشارة إلى أن حديقة الحيوان التي بذل المتوكل جهداً كبيراً في إنشـائهـا وجعلهـا معلماً من معالم عاصمته، قضى عليها المهتدى سنة ٢٥٥هـ إذ أمر بقتل الحيوانات وطرد بعضها.[٤٣]

ولعل القصيدة التي قالها البحتري في رثاء المتوكل ورثـار القصر الذي حلت في جنبـاته مقتل الخليفة، أقـول لعـل في وصفـه لهذا القصر منكوباً ما يكمل صورته سعيداً، يقول:

محـل على القـاطول اخلق داثـره
وعادت صروفُ الدهر جيشاً تُغاورُه
تغـير حسْنُ (الجعفـريِّ) وانسـهُ
وقُـوِّضَ بادي الجعفـرِّي وحاضِرُهُ
تحمَّـل عنـه ساكـنُـوهُ فجـاءةً
فعـادت سواءً دورُه ومـقـابـره
إذا نحن زُرنـاه أجَـدَّ لنـا الأسى
وقـد كان قبـل اليـوم يَبْهَـجُ زائرُه،
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه
وإذ ذُعِـرتْ أطلاؤه وجـآذرُه
وإذْ صيـحَ فيـه بالرَّحيـل فهتكت
على عجـل أسـتـاره وستـائـرُه
ووحـشـتـهُ حتَّـى كأنْ لم يقمْ به
أنـيسٌ ولم تَحسنُ لعـيـنِ منـاظرُه
كأن لم تبت فيـه الخـلافـة طلقةً
بشـاشتُهـا، والمُلك يشرقُ زاهِـرُه
ولم تجمـع الدنيـا إليـه بهـاءهـا
وبهجتَهـا والعيشُ غَضٌّ مكـاسِرُه

فالبحتري هنا لا يصف القصر ولكنه يبكيه. ولعل أهم مايلفت النظر في هذه القصيدة هو الإشارة إلى حديقة الحيوان أو حير الحيوان فكأن أكثر ما يهم البحتـري هو تلك الحديقة أو ذلك الحير ، وفي قوله (ولم أنس وحش القصر) ما يدل على مقدار الألم الذي أصـاب الشـاعـر وهـو يرى الذعـر في عيون المها والجآذر، وإن كان احتمال قصـده بالجـآذر النسـاء وارداً.

والبحتـري لا يلجأ إلى التفصيل ورسم الصورة الواضحة لذلك القصر، لكنه يكتفي بتحديد موقعـه فهـو على نهر القاطول، ويشير إلى ما في القصر من مظاهر الحضارة القديمة والمستحدثة بدون أن يمعن في التفصيـل، كمـا يشـير إلى أن ساكنيه قد تركوه مرغمين فتحولت دوره إلى مقابر لا تختلف عن المقبرة الملحقـة به، ويشـير إلى غرفـه الكثـيرة التي كانت محصنة فانتهكت، وإلى ما كان يجري فيه من ليال أنس وأيام سعادة.[٤٤]

هذه هي صورة قصر الجعفري في شعر البحتري، وهي صورة باهتـه لا تشبع نهم الباحث ولا تروي تعـطشـه. هل كان هذا الإيجـاز مرده إلى مذهب البحتري في الشعر، والذي عبر عنه حين قال:

واشـعـر لَمْحٌ تكْفي إشـارتُـه
وليس بالهَـذْر طُوِّلَتْ خطبـهْ[٤٥]

إن البحتـري قد أطلق لخياله العنان في وصف القصر من الخـارج، وحـين أراد أن يصف داخـل القصر أصـابه العي. واعترف بذلك ملتمساً لنفسه العذر في أن منازل الخليفة مفحمة تعيي الصفات فلا

(٤٢) البحتري، ديوان، جـ٢، ص ٧٣١.
(٤٣) البحتري، ديوان، جـ٤، ص٢١٧٠.
(٤٤) الطبري، تاريخ، جـ٦، ص ٦١.
(٤٥) البحتري، ديوان، جـ٢، ص ١٠٤٥.

تدرك إلّا بالظن والإيهام.

إن البحتري يُعرض في الغالب عن الماديات، ويركز على الموقع والبركة والنهر المجاور، أما روعة الفن المعماري فلم يلتفت له إلا قليلا.

قصر بركوانا

ذكره النويري واختلفت المراجع القديمة في كتابته. فقيل بركوارا، وبركوار، وبلكوار. واللفظة دخيلة، معناها القصر العظيم الكبير.[٤٦]

ولا أريد أن أطيل في الجدل حول اسمه الصحيح، ذلك لأن البحتري لم يشر إليه في قصائده.

وقد ذكر اليعقوبي أن المتوكل قد أعطى هذا القصر لابنه المعتز[٤٧]، كما أشار إليه الشابشتي، فقال عنه «بنى المتوكل قصره المعروف ببركوارا في القادسية. ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز، وكان من أحسن أبنية المتوكل وأجلّها، وبلغت النفقة عليه ألف ألف درهم[٤٨].

وجاء في أخبار البحتري للصولي أن قبيحة زوج المتوكل وأحب نسائه إليه وأم ابنه المعتز قد أقامت بهذا القصر حين تخاصمت مع المتوكل. فالمتوكل وإن كان قد بنى القصر فهو لم يسكنه ووهبه لقبيحة وابنها. ولعل ذلك يفسر غياب وصفه في شعر البحتري.

ولا أدري أين كان البحتري حين أقام المتوكل حفل إعذار ابنه المعتز والذي تم في هذا القصر، وصفه الشابشتي في الديارات، وذكر أن إيوان هذا القصر فرش ببساط مذهب اشتراه بعشرة آلاف دينار، وأن المتوكل جلس في وسط الإسوان وأمامه أربعة آلاف مرفع (كرسي) مذهبة ومرصعة بالجواهر، وعليها تماثيل الند والعنبر، ووزعت الأموال، وحمل الناس بعد الانتهاء من الحفل على الخيل المطهمة وأعتق المتوكل ألف رقبة، وأمر لكل عتيق بمائة درهم. وكانت باقات النرجس والبنفسج توزع على الجالسين. ووزع المتوكل في ذلك اليوم على خدمه عشرين مليون درهم.[٤٩]

وإذا كان هذا الحفل قد تم سنة خمس وثلاثين ومئتين كما ذكر ابن الأثير ، وصلة البحتري بالمتوكل قد بدأت منذ سنة ثلاث وثلاثين ومئتين، فيحق لنا أن نتساءل لماذا لم يشترك البحتري في تدوين هذه المناسبة في شعره ؟

قصر العروس

ولم يكن نصيب قصر العروس بأوفر من نصيب قصر بروكوارا فلم يذكره البحتري في شعره مع كونه القصر الذي أعلن فيه المتوكل ولاية العهد لأولاده الثلاثة.[٥٠]

قصر البركة

أما قصر البركة الذي أشار إليه النويري فلم أجد له ذكراً عند البحتري ولا عند المؤرخين الذين تناولوا قصور المتوكل بالذكر مثل الشابشتي وياقوت.[٥١]

قصر الجوسق

ذكره ياقوت، وقال إن المتوكل أنفق على إنشائه خمسمائة ألف درهم[٥٢]، وأشار إليه الجواليقي، وقال: الجوسق فارسي معرب وهو تصغير قصر (كوشك)[٥٣]، وقد أشار اليه البحتري إشارة عابرة ضمن مجموعة من القصور في قوله:

كم ليلة ذابت أجراس وأروقة ... كاليم يقذف أمواجاً بأمواج

فالزو والجوسق الميمون قابله ... غَنْج الصبَّيح الذي يُدْعي بصنّاج

---

(٤٦) البحتري، **ديوان**، جـ١، ص ٢٠٩.

(٤٧) راجع عبد الحميد الدجيلي الذي فسر لفظة براكوارا وقال إنها لفظة فارسية وذكر إنها (قذركوازا) أي القصر العظيم الكبير جدا، راجع **مجلة عالم الغد**، مقال بعنوان «قذراكوازا» لعبد الحميد الدجيلي، الناشر: رفيق السيد عيسى.

(٤٨) **اليعقوبي، تاريخ**، ص ٣٩.

(٤٩) الشابشتي، **الديارات**، ص ١٥٠؛ والقادسية التي وردت في الخبر تقع في سامراء، وهي تختلف عن القادسية المشهورة التي تقع جنوب الكوفة.

(٥٠) الشابشتي، **الديارات**، ص ١٥٠ .

(٥١) ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٧، ص ٨٠.

(٥٢) الأصفهاني، **الأغاني**، جـ٩،ص ٣٠.

(٥٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ ٣، ص ١٨.

بسر مرًّا سرى هَمِّيَ وسامرني
لهوٌ نفى الهمَّ عن قلبي بإخراجِ [٥٤]

فكل ما نستفيده من الأبيات أن الجوسق يقع مقابلاً للزو، وأنه قريب من قصر الصبيح. ولا تعطي الأبيات أي خصوصية للقصر على أن الآثار الباقية من هذا القصر بيَّنت أنه كان له مدخل واحد كبير يسمى باب العامة، وكانت له واجهة تطل على نهر دجلة. وخلفها ثلاث قاعات تغطيها أقبية نصف أسطوانية. ويلي ذلك صحن مربع في وسطه نافورة، وعلى كل جانب من جانبية ثلاث حجرات ثم قاعات الخليفة والحريم. أما قاعة العرش فكان قوامها بهَوا مربعاً يحيط به من جهاته الأربع قاعات على شكل حرف T وجد على جدرانها كثير من الزخارف الجصية التي امتاز بها الطراز العباسي.. وعثر في قسم الحريم بالقصر على بعض قاعات صغيرة للنظافة والغسيل، كان الماء الجاري يصل إليها في أنابيب من الرصاص أو الفخار. كما وجد أن بعض هذه القاعات كانت تزخرف جدرانها صور مرسومة بالألوان المائية على الجص. [٥٥]

وذهب بعض المحدثين إلى نسبة القصر إلى المعتصم اعتمادا على اليعقوبي الذي ذكر أن المعتصم هو الذي بنى قصر الجوسق. [٥٦] والحق إن كلمة الجوسق تطالعنا في كثير من الأشعار في زمن البحتري وقبله وبعده. [٥٧]

وكنا نتوقع من البحتري أن يصف الجوسق في القصيدة التي مدح بها المستعين، وذكر فيها مقتل قائده انامش، الذي زحف عليه الموالي وقتلوه في قصر الجوسق، وكان مقيماً فيه مع المستعين. [٥٨]

على أنه أشار إلى هذا القصر إشارة عابرة حين مدح المعتز، إذ قال:

يغشى العيون الناظرات إذا بدا
قمر مطالعه رباع «الجوسَقِ» [٥٩]

قصر الصبيح

فقد كان مقروناً بقصر المليح في قصيدة طويلة مطلعها :

إن طيفاً يزورني في المنام
لخلي من لوعتي وغرامي

ويصف القصرين فيقول:

واستتم الصَّبيحُ في خير وقتٍ
فهو مغَنْى أنس ودارُ مُقام
ناظر وجهه المليحِ فلو ينـ
طق حيَّاهُ معلناً بالسَّلام
ألبسا بهجةً، وقابل ذا ذا
ك، فمن ضاحكٍ ومن بَسَّام
كالمُحبينَّ لو أطاقا التقاءً
أفْرَطا في العناق والالتزام
تنفذ الريح جريها بين قُطر
يه فتكبو من ونيةٍ وسآمِ
مستمدٌ بجدول من عُباب ال
ماء كالأبيض الصَّقيل الحُسامِ
فإذا ما توسط البركة الخضر
اء ألقت عليه صِبْغَ الرُّخامِ
فتراهُ كأنَّهُ ماءُ بَحر
يخدَعُ العين وهو ماءُ غَمام
والدواليبُ إذ يدرن ولانا
ضح يسقى بهنَّ غَيْرُ النَّعامِ
بدعٌ أنشئتْ لأولي عباد
الله الرُّكن والصَّفا والمقام
إن خير القصور أصبح موهو
بأ بكره العِدى لخَيْرِ الأنامِ

(٥٤) الجواليقي، ابو منصور موهوب بن ابي طاهر احمد بن الخضر (ت٥٤٠هـ)، **المعرب في الكلام الأعجمي على حروف المعجم**، تحقيق احمد محمد شاكر، ط ٢ (القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٣٨٩هـ/١٩٦٦م)، ص ٩٢.

(٥٥) البحتري، **ديوان**، جـ١، ص ٤٣١.

(٥٦) حسن الباشا، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، ط ١ (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٩م)، ص ٧٥.

(٥٧) ابو صالح الألفي، **الفن الإسلامي: اصوله، فلسفته، مدارسه**، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م)، ص ١٦٥.

(٥٨) اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٣، ص ٢٠٧.

(٥٩) ابو فراس الحمداني، الحارث بن ابي العلاء سعيد (٣٢٠ - ٣٥٧هـ)، **ديوان ابي فراس**، جمع ونشر وتعليق سامي الدهان (بيروت: دار صادر، ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م)، جـ ٢، ص ٢١.

جاور «الجَعْفريّ» وانحازَ شبدا
ز إليه كالرّاغب المعتَام
حلّ من منازل المُلك كالأنجم
يلمَعْنَ في سواد الظّلام
مفحماتٌ تعيي الصِّفات فما تد
رك إلا بالظن والإيهام
فكأنّا نحسها في الأماني
أو نراها في طارق الأحلام
غُرَفٌ من بناء دينٍ ودنيا
يوجب الله فيه أجر الإمام
شَوَّقتنا إلى الجنان فزدْنا
في اجتناب الذّنوب والآثام
وبها تشرف الأوائل ملكا
وتباهي مكاثري الإسلام

والصبيح كما ذكر ياقوت من قصور المتوكل المشهورة، وقد أنفق عليه خمسة آلاف درهم، وأنفق على المليح مثل هذا المبلغ.(٦٠)

نستفيد من القصيدة السابقة أن الصبيح والمليح قصران متجاوران، وأنهما مجاوران للجعفري ولقصر شيذار، ويبدو من حديث الشاعر عنهما أنهما بنيا بعد القصر الجعفري على الرغم من أن الجعفري كان هو القصر الرسمي أو قصر السكن الدائم للخليفة، فقد قتل فيه، وهذا يؤكد لنا ماذهب إليه أحد علماء الآثار الذي اكتشف أن البركة وحير الوحش كانا في قصر فخم، يستدل من آثاره أنه كان للنزهة، وأنه مجاور لقصر الخليفة الرسمي (الجعفري)، وهذا الاكتشاف يبطل الزعم القائل أن البركة وحير الوحش في قصر الجعفري.(٦١)

وكما نلاحظ في القصيدة فإن أهم ما يلفت نظر الشاعر هو الماء، ماء البركة، وماء الجدول المنساب الذي يشبه في لمعانه السيف الصقيل، وماء الدواليب التي تنقل الماء من النهر إلى داخل القصر، ويتوقف الشاعر عن الحديث حين يتجاوز الماء. ويعترف أن ما في القصر من بدائع العمران أمر مفحم يعي الواصف بل إنه يخرج هذه القصور من عالم الواقع إلى عالم الخيال والأماني، فهي تثير في نفس الشاعر شوقاً إلى جنان الخلد الدائمة، فيجتهد في اجتناب الآثام لعله يفوز بالسكنى فيها.

والملاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر لم يعمد كثيراً إلى الصور الحسية التي لا تتجاوز الشكل الخارجي، والتي غالباً ما تصادفنا في الشعر القديم، فقد اعتمد على التأثير النفسي، ومن أبيات القصيدة الأولى تحس بالموقف النفسي الذي اتخذه الشاعر من هذين القصرين. فقد تمثل فيهما عاشقين لو أطاقا التقاء لأفرطا في العناق. ولكنه لا يلبث أن يترك أحدهما ويتحدث عن الآخر، وحديثه يعتمد على الإيحاء النفسي كما ذكرنا.

قصر المختار

أما المختار فلم أجد له ذكراً في شعر البحتري إلا أن ياقوت ذكره، وقال إنه من قصور المتوكل بسامراء(٦٢) وكانت به صور عجيبة، من جملتها صورة بيعة فيها رهبان. كما أشار إليه الطبري، وذكر أن المتوكل حين أراد بناء الجعفري أمر بنقض القصر المختار والبديع وحمل ساجهما إلى الجعفري.(٦٣)

قصر الغريب

أما قصر الغريب فلم يذكره البحتري وذكره ياقوت أيضا، وقال أن المتوكل أنفق على بنائه عشرة آلاف درهم(٦٤)

قصر البديع

ذكره البحتري ذكراً عابراً في قوله يمدح المتوكل ويذكر صلح بني تغلب في قصيدة مطلعها:

منى النفس في أسماء لو تستطيعها
بها وجدها من غادة وولوعها

يذكر البديع فيقول:

---

(٦٠) انظر تفاصيل هذا الخبر في الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٢٣.

(٦١) البحتري، ديوان، جـ٣، ص ١٤٧١.

(٦٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٤ ص ٤٤.

(٦٣) عبد العزيز بن محمد المليم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١هـ ـ ٢٧٩هـ، رسالة دكتوراه ـ قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ص ٥٤.

(٦٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٤٤٠.

توءم القصور البيض من أرض بابل
بحـيث تلاقي غردهــا وبــديعهــا[٦٥]

أما القصر فلم يذكره ياقوت، ولم أعثر له على ذكر في ديـوان الشـاعـر، ولم يذكـره المؤرخون، أيّ أن النـويـري ينفرد بذكر هذا القصر المسمى بالقصر، والذي ينسبه إلى المتوكل، أما قصر البرج فقد أشار إليه اليعقوبي، وذكر أن المتوكل أنفق عليه ألف ألف وسبعمئة ألف دينار[٦٦] كما أشار إليه ياقوت، وذكر أن نفقاته بلغت عشرة آلاف ألف درهم.[٦٧]

ووصفه الشابشتي وذكر أنه كان من أحسن أبنية المتوكل، وأن فيه صوراً من الذهب والفضة، وبركة عظيمة طليت بصفائح الفضة، وجعل عليها شجرة ذهب فيها كل طائر يصوت ويصفر، وسمى الشجرة طوبى، وعمل له سرير من الذهب كبير، عليه صورتا سبعين عظيمين وحولهما صور السباع والنسور، وغير ذلك على ما يوصف به سرير سليمان بن داود عليهما السلام، وجعل حيطان القصر من الداخل والخارج ملبسة بالفسيفساء والرخام المذهب، فبلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف وسبعمــائـة ألف دينـار. وجلس فيه على سرير الذهب، وعليه ثاب الوشي المثقلة، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا في ثياب وشي منسوجة أو ديباج ظاهر. وكان جلوسه فيه سنة تسع وثلاثين ومئتين.[٦٨]

والنويري الذي اكتفى بالإشارة إلى قصور المتوكل دون أن يصفها أو يورد ما قيل فيها من أشعار، يبدي اهتمـامـاً خاصاً بهذا القصر، فيصفه وصفاً مطابقاً لوصف الشابشتي ويزيد عليه بإيراد ما قيل فيه من شعر للسري الرفاء.[٦٩]

ولا يشـير البحتري إلى هذا القصر إلا إشارات مقتضبـة، وقد ذكره مرتين الأولى حين مرض الفتح وعبر عن المشقة التي تلاقيه في الوصول إليه، إذ قال:

فلا تحسبن تركي العيــادةَ جفـوةً

ولا سُوء عهـد جاذبتني جواذُبـه
ومن لي بإذن حين أغـدو إليكمـا
ودونكما «البرج» المطلّ وحاجبه[٧٠]

وذكره حين مدح المتوكل وعدد قصوره فقال:

تَوْمُ القُـصْـورَ البيـضَ من أرض بابـل
بحـيـث تلاقـي غَرْدُهــا وبــديـعُـهـــا
إذا أشرف «البُــرج» المـطلُّ رمـيـنـه
بأبــصـــار خوص قد أربـت قطوعـهـــا
يضيء لهـا قصر السُرى لمعـانـهُ
إذا اسـودَّ من ظلمـاءِ ليـلٍ هَزيعُهـا[٧١]

أما قصر المتوكلية الذي أورده النويري على أنه قصر من قصور المتوكل فإن ياقوتاً يذكر أن المتوكلية مدينة بناها المتوكل على الله قرب سامراء، وأنه بنى فيها قصراً سماه الجعفري، وبها قتل سنة ٢٤٧هـ.

إذن المتـوكلية مدينة فيها مجموعة من القصور منها قصر الجعفري وليست قصراً واحداً كما ذهب إلى ذلك النـويـري، ومـا قاله البحتري من شعر في المتوكلية يؤيد ما ذكره ياقوت يقول:

يَهنيــك في المتـوكليــة أنّهــا
حَسنُ المصيفُ بها وطاب المربعَ
فيحــاءُ مشرقــة يرق نسيمُهــا
بميث[٧٢] تدرج الرِّيــاحُ وأجرَعُ
قد سُرّ فيهــا الأوليــاءُ إذا التقـوا
بفنـاءِ منبـرها الجديد فجمعُوا
فارفع بدارَ الضَّرب باقي ذكرها
إن الرفيـــعَ محـله من تَرْفَــعُ

قصر القلابة

أما قصر القلابة فلم يذكره البحتري في حين أشار إليـه الشـابشـتي. أمـا ياقـوت فقـد قال إن اسمه القلائد، وذكر أن المتوكل أنفق على بنائه خمسين ألف دينار.[٧٣]

(٦٥) الطبري، **تاريخ**، جـ٣، ص ١٤٤٨.
(٦٦) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٣، ص ١٧.
(٦٧) البحتري، **ديوان**، جـ٢، ص ٦٠٠.
(٦٨) اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٣، ص ٦٠٠.
(٦٩) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ص ١٦٠.
(٧٠) الشابشتي، **الديارات**، ص ١٦٠.
(٧١) النويري، **نهاية الأرب**، جـ١، ص ٤٠.
(٧٢) الميث: الأرض اللينة السهلة.
(٧٣) البحتري، **ديوان**، جـ٢، ص ١٢٩٦.

على أن ديوان البحتري يحتوي على قصائد فيها وصف لقصر لم يذكره النويري، أو بعبارة أدق لم ينسبه إلى المتوكل ذلك هو قصر الزو والزو هو قصر عائم ذكره ياقوت فقال «نوع من السفن عظيم وكان المتوكل بنى في واحدة منها قصراً منيفاً ونادم فيه البحتري».(٧٤)

أما قصيدته التي مدح بها المتوكل وذكر فيها هذا القصر فمطلعها:

ألا هل أتـاهـا المغيب سلامي؟
وهل خُبِّرتْ وجدي بها وغرامي؟

وقد وصف القصر وصفاً مقتضباً في أربعة أبيات قال:

أبـى يومنـا بالزوِّ إلا تَحسُّنـاً
لنـا بسـمـاعٍ طيـبٍ ومـدام
غنينـا على قصرٍ يسـير بفتيـةٍ
قعـود على أرجـائـه وقـيـام
تظلُّ البـزاة البيضُ تخطف حولنا
حآجىء طيرٍ في السّمـاء سَوام
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه
وينقـادُ إمـا قُدْتـه بزمـام(٧٥)

والأبيات تمثل انبهار الشاعر بهذا القصر الذي هو كالسفينـة ويعمـد إلى الإيجـاز الشـديد. ويثير اهـتـمـامـه الطير، والصراع بين الضعيف منهـا والجـارح، فالصقـور تنقض على الطيـور المسـالمة وتأتيهم بالدراج.

ويبدو هذا القصر لناظره وكأنه الجبل الراسي ولكن هذا الجبل يتحرك حين يشاء ربانه. ويطالعنا وصف لهذا القصر في قصيدة البحتري التي مدح بها المعتز، والأفكـار التي تحملهـا الأبيات تكاد تكون مطابقة للأفكار السابقة إلا أنه يبدؤها بالسخرية من فرعون حيث يقول:

تعجبت من «فـرعـون» إذ ظن أنه
إله لأن النيـل من تحتـه يجـري
ولو شاهـد الدنيـا وجـامـعَ ملكها
لقـلَّ لديـه ما يُكـثـر من «مصْر»
ولو بَصُرت عيـنـاهُ بالزُّو لازدرى
حقـيرَ الدَّي نالتْ يداه من الأمـرِ
إذاً لرأى قصراً على ظهـر لجـةٍ
يروح ويغـدو فوق أمواجها يجري
تصـادُ الوحـوشُ حفـافي في طريقه
وتستنزل الطَّير العوالي على قَسْر(٧٦)

يذكـر يحيى بن البحتـري أن والده استـوحى حديثه عن فرعون من مجلس المعتز. فقد كان جالساً معه، وقرأ قارىء سورة الزخرف وحين وصل إلى قوله تعالى ﴿ ونادى فرعون في قومه قال ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ﴾.

قال المعتز ما أبين جهل فرعون، يدَّعي الربوبية ويفخر بمصر، فخرج البحتري وعمل تلك القصيدة وأنشـده إيـاهـا. ولما بلغ قوله تعجب من فرعون.... طرب المعتز، وقال للبحتري صغَّرت قدره كما استحق ووصله.(٧٧)

ولو قابلنا هذه الأبيات بالأبيات السابقة لوجدنا أنها تدور في فلكها، وأن الشاعر لم يجد ما يضيفه إلى وصفه السابق اللهم إلا الحديث عن فرعون.

وكرر البحتري وصف هذا القصر حين مدح المعتز في قصيدته التي مطلعها:

حبـيب سرى في خفيـة وعـلى ذعـر
يجوب الدجى حتى التقينا على قدر

تلك هي قصـور المتـوكـل التي ذكـرها النويري ووصف البحتري بعضها واهمل البعض الآخر، ومن يقلب ديـوان شاعـرنا يدرك اهتمامه بالقصور، فقد وصف قصور المعتز والمعتضد، وكأن وصف القصور أصبـح جزءا من قصيـدة المـدح عنـد البحـتـري. ووصف القصور يبدو في القصيدة وسيلة وليس غاية فهو لم يخصص قصيدة لوصف قصر ما، وإنما تأتي أبيات الوصف في وسط قصيدة المدح، وأحياناً يمتزج

(٧٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ ٥، ص ٤.
(٧٥) البحتري، **ديوان**، جـ ٣، ص ٣٠٠.
(٧٦) البحتري، **ديوان**، جـ ٣، ص ١٠٥٣.
(٧٧) الصولي، **أخبار البحتري**، ص ١١١.

المدح مع الوصف امتزاجاً يصعب فصل أحدهما عن الآخـر، فأنـت لا تدري هل البيت في المــدح أم في الوصف، من أمثلة ذلك قوله في وصف القصر الجعفري:

قد تم حسـن الجعفـري ولم يكن
ليـتـم إلا بالخـليـفـة جعـفـرُ

فالقصر والخليفة يكمل أحدهما الآخر.

وقبل أن ننتهي من هذا الموضوع لابد أن نشير إلى غياب وصف القصر الهاروني أشهر قصور المتوكل، ولا أجد تعليلا لهذا الغياب إلا حين أقرأ قصيدة علي ابن الجهم الرائعة في ذلك القصر، والتي مطلعها:

مـازلـت أسـمــع أن الملوك
تبني على قــدر أخطارهـا(٧٨)

والتي وإن كانت قد قيلت في مدح المتوكل إلا أن وصف الهاروني استأثر بالقصيدة فلم يترك للخليفة إلا بيتـاً واحـداً. وقد تناول ابن الجهم القصر من الداخـل فتفنن في عرض الشرفات المزدانةبالأزهار، والتي ألبسها الربيع حلة قشيبة ملونة.

لعل إجادة علي بن الجهم في وصف هذا القصر صرفت البحتري عنه، وبخاصة أنهما كانا متعاصرين ومتجـاورين، وبينهما عداءً شديداً، وعلى قلة هجاء البحتـري فقد احتوى الديوان على أربع قصائد في هجاء علي بن الجهم. يبدو لي أن البحتري وقف أمام هذه القصيـدة فلم يستطع مجاراتها وبخاصة أنه كان مبتـدئاً في وصف القصور. فقصائده الأولى لا ترقى إلى مستـوى تلك القصيـدة التي كلما قراتها ازددت إعجابا بها.

ونخلص من تلك الوقفـات عند وصف البحتري لقصـور المتوكل، ونقول إن شاعرنا بدوي لم ينبهر بمظاهـر الحضارة، وإن هذه القصائد التي وقفنا عنـدهـا تعد من القصائد الأولى التي تعرض فيها للقصـور، وإن هذا الفن قد تطور عند الشاعر، فتحول من وقفـات مبعثرة إلى أبيات كثيرة تستأثر بنصف قصيدة المدح أو أكثر من ذلك، كما في قصيدته التي مدح بها المعتز، ووصف قصر الغرد، والتي مطلعها:

عهـد لعلوة باللوى قد أشكـلا
ماكان أحسن مبتداه وأجملا(٧٩)

والتي أبدع فيها حين وصف تصميم القصر، وتلك القباب العالية التي تزينه، وتبهره تلك الآلة الموضوعة في أعلى القصر والتي تبين اتجاه الريح.

إن قصر الغرد هذا من قصور المتوكل وإن لم يشر إليه المؤرخون إلا أن شعر البحتري يثبت ذلك، فقد قال في قصيدة مدح المتوكل:

تؤم القصـور البيض من ارض بابـل
بحـيث تلاقي غردهــا وبــديعهــا(٨٠)

إن هذا القصر الذي بنــاه المتـوكـل لم يتنـاوله الشــاعـر إلا بإشــارة عابرة، لكنه يُفْصِل في وصفه عندما يمدح المعتز، وهذا دليل على أن نَفَسَ الشاعر قد طال، وإنه قد تمكن من هذا الفن الجديد.

لقد بالغ بعض الدارسين حين جعلوا القصور بما فيها من زينات وزخارف ومسرات ومباهج تحتل المكان الأول في وصف البحتري لأن البحتري نادم المتوكل وتعرف على أسرار قصوره.(٨١)

الحق إننـا لم نعثـر على تلك الأسرار، فقـد كان شاعرنا ضنيناً بها علينا، ولم تتجاوز وقفاته المظهر الخارجي للقصر إلا قليلا.

الخلاصـــــة

من دراستنـا لوصف القصور في شعر البحتري يتبين لنا ما يأتي:

١ ـــ الاضـطـراب الشـديد في نسبة القصور إلى أصحابها فقصر الكامل ينسبه المؤرخون إلى

(٧٨) علي بن الجهم، علي بن الجهم بن بدر (ت ٢٤٩هـ)، **ديوان علي ابـن الجـهم**، تحقيق خليـل مردم بك، ط ٢ (بـيروت: الآفـاق الجديدة، د.ت)، ص ٢٨.

(٧٩) البحتري، **ديوان**، جـ٣، ص ١٦٤٧.

(٨٠) البحتري، **ديوان**، جـ٣، ص ١٧.

(٨١) محمد مهدي البصير، **في الأدب العباسي**، ط ٢ (بغداد: مطبعة السعدي، ١٩٥٥م)، ص ٢٦٠.

المتوكل، على حين أن شعر البحتري يؤكد نسبته إلى المعتز .

٢ ـ إن وصف القصور لم يكن غاية الشاعر بل وسيلته للوصول إلى قلب الممدوح. لذا فهو يزاوج بين الوصف والمدح ويقطع على قارئه لذة الوصف بإقحام المدح.

٣ ـ إن شاعرنا لم يكن شديد الانبهار بمظاهر العمران لذا فإنه لا يطيل الحديث عنها، بل يمر على ذلك مروراً سريعاً، لكنه يقف وقفة متمهلة حين يتحدث عن الماء، سواء أكان هذا الماء نهراً أم بركة. لذا أبدع في وصف بركة المتوكل، ويبدو لي أن ذلك الأمر يعود إلى غرام البدوي بالماء.

٤ ـ يتميز وصف البحتري للقصور بتكرار النموذج، ولعل ذلك يعود إلى تشابه تلك القصور في العلو والموقع والمظهر.

٥ ـ أن وصف البحتري لقصور المتوكل لا يدل على أن الشاعر قد عاش في تلك القصور وعرف خباياها، بل يدل على إن مكثه فيها لم يتجاوز الجلوس في حدائقها وحول بركها، أما غرفها ومجالسها الداخلية فلم نعثر على صورة لها.

والسمة الغالبة على وصف البحتري هي سمة الإيجاز، فهو يكتفي بالإشارة عن الإطناب، كما إنه يحاول الربط بين الطبيعة والعمران إذ يحلو له أن يقرن النهر بالبركة، أو النافورة، والزجاج بلجج الماء وتفويف الرخام بحبك الغمام، وهكذا، واستطاع البحتري في صوره الجمع بين الجديد والقديم في نسيج فني متآلف. أما لغته فقد جمع لها الجزالة والوضوح واختار ألفاظه بعناية شديدة، وتجنب الأفكار المجردة والمعاني الذهنية.

وصدق ابن الأثير حين قال عنه: «.. إنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية، ورقى في ديباجه لفظه إلى الدرجة العالية».[٨٢]

---

(٨٢) ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧هـ) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانه ، ط ٢ (الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، جـ ١، ص ٢٣.

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الثاني، ٣٩٧ ـ ٤٣٠ (١٩٩٣م).

دور علماء أشيقر في انتشار الحركة العلمية في نجد وظهور الدعوة الإصلاحية السلفية في العارض

للدكتور **عويضه بن متريك الجهني**

ملخص البحث : **لقد ظهرت دعوة محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في أواسط القرن الثاني عشر للهجرة، في بلدة العيينة، في إقليم العارض، بنجد. وكانت بلدة العيينة، إحدى مركزين توافر فيهما العلماء ونمت فيهما دراسة العلوم الشرعية في نجد قبل ظهور الدعوة الإصلاحية. وكان المركز الأقدم والأهم في بلدة أشيقر في إقليم الوشم. وقد قدمت تفسيرات مختلفة لظهور الدعوة الإصلاحية في نجد، ليس من أغراض هذه الدراسة مناقشتها أو الإحاطة بها، إن هذه الدراسة هي محاولة لمعرفة الدور الذي ساهم به علماء بلدة أشيقر في نمو الحركة العلمية في بلاد نجد بشكل عام وفي بلدة العيينة بشكل خاص، خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة. كذلك تهدف هذه الدراسة إلى توضيح الدور الذي لعبه علماء بلدة أشيقر وخاصة، آل مشرف في ظهور الدعوة الإصلاحية في العيينة. ومحاولة دراسة الأوضاع العلمية في بلدة أشيقر خلال القرون: العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة ـ وهي الفترة الزمنية التي يغطيها هذا البحث، ثم دراسة مدى مساهمة علماء أشيقر في انتشار العلم وتوسيع دراسة الفقه في بقية البلدان والأقاليم النجدية بصورة عامة وفي بلدة العيينة بصورة خاصة. كذلك يستعرض الباحث النمو العمراني والسكاني لإقليم العارض خلال فترة الدراسة، ومن ثم هجرة العلماء الأشيقريون إلى ذلك الإقليم وإلى بلدة العيينة بالذات ومن ثم مساهمتهم في نهوض الحركة العلمية في تلك البلدة وظهور الدعوة الإصلاحية فيها.**

تطلب الوصول إلى بعض المعلومات والحقائق والاستنتاجات في هذه الدراسة، القيام بعمل بعض الجداول والبيانات الإحصائية لعلماء نجد، أو بعض أقاليمها أو بلدانها خلال فترات زمنية محددة. ولغرض تسهيل مراجعة ومتابعة تلك المعلومات والحقائق والاستنتاجات، فقد ألحق بهذه الدراسة ثلاثة جداول لعلماء نجد خلال القرون: العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وتضمنت معلومات عن مكان الولادة والنشأة والدراسة والهجرة وزمان الوفاة، إضافة إلى أبرز شيوخ أولئك العلماء. وبسبب طبيعة الموضوع المحلية والدينية فسيُقتصر هنا على استخدام التقويم الهجري فقط.

الأحوال العمرانية والسكانية في بلدة أشيقر

تقع بلدة أشيقر في شمال بلاد الوشم. وكان الوشم أحد أقاليم اليمامة المهمة. وكانت بلاد الوشم من منازل قبيلة بني تميم، ويذكر الجغرافيون من مستوطنات هذه القبيلة في الوشم في صدر الإسلام، ثرمداء ومرأة وأثيفية والقصيبة وذات غسل والشقراء وأشيقر.[1] وخلال القرون الأخيرة من الألف الأول

(١) الحسن بن عبد الله الأصفهاني، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي (الرياض: دار اليمامة، ١٩٦٨م)، ←

للهجرة، أصبح غالبية سكان أشيقر ينتمون إلى قبيلة الوهبة التي تعود بنسبها إلى قبيلة بني تميم.[٢]

كان يساكن عشيرة الوهبة في بلدة أشيقر جماعات وأسر أخرى من غيرهم وكان من أبرز هؤلاء، أسر تنضوي تحت مسمى «بني وائل». وحينما شعر الوهبة بمزاحمة بني وائل لهم على موارد البلدة وازدياد أعدادهم، طردوهم من أشيقر.[٣] لكن يبدو أن خروج بني وائل من أشيقر، لم يخفف كثيرا من الكثافة السكانية في البلدة، فقد ازداد سكان أشيقر، من قبيلة الوهبة بعد الألف للهجرة، وانقسموا إلى عشائر كثيرة.[٤] ولم تعد الموارد الاقتصادية في البلدة تفي بحاجة، أو تواكب النمو السكاني السريع فيها. ويمكن أن يكون من أوضح الأدلة على زيادة الكثافة السكانية في البلدة وعدم كفاية الموارد الاقتصادية المحلية، الصراعات والحروب التي بدأت تنشب بين مختلف العشائر والأسر المنتمية إلى قبيلة الوهبة منذ الربع الأخير من القرن الحادي عشر.

وقد ازدادت هذه الصراعات والحروب خلال القرن الثاني عشر. فقد سجلت لنا المصادر وقوع اثني عشر نزاعا وحربا بين عشائر الوهبة المختلفة خلال النصف الأول من ذلك القرن. وتشير تلك المصادر إلى بعض أسباب تلك الحروب والنزاعات مثل، الخلافات على حقوق استخدام حمى البلدة، أو التنازع على آبار المياه، أو مساحات من الأرض، أو السيطرة على جزء معين من البلدة.[٥] ومع وجود هذه النزاعات والحروب، فان سكان أشيقر كانوا يتوسعون في الزراعة والغرس خلال هذه الفترة.[٦]

كان ينتج عن كل حرب أو تنازع واسع بين عشائر الوهبة في أشيقر، جلاء عدد من الأسر من سكان البلدة وفي بعض الأحيان كانت هذه الأسر، أو بعضها تعود الى البلدة بعد تسوية الخلافات بينها وبين خصومها، وفي أحيان أخرى كانت تلك الأسر، أو اقسام منها تفضل البقاء في الأماكن التي هاجرت إليها واتخاذها وطنا جديدا لها.[٧]

= ص ص ٢٧٢، ٢٧٤ ـ ٢٨٦؛ وانظر ايضا: الحسن بن احمد الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد علي الاكوع (الرياض: دار اليمامة، ١٩٧٤م)، ص ٢٨٤، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠؛ وأيضا ياقوت الحموي، **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، د ت)، جـ١، ص ٢٠٣، ج ٥، ص ٣٧٨.

(٢) يختلف النسابة النجديون المحدثون في نسبة قبيلة الوهبة إلى بني تميم، فبعضهم ينسب الوهبة إلى الرباب، بينما ينسبهم آخرون إلى حنضلة بن زيد. انظر: إبراهيم بن صالح بن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الاعيان وانسابهم وبناء بعض البلدان** (الرياض: دار اليمامة، ١٩٦٦م)، ص ص ٢٠٧ ـ ٢١٩؛ وأيضا: حمد بن محمد ابن لعبون **تاريخ حمد بن محمد بن لعبون**، (الطائف: مكتبة المعارف، ١٤٠٨هـ)، ص ص ٣٠ـ٣١؛ وايضا: محمد بن عبد الله بن بليهد، **صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الآثار**، ط ٢ (دم، ١٣٩٢هـ)، جـ ٣، ص ١٦٤؛ وايضا: حمد الجاسر، **جمهرة انساب الأسر المتحضرة في نجد** (الرياض: دار اليمامة، ١٩٨١م)، ص ص ٩٢٤ـ٩٣٩؛ وأيضا: عبد الله بن عبد الرحمن البسام، **علماء نجد خلال ستة قرون** (مكة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٣٩٨هـ)، ص ١٤، ٢٥، ٢٦، ٣٤١، ٣٤٢.

(٣) ابن لعبون، ص ص ٩٣ ـ ١٠٠؛ ابن عيسى، ص ص ٢٨ـ٣٣.

(٤) انظر تفريعات قبيلة الوهبة في أشيقر في، ابن عيسى، ص ص ٢١٩ ـ ٢٢٨.

(٥) لتتبع هذه النزاعات والحروب وأسبابها، انظر: حوادث النصف الاول من القرن الثاني عشر في، ابن عيسى، وايضا في، محمد بن عمر الفاخري، **الأخبار النجدية**، تحقيق عبد الله الشبل (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، د.ت)؛ وايضا: احمد بن محمد المنقور، **تاريخ الشيخ احمد بن محمد المنقور**، تحقيق عبد العزيز الخويطر (الرياض: د.ن، ١٣٩٠هـ)؛ وايضا: **تاريخ محمد بن يوسف الاشيقري**، الموجود ضمن مجموعة خطية تحمي عددا من النبذ التاريخية لبعض علماء ومؤرخي نجد، جمعها الشيخ عثمان بن منصور التميمي (ت ١٢٨١هـ) وقد وجدت هذه المخطوطة ملحقة باحدى مخطوطات كتاب، «**عنوان المجد في تاريخ نجد**» لعثمان بن بشر. انظر عن هذه المجموعة الخطية،

Uwaidah Al-Juhany, *The History of Najd Prior to the* ***Wahhabis**: A Study of Social, Political and Religious Conditions in Najd during Three Centuries Preceding the Wahhabi Reform Movement.*

رسالة دكتوراة غير منشورة (سياتل، جامعة واشنطن، ١٩٨٣م)، ص ص ٩ـ١٣، وسيشار إلى هذه المجموعة بعد الآن، «**مجموعة ابن منصور**».

(٦) يذكر محمد بن يوسف الاشيقري «غرس» انشاء ثلاثة من بساتين النخيل في أشيقر خلال العقد الاول من القرن الثاني عشر، انظر، **مجموعة ابن منصور**، ورقة ١ـ٢.

(٧) لتتبع النزاعات والحروب التي كانت تحدث بين اهل اشيقر وجلاء بعض الأسر الذي كان ينتج عن ذلك؛ انظر **الفاخري**، ص ٨٨، ٩١، ٩٢ وايضا: **ابن عيسى**، ص ص ٧٨، ٨٣ ـ ٨٥، وايضا ابن يوسف في **مجموعة ابن منصور**، ورقة ٢.

وهكذا فقد تمخض عن تلك النزاعات والحروب المستمرة بين مختلف عشائر الوهبة في أشيقر، هجرة عدد كبير من أسرهم وعشائرهم من البلدة وتفرقهم في بعض المناطق النجدية الأخرى، وقد استوطن هؤلاء المهاجرون أقاليم القصيم وسدير والمحمل والعارض وبلدان الوشم الأخرى.[٨]

هذه اللمحة السريعة عن سكان بلدة أشيقر ونزاعاتهم وهجراتهم تدل بوضوح على الكثافة السكانية النسبية في تلك البلدة خلال القرنين الأولين من الألف الثاني للهجرة، وبما أن إقليم الوشم بشكل عام، وبلدة أشيقر بشكل خاص، لم تكن من الأقاليم المعروفة بكثافة السكان أو سعة الاستيطان في نجد أو اليمامة خلال الفترة الإسلامية المبكرة ـ كوادي حنيفة مثلا ـ فإن أوضاع بلدة أشيقر السكانية والعمرانية، خلال الفترة المشار إليها أعلاه لجديرة بالاهتمام.

الحركة العلمية في أشيقر (ق١٠ ـ ق١٢هـ)

إن أهم ما يميز تاريخ بلدة أشيقر خلال الفترة الممتدة من القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر للهجرة، ومما يجدر الاهتمام به ايضا، ازدهار الحركة العلمية في تلك البلدة، فقد حرص عدد كبير من سكان أشيقر خلال الفترة المذكورة، على طلب العلوم الشرعية، كما حرصت كثير من الأسر فيها على إتاحة الفرصة وتوفير الوقت والمال لأبنائها لكي يتفرغوا لطلب العلم ودراسة الفقه، حتى أصبحت البلدة خلال الفترة المشار اليها أهم مراكز التعليم الديني في نجد على الإطلاق.[٩] وتدل بعض وثائق الأوقاف التي وجدت في هذه البلدة والتي تعود إلى القرن الثامن على قدم انتشار التعليم الديني فيها.[١٠]

وقد يكون من أوضح الشواهد على أهمية بلدة أشيقر ومكانتها العلمية في نجد، نسبة عدد العلماء من أهلها مقارنة بنسبة عدد علماء نجد الآخرين خلال القرون: العاشر والحادي عشر والثاني عشر، فالمستعرض لكتب تراجم العلماء النجديين، يلاحظ التفوق الواضح الذي تمتاز به أشيقر على البلدان النجدية الأخرى من حيث عدد العلماء.[١١] تحصي كتب التراجم النجدية خمسة عشر عالما نجديا عاشوا خلال القرن العاشر، فقد برز ثمانية وعشرون عالما في نجد، كان ستة عشر عالما منهم قد ولدوا ونشأوا في أشيقر، أما القرن الثاني عشر، فقد شهد بروز خمسة وخمسين عالما في نجد، ولد ونشأ في أشيقر واحد وعشرون عالما منهم.[١٢]

يلاحظ من الجدول رقم (١)، أن نسبة عدد علماء أشيقر، مقارنة بعدد علماء نجد الآخرين عالية جدا خلال القرن العاشر (٦٠٪) وخلال القرن الحادي عشر (٥٧٪). أي أن علماء أشيقر خلال هذين القرنين كانوا يشكلون أكثر من نصف علماء نجد مجتمعين. كما يلاحظ أن هذه النسبة انخفضت قليلا خلال القرن الحادي عشر. أما خلال القرن الثاني عشر، فقد انخفضت النسبة انخفاضا ملحوظاً (١٨ر٣٨٪). ويعود هذا الانخفاض إلى هجرة بعض علماء أشيقر إلى بلدان نجدية أخرى وإلى انتشار التعليم الديني والعلماء في بقية البلدان والأقاليم

---

(٨) لمعرفة أسر الوهبة المهاجرة من اشيقر إلى المناطق النجدية الأخرى أنظر، Al-Juhany, *The History of Najd* pp.207-212.

(٩) البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٤ ـ ١٥، وأنظر ايضا: عبد الله صالح العثيمين، **تاريخ المملكة العربية السعودية** (د م: دن، ١٤٠٤هـ)، جـ١، ص ٤٩، ٥٠

(١٠) انظر بعض هذه الوثائق منشورة في، **مجلة العرب**، جزء ١، (١٣٨٧هـ) ص ص ٥١ ـ ٥٨، وجزء ٦، (١٣٨٧هـ)، ص ص ٥٥٤ ـ ٥٦١.

(١١) انظر ملاحق علماء نجد خلال القرون: العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة المرفقة بهذه الدراسة. وتجب الإشارة هنا إلى أن الباحث اعتمد في وضع الجداول والبيانات الإحصائية التي تضمنتها هذه الدراسة وملاحق علماء نجد المرفقة بها على كتب تراجم علماء نجد المتوافرة له وهي: محمد بن حميد، **السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة**، مخطوطة محفوظة في مكتبة جامعة الملك سعود برقم ١٢٨٧؛ ابراهيم بن ضويان، **رفع النقاب عن تراجم الأصحاب**، مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٧٣٦٩ح؛ عبد الله بن عبد الرحمن البسام، **علماء نجد خلال ستة قرون**) مكة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٣٩٨هـ)؛ ومحمد بن عثمان القاضي، **روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين**، (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٩٨٠م).

(١٢) أنظر الملاحق المرفقة بهذه الدراسة، ويجب التنبيه هنا إلى أن عددا من العلماء الذين ولدوا ونشأوا في بلدة أشيقر قد هاجروا واستقروا في بلدان أخرى.

جدول رقم (١). نسبة عدد العلماء الذين ولدوا ونشأوا في أشيقر إلى عدد علماء نجد الآخرين

القـرن الهجـري	علمـاء نجـد	علمـاء أشيقـر	النسـبة التقـريبية
العاشـــر	١٥	٩	٦٠٪
الحادي عشر	٢٨	١٦	٥٧٪
الثاني عشر	٥٥	٢١	٣٨,١٨٪

النجدية الأخرى خلال ذلك القرن. وهو ما سنعود إلى مناقشته أدناه.

بلدة أشيقر ومساهمتها في انتشار التعليم الديني في نجد

لقـد شهدت منطقة سافلة نجد والقصيم تغييرا واضحـا من الناحيتين، العمرانية والسكانية خلال الفترة موضوع الدراسة.[١٣] فهذه المنطقة التي فقد كثـير من بلدانها وقراها وسكانها منذ القرن الرابع الهجـري تقـريبـا، أخذت تستعيد نموها العمراني والسكاني منذ منتصف القرن التاسع تقريبا.[١٤] لقد بدأ السكان المستقرون وشبه المستقرين في نجد منذ القرن التاسع حركة واسعة تمثلت في الهجرة وإنشاء المستوطنات الجديدة. نتج عنها زيادة كبيرة في عدد المستـوطنـات الحضريـة وبـالتـالي نموا واضحا في السكـان. لقـد ظهـر خلال هذه الفتـرة العديد من البلدان والمستـوطنـات الجديدة في أقاليم العارض وسدير والفرع والأفلاج والقصيم. وكان بعض هذه المستـوطنات ينشأ في أماكن لم يرد ذكرها كمواطن استقـرار في السابق، بينما نشأ بعضها الأخر على انقـاض مستوطنـات قديمـة، أو بالقـرب من تلـك الأنقاض.

إن اكثر من ثلثي البلدان والمستوطنات النجدية الأكثر شهرة وذكرا في المصادر المحلية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، هي من تلك البلدان التي أنشئت في مواقع جديدة أو على أنقاض مستوطنات قديمة، بوساطة جماعات سكانية جديدة خلال الفترة من منتصف القرن التاسع حتى نهاية القرن الثاني عشر.[١٥] وليست هناك حاجة إلى التأكيد بأنه لابد أن يصاحب هذه الحركة الواسعة في الهجرة واستقرار وبناء المستوطنات والبلدان الجديدة نموا موازيا في عدد السكان في المنطقة.

إن هنـاك حاجـات دينيـة واجتمـاعيـة لهـذه المستوطنات والبلدان الجديدة لابد أن تلبى ـ فهي تحتاج إلى أئمة مساجد (مطاوعة) ومعلمين وقضاة وغيرهم ممن لهم معرفة بالعلم الشرعي. وكان يمكن لهـذه المستـوطنات والبلدان الجديدة أن تسد تلك الحاجات عن طريقين:

الطريق الأول، بوساطة ارتحال بعض أبناء تلك المستـوطنـات الجـديدة لدراسة العلوم الشرعية في الأماكن التي يوجد بها علماء مشهورون.

أمـا الطريق الثـاني، فبوساطة استقطاب بعض العلماء ومن لهم معرفة بالعلوم الشرعية من البلدان التي يوجـد بهـا هؤلاء بكثـرة للاستيـطان في تلك المستـوطنـات الجـديـدة وسد حاجاتها من الائمة والمعلمين والقضاة.

وقـد ساهمت بلدة أشيقر باعتبارها أبرز مراكز

---

(١٣) تشمل منطقة «سافلة نجد» من الأقاليم: الوشم، سدير، المحمل، العارض، الخرج، الفرع (الحوطة والحريق) والأفلاج، وكانت هذه المنطقة تعرف قديما باليمامة.

(١٤) عن النـو العمـراني والسكاني في منطقة نجد خلال الفترة من منتصف القرن التاسع حتى منتصف القرن الثاني عشر للهجرة أنظر: Al-Juhany, Chapters; III, IV.

(١٥) Al-Juhany, pp. 225 - 7. ولتتبع تلك المستوطنات والبلدان الجديدة، انظر الفصلين الثالث والرابع من الدراسة نفسها.

جدول رقم (٢). تَوزُّع العلماء على البلدان النجدية المختلفة خلال القرن العاشر

البلـــدة	عدد العلماء*	النسبة التقريبية	البلـــدة	عدد العلماء*	النسبة التقريبية
أشيقر	٩	٦٠٪	العارض	١	٦ر٦٪
مقرن الرياض	٢	١٣ر٣٪	بدون	٢	١٣ر٣٪
العيينـــة	١	٦ر٦٪			
مجموع عدد العلماء (١٥)			النسبة المئوية (١٠٠٪)		

* ينسب العالم هنا إلى بلدة معينة إذا كان قد ولد ونشأ ومات فيها، أو أنه هاجر إليها واستقر ومات فيها.

وجود العلماء في نجد من حيث الكثرة والشهرة في سد الحاجات الدينية والتعليمية للمستوطنات الجديدة وغيرها بكلا الطريقين المذكورين.

١ ـ الطريق الأول: ارتحال طلبة العلم النجديين للدراسة على علماء أشيقر

لقد سبقت الإشارة إلى أن تسعة (٦٠٪) من علماء نجد خلال القرن العاشر ينتمون إلى بلدة أشيقر. ولا تذكر المصادر سوى بلدتي مقرن (الرياض) والعيينة بالإضافة إلى أشيقر كبلدان يسكنها العلماء خلال ذلك القرن.[١٦] فبينما ينتمي إلى بلدة مقرن من هؤلاء العلماء اثنان (١٣ر٣٪) تنسب المصادر واحدا (٦ر٦٪) إلى بلدة العيينة، وآخر (٦ر٦٪) إلى إقليم العارض.

أما العالمان الباقيان (١٣ر٣٪) ممن ترجم لهم من أهل القرن العاشر فلم ينسبا إلى أي بلد أو إقليم بعينه.[١٧] ويظهر بوضوح من الجدول رقم (٢) مدى أهمية بلدة أشيقر من حيث وفرة العلماء وتقدم التعليم ودراسة الفقه فيها خلال القرن المذكور مقارنة بالبلدان النجدية الأخرى.

لقد تضاعف عدد العلماء تقريبا في نجد خلال القرن الحادي عشر، كما زاد عدد البلدان التي صارت موطنا للعلماء خلال ذلك القرن مقارنة بالقرن السابق. فقد ارتفع عدد العلماء المترجم لهم من خمسة عشر عالما إلى ثمان وعشرين عالماً، وعدد البلدان التي أصبح يستوطنها أولئك العلماء من ثلاثة إلى سبعة. وهذا يعني أن التعليم في نجد قد توسع خلال هذا القرن كماً وجغرافيا.

ويلاحظ من الجدول رقم (٣)، ومقارنته بالجدولين رقم (١) و (٢) أعلاه، أنه بالرغم من زيادة العدد الفعلي لعلماء أشيقر خلال القرن الحادي عشر، فقد انخفضت نسبتهم مقارنة بعلماء نجد الآخرين من (٦٠٪) خلال القرن العاشر إلى (٥٧٪) في بداية القرن الحادي عشر، ثم إلى (٤٦ر٤٪) في نهاية ذلك القرن.

(١٦) يشير البسام في **علماء نجد**، ص ٢٠٢، ٣٢٤، ٤٩٢ إلى عدد من العلماء والقضاة خلال القرن العاشر، ويقرن بعضهم بأجود من زامل الجبري، رئيس البحرين ونجد خلال تلك الفترة، لكنه لم يترجم لهم ولم ينسبهم إلى بلدة أو إقليم معين.

(١٧) لم يترجم لإسماعيل ابن رميح العريني الذي نسب إلى إقليم العارض واحمد بن ابراهيم بن أبي حميدان وابن عمه محمد بن إبراهيم بن أبي حميدان اللذان لم ينسبا إلى أي بلدة معينة سوى البسام في **علماء نجد**. وقد يكون إسماعيل بن رميح من اهل مقرن (الرياض) او العيينة، ابرز بلدان العارض في ذلك القرن. وقد نص البسام نفسه (ص ٣٢٤، ٩٢٩) على أن إسماعيل بن رميح قد تولي قضاء بلدة رغبة في إقليم المحمل. كما نص ايضا (ص ص ٢٠٨، ٩٣٨-٩٣٩) على أنه تتلمذ على أحد علماء بلدة أشيقر.

جدول رقم (٣). تَوزُّع العلماء على البلدان النجدية المختلفة خلال القرن الحادي عشر

البلـدة	عدد العلماء*	النسبة التقريبية	البلـدة	عدد العلماء	النسبة التقريبية
أشيقر	١٣	٤ر٤٦٪	العيينة	٦	٤ر٢١٪
القرائن	٢	٦ر٣٪	مقرن (الرياض)	٥	٨ر١٧٪
العودة	١	٦ر٣٪	الدرعية	١	٦ر٣٪
المجمعة	١	٦ر٣٪			
مجموع عدد العلماء (٢٨)			النسبة المئوية (١٠٠٪)		

* ينسب العالم هنا إلى بلدة معينة إذا كان قد ولد ونشأ ومات فيها أو أنه هاجر إليها واستقر ومات فيها.

ولا يعـود ذلك الانخفـاض إلى ظهـور عدد من العلماء في بعض البلدان النجدية الأخرى فقط، بل يعود أيضا إلى هجرة أربعة من العلماء الذين ولدوا ونشأوا وتعلموا في أشيقر، إلى بلدتي العيينة ومقرن (الرياض)، اللتان زاد عدد العلماء فيهما خلال القرن الحـادي عشر بسبب هجـرة أولئك العلماء إليهما، واستقـرارهم فيهما واتخاذهما وطنا، ونشرهم للعلم فيهما عن طريق تتلمذ طلبة العلم فيهما عليهم.[١٨]

وبـالرغم من هذا الانخفـاض في نسبـة علمـاء أشيقـر، فقد ظلت البلدة محتفظة بأهميتها البارزة كمـوطن للعلماء ومركز يقصده طلبة العلم في نجد، حيث بلغ عدد علماء أشيقر خلال هذا القرن ثلاثة عشر عالمـا. أي (٤ر٤٦٪) من علماء نجد كلها، أو مايزيد على ضعف عدد العلماء في العيينة (ستة علماء =٤ر٢١) التي تليها مباشرة في الأهمية. ومما يدل على أهمية بلدة أشيقر العلمية أيضا، أن اثنان من أبرز علماء العارض وهما: عبد الله بن محمد بن ذهلان ومحمد بن موسى البصيري، وأشهر علماء سدير: أبو نمي بن عبد الله العريني خلال هذا القرن قد تتلمذوا على كبـار علمـاء أشيقر وخاصة، الشيخ محمد بن أحمد بن اسماعيل (ت ١٠٥٩هـ).[١٩] وهذا يعني أن ستة عشر عالما أو حوالي (٥٧٪) من علماء نجد قد تتلمذوا على علماء بلدة أشيقر خلال هذا القرن.

تذكـر كتب التـراجم النجدية أربعة من العلماء الذين عاشـوا خلال القـرن الحادي عشر، لكنها لا تحدد شيوخهم أو البلدان التي درسوا فيها. وينتمي اثنان منهم وهما: أحمد بن محمد بن خيخ وزامل بن موسى اليـزيدي إلى بلدة مقرن، بينما تولى الآخران وهمـا: عبـد الله بن عفـالق ومحمد بن عبد الله بن سلطان الدوسري القضـاء في العيينة والمجمعة على التوالي.[٢٠] وليس من المستبعد أن واحدا أو أكثر من هؤلاء العلماء الأربعة قد درس في أشيقر أو على يد أحد علمائها الكثيرين.

تورد كتب التـراجم النجـديـة خمسا وخمسين

(١٨) انظر ملحق علماء نجد خلال القرن الحادي عشر، المرفق بهذه الدراسة.

(١٩) انظر شيوخ هؤلاء العلماء الثلاثة في تراجمهم وترجمة الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل في علماء نجد، ص ١٥٢، ٦٣٠، ٧٨٩، ٩٤٢؛ القاضي، روضة الناظرين، جـ٢، ص ١٦٠.

(٢٠) انظر تراجم هؤلاء العلماء الأربعة في البسام، علماء نجد، ص ص ١٩٠، ٢٦٣ ـ ٢٦٤، ٥٩٧، ٨٧٦ ـ ٨٧٧، وملحق علماء نجد خلال القرن الحادي عشر المرفق بهذه الدراسة.

جدول رقم (٤) تَوزُّع علماء نجد على البلدان والأقاليم المختلفة خلال القرن الثاني عشر

البلدة	عدد العلماء*		النسبة التقريبية	البلدة	عدد العلماء*		النسبة التقريبية
أشيقر	١٥	إقليم الوشم	٢٧ر٣٪	عنيزة	٧	إقليم القصيم	١٣٪
ثرمدا	١		١ر٨٪	الخبراء	١		١ر٨
القرائن	١		١ر٨٪	حريملاء	٢	إقليم المحمل والشبيب	٣ر٦٪
مرات	١		١ر٨٪	ثادق	٢		٣ر٦٪
أثيثة	١		١ر٨٪	رغبة	١		١ر٨٪
جلاجل	١	إقليم سدير	١ر٨٪	العيينة	٢	إقليم العارض	٣ر٦٪
روضة سدير	١		١ر٨٪	مقرن (الرياض)	٣		٥ر٥٪
حوطة سدير	٣		٥ر٥٪	الدرعية	١		١ر٨٪
المجمعة	٦		١١٪	الأحساء	١	خارج نجد**	١٨٪
حرمة	٢		٣ر٦٪	الكويت	١		١ر٨٪
				الزبير	٢		٣ر٦٪
مجموع عدد العلماء (٥٥)				النسبة المئوية التقريبية (١٠٠٪)			

* وينسب العالم هنا إلى بلدة معينة إذا كان قد ولد ونشأ ومات فيها، أو أنه هاجر وأستقر ومات فيها.
** أنظر الحاشية رقم (٢١)

ترجمة لعلماء عاشوا خلال القرن الثاني عشر. وقد توزع هؤلاء العلماء على ثمانية عشر بلدة نجدية بالإضافة إلى الكويت والزبير والأحساء.[٢١] ويلاحظ من الجدول رقم (٤) اتساع الانتشار الجغرافي لعلماء نجد خلال هذا القرن، حتى تجاوز ذلك الانتشار حدود منطقة نجد.

كما يلاحظ أيضا ظهور مراكز جديدة في نجد، ازدهرت فيها دراسة الفقة والعلوم الشرعية وتوافر فيها العلماء. وقد ظهر أبرز تلك المراكز الجديدة في أقاليم، سدير والمحمل والقصيم وخاصة في بلدان: المجمعة والحوطة (سدير) وثادق وعنيزة. وقد برز إقليم سدير خلال هذا القرن كأحد أهم الأقاليم النجدية ـ بعد الوشم من حيث نمو الحركة العلمية ووفرة العلماء. فقد بلغ عدد العلماء المنسوبون إلى بلدانه المختلفة، ثلاثة عشر عالما، أي (٢٤٪) من علماء نجد لهذا القرن.[٢٢]

---

(٢١) الكويت والزبير والأحساء ـ كما هو معروف ـ ليست من نجد، ولكنها من البلاد والمستوطنات التي شملتها حركة الهجرة والاستيطان لسكان نجد خلال الفترة موضوع الدراسة.

(٢٢) أهم بلدان سدير التي نسبت إليها كتب التراجم النجدية علماء عاشوا وتوفوا قبل نهاية القرن الثاني عشر هي: المجمعة، حرمة، حوطة سدير ، روضة سدير ، وجلاجل ـ انظر الجدول رقم(٤) وملحق علماء نجد خلال القرن الثاني عشر المرفق بهذه الدراسة.

كذلك يلاحظ من الجدول رقم (٤)، تراجع عدد ونسبة العلماء المنسوبون إلى اقليم العارض خلال هذا القرن. فقد انخفض عددهم إلى ستة علماء، أي (١١٪) من علماء نجد. ويعود هذا الانخفاض إلى هجرة بعض علماء العارض إلى بلدان أخرى من ناحية وإلى حجب الدعوة الإصلاحية التي ظهرت في ذلك الإقليم بعد منتصف القرن، لشهرة بعضهم الآخر من ناحية أخرى.

يلاحظ أيضا من الجدول رقم (٤)، انخفاض واضح في نسبة عدد علماء بلدة أشيقر مقارنة بعدد علماء نجد الآخرين خلال القرن نفسه. فقد انخفضت النسبة من (٤٦٫٤٪) خلال القرن الحادي عشر الى (٢٧٫٣٪) خلال القرن الثاني عشر ويعود هذا الانخفاض إلى الأسباب نفسها التي ذكرت بالنسبة للقرن الحادي عشر، فقد هاجر ستة علماء تقريبا، كانوا قد ولدوا ونشأوا وتعلموا في أشيقر، ثم انتقلوا إلى بلدان نجدية أخرى واستقروا فيها واستوطنوها.[٢٣]

والرغم من ذلك الانخفاض في نسبة عدد العلماء فقد بقيت بلدة أشيقر محتفظة بأهميتها العلمية في نجد. فقد انتسب إليها خلال هذا القرن خمسة عشر عالما، أي حوالي (٢٧٪) من مجموع علماء نجد خلال القرن المذكور، وهذا العدد يزيد على ضعف عدد العلماء المنسوبون إلى بلدة عنيزة، التي تلي أشيقر مباشرة من حيث عدد العلماء والتي لم تكن موطنا للعلماء خلال القرن السابق. وعند مقارنة عدد علماء أشيقر خلال هذا القرن بعدد علماء كل من بلدتي العيينة ومقرن (الرياض) وهما المركزان العلميان التاليان لأشيقر خلال القرن الحادي عشر، فإننا نجد البون شاسع جداً.

ويدل على الأهمية العلمية لبلدة أشيقر خلال هذا القرن، العدد الكبير من العلماء النجديين من غير المنتسبين إلى تلك البلدة، والذين تتلمذوا كليا أو جزئيا على علماء أشيقر. فتشير كتب التراجم النجدية إلى دراسة أحد عشر عالما من المنتسبين إلى البلدان النجدية المختلفة الأخرى على واحد أو أكثر من علماء أشيقر خلال القرن الثاني عشر.[٢٤] وإذا أضيف هذا العدد إلى عدد العلماء المنسوبون إلى بلدة أشيقر نفسها (١٥ عالما)، فان نسبة العلماء النجديين الذين درسوا على يد علماء أشيقر ستصل إلى أكثر من (٤٧٪) ١١+١٥= ٢٦×١٠٠÷٥٥= (٤٧٫٣٪).

يتبين من الجدول رقم (٤) أيضا، أن البلدتين النجديتين اللتين تأتيان في المرتبة الثانية والثالثة بعد أشيقر من حيث عدد العلماء خلال القرن الثاني عشر هما: عنيزة في القصيم (سبعة علماء =١٣٪) والمجمعة في سدير (ستة علماء= ١١٪)، وقد سبقت الإشارة إلى أن بلدة عنيزة لم تكن موطنا للعلماء خلال القرن الحادي عشر. وكان أول من نزلها منهم الشيخ عبد الله بن أحمد بن عضيب (ت١١٦١هـ) الذي هاجر من روضة سدير إلى المذنب ومنها إلى عنيزة في بداية القرن الثاني عشر. وقد اجتمع إليه طلبة العلم من اهل البلدة وتتلمذ عليه جميع العلماء المنسوبون إلى هذه البلدة لهذا القرن تقريبا.[٢٥] وكان عبد الله ابن عضيب من أبرز تلاميذ عالم بلدة أشيقر المشهور، الشيخ أحمد بن محمد القصير (ت ١١٢٤هـ).[٢٦]

اما بلدة المجمعة، فإن أبرز علمائها خلال القرن الثاني عشر، هو الشيخ أحمد بن شبانة بن محمد بن شبانة.[٢٧] وقد تتلمذ على أحمد بن شبانة، اثنان من علماء المجمعة لهذا القرن هما: ابنه، عبد الجبار بن

---

(٢٣) انظر الجداول رقم (١-٣) للمقارنة؛ وانظر ايضا، ملحق علماء نجد خلال القرن الثاني عشر المرفق بهذه الدراسة لمعرفة علماء اشيقر المهاجرون إلى البلدان الاخرى خلال ذلك القرن.

(٢٤) انظر ملحق علماء نجد خلال القرن الثاني عشر المرفق بهذه الدراسة لمعرفة العلماء الذين درسوا في بلدة أشيقر من غير المنسوبين إليها والبلدان التي ينتمي إليها اولئك العلماء.

(٢٥) ابن حميد، السحب الوابلة، ورقة ١٣٧؛ البسام، علماء نجد، ص ص ٥١٨ - ٥٢٠؛ القاضي، تحفة الناظرين، جـ ١، ص ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٢٦) ابن حميد، السحب الوابلة، ورقة ١٣٦؛ البسام، علماء نجد، ص ٥١٧، القاضي، تحفة الناظرين، جـ ١، ص ٣١٤.

(٢٧) لا تذكر المصادر سنة وفاته، ولكن البسام ينص على انه من علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر. البسام، علماء نجد، ص ١٨١.

شبانه، وابن أخيه عثمان بن عبد الله بن شبانه.[٢٨] وقد درس الشيخ أحمد بن شبانه على عالم أشيقر المشهور، أحمد القصير.[٢٩] أما العلماء الثلاثة الآخرون المنسوبون إلى بلدة المجمعة خلال هذا القرن وهم: حماد بن محمد بن شبانة (ت: ١١٧٥هـ) وعبد الله بن أحمد بن سحيم (ت: ١٧٧٥هـ) وأحمد بن محمد التويجري (ت ١١٩٤هـ) فهم أيضا وثيقي الصلة العلمية بعلماء أشيقر. فقد نص القاضي على أن عبد الله بن سحيم، درس على علماء سدير والوشم.[٣٠]

أما حماد بن محمد بن شبانه، فقد تتلمذ على عبد الله بن سحيم المذكور أعلاه، كما تتلمذ على أبيه، محمد بن حسن بن شبانه، تلميذ الشيخ أحمد القصير.[٣١] أما أحمد بن محمد التويجري، فقد درس على يد تلميذ آخر من تلاميذ الشيخ أحمد القصير، هو عبد القادر العديلي.[٣٢]

وهكذا يظهر جليا الارتباط الوثيق بين المركز الأول للعلم في نجد ـ بلدة أشيقر ـ وبين المركزين اللذين يأتيان بعده مباشرة خلال القرن الحادي عشر وهما: مقرن والعيينة، كما يظهر أيضا الارتباط الوثيق بين ذلك المركز الأول وبين المركزين اللذين يأتيان بعده مباشرة خلال القرن الثاني عشر، وهما المجمعة وعنيزة. كذلك، يظهر جليا، الدور المهم الذي قام به علماء بلدة أشيقر وخاصة العالمان المشهوران، الشيخ محمد بن أحمد بن اسماعيل والشيخ أحمد ابن محمد القصير في نشر التعليم الديني في أقاليم العارض وسدير والقصيم.

٢ ـ الطريق الثاني: هجرة علماء أشيقر إلى البلدان النجدية الأخرى

لم تقتصر تلبية الحاجات الدينية والاجتماعية للمستوطنات والبلدان النجدية الجديدة ـ كما سبقت الإشارة ـ على رحيل أبناء تلك البلدان إلى المراكز العلمية المشهورة وتتلمذهم هناك على علمائها، بل تطلب ذلك أيضا هجرة بعض طلبة العلم والعلماء من تلك المراكز العلمية إلى المستوطنات والبلدان الجديدة أو المحتاجة إلى خدمات أهل المعرفة في العلوم الشرعية. لقد أتاح ظهور تلك المستوطنات الجديدة وتوسعها والنمو السكاني فيها وفي غيرها من البلدان، الفرصة لكثير من العلماء والقضاة للهجرة من مراكز التعليم الديني للاستقرار في تلك المستوطنات والبلدان للعمل كقضاة ومعلمين وائمة فيها.

لقد زخرت بلدة أشيقر خلال القرن الحادي عشر بالعلماء المؤهلين للقضاء.[٣٤] وبدأ بعض هؤلاء العلماء يتطلعون إلى البلدان النجدية الأخرى للانتقال إليها وممارسة القضاء والتعليم الديني فيها، ولهذا شهد القرنين الحادي عشر والثاني عشر هجرة عدد من علماء أشيقر إلى بعض المستوطنات والبلدان الأخرى واستيطانها وممارسة القضاء والتدريس فيها، وقد نجح كثير من هؤلاء العلماء المهاجرون في كسب ثقة سكان مواطنهم الجديدة واتخاذها مواطن دائمة لهم. وقد تكاثرت أسرهم فيها حتى أصبحت تشكل جزءا مهما من المجتمعات التي يعيشون فيها، وكان من أبرز تلك الأسر العلمية المهاجرة من أشيقر، آل مشرف في العارض، وآل شبانة في سدير، وآل فيروز في الأحساء.

وربما ساعد على زيادة هجرة العلماء من أشيقر، النزاعات والمنافسات المستمرة بين مختلف عشائر البلدة والتي سبقت الإشارة اليها، ولاشك انه كان في هذه الهجرات تخفيف من حدة الصراع على الموارد الاقتصادية للبلدة. هذا وقد انتشر العلماء الاشيقريون المهاجرون في أغلب الأقاليم النجدية وفي

(٢٨) انظر ترجمة احمد بن شبانة وترجمة ابنه عبد الجبار وابن اخيه عثمان في البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٨٠ ـ ١٨١، ٣٨٢، ٧٠٦، على التوالي، وانظر ايضا جدول علماء نجد خلال القرن الثاني عشر المرفق بهذه الدراسة.

(٢٩) البسام، **علماء نجد**، ص ١٦٩، ١٨٠.

(٣٠) القاضي، **تحفة الناظرين**، جـ ١، ص ٣١٦. من الواضح ان المقصود بالوشم هنا هو بلدة أشيقر، لانها مقر العلماء.

(٣١) القاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ١٨٩، البسام، **علماء نجد**، ص ١٦٨.

(٣٢) البسام، **علماء نجد**، ص ١٦٩، ١٨٩.

(٣٣) تقع بلدة أشيقر على بعد ١٣٠كم و١٧٠كم إلى الشمال الغربي من العيينة ومقرن (الرياض) على التوالي، و٧٠كم إلى الجنوب الغربي من المجمعة و١٥٠كم إلى الجنوب من عنيزة تقريبا.

(٣٤) البسام، **علماء نجد**، ص ١٥.

غيرها خارج نجد.

كان من أوائل من خرج من علماء أشيقر ليتولى القضاء خارجها، الشيخ محمد بن أحمد بن بسام الملقب بالقاضي. وقد اختاره شريف مكة ليتولى القضاء في عالية نجد التي كان لأشراف مكة نفوذ عليها، وقد اتخذ الشيخ محمد القاضي من بلدة الشعراء مقراً له خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري.(٣٥)

وقد زادت هجرة علماء أشيقر خلال القرن الحادي عشر، حيث انتهى المطاف بأغلب هؤلاء المهاجرين إلى إقليم العارض،(٣٦) وكان من أوائل المهاجرين خلال هذا القرن الشيخ أحمد بن محمد ابن بسام (ت ١٠٤٠) الذي انتقل من أشيقر ليتولى قضاء بلدة القصب في الوشم، ثم قضاء بلدة ملهم في وادي الشعيب بين سنتي ١٠١٠هـ و ١٠١٥هـ، قبل أن ينتقل مرة أخرى إلى بلدة العيينة.(٣٧)

وكان ممن تولى القضاء في إقليم العارض خلال القرن الحادي عشر من آل مشرف الوهبة أهل بلدة أشيقر، الشيخ أحمد بن ناصر بن مشرف، الذي ولي قضاء بلدة مقرن (الرياض) حتى وفاته سنة ١٠٤٩هـ(٣٨) والشيخ عبد الله بن عبد الوهاب بن مشرف، الذي ولي قضاء بلدة العيينة حتى وفاته سنة ١٠٥٦هـ،(٣٩) والشيخ سليمان بن علي بن مشرف، الذي ولي قضاء بلدة الروضة في سدير قبل أن ينتقل منها إلى بلدة العيينة ويتولى قضاءها أيضا حتى وفاته سنة ١٠٧٩هـ.(٤٠)

وخلال القرن الثاني عشر للهجرة، انتقل عدد آخر من طلبة العلم والعلماء من أشيقر للاستقرار والعمل كقضاة في المستوطنات والبلدان النجدية الأخرى، وقد وصلت هجرة هؤلاء العلماء خلال هذا القرن إلى خارج البلاد النجدية، حيث انتقل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن فيروز إلى بلدة الكويت، التي كانت مستوطنة جديدة أنشأتها جماعة من العتوب المهاجرين من نجد، عند رأس الخليج العربي خلال العقود الأولى من ذلك القرن،(٤١) وقد تولى الشيخ محمد بن فيروز قضاء الكويت حتى وفاته فيها سنة ١١٣٥هـ.(٤٢) لكن أسرة آل فيروز لم تبق في الكويت بعد وفاة الشيخ. فقد استوطن ابنه الشيخ عبد الله ابن محمد بن فيروز الأحساء، حيث استقرت الأسرة وتحسنت أحوالها المعيشية والعلمية، وأصبح هو أحد علماء الحنابلة فيها ورحل إليه طلبة العلم من نجد. وقد توفي هناك سنة ١١٧٥هـ.(٤٣)

---

(٣٥) البسام، **علماء نجد**، ص ص ٧٩١ ـ ٧٩٢؛ ابن عيسى، ص ١٢٣.

(٣٦) سنناقش هجرة علماء أشيقر إلى إقليم العارض بتوسع أكثر فيما بعد.

(٣٧) البسام، **علماء نجد**، ص ١٨٧؛ البسام، عبد الله بن محمد (ت ١٣٤٦هـ)، **تحفة المشتاق من أخبار نجد والحجاز والعراق**، نسخة عن المخطوطة الأصلية، كتبها نور الدين شريبة عام ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م، ورقة ٧٥٥؛ القاضي، روضة الناظرين، جـ١، ص ٥٨.

(٣٨) الفاخري، ص ٦٩؛ ابن عيسى، ص ٥٤؛ البسام، **علماء نجد**، ص ١٩٨. ويفيد البسام أن الشيخ أحمد بن ناصر بن مشرف قد ولد وتلقى العلم في بلدة أشيقر.

(٣٩) ابن ضويان، ورقة ١٣٧؛ البسام، **علماء نجد**، ص ٥٩٢.

(٤٠) ابن حميد، ورقة ٩٠، عثمان بن عبد الله بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ (الرياض: وزارة المعارف، ١٣٩١هـ) جـ ٢، ص ٢١٠؛ ابن ضويان، ورقة ١٣٧؛ البسام، **علماء نجد**، ص ص ٣٠٩ ـ ٣١١، ويلاحظ أنه بينما يضع ابن حميد مولد الشيخ سليمان بن علي في العيينة، يؤكد البسام أن مولده كان في بلدة أشيقر.

(٤١) عبد العزيز الرشيد، **تاريخ الكويت** (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٨م)، ص ص ٣١ـ٣٢؛ أحمد أبو حاكمة، **تاريخ الكويت الحديث ١٧٥٠ ـ ١٩٦٥م** (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٤م)، ص ص ٢١ـ٢٥.

(٤٢) الرشيد، **تاريخ الكويت**، ص ص ٩٢ـ٩٣؛ البسام، **علماء نجد**، ص ٨٩٤.

(٤٣) ابن حميد، ورقة ١٤٥، ينص ابن حميد في **السحب الوابلة**، على ان الشيخ عبد الله بن فيروز ولد في الأحساء، كما ينقل القاضي، **روضة الناظرين**، ج ٢، ص ١٧٦، عن ابن حميد، ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن فيروز، ابو الشيخ عبد الله المذكور نزح من أشيقر إلى الاحساء وسكنها. ومن ناحية أخرى، يذكر الشيخ البسام في حاشية ترجمة العلامة المشهور، محمد بن عبد الله بن فيروز ـ ابن الشيخ عبد الله المذكور ـ أن جده الشيخ محمد بن عبد الله (عبد الوهاب) ابن فيروز، انتقل أشيقر إلى الكويت وصار قاضيا فيها حتى توفي سنة ١١٣٥هـ... ثم انتقل من ابنه الشيخ عبد الله من الكويت إلى الاحساء واستوطنه ... (البسام، **علماء نجد**، ص ٨٨٢) وينقل البسام في موضع آخر (ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨) عن العلامة، محمد بن عبد الله بن فيروز، أن مولد ابيه كان عام ١١٠٥هـ دون ذكر للمكان. ونظراً لان الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن فيروز توفي في الكويت وهو قاضيها عام ١١٣٥هـ. كما يذكر الرشيد مؤرخ الكويت، وأن جميع شيوخه وشيوخ ابنه عبد =

وقد أنجب الشيخ عبد الله في الأحساء، العلامة المشهور، محمد بن عبد الله بن فيروز، أحد أشهر علماء الحنابلة في وقته، حيث تقاطر إليه طلبة العلم وأخذ عنه عدد كبير من النجديين وغيرهم. وقد توفي في البصرة سنة ١٢١٦هـ[٤٤]، وكان ممن هاجر من علماء أشيقر الوهبة خلال هذا القرن أيضاء الشيخ عبد المحسن بن علي الشارخي، الذي رحل ـ بعد أن درس على علماء أشيقر ـ إلى الأحساء للدراسة على آل فيروز. وحين طلب أهل بلدة الزبير، في جنوب العراق من شيخه، ابن فيروز أن يأذن له بالانتقال إليهم ليكون لهم إماما وخطيبا وفقيها ثم قاضيا، هاجر إليهم وعاش هناك حتى توفي في سنة ١١٨٧هـ.[٤٥] وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمراء بلدة الزبير وأغلب سكانها خلال هذه الفترة كانوا من المهاجرين النجديين.

وكان ممن انتقل من علماء الوهبة سكان بلدة أشيقر واستوطن بعض البلدان النجدية الأخرى، الشيخ محمد بن عبد الله السويكت، تلميذ الشيخ أحمد بن محمد القصير. وكان أهل بلدة جلاجل في سدير قد طلبوه ليكون لهم قاضيا ومفتيا. فانتقل إلى جلاجل واستقر فيها حتى توفي هناك.[٤٦] كذلك ينسب إلى قبيلة الوهبة، أهل بلدة أشيقر، الشيخ مريد بن أحمد الوهيبي التميمي والشيخ عبد الله بن عيسى المويسي الوهيبي التميمي.[٤٧] وبعد أن بدأ هذان الشيخان تعليمهما على علماء نجد، رحلا إلى بلاد الشام للدراسة على كبار علماء الحنابلة فيها، ثم عادا ليتولى الأول منهما قضاء بلدة حريملا في وادي الشعيب حتى مقتله سنة ١١٧١هـ.[٤٨] والثاني قضاء بلدة حرمة في سدير، حتى توفي فيها سنة ١١٧٥هـ.[٤٩] وقد هاجر أيضا من علماء الوهبه، أهل أشيقر، الشيخ أحمد بن مانع بن شبرمة، الذي انتقل من أشيقر إلى بلدة الدرعية في إقليم العارض عند ظهور الدعوة الإصلاحية. وقد أصبح ابن شبرمة من تلاميذ وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وبالرغم من أنه لم يذكر أن ابن شبرمة قد تقلد منصباً قضائيا أو غيره في العارض قبل وفاته سنة ١١٨٦هـ، إلا أنه كان من أبرز المدافعين عن الدعوة الإصلاحية.[٥٠]

وتجب الإشارة هنا إلى أسرة علمية أخرى من الوهبة، أهل أشيقر، هاجرت إلى بلدة المجمعة في إقليم سدير، هي أسرة: آل شبانه. لا تعرف بالتحديد متى ترك آل شبانه بلدة أشيقر إلى موطنهم الجديد، المجمعة، ولكن يبدو أن لذلك علاقة بالنزاع الذي شب بين عشائر قبيلة الوهبة على النفوذ في أشيقر، وخاصة بين فروعها المنتمية إلى زاخر من جهة، وآل محمد من جهة أخرى في أواخر القرن الحادي عشر وخلال النصف الأول من القرن التالي. وقد تزعم عشيرة آل محمد، التي تنتمي إليها أسرة آل شبانه خلال هذه الفترة أحمد بن عبد الرحمن بن شبانه المقتول سنة ١١٠٩هـ، ومحمد بن عبد الله بن شبانه الملقب بالرقراق، المتوفى سنة ١١٥٥هـ[٥١]

ويظهر أن عشيرة آل محمد وأبائهم قد فقدوا

= الله كانوا من النجديين القاطنين في نجد، كما يستفاد من البسام، فانه من الأقرب ان يكون مولد الشيخ عبد الله في نجد أو الكويت.

(٤٤) ابن حميد، ورقة ٢٣٣ ـ ٢٣٦؛ البسام، علماء نجد، ص ص ٨٨٢ـ٨٨٥، القاضي، جـ٢، ص ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٤٥) **ابن حميد**، ورقة ١٤٩؛ القاضي، جـ ٢، ص ص ٥١ـ٥٢، **البسام، علماء نجد**، ص ص ٦٦٧ـ٦٦٨ ويذكر البسام أن الشيخ عبد المحسن من مواليد بلدة الفرعة، المجاورة لأشيقر، لكنه عاش وتعلم في أشيقر، كما أن أسرته، آل مشرف من أبرز سكان أشيقر أيضا.

(٤٦) البسام، **علماء نجد**، ص ٨٧١.

(٤٧) ينسب البسام في **علماء نجد**، هذين الشيخين إلى قبيلة الوهبة أهل أشيقر ويشاركه القاضي في أن عبد الله المويسي من مواليد بلدة حرمه، لكنهما لا يذكران زمن انتقال أسرته إلى تلك البلدة، أما الشيخ مريد الوهيبي فلم يذكر البسام مكان ولادته، واكتفى بالقول بأنه من سكان حريملاء ـ ولا يعرف متى هاجر الشيخان او اسرتهما إلى موطنهم الجديد ـ والجدير بالملاحظة أنهما أول قاضيين تذكرها المصادر لهاتين البلدتين ـ أنظر: البسام، **علماء نجد**، ص ص ٦٠٤ ـ ٦٠٥، ايضا القاضي، **روضة الناظرين**، ص ٣١٧.

(٤٨) البسام، **علماء نجد**، ص ص٩٤٧ ـ ٩٥٠.

(٤٩) البسام، **علماء نجد**، ص ص٦٠٤ ـ ٦٠٥؛ القاضي، جـ١، ص ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٥٠) البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٨٢ ـ ١٨٣؛ القاضي، **روضة الناظرين**، ص ٦٤.

(٥١) ابن عيسى، ص ص ٦٥، ٦٦، ٧٨، ٩٥، ١٠٣، ١٠٦.

الكثير من قوتهم بسبب تلك الحروب، فأخذت بعض الأسر المنتمية إلى آل محمد تهاجر من أشيقر واحدة بعد الأخرى، فكان أبرز المهاجرين منهم آل شبانه الذين استوطنوا بلدة المجمعة في أواخر القرن الحادي عشر، أو بداية القرن التالي، فتذكر لنا المصادر أنه في سنة ١١٠٩هـ، وبعد مقتل زعيم آل محمد، أحمد بن عبد الرحمن بن شبانه وهدم محلتين من محلاتها، جلا آل محمد وآل خرفان وآل راجح من أشيقر، وبعد فترة قصيرة، رجع آل خرفان وآل راجح، أما آل محمد فلم يرجع منهم إلا القليل، وتفرق باقيهم في البلدان.[٥٢]

لقد ترجم البسام والقاضي لأربعة من علماء آل شبانه ممن توفوا قبل انقضاء القرن الثاني عشر، كما ذكر المؤلفان آخرين منهم عرضا ولم يترجما لهم، والأربعة المترجم لهم هم: أحمد بن شبانه بن محمد ابن شبانه، وحماد بن محمد بن شبانه، وعبد الجبار ابن أحمد بن شبانه وعثمان بن عبد الله بن شبانه[٥٣]، وتتفق المصادر على أن أسرتهم وفدت من أشيقر وأن جميعهم من مواليد بلدة المجمعة، إلا أن تلك المصادر لم تحدد إلا تاريخ وفاة واحد منهم، هو حماد بن محمد بن شبانه، الذي توفي سنة ١١٧٥هـ.[٥٤] لكن هذا لا يعني أن علماء آل شبانه لم يطلبوا العلم إلا بعد هجرتهم إلى المجمعة. فيذكر القاضي في ترجمة الشيخ عبد العزيز بن عثمان بن عبد الجبار بن أحمد بن شبانه، أن جده، أحمد بن شبانه (بن محمد بن شبانه) نزح من أشيقر إلى المجمعة واستوطنها.[٥٥] كما يذكر أيضا، أن حماد بن محمد ابن شبانه المتوفي سنة ١١٧٥هـ، قد تتلمذ على «أبيه»، العلامة محمد «وأنه» من أبرز مشايخه».[٥٦] ولا تورد مصادرنا ترجمة للعلامة محمد بن شبانه الذي ربما يكن قد أصبح من العلماء قبل أن تهاجر أسرته من أشيقر إلى المجمعة. وبالرغم من عدم ذكر مصادرنا ولاية القضاء إلا لاثنين من أولئك العلماء الأربعة، إلا أن أسرة آل شبانه أنجبت عدداً كبيراً من العلماء والقضاة خلال القرن الثاني عشر والقرن التالي.

ولكون هجرة آل شبانه من أشيقر إلى المجمعة قد حدثت مع بداية القرن الثاني عشر ـ كما أسلفنا ـ ونظرا لقلة العلماء في المجمعة وكثرتهم في أشيقر خلال تلك الفترة، فإنه من المرجح أن يكون بعض علماء آل شبانة قد طلبوا العلم وأصبحوا من العلماء قبل هجرتهم إلى وطنهم الجديد.

كان من الأسر التي اشتهرت بتحصيل العلوم الشرعية في أشيقر من غير الوهبة، آل إسماعيل، وكان أشهر علماء آل اسماعيل، الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل (ت ١٠٥٩هـ) أحد أبرز علماء نجد وشيخ اشهر علمائها خلال القرن الحادي عشر، وقد أخذ عدد من علماء آل إسماعيل طريقهم إلى بعض البلدان النجدية الأخرى، فقد انتقل الشيخ إبراهيم ابن محمد بن إسماعيل إلى بلدة القرائن في الوشم وتولى قضاءها وعاش فيها حتى توفي سنة ١١٨٥هـ.[٥٧] وقد تتلمذ عليه من أهل البلدة، الشيخ عبد العزيز الحصين، أحد أشهر قضاة الدولة السعودية الأولى.[٥٨] وانتقل منهم أيضا، الشيخ عبد الله بن أحمد بن إسماعيل إلى بلدة عنيزه في القصيم، حيث أكمل هناك دراسته على الشيخ عبد الله بن عضيب. ثم تولى قضاء إفتاء وإمامة البلدة حتى توفي سنة ١١٩٦.[٥٩]

يبدو جليا من هذا الاستعراض لهجرة علماء أشيقر إلى المستوطنات والبلدان النجدية الأخرى، مدى الانتشار الواسع الذي قام به علماء تلك البلدة خلال القرنين، الحادي عشر والثاني عشر للهجرة

(٥٢) الفاخري، ص ٨٨؛ ابن عيسى، ص ٧٨ ابن يوسف، **مجموعة ابن منصور**، ورقة ٢.

(٥٣) انظر تراجمهم في البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٨٠ ـ ١٨١، ٣٨٢، ٧٠٦ والقاضي، روضة الناظرين، جـ١، ص ٧٩، وقد ورد اسم الأول من هؤلاء العلماء عند ابن بشر «محمد» بدون ألف أنظر: ابن بشر، جـ٢، ص ٣٥.

(٥٤) لقاضي، روضة الناظرين، جـ ١، ص ٧٩.

(٥٥) القاضي، روضة الناظرين، جـ ١، ص ٢٥٦، وهذا يناقض قول البسام في **علماء نجد**، ص ١٨٠)، أن أحمد ابن شبانه قد ولد في المجمعة بعد ان استقرت فيها أسرته.

(٥٦) القاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ٧٩.

(٥٧) البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٣٩ ـ ١٤٠

(٥٨) البسام، **علماء نجد**.

(٥٩) البسام **علماء نجد**، ص ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨

خارج بلدتهم. لقد هاجر علماء أشيقر إلى بلدان كثيرة في داخل نجد وفي خارجها واستوطنوها. وقد تولى أغلب أولئك العلماء القضاء في البلدان التي استقروا فيها. وقد انتقل بعضهم إلى تلك البلدان بطلب من أهلها. كذلك كان بعض أولئك العلماء أول قضاة أو علماء تذكرهم المصادر يستوطنون تلك البلدان. وبالرغم من أن هجرة علماء أشيقر قد شملت أغلب الأقاليم النجدية، إلا أن إقليمي العارض وسدير قد فازا بأغلب أولئك العلماء المهاجرون. وقد اجتمع حول أولئك العلماء والقضاة طلبة العلم من أبناء تلك البلدان والقرى المجاورة لها، وتعلموا الفقه والعلوم الشرعية الأخرى، وتخرجوا على أيديهم ليحملوا مشعل العلم وليوسعوا نطاق التعليم والمعرفة الدينية من بعدهم في تلك البلدان.

ولاشك إذن، في أن أولئك القضاة والعلماء قد ساهموا في نشر العلوم الشرعية والمعرفة الدينية، عن طريق الأحكام والفتاوى التي كانوا يصدرونها، والمواعظ والدروس العامة التي كانت من الوظائف التي كان يحرص على القيام بها أولئك العلماء، وعن طريق تلاميذهم الذين التفوا حولهم وتخرجوا عليهم من أبناء البلدان التي استقروا فيها. وبذلك اتسعت دائرة المعرفة الدينية في نجد باتساع دائرة انتشار العلم والعلماء، وزاد الشعور بأهمية الدين وضرورة الامتثال لأوامره ونواهيه، وتمثل تعاليمه في حياة أهل تلك البلدان. الخاصة والعامة، وذلك بطبيعة الحال ـ على حساب الأعراف والتقاليد التي درج الناس عليها في السابق. كذلك ساهم انتشار أولئك القضاة والعلماء في ترسخ قناعة أهل تلك البلدان في تحكيم الشريعة في حياتهم وخصوماتهم وتصريف أمورهم العامة والخاصة، كما سهل وجودهم في تلك البلدان على الناس اللجوء في أمورهم المختلفة إلى الشرع بدلا من العرف.

عمران إقليم العارض (ق٩ ـ ق١٢هـ)

من المعروف أن إقليم وادي حنيفة (العارض) الذي كانت تسكنه قبيلة بني حنيفة، كان من أكثر أقاليم اليمامة كثافة في السكان وأكثرها بلدانا ومستقرات حضرية عند ظهور الإسلام، كما كان هو المركز السياسي والتجاري لبلاد اليمامة في تلك الفترة.[٦٠] لكن بلاد اليمامة بنيت فيما بعد، ومنذ القرن الرابع الهجري تقريبا باضمحلال سكانها المستقرين وانكماش القرى أيضا من أكثر مناطق اليمامة تأثرا بذلك الاضمحلال.[٦١]

لقد سبقت الإشارة إلى حركة النمو السكاني وحركة الهجرة والاستيطان وإنشاء المستقرات الحضرية الجديدة في سافلة نجد والقصيم التي برزت منذ منتصف القرن التاسع. وكان إقليم العارض أيضا، من أكثر الأقاليم النجدية تأثرا بتلك الحركة. كان من أشهر بلدان وادي حنيفة (العارض) وأكثرها ذكرا ومشاركة في الأحداث خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، العيينة، الدرعية، مقرن (الرياض)، منفوحة، الدلم، السلمية واليمامة. وفيما عدا بلدة منفوحة، فانه لم يرد ذكر لأي بلدة أخرى من هذه البلدان في المصادر قبل القرن التاسع،

(٦٠) لمعرفة البلدان والمستقرات الحضرية في وادي حنيفة في صدر الإسلام، انظر الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص ص ٢٨٢ ـ ٢٨٥؛ والأصفهاني، **الأغاني**، ص ص ٢٥٧ ـ ٣٦٢، ولمعرفة مدى قوة قبيلة بني حنيفة العسكرية والسياسية، انظر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٩م)، جـ ٢، ص ص ٥٠٥ ـ ٥١٦، انظر ايضا:
F. McGraw Donner, "The Bakr B. Wail Tribes and Politics in Northern arabian on the Eve of Islam," *Studia Islamica*, Vol. L1 (1980), pp. 17-19.
وانظر ايضا
Dale Eickelman, "Musaylima, An Approach to the Social Anthropogy of seven century Arabia" *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol x. Pt.1 (1976), pp. 30 - 31.
وعن علاقات اليمامة التجارية، انظر:
F. McGraw Donner, "Mecca's Food Supplies and Muhammad's Boycott" *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol - 20 (1977), p. 262.

(٦١) Al- Juhany, *The History*, pp. 84-87, 165-172.
ويمكن أن يكون من ابرز الشواهد على فقدان وادي حنيفة (العارض) لبعض بلدانه ومستقراته الحضرية، اختفاء مدينتي حجر اليمامه والخضرمة اللتان كانتا حاضرتي المنطقة ومركزيها السياسي قبيل الإسلام وخلال القرون الأولى من الفترة الإسلامية.

وتشير الروايات التاريخية المحلية إلى أن أغلب تلك البلدان قد نشأت بعد منتصف القرن التاسع. كما تذكر تلك الروايات أن الجماعات التي أنشأت البلدان المذكورة - فيما عدا بلدة الرياض - هي جماعات مهاجرة من خارج الإقليم.[٦٢] لقد نمت هذه البلدان والمستقرات الحضرية الجديدة في العارض وتوسعت توسعا ملحوظا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ولأغراض هذه الدراسة سيقتصر الحديث هنا على نشأة ونمو وتوسع بلدان النصف الشمالي من وادي حنيفة (العارض).[٦٣] وخاصة (مقرن) الرياض والدرعية والعيينة

إن موقع بلدة الرياض يعد - بدون شك - من أقدم مواطن الاستقرار الحضري في وادي حنيفة. فقد كانت تقوم في هذا الموقع مدينة حجر اليمامة التاريخية التي هي الحاضرة والعاصمة السياسية لبلاد اليمامة خلال القرون الأولى من الفترة الإسلامية. لكن هذه الحاضرة أخذت تضعف تدريجيا بضعف سكانها، قبيلة بني حنيفة، ولم يحل القرن العاشر الهجري، حتى كانت قد تفككت إلى رياض (جمع روضة) وقرى صغيرة ومحلات متفرقة من أبرزها معكال ومقرن.[٦٤] وقد برزت مقرن وأخذت تنمو وتتوسع حتى أصبحت أهم وأكبر تلك القرى خلال القرن الحادي عشر.[٦٥] ويبدو أن النمو والتوسع قد شمل بلدة مقرن والرياض المجاورة لها حتى غلب مسمى «الرياض» على الموقع كله في نهاية القرن والقرن التالي.[٦٦]

في سنة ١١٤٦هـ قتل رئيس الرياض، زيد أبازرعة وترك ولدا صغيرا، وتولى حكم البلدة دهام بن دواس، خال ولد زيد، وصيا عليه. وقد استبد ابن دواس بحكم الرياض فيما بعد. وقد توسعت وقويتْ البلدة في عهده، فأحاط ابن دواس البلدة والمحلات المجاورة لها بسور قوي. كما بنى حصنا (قصرا) منيعا ظل مقرا لحكام الرياض وأئمة نجد حتى بداية القرن الرابع عشر للهجرة.[٦٧] وتدل المقاومة العنيدة التي واجهت بها بلدة الرياض بقيادة ابن دواس الدولة السعودية الأولى، والتي استمرت مايقارب ثمان وعشرين سنة، تخللتها حوالي خمس وثلاثين موقعة حربية بين الطرفين، على قوة بلدة الرياض وتماسكها السياسي ونموها الاقتصادي والسكاني خلال القرن الثاني عشر.[٦٨]

تشير الرواية التاريخية المحلية إلى أن المُردة الذين أنشأوا بلدة الدرعية في منتصف القرن التاسع

---

(٦٢) عن نشأة بلدتي العيينة والدرعية والجماعات التي أنشأتها، انظر: ابن بشر، جـ ٢، ص ص ١٨٩ - ١٩٠، وابن عيسى، ص ص ٣٥-٣٦، والفاخري، ص ص ٦٠، وعن ظهور بلدة الرياض انظر: حمد الجاسر، **مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ** (الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٦هـ)، ص ص ٩٢ - ٩٥، وعن بلدان الدلم، السلمية واليمامة وسكانها، انظر: عبد الله بن محمد بن خميس، **معجم اليمامة** (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٣٩٨هـ)، جـ ١، ص ٤٣١ - ٤٣٥، جـ ٢، ص ص ٢٩، ٤٧٤ - ٤٧٥.

(٦٣) ينصرف مسمى (العارض) عند ذكره في مصادر القرنين الحادي عشر والثاني عشر إلى بلدان النصف الشمالي من وادي حنيفة الواقعة بين الحائر جنوبا والعيينة شمالا.

(٦٤) الجاسر، **مدينة الرياض**، ص ص ٨٧ - ٩٠
Al - Juhany, *The History*, pp. 168-170.

(٦٥) يدل على أهمية وكبر بلدة مقرن خلال القرن الحادي عشر، كثرة اشارة المصادر إلى حوادثها؛ انظر: المنقور، ص ٤٦، ٤٧، ٦٥؛ وابن بشر، جـ ٢، ص ١٩٩، ٢٠٧، ٢١٨، الجاسر: **مدينة الرياض**، ص ص ٩٠ - ٩١.

(٦٦) الجاسر، **مدينة الرياض**، ص ص ٩٢ - ٩٤، وانظر أيضا مقالته. «الرياض متى عرفت المدينة بهذا الاسم»**العرب**، جـ١، ٢، (١٣٩٩هـ)، ص ص ٩٦-١٠١، ابن خميس، جـ ١، ص ٤٩٠،
Al - Juhany, The History, pp. 6-215.
يطلق مصدران معاصران لهذه الفترة هما: المنقور (ت ١٢٢٥هـ) ومحمد بن ربيعة العوسجي (ت ١١٥٨هـ) الاسمين، «مقرن» و«الرياض» على الموقع عندما ذكرا حادثتين وقعا في المكان نفسه والسنة نفسها (١٠٩٩هـ) فقد سمى المنقور المكان «الرياض» بينما سماه بن ربيعة «مقرن» (انظر: المنقور، **تاريخ الشيخ احمد**... ص ٦٥؛ وابن ربيعة، **تاريخ ابن ربيعة**، تحقيق عبد الله الشبل (الرياض: النادي الأدبي، ١٤٠٦هـ)، ص ٧٥، و**مجموعة ابن منصور**، ورقة ٩، وقد ورد الاسمان معا في إحدى نسخ تاريخ المنقور الخطية عندما ذكر وفاة شيخه، عبد الله بن ذهلان عام ١٠٩٩هـ، انظر **مجموعة ابن منصور**، ورقة ١٧، والجدير بالملاحظة أن تاريخ المنقور هو أقدم مصدر يرد فيه ذكر «الرياض» بهذا الاسم حسب علمنا.

(٦٧) الجاسر، **مدينة الرياض**، ص ص ٩٢ - ٩٥، ، ابن خميس، جـ ١، ص ٤٩٥،
Al - Juhany, *The History*, pp. 217.

(٦٨) لمعرفة مدى شدة المقاومة التي واجهت بها الرياض الدولة السعودية الأولى، انظر: ابن بشر، جـ١، ص ص ٧٦-٧٧، الجاسر، **مدينة الرياض**، ص ص ٩٥ - ٩٩.

الهجري، جماعة مهاجرة من جهات القطيف.(٦٩) وقد ازدهرت بلدة الدرعية خلال القرن العاشر وزادت قوتها وكثر سكانها مما حدا برؤسائها إلى التوسع والاستيلاء على مستوطنات آل يزيد المجاورة للدرعية من الشمال. ومما يدل أيضا على نمو الدرعية وزيادة سكانها وعدم كفاية الموارد المحلية للأعداد المتزايدة من السكان خلال القرن العاشر والقرن التالي، هجرة جماعات من سكان الدرعية ورؤسائها إلى مستوطنات مجاورة، والصراع الذي نشب بين عشائر المردة على رئاسة البلدة خلال القرن الحادي عشر.(٧٠) ومع بداية القرن الثاني عشر زاد نمو بلدة الدرعية وتحسنت الأوضاع الاقتصادية فيها.(٧١) كذلك بدأ رؤساء الدرعية في منافسة كبرى بلدان العارض ـ العيينة ـ على النفوذ في المنطقة.(٧٢) وفي سنة ١١٣٩هـ، طمعوا في نهب بلدة العيينة ذاتها. مستغلين فناء رؤسائها وكثيرا من أهلها في الوباء الذي أصاب البلدة في السنة السابقة.(٧٣) وفي تلك السنة (١١٣٩هـ) تولى مشيخة الدرعية الأمير محمد ابن سعود بن محمد بن مقرن (١١٣٩ ـ ١١٧٩هـ). وقد طالت مدة حكمه واستقرت الأحوال السياسية في عهده، مما زاد في نمو وتوسع البلدة، حتى أصبحت في المرتبة الثانية، بعد العيينة، من حيث القوة والاتساع في إقليم العارض.(٧٤)

تشبه نشأة بلدة العيينة، نشأة جارتها الدرعية. فتذكر الرواية التاريخية المحلية، أن حسن بن طوق، الجد الأعلى لآل معمر، الذي ينتسب إلى عشيرة العناقر سكان بلدة ثرمدا في الوشم، اشترى موقع بلدة العيينة من آل يزيد الحنفيين في منتصف القرن التاسع الهجري.(٧٥) وقد أخذت العيينة في النمو والتوسع وكثر سكانها خلال القرنين العاشر والحادي عشر. كذلك امتد نفوذ رؤسائها آل معمر، جنوبا حتى بلدة الجبيلة والوصيل في وادي حنيفة، وشمالا ليشمل وادي سدوس وقراه ووادي الشعيب وقراه إلى الشمال من وادي حنيفة.(٧٦) وفي بداية القرن الثاني عشر قويت بلدة العيينة وتوسع نفوذها كثيراً في عهد رئيسها المشهور، عبد الله بن محمد بن معمر (١٠٩٦ ـ ١١٣٨هـ)، الذي وصل نشاطه ومحاولاته التوسعية إلى بلدتي ثادق والبير في إقليم المحمل شمالا، وإلى بلدة العمارية في وادي حنيفة جنوبا.(٧٧)

لقد توسعت وازدهرت بلدة العيينة في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن معمر المذكور حتى أصبحت اكبر وأشهر البلدان النجدية خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر. فقد قال، ابن بشر عن الأمير المذكور «لم يذكر في زمانه ولا قبل زمنه في نجد (من يدانيه) في الرئاسة وقوة الملك والعدد والعدة والعقارات والأثاث»(٧٨) وقال في مكان آخر، «وصار له فيها (العيينة) شهرة عظيمة وكبرت العيينة في زمنه وتزخرفت وكثر أهلها وزادت عمارتها».(٧٩)

---

(٦٩) ابن بشر، جـ٢، ص ص ٨٩ ـ ٩٠ : الفاخري ، ص ٦٠؛ ابن عنيسى، ص ٣٦؛ ابن منصور، مجموعة ابن منصور، ورقة ٢٩ ـ ٣٠ بالرغم من ان كل من ابن بشر وابن عيسى وابن منصور ينصون على ان المُرَدَة مهاجرون إلى وادي حنيفة (العارض) إلا أنهم يشيرون في الوقت نفسه إلى العلاقة القبلية بين المردة المهاجرون وبين ابن يزِع، احد رؤساء وادي حنيفة الذي دعى المردة إلى المنطقة وانزلهم موقع الدرعية. وينص ابن عيسى ايضا على ان كل من ابن درع والمردة ينتمون إلى قبيلة بني حنيفة. سكان المنطقة القدماء.

(٧٠) ابن بشر، جـ ٢، ص ص ١٩٠، ٢٠٨، ٢١٢، ٢٢٢؛ وابن عيسى، ص ص ٣٦ ـ ٤٠، ٧٤، ٧٧؛ والمنقور، تاريخ الشيخ احمد، ص ٤٩، ٦١، ٦٦، ٦٨، ٧٢.

(٧١) تشير المصادر إلى انخفاض أسعار التمور والحبوب في الدرعية في عام ١٠٩٩هـ ، مما يدل على وفرة الإنتاج وتحسن الأوضاع الاقتصادية في البلدة أنظر: الفاخري، ص ٨٢؛ وابن بشر، ج ٢، ص ٢١٩.

(٧٢) الفاخري، ص ص ٨١، ١٠٣؛ ابن بشر، جـ ٢، ص ص ٢١٧ ـ ٢١٨؛ ابن عيسى، ص ٧١.

(٧٣) ابن بشر، جـ ٢ ص ٢٢٧.

(٧٤) ربما ساعد على استقرار الأحوال السياسية ونمو الدرعية في عهد الأمير محمد بن سعود، مقتل اثنين من زعماء عشيرة آل وطبان في سنة ١١٣٩هـ، وإجلاء محمد بن سعود لمن بقي منهم عن الدرعية في السنة نفسها. وكان آل وطبان ينافسون آل مقرن، عشيرة الأمير محمد بن سعود على رئاسة البلدة انظر: ابن عيسى، ص ص ٣٨ ـ ٤٠.

(٧٥) ابن بشر، جـ ٢، ص ١٨٩؛ ابن عيسى، ص ٣٥.

(٧٦) ابن بشر، جـ ٢ ص ٢٠٥؛ ابن عيسى، ص ص ٣٦، ٥٢ ـ ٥٣.

(٧٧) ابن بشر، جـ ٢، ص ٢٢١، ٢٢٧، ٢٣٦؛ الفاخري، ٨٠ ـ ٨١، ٩٢، تشير بعض المصادر إلى محاولة ابن معمر التعاون مع رئيس الاحساء وتوسيع نفوذه في نجد، انظر بن بشر، جـ٢، ص ٢٣١.

(٧٨) ابن بشر، جـ ٢، ص ٢٣٦؛ أيضا الفاخري، ص ١٠٠؛ ؛ ابن عيسى، ص ٩٨.

(٧٩) ابن بشر، جـ ٢، ص ٢١٦؛ أيضا : ابن عيسى، ص ٦٩.

وهكذا يبدو بوضوح ظهور عدد من المستوطنات الحضرية الجديدة في اقليم العارض منذ القرن التاسع الهجري. كما يبدو أيضا أن أغلب تلك المستوطنات الجديدة أنشأتها جماعات مهاجرة إلى العارض من خارجه. وقد نمت وتوسعت تلك المستوطنات خلال القرنين التاليين حتى أصبحت أقوى وأوسع بلدان العارض في منتصف القرن الثاني عشر. كذلك يبدو بوضوح أن بلدة العيينة كانت أقوى وأوسع وأغنى وأكثر تلك البلدان سكانا، ليس في العارض فقط، بل في نجد كلها.

هجرة علماء أشيقر إلى إقليم العارض

إن مما يلفت الانتباه، أنه بالرغم من الميراث العمراني القديم لوادي حنيفة، وبالرغم من ظهور عدد من البلدان الجديدة في إقليم العارض منذ القرن التاسع الهجري، وتوسع تلك البلدان ونمو سكان الإقليم خلال القرون الثلاثة التالية، لانجد في المصادر المتوافرة لدينا ما يدل على نمو محلي مساوي أو معادل له في الحياة العلمية وعدد العلماء في ذلك الإقليم. وفي الوقت الذي يضع فيه البسام بلدة العيينة في المرتبة الثانية بعد أشيقر من حيث ازدهار الحركة العلمية وكثرة العلماء فيها قبل ظهور الدعوة الإصلاحية، فانه لا يترجم إلا لأحد عشر عالما من علماء البلدة خلال كل تلك الفترة.[٨٠] أما بلدة مقرن (الرياض)، فقد نسبت إليها كتب التراجم النجدية تسعة علماء خلال الفترة نفسها.[٨١] أما الدرعية، فلم تنسب إليها كتب التراجم إلا عالمين فقط خلال الفترة المذكورة. ومن هنا يتضح أن العلماء المنسوبون إلى أهم وأكبر ثلاث بلدان في العارض، وربما في نجد كلها (٢٣ عالما)، لا يزيدون إلا قليلا عن نصف العلماء المنسوبون إلى أشيقر وحدها (٣٧ عالما) خلال الفترة نفسها.[٨٢]

تنسب المصادر إلى إقليم العارض، خلال القرن العاشر الهجري، أربعة من العلماء فقط هم: أحمد بن يحيى عطوة (العيينة) زامل بن سلطان اليزيدي وسليمان بن محمد بن شمس (مقرن) واسماعيل بن رميح (لم تحدد بلدته).[٨٣] وكان أشهر هؤلاء الأربعة، ابن عطوة، الذي رحل إلى دمشق لطلب العلم وتتلمذ هناك على أبرز علماء الحنابلة مثل: علي بن سليمان المرداوي (ت ٨٨٥هـ) ويوسف بن عبد الهادي (ت ٩٠٩هـ) وأحمد العسكري (ت ٩١٠هـ). وبعد عودته إلى العارض، كتب عدداً من المؤلفات، كما إجتمع اليه عدد كبير من طلبة العلم من مختلف الأقاليم النجدية بما في ذلك بلدة أشيقر، حيث تتلمذ عليه أربعة من علماء الوهبة، اهل أشيقر.[٨٤] ولا شك في أن وجود عالم متميز كابن عطوة في العارض، لابد أن يكون قد ساهم في نمو الحركة العلمية في الإقليم خلال القرن العاشر، حيث تورد المصادر أسماء بعض العلماء الذين تتلمذوا على ابن عطوة، أو دخلوا معه في مناقشات علمية، أو تولوا القضاء لأجود بن

(٨٠) البسام، **علماء نجد**، ص ١٥، ١٩٩؛ والبسام، **علماء نجد**، أوسع من ترجم للعلماء النجديين قبل ظهور الدعوة الإصلاحية، لكنه لم يترجم إلا لعالم واحد من علماء العيينة خلال القرن العاشر، وستة علماء من أهل القرن الحادي عشر وأربعة علماء من أهل القرن الثاني عشر. أنظر ملاحق علماء نجد المرفقة بهذه الدراسة.

(٨١) أورد البسام في **علماء نجد**، تراجم لعالمين من أهل القرن العاشر، ولخمسة من علماء القرن الحادي عشر ولاثنين من علماء القرن الثاني عشر. انظر ايضا، ملاحق علماء نجد المرفقة بهذه الدراسة.

(٨٢) انظر ملاحق علماء نجد المرفقة بهذه الدراسة. ربما تعود قلة العلماء المترجم لهم في مصادرنا من اقاليم نجد الجنوبية، كون مؤلفي تلك المصادر ينتمون إلى اقاليم نجد الشمالية. هذا بالإضافة إلى ان ظهور الدعوة الإصلاحية في العارض في منتصف القرن الثاني عشر، ربما يكون قد حجب الشهرة عن بعض علماء المنطقة لذلك القرن، وخاصة أولئك الذين عارضوها أو لم يتحمسوا لمناصرتها. وربما يفسر هذان السببان، تدني عدد علماء العارض المترجم لهم للقرنين العاشر والحادي عشر ايضا.

(٨٣) انظر ملحق علماء نجد خلال القرن العاشر المرفق بهذه الدراسة وانظر ايضا تراجمهم في البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٩٩ ـ ٢٠٣، ٢٠٨ ـ ٢٠٩، ٢٦١ ـ ٢٦٣، ٣٢٤ ـ ٣٢٥، يذكر البسام، ان الشيخ إسماعيل بن رميح (ت ٩٧٠هـ) ولد في العارض وتولى القضاء فيه، لكنه يذكر ايضا أن موطن عشيرته بلدة العطار في إقليم سدير، وأنه تتلمذ على الشيخ محمد بن مانع بن شبرمة، احد علماء اشيقر، (ص ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، كما يذكر ايضا ان كلا من إسماعيل بن رميح وحفيده، أحمد بن يحي بن رميح المولود في العطار ايضا والمتوفي سنة ١٢٦٣هـ قد تولى قضاء بلدة رغبة الواقعة في إقليم المحمل والتي يسكنها قسم من عشيرتهما «العرينات» (ص ص ٣٠٤، ٩٢٩).

(٨٤) ابن حميد، ورقة ٦٢؛ البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٩٩-٢٠٣.

زامل الجبري، الذي كان يحكم الأحساء ونجد في بداية ذلك القرن.[٨٥]

ولكن بسبب عدم وجود تراجم لهؤلاء العلماء في مصادرنا، فإنه يصعب تحديد الأقاليم أو البلدان التي كانوا يقيمون فيها أو الفترات الزمنية التي عاشوا خلالها. ولكن لا يستبعد أن يكون بعض هؤلاء العلماء من المقيمين في إقليم العارض خلال القرن العاشر.

تنسب كتب التراجم النجدية إلى إقليم العارض اثني عشر عالما من علماء القرن الحادي عشر، نسب ستة منهم إلى بلدة العيينة، هم عبد الله بن عفالق، عثمان بن أحمد بن قائد، محمد بن موسى البصيري، أحمد بن محمد بن بسام، عبد الله بن عبد الوهاب بن مشرف، وسليمان بن علي بن مشرف، بينما نسب ثلاثة منهم إلى بلدة مقرن (الرياض) وهم أحمد بن محمد ابن خيخ، زامل بن سلطان اليزيدي وأحمد بن ناصر ابن مشرف، أما عبد الله بن محمد بن ذهلان وأخوه عبد الرحمن بن ذهلان، فقد ولدا ونشأ وبدأ تعليمهما في العيينة ثم انتقلا إلى مقرن (الرياض) وماتا هناك. أما بلدة الدرعية فلم تنسب المصادر إليهما خلال هذا القرن سوى موسى بن عامر بن سلطان.[٨٦]

إن الزيادة في عدد علماء العارض خلال القرن الحادي عشر مقارنة بالقرن السابق تتسق تماما مع الزيادة في عدد العلماء النجديين عموما. فبينما كانت نسبة الزيادة في عدد العلماء النجديين خلال القرن الحادي عشر مقارنة بالقرن السابق تقترب من الضعف، نجد أن نسبة الزيادة في عدد علماء العارض خلال القرن نفسه تصل الى ثلاثة أضعاف القرن العاشر، وهذه النسبة العالية في نمو الحركة العلمية في العارض، تتناسب أيضا مع النمو العمراني والسكاني في الإقليم الذي سبق الحديث عنه.

ويعود الفضل في نمو الحركة العلمية في العارض خلال القرن الحادي عشر بقدر كبير إلى هجرة عدد من العلماء إليه من مناطق أخرى للاستقرار فيه واتخاذه وطنا. فيمكننا الاستنتاج من المصادر أن خمسة (٤١٫٦٪) من العلماء المنسوبين إلى إقليم العارض خلال ذلك القرن، مهاجرون إلى الإقليم بأنفسهم أو ينتسبون إلى أسر مهاجرة من مناطق أخرى.[٨٧] وقد استوطن هؤلاء العلماء المهاجرون بلدتي العيينة ومقرن (الرياض) وتولوا القضاء فيهما وساهموا في تنشيط الحركة العلمية في إقليم العارض. وينتمي أقدم هؤلاء العلماء المهاجرون وفاة: عبد الله ابن عفالق (ت ١٠١٩هـ) إلى أسرة مهاجرة من الأحساء.[٨٨] بينما ينتمي الأربعة الباقون إلى قبيلة الوهبة سكان بلدة أشيقر، وهم: أحمد بن محمد بن بسام، أحمد بن ناصر بن مشرف، سليمان بن علي بن مشرف وعبد الله بن عبد الوهاب بن مشرف، ويذكر البسام أن الثلاثة الأوائل من هؤلاء العلماء المهاجرون قد ولدوا ونشأوا وتعلموا في بلدة أشيقر قبل أن يهاجروا إلى العارض.[٨٩] أما الرابع: عبد الله ابن عبد الوهاب بن مشرف، فليس في مصادرنا ما يرجح ما إذا كانت ولادته ونشأته وبداية تعليمه - قبيل رحيله إلى مصر للدراسة - في موطن عشيرته، أشيقر أم في مهجره العيينة.

ويلاحظ هنا أيضا، أن ثلاثة من هؤلاء العلماء المهاجرون ينتمون إلى عشيرة واحدة من عشائر الوهبة هي عشيرة: آل مشرف. والحقيقة أن عشيرة آل مشرف كانت أكثر العشائر النجدية إنجابا للعلماء قبل ظهور الدعوة الإصلاحية، فخلال القرن العاشر

---

(٨٥) من هؤلاء العلماء: عبد الله بن رحمة الناصري، القاضي علي بن زيد، القاضي عثمان بن علي بن زيد، حسين بن عثمان بن زيد الشافعي، منصور بن مصبح الباهلي، عبد الرحمن بن مصبح الباهلي، أحدم بن فيروز بن بسام، سلطان بن ريس الوهيبي.

(٨٦) انظر تراجم هؤلاء العلماء في البسام، **علماء نجد**، وانظر أيضا ملحق علماء نجد خلال القرن الحادي عشر المرفق بهذه الدراسة.

(٨٧) انظر ملحق علماء نجد خلال القرن الحادي عشر المرفق بهذه الدراسة.

(٨٨) يذكر البسام أن مساكن آل عفالق في الأحساء، ومنها انتقلوا جماعات وأفراد إلى نجد، وكان آخر انتقال قبيلتهم، جلوتها من الاحساء إلى نجد عام ١١٣٤هـ، فتفرقوا في بلدان نجد... إلا أنه بقي منهم في الاحساء بقية... كذلك يذكر أن الشيخ عبد الله بن عفالق ولد في نجد وتولى قضاء العيينة. **علماء نجد**، ص ٥٩٧، لكنه لا يحدد زمن هجرة أسرة الشيخ إلى نجد او البلدة التي ولد فيها او العلماء الذين تتلمذ عليهم في نجد.

(٨٩) أنظر: البسام، **علماء نجد**، ص ١٨٧، ١٩٨، ٣٠٩، ٣١٠.

انجب آل مشرف ثلاثة علماء، من بين خمسة عشر عالما نجديا ترجم لهم وتوفوا قبل نهاية ذلك القرن (٢٠٪). أما خلال القرن الحادي عشر، فقد أنجب آل مشرف سبعة من علماء نجد الثمانية والعشرين الذين ترجم لهم وتوفوا قبل نهاية ذلك القرن، (٢٥٪).[٩٠]

وكان أربعة من هؤلاء العلماء المشارفة وهم: أحمد ابن محمد بن مشرف (ت ١٠١٢هـ)، وأحمد بن ناصر ابن مشرف (ت ١٠٤٩هـ)، وعبد الله بن عبد الوهاب ابن مشرف (ت ١٠٥٦هـ)، وسليمان بن علي بن مشرف (ت ١٠٧٩هـ) من أشهر علماء نجد خلال القرن الحادي عشر، حيث تتلمذ عليهم وعلى تلاميذهم اغلب طلبة العلم في نجد خلال ذلك القرن.[٩١]

ويظهر أن علاقة علماء آل مشرف الأشيقريون بالعارض، وربما هجرتهم إليه تعود إلى فترة سابقة للقرن الحادي عشر، فالشيخ عبد القادر بن راشد بن مشرف وابنه محمد وحفيده، ناصر بن محمد هم العلماء المشارفة الذين كانوا يمثلون (٢٠٪) من علماء نجد خلال القرن العاشر كما ذكر أعلاه، ويذكر البسام أن كلا من الشيخ عبد القادر بن راشد وابنه محمد كانا من تلاميذ أشهر علماء العارض في ذلك القرن، الشيخ أحمد بن عطوة[٩٢]. وينص البسام أيضا على أن الشيخ ناصر بن محمد بن عبد القادر ابن مشرف قد ولد ودرس وتولى القضاء في أشيقر.[٩٣]

لكن المنقور، المتوفي سنة ١١٢٥هـ، يشير في «الفواكه العديدة» إلى كثير من الوثائق والأحكام والفتاوى والأجوبة، التي يرد فيها اسم الشيخ ناصر ابن محمد، كمفتي أو حاكم أو مشارك في حكم، أو مخالف لحكم بعض علماء العارض في قضايا ذات علاقة بإقليم العارض.[٩٤] ومن أشهر تلك الوثائق، وثيقة وقف جليلة بنت عبد المحسن بن سعيد، خمس حديقتها المسماة، الكبيشية في بلدة مقرن، والمؤرخة في سنة ٩٦٩هـ. وقد اختلف الشيخ ناصر بن محمد مع الشيخ زامل بن سلطان اليزيدي، القاضي في مقرن في الحكم على ذلك الوقف. وقد أيد حكم الشيخ زامل وكتب على وثيقته، عدد من علماء العارض، منهم: سليمان بن محمد بن شمس وموسى بن عامر وإسماعيل بن رميح.[٩٥] كما يشير المنقور أيضا إلى فتوى للشيخ ناصر بن محمد في وقف غانم بن أبي فهيد، في قرية صبيخ وموافقة أهل زمانه له.[٩٦]

والمعروف أن المنقور تلقى تعليمه في بلدة مقرن في العارض تلميذاً لقاضيها، عبد الله بن محمد بن ذهلان، ولذا كان غالب الوثائق المحلية التي ينقل عنها والأحكام والمسائل والأجوبة والفتاوي المحلية التي ضمنها كتابه، «الفواكه العديدة» لعلماء وقضاة من أهل العارض من أمثال: أحمد بن عطوة وأحمد ابن ناصر بن مشرف وسليمان بن علي بن مشرف وعبد الوهاب بن عبد الله بن مشرف وناصر بن محمد بن مشرف، وخاصة تقارير ومسائل وأحكام شيخه، عبد الله بن ذهلان وبعد الإشارة منه.[٩٧] ومن هنا، لا يستبعد أن يكون الشيخ محمد بن عبد القادر بن

---

(٩٠) أنظر ملحق علماء نجد خلال القرنين العاشر والحادي عشر المرفق بهذه الدراسة.

(٩١) لمعرفة مدى اهمية هؤلاء العلماء الاربعة وكثرة تلاميذهم واثرهم في الحركة العلمية في نجد، انظر: البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٩٣ ـ ١٩٤، ١٩٨، ٢٠٩ ـ ٢١٣، ٥٩٢ ـ ٥٩٣؛ وانظر ايضا مكانة اشهر تلاميذهم: محمد بن أحمد بن إسماعيل وعبد الله بن ذهلان وأحمد القصير في المصدر نفسه، ص ص ١٦٧ ـ ١٦٩، ٦٢٠ ـ ٦٢٢، ٧٨٨ ـ ٧٩٠. والقاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ٥٩، ٦٠، ٣١٠، ٣١١، جـ ٢، ص ص ١٦٠ ـ ١٦٢.

(٩٢) البسام، **علماء نجد**، ص ص ٢٠٢، ٨٤٣، ويصف البسام في مكان آخر من الكتاب نفسه، (ص ٤٩٢)، الشيخ عبد القادر بن راشد بانه زميل للشيخ أحمد بن عطوه وانه من علماء اول القرن العاشر، اي انه معاصر له.

(٩٣) البسام، **علماء نجد**، ص ٩٦٥.

(٩٤) انظر: أحمد بن محمد المنقور، **الفواكه العديدة في المسائل المفيدة**، طبعة الشيخ علي آل ثاني، (دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٨٠هـ)، جـ ١، ص ص ٢٢٣، ٤٣٦، ٤٤٧، ٤٥٥ـ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٧٨ـ٤٨١، ٥١٨، ٥٥٤، جـ٢، ص ص ٤٨، ١٠٤ ـ ١٠٥، ٣٢٠، ٣٢٨ ـ ٣٢٩، ٣٨٢.

(٩٥) المنقور، **الفواكه العديدة**، جـ ١، ص ص ٤٧٨ ـ ٤٨١.

(٩٦) المنقور، **الفواكه العديدة**، جـ ١، ص ٤٩٨، ٥٥٤، وتقع قرية «صبيخ» إلى الشمال من بلدة منفوحة، وقد أصبحت فيما بعد حيا من احيائها، انظر: خالد السليمان، **معجم مدينة الرياض**، ط١ (الرياض، ١٤٠٤هـ)، ص ١٤١.

(٩٧) المنقور، **الفواكه العديدة**، جـ ١، ص ص ٣ ـ ٤.

ويلاحظ تواضع مساهمة علماء أشيقر في كتاب: «**الفواكة العديدة**»، بالرغم من كثرتهم وشهرتهم خلال القرنين العاشر والحادي عشر، ويستثنى من ذلك الشيخ محمد بن اسماعيل الذي =

مشرف ـ بعد دراسته على ابن عطوة ـ وابنه ناصر بن محمد قد استوطنا إحدى بلدان العارض، أو توليا القضاء فيها، ولذا برزت شهرتهما في المنطقة فكثرت الإشارة إليهما في «الفواكه العديدة».[٩٨] وقد مهد هذا على مايبدو ـ لتولي الشيخ أحمد بن ناصر بن مشرف ـ ابن الشيخ ناصر بن محمد وحفيد الشيخ محمد بن عبد القادر ـ القضاء في بلدة مقرن (الرياض) حتى وفاته سنة ١٠٤٩هـ[٩٩]، وبالرغم من استيطان الشيخ أحمد بن ناصر بن مشرف للعارض وتوليه القضاء في مقرن فإن الإشارة إليه في نقول ووثائق «الفواكه العديدة» تكرر بدرجة أقل من تلك المتعلقة بأبية ناصر بن محمد.[١٠٠] وقد تتلمذ على الشيخ أحمد بن ناصر، الشيخ عبد الله بن ذهلان، أشهر قضاة مقرن والمتوفي فيها سنة ١٠٩٩هـ.

ويترجم البسام لعالم خامس من آل عبد القادر، المشارفة، له علاقة بالعارض هو: محمد بن ناصر بن محمد بن عبد القاردر بن مشرف، ويذكر أنه ولد ونشأ في أشيقر وتتلمذ على والده ناصر بن محمد، وأنه «أخذ عن العلامة عبد الله بن ذهلان (قاضي مقرن) ولازمه واستفاد منه». ويضيف أن وفاته في أول القرن الثاني عشر، كما يذكر في مكان آخر من كتابه، انه احد شيوخ عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرف قاضي العيينة ثم حريملاء والمتوفي سنة ١١٥٣هـ.[١٠١]

ويشير المنقور أيضا إلى وثائق بخط عالم آخر من علماء آل مشرف، هو الشيخ عبد الوهاب بن موسى بن عبد القادر. ويضيف أنه جد الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله (قاضي العيينة) المعاصر له والمتوفي سنة ١١٢٥هـ.[١٠٢] كذلك، يورد البسام تعقيبا للشيخ عبد الوهاب بن موسى بن عبد القادر على فتوى للعلامة أحمد ابن عطوة.[١٠٣] والشيخ عبد الوهاب بن موسى هذا، هو والد الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب بن موسى بن عبد القادر بن رشيد بن مشرف، قاضي العيينة والمتوفى فيها عام ١٠٥٦هـ. ولا تورد مصادرنا ترجمة للشيخ عبد الوهاب بن موسى، وقد تقدمت الإشارة إلى عدم ذكر تلك المصادر لمكان ولادة ونشأة ابنه، الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب، قبل رحلته إلى مصر للدراسة.

لكن إشارة البسام إلى تتلمذ ابنه المذكور على الشيخ أحمد بن محمد بن بسام المهاجر إلى العيينة عام ١٠١٥هـ، والمتوفى فيها عام ١٠٤٠هـ.[١٠٤] وتوليه القضاء في تلك البلدة بعد عودته من مصر،

= ينقل عنه المنقور كثيراً، ويعود ذلك على ما يبدو إلى كون ابن اسماعيل أشهر علماء نجد خلال القرن الحادي عشر، وهو ايضا شيخ لعبد الله بن ذهلان شيخ المنقور نفسه، واغلب نقل المنقور عنه، عن طريق شيخه ابن ذهلان.

(٩٨) يشير المنقور في **الفواكه العديدة**، جـ ١، ص ٤٥١، الى وقوف شيخ ابن ذهلان، قاضي مقرن على وثيقة مبايعة بخط الشيخ محمد بن عبد القادر بن بريد (بن مشرف). كذلك، يذكر منصور الرشيد، الشيخ محمد بن عبد القادر بن مشرف وابنه ناصر بن محمد ضمن قضاة بلدة الرياض (مقرن) مستتدا على بعض ماورد في الفواكة العديدة، انظر: منصور الرشيد، «قضاة نجد أثناء العهد السعودي»، **الدارة** (رجب، ١٣٩٨هـ)، ص ص ٢٠ ـ ٢١.

(٩٩) **الفاخري**، ص ٦٩؛ ابن بشر، جـ ٢، ص ٢٠٦؛ ابن عيسى، ص ٥٤؛ البسام، **علماء نجد**، ص ١٩٨.

(١٠٠) المنقور، **الفواكه العديدة**، جـ ١، ص ٨٩، ١٠٩، ١٦١، ٢٠٣، ٤٥٨، ٤٨١، جـ ٢، ص ٤٨، ٢٤٨، وقارن بما في الحاشية رقم (٩٤) اعلاه.

(١٠١) البسلم، **علماء نجد**، ص ص ٦٦٩، ٩٤٣. لم ترد لهذا العالم ترجمة في غير البسام الذي يذكره في مكان آخر (ص ٦٢) ضمن تلاميذ ابن ذهلا وانه توفي سنة ١١٣١هـ. كما يذكره **القاضي، روضة الناظرين**، جـ ١، ص ٣١١) ضمن تلاميذ ابن ذهلان، وتجدر الإشارة هنا إلى ارتباك البسام في نسبة علماء أسرة آل عبد القادر المشارفة إلى بعضهم البعض (انظر : تراجم كل من أحمد ابن ناصر وناصر بن محمد ومحمد بن ناصر، ص ١٩٨، ٩٤٣، ٩٦٥) وإذا ثبت وفاة الشيخ محمد بن ناصر في سنة ١١٣١هـ، وتتلمذه على عبد الله بن ذهلان المتوفي سنة ١٠٩٩هـ وتتلمذ عبد الوهاب بن سليمان بن علي المتوفي ١١٥٣هـ عليه. كما يذكر البسام، فانه يستحيل تتلمذه على «والده» ناصر بن محمد الذي يعده البسام نفسه من أهل القرن العاشر. والأقرب أن يكون محمد بن ناصر هذا، حفيداً لناصر بن محمد أو إبناً لأحمد بن ناصر شيخ عبد الله بن ذهلان والأخيران من قضاة مقرن ومن هنا يمكن تتلمذه على ابن ذهلان. وتُرجح علاقة الشيخ محمد بن ناصر بكل من عبد الله بن ذهلان وعبد الوهاب بن سليمان صلته بالعارض.

(١٠٢) المنقور، **الفواكة العديدة**، جـ ١، ص ١٣٩، ٣٦٠.

(١٠٣) البسام، **علماء نجد**، ص ٢٠١.

(١٠٤) البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٨٧ ـ ١٨٨، ٥٩٢. من المرجح ان تكون دراسة عبد الله بن عبد الوهاب على الشيخ أحمد بن بسام =

بالإضافة إلى وجود خط والده، الشيخ عبد الوهاب بن موسى في وثائق جمعت في العارض، كل هذا يرجح استيطان الشيخ عبد الوهاب بن موسى للعيينة.

ويبدو أن الشيخ عبد الوهاب بن موسى، والد الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب بن مشرف، قاضي العيينة والمتوفى فيها سنة ١٠٥٦هـ. كان معاصرا للشيخ ناصر بن محمد، والد الشيخ أحمد بن ناصر ابن مشرف، قاضي مقرن، والمتوفى فيها سنة ١٠٤٩هـ. كما أن كلا منهما ينتمي إلى آل مشرف الأشيقريون، حيث يلتقيان في جدهما المشترك بريد بن محمد بن بريد بن مشرف.(١٠٥) ومن هنا فليس من المستبعد أن تكون هجرة الشيخين أو أسرتهما إلى إقليم العارض واستقرارهما فيه في تواريخ متقاربة.

هجرة علماء أشيقر إلى بلدة العيينة

لقد تقدم الحديث عن نمو الحركة العلمية في بلدة أشيقر وكثرة العلماء فيها. وقد رأينا أن علماء تلك البلدة كانوا يشكلون حوالي (٦٠٪) من علماء نجد كلها خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة. أما بلدة العيينة ـ المركز الثاني للعلم في نجد ـ فلا تنسب إليها مصادرنا خلال القرن العاشر سوى الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة (ت ٩٤٨هـ) وفي حين يتفق ابن حميد والبسام وغيرهما على أنه ولد ونشأ وبدأ تعليمه في بلدة العيينة، ينفرد البسام بالقول أن ابن عطوة سكن بلدة الجبيلة بعد عودته الى نجد(١٠٦)، وليس في هذه المصادر أو غيرها مايشير إلى أن ابن عطوة قد تولى قضاء بلدة العيينة أو غيرها من البلدان،(١٠٧) ويظهر أن ابن عطوة قد رفض القضاء تورعا، وسكن بلدة الجبيلة تبركا، بمجاورة الصحابة المدفونين بجوار البلدة(١٠٨)، وبالرغم من أن مصادرنا لا تنسب للعيينة أي عالم خلال القرن العاشر ـ سوى ابن عطوة ـ إلا أنه من غير المستبعد أن بعض العلماء والقضاة الذين تذكرهم تلك المصادر، كمعاصرين أو تلاميذ لابن عطوة، كان يقيم في العيينة أو يتولى القضاء فيها.(١٠٩)

تنسب مصادرنا للعيينة ـ كما سبقت الإشارة ـ ستة من علماء القرن الحادي عشر ـ ويفهم من تلك المصادر أن اثنين فقط ولدا في البلدة أو ينتميان إلى أسر محلية وهما: محمد بن موسى البصيري، وعثمان ابن أحمد بن قائد.

ويضاف إلى هذين العالمين، عبد الله بن ذهلان وأخوه عبد الرحمن بن ذهلان اللذان ولدا ونشأ وبدأ تعليمهما في العيينة كما أشرنا سابقا، ثم هاجرا إلى بلدة مقرن (الرياض) حيث استقرت أسرتهما واستوطنت البلدة فاعتبرا من أهلها وتوفيا هناك عام ١٠٩٩هـ. أما عثمان بن قائد، فقد رحل للدراسة في

= بعد هجرة الأخير إلى العيينة، لأن ابن بسام هاجر إلى العارض قبل أن يتم دراسته، حيث تتلمذ في العارض على كل من أحمد بن محدم بن خيخ في مقرن وعبد الله بن عفالق في العيينة، قبل ان يجلس للتدريس في العيينة، انظر: البسام، **علماء نجد**، ص ١٨٧؛ والقاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ٥٨.

(١٠٥) خلَف بريد بن محمد بن بريد بن مشرف: راشد، جد ناصر بن محمد بن عبد القادر بن راشد بن بريد، كما خلف أيضا رشيد، جد عبد الوهاب بن موسى بن عبد القادر بن رشيد بن بريد ـ فراشد ورشيد اخوان ـ انظر البسام، **علماء نجد**، ص ٣٢٣، وانظر أيضا نسبهما في ص ص ١٩٨، ٥٩٢، ٦٧١، ٩٦٥ من المصدر نفسه.

(١٠٦) ابن حميد، ورقة ٦٢؛ البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٩٩ ـ ٢٠٠، ٢٠٣.

(١٠٧) انظر المصدرين السابقين، الصفحات نفسها، وانظر أيضا: المنقور، **الفواكه العديدة**، جـ١، ص ١٥٠؛ وابن ضويان، ورقات ١٣٤ ـ ١٣٥؛ وابن عيسى، ص ص ٤٦ـ٤٧؛ وابن بشر، جـ٢، ص ١٩٤.

(١٠٨) تقع بلدة الجبيلة على بعد ٥كم إلى الجنوب من العيينةعلى ضفة وادي حنيفة وتحتل طرفاً من حديقة عقرباء التي وقعت فيها المعركة بين جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وجيش المرتدين بقيادة مسيلمة الكذاب، والتي قتل فيها عدد من الصحابة، أشهرهم، زيد بن الخطاب، ودفنوا هناك. وربما يدعم القول بسكن ابن عطوة للجبيلة ودفنه فيها. عبارات المنقور وابن حميد التي تنص على أن أحمد بن عطوه «دفن ضجيعا لزيد بن الخطاب، خلفه، وجه احمد وراسه حيال كتفي زيد» (ابن حميد،ورقة ٦٢؛ المنقور، **الفواكه العديدة**، جـ ١، ص ١٥٠،) وتقع الجبيلة ضمن المنطقة التي كان آل معمر رؤساء العيينة نفوذ عليها، انظر: ابن بشر، جـ ٢، ص ١٩٠، ابن عيسى، ص ٣٦.

(١٠٩) لمعرفة أسماء هؤلاء العلماء والقضاة: أنظر: ابن بشر، جـ٢، ص ١٩٤؛ ابن عيسى، ص ٤٧؛ البسام، **علماء نجد**، ص ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، ٤٩٢؛ وانظر أيضا حاشية رقم (٨٥) اعلاه.

الشام ثم مصر، واستقر في القاهرة حيث توفي هناك عام ١٠٩٧هـ.[١١٠] ويذكر البسام أن الشيخ محمد ابن موسى البصيري ولد في العيينة وتتلمذ على الشيخ محمد بن إسماعيل في الوشم، زميلا لعبد الله بن ذهلان. كما تصدى للتدريس في العيينة وتوفي فيها في آخر القرن الحادي عشر ولم يذكر أنه تولى القضاء في بلدته.[١١١] وهكذا نرى أن ثلاثة من علماء العيينة المحليين الأربعة قد هاجروا منها واستقروا في أماكن أخرى. ويلاحظ هنا أن جميع هؤلاء العلماء ينتمون إلى النصف الثاني من القرن المذكور. أما النصف الأول من ذلك القرن فلم تنسب مصادرنا للعيينة خلاله من العلماء المحليين أحد. فقد كان يتولى القضاء والإفتاء في البلدة خلال العقدين الأولين من ذلك القرن، الشيخ عبد الله بن عفالق، الذي ينتمي ـ كما ذكر سابقا ـ إلى أسرة مهاجرة من الأحساء.

ومن هنا يتضح أن بلدة العيينة خلال النصف الثاني من القرن العاشر وبداية القرن التالي ـ على عكس مايفهم من بعض المصادر ـ لم تكن «آهلة بالعلم والقضاء» أو «عامرة الفقهاء والعلماء» أو «كاظة بالعلماء».[١١٢] وربما يرجح هذا القول أن المصادر لم تذكر شيوخا محليين لأولئك العلماء الأربعة الذين برزوا خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، ما عدا عثمان بن قائد الذي تتلمذ على اثنين من أولئك العلماء الأربعة أنفسهم هما: محمد البصيري وعبد الله بن ذهلان قبل رحيله إلى الشام ومصر لمواصلة التحصيل. أما البقية فقد درس بعضهم على علماء الوشم (أشيقر) والبعض الآخر سافر إلى خارج نجد للدراسة.[١١٣] كذلك يبدو اضحا اهتمام أهل العيينة بطلب العلم والسفر والاغتراب لتحصيله خلال ذلك القرن، لكنه من غير الواضح سبب عدم عودة أغلب أولئك العلماء إلى بلدتهم والاستقرار فيها.

يظهر أن هذا الفراغ العلمي والنقص في عدد العلماء في العيينة في بداية القرن الحادي عشر، هو الذي جذب إليها عدد من العلماء من خارجها. لقد سبق الحديث عن توسع بلدة العيينة ونموها السكاني والسياسي خلال القرن الحادي عشر. كذلك تقدم الكلام عن ازدهار الحركة العلمية ونمو عدد العلماء في أشيقر خلال القرن نفسه. كما تقدم الكلام أيضا عن هجرة عدد كبير من علماء تلك البلدة مع بداية ذلك القرن واستقرارهم في كثير من البلدان والمستوطنات في داخل نجد وخارجها. ولذلك كان من الطبيعي أن تستقطب العيينة الفائض من العلماء والقضاة الأشيقريون وتجذبهم للهجرة والاستقرار فيها.

كان أول العلماء الاشيقريون المهاجرون إلى العيينة، الشيخ أحمد بن محمد بن بسام، الذي انتقل من أشيقر إلى بلدة القصب في الوشم وصار قاضيا فيها سنة ١٠١٠هـ. إلا أنه لم يمكث طويلا في تلك البلدة، حيث طلبه أهل بلدة ملهم في وادي الشعيب، ليكون قاضيا لهم. ويبدو أن حتى هذه البلدة لم تراض طموحه أو تتناسب مع مكانته العلمية، فانتقل في سنة ١٠١٥هـ إلى بلدة العيينة التي لم تكن تبعد كثيرا عن ملهم، لكنها كانت أكثر منها عمرانا وثراء وشهرة.[١١٤] وبالرغم من أنه لم يجزم أحد بتولي أحمد بن بسام القضاء في العيينة، إلا أن كلا من البسام والقاضي يورد ما يرجح توليه القضاء فيها.[١١٥] وربما يؤيد ذلك تتلمذ أحمد بن بسام على قاضي البلدة وقت انتقاله إليها، الشيخ عبد الله بن عفالق، الذي توفي بعد قدوم ابن بسام بحوالي أربع سنوات. هذا بالإضافة إلى عدم ذكر مصادرنا قاضيا للعيينة خلال الفترة الفاصلة بين وفاة شيخه،

---

(١١٠) انظر تراجم هؤلاء العلماء الأربعة في البسام، **علماء نجد**، وترجمتي كل من عبد الله بن ذهلان وعثمان بن قائد في القاضي وابن حميد.

(١١١) البسام، **علماء نجد**، ص ٩٤٢.

(١١٢) البسام، **علماء نجد**، ص ١٥، ٦٢٠، ٦٨٣، ٨٤٢، ٩٤٢؛ القاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ٦٣، ٣١٠.

(١١٣) لمعرفة شيوخ هؤلاء العلماء الأربعة، أنظر البسام، **علماء نجد**، ص ٤٠٨، ٦٢٠، ٦٨٤، ٩٤٢؛ والقاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ٣١٠، جـ ٢ ورقات ١٤٥، ١٥٥.

(١١٤) البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٨٧ ـ ١٨٨؛ القاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ص ٥٨ ـ ٥٩؛ ابن عيسى، ص ٥٠.

(١١٥) انظر البسام والقاضي، المصدرين نفسهما، والصفحات نفسها، حيث يروي البسام عن والده، تولى أحمد بن بسام قضاء العيينة، كما يشير القاضي إلى وثائق قضائية تدل على تولية القضاء فيها.

ابن عفالق (١٠١٩هـ) وتولى تلميذه، عبد الله بن عبد الوهاب بن مشرف المتوفى سنة ١٠٥٦هـ قضاء البلدة.(١١٦)

سبقت الإشارة إلى ترجيح هجرة الشيخ عبد الوهاب بن موسى بن مشرف من موطن عشيرته، أشيقر واستقراره في العيينة. كما سبقت الإشارة أيضا إلى عدم ذكر مصادرنا للمكان الذي ولد ونشأ فيه، ابنه الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب بن مشرف. وقد ذكرنا هناك أيضا، دراسة الشيخ عبد الله المذكور على الشيخ أحمد بن بسام ورجحنا أن تكون تلك الدراسة في العيينة بعد هجرة الأخير اليها.(١١٧) وهذا بدوره يجعلنا نرجح ارتحال الشيخ عبد الله في مصر على العلامة منصور البهوتي، اشهر علماء الحنابلة في وقته ومحرر مذهبهم وشارح مراجع فقههم. وبعد عودته من مصر، تولى قضاء العيينة حتى وفاته فيها عام ١٠٥٦هـ.(١١٨)

استقطبت العيينة عالما آخر من علماء أشيقر، هو الشيخ سليمان بن علي بن مشرف، وبعد أن أتم الشيخ سليمان دراسته على الشيخ أحمد بن محمد ابن مشرف زالشيخ محمد بن إسماعيل، أشهر علماء أشيقر خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر، طلبه أهل بلدة الروضة في سدير ليكون قاضيا لهم. لكن تلك البلدة الصغيرة المنقسمة على نفسها، لم تكن ـ على مايظهر ـ تناسب مكانته العلمية، فانتقل منها إلى بلدة العيينة.(١١٩) ولا تذكر مصادرنا متى انتقل الشيخ سليمان إلى الروضة ومنها إلى العيينة. إلا أنه يبدو أن الشيخ سليمان قد وصل إل مكانة علمية مرموقة في نجد قبل منتصف القرن الحادي عشر.(١٢٠) وربما يدل على تقدم هجرة الشيخ سليمان إلى العيينة، تزوجه بابنة الشيخ احمد بن بسام الذي سبقه في الهجرة إلى البلدة منذ عام١٠١٥هـ وهي والدة أشهر أبنائه، الشيخ عبد الوهاب بن سليمان ابن مشرف.(١٢١)

ويظهر أن الشيخ سليمان تولى قضاء العيينة خلفا لقاضيها، الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب ـ المتقدم ذكره ـ سنة ١٠٥٦هـ. واستمر في منصبه هذا حتى وفاته في البلدة سنة ١٠٧٩هـ. وقد اشتهر الشيخ سليمان في العيينة التي كانت اكبر البلدان النجدية حتى أصبح «فقيه الديار النجدية»، وانتهت إليه رياسة المذهب في قطر نجد وصار فقيه زمانه متبحرا في علوم المذهب، وانتهت إليه الرئاسة في العلم وكان علماء نجد في زمانه يرجعون إليه في كل مشكلة من الفقه وغيره.(١٢٢)

وفي الوقت الذي يختفي فيه النشاط العلمي لأسرة الشيخ أحمد بن بسام في العيينة بعد وفاته، نلاحظ بروز وازدهار الأسرتين المهاجرتين الأخريين المنتميتين إلى آل مشرف، أسرة الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب وأسرة الشيخ سليمان بن علي في موطنها الجديد. لقد تحسنت الأحوال المادية والعلمية للعلماء المشارفة في بلدة العيينة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر والنصف الأول من القرن التالي فتناسلوا وكثروا فيها حتى أصبحوا يشكلون قسما مهما من سكان البلدة. وقد أنجب المشارفة في العيينة عدد من العلماء والقضاة البارزين الذين ساهموا في نمو الحركة

---

(١١٦) انظر : المصدرين السابقين، الصفحات نفسها.

(١١٧) انظر : حاشية رقم (١٠٤) اعلاه.

(١١٨) البسام ، علماء نجد، ص ٥٩٢، ٦٧١. ويلاحظ وفاة الشيخ عبد الله ابن عبد الوهاب بصحبة امير العيينة، احمد بن عبد الله بن معمر في المفاسل (على طريق الحج) مما يرجح بقاء الشيخ في قضاء البلدة حتى وفاته، انظر: ابن ربيعة، ص ٦٢؛ المنقور، تاريخ الشيخ احمد، ص ٤٦.

(١١٩) ابن حميد، ورقات ٨٩ ـ ٩٠؛ ابن ضويان، ورقة ١٣٧؛ البسام، علماء نجد، ص ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(١٢٠) ربما يدل على هذا، تتلمذ الشيخ سليمان على الشيخ أحمد بن محمد بن مشرف المتوفي سنة ١٠١٢هـ وتاليفه شرحا على كتاب «الاقناع»، أحد اشهر كتب الفقه الحنبلي، قبل عام ١٠٤٩هـ حيث تذكر المصادر أنه أخذ معه شرحه هذا إلى مكة في تلك السنة، وهناك قابل العلامة منصور البهوتي وحين ابلغه البهوتي باتمام شرحه على الكتاب نفسه، اتلف الشيخ سليمان شرحه. انظر ابن حميد، (الذي يذكر كتاب «المنتهى» بدلا من «الإقناع») ورقات ٨٩ ـ ٩٠؛ ابن ضويان ورقة ١٣٧؛ ابن بشر، جـ ٢، ص ٢١٠؛ البسام، علماء نجد، ص ٣١١، البسام ، تحفة المشتاق ، ورقة ٤٨.

(١٢١) البسام، علماء نجد، ص ١١١، ١٨٧، ٦٦٩.

(١٢٢) ابن ضويان، ورقة ١٣٧، ابن بشر، جـ٢، ص ٢١٠؛ البسام، تحفة المشتاق، ورقة ٤٨؛ البسام، علماء نجد، ص ص ٣١٠ ـ ٣١٢.

العلميـة في البلدة، وتقـاطر إليهم طلبـة العلم من العارض وغيره من المناطق النجدية للدراسة عليهم، حتى أصبحت العيينـة خلال الفتـرة المشـار إليها تضـاهي أشيقـر في وفـرة العلماء وازدهار الحركة العلمية.[١٢٣] وربما يدل على تقدم الحركة العلمية في العيينـة خلال الفترة المذكورة وأهمية آراء وفتاوي علمائها في القضايا الشرعية، وتميزهم عن غيرهم من العلمـاء النجديين، إشارات المنقور أحيانا إلى رأي «فقهاء العيينة» في بعض الأحكام الشرعية، كجماعة لها آراءها وفتاويها المتميزة.[١٢٤] ويبدو أن التعميمات الواردة عنـد البسـام والقاضي التي تشير إلى كثرة العلماء في العيينة، تصدق على هذه الفترة دون غيرها.[١٢٥]

وخلال الفترة المشار اليها، أيضا، احتكر العلماء المشارفة القضاء في العيينة. وقد أشرنا أعلاه إلى تولي الشيـخ عبـد الله بن عبد الوهاب بن مشرف قضاء البلدة حتى وفـاته عام ١٠٥٦هـ ثم خلافة الشيخ سليمان بن علي بن مشرف له في المنصب حتى وفاته عام ١٠٧٩هـ. ثم أخذ أبناء وأحفاد هذين الشيخين يتـداولون قضـاء البلدة حتى انتقـال مركـز الثقل العلمي والسيـاسي إلى الدرعية واضمحلال العيينة خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر. فقد تولى قضاء العيينة بعد الشيخ سليمان بن علي، الشيخ عبد الوهاب ـ ابن سلفه في المنصب ـ عبد الله بن عبد الوهـاب حتى وفـاته سنة ١١٢٥هـ.[١٢٦] ثم خلف الشيخ عبد الوهاب بن عبدالله، الشيخ عبد الوهاب ابن سليمان ـ ابن سلفه ـ الشيخ سليمان بن علي، حتى عزله أمير البلدة سنة ١١٣٩هـ.[١٢٧] وقد عين أمـير العيينة خلفا للشيخ عبد الوهاب بن سليمان، الشيخ أحمد بن عبد الله، حفيد الشيخ عبد الوهاب ابن عبد الله بن مشرف المتقدم ذكره.[١٢٨]

وقد بلغ من وفرة العلماء المشارفة في العيينة أن بدأ بعضهم في الانتقال منها إلى بلدان نجدية أخرى وتولي القضاء فيها. وكان من هؤلاء الشيخ إبراهيم ابن سليمـان بن مشرف، الذي ولد في العيينة سنة ١٠٧٠هـ وتعلم فيها ثم تولى القضاء في بلدة أشيقر وتـوفي سنـة ١١٤١هـ.[١٢٩] وكان من هؤلاء أيضا، الشيـخ عبـد الوهاب بن سليمان بن مشرف، الأخ الأكبر للشيخ إبراهيم المتقدم ذكره، الذي انتقل إلى بلدة حريملاء وتولى القضاء فيها بعد عزله عن قضاء العيينة عام ١١٣٩هـ. وقد بقي الشيخ عبد الوهاب في قضاء حريملاء حتى وفاته عام ١١٥٣هـ.[١٣٠] وقد رافق الشيـخ عبـد الوهـاب إلى وطنه الجديد، ابنه الشيخ سليمان المولود في العيينة، ثم خلفه بعد وفاته على قضاء حريملاء حتى سنة ١١٦٨هـ.[١٣١] وكان من علماء العيينة المهاجرون كذلك، الشيخ حمد بن إبراهيـم بن حمد بن عبد الوهاب بن مشرف، الذي تولى قضـاء بلدة مرات في الوشم، قبل أن يعود إلى العـارض للانضـواء تحت لواء الدعوة الإصلاحية ويتوفى في الدرعية سنة ١١٩٤هـ.[١٣٢]

---

(١٢٣) لمعرفة المكانة العلمية لعلماء آل مشرف في العيينة ومعرفة تلاميذهم وابنائهم العلماء خلال هذه الفترة، أنظر تراجم الشيخين: عبد الله بن عبد الوهاب بن مشرف وسليمان بن علي بن مشرف، وابنيهما: عبد الوهاب بن عبد الله بن مشرف وعبد الوهاب بن سليمان بن مشرف في : ابن حميد، ورقات ٨٩ ـ ٩٠، ١٥١ ـ ١٥٢، ١٥٣؛ والبسام، **علماء نجد**، ص ص ٣٠٩ ـ ٣١٣، ٥٩٢ ـ ٥٩٣، ٦٦٩ ـ ٦٧٢

(١٢٤) المنقور، **الفواكه العديدة**، جـ ١، ص ص ٢٢٣، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٨٦.

(١٢٥) انظر : البسام، **علماء نجد**، ص ١٥، ٦٢٠، ٦٨٣، ٩٤٢،٨٤٢؛ والقاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ٦٣، ٣١٠.

(١٢٦) البسـام، **علماء نجد**، ص ص ٦٧١ ـ ٦٧٢؛ الرشيد، **الدارة**، (رجب ١٣٩٨هـ)، ص ٢٤.

(١٢٧) ابن ضويان، ورقة ١٣٨؛ ابن عيسى، ص ١٠١؛ البسام، **علماء نجد**، ص ص ٦٦٩ ـ ٦٧٠.

(١٢٨) ابن ربيعة، ص ص ٨٩ ـ ٩٠؛ الفاخري، ص ١٠١؛ ابن بشر، جـ ١، ص ٢١، جـ ٢ ص ٢٣٨، ابن عيسى، ص ١٠١

(١٢٩) البسام، **علماء نجد**، ص ص ١١٠ ـ ١١١، هذا هو ابن الشيخ سليمان بن علي بن مشرف قاضي العيينة المتوفي سنة ١٠٧٩، وأن مما يلفت النظر هنا تولي الشيخ إبراهيم القضاء في اشيقر الآهلة بالعلماء خلال هذه الفترة.

(١٣٠) ابن بشر، جـ ١، ص ١١٤، جـ ٢، ص ٢٣٨؛ البسام، **علماء نجد**، ص ص ٦٦٩ ـ ٦٧٠.

(١٣١) ابن بشر، جـ ١، ص ٤١، ٤٢، ١١٤؛ البسـام، **علمـاء نجـد**، ص ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(١٣٢) البسـام، **علمـاء نجد**، ص ٢٣٢؛ والقاضي **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ٨٠، والشيخ حمد هذا من ذرية الشيخ عبد الوهاب ابن عبد الله بن مشرف قاضي العيينة والمتوفى فيها سنة ١١٢٥هـ. ويرد نسبه في (ابن بشر، جـ ١، ص ٩٠) هكذا: حمد بن إبراهيم ابن حمـد بن عبد الله بن عبد الوهاب ـ كما يرد اسمه في (ابن =

وهكذا يبدو واضحا، نمو وازدهار الحركة العلمية في بلدة العيينة خلال القرن الحادي عشر والنصف الأول من القرن التالي. وقد تزامن هذا الازدهار مع - وربما ساعد على تحقيقه - النمو والتوسع العمراني والسياسي الذي بلغته البلدة خلال تلك الفترة والذي تقدم الإشارة إليه. كما يبدو واضحا أيضا، أن الفضل في نمو وتقدم الحركة العلمية في البلدة خلال الفترة المذكورة، يعود إلى علماء مهاجرون إلى البلدة من أقاليم أخرى. وكان أبرز أولئك العلماء المهاجرون، العلماء الأشيقريون المشارفة، الذين ازدهرت مكانتهم العلمية والاجتماعية في العيينة وتكاثروا في البلدة حتى احتكروا القضاء فيها منذ منتصف القرن الحادي عشر، وتقاطر إليهم طلبة العلم من مختلف البلدان والأقاليم النجدية. وقد أصبحت العيينة خلال الفترة المذكورة، تأتي في المرتبة الثانية بعد بلدة أشيقر من حيث وفرة العلماء وتقدم الحركة العلمية. وقد بلغ من وفرة العلماء في العيينة خلال القرن الثاني عشر، أن بدأ بعضهم في الانتقال إلى بلدان نجدية أخرى لاستيطانها وتولي القضاء فيها.

لقد تتوجت تلك الحركة العلمية التي ازدهرت في العارض بصوة عامة، وفي بلدة العيينة بصورة خاصة، خلال الفترة المشار اليها، بظهور الدعوة الإصلاحية السلفية التي رفع لواءها الشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن مشرف، المولود في العيينة سنة ١١١٥هـ، وقد قام بتعضيد تلك الدعوة الإصلاحية، والمساعدة في نشر وتطبيق مبادئها، أمير العيينة، عثمان بن حمد بن معمر، وحين واجه ابن معمر ضغوطا خارجية لم يستطع التغلب عليها، تصدى لنصرتها وحماية صاحبها، أمير آخر من أمراء العارض، محمد بن سعود بن مقرن، أمير الدرعية.[١٣٣]

ظهرت الدعوة الإصلاحية في العيينة، بعد منتصف القرن الثاني عشر، وكان أوائل المنضويين تحت لوائها من أهل العلم والحكم وغيرهم، أهل العيينة والبلدان المجاورة لها في العارض، ولهذا وصفها معارضوها «بدعوة أهل العارض» أو «دين أهل العارض».[١٣٤] لقد برزت الدعوة الإصلاحية كثمرة من ثمرات تلك الحركة العلمية التي أسهم في بعثها ونموها في العيينة العلماء المهاجرون الأشيقريون بشكل عام، والمشارفة بشكل خاص. فكان رائدها، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حفيدا للشيخ سليمان بن علي بن مشرف، أبرز علماء العيينة، والمهاجر إليها من أشيقر. وقد تلقى ابن عبد الوهاب دراسته على يد العلماء المشارفة في العيينة قبل رحيله إلى الحرمين والعراق للدراسة هناك. وكان من الطبيعي أن يحرص ابن عبد الوهاب عل اتخاذ العيينة مركزا لنشر دعوته، وأن يلق الاستجابة والدعم من حكام وسكان تلك البلدة.[١٣٥]

لقيت الدعوة الإصلاحية معارضة من قبل كثير من العلماء النجديين وغيرهم. وقد توزع أولئك المعارضون على أغلب البلدان والأقاليم النجدية، الا

= عيسى، ص ٢١١) هكذا: أحمد بن ابراهيم بن احمد بن عبد الوهاب بزيادة الألف.

(١٣٣) ليس من أغراض هذا البحث دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، حيث سدت ذلك الغرض بحوث أخرى. إن الغرض هنا هوبيان مساهمة علماء بلدة أشيقر في تقدم الحركة العلمية في نجد بشكل عام والعارض والعيينة بشكل خاص، ودورهم في ظهور الدعوة الإصلاحية.

(١٣٤) انظر: حسين بن غنام، **تاريخ نجد المسمى، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**، تحرير وتحقيق، ناصر الدين الأسد، مقابلة عبد العزيز بن محمد آل الشيخ (الرياض: الصفحات الذهبية، ١٤٠٣هـ)، جـ ١، ص ٧٧، جـ ٢، ص ص ٧٤، ١٢٨ - ١٢٩، ١٤٧، ١٩٧، ٢١١؛ وانظر أيضا **مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب**، القسم الخامس «**الرسائل الشخصية**»، إعداد وتصنيف، عبد العزيز الرومي، وآخرين، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. د.ت.)، ص ٢٠، ١٩٦، ٢١٨، ٢٣٢؛ وانظر ايضا ابن حميد، ورقة ٢٨.

(١٣٥) ابن غنام، جـ ١، ص ٧٨، ابن بشر، جـ ١، ص ٢٢- ٢٣؛ البسام، **علماء نجد**، ص ٢٧، ٣٢، ٣٥؛ عبد الله صالح العثيمين، **الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حياته وفكره**، (الرياض: دار العلوم، د.ت)، ص ص ٢٨ - ٤٠، ٤٤ - ٤٨.
لقد بدأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب محاولاته الأولى في الوعظ والدعوة إلى الإصلاح في بلدة حريملاء، والتي كان يقيم فيها والده. لكن دعوته لم تنتشر ويكثر اتباعها إلا بعد وفاة أبيه عام ١١٥٣هـ، وانتقال الشيخ إلى العيينة في السنة التالية. انظر المصادر نفسها والصفحات نفسها.

أن تلك الأقاليم تفاوتت من حيث نسبة عدد المعارضين للدعوة من علمائها. ويسترعي الانتباه في هذا المجال، أن العلماء المنتسبون إلى إقليمي الوشم والعارض، وخاصة علماء بلدتي أشيقر والعيينة ـ أهم مركزين للتعليم الديني في نجد خلال القرن الثاني عشر ـ كانوا أقل العلماء النجديين معارضة للدعوة الإصلاحية. وكان أغلب وأشهر معارضي تلك الدعوة ينتمون إلى أقاليم أخرى مثل سدير والقصيم.(١٣٦) فلم يشتهر في معارضة الدعوة من المنتسبين إلى العيينة سوى الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، أخو الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والذي كان يقيم في بلدة حريملاء ويتولى قضاءها.(١٣٧) أما العلماء المنسوبون إلى بلدة أشيقر فلم يشتهر في معارضة الدعوة منهم أحد.(١٣٨) وهذا يدل على توثق العلاقات العلمية والاجتماعية بين المركز الأول للتعليم الديني في نجد «أشيقر» والمركز الثاني «العيينة»، كما يدل أيضا، على تقارب الاتجاهات الفكرية بين علماء المركزين المذكورين. ذلك التقارب الناتج ـ بطبيعة الحال ـ عن كون المركز الثاني ماهو إلا امتداد للمركز الأول.

الخاتمة

يأمل الباحث أن يكون قد اتضح للقاريء من خلال هذه الدراسة، النمو العمراني والسكاني الذي شهدته بلدة أشيقر خلال القرون: العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة، وما نتج عن ذلك النمو السكاني من نزاعات وصراعات بين مختلف عشائر البلدة، ومن ثم هجرة عدد من تلك العشائر أو أقسام منها إلى بعض الأقاليم والبلدان النجدية الأخرى. كما يأمل الباحث أيضا أن يكون قد اتضح للقاريء، مدى تقدم دراسة الفقة وازدهار الحركة العلمية وتضاعف عدد العلماء من قرن لآخر، خلال الفترة المذكورة، في بلدة أشيقر بشكل خاص، وفي البلدان النجدية الأخرى بشكل عام.

لقد تميزت بلدة أشيقر على غيرها من البلدان النجدية الأخرى، خلال الفترة المذكورة، بازدهار الحركة العلمية فيها وكثرة علمائها، حتى بلغ عدد علماء تلك البلدة وحدها خلال القرنين العاشر والحادي عشر أكثر من نصف علماء نجد مجتمعين، وقد رأينا كيف ساهم علماء أشيقر في نشر العلم وتوسيع دراسة الفقه ونمو الحركة العلمية وانتشار العلماء في البلدان النجدية الأخرى، وقد تحقق ذلك بطريقين: أولا، عن طريق رحلة كثير من طلبة العلم النجديين إلى أشيقر للدراسة على علمائها، ثم عودتهم إلى بلدانهم لتولي أمور القضاء والتدريس والوعظ فيها، مما ساعد على توسع دائرة المعرفة الدينية

(١٣٦) يورد البسام، **علماء نجد**، ص ص ٣٦ ـ ٣٧؛ والقاضي، **روضة الناظرين**، (جـ ١، ص ١٦٩) أسماء أبرز العلماء الذين عارضوا الدعوة الإصلاحية. كما ترد إشارات أخرى كثيرة في **«السحب الوابلة»** لابن حميد، وفي عضون الرسائل التي وجهها الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى علماء نجد المعاصرين له يستخلص منها اتساع المعارضة للدعوة الإصلاحية بين علماء نجد وشمولها عدداً أكبر مما يذكره كل من البسام والقاضي، أنظر: **مؤلفات الشيخ الإمام، الرسائل الشخصية**، الرسالة الحادية عشر ومابعدها؛ وابن غنام الجزء الثاني، الفصل الأول.

(١٣٧) ابن حميد، ورقات ١٥١ ـ ١٥٢؛ البسام، **علماء نجد**، ص ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤. ربما تعدو معارضة الشيخ سليمان لدعوة أخيه إلى أسباب شخصية أساسها المنافسة بين الأخوين، أو سياسية تتعلق بموقف رؤساء بلدة حريملاء ـ التي كان الشيخ سليمان يتولى قضاءها من ازدياد نفوذ ابن معمر أمير العيينة.

(١٣٨) يذكر ابن حميد أن للشيخ عبد المحسن بن علي الشارخي، الذي تعلم في بلدة أشيقر وأكمل دراسته على الشيخ محمد بن فيروز في الأحساء، ثم تولى قضاء بلدة الزبيرة، تأليف في الرد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب (**السحب الوابلة**، ورقة ١٤٩). ولكن البسام والقاضي اللذان ترجما للشارخي لا يشيران إلى ذلك التأليف. ولعل الشارخي ـ كغيره من تلاميذ ابن فيروز النجديين ـ تأثر بأفكار شيخه، الذي كان من أشد معارضي الدعوة الإصلاحية. كذلك يشير الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسائله إلى بعض علماء نجد إلى «ابن إسماعيل» كأحد المعارضين لدعوته. (**مؤلفات الشيخ الإمام، الرسائل الشخصية**، ص ٢٠، ٢٦، ٢٧، ١٣٤، ١٦٧، ٢٠٥، ٣٠٠؛ وابن غنام، جـ ٢، ص ٨١،٧٤، ٨٢، ١٨٤، ١٩١، ٢١١، ٢١٨)، ـ وكان آل إسماعيل من أهم الأسر العلمية في أشيقر، وقد عاصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب منهم الشيخ إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل (ت١١٨٥) قاضي بلدة القرائن في الوشم، البسام، **علماء نجد**، ص ص ١٣٩ ـ ١٤٠) والشيخ عبد الله بن أحمد بن إسماعيل الذي انتقل إلى بلدة عنيزة، في القصيم ودرس على الشيخ عبد الله بن عضيب وتولى قضاء عنيزة ومات سنة ١١٩٦هـ (البسام، **علماء نجد**؛ ص ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨، والقاضي، **روضة الناظرين**، جـ ١، ص ص ٣١٨ ـ ٣١٩) ولاندري هل كان «ابن إسماعيل» الذي ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب احد هذين الشيخين أم رجل آخر سواهما.

وانتشار العلم والعلماء في تلك البلدان ثانيا، عن طريق هجرة عدد كبير من علماء أشيقر إلى بعض البلدان والمستوطنات النجدية الأخرى، وتوليهم القضاء والفتوى والتدريس والوعظ في تلك البلدان ونشرهم العلم ودراسة الفقه بأنفسهم وبجهودهم الذاتية من ناحية وعن طريق تلاميذهم من أهل البلدان التي استقروا فيها والبلدان المجاورة لها من ناحية أخرى، وما نتج عن ذلك من نمو الحركة العلمية في تلك البلدان وانتشار المعرفة بالأمور الدينية والشرعية بين عامة الناس في نجد.

ولقد تمخض عن توافد طلبة العلم النجديين للدراسة على علماء أشيقر ثم عودتهم إلى بلدانهم وهجرة كثير من علماء أشيقر أنفسهم إلى عدد من البلدان النجدية، ظهور مراكز جديدة للعلم في نجد من أهمها: بلدتي مقرن (الرياض) والعيينة في العارض خلال القرن الحادي عشر وبلدتي المجمعة في سدير وعنيزة في القصيم خلال القرن الثاني عشر.

لقد شهد إقليم العارض منذ منتصف القرن التاسع الهجري، نموا عمرانيا وسكانيا، تمثل في ظهور عدد من المستوطنات والبلدان الجديدة، وقد نمت وتوسعت تلك البلدان والمستوطنات خلال الثلاثة قرون التالية حتى أصبحت أوسع وأشهر بلدان العارض بل ربما نجد كلها خلال القرن الثاني عشر، وكان أبرز تلك البلدان والمستوطنات الجديدة، الدرعية والرياض والعيينة، وكان أوسع وأغنى وأشهر تلك البلدان، بلدة العيينة، التي أصبحت أكبر وأشهر وأقوى بلدان نجد كلها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، وفيما عدا الرياض كانت الجماعات التي أسست تلك البلدان وعمرتها، جماعات مهاجرة من خارج إقليم العارض.

وقد شهد إقليم العارض أيضا وخلال الفترة نفسها، نموا في الحياة العلمية، موازٍ لذلك النمو الذي شهده في الحياة العمرانية والسكانية لكن النمو العلمي في العارض لم يواكب تماما النمو السكاني العمراني، فقد تخلف عنه زمنا وكما، فلم تبدأ الحركة العلمية في العارض في النهوض إلا مع بداية القرن الحادي عشر، كما أن العلماء المنسوبون إلى جميع بلدان العارض بالرغم من اتساع تلك البلدان وأهميتها، كانوا أقل بكثير من العلماء المنسوبين إلى بلدة أشيقر وحدها، غير أن كلا من الحركتين - العمرانية والعلمية - تتشابهان من حيث اعتمادها على مساهمة جماعات مهاجرة من خارج إقليم العارض.

لقد ساهم علماء أشيقر مساهمة واضحة - كما يتبين من هذه الدراسة - في سد النقص في النواحي العملية والقضائية في إقليم العارض، كما ساهموا في نمو وازدهار الحركة العلمية في الإقليم خلال القرن الحادي عشر والقرن التالي. فقد هاجر عدد منهم إلى العارض واستقروا في بعض بلدانه مثل مقرن (الرياض) والعيينة، وتولوا القضاء والافتاء والتدريس في تلك البلدان، كما تقاطر إليهم طلبة العلم من أهل العارض والأقاليم الأخرى، وكونوا أسرا علمية في الإقليم احتكرت القضاء والإفتاء في بعض بلدانه كالعيينة، وينتمي أغلب أولئك العلماء الأشيقريون المهاجرون إلى عشيرة آل مشرف، التي كانت أبرز العشائر العلمية في أشيقر، ثم صارت أبرز العشائر العلمية في العارض، وقد أصبحت العيينة خلال الفترة المذكورة تأتي في المرتبة الثانية بعد أشيقر من حيث ازدهار الحركة العلمية ووفرة العلماء، وبدأ بعض علمائها ينتقلون منها إلى البلدان الأخرى لتولي القضاء والاستقرار فيها.

لقد كان من أبرز ثمار تلك الحركة العلمية التي شهدها إقليم العارض منذ بداية القرن الحادي عشر الهجري، والتي ساهم في نموها العلماء المهاجرون الاشيقريون، ظهور الدعوة الإصلاحية السلفية في ذلك الاقليم، بعد منتصف القرن الثاني عشر.

وقد حظيت تلك الدعوة بمساندة أغلب أمراء وعلماء وسكان بلدان العارض حتى عرفت في نجد «بدعوة أهل العارض» وكان رائد تلك الدعوة أحد أولئك العلماء الأشيقريين المهاجرون إلى العارض. وقد ظهرت الدعوة في بلدة العيينة، المركز الثاني للعلم في نجد، الذي كان امتداد علمي واجتماعي للمركز

الثـاني للعلم في نجـد، الذي كان امتـداد علمي واجتمـاعي للمركز الأول في بلدة أشيقر، وكان أهل العيينة وأشيقر وعلمائها أقل النجديين معارضة لتلك الدعوة الإصلاحية.

وهكـذا يمكننا القول بأن نموها وازدهار الحركة العلمية في العارض، المركز الثاني للعلم في نجد، ما هو إلا امتداد لنمو وازدهار الحركة العلمية في أشيقر، المركز الأول للعلم في تلك البلاد، كما يمكننا القول، بأن ظهور الدعوة الإصلاحية في العارض ما هو إلا ثمرة من ثمرات نمو الحركة العلمية في ذلك الإقليم ، كما أن ظهور تلك الدعوة أيضا ماهو إلا نتيجة من نتائج ازدهار الحركة العلمية وتوسع دراسة الفقة في بلدة أشيقر، ثم انتشار تلك الحركة العلمية والعلماء من تلك البلدة إلى بقيـة البلدان والأقـاليم النجدية الأخرى، وفي مقدمتها بلدة العيينة وإقليم العارض؛ وبعبارة أخرى، فإن ظهور الدعوة الإصلاحية في نجد كان ثمـرة استمـرار التقـاليد العلمية التي حملها ونمـاها وحافظ عليها ونشرها علماء أشيقر وخاصة العلمـاء المشـارفـة في بلدتي أشيقـر والعيينة أهم مركـزين للعلم في نجد. ومن هنا يتضح الدور الذي ساهم به علمـاء بلدة أشيقر في توسع دراسة الفقة ونمو الحركة العلمية، وانتشار المعرفة الدينية في نجد ومن ثم ظهور الدعوة الإصلاحية السلفية في تلك البلاد.

جدول أ: علماء نجد خلال القرن العاشر الهجري*

م	اسم العالم	مكان المولد والنشأة	مكان الدراسة	مكان الهجرة أو العمل	زمن الوفاة	أشهر الشيوخ
١	أحمد بن ابراهيم بن أبي حميدان		دمشق		القرن العاشر	موسى الحجاوي
٢	أحمد بن يحيى بن عطوة	العيينة	العيينة/دمشق	الجبيلة	٩٤٨هـ	علي المرداوي /يوسف بن عبد الهادي/ أحمد العسكري
٣	اسماعيل بن رميح العريني	العارض	العارض/ أشيقر	ولي القضاء في العارض ورغبه	٩٧٠هـ	محمد بن مانع بن شبرمى
٤	بدر بن محمد الوهيبي	أشيقر	أشيقر		٩٩٨هـ	
٥	حسن بن علي بن بسام	أشيقر	أشيقر/ دمشق	قاضي في أشيقر	٩٤٥هـ	موسى الحجاوي معين الدين محمد الحسيني
٦	زامل بن سلطان اليزيدي	مقرن	دمشق/مصر	قاضي في مقرن	القرن العاشر	موسى الحجاوي ابن البخار الفتوحي
٧	سليمان بن محمد بن شمس	مقرن	العارض	قاضي في مقرن	القرن العاشر	حسين بن عثمان بن زيد الحنبلي ثم الشافعي
٨	طلحة بن حسين بن علي بن بسام	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	٩٧٠هـ	حسن بن بسام (أبوه)
٩	عبد الرحمن بن عتيق بن بسام	أشيقر	أشيقر		القرن العاشر	
١٠	عبد القادر بن راشد بن مشرف	أشيقر	أشيقر/ العيينة؟	قاضي أجود بن زامل	القرن العاشر	أحمد بن عطوة ؟
١١	محمد بن ابراهيم ابن أبي حميدان		دمشق/مصر		القرن العاشر (ولد عام ٩٢٠هـ)	موسى الحجاوي محمد الغيطي الشافعي
١٢	محمد بن أحمد ابن محمد القاضي	أشيقر	أشيقر وعالية نجد	قاضي في أشيقر وعالية نجد لشريف مكة	آخر القرن العاشر	
١٣	محمد بن عبد القادر ابن مشرف	أشيقر	أشيقر/ العارض		القرن العاشر	عبد القادر بن مشرف (أبوه) أحمد ابن عطوه
١٤	محمد بن مانع بن شبرمة	أشيقر	أشيقر		القرن العاشر	
١٥	ناصر بن محمد بن بن مشرف	أشيقر	أشيقر/ العارض ؟	قاضي أشيقر وقاضي في مقرن؟	القرن العاشر	محمد بن عبد القادر ابن مشرف (أبوه)

* اعتمدنا في وضع هذه الجداول والمعلومات التي تضمنتها على كتب التراجم النجدية الأربعة المتوافرة لنا وهي: **السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة**، لمحمد بن حميد (ت ١٢٩٥هـ)؛ **ورفع النقاب عن تراجم الأصحاب**، لابراهيم بن ضويان (ت١٣٥٣هـ)؛ **وعلماء نجد خلال ستة قرون**، لعبد الله بن عبد الرحمن البسام؛ **وروضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين**، لمحمد بن عثمان القاضي (انظر الحواشي والتعليقات لمزيد من المعلومات عن هذه الكتب). وتجب الإشارة هنا إلى أن أفضل هذه الكتب الأربعة وأغناها بالمعلومات كتاب «**علماء نجد خلال ستة قرون**» لذا كان أكثر الاعتماد عليه، وينسب هنا العالم إلى قرن بعينه، إذا كان قد عاش وتوفي قبل نهاية ذلك القرن، وتدل علامة الاستفهام (؟) الموضوعة إلى جانب معلومة معينة على أن تلك المعلومة فيها خلاف بين المصادر، أو أنها ليست ثابتة أو واضحة تماما.

جدول ب: علماء نجد خلال القرن العاشر الهجري

م	اسم العالم	مكان المولد والنشأة	مكان الدراسة	مكان الهجرة أو العمل	زمن الوفاة	أشهر الشيوخ
١	أبو نمي بن عبد الله ابن راجح العريني	العودة	أشيقر/مصر		القرن الحادي عشر	محمد بن أحمد بن إسماعيل سليمان بن علي بن مشرف مرعي بن يوسف
٢	أحمد بن محمد بن أحمد البجادي	أشيقر	أشيقر		١٠٧٨هـ	محمد بن أحمد بن اسماعيل
٣	أحمد بن محمد بن خيخ	مقرن (الرياض)		المدينة	القرن الحادي عشر	
٤	أحمد بن محمد بن ابن عبد الله ابن بسام	أشيقر	أشيقر/ العارض	العيينة	١٠٤٠هـ	محمد أحمد إسماعيل أحمد عبد الله بن عفالق ـ أحمد بن محمد بن خيخ
٥	أحمد بن محمد بن مشرف	أشيقر	أشيقر/ العارض دمشق		١٠١٢هـ	موسى الحجاوي/ أحمد بن يحيى بن عطوة
٦	أحمد بن محمد بن ناصر ابن مشرف*	أشيقر	أشيقر	قاضي في مقرن	١٠٤٩هـ	محمد بن ناصر بن مشرف (أبوه)
٧	خميس بن سليمان الوهيبي	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	القرن الحادي عشر	محمد بن اسماعيل ؟
٨	زامل بن موسى بن جدوع اليزيدي	مقرن	مقرن		القرن الحادي عشر	أحمد بن محمد بن خيخ ؟ أحمد بن محمد بن ناصر ابن مشرف
٩	سليمان بن علي بن مشرف	أشيقر	أشيقر	قاضي في العيينة	١٠٧٩هـ	أحمد بن محمد بن مشرف محمد بن أحمد بن إسماعيل
١٠	عبد الرحمن بن أحمد ابن اسماعيل	أشيقر	أشيقر		١٠٦٧هـ	محمد بن أحمد بن اسماعيل (أخوه)
١١	عبد الرحمن بن بليهد	غسلة القرائن	مقرن(الرياض)		١٠٩٩هـ	عبد الله بن محمد بن ذهلان
١٢	عبد الرحمن بن محمد بن ذهلان	العيينة	العيينة ـ دمشق	مقر (الرياض)	١٠٩٩هـ	محمد بن بدر الدين البلباني
١٣	عبد الله بن أحمد بن اسماعيل	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١٠٦٧هـ	محمد بن أحمد بن اسماعيل (أخوه)
١٤	عبد الله بن أحمد بن محمد مشرف	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١٠٥٣هـ	أحمد بن محمد بن مشرف (أبوه)
١٥	عبد الله بن عبد الوهاب ابن مشرف	العيينة ؟ أشيقر ؟	العيينة ؟ مصر	قاضي في العيينة	١٠٥٦هـ	أحمد بن محمد بن بسام ـ منصور البهوتي
١٦	عبد الله بن عفالق	نجد	نجد	قاضي في العيينة	١٠١٩هـ	

* يورد البسام، علماء نجد، ص ١٩٨ اسم هذا العالم في بداية ترجمته هكذا: أحمد بن ناصر بن محمد بن مشرف. لكنه يعود بعد ذلك بسطرين ليؤكد أن أباه هو محمد وجده، ناصر وجد أبيه، محمد وجده جده، عبد القادر. ويظهر أن هذا نسبه الصحيح وأن اسم ابيه «محمد» قد سقط في البداية سهوا. أنظر أيضا حاشية رقم (١٠١) أعلاه.

تابع جدول ب : علماء نجد خلال القرن العاشر الهجري

م	اسم العالم	مكان المولد والنشأة	مكان الدراسة	مكان الهجرة أو العمل	زمن الوفاة	أشهر الشيوخ
١٧	عبد الله بن محمد ابن بسام	أشيقر	أشيقر		القرن الحادي عشر	
١٨	عبدا لله بن محمد ابن ذهلان	العيينة	أشيقر/ مقرن	قاضي في مقرن	١٠٩٩هـ	محمد بن أحمد بن إسماعيل ـ أحمد (بن محمد) ابن ناصر بن مشرف
١٩	عثمان بن عثمان بن أحمد بن قائد	العيينة	العيينة دمشق / مصر	مصر	١٠٩٧هـ	محمد البصيري ـ عبد الله بن ذهلان ـ محمد أبو المواهب ـ محمد الخلوتي
٢٠	علي بن جعفر الفضلي	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١٠١٥هـ	
٢١	علي بن عمر بن مغامس ابن مشرف	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١٠٥٠هـ	أحمد بن محمد بن بسام؟ محمد بن اسماعيل
٢٢	على بن محمد بن علي بن بسام	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١٠٩٠هـ	
٢٣	محمد بن أحمد بن اسماعيل	أشيقر	أشيقر/الحرمين	قاضي في أشيقر	١٠٥٩هـ	أحمد بن محمد بن مشرف
٢٤	محمد بن عبد الله بن حسن ابن مشرف	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١٠٣٥هـ	أحمد بن محمد بن مشرف
٢٥	محمد بن عبد الله بن سلطان الدوسري			قاضي في المجمعة	١٠٩٩هـ	
٢٦	محمد بن عبدالله بن محمد ابن اسماعيل	أشيقر	أشيقر		١٠٩٠هـ	
٢٧	محمد بن موسى البصيري	العيينة	العيينة/أشيقر		القرن الحادي عشر	محمد بن أحمد بن إسماعيل
٢٨	موسي بن عامر بن سلطان		العارض	قاضي في الدرعية	١٠٢١هـ	أحمد بن يحي بن عطوة

جـدول ج: علمـاء نجـد خلال القرن الثاني عشر الهجري

م	اسم العالم	مكان المولد والنشأة	مكان الدراسة	مكان الهجرة أو العمل	زمن الوفاة	أشهر الشيوخ
١	إبراهيم بن أحمد بن محمد المنقور	حوطة سدير	حوطة سدير	قاضي في حوطة سدير	١١٧٥هـ	أحمد بن محمد المنقور (أبوه)
٢	ابراهيم بن سليمان بن علي بن مشرف	العيينة	العيينة	قاض في أشيقر	١١٤١هـ	
٣	ابراهيم بن محمد بن أحمد ابن إسماعيل	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١١٠٨هـ	محمد بن أحمد بن إسماعيل (أبوه)
٤	ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل	أشيقر	أشيقر	قاضي في القرائن	١١٨٥هـ	محمد بن عبد الله بن اسماعيل (أبوه)
٥	أحمد بن ذهلان بن عبد الله ابن ذهلان	مقرن (الرياض)	مقرن/ المجمعة	قاضي في مقرن	١١٦٩هـ	ذهلان بن عبد الله بن ذهلان (أبوه) عبد الله بن سحيم - محمد بن سحيم
٦	أحمد بن شبانه بن محمد شبانه	المجمعة	أشيقر		القرن الثاني عشر	أحمد بن محمد القصير
٧	أحمد بن عثمان بن عثمان الحصيني	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١١٣٩هـ	أحمد بن محمد القصير - حسن ابن عبد الله أبا حسين
٨	احمد بن مانع بن ابراهيم ابن شبرمه	أشيقر	أشيقر/ الدرعية	الدرعية	١١٨٦هـ	الشيخ محمد بن عبد الوهاب
٩	احمد بن محمد بن أحمد المنقور	حوطة سدير	مقرن (الرياض)	قاضي في حوطة سدير	١١٢٥هـ	عبد الله بن محمد بن ذهلان
١٠	أحمد بن محمد بن حسن القصير	أشيقر	أشيقر/ العارض		١١٢٤هـ	سليمان بن علي بن مشرف عبد الله بن ذهلان - عبد الرحمن بن ذهلان
١١	أحمد بن محمد بن عبد الله التويجري	المجمعة	المجمعة/ الأحساء	قاضي في المجمعة	١١٩٤هـ	عبد القادر العديلي/ محمد عبد الرحمن بن عفالق
١٢	حسن بن عبد الله بن حسن أبا حسين	أشيقر	أشيقر - مكة	قاضي في أشيقر	١١٢٣هـ	
١٣	حماد بن محمد بن شبانه	المجمعة	المجمعة؟	قاضي في المجمعة	١١٧٥هـ	محمد بن شبانه (أبوه) عبد الله ابن سحيم - إبراهيم المنقور
١٤	حمد بن ابراهيم بن عبد الوهاب بن مشرف	العيينة؟	العيينة/ الدرعية	الدرعية قاضي في مرات	١١٩٤هـ	الشيخ محمد بن عبد الوهاب
١٥	سليمان بن عبد الله بن زامل	عنيزة	عنيزة/ أشيقر	قاضي في عنيزة	١١٦١هـ	عبد الله بن أحمد بن عضيب
١٦	سليمان بن محمد بن أحمد بن سحيم	المجمعة؟		الرياض	١١٨١هـ	محمد بن احمد بن سحيم (أبوه)
١٧	سيف بن أحمد العتيقي	حرمه		المجمعة؟	١١٨١هـ	
١٨	سيف بن محمد بن عزاز ابن مشرف	أشيقر	أشيقر/ العيينة	قاضي في أشيقر	١١٢٩هـ	عبد الوهاب بن عبد الله ابن مشرف
١٩	صالح بن عبد الله بن محمد أبو الخيل	عنيزة	عنيزة/ المدينة	قاضي في عنيزة	١١٨٤هـ	عبد الله بن عضيب وعبد الله ابن إبراهيم بن سيف

تابع جدول ج: علماء نجد خلال القرن الثاني عشر الهجري

م	اسم العالم	مكان المولد والنشأة	مكان الدراسة	مكان الهجرة أو العمل	زمن الوفاة	أشهر الشيوخ
٢٠	صالح بن محمد بن عبد الله الصائغ	عنيزة	عنيزة / المدينة	قاضي في عنيزة	١١٨٤هـ	عبد الله بن غضيب عبد الله بن إبراهيم بن سيف
٢١	عبد الجبار بن أحمد ابن شبانة	المجمعة	المجمعة		آخر القرن الثاني عشر	أحمد بن شبانة (أبوه)
٢٢	عبد الرحمن بن عبد الله أبا بطين	روضة سدير			١١٢١هـ	
٢٣	عبد الرحمن بن محمد ابن عثمان السحيمي	أشيقر	أشيقر		آخر القرن الثاني عشر	
٢٤	عبد الله بن أحمد ابن إسماعيل	أشيقر	أشيقر/عنيزة	قاضي في عنيزة	١١٩٦هـ	عبد الله بن أحمد بن غضيب حميدان بن تركي
٢٥	عبد الله بن أحمد بن غضيب	روضة سدير	أشيقر	قاضي في عنيزة	١١٦١هـ	أحمد بن محمد القصير
٢٦	عبد الله بن أحمد بن محمد بن سحيم	المجمعة	سدير ـ الوشم	قاضي في المجمعة	١١٧٥هـ	عبد الله بن غضيب
٢٧	عبد الله بن عبد الرحمن ابن إسماعيل	أشيقر	أشيقر		١١١٩هـ	حسن بن عبد الله أبا حسين
٢٨	عبد الله بن عثمان بن محمد بن بسام	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١١٦٠هـ	أحمد بن محمد القصير ـ حسن ابن عبد الله أبا حسين
٢٩	عبد الله بن عيسى المويسي	حرمة	دمشق/نابلس	قاضي في حرمة	١١٧٥هـ	محمد بن أحمد السفاريني
٣٠	عبد الله بن محمد بن أحمد بن اسماعيل	أشيقر	أشيقر		أول القرن الثاني عشر	محمد بن أحمد بن إسماعيل (أبوه)
٣١	عبد الله بن محمد بن فيروز	أشيقر؟	حوطة سدير/ العيينة	الأحساء	١١٧٥هـ	محمد بن فيروز (أبوه) فوزان بن نصر الله ـ عبد الوهاب بن سليمان بن مشرف ـ عبد الوهاب بن عبد الله بن مشرف
٣٢	عبد المحسن بن علي الشارخي	الفرعة/ أشيقر	أشيقر/ الأحساء	قاضي في الزبير	١١٨٧هـ	عبد الله بن محمد بن فيروز محمد بن عبد الله بن فيروز
٣٣	عبد الوهاب بن سليمان ابن مشرف	العيينة	العيينة	قاضي في العيينة وحريملاء	١١٥٣هـ	سليمان بن علي بن مشرف (أبوه) محمد بن ناصر بن مشرف
٣٤	عبد الوهاب بن عبد الله ابن مشرف	العيينة	العيينة	قاضي في العيينة	١١٢٥هـ	عبد الله عبد الوهاب بن مشرف (أبوه)
٣٥	عثمان بن عبد الله بن شبانه	المجمعة	المجمعة	قاضي في المجمعة	القرن الثاني عشر	أحمد بن شبانة(عمه)
٣٦	عثمان بن عقيل بن إسماعيل السحيمي	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١١٨٢هـ	
٣٧	عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن عدوان	أثيثية	الأحساء		١١٧٩هـ	عبد الله بن محمد بن فيروز محمد بن عبد الله بن فيروز
٣٨	فوزان بن نصر الله ابن مشعاب	عنيزة	أشيقر/دمشق	حوطة سدير	١١٤٩هـ	أحمد محمد القصير عبد القادر التغلبي

تابع جدول ج: علماء نجد خلال القرن الثاني عشر الهجري

م	اسم العالم	مكان المولد والنشأة	مكان الدراسة	مكان الهجرة أو العمل	زمن الوفاة	أشهر الشيوخ
٣٩	محمد إبراهيم عبدالله أبو الخيل	عنيزة	عنيزة	قاضي في عنيزة	١١٧٠هـ	عبد الله بن أحمد بن عضيب
٤٠	محمد بن أحمد بن محمد القصيِّر	أشيقر	أشيقر	قاضي في أشيقر	١١٣٩هـ	أحمد بن محمد القصير (أبوه)
٤١	محمد بن ربيعة العوسجي	ثادق	أشيقر/الرياض الحرمين	قاضي في ثادق	١١٥٨هـ	أحمد بن محمد القصير عبدالله بن ذهلان منيع بن محمد العوسجي
٤٢	محمد بن سيف بن أحمد العتيقي	حرمة		الزبير	آخر القرن الثاني عشر	سيف بن أحمد التعتيقي (أبوه)
٤٣	محمد بن عباد العوسجي الدوسري	البير	حوطة سدير	قاضي في ثرمدا	١١٧٥هـ	فوزان بن نصر الله بن مشعاب عجلان بن منيع الحيدري
٤٤	محمد بن عبد الرحمن ابن إسماعيل	أشيقر	أشيقر	١١٣٥هـ		
٤٥	محمد بن عبد الله السويكت	أشيقر	أشيقر	قاضي في جلاجل	القرن الثاني عشر	أحمد بن محمد القصير حسن بن عبد الله أبا حسين
٤٦	محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل	أشيقر	أشيقر/العيينة	قاضي في أشيقر	١١٠٩هـ	عبد الله بن إسماعيل (أبوه) سليمان بن علي بن مشرف
٤٧	محمد بن عبد الوهاب ابن عبد الله بن مشرف	العيينة	العيينة		١١٢٦هـ	عبد الوهاب بن عبد الله بن مشرف (أبوه)
٤٨	محمد بن عبد الوهاب ابن فيروز	أشيقر	أشيقر/العيينة	قاضي في الكويت	١١٣٥هـ	سيف بن محمد بن عزاز عبد الوهاب بن عبد الله بن مشرف
٤٩	محمد بن علي بن زامل	عنيزة	عنيزة	قاضي في عنيزة	١١٩٠هـ	عبد الله بن أحمد بن عضيب
٥٠	محمد بن محمد بن حسن القصير	أشيقر	أشيقر		١١٣٩هـ	أحمد بن محمد القصير (أخوه)
٥١	محمد بن ناصر بن محمد بن مشرف	أشيقر	أشيقر/مقرن	مقرن (الرياض)؟	١١٣١هـ	ناصر بن محمد بن مشرف (أبوه) عبد الله بن محمد بن ذهلان
٥٢	مريد بن أحمد بن عمر التميمي	حريملاء	دمشق	قاضي في حريملاء	١١٧١هـ	
٥٣	منصور بن محمد بن ابراهيم أبو الخليل	عنيزة	عنيزة/مكة	قاضي في رياض الخبراء	١١٩٦هـ	محمد بن إبراهيم أبو الخليل (أبوه) حميدان بن تركي عبد الله بن أحمد بن إسماعيل
٥٤	منيع بن محمد بن منيع العوسجي	ثادق	مقرن/العيينة		١١٣٤هـ	سليمان بن علي بن مشرف عبدالله بن ذهلان عبد الرحمن بن عفالق

العصور، المجلد الثامن، الجزء الثاني، ٤٣١ ـ ٤٤٦ (١٩٩٣م).

غياب التصورات الأولية لـدى الباحثين في علم الاجتماع والانثروبولوجيا في البلاد العربية «دراسة منهجية»

للدكتور مهنا يوسف حداد

ملخص البحث : نناقش في هذه الورقة غياب التصورات الأولية التي تبني عليها النظرية لدى باحثي المجتمع العرب، وإن بحوث هؤلاء في علم الاجتماع والانثروبولوجيا غير مبنية على مثل هذه التصورات، ذلك أن هؤلاء الباحثين يعتمدون في توجيه بحوثهم على نظريات صاغها غربيون بناء على تصورات مستمدة من واقعهم، وقد يعرفها أو لا يعرفها الباحثون العرب الذين يفترضون بان هذه النظريات صالحة لدراسة الواقع العربي. هذا الاستخدام الاداتي للنظرية يقود إلى استخدام أداتي لأدوات جمع المعلومات مثل الاختبار، أو الاستمارة (الاستبانة)، وبذلك تبقى فروضهم مستمدة من النظرية ولا علاقة لها بالواقع المدروس. لقد بدأت الورقة بتبيان ضرورة وجود مثل هذه التصورات الأولية لبناء النظرية، ثم بيّنت العوامل التي أدت إلى غيابها لتخلص إلى أن على الباحث في الواقع العربي أن يعيد النظر في صياغة مشكلة بحثه وفروضه بناء على مثل هذه التصورات، وعندها يكون قادرا على البدء في وضع أوليات لنظرية أو توكيد صلاحية النظريات الغربية.

تمهيد

يشير مفهوم التصور الأولي إلى مجموعة الأفكار والتصورات التي يملكها الباحث في العلوم الاجتماعية حول الإنسان والمجتمع في تصديه لإحدى المشكلات التي يختارها للبحث فيها وسبر غورها. وهذه التصورات هي التي تساعده في تكوين نظرية شخصية يدخل من خلالها إلى البحث، ويتفاعل من خلالها مع المعطيات الامبيريقية. هذه التصورات وكما يبدو غير موجودة عند الباحث العربي على وجه العموم. سوف نقدم في هذه الورقة أهمية امتلاك الباحث لمثل هذه التصورات الأولية في علاقتها بالنظرية، ثم نتعرض إلى أبعاد غياب هذه التصورات عند الباحثين العرب.

إن اعتماد الباحثين العرب على النظرية الغربية يحتوي على أكثر من جانب، اهمها السؤال حول مدى إمكانية مشاركة الباحث العربي للباحث او للمنظر الغربي تصوراته الأولية التي بني على اساسها النظرية الغربية. مثل هذا السؤال لم نجده مطروحا في الكتابات العربية، وهذه الورقة محاولة متواضعة للتصدي إلى هذا السؤال.

النظريات الاجتماعية الغربية والتصورات الأولية للإنسان والمجتمع

تتماشى ظهور النظريات الاجتماعية عامة ونظريات علم الاجتماع والانثروبولوجيا خاصة مع الأحوال الاجتماعية والسياسية التي وجدت فيها الشعوب الأوروبية. فمنذ بداية القرن التاسع عشر وحتى نهايته تقريبا سادت الغرب النظرية التطورية (كونت، سبنسر، مورجان، ماركس، تايلور وغيرهم)، وكانت هذه نتيجة الجهود التي قدمها الباحثون في القرن الثامن عشر مثل نظرية «كانت» في الأسس الميتافيزيقية للعلوم الطبيعية (١٧٨٦م) وديدروت (١٧٩٦م). لقد كان المجتمع الغربي في تطور مستمر

نحو الأحسن (مفهوم التقدم) ومن هنا وجدنا أن مفهوم التطور هذا قد أصبح جزءا من تجارب الباحثين في علوم الإنسان، وما اعطى الدعم لهذه النظريات هي نظرية دارون في التطور الطبيعي (١٨٥٨م) والتي وضعت النظرية الدينية في تفسير الإنسان والمجتمع في ذلك الوقت على المحك. فالصورة التي سادت ذلك القرن هي صورة التطور، والانسان المتطور والمجتمع المتطور، فالمجتمعات الأوروبية في القرن التاسع عشر كانت تمتد أفقيا (تتوسع) في الاستعمار الذي كان يشكل في مثل هذا التصور مرحلة جديدة في التطور والذي رآه الباحثون على انه قد اصبح قانونا. لكن هذا التصور للإنسان المتطور والمجتمع المتطور لم يأت فجأة. حيث إن الشعوب الغربية كانت قد دخلت هذه المرحلة منذ نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر حين بدأت الحركات الغربية تنمو وتتزايد ضد سلطة الكنيسة حتى اعلنت تمردها في النهاية على يد القس مارتن لوثر في بداية القرن السادس عشر (الثورة البروتستانتية ١٥١٧م). هذا التاريخ. هو تاريخ احتلال العثمانيين لمصر والبلاد العربية الأخرى. وبينما أخذت الشعوب الأوروبية تتطور إلى الأمام بعد هذا التاريخ أخذت الحضارة العربية في الانحطاط. ومنذ النصف الأول للقرن الخامس عشر أخذت النظريات تتشكل على أيدي الكثيرين وأهمها نظرية ميكافيلي بالحكم، ونظرية هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م)، وجون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م)، وجان جاك روسو (١٧٢١ ـ ١٧٧٨م) في العقد الاجتماعي والتي والفت فرضيات كثيرة أدت فيما بعد إلى استنباط النظرية الديمقراطية الحديثة، والتي أوحت أو فرضت الدساتير الغربية التي وضعت في بداية القرن التاسع عشر. هذه الدساتير ذاتها كانت بمثابة اكتمال لحركة التطور ولكن كيف تفسرها؟ فظهرت نظريات التطور والتي ساعدت على تكوين صورة الإنسان في ذهن الباحثين. وبينما اكتفى بعض الباحثين بهذه النهاية واعتبر النظرية التطورية الرأسية قانونا، ذهب الماركسيون، ماركس وانجلز، ومعهم أيضا المنظرون اليهود الآخرون غير هذا المذهب. لهؤلاء كانت عملية التطور لا تزال غير مكتملة، ولم تنتج عملية التطور الا استعباد الإنسان للإنسان، وانفصمت هذه الأخيرة إلى اتجاهين: نحى الاتجاه الأول نحو وضع نظرية جديدة (النظرية المادية الاشتراكية والشيوعية) واستمر الاتجاه الثاني في التنظير حتى ارسيت قواعد دولة إسرائيل وهي النظرية التطورية اليهودية سواء الدينية منها أو السياسية، والتي لم نجد لها مثل هذه التسمية في أي كتاب على الرغم من الإشارات الكثيرة. وبينما ذهبت النظرية المادية (الشيوعية) إلى أن المجتمع بدأ بحالة المشاعة والتي تكلم عنها مورجان (١٨٧١م) وأنه سوف يتطور في مراحل حتى يعود الى المشاعة ثانية عبر مراحل الصيد والزراعة، والصناعة والرأسمالية والاشتراكية فالشيوعية، ذهبت النظرية الأخرى إلى أن الإنسان والمجتمع اليهوديين سوف يتطوران حتى إعادة تأسيس دولة اسرائيل ثانية. في هذه النظريات نجد أن المنظرين كانوا يملكون صورة واضحة للإنسان والمجتمع، أي أنهم كونوا نموذجا مثاليا استمدوا منه النظريات التي استخدموها في أبحاثهم لتفسير النتائج.[١]

في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت نظريتان جديدتان في ثورة على النظرية التطورية وبخاصة في المانيا وبريطانيا وأمريكا، نحيتا نحو التفسير الفردي للحضارة، أي محاولة تفسير كل حضارة على حده ثم تأثيرها على الحضارات الأخري وتأثرها بها: التاريخية والانتشارية. ففي نهاية القرن التاسع عشر كانت الديمقراطية الأوروبية قد تطورت إلى حد بغيد وظهرت انتقادات كثيرة للنظرية التطورية، وظهرت الفردية في المجتمع إضافة إلى أهم عامل في الغرب وهو بداية تقلص في التوسع الغربي الاستعماري وبداية استقرار المجتمعات في غرب أوروبا. وكانت هذه

(١) E. Etzioni-Halevi, *Advent and Maturation of Modern Society* (London: Routledge & Kegan Paul, 1985), chap. 1, Neil J. Smelser (Ed.), *Handbook of Sociology* (Newbury, Calif: Sage Publications, 1988), chap s. 2 and3; and Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures* (New York: Basic Books, 1973), chaps 1-4

الظواهر جميعها بحاجة إلى تفسير يختلف عن التفسيرات المستمدة من النظرية التطورية. في هذه الحالة ظهرت تصورات جديدة للإنسان والمجتمع وقادت إلى ظهور مثل هذه النظريات في الانثروبولوجيا ونظريات أخرى في علم الاجتماع.

فبينما ذهبت النظرية التاريخية إلى خصوصية الحضارة في تطورها التاريخي، قياسا بالخصوصية التي اعترف بها لكل من المجتمعات الغربية والمستمدة من الاختلافات في الأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لكل منها، وبخاصة في الولايات المتحدة التي لم تكن قادرة على تفسير المجتمعات الأمريكية بناء على النظرية التطورية حيث تاريخها القصير لم يكن يسمح بذلك، ذهبت النظرية الانتشارية إلى أن الحضارة لا تتطور بمعزل عن الحضارات الأخرى، فقد اتصل الأوروبيون والأمريكيون بحضارت بدائية لم يصل إليها أي تطور بسبب انعزالها مثل حضارات شعوب وسط إفريقيا وجنوبها، وشعوب الهنود الحمر في الأمريكتين، وحضارات الشعوب في ميلانيزيا وبولونيزيا، وفي ميكرونيزيا واستراليا. إضافة إلى ذلك فقد شهدت أمريكا خاصة تطور الجماعات التي هجرت قسرا إليها من إفريقيا وجنوب شرق آسيا (الزنوج)، والنظرية التطورية قاصرة على تفسير هذه الظواهر.

وفي علم الاجتماع ظهرت النظرية الوظيفية والبيروقراطية، ونظرية التغير على أيدي كل من دركهايم وفيبر وجورج سمل وأخذوا يؤكدون على الفرد أكثر من ذي قبل. مما ساعد في نشوء هذه النظريات كان التطور في العلوم الطبيعية وبخاصة في مجال الوراثة حيث بلور الاختلافات الفردية وأوضح مشكلة التنوع بدلا من إعادتها إلى الفكر الديني وإحلال نظرية التكيف البيئي مكانها ثم معارضة فكرة التميز في التنوعات. هذه النظرية وجدت صداها في العلوم الاجتماعية وتفسير الحضارة بطريقة جديدة ممثلة في نظرية التكيف والتكامل، وكانت نظرية الوظيفة تخدم هذا الغرض بحيث إن فكرة التنوع قد ارتبطت بمفهوم الوظيفة وتقسيم العمل بما في ذلك ظاهرة الديانة ذاتها، فدركهايم (دركهايم ١٩١٢م) يؤكد وظائف الديانة في المجتمع، والتكيف الاجتماعي في تقسيم العمل (١٨٩٣م) ثم الوعي الجمعي والمعيارية واللامعيارية في المجتمعات المختلفة التي كان تونيس قد صنفها بين مجتمع الريف الجمعي (Gemeinschaft) ومجتمع المدينة (Gesellschaft) هذه التصورات الجديدة كانت نتيجة حتمية لتطور المجتمعات الغربية وتنوعاتها من حيث أنها كانت قد وصلت إلى نوع من الاستقرار ثم جاءت نظريات ماكس فيبر في البيروقراطية والعقلانية والروح الرأسمالية المبنية على الأخلاق البروتستانتية. لقد اعتمدت النظريات الجديدة على استقراءات الحاضر والماضي والتي أنتجت نوعا من التصور للإنسان والمجتمع ارتكزت عليها بل وكانت من مكوناتها الأساسية.[٢]

كان التصور السابق قد ساعد على تفسير جزئي للظواهر الاجتماعية والحضارية في الغرب ولكنها لم تكن قادرة على تفسير التفاوت بين المجتمعات والحضارات. فقد ظهر السؤال كيف استطاعت المجتمعات الحفاظ على ذاتها وما هي ديناميات استمراريتها؟ وبقيت هذه الأسئلة دون أجوبة شافية حتى تبلورت النظرية الوظيفية والنظرية البنيوية في بداية القرن العشرين على أيدي كل من مالينوفسكي ورادكليف براون. فبعد أبحاثه في جزر الاندامند (جنوب شرق آسيا) جاء رادكليف براون بنظرية البنية والتي استمدها من العلوم البحتة وعلوم اللغة (فرديناد دي سوسيور) وفرانزبوأس ومدرسته في الانثروبولوجيا اللغوية والتي أكملها كروبر وغيره.

---

(٢) P.L. Berger, *Invitation to Sociology* (New York: Doubleday, 1963); J.H. Turner, *The Structure of Sociological Theory* (Belmond, Calif., Wadsworth, 1986); Marvin Harris, *The Rise of Anthropological Theory, 4th ed,* (New York: Thomas I. Crowell Co., 1968); Robert Lowie, *History of Ethnological Theory* (New York, Holt and Rineheart, 1957), B. Brubaku, "Rethinking Classical Social Theory: the Sociological Theory of Pierre Bourdieu", in *Theory Soc.*, 14-16 (Nov), pp. 745-775.

هذه المدرسة البنيوية كانت قد ذهبت إلى أن المجتمع يتكون من شيء ثابت، والعلاقات الاجتماعية، ندعوه بنية، والأشخاص متغيرون لكن العلاقات تبقى مستمرة. غير ان هذه الصورة لم تكن قادرة على تفسير كيف تعمل هذه البنية على تفسير حالات التوازن وعدم التوازن في المجتمع، وهذا ما جاء به مالينوفسكي في نظرية الوظيفة والقائلة بأن أي عنصر حضاري في المجتمع يشبع حاجة ويسهم في الحفاظ على ذاته وبذلك أيضا على ذلك الكل الذي يشكل جزءا منه. وهنا جاءت صورة النسبية الحضارية في أنه لا توجد حضارة افضل من حضارة ولا مجتمع أفضل من مجتمع ذلك لأن كل حضارة تعمل بطريقتها الخاصة على إشباع حاجات أفرادها ورغباتهم، وأنها تملك أيضا دينامية العودة إلى التوازن من خلال انتاج المؤسسة الحضارية أو استعارتها لتقوم مكان المؤسسة او العنصر الذي لم يعد يقوم بالإسهام للحفاظ على ذاته وبذلك أيضا على الكل الذي يحتويه.

لكن مسألة التوازن هذه كانت تحتوي على جانب لا يمكن تصوره في الحضارة الإنسانية أو المجتمع الإنساني وبخاصة عندما تكون الحضارات على اتصال مع بعضها بعضا كما كانت الحالة في النصف الأول من القرن العشرين حيث أدى الاستعمار إلى خلخلة الأنظمة التقليدية للشعوب المدعوة بدائية وأخذت هذه تتطور في تسارع مستمر بحيث إن ما دعته النظرية الوظيفية بالتوازن لم يعد بعد مقياس تفسير الحضارةوالمجتمع، بل اصبح العكس «اللاتوازن» هو الظاهرة التي أصبحت مجال البحث. وقد بدى جليا بأن مفهوم البناء والوظيفة كما يمكن استخدامهما في العلوم الطبيعية لا تخدم دراسة المجتمع إلى تلك الدرجة، لأن حالات التكامل وعدم التكامل في المجتمع موجودة بذات الدرجة والعملية نسبية إلا إذا قيست في حالات التطرف، وعندها يدخل الباحث في حالات الشواذ، وهذه لا تشكل القانون الذي يبحث عنه العلم وهو القانون العام.[٣]

وحتى الذين استخدموا هذا المفهوم من زوايا مختلفة وبخاصة في علم الاجتماع مثل البرت شاف (Albert Schaffe) والبيون سمول (Albion Small) ووليم جراهام سمنر (William G. Sumner) وعلى الرغم من اختلافاتهم في التركيز على جوانب متمايزة إلا أنها اعتبرت فيما بعد غير قادرة على تقديم تفسيرات شافية للظواهر الاجتماعية، فقد كثرت التصورات للانسان والمجتمع حيث أخذ أحد الاتجاهات يؤكد على الفرد، وينفي الآخر هذا التأكيد. وقد أدى النقاش في نهاية المطاف إلياعتبار الوظيفية والبنيوية مكملتا لبعضهما بعضا. غير أن التصور الإنساني بقي تجزئيا فمن الإنسان الباحث عن الإله قبل آدم سمث، إلى الباحث عن الإنسان الاقتصادي بعده، إلى الباحث عن الإنسان الاجتماعي، إلى الإنسان كونه نتيجة للحضارة، إلى الإنسان المنمط إلى غير ذلك.[٤]

ونتيجة لهذه النواقص في النظرية الوظيفية البنائية ظهر لنا الاتجاه النماذجي في كل من دراسات شبكة العلاقات «الرجل الكبير» (The bigman) معتمدة على أفكار المدرسة النفعية البنثامية والتي تبناها باحثون مثل فريدريك بارث بنموذج ال (En- trepreneur) (التاجر أو الوسيط) وبيلي (F.G. Bailey) بسلوكه البراجماتي للوصول إلى اهداف معيارية، وجرمي بواسفان (Geremy Boissevain) بنفعيته المتطرفة. وفي الواقع أن هؤلاء قد كونوا صورة للإنسان الغربي الرأسمالي والذي يعمل ما في استطاعته للوصول إلى أهدافه بغض النظر عن أية اعتبارات أخلاقية، وطبقوا هذا النموذج على دراساتهم في المجتمعات الشرقية (بيلي في الهند، وبارث في الباكستان وإيران وعُمان، وبواسفان في ليبيا ومالطا).[٥]

(٣) S.N. Eisenstadt, "Functional Analysis in Anthropology and Sociology". In *Annual Review ofAnthropology*, 19 (1990), pp 243-260

(٤) R. Bendix and Bennet Berger, "Images of Society and Problems of Concept Formation". InL. Gross (Ed.), *Symposium on Sociosociological Theory* (New York: Free Press, 1959), pp. 92-120; Kinsley Davis, "The Myth of Functional Analysis" *In Am. Soc. Rev*. 24, 6 (1959), pp. 757-772.

(٥) J. Alexander, *Sociological Theory Since 1945* (New York: Columbia University Press, 1987); M. Fortes, *Time and Social*

مثل ذلك أيضا نجد النظريات الماركسية (التقليدية والجديدة) ونظريات التدرج الاجتماعي التي - وعلى الرغم من تباعدها الايديولوجي - بنيت على تصور المجتمع مقسما إلى طبقات اجتماعية (Social classes) متناقضة ومتفاوتة في الامتيازات، بينما ذهب أصحاب نظريات التدرج مثل (C. A. O. v. Nieuwenhuysen) إلى وجود فئات اجتماعية مختلفة قسمها لنا وورنر (Warner) إلى تسع درجات كل ثلاث منها مفرع عن إحدى الطبقات الاجتماعية التي قدمتها النظرية الماركسية: عليا ومتوسطة ودنيا، بحيث أصبحت كل منها تحتوي على هذه التصنيفات من عليا عليا الى دنيا دنيا. وعلى الرغم من عوامل الصواب والخطأ في هذا التنظير إلا أن هنالك تصورات للإنسان والمجتمع فيها.[٦]

حتى الاتجاه الامبيريقي في علم الاجتماع فإنه لا يخلو من التصور للإنسان والمجتمع، ذلك أن اتباع هذا الاتجاه سواء في الولايات المتحدة أو غيرها يقومون بأبحاثهم من خلال اختيار مشكلة بحث تجد الإعجاب لدى ممولي هذه البحوث، والذين لا ينفقون نقودهم على ما يمكن أن يدعي العلم لأجل العلم، بقدر ماهي مرتبطة، كما يقول س. بوبوف، بقيم ومصالح المشروع الرأسمالي الذي يسعى إلى الفائدة السريعة.

الأهمية النظرية لتصور الإنسان والمجتمع

هل من الضروري ان يكون لدى الباحث صورة عن الإنسان والمجتمع في عملية تكوين النظرية؟ لقد وجدنا أن هنالك صوراً عديدة للإنسان لدى الباحثين. فعلم الاجتماع يتكلم عن الإنسان «العلم إجتماعي» والذي شرحها لنا بالتفصيل والترتيب الباحث داهرندورف (Dahrendorf، ١٩٦٤م) والإنسان الاقتصادي الذي صوره لنا الاقتصاديون، وإنسان التحليل النفسي الذي قدمه لنا فرويد وتلاميذه، وغيرها من الصور، قبل الدخول في التفاصيل حول هذه المسائل، دعنا نحدد موقفا أو تصوغ ذلك.

يشير مفهوم «تصور الإنسان» إلى تكوين نموذج، وهو تجريد يتكون من مجموعة من العناصر يعتبرها الباحث مهمة لتحليل السلوك الإنساني وتفسيره. وليس المقصود هنا وصف ماهو الإنسان، أو محاولة فهم ماهو الإنسان، لأننا قانعون بأن الواقع صعب المعرفة، ذلك أن الواقع متغير. ولذلك فإننا نعتبر أن كل محاولة لفهم الإنسان كما هو محاولة غير علمية، فقد تكون مثل هذه المحاولات ميتافيزيقية، او تنبوّية سرية، او لاهوتية أو فنية ولكنها غير علمية. المقصود هنا هو السؤال عن نماذج تستخدم بمثابة استراتيجيات في علاقتها مع مشكلة بحث سواء أكانت هذه خاصة أم عامة.

بناء عليه فاننا نعتقد أن لتصور الإنسان والمجتمع مكانة لا مهرب منها في تكوين النظرية «العلمجتمعية» أو «الانثروبولوجية»، وأن لهذا التصور عميق التأثير على طبيعة تكوين النظرية بغض النظر عن مسألة أسبقية التصور على النظرية.

يذهب دينس رونج (Denis Wrong)[٧] إلى أن النظرية الاجتماعية هي في أول الأمر جواب عن الأسئلة التي نطرحها على الواقع الاجتماعي، أو نطرحها على ذاتيتنا بناء على إملاءات الواقع الاجتماعي. وحالما ننسى هذه الأسئلة فإننا نقلل من أهمية الافتراضات المتضمنة في المفاهيم التي استخدمناها ونصل إلى رؤية للواقع الاجتماعي من زاوية واحدة. ويرى هذا الباحث النظرية «العلمجتمعية» الحديثة على أنها جواب، وإلى حد بعيد، عن نوعين من الأسئلة.

Structure and Other Essays (London: Humanities, 1970); J.S. Coleman, *Individual Interests and Collective Action* (Cambridge: Cambridge University Press, 1988).

(٦) M. Douglas, *How Institutions Think* (London: Routledge & Kegan Paul, 1987); M. Godelier, *Horizons, Trajets Marxistes En Anthropologie* (Paris: Maspero, 1973).

(٧) Denis Wrong, "The Oversocialised Conception of Man". In *Am. Soc. Rev.*, 26 (1961), pp. 183 - 193.

(٨) Raymond Firth, "Comment on Dynamic Theory in Social Anthropology". In *Essays on Social Organisations and Values*. Edited by R. Firth (London: Oxford Uiversity Press, 1964).

الأول هو السؤال «العلم نفس اجتماعي» الذي طرحه هوبز حول: كيف يمكن أن يكون للإنسان مدخل إلى التلقين الاجتماعي من خلال الأهداف والمعايير التي يرتكز عليها الوجود المجتمعي واستمراره؟ والثاني هو السؤال العلممجتمعي الماركسي: كيف يمكن ان تكون المجتمعات المعقدة قادرة على إدارة وتحديد الصراعات الهدامة بين مجموعات إنسانية؟ فالنظرية العلممجتمعية تقدم رؤية إنسانية للإنسان كونه مكيفا اجتماعيا حتى وأكثر مما يجب، ردا على السؤال الأول، وكونه مندمجا اجتماعيا أكثر مما هو مطلوب، في ردها على السؤال الثاني. ويرى رونج ان الجواب على السؤال لم يصل الحد المطلوب. وهو يكرس باقي مقالته إلى مثل هذا الجواب.

السؤال الماركسي، وكما يقول ريموندفيرث (١٩٦٤م)، لم يكن ذات أهمية عدا فيما يخص بعض الحالات القليلة، بينما سؤال هوبز ذات أهمية خاصة لأنه يتعلق بالافتراضات الأولية لمنظري النماذج الإنسانية، وبخاصة الذين دعيوا «منظري الفعل» حيث ركز هؤلاء على الفعل الاجتماعي، كما ذكرنا آنفا.

لقد أكد هؤلاء بتطرف على الفرد والعمليات الاجتماعية في ضوء الرؤية الأنانية للإنسان على المستوى الجزئي (Micro) بينما أهملوا كلية أي اهتمام للمشكلات الاجتماعية على المستوى الكلي (Macro).

وقد يكون ادموند ليش (Edmund Leach) أحد الانثروبولوجيين الذين جازفوا لتكوين صورة عن المشكلات الاجتماعية العامة وهوجم على هذه المجازفة بشدة. وقد وجه له أحد النقاد النقد اللاذع على إنه تكلم في محاضراته باسم الانثروبولوجيا في حين أنه لا يمثل إلا نفسه وأنه إذا ما تهرب هو «ليش» من الإجابة على أسئلة فان العلم نفسه لا يفعل ذلك.[٩]

ويرى رونج الشخص المنشأ اجتماعيا أكثر مما يجب، نموذجا للطبيعة الإنسانية حيث يتميز جانبان: الأول هو اكتساب المعايير الاجتماعية، والثاني هو الدافعية الإنسانية للحصول على صورة ايجابية لذاته من خلال حصوله على مركز اجتماعي أو تقدير الآخرين.[١٠]

وفيما يخص الجاني الأول فقد ارتكز على مفهوم الأنا الأعلى في نظرية فرويد. لكن هذه النظرية، كما يذهب رونج، قد ذهبت ضحية علم الاجتماع الحديث. لقد ذهبت نظرية فرويد إلى أن السلوك المعياري المكتسب يصبح جزءا من الأنا الأعلى، ومن هنا إحساس الإنسان بالذنب إن لم يلتزم بها أو إذا تخطاها في سلوكه. لكن علم الاجتماع قد أعطى مفهوم الاكتساب معنى آخر، حيث افترض بأن الشخص يكتسب المعيار عندما يتوافق والمعيار. ولا شك كما يقول «جونسون (Johnson)[١١] في أن الشخص الذي يقبل المعيار ولا يسلك بموجبه، قد يشعر الخطأ أو يخضع لمحاسبة الضمير إن هو سلك سلوكا مغايرا لما يمليه المعيار، لكن المسألة عند فرويد كانت أعمق من ذلك لأن مسألة الاكتساب قد جاءت عنده في درجات بحيث أن الشخص الأكثر لأناه الأعلى أو الشخص الذي اكتسب معايير مجتمعة بعمق اكبر ووعي متميز هو الذي يعاني الأكثر من الشعور بالذنب والخوف عندما يتخطى إملاءات المعيار.[١٢]

من أهم الوظائف التفسيرية لمفهوم الأنا الأعلى في نظرية فرويد هو تبيان كيف يضطهد الناس أنفسهم من خلال ممارسة الرقابة على رغباتهم وضبطها، بحيث يتحول الوجود النفسي الداخلي إلى ساحة صراع لدوافع متاضربة، أما أبعاد هذا التحول من حيث السلوك الظاهر فقد تركه التحليل النفسي مفتوحا أكثر مما فعل علم الاجتماع، لأن علماء الاجتماع عاملوا مفهوم الأنا الأعلى على أنه غير

(٩) *Column in Encounter*, Vol XXX, no.2, pp. 52-55.

(١٠) Wrong، رونج المرجع نفسه، ص ١٨٨.

(١١) M. Harry Johnson, *Sociology: A Systematic Introduction* (New York: Free Press, 1962), pp. 112-132.

(١٢) S. Freud, "Civilisation and Its Discontents". Vol. 22, pp. 64-148, of the Standard Edition of the *Complete Psychological Works of Sigmund Freud* (London: Hogarth, 1961), pp. 80-82.

مرتبط بمفهوم (id) «الذات» او مايكفأه من مفاهيم. وهو هذا المفهوم الذي ترتبط به ظاهرة الذات (الأنانية حيث تتصارع هذه مع الأنا الاعلى وهي الذات الاجتماعية، في حين يفعل الأنا على أنه وسيط يمنع أيهما من التطرف أو يوافق بين متطلباتهما). وعندما ينطلق علم الاجتماع من القاعدة بان الإنسان كائن اجتماعي ومنشأ اجتماعيا، فلا مجال ولا أهمية لسؤال هوبز، وعندها يحصل السلوك الشاذ على تفسيرات خاصة مستمدة من احوال خاصة مثل المعايير المبهمة أو ذات المعاني المتعددة، غياب المعيار، وصراع الأدوار وغيرها. وقد ذهب أحد علماء الاجتماع للحديث عن غير المتكيفين على أنهم برابرة الحضارة. أما فرويد، ولسنا في دفاع عنه، فقد رأى أن أكثرية الناس لا ينجحون في بناء أنا أعلى ملتزمة.(١٣)

أما من حيث الجانب الثاني فقد تبين أن مفهوم الأنا الأعلى في علم المجتمع (الاجتماع والانثروبولوجيا) قليل الفائدة، ومن هنا كان اختيارهم للفكرة بديلة تقول بأن الإنسان شديد الحساسية لتوقعات الآخرين منه وأن هذه التوقعات توجه سلوكه. وإذا ما استخدمنا مفاهيم ريسمان(١٤) فإننا سنعتبر الجانب الأول بمثابة التوجه نحو الذات في السلوك بينما سنعتبر هذا الجانب الثاني التوجه نحو الآخر. وهذا التضاد يبرر ذاته لأن هذا التصور الإنساني الأخير قد قاد إلى بحوث مثل بحوث الانتخابات التي اهتمت بالمعايير غير الرسمية.

ويتسع هذا التصور ليشمل نظريات وأيديولوجيات تؤكد بكل قوة على دوافع مثل الطموح للوصول إلى السلطة أو إلى الربح. مثل هذه النظريات قد تقود إلى واحدية الرؤية للإنسان وهذا خطر بحد ذاته، لأنه قد يقود إلى اعتبارات غير دقيقة مثل اعتبار الفرضية القائلة بزيادة تقدير الآخرين عن الحد اللازم على أنها المكون «العلم نفسي» للفرضيات «العلممجتمعية» القائلة بالإجماع العام حول القيم الاجتماعية.

ما أردنا الوصل إليه في الفقرات السابقة هو تبيان أهمية وجود تصور للإنسان والمجتمع على اعتباره جزءا من عملية تكوين النظرية. واحد أبعاد هذه المحاولة هو أن تكوين تصور للانسان إمكانية تستحق الاهتمام في كل محاولة لتكوين نظرية اجتماعية او انثروبولوجية اجتماعية. والسؤال المطروح هو: ما هي التصورات التي كوَّنها الباحثون العرب في العلوم الاجتماعية (الاجتماع والأنثروبولوجيا) ؟.

مراحل الفكر العلممجتمعي في البلاد العربية

يمكننا أن نقسم الفترة التي تطور فيها الفكر العلممجتمعي في البلاد العربية منذ الغزو النابليوني لمصر إلى الآن إلى ثلاث فترات: ما قبل دخول علم الاجتماع وتمتد إلى الثلاثينات من القرن الحالي، فترة دخول وتأسيس علم الاجتماع والانثروبولوجيا في البلاد العربية، ثم فترة النقد (±١٩٧٥) إلى الوقت الحاضر.

الفترة الأولى، أو ما قبل دخول علم الاجتماع

كانت هذه الفترة فترة الاحتكاك مع الغرب من خلال الاستعمار وغير ذلك مثل الارساليات والبعثات العلمية. وكانت هذه كذلك فترة التوتر مع الدولة العثمانية الإسلامية عندما بدأ الاحتكاك كانت أولى الصور الاجتماعية قد تطورت وبخاصة في علاقتها مع الدولة ووضع المقاطعات العربية فيها، وهي صورة مزيج من تعنت الدولة وظلمها وصورة الذات المظلومة. وربما أن صورة الذات المظلومة هي التي بقيت مسيطرة على الفكر العربي سواء أكان هذا الفكر القيادي أم غيره. في هذه الفترة بدأ الفكر الاجتماعي إصلاحيا أو كما كانوا يدعونه «إحيائيا»، بدأ بجمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٥ ـ ١٩٠٢م)، ثم محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) ورشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م).(١٥) ويمكن تسمية الفكر الذي جاء به

(١٣) المرجع نفسه، ص ص ٧٨ ـ ٧٩.

(١٤) *David Riesman, et, al, The Lonely Crowd* (New Haven: Al-dine, 1962).

(١٥) بما ان الدراسات حول هذا الموضوع مستفيضة فاننا نتركها للقارىء.

هؤلاء فكراً سياسياً فلسفياً»[١٦] فان الأساس في هذا الفكر كان المعتقد الديني. في هذه الفترة وحتى النصف الأول من القرن العشرين، ظهرت ثلاثة اتجاهات استحوذت على الفكر العربي، وليس بغريب إن قيل «أسرته». فقد جاء كل اتجاه بمفهوم كلي وتمحور حوله: التراث، والحداثة والتوفيق. ونعني بكلمة كلي هنا إشارة إلى أن أصحاب هذا الاتجاه لم يروا المجتمع بنوع من التحديد، سوى ما يخص الصفة التي استخدمت لتشير إلى مفهوم المجتمع كونه عربيا أو إسلاميا أو عربياً إسلاميا، وجميعها مفاهيم لم تكن محددة بطريقة أو بأخرى، ولم تكن معرّفة الا جزئيا مثل «عربي»، أو «مسلم» الخ. ويبدو لنا أن المفهوم الذي أطلق على تلك الفترة «عصر النهضة» غير متكافيء مع نظيره الأوروبي والسّابق عليه زمنيا وأن تسمية هشام شرابي لتلك الفترة كانت اكثر دقة فقد دعاها لنا بسنوات التشكل[١٧] وهي بحق كذلك، وامتدادها الزمني أطول مما قدمه لنا آخرون مثل جورج انطونيوس وعلي محافظة.[١٨] وحتى مطلع قصيدة اليازجي (انهضوا واستفيقوا أيها العرب)، فلم يحتو على ما يمكن أن يشير إلى أن هنالك نهضة. لقد كانت الأسئلة المطروحة: لماذا نحن متأخرون؟ ولماذا تفوق الغرب؟

في الوقت الذي اتصل العرب بالغرب كانت تسود الغرب النظرية التطورية وظهر فيها علم الاجتماع والانثروبولوجيا وكان كلاهما قد وقع تحت تأثير نظرية التطور العضوي. وهذا المفهوم هو الذي تسرب إلى المثقفين العرب وبقي فاعلا بينهم بكل تنوعاته حتى الستينات من هذا القرن: تطور، تقدم ، نهوض، ورقي، ولكن كيف؟ وفي حين كانت نظرية التطور من صميم واقع الغرب، كان بالنسبة للمفكرين العرب نظرة مستقبلية، اي صورة نطمح للوصول إليها. لقد كانت نظرية التطور بالنسبة للغرب نظرية يفسرون بها الواقع على عكس ما كانت لدينا، سؤالا نريد من خلاله الانتقال من حالة التأخر إلى حالة التقدم. أما في الغرب فقد كانت النظرية مبنية على تصورات أولية من التاريخ والواقع. وكان المنادون بالتطور أو النهوض في البلاد العربية ـ سواء نادوا بالعروبة أو الإسلام ـ يحلمون بالنهوض أو التطور للعودة إلى حاله في الماضي حين كان العرب والمسلمون متطورين وغيرهم متأخر، وهو طموح أكبر بكثير من الواقع الذي كانوا يعيشونه أو الذي سوف يعيشوه لقرون قادمة.

وحقيقة الأمر هو أن ثمة فرقا شاسعا بين المفكرين العرب ونظرائهم الغربيين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ أن مفكري الغرب كانوا من التخصص والمقدرة (ليس من حيث المقدرة العقلية بل من حيث الاطلاع والمعرفة) ما لم يكن العرب قادرين عليه. لقد كان مفكرو الغرب من الرفاة والدلال مما جعلهم يطلقون العنان لفكرهم وكانوا قد تخلصوا من المحرمات في العملية الفكرية سواء في الفكر أو الكتابة والنشر، في حين كان مفكرونا يغتصبون المعرفة اغتصابا في الظروف القاسية التي كانوا فيها يستقون المعرفة من الغرب (سواء للحالة المالية والغربة، والانتقال إلى الحياة الفردية والاستقلالية أو التكيف بالبيئة الجديدة).

وعلى الرغم من ظهور الاتجاهات الفكرية (التراث والمعاصرة والتوفيق) إلا أنها كانت جميعا تتعامل مع مفاهيم كلية هدفها المثال المستوحي من الزمن الغابر حتى وإن تمايزت هذه التيارات فيما بينها بدرجة الواقعية، فجميعها كانت تستند إلى المثال الماضي غير واعية بأن التطور الذي حصل للشعوب العربية في الماضي كان قد شكل مرحلة انتهت منذ ألف عام، وان المنطقة وشعوبها قد تعرضت إلى عملية تطور مخالف

---

(١٦) وميض جمال عمر نظمي، ثورة ١٩٢٠: **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤م).

(١٧) هشام شرابي، **المثقفون العرب والغرب: عصر النهضة (١٨٧٥ ـ ١٩١٤م)** (بيروت دار النهار، ١٩٧٨م). والواقع هو ان عنوان كتاب هشام شرابي باللغة الانجليزية كان اكثر دقة حيث دعى هذه السنوات «سنوات التشكل». انظر كتابه.

Arab Intellectuals and the West: The Formative Years (1875 - 1914) (Baltimore: The John Hopkins University Press, 1970).

(١٨) علي محافظة، **الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة** (بيروت: الدار الأهلية للتوزيع والنشر، ١٩٨٧م)؛ جورج انطونيوس، **يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية**، تعريب ناصر الدين الاسد وإحسان عباس (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٢م).

في الاتجـاه أوصلتهـا إلى بدائية جديدة مقارنة مع التطور الذي حصل في الغرب. أما وقد اتصلنا بالغرب المتطور فقد ترتب على ذلك عملية تطور جديدة، وليس بمعنى التطور الذاتي المرحلي كما كانت تمليه نظرية التطور ذاتها.

حتى الفكر الفلسفي الذي ظهر في ذلك الوقت فقد تحـدد في علاقتـه بالإنسـان والمجتمـع بالصـورة الطوبـاويـة المثـاليـة أو الدينية التي وجهت الفكر التراثي ولم تربط عملية التطور بالإنسان والمجتمع، ولم ترد الفرد والمجتمع مرتبطين بناء على إرادة حرة من خلال عقـد اجتمـاعي، بل بناء على ذات الأطر التقليـديـة التنـظيميـة والاجتمـاعيـة المرتكزة على العلاقات الأولية (العلاقات القرابية). وبذلك بقيت النـظرية التطورية (أو النهوضية، أو الإحيائية، أو الإصلاحية) كما كانت عليه في القديم، وبذلك ايضا صورة المجتمـع والأمة والدولة فيما بعد. وحتى من دعوهم مروجين للعصرية الغربية، فهؤلاء لم يبعدوا كثـيرا عن هذه الصـورة المثـاليـة، فهم يدعون إلى اقتبـاس العنـاصر الحضرية الغربية الحديثة دون السلوكـات التي يجب أن تلازمهـا والتي يجب أن ترافقها. مثل هذه الاستعارة كانت مبنية على الفكرة أو القناعة بأن المجتمع العربي الإسلامي أو العربي المسيحي أو الإسلامي أو المسيحي أو حتى العربي هو نوع خاص من المجتمعات حيث مصدر السلطة أو شرعيتهـا كامن في الروحـانيـات أو مستمد مما هو روحـاني (ديني) لا في الدولة فحسب بل أيضـا في الحياة الاجتماعية. وفي هذا تبدو مثالية الفكر: فما هو مثالي لا دخل للإنسان فيه وما على الإنسان إلا أن يطبقه على كل الاحوال، فهو من السماء. وفي حالة الاخفـاق يجب أن يكون هناك سبب، وهذا السبب كان دائما وأبدا خارجيا.

وعلى الرغم من الفرضية التي قدمها هشام شرابي عن الجانب المسيحي من هذه الحركة في أنهم كانوا أكثـر قربـا من الاتجـاهـات الغـربية، إلا أن هذه الفرضية قد تنطبق على مجموعة محدودة منهم وليس على المجتمع العربي المسيحي، إن صحت تسميتهم كذلك، فلم نجـد بين المفكـرين المسيحيين من تقدم بنظرية أو شبه نظرية مستمدة من الواقع ليصلح من خلال تطبيقها الواقع ذاته. حتى وحيث حدث وجاء بعضهـم بتـركيبة نظرية (البعث، والقوميون العرب، والقـوميـون السوريون) فإنهم قد جاءوا بنظرية أو نظريات جزئية غربية مركبة في شكل نظرية وحافظوا على ما يمكن أن نسميه الصورة أو الصور الأولية التقليـديـة للإنسـان والواقـع، وهذه لا تتلاءم مع بعضهـا بعضـا. وكـانت النتيجة: نظرة كلية قاهرة مستبدة. ويحضرني هنا ما قاله أحد فناني الكبارية الهـولنـديـين عندما وصف مثل هؤلاء الاشتراكيين بانهم كانـوا اشتـراكيـين في ثياب راسمالية وانهم كسـائق السيـارة الذي يعـطي غمـازه إلى الشمال ويعـرج إلى اليمـين. وربمـا أن بعض المفكـرين المسيحيـين قد مالوا إلى قبول وتبني مفاهيم التغير والصراع كونها ظواهر الحركية في المجتمع، ولكنهم فهمـوهـا بمعنـاهـا الخصوصي وليس بالمعنى العام، وشرابي نفسه يعبر عن ذلك بقوله:

> حلت فكرة الصراع في المجتمع محل فكرة ضبط المجتمـع من الخـارج. إن المباديء المطلقة للنظام والعدالة كانت غير ذات علاقة بالواقع الملمـوس للوجـود الاجتمـاعي وإن ما يقرر مصـير الافـراد والجمـاعـات ليس القيم والمباديء، بل القوة والدهاء.[١٩]

ومن هنـا فقـد كان الفكر المسيحي موجها نحو الإجابة على السؤال: كيف نتخلص كمسيحيين من الموقف الضعيف في المجتمع الإسلامي، أي من هوية الأقليـات والذميـين؟ والطريف هو أن المصطلحات «إسلامي» أو «مسيحي» ـ وحتى وقتنا هذا في البلاد العربية ـ لا تعني (ولم تكن تعني) اكثر مما كانت تعنيه المصطلحات «مسيحي ويهودي» في أوروبا في القـرن السـادس عشر. هذه التصنيفـات الدينيـة للمجتمع بقيت مترسخة في ذهن المثقف العربي ولا تزال تشكل عقبة في تفكيره حول المسائل الاجتماعية والسياسية، أما المجتمع نفسه فقد كان هذا أو ذلك بقدر ماكنت توجهه القوى الفاعلة فيه، والتي جعلت من البحث التجريبي (الامبيريقي) الاجتماعي نوعا

---

(١٩) شرابي، المرجع نفسه، ص ٤٨.

من المحرمات، إلا إذا كان البحث لأجنبي أو للدولة ذاتها. وكان ذلك أحد المعوقات في طريق تطوير أية نظرية اجتماعية في البلاد العربية، وبدلا من طرح الأسئلة حول إلى أين؟ وما هو الواقع؟ وماذا علينا أن نفعل؟ وضعت القوى الفاعلة أهدافا شبه نهائية لما تصوروه إصلاحا، أو نهضة، أو تطورا أو غيره، ولم يكن من الممكن توجيه المجتمع نحو أهداف عامة إلا ما كانت تمليه الدولة القطرية وما تبرره هي على أنه عروبة أو إسلام أو وحدة ومن خلال عملية ضبط قسرية لم تسمح حتى للبحث العلمي بمدى من الحرية. ومن الجدير بالإشارة إليه هو أن من دعوا أنفسهم بمثقفي الأمة قد انخرطوا في خدمة الدولة القطرية، بل يحق القول بانهم انخرطوا في كل متاهات التنافس للوصول إلى المناصب في الدولة القطرية. إلا أن تلك العملية لم تكن إلا نتيجة لعمليات مأسسة أنظمة الحكم في البلاد العربية، ومن هذا المنطلق فإنها كانت منطقية النتيجة.

لدى هؤلاء المثقفين كانت التصورات الأولية للإنسان والمجتمع التي يمكن ان يبنوا عليها نظرية منطقية علميا غائبة، وبقيت هي والنظرية غائبتين إلى يومنا هذا. والواقع هو أن دخول علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى بما فيها الانثروبولوجيا لم يساعد كثيرا في هذا المضمار.

الفترة الثانية: تاسيس علم الاجتماع والانثروبولوجيا

لم يدخل علم الاجتماع إلى البلاد العربية قبل العقد الثالث من القرن العشرين، كما أن الأنثروبولوجيا لم تدخل قبل منتصف القرن ذاته. وفي معظم البلاد العربية لم يدخل هذان العلمان إلا بعد العقد السادس، وقد نستطيع أن ندعو السنوات ١٩٢٥ ـ ١٩٧٥م سنوات تأسيس هذا العلم في بلادنا العربية.[٢٠]

ويرينا دليل المطبوعات المصرية (١٩٢٦ـ١٩٤٠م) أن هذه الفترة لم تشهد كتابا واحدا مؤلفا حتى ذلك الوقت في علم الاجتماع العام، في حين يذكر تحت عنوان «العلوم الاجتماعية» كتبا عن الإصلاح الاجتماعي، والحركة العمالية في مصر والزواج: والأسرة، والإجرام والمرأة والفلاح المصري، وجميعها لا تتعدى ٢٣ كتابا. ولا يذكر لنا هذا الدليل أية مجلات علمية في هذا المضمار. أما دليل المطبوعات للأعوام ١٩٤٠ ـ ١٩٥٦م، فيفرز للمطبوعات في العلوم الاجتماعية ٢٣٢ عنوانا، ويذكر لعلم الاجتماع ١١١ كتاباً. ويبرز من بين كتاب هذه الفترة الرعيل الأول مثل علي عبد الواحد وافي، وحسن الساعاتي، وحسن سعفان شحاتة، والسيد محمد بدوي، ومحمد يونس الحسيني، ومصطفى الخشاب، ومصطفى الصاوي، وفي علم النفس الاجتماعي عباس حافظ، وفؤاد البهي السيد، ومحمد فرح وغيرهم هؤلاء وآخرون في سورية ولبنان هم الذين وسعوا مجالات علم الاجتماع في البلاد العربية عن طريق النقل والترجمة، أطلق عليهم معن خليل عمر ـ وعلى من كانوا في زمنهم ومن جاءوا بعدهم ـ مصطلح اصحاب «المسلك النقلي»[٢١]

---

(٢٠) تحولت كلية البروتستانت السورية التي تأسست عام ١٨٦٢م وبدات العمل عام ١٨٦٦ في لبنان إلى الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٢٠م. في عام ١٨٧٥م تأسس المركز الفرنسي للدراسات العليا وتحول هذا إلى جامعة القديس يوسف عام ١٨٨١م. أما الجامعة اللبنانية فقد تأسست عام ١٩٥٣م ثم جامعة بيروت العربية عام ١٩٦٠م. وعاد الأزهر الذي أعيد تنظيمه عام ١٩٦١م، فقد تأسست جامعة القاهرة عام ١٩٠٨م كجامعة خاصة ثم تحولت إلى جامعة حكومية عام ١٩٢٥م، وتأسست لها فروع في الخرطوم عام ١٩٥٦م والمنصورة عام ١٩٦٢م. وفي عام ١٩٤٢م تأسست جامعة الاسكندرية وافتتح لها فرع في طنطا، ثم تأسست جامعة أسيوط عام ١٩٥٧م، وعين شمس عام ١٩٥٠ في القاهرة. وفي سورية تأسست جامعة دمشق رسميا عام ١٩٢٣م ثم حلب عام ١٩٦٠م بدلا من كلية الهندسة التي تفرعت عن جامعة دمشق. أما في تونس فقد تأسست الجامعة التونسية عام ١٩٦٠م. وتأسست اول جامعة في الجزائر تحت الاستعمار الفرنسي عام ١٩٠٩م تحت اسم الجامعة الجزائرية. ولم تتأسس الجامعات في البلاد العربية الأخرى إلا في وقت متأخر: في بغداد عام ١٩٥٦، والموصل ١٩٥٩م، ثم البصرة عام ١٩٦٤م، جامعة الرياض في عام ١٩٥٧م والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عام ١٩٦٢م، والجامعة الأردنية في عمان عام ١٩٦٢م، وجامعة الكويت في عام ١٩٦٦م والجامعة الليبية في طرابلس وبنغازي عام ١٩٥٥م. انظر ج ج فاردنبرج ج ج، **الجامعات في العالم العربي الحديث** (لاهاي، موتون، ١٩٦٦م) بالفرنسية، ص ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥.

(٢١) معن خليل عمر، **نحو نظرية عربية في علم الاجتماع**. (الشارقة. جمعية الاجتماعيين، ١٩٨٩م)، ص ٤٨.

لقد اقترنت هذه الفترة التأسيسية لعلم الاجتماع بعمليات تمأسس[٢٢] الدولة في البلاد العربية، وكانت هذه الفترة حافلة بالأحداث الوطنية من الصراع في سبيل الاستقلال إلى قيام دولة إسرائيل وحروبها معها، بحيث إن الباحثين في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية على وجه العموم كانوا، أو وجدوا أنفسهم مقيدين بكل من الظروف الخارجية والداخلية ولم يكن لهم إلا هامش ضيق للحركة والعمل مما جعلهم يتجهون نحو الجزئيات الهامشية والبقاء فيها دون إمكانية ربط هذه المشكلات الجزئية بالمجتمع ككل. وكيف تكون رؤية الجزئيات دون تصور أشمل يحتويها وتنصهر فيه؟ غير أن دراسة الجزئيات، وكما بينت ذلك الدراسات الغربية، قد تكون مجدية عندما تقوم على تصورات أولية للواقع ورؤية مستقبلية في حالة اجتماعية وصلت إلى نوع من الاستقرار. مثل هذه الحالة كانت غائبة عن جميع البلدان العربية، حيث الحالة السياسية كانت مضطربة ومتذبذبة وكان كل من أنظمة الحكم القائمة يشعر بالتهديد سواء من الداخل أو الخارج. كذلك فقد كان كل منها يمر في عملية تمأسس في المجتمع الذي يحكمه. لقد تأسست في البلاد العربية مجتمعات كثيرة ومتمايزة حسب الأنظمة الحاكمة بينما كان المفكرون ولا يزالون يتكلمون عن المجتمع العربي الواحد. ونحن نؤكد على المفهوم «مجتمعات» لأن علم الاجتماع لا يسأل عما يجب أن يكون بل عما هو كائن.

لم يكن بمقدور هذا الاقتران بين تمأسس الدولة وتأسيس علم الاجتماع في البلاد العربية والذي ترافق مع تشكل المجتمعات ذاتها في الوقت نفسه، لا من حيث الإمكانات ولا من حيث توافر الكفاءات، أن يدرس الواقع المتشكل (المجتمع والدولة) كي تتبلور أية صورة أو تصورات أولية علمية يمكن أن تؤدي إلى وضع المقدمات الأولية لنظرية تعالج هذا الواقع. حتى وحيث كان بالامكان دراسة المجتمع امبيريقيا فقد كانت هنالك عقبة انغلاقية المجتمع ذاته والغارق في تقليديته وأميته ليرى جدوى مثل هذه الدراسة ويتعاون مع الدارسين، فلازلنا في نهاية القرن العشرين نعاني من غياب تجاوب المجتمع مع الدراسات التجريبية، وعلى الرغم من الإعتقاد بانتشار الوعي بين الناس. ومن هنا نرى أن مرحلة النقل للمعرفة العلممجتمعية الغربية (أو الانثروبولوجية) كانت تحل للعاملين في هذه الحقول مشكلات مهمة (التدريس وغيرها) بغض النظر عن وجوبية وجود أو غياب التصورات الأولية التي بنيت عليها هذه المعرفة والسؤال المطروح هو إذا ما كان هؤلاء الأوائل يعون ضرورة وجود مثل هذه التصورات الأولية من حيث المنهجية، حيث إن تلقين النظرية ممكن ولكن التصورات ذاتها خاصة بالباحث نفسه وتلقينها صعب المنال.

لقد استطاع الذين درسوا في الغرب لمدة قصيرة أن يدرسوا النظريات ذاتها ولكن لم يتسن لهم أن يشاركوا في الدراسة الامبيريقية نفسها، ولم يكن لديهم من الوقت ما يكفي لكي يدرسوا فكر المعلمين الأوائل والذين وضعوا الفلسفات الأولية للنظريات الاجتماعية الحديثة. والقاريء الناقد للأبحاث في اللغة العربية يجد إلى أي مدى يخدم الاستشهاد بالنظريات الغربية تبرير استخدام النظرية لإثبات صحة النتيجة التي توصل إليها الباحث وليس لتفسير النتيجة ذاتها. ومما يدل على ذلك هو قصور هذه البحوث في القيام بتغذية عكسية للنظرية، ولذلك بقيت هذه البحوث وصفية الطابع. وقلما نجد تقويما لبحث ما يركز على هذه الجوانب من البحث بل ان جل التقويمات ينصب على العينة والإحصاء. وإذا ما أخذنا العلاقة بين النظرية والبحث من حيث وظائف البحث بالنسبة للنظرية، فإننا نجد اغلبية البحوث لا تفي الغرض المطلوب، ذلك أن النظرية الاجتماعية ككل لم تتطور في البلاد العربية. فالأبحاث لا تؤدي إلى تكوين صورة أولية وبالتالي لا تؤدي أيضا إلى تكوين نظرية. وفي هذا المعنى نفهم ملحوظة عبد الباسط عبد المعطي:

> وأما العدد الباقي من رسائل الماجستير والدكتوراه التي اجريت في مصر حتى عام ١٩٧٤م ويبلغ ٩١ بحثا فإما جاءات بلا لون

(٢٢) كلمة تمأسس مرادفة لمفهومها الانجليزي وهي على وزن تفعلل

مجدد أو رفضت كل تنظير معتمدة على جمع مادة امبيريقية جزئية كما فعل حسن الساعاتي الذي اختصر البحث السوسيولوجي إلى ثلاث إيقاعات (غرض البحث، ومجاله ومنهجه) دونما اهتمام بالفكر النظري لقيادة البحث السوسيولوجي نحو جمع البيانات. ويتجلى ذلك في دراسته حول انحراف الأحداث والتصنيع والعمران، وفي بحوثه التي أشرف عليها بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية بالقاهرة»[٢٣]

ويبدو من سياق حديث الكاتب أنه لم يغفل جانب غياب النظرية وبخاصة عندما يتحدث عن مثل العراق وبالخصوص عن دراسة عبد الجبار عريم الذي استخدم مفهوم الصراع الحضاري في تفسير مشكلته الأساسية في المجتمع والذي ـ حسب قول عبد المعطي ـ لم يبتعد كثيرا عن محاولات الوردي في تفسير المجتمع ذاته باستخدام كل من نظرية أوجبورن ونيمكوف:

التي ان صدقت ـ تجاوزا ـ على المجتمع الأمريكي القائم على ثقافات متباينة مهاجرة، فهي لا تنطبق على المجتمع العربي أو الثقافة العربية الأصلية التي قاومت كثيرا من الغزوات.[٢٤]

حتى وفي تسميته للموضوعات التي تطرقت لها الدراسات العربية فإنه لا يذكر بأن البحث يقوم بتغذية عكسية، وحديثه يؤكد بطريقة او بأخرى مدى غياب التصورات الأولية للنظرية المستخدمة. وهذا ما يقودنا أيضا إلى قضية المنهج.

ما يحدد المنهج، كما يذهب فردريك معتوق، هي مسألية البحث:

لم تنطلق العلوم الاجتماعية في البلاد العربية من فرضية محددة، ذات معنى كي تتحدد بمسألية محددة، هذا ما يشعره جميع الذين يتعاطون هذه العلوم، ولكن لا يدركون جميعا السبب الحقيقي لهذه الأزمة. فالأزمة التي تعيش في هذا المجال هي ازمة انطلاق وليست أزمة نمو... وهنا تكمن مشكلتنا النظرية[٢٥]

وفي حديثه عن العائق النظري يقول معتوق:

إن أصحاب المؤلفات في علم الاجتماع باللغة العربية لم يستوعبوا تماما هذه النظريات بالرغم من أنهم درسوا، إنما بقوا على سطحها مما يجعل هذه المؤلفات أدوات تعجل في ترويج هذا الخطأ المنهجي».[٢٦]

والفرضية التي تحدد المسألية، في أغلب الأحيان، مبنية على تصورات أولية، وإن غابت هذه فإن المنهج يصبح أيضا، حتى وحيث استخدم، أداة جامدة. هذا الربط بين أداتيه النظرية وأداتية المنهج يعملان أيضا، كما نتعلم من مقالة عبد الله ابراهيم، على السقوط في الخلط بين الاحتمالي والضروري للتفسير. وعند هذا المستوى قد يمكن إلا أن يكون التفسير احتماليا[٢٧]. أما تعليق معن خليل عمر ودفاعه عن المشتغلين بالعرب بعلم الاجتماع فانه يوضح أن هنالك علماء اجتماع عرب ممن لهم منهجية ويدافعون عن أحقية هذا العلم، وأن هناك متخصصين في جميع الميادين والمدارس الاجتماعية العلمية، فإنه تعليق في مكانه للمنهجية ولكنه لا يقدم أية دليل على أن هذه المنهجية تحتوي على أية ذاتية عربية بنيت على تصورات خاصة، أو أنها توجه الباحث في استخدام النظرية في البحث على المستوى الذي يجعله يقوم بتغذية عكسية لأي من إسهامات البحث المذكورة.[٢٨]

(٢٣) عبد الباسط عبد المعطي، **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع** (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، رقم ٤٤، ١٩٨١م)، ص ٢٦٨: وعريم عبد الجبار، **مشكلة المجتمع العربي المعاصر** (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٦٩م).

(٢٤) عبد المعطي، المرجع نفسه، ٢٦٩.

(٢٥) فريديريك معتوق، «علومنا الاجتماعية والمسألة المفقودة»، **مجلة الفكر العربي**، عدد ٣٧/٣٨ (١٩٨٥م)، ص ص ٢٥٨ ـ ٢٦٨ (ص ٢٦٣).

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٦٥.

(٢٧) عبد الله ابراهيم، «المجتمعي ومستويات تحليله: دراسة في المنهج»، **الفكر العربي**، عدد ٤٢ (١٩٨٦م)، ص ص ١٢٠ ـ ١٣٠ (ص ١٢١).

(٢٨) معن عمر، المرجع نفسه، ص ٦١.

هنالك أمر آخر، وكما يبدو، اثّر كثيرا على تطور علمي الاجتماع والانثروبولوجيا في البلاد العربية، وهو يختص بالباحثين والمختصين أنفسهم. لو ألقينا نظرة على الكتّاب العرب في هذه الاختصاصات باللغة العربية واللغات الأجنبية لوجدناهم على الإجمال في ثلاث مجموعات: مجموعة صغيرة منهم تعمق أفرادها بالنظرية الغربية والصور الأولية التي بنيت عليها وبقي جلهم في الغرب. ومجموعة أخرى درس أفرادها في الغرب لفترة وجيزة للحصول على شهادة الدكتوراة وعادوا إلى أوطانهم، وهؤلاء هم الذين تحملوا عبء مأسسة العلوم الاجتماعية في البلاد العربية بقدر ما استطاعوا، إلا أن فهمهم للنظرية بقي كما قال عنهم عبد المعطي. ومجموعة ثالثة تلقى أفرادها تعليمهم في البلاد العربية ومن هنا كان اطلاعهم على النظريات الغربية من خلال معلميهم وليس مباشرة من خلال قراءة أمهات الكتب في هذا المجال. ومن الواضح أن التعليم الجامعي في البلاد العربية لم يختلف عن التعليم المدرسي كثيرا، فقد بقي تلقينياً ولا يزال في أغلبية الجامعات كما كان عليه. إضافة إلى ذلك، فإنه إذا ما صح قول اوجيست كونت في أن العلوم الاجتماعية أكثر العلوم تعقيدا، فإن الذين درسوا هذه العلوم من العرب سواء في البلاد العربية أو غير العربية أو الأجنبية لم يكونوا ـ في أغلبيتهم ـ أكثر الطلاب تحصيلا في الثانوية العامة ولا يزال الذين يقبلون في هذه الاتجاهات في الجامعات العربية كذلك[٢٩]. كذلك فإن الكثيرين ممن تأهلوا في هذه التخصصات كانوا من غير المتفرغين، والذين همهم الحصول على الشهادة «لسبب في نفس يعقوب». وبناء عليه فإن التوقعات من هؤلاء على المستوى النظري يخضع لمجموعة من التساؤلات التي نسقطها هنا. عند هاتين الفئتين بقيت التصورات الأولية غائبة.

المرحلة الثالثة: مرحلة النقد

وفي هذه المرحلة يمكننا ان نضع التصنيف الذي تقدم به معن خليل عمر للناقدين العرب حول علم الاجتماع: النقد السائب، والمسلك العدمي، ثم المسلك الهروبي، وجميعها كما تفضل به هو، سلبية إلى درجة بعيدة:

«إلا أنه وللأسف نجد طروحات هدفها النقد من أجل النقد لكونها أجنبية، وهذا لا يثري علم الاجتماع العربي أو الكوني».[٣٠]

ومن الأمثلة التي يسوقها نتلمس النقص أو حتى الافتقاد الحاصل للتصورات الأولية للتنظير في البلاد العربية. فسواء في كتابات المسلك العدمي أو الهروبي اللذين تكلم عنهما الباحث، يشعر القارىء بالأزمة التي يعاني منها العاملون في حقل العلوم الاجتماعية.

أزمة النظرية؟ أزمة المجتمع؟ أزمة المنهج؟ أم أن دخول العلوم الاجتماعية إلى البلاد العربية قد أبرز بوضوح أزمة الإنسان؟ فعلى الرغم من الفائدة الممكنة من النقد، إلا أن كل النقد لن يكون مفيدا إن لم يكن الناقد ذاته قد كون لنفسه تصورات أولية تشكل اللبنات الأولى لنظرية ينطلق منها في نقده، أي تصورات حول الإنسان في الواقع الذي يدرسه العلم، وحول الإنسان المرغوب به حسب هذه التصورات الأولية. ويبدو اننا سقطنا في تطرف المقولة الغربية «العلم من أجل العلم»، ولم نسأل· «العلم من أجل ماذا؟». وبناء عليه جعلنا من العلم موضوعا خارجا عن ذواتنا العلمية نريد أن نتعامل معه فون ان نريد منه ان يمس حياتنا بطريقة أو بأخرى، لنصل إلى ما اعتاد الكثيرون دعوته بالموضوعية، وبذلك حذفنا من الموضوعية ما يتعلق بما توصل الغربيون اليه من «عبر الذاتيات».

الموضوعية في رأي معن خليل عمر «تعني في علم الاجتماع دراسة الظواهر والحقائق الاجتماعية كأشياء خارجية مستقلة عن الباحث، لأن الروح العلمية تقتضي تنحية كل اعتبار غريب عن الجهد

---

(٢٩) لازلنا في البلاد العربية نعتبر ان على أصحاب أعلى المعدلات في الثانوية يجب ان يدرسوا العلوم البحتة. وحتى عملية التفكير قد اهملت منذ ان ألغي مساق الفلسفة من الثانوية العامة. انظر تصنيف الطلبة في التخصصات المختلفة في دوائر القبول والتسجيل للمكتب الواحد، الجامعة الادنية، عمان، الأردن.

(٣٠) معن عمر، المرجع نفسه، ص ٥٢.

الذي يبذل نحو الموضوعية الخالصة وابتعاده عن كل انفعال عاطفي وقيمي أو أخلاقي».[٣١]

وعلى الرغم من أن الباحث أكد على مراعاة الظروف المحيطة بالحقائق المدروسة إلا أن مثل هذا التعريف يتفق مع التعاريف التي نجدها في كتب علم الاجتماع باللغة العربية الأخرى وهي تتغاضى عن أشياء كثيرة لها علاقة بالجوانب المعرفية (الابستيمولوجية)، والعلمنفسية والحضارية، وعلاقة المنهج وغيرها من العوامل التي يميزها علم المنهج أو الميتودولوجيا. وفي كتابه الذي ألفه مع مجموعة من أعضاء هيئة التدريس في قسم علم الاجتماع في جامعة اليرموك (الأردن) يتكلم معن عن عمر عن مبادىء الموضوعية والتي «تعني دراسة الظواهر والمشكلات كأشياء خارجة ومستقلة عن الباحث لأنها تمثل أحد القواعد المركزة للروح العلمية التي تتضمن استقلالا فكريا لا تعترف الا بسلطة العقل والتجربة والواقع، وهي بذلك تمثل منبع المعرفة العلمية. بمعنى آخر تعني الموضوعية العلمية تنحية كل اعتبار انفعالي أو عاطفي أو قيمي أو طائفي أو أقليمي، والتحرر من سلطة العرف الاجتماعي والابتعاد عن التاكيد السريع من تفكير الباحث في دراسته للظاهرة أو المشكلة الاجتماعية، والسبب في ذلك أن هدف الباحث لا يرمي فقط إلى التعرف على الحدث الاجتماعي وتقبله كما هو، بل يسعى نحو الفهم العلمي لأسباب وجود هذا الهدف دون التأثر... بأي اتجاه فكري معين»[٣٢]

مثل هذا التجريد الآلي للباحث يشير بكل قوة إلى ما اعتيد على تسميته في الغرب «بالعلم المتحرر من القيم الذاتية» كما جاء عند ماكس فيبر، وهذا مبدأ تحرر منه الغرب منذ زمن بعيد. وإذا كان الباحث في العلوم الاجتماعية من هذه الدرجة من الموضوعية، فما معنى الصور الأولية التي ترتكز إليها الفرضيات أولا ومن ثم النظرية؟ والواقع هو أن معظم الذين كتبوا في موضوع الموضوعية قد ربطوا بينها وبين الباحث أكثر من ربطهم بينها وموضوع البحث الذي يشكل مصدر التسمية. فها هو توفيق الطويل يقرر: «التزام الموضوعية يراد بها إقصاء الخبرة الذاتية لمعرفة الأشياء كما هي في الواقع، فالعلم يقوم على وصف الأشياء وتقرير حالتها كما هي في الواقع... فإذا عرض لدراسة موضوع واحد مجموعة من العلماء، انتهوا في آخر المطاف إلى نتيجة واحدة».[٣٣]

لم يعد أحد بعد في الغرب يؤمن بهذه الإدعاءات المطلقة، وجاء مفهوم عبر الذاتيات ليشير إلى تجارب الباحثين والتي تعطي الباحث المجال لتكوين تصورات أولية يستمد منها افتراضاته الأولى ليصوغ فرضياته ويختار بناء عليها نظرية تقوده في البحث. وبما أنه من غير المحتمل أن يكون الباحث قادرا على تنحية تأثير الاتجاهات الفكرية أو احدها عليه، وكذلك غير صحيح بان مجموعة من الباحثين سوف يصلون إلى نتيجة واحدة إن هم قاموا بدرس ذات الموضوع حتى ولا إذا ما اشتركوا جميعا بمدخل واحد، فإننا نستطيع معرفة المدى الذي تفتقد التصورات الأولية لدى الباحث العربي في البلاد العربية.

نظرة سريعة إلى مجموعة المقالات المنشورة في كتاب «إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي» قد تساعد تبيان ذلك. فتوفيق الطويل يشير التساؤل الذي ساد علم الاجتماع في الغرب في الخمسينات حول طبيعة ولا طبيعة العلوم الاجتماعية وأصبح الآن مفروغا منه. كما قدم نقاشه حول السؤال مشيراً إلى فلاسفة الغرب القدامى (بيكون وكونت وسبنسر وغيرهم). ومع أنه يذهب إلى أن أبحاث علم الاجتماع تترك للفلسفة «الإنسان المجرد باطلاق، أو الواقعي الشخصي في حياته اليومية لتكشف عن حقيقة طبيعته وتهتدي إلى أصله ومصيره»[٣٤]، إلا أنه لا يشير لا من بعيد ولا من قريب إلى هذه الإشكالية أو حتى

(٣١) معن خليل عمر. **نحو علم اجتماع عربي** (عمان دار مجدلاوي، ١٩٩٢م)، ص ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣٢) فهمي سليم الغزوي، ومعن عمر واخرون. **المدخل إلى علم الاجتماع** (عمان دار مجدلاوي، ١٩٩٢م) ص ص ٤١٧ـ٤١٨.

(٣٣) توفيق الطويل. **اسس الفلسفة، ط ٥** (القاهرة: النهضة العربية، ١٩٦٧)، ص ٢٠٧.

(٣٤) توفيق الطويل. اشكالية العلوم الاجتماعية. انها ليست علوما،

تصوراتها الأولية في ذهن الباحثين العرب في علم الاجتماع.

ونجد يحيى الهويدي، وعلى الرغم من أنه يشير في جملته الأولى من المقالة، إلى ضرورة وظائفية العلوم الاجتماعية (كان اسلافنا يقولون: لا خير في قول، أي في فكر إلا ما كان تحته عمل، بمعنى نصحونا بالابتعاد عن البحث المجرد الذي لا يؤدي إلى نتائج تطبيقية نافعة للناس)، نجده يقول: «ان الفلسفة في إحدى تعريفاتها الجيدة اصبحت تعني نقد الفكر القائم بهدف تغيير العلاقات الاجتماعية. وعلى هذا النحو تقترب الفلسفة من العلوم الاجتماعية، بل تتفوق عليها من ناحية نفعها للناس، ذلك لأن العلوم الاجتماعية إذا كانت تؤدي حقا في جانب منها فقط إلى إحداث تغير في العلاقات الاجتماعية القائمة وتقديم علاقات جديدة، فإن معظمها موجه أصلا إلى هدف واحد وهو المحافظة على كيان المجتمع الحاضر وإظهار تماسك بناءة واستقرار كيانه. ومن ثم انحصرت جهود كثير من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا المعاصرين في بحوث تجزئية وصفية او فينومينولوجية تنطق بالعقم والضحالة».[٣٥] وربما أن الهويدي يشير بوضوح إلى المدرسة الوظيفية في علم الاجتماع ولكنه وبكل توكيد لن يجد من سوف يوآزره في هذا الرأي لا من بين الباحثين الغربيين ولا بالتاكيد بين محترفي علم الاجتماع والانثروبولوجيا في البلاد العربية، وعلى الرغم من غياب التصورات الأولية لديهم. وقد يقول الهويدي ذلك إشارة إلى القوى الكثيرة التي مارست ضغوطا قاهرة للحيلولة دون تقدم المعرفة الاجتماعية وأن هذه المعرفة لم تحرز أي تقدم إلا بعد أن نجحت بالتصدي إلى قوى كثيرة كان من مصلحتها مقاومة المعرفة الاجتماعية الموضوعية، إلا أنه لا يعتبر علم الاجتماع أو الانثروبولوجيا علوما قادرة على تحريك قوى المجتمع ويريدها أن تترك ذلك للفلسفة، ذلك أن قوله يحتوي ضمنا على الرأي بأن علماء الاجتماع والانثروبولوجيا لا يملكون تصورات أولية حول الإنسان لا في الواقع ولا في المستقبل[٣٦] وهو لا يقول اي شيء عن علم الاجتماع في البلاد العربية، ومقالته كباقي المقالات في الكتاب، فما جاء فيها حول اشكالية العلوم الاجتماعية في البلاد العربية لا يطرح ذاته من خلال البحوث المكتوبة باللغة العربية بل بالرجوع إلى التجربة الغربية وتمثل هذه التجربة على الواقع العربي لينهي المقالات الاب قنواتي متكلما بفاهي الاتجاهين المسلم والمسيحي في البلاد العربية ويفرض تأسيس علم اجتماع إلهي، ونعود من جديد الى ميتافيزيقية لا وجود لها في الواقع الاجتماعي.[٣٧]

الخلاصــــة

عندما نتكلم عن العلوم الاجتماعية على اعتبارها علوما، فانها مثلها مثل العلوم الأخرى، ذات جانبين: الأول بمعنى العلم أي المعرفة المرتبة المجموعة من خلال طرق واساليب نتوخى من خلالها الموضوعية. إلا أننا لا نتعامل مع المعرفة العلمية من خلال اللاشيء بل من خلال النظرية التي تقوم بوظيفتين رئيستين، الأولى توجيهية (توجه البحث)، والثانية تفسيرية (تفسر لنا النتائج) وبناء عليهما نستطيع أن نتنبأ. هذه النظرية لم تأت من العدم، ولكن بنيت على تصورات أولية استمدها الباحث من أطر مرجعية. نحن لا نخرج من نقطة الانطلاق بان هذه الأطر يجب أن تكون آيديولوجية أو غيرها، ولكن لا توجد نظرية دون منظر. وعندما يكون هنالك منظر، وبخاصة في العلوم الاجتماعية، فإن هذا المنظر لا يكون دون تصورات حول الإنسان والمجتمع كما هما في الواقع، يكون قد استمدها من الواقع الحاضر والواقع

= **اشكالية العلوم الاجتماعية** لمجموعة من الباحثين (القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٧٤م)، ص ص ١٣ ـ ٢٥.

(٣٥) يحى الهويدي، «المعرفة والعلوم الاجتماعية». **اشكالية العلوم الاجتماعية**، ص ص ٢٧ـ٤١ (ص ٢٧).

(٣٦) المرجع نفسه، ص ٣٢.

(٣٧) الاب الدكتور جورج القنواتي، التراث الإسلامي وإشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، **اشكالية العلوم الاجتماعية**، ص ص ٣٧٩ـ٤٠٠.

الماضي، ويبني نظريته عليها، أو يستعير إحدى النظريات إن لم يستطع أن يصوغ إحداها. وفي كلتا الحالتين تبقى التصورات الأولية هي التي تدعم النظرية في توجيهها للبحث. وإذا سلمنا بوجود أنواع من النظريات (كلية وشمولية وخاصة) فإن التصورات الأولية ضرورية لكل من النوعين الأخير والأول، لأن الثاني ضروري من الناحية التقنية والتفسير. والنظرية الخاصة هي التي تعطي أيضا خصوصية الإنتاج للباحث لأنها مستمدة جزئيا من النظرية الكلية التي نستخدمها لتفسير المعلومات الامبيريقية. والجانب الثاني هو الجانب المنهجي، التقني والتحليلي. مثل هذه النظريات الخاصة والتصورات الأولية التي تعمل على تشكيلها، نجدها غائبة عند الباحثين العرب، ولذلك قل ما نجد بينهم من يربط مشكلة بحثه الجزئية بالواقع الكلي. وحيث توجد التصورات الأولية لمثال (تصورات مستقبلية) فهي غير مستوحاة من الواقع، وربما إن العجز كامن في تشكيل شخصية الباحث والذي لا يزال إما أن يعتقد بمقولة العلم من أجل العلم وهي قضية عفى عليها الزمن إن لم تؤخذ في المجال الذي يجب أن تؤخذ فيه، أي أثناء البحث، أو أنه يستوحي المثال من واقع وهمي أو غيبي. فقبل البحث هناك مشكلة اختيار مشكلة البحث، وهي خطوة تنطوي على ذاتية تجعل الباحث يعطي أولوية لتلك المشكلة. وبعد البحث أي بعد أن يكون الباحث قد فهم المشكلة في الواقع، فانه يعود الى تصوراته الأولية حول واقع أفضل. هذا الهدف الأخير يشترك فيه الباحث مع آخرين من المجتمع ككل.

لا زلنا نفتقر في البلاد العربية إلى إبراز هذه التصورات الأولية من خلال بحوث مقارنة قلما نصادفها في الأبحاث المنشورة باللغة العربية وهذه، التصورات في نظرنا هي التي تساعد على تحديد مجموعات الأسئلة في الاستمارة أو المقولات المستخدمة في القياس. وبما أن التصورات غائبة فإننا نلجأ إلى نقل الاختبارات أو الاستمارات أو القياسات المستخدمة في البحوث الغربية، ونقول بأننا طورناها لتلائم الواقع الذي نبحث فيه، ولكن هذا الواقع واقع مختلف بإنسانه وحضارته وكل أحواله.

ملحوظة أخيرة لا بد من ذكرها هنا، وهي أن التصورات الأولية التي قدمها جهابذة الغرب ومفكريه، مثل فرويد أو آدم سميث أو هيجل أو ماركس، كانت قد تطورت مع تطور الوعي العلمي الغربي. وعلى الرغم من أنها كانت قد استمدت من التراث الحضاري الغربي، الإغريقي، والروماني، والجرماني أو غير التراث الغربي مثل التراث الديني اليهودي والمسيحي، إلا أن الجذور التراثية لم تحدد اتجاه النظرية، لأن أصحاب النظريات كانوا قد قرأوا التراث بناء على منتجات الوعي العلمي الحديث، كما فعل كونت، وسبنسر وفيبر ودركهايم وادوارد تايلور وميرتون وغيرهم. وكانت هذه هي القاعدة في البحث العلمي في العلوم الاجتماعية في الغرب ولا تزال كذلك. ويبدو أن الواجب الملقي على عاتق العلماء والباحثين العرب أكثر من ذلك تعقيدا. فسلوك الإنسان في واقعنا العربي أكثر تعقيدا من سلوك الإنسان الغربي، ذلك أن محتوى اللاوعي عند الإنسان العربي هو حصيلة تطورين راسيين، انتهى الأول مع أفول الحضارة العربية الإسلامية وابتدأ الثاني من مرخلته شبه البدائية في منتصف القرن التاسع عشر منذ اتصال العرب بالغرب، في حين كان العالم العربي قد مر بين هاتين المرحلتين في عملية تطور راسي تنازلي نحو البدائية. مثل هذه التطورات لم نحسب حسابها في دراساتنا للواقع الحاضر أو التاريخي.

العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الثاني، ٤٧٠ ـ ٤٧٤ (١٩٩٣م).

مشكلة التغير المناخي في شبه الجزيرة العربية*

للدكتور جون دايتـــون
تعريب: الدكتور عبد الكريم بن عبد الله بن سحيم الغامدي

ملخص البحث : لايـزال الغموض يكتنف جوانب كثيرة من الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية سواء أثناء فترة الممالك العربية أو حتى فترة ما قبل الإسلام أو الفتـرة التي اصطلح على تسميتها بـ «الجاهلية» وفي سياق تفسير مسار بعضاً من تلك الأحـداث يعـرض جون ديتون وجهة نظر تعتمد على الظواهر الطبيعية مركزاً مناقشته على تذبـذب المنـاخ والتحـول التـدريجي نحـو الجفاف الذي أدى في النهاية إلى هجر الكثير من المستوطنات سواء في جنوب الجزيرة العربية أو في شمالها مما دفع بالكثير من سكانها إلى الهجرة بحثاً عن مناطق أكثر خصوبة وأوفر ماء. ونحن وإن كنا لا نتفق مع كثير مما أورده الكاتب من أفكار إلا أننا نقدمها للقاريء العربي أملاً أن يجد فيها بعضاً مما يتوق إليه من معرفة لمشكلات التغير المناخي في شبه الجزيرة العربية والذي مازلنا نعايشه إلى يومنا هذا.

لقد أصبح رائجاً في الآونة الأخيرة (والعبارة معنية قصداً) في أوساط الآثاريين والمؤرخين نكران أي دور للعوامل الطبيعية في التأثير على المناخ، وبالتالي على الإنسـان وحياته منذ نهاية العصر الجليدي الأخير والذي انتهى بشكل سريع (بالمقياس الجيولوجي) بين الأعـوام ٨٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ق.م. وبعبارة أخرى فإن التسعة آلاف عام الماضية لم تشهد أي تغير جوهري في المناخ. هذه الفكرة التي نادى بها رايكس[١] Raikes تعلق بها الآثاريون لتبسيط الأمر، والقي اللوم بكـامله على الإنسان في حدوث الكوارث المحلية من تصحـر وزحف الرمال، مما تسبب لاحقاً في تعاسة البشرية. وهذه النظرة تتلاءم مع «النظرية الساكنة» لعلم الآثار، والقائلة أنه لم تكن هناك غزوات كبرى أو تحركات لشعوب من الأعراق الرئيسية، وإنما اقتصر الأمر فقط، وفي أحسن حالاته، على التبادل التجاري بين القـرى والقبـائل. إلا أن الأمر يبدو هنا وكأننا نقتلع «القضيـة السومرية» والحوريون والهكسوس وحتى الديريين ونجردهم من وجودهم. ولسوء الحظ فإن علم الآثـار كان دائما خاضعاً للآراء التي هي عصريـة أكثـر من كونهـا علميـة. وبسبب النـظام التربوي الإنجليزي العجيب الذي يدرس الأطفال في عمر الثانية عشرة، إما العلوم مع استبعاد تام للتاريخ والآداب أو المواد الأدبية مع هجر تام للعلوم، فإن علم الآثار قد أصبح مرتع صيد طيباً لأشباه العلماء كما أشار إلى ذلك حديثاً وبأسلوب لاذع الدكتور هول[٢] Hall من أن «النظرية الساكنة» المصلح عليها الآن كانت تفـاعـلاً مبـالغـاً فيـه بدرجة معقولة لنظرية الاكتساح الأكبر» (العظيم) والتي كانت إلى حدما رد فعـل للنظرية الماركسية التاريخية. ومن المحتمل أن تكمن الحقيقة عادة في مكان ما بين النقيضين. إن الرجل العظيم وليكن محمداً ﷺ ، جنكيز خان، نابليون، أو لينـين، يمكنـه أن يغير مجرى التاريخ إذا كانت الظروف الاقتصـاديـة ملائمة، وفي معظم الحالات يكون الطقس أساس نشأة الظروف الاقتصادية وقد

* بحث ترجم عن الإنجليزية تحت عنوان The Problem of Climatic change in the Arabian Peninsula لمؤلفه John Dayton في *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* vol 5 (1975)

(١) R. Raikes, *Water, Weather and Prehistory* (London, 1967).

(٢) E. M. Hall, "Old Bones- But How Old?" *Sunday Telegraph*, Vol 74, pp.3-11, (1974).

يكون «رايكس»[٣] Raikes محق في أنه لم يكن هناك أي تغير رئيسي في مناخ العالم خلال ٩٠٠٠ عاماً الأخيرة، ولكن الشيء الذي لم يعطه قدره التأثير المهم جدا للتغيرات الإقليمية الصغيرة على الجنس البشري في المناطق الجغرافية المحددة بوضوح، مثل أوروبا الشمالية، منطقة البحر المتوسط، سهول آسيا الوسطى وشبه الجزيرة العربية، في فترات قصيرة من الزمن. والتوراة (العهد القديم) واضح في تلك النقطة فيما يخص السنوات السبع السمان والسنوات السبع العجاف. وعلماء الاقتصاد الكلاسيكيون وبالتحديد، ريكاردو[٤] (Ricardo) كانوا أيضا على معرفة بطبيعة الأرض الطرفية Marginal Land، وبتطبيق القوانين الصارمة (Iron Laws) للاقتصاد على الجنس البشري. ولو لم يفشل الحصاد في فرنسا خلال الثمانينات من القرن الثامن عشر الميلادي لما قالت ماري أنطوانيت (Marie Antoinette) مقالتها الشهيرة «دعهم يأكلون الكعك»، وربما لم تكن الثورة الفرنسية.

فالماشية السمان وصوامع الغلال الممتلئة تؤدي إلى رعايا قانعين وأوقات آمنة، حتى أن جور رجال الضرائب يمكن ان يحتمل.

ومن الغريب أن رايكس يعترف في كتابه المثير[٥] أنه ربما كان قد حدث تقهقر طفيف في ناحية الجنوب من صحاري ليبيا وبلاد العرب، وأن المساحة الهامشية الصحراوية في الشرق الأوسط كانت تسقط عليها الأمطار بشكل أكثر من الآن، فإنه ينكر أنه كان هناك أي تغير مناخي ذو قيمة منذ عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد، كما أنه يقر بوجود تغيرات في منسوب البحر القزويني[٦]، ولكنه ينكر أهمية هذه الظواهر، وحجته غريبة، إذ أن البحر القزويني يستمد مياهه بشكل عام من نهر الفولجا (Volga River) ومنسوبه يعتمد على الترسيب والانحدار نحو الشمال بين خطي عرض ٤٥ و ٦٠درجة (ص ١٠٤)، وهو يشير فيما بعد (ص ١١٦) «أن جميع أسباب التغيرات في مستوى البحر القزويني ترتبط بالأحداث التي وقعت بين خطي ٤٥ و ٦٠ شمالا، وهي بمنتهى الدقة المنطقة الطرفية للرعي والزراعة في روسيا الأوروبية المشتملة على منطقتي موسكو وقازان»، وهو يعترف بأهمية مثل هذه التغيرات، وكان قد أوضح قبل ذلك قائلا «إن الاستنتاجات التي توصلت إليها بعد مراجعة دقيقة للأدلة المتاحة لي: أنه لم يكن هناك أي تغير مناخي بيئي ذو مغزي على مر القرون منذ سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد»[٧] وفي صفحة (٨٣) يقول: «سوف أذهب إلى أبعد من ذلك بأنه لاتوجد تغيرات في المناخ تكفي لإحداث تغير بيئي ملحوظ».[٨]

إنها بالتحديد طبيعة مثل هذه التغيرات الطفيفة في المناخ، وكذلك درجة الحرارة التي لها نفس أهمية سقوط الأمطار، والتي لابد أنه كان لها ولا يزال آثار مدمرة على حياة الإنسان في المناطق الطرفية في العالم. وقد رأينا مثالاً في جنوبي الصحراء الكبرى حديثاً، حيث دمرت مساحات بسبب الجفاف الذي استمر عشر سنوات وحيث زحفت الصحراء لمئات الأميال والتي لن تستصلح أبداً حتى فيما بعد.

وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن السجلات الطقسية كانت قد دونت منذ أقل من مئتي عام فقط، فإنه لمَنَ المدهش أن يكون إنسان ما جازماً في رأيه في موضوع التغير المناخي البسيط، إذ أن أول نظام فعال للأرصاد الجوية ذلك الذي أنشأته حكومة بروسيا سنة ١٨١٧م. وفي عام ١٨٢١م ألقيت بحوث عن حركة الأنهار الجليدية الألبية في الأكاديمية السويسرية في مدينة «لوسيرن». وقد أجريت مبكراً عام ١٦٥٠م الملاحظات اليومية بمقاييس للحرارة في مدينة «فلورنسا» بإيطاليا.

لقد كانت أول إضافة علمية طقسية عام ١٩٤٠م عندما استطاعت المناطيد أن تحلق على ارتفاع معين لتسجيل الظواهر بينما تم في الأعوام العشرة الأخيرة

(٣) Raikes, op. cit, 1967.

(٤) لم تتضمنه قائمة مراجع المؤلف. Ricardo

(٥) Raikes, op. cit, p.51,52.

(٦) بحر قزوين يعتبر اكبر بحيرة مالحة في العالم، يقع بين روسيا وإيران، وتقدر مساحته بـ ١٦٣٫٨٠٠ ميل مربع (المترجم).

(٧) Raikes, op. cit, p.74.

(٨) Raikes, op. cite., p. 83.

جمع معلومات أكثر باستخدام الصواريخ، وفوق ذلك كله بالقمر الصناعي الذي يستطيع أن يصور تكوين وحركة السحب عبر كل القارات في حين أمدت سفن الطقس في المحيط الأطلنطي البيانات عن حركة نظم الضغط ودرجة الحرارة في مجاري الخلجان.

ويمكن أن يقرر الآن أن التغيرات في المناخ تظهر على هيئة تغيرات في متوسط درجات الحرارة في مناطق مختلفة من العالم والواقعة بين درجتي حرارة ٢ إلى ١٢ مئوية بين العصور الجليدية والعصور الدفيئة وما بين درجتي ٢ إلى ٤ درجة مئوية في الفترات القصيرة من التغير المناخي.[٩]

وهناك أدلة أمن الحصول عليها من خلال طرق الحفر العميق، وباستخدام كربون ١٤ المشع. لقد أوضح ويلز "Willis" [١٠]وآخرون) وسويس[١١] Suess أن الفترة بين ١٣٠٠ و ١٨٠٠م كانت أغنى بالكربون ١٤ بنسبة ١ ـ ٣٪، وأن هذه الفترة تبدو متوافقة مع الفترة الأكثر برودة، ومع خمود النشاط التوهجي للمجموعة الشمسية، بمعني أنه عند اصطدام ذرات الكربون ١٤ في طبقات الجو العليا مع ذرات النيتروجين ١٤ فإن بعض ذرات النيتروجين تفقد بروتوناً واحداً وتتحول إلى كربون ١٤. والنيترونات المسؤولة عن ذلك تنشأ من جزيئات الأشعة الكونية الآتية من الفضاء الخارجي والتي تتقاذف على الغلاف الجوي الخارجي للأرض. وكانت فترات تركيز الكربون ١٤ قد حدثت أيضا عام ٧٠٠ قبل الميلاد تقريبا، وما بين عام ١٤٠٠ و ١٧٠٠م، وكلا الفترتين كانتا في أوقات الإنخفاض العام في درجة حرارة الأرض. وكان كل من رالف Ralph ومايكل Michael [١٢]قد لاحظا شواذاً سلبية لارتفاع درجة الحرارة في الفترة بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ميلادي، والتي يعتقد أنها كانت فترة دافئة في أوروبا.

ومن العوامل الأخرى التي تؤثر في الطقس العالمي دورات البقع الشمسية وميل محور الأرض تجاه الشمس بين درجتي ٨: ٢١ درجة، ١٤: ٢٤ درجة وقوى المد والجزر للكواكب التي تدور في فلك الشمس (المجموعة الشمسية والمؤثرة على الشمس من خلال دائرة منتظمة كل ٠٠٠ر٤٠ عام. وللدورات الطويلة للظواهر الجوية علاقة بتوافق خطوط المشترى، والزهرة ويورانوس، مع قوة مد وجزر الأرض خلال دائرة ١٦٨٠ عاماً، أو بمعنى آخر أنها القوة القصوى للمد والجزر. إن دورة ١٦٨٠ سنة لذات علاقة متينة بدورة ١٨٠٠ عام بدليل سنيتنيكوف[١٣] الذي استنتجه من مناسيب البحيرات والفترات الرطبة في أوراسيا، وهي نصف دورة ٣٥٠٠ عام الموضوعة إلى الأمام من أجل تقدم وتراجع أنهار الجليد التي أشار إليها كل من سويس رالف ومايكل.

ونحو ١٠٠٠ عام قبل الميلاد حدثت أدفأ فترة لما بعد الجليد، فتقدمت أنهار الجليد وظهر كثير منها مرة أخرى من جبال الألب، وقد بدأت فترة مطيرة في شمال غرب أوروبا فجأة دامت لعدة قرون، ويمكن التدليل عليها من خلال المواد النباتية المتحجرة في أماكن المستنقعات لتلك الفترة.

وقد أكد فيربردج[١٤] "Fairbridge" أن التغيرات في المد والجزر والتي تحدث أيضا عندما تكون الأرض والقمر والشمس على خط مستقيم، ويحدث ذلك كل ١٦٧٠ عاما. وكانت الدرجات القصوى في الأعوام ٣٥٠٠، ١٩٠٠، ٢٥٠ قبل الميلاد، ١٤٣٣ ميلادي، في حين كانت الدرجات الأدني في الأعوام ٢٨٠٠، ١٢٠٠ قبل الميلاد، ٥٥٠ ميلادي. من هنا فإن قوة المد والجزر هي صورة من صور الطاقة، وكل

(٩) H. H. Lamb, "*Climate*" *Past, Present and Future,* Vol, 1, p. 51972.

(١٠) E.H.Willis, et al., "Variations in the Radiocarbon Concentration over the Past 1300 years", *Am. J. Sci. Radiocarbon,* Supp. pp. 1-4.

(١١) H.E. Suess, "Climatic charges, Solar Activity and cosmic Ray Paroduction Rate of Natural Radiocarbon", *Met. Monographs* 8 No. 30, (1968.) pp. 146 - 50.

(١٢) E.K. Ralph, and H.N. Michael, "Problems of the Radiocarbon Calendar," *Archeometsy,* 3 (1967), pp. 3-11.

(١٣) A.V. Snitnikov, "General Features of the Cyclic Fluctuation in the Level of Lakes and the Wetness of the Territory of Eurasia in Connexion with Solar Activity", *Bull. Commission on Investigation of the Son.* Nos. 3 and 4 (1949).

(١٤) R.W. Fairbridge, "Climatič Change and the Ice Ages, Convergence of Evidence," *Ann. N.Y. Acad. Sci,* 95 (1961), p. 543

طاقة يمكن قياسها كحرارة، ومثل هذه التغيرات في قوة المد والجزر لابد وأن تؤثر على التوازن الحراري في نصف الكرة الأرضية[١٥] والرياح هي الآليات الأساسية للتبادل الحراري، وتنشأ عن سرعة دوران الأرض بمحورها المائل، كما تنشأ حركة تيارات المحيطات من خلال مقاومة الرياح على أسطحها.

وهناك عامل آخر وهو الاختلاف في تباعد مدار القمر عن مركزه، ألن "Allen" [١٦] والتي تؤثر في حركة المد والجزر. وقد وجد ماكسيموف "Maksimov" و وسميرنوف Smirnov [١٧] إختلافاً مقداره دورة عمرها ١٩ سنة في ميل المحيط الأطلنطي الشمالي، بتغيرات قدرها ٢١ر٠ و ٤٠ر درجة مئوية في متوسط درجة حرارة الماء على سطحه. ويبدو أنه كانت هناك تغيرات بين ٢ إلى ٣ درجة مئوية في متوسط درجة الحرارة في المئة عام الأخيرة للمحيط الأطلنطي الشمالي، مما جعله يؤثر في مناخ أوروبا.

ومن الواضح الآن أنه حتى عام ١٢٠٠ ميلادي كان هناك دفء مناخي مثالي، وهذا يتوافق مع ما بلغنا عن الرحلات البحرية للاسكندنافيين وحقول العنب في انجلترا. ومنذ ذلك الوقت تدهور المناخ حتى وصل حداً أدنى في الفترة ١٦٩٠ ـ ١٧٨٠م عندما ظهرت كميات هائلة من الجليد من القطب الشمالي. وخلال الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٩٥٠م كان هناك تراجعاً ثابتاً في كتل الجليد في القطب الشمالي والذي عاود التقدم خلال الـ ٢٥ عاماً الأخيرة. والآن فإن الـ ١٧٥ عاماً الأخيرة هي فترة ذات سجلات وحقائق علمية معقولة، وأن هذه التحركات للكتل والأنهار الجليدية لا يمكن إنكارها.

ولقد رأينا من خلال ما سبق أن قوتي المد والجزر تتحدان مع عوامل أخرى وأن تأثيرها يمكن رؤيته من خلال ما تحدثه الرياح، وبتغير درجات قليلة في خطوط العرض في نطاق الرياح السائدة، وبالطبع فإن درجة حرارة المحيط ستؤثر في قدرة الرياح على حمل بخار الماء، وبالتالي تؤثر في الترسيب أو سقوط الأمطار على القارات وفي الأطراف تكون النتائج خطيرة على حياة الإنسان.

وكما يتوقع المرء، فإن الوضع معقد بالنسبة للتوفيق بين التفسيرات المبالغ في تبسيطها والتي شوشت على علم الآثار خلال الـ ٧٥ عاماً الأخيرة. وعلى أية حال فقد أصبح واضحاً أن هناك حقيقة ملحوظة في تغيرات درجة الحرارة وسقوط الأمطار في مناطق مختلفة من العالم. وقد كان لها آثار جسيمة عل الأطراف في أوروبا وآسيا والتي جعلت الشعوب تتجول بحثاً عن مرعى افضل وظروف احسن.

وفي هذا الإطار فإن غزارة الأمطار وشدة البرودة تؤدي إلى فساد المحاصيل الزراعية في المناطق الجافة، وعلى سبيل المثال في أوروبا الشمالية لكونها في نفس درجة خطورة الجفاف في المناطق القاحلة.

وفي هذا السياق فإن الدراسات الرائدة لكل من هنتنغتون[١٨] "Huntington" وبروكس "Brooks" [١٩] واخيراً لامب[٢٠] قد تأكدت، ولكن باديء ذي بدء نستعرض بعض العوامل التي تسبب الكوارث البيئية (وهنا نوصي الذين يشككون في الأعمال السابقة الذكر لـ هنتنغتون وبروكس أن يقرأوا العمل الرائع للامب في كتابه المهم والمشار إليه سابقاً). فالإنسان قد يوجد الصحاري بإزالة الأشجار وعدم زراعة الأراضي البكر إضافة إلى زحف الرمال وتكثيف الرعي في الأطراف وكذلك بتحويل مجاري الأنهار، أو بجلب حيوانات كالأرانب تساعد في زيادة التصحر كما حدث في أستراليا.

ويقال أن التعسف في جباية الضرائب في أواخر عهد الأمبراطورية الرومانية قد أدى إلى هجرة الفلاحين لأراضيهم وإهمال حقولهم، إلا أن التبعية

---

(١٥) M.I. Budykov, *Atlas of the Heat Balance* (Leningrad, 1955).

(١٦) C.W. Allen, *Astrophysical Quantities* (London, 1955).

(١٧) I.V. Maksimov, and N.P. smirnov, "AContribution to the Study of the Causes of Long Period Variations in the Activity of the Gulf Stream". *Oceanology*, 2 (1965), p. 5.

(١٨) لم تتضمنه قائمة مراجع المؤلف Huntington

(١٩) C.E.P. Brooks, *Climate Through the Ages*, 2nd rev. ed (New York, 1970).

(٢٠) Lamb, op. cit., 1972.

القيت على الإنسان والماشية باعتبارهما السبب المباشر للتصحر.

وهناك مثال يبق وهو استخدام الغابات للحفاظ على الماء من التبخر بواسطة الشمس كما حدث في تن رايف[٢١] (Tenrife) إذ تم في الفترة الأخيرة إعادة زراعة المناطق المتعرية والتي كانت غابات سابقاً وعلى ارتفاعات بين ٢٠٠٠ و ٦٠٠٠ قدم، حيث تتجمع سحب الرياح الموسمية، وحتى بدون سقوط أمطار فعليه، إذ تتكثف الرطوبة على أوراق الصنوبر المدبب حيث قدرت الكمية المتساقطة على تلك الأشجار بحوالي ٢٠٠٠ لتر في المتر المربع مقارنة بنظيره من النهاية العظمى لسقوط الأمطار السنوية وهي ٥٠٠ لتر. وعندئذ تسحب هذه المياه بنظام شامل من القنوات الكونتورية إلى كل أجزاء الجزيرة. وتغير مشابه في المناخ المحلي حدث في وادي سكرمينتو "Sacramento Valley" في ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية حيث إن عملية الري ومئات من الأميال المربعة المغطاة بحدائق البرتقال أدت إلى نقص في درجة حرارة فصل الصيف بما يوازي ٢٠ فهرنهايت خلال الخمسين عاماً الأخيرة.

ومن جهة أخرى فإنه في ظل حكومة مركزية قوية قد شيدت السدود، وأدخلت نظم الري الحديثة التي أدت إلى إزالة بعض المخاوف الناشئة بسبب التغير المناخي من عام إلى آخر.

إن المخازن الكبيرة في قصور كنوسس[٢٢] لتشهد على إمكانية توافر الطعام في فصول القحط، ولكن التوراة تؤكد مرة أخرى وبصورة صحيحة انه في وقت المجاعة في أطراف الشرق الأدنى كان هناك قمح في مصر ولم يكن معتمدا على المطر بل على منسوب نهر النيل.

وعلى وجه التحديد فإن تلك المناطق الطرفية للزراعة في جنوبي فلسطين والمذكورة في البرديات، فإن اللاجئين الباحثين عن الطعام والقادمون من مواقع النبطيين والرومان والبيزنطيين في صحراء النقب إلى جانب جماعات من مدين وأيدوم كانوا يتجهون إلى مصر. أما النظرية القائلة بأن الفاتحين العرب هم الذين وضعوا نهاية لتلك الحضارة المزدهرة، فقد ظلت لفترة طويلة دون اختبار. وحقيقة الأمر أن الأمويين الأوائل والعباسيين قد أظهروا اهتماماً بأعمال الري، وتمت عمليات استقرار في الكثير من المناطق المهجورة، وكمثال على ذلك قصر الحيرة والرقة والأزرق... وغيرها، والتي دمرت أخيرا عند غزو المغول في القرن الثالث عشر الميلادي. وحتى هذه الهجمات المباغتة من المناطق الطرفية في آسيا قد تكون مرتبطة بالتغير المناخي إذ أن السجلات الصينية، كوشينج شو (Co-Ching Chu)[٢٣] توضح أن فصول الشتاء أصبحت في زيادة مطردة من البرودة القارسة خلال الفترة بين ١١٠٠ ـ ١٤٠٠ ميلادي، وأن متوسط التسجيل لآخر تساقط الثلوج في منطقة هانجشو (Hangchow) في الفترة من ١١٣١ ـ ١٢٦٠م كانت تقريباً متأخرة شهراً عن الفترة بين ١٩٠٥ ـ ١٩١٤م. وقد أتت المرحلة المطيرة فجأة في آسيا الوسطى حيث إنه في النصف الأول من القرن الثاني عشر وبالذات في كرافانسيراي (Caravan-serai) في باكو[٢٤] (Baku) كان منسوب الماء أقل بمقدار ١٤ قدما عن المنسوب الحالي للبحر القزويني. وفي عام ١٣٠٦م كان منسوب الماء في نفس البحر أعلى بمقدار ٣٧ قدماً عنه الآن، وهو تغير كلي في المنسوب يساوي ٥١ قدماً. وكما أشار أندرو ويليمسون (Andrew Williamson) للكاتب فإن مستوى البحر القزويني ربما يكون قد تأثر بتغير أو (لانحباس نهري) في مجرى نهر أموداريا[٢٥] نفسه، وربما كان بسبب تغير في نسبة هطول الأمطار، وتزايد كمية هطول الأمطار يؤكده في الوقت نفسه دمار مدينة دراجون (Dragon) على شواطيء لوب نور.

(٢١) تن رايف أكبر جزر الكناري مساحتها ٨٠٠ ميل (المترجم).

(٢٢) إحدى مدن جزيرة كريت، كانت العاصمة في عصر المنيويين. (المترجم)

(٢٣) Co-ching Chu, "Climate Pulsations during Historic Times in China", *Geog. Rev.*, 16 (1926), 274.

(٢٤) باكو رابع أكبر مدن الاتحاد السوفيتي، عاصمة أذربيجان، تقع على بحر قزوين (المترجم)

(٢٥) أموداريا النهر الرئيس في وسط آسيا يصب في بحر الآرال على الحدود السوفيتية الأفغانية، معروف في المصادر العربية بنهر جيحون (المترجم)

ولابد أن تكون أكثر من مصادفة غريبة أن يكون لمثل هذه الفترة من الطقس السيىء علاقة بالهجمات المغولية.

والبحر القزويني يصفي تدريجياً مساحات واسعة من آسيا الوسطى، ومن ذلك يأتي الدليل القائل بأن ألهون، المغول وأخرين، يعتبرون مخازن بشرية لشعوب تعيش على أطراف واسعة من الأرض والتي عليها ضغوط تؤدي للهجرة منها في أوقات الشدة، وهي مسألة حياة أو موت. وهناك دليل آخر لايمكن الاختلاف عليه، ذلك أنه في الفترة بين ٤٠٩ ـ ٤٨٤م تم بناء «الحائط الأحمر» لصد غارات الهون. وحالياً يمتد الحائط ١٨ ميلا في البحر. أي أن البحر لابد وأنه كان منخفضاً جداً في زمن ضغط قبائل الهون، وأن منطقة حوضه كانت جافة جداً، ومن هنا جاء ضغط الهون محاولة منهم للخروج من منطقة رعيهم الجافة. ويشير الأصطخري[٢٦] (٩٢٠م) أن مياه البحر قد أتت على الحائط القديم في دير بنت وأن ستة من أبراجه قد غمرت بالماء.

ومعلومات أخرى عن التغيرات تكمن في شكل تغيرات مناسيب المياه في بحيرات وبحار مغلقة، بحيرة تشاد، الواحات الخارجة[٢٧]، بحيرة ساكي[٢٨]، بحيرة أوستروفو في غربي مقدونيا[٢٩]، وكذلك التغيرات المهمة في مستويات البحيرات السويسرية والتي تبدو متوافقة مع حركات الشعوب النازحة من أوروبا إلى البحر الأبيض في المراحل الرئيسة للتاريخ. ومعلومات أيضا لا جدال عليها تتمثل في شكل حركة الأنهار الجليدية، تحليل حبوب اللقاح (Pollen Analysis) ودراسة طحالب المستنقعات (Study of peat bogs) وعلم الطبقات (Varves)

كل ذلك يتهكم عنه ويلز في كتاب رايكس بسخرية من العلم. ومن الغريب جداً أن علماء الآثار عموماً قد قللوا من قيمة هذه الحقائق العلمية إلى درجة أن تفسيرهم مال لأن يكون مبالغاً فيه، إن سجلات منسوب نهر النيل ظلت لقرون عديدة تتم بمقياس النيل (Nilometer) وقبل ذلك لدينا ما دوّنه هيرودوت وقدماء المصريين والسجلات كاملة بالنسبة للفترة من ٦٤١ وحتى ١٤٨٠م. إن العناية التي حفظت بها القراءات السنوية والإصلاحات التي طرأت على مقياس النيل منذ العصور الأولى للفتح العربي لمصر لتبين الاتجاه العلمي للعرب نحو هذه الموضوعات في ذلك الوقت، وكما هو الأمر في مجالات علمية أخرى كثيرة جدا في العصرين الأموي والعباسي. وهذا الاتجاه العلمي للعرب يضع إطاراً من الشك حول النظرية التي تزعم أن العرب مسؤولون عن تدمير الحضارات البيزنطية في شمال الحجاز وفلسطين. إن مناسيب النيل توضح تغيرات ملحوظة طويلة المدى مرتبطة بسقوط أمطار الرياح الموسمية في الحبشة والتي بالتأكيد لها نفس الأهمية بالنسبة لجنوب الجزيرة العربية، والقراءات (مصححة بالنسبة لترسيب الطمي على عمق ١٠ر متر في القرن) توضح انخفاضا ثابتاً في مستوى الفيضان السنوي للنيل من ٦٤١ حتى ٧٩٠م بمقدار ٢ر١ متر، ثم بعد ذلك زيادة ثابتة بمقدار ٣٠ر١ متر حتى سنة ٩٠٠م، ثم انخفاضاً حتى عام ٩٠٠م بمقدار ٦ر. ثم ارتفاعا مرة أخرى لنهاية عظمى بمقدار ٣٥ر١ متر عام ١١٠٠م، ثم انخفاضا آخر بمقدار ٤٠ر١ متر عام ١٢٣٠م، وهلم جرا. وما هو مثير في هذه الدورات «المتواترة» هو أنها تبدو وكأنها تستغرق ٢٣٠ عاماً لتتم دورتها. ومن خلال النيل فلدينا مقياس للضغط دقيق جدا (Barometer) لكمية الأمطار المتساقطة على مرتفعات الحبشة ومناطق الرياح الموسمية الآتية من المحيط الهندي.

وبينما يكون الاختلاف الكلي في مستوى الفيضان والذي لم يقل عن مترين فيما بين ٧٩٠ إلى ١١٠٠م يمثل تغيراً كبيراً في كمية سقوط الأمطار فإن العامل الأكثر أهمية ـ كما يوضح الرسم البياني أدناه ـ هو الزيادة الثابتة أو النقص في المناسيب خلال فترة

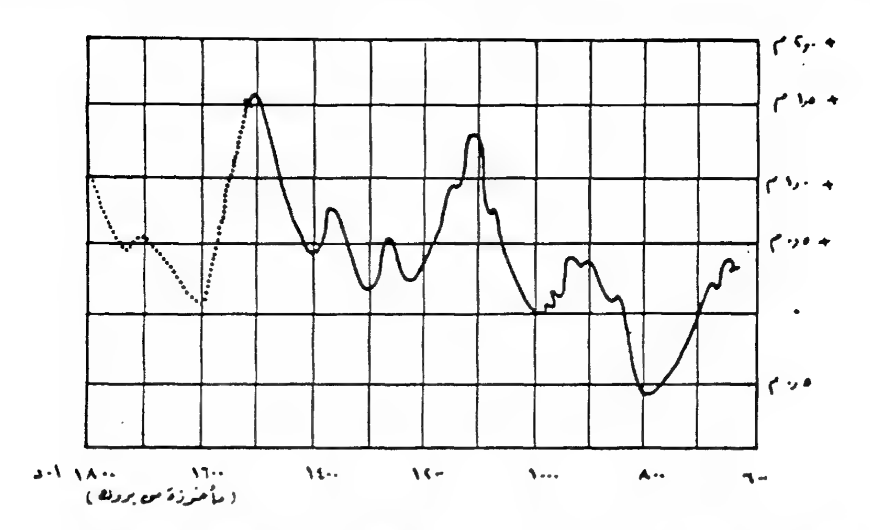
---

(٢٦) لم تتضمنه قائمة مراجع المؤلف.

(٢٧) G. Caton - Thampson, and E.W. Gardner, "The Prehistoric Geography of Kharga Oasis" *Geog. J.* 80 (1932) 371.

(٢٨) W.B. Schostakowitsch, "Bodenablagerungen der seen und periodische Schwankungnder Naturerscheinungen", *Metreo. Mag.*, 70 (1935), 134.

(٢٩) M. Hasluck, "A Historical Sketch of the Fluctuations of Lake Ostrovo in West Macedonia" *Geog.* J. 87 (1936), 338.



شكل رقم (١): شكل بياني مأخوذ من القراءات السنوية لمقياس النيل في القاهرة في الفترة بين ٦٤١ ـ ١٤٨٠م. الخط المنقط يمثل التسجيل المتقطع للمنسوب في الفترة بين ١٤٨٠ ـ ١٨٠٠م. التغيرات على المدى الطويل واضحة تماما. (مأخوذة عن بروك)

طويلة، متميزة عن القفزات والانخفاضات غير المنتظمة كما يوضح الشكل رقم ١.

ومن المؤكد أن مقياس النيل كان (ولا يزال موجوداً) منذ ما يقارب ١٥٠٠ عاماً. لذلك فليس في مقدور أحداً أن يشك في قراءاته: وليس هذا دليلا مروياً وإنما هي قياسات مسجلة بدقة ولا يمكن إغفال أهميتها.

والدراسات الحديثة لتدفق نهر النيل خاصة المرتبطة ببناء السد العالي تبين تغيرات رئيسة نحو تدفق المياه السنوي في أسوان مثلا:

من ١٨٧٠ إلى ١٩٠٠م ١٠٨٠٠٠ مليون متر مكعب
من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٢م ٨٤٠٠٠ مليون متر مكعب

(انظر ويلكوكس[٣٠] Willcocks، جارستين Garstin[٣١]، ماكدونالد MacDonald هيرست[٣٢] Hurst، بلاك Black وسيميكا Simaika)[٣٣]

إن حسابات سعة التخزين للسد العالي والمنشأ لمنع الاختلافات في التدفق هي كالتالي:

نهاية عظمى للعام ٨٧ ألف مليون إضافة إلى ٩٪ متوسط= ٩٤٫٥٦

نهاية صغرى للعام ٧٤ألف مليون ناقص٧٪ متوسط=٧٩٫٨٨

متوسط التدفق الطبيعي هو ٨٤ ألف مليون متر مكعب

يلاحظ مما سبق أن الاختلافات السنوية المحتملة والمتوقعة تم حسابها بين ٩٤٫٥٦، ٧٩٫٨٨ ألف مليون متر مكعب، أي أن هناك حوالي ٢٠٪ تمثل كمية هائلة من المياه وبالتالي مساحة أرض المحاصيل.

والآن وكما يتضح من المناقشة السابقة فإن التغيرات الدورية في مناخ الأرض يؤثر قبل أي شيء في نظام الرياح العالمي وبالتالي في سقوط الأمطار. وفي خلال الأربعين سنة الأخيرة أوضحت الدراسات

(٣٠) W. Willcocks, *Egyptian Irrigation* (London, 1889).

(٣١) W. Garstin, *Report on the Basin of the Upper Nile*, 1904.

(٣٢) M. Mac Donald, *Nile Control*, 2 vols. (Cairo, 1920).

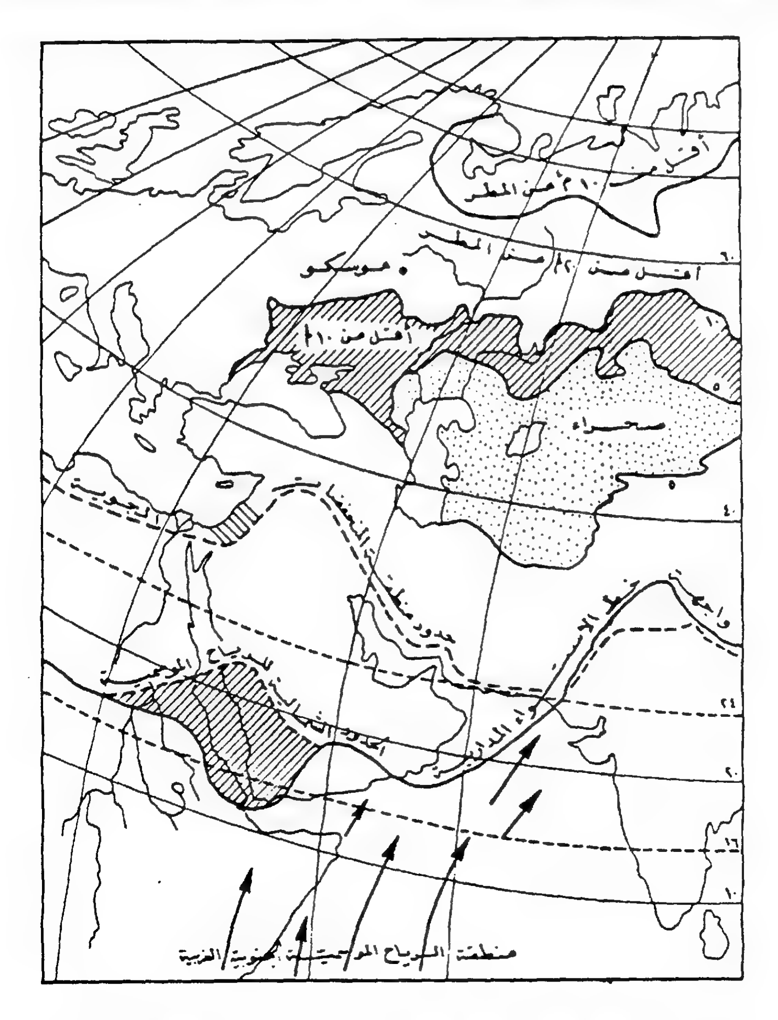
(٣٣) M.E. Hurst, R.P. Black, and Y.M. Simaika, *The Nile Basin*, Vol. VII. (Cairo, 1946).

الدقيقة للرياح الموسمية في شرق آسيا انها يمكن ان تزاح بمقدار درجتين أو حتى إلى أربع درجات في خطوط العرض أي مسافة تقدر بحوالي ١٠٠ إلى ٢٠٠ ميل.

وجنوب الجزيرة العربية يقع بالضبط على امتداد خط المنطقة بين مداري السرطان والجدي، أي بين أرض سيبيريا ونظام الرياح الموسمية الهندية والشرق أسيوية، وأن حركات الأجزاء الأمامية في هذه النظم لمسافة ٢٠٠ ميل لابد وأن يكون لها تأثير كبير على كمية سقوط الأمطار في أثيوبيا وجنوب ووسط الجزيرة العربية (سلاسل جبال الحجاز، عسير واليمن) والتي تستحوذ على أمطار أطراف تأثيرات الرياح الموسمية.

وهذا بلا شك يفسر التغيرات في منسوب النيل لفترات طويلة كان خلالها تحت الملاحظة، وبالتالي يفسر فترات الجفاف في الجزيرة العربية. وفي الحقيقة فإن تأثير الرياح الموسمية يصل شمالا إلى منطقة المدينة لا سيما في سنوات عطائها الجيد، وقد عاصر الكاتب فيضانات سيلية في العلا في أبريل وأكتوبر (الشكل رقم ٢).

ومثال على تأثير ظل المطر يتمثل في امطار هرر في



شكل رقم (٢): خريطة توضح بعض الأطراف في الشرق الأدنى، التي تناقش في هذا البحث

تعليقات الشكل رقم ٢

١ ـ حوض الفولجا والأراضي السهلية الطرفية في جنوب روسيا، آسيا الوسطى والتي لابد أن يؤثر سقوط المطر فيها على التغيرات في مستوى البحر القزويني، والتي لابد وأنها قد سجلت. والتغيرات الطفيفة في مستوى سقوط الأمطار المنخفضة في هذه المنطقة تفسر التحركات القبلية المسجلة تاريخيا.

٢ ـ المناطق الطرفية في فلسطين وشمالي الجزيرة العربية، والتي احتلها الأنباط وغيرهم من الذين يعتمدون على أمطار الشتاء الناشئة عن منخفضات ضغط البحر المتوسط، المتحركة شرقاً عبر فلسطين وخليج فارس. إن أي تغيرات طفيفة في كثافة منخفضات البحر المتوسط هذه تؤثر تأثرات شديدة على منطقة جنوب فلسطين.

٣ ـ الحد الشمالي للرياح الموسمية الجنوبية الغربية الصيفية، والتي تتوقف حدة قوتها الكلية من خلال الجبال المجاورة في الحبشة. وهكذا فإن الأمطار الصيفية على جنوب غرب الجزيرة العربية ترتبط بهذه الرياح. ثم إن الخط الواقع بين مداري الجدي والسرطان واضح بين الحد الأقصى لتأثير الرياح الموسمية ممثلا بخط منقط والذي يمكن أن يمتد حتى شمالي مكة.

وهكذا فإن المنطقة المظللة في ظل هضاب الحبشة هي منطقة جافية جداً.

والأمطار الغزيرة على هضاب الحبشة وارتفاع منسوب نهر النيل سيمتد ويعطي مطراً جيداً على جنوب الحجاز، عسير واليمن. وهكذا فإن منطقة تجمع الأمطار على النيل الأبيض وسجلات مستوى النيل منذ ٦٤١م يعطي دلالة دقيقة جداً على التغير المناخي في بلاد العرب الجنوبية.

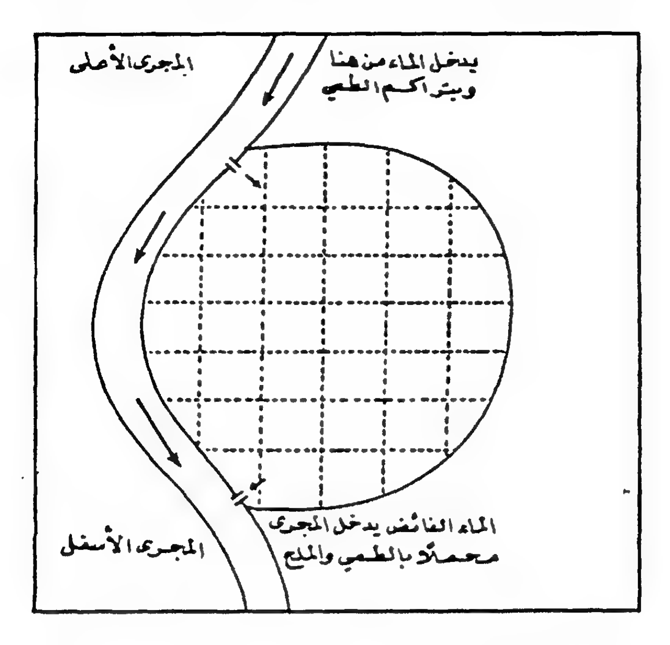
٤ ـ المنطقة بين ١٦ و٢٤ درجة شمالاً تشير إلى التغيرات التي تأثرت بها المناطق التي لوحظت تحت تأثير الرياح الموسمية. ومرة أخرى فإن هذه المنطقة تؤثر حيوياً على جنوب الجزيرة العربية والأجزاء الشمالية منها أيضا مثل تيماء ومدائن صالح.

مرتفعات أثيوبيا والتي تحصل على ٣٥٫٣ بوصة في المتوسط من المطر في شهور الصيف، في حين يسقط على بربرة على الساحل الصومالي وعلى بعد حوالي ٢٠٠ ميل على معدل سنوي لا يزيد عن ٣٫٥ بوصة، وتحصل بربرة أيضا على كمية قليلة من الأمطار في فصل الربيع في نهاية الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والتي يسقط بعض أمطارها على جبال عمان.

وهناك طريقة أخرى في نظام الري طبقت في مصر والعراق وهي استخدام «نظام ري الحياض» (نظام الترع والمصارف)، وتم بأن تحفر قناة في أعلى ضفة النهر وعندما تفيض المياه إلى داخل الحوض تروي التربة وما يزيد على ذلك من المياه المتدفقة يصرف في اتجاه مجري النهر ليحمل معه الأملاح المترسبة في الحوض من السابق. وهكذا يتزود الحوض بالأسمدة في شكل طمي ويتخلص من الأملاح المترسبة بواسطة جريان المياه أثناء عودتها إلى مجر النهر (الشكل رقم ٣).

ففي مصر يأتي فيضان النيل خلال شهري أغسطس وسبتمبر ليدر محاصيل قبل الشتاء، أما في العراق فمياه الفيضان تاتي من الأمطار والثلوج الذائبة في الأناضول خلال شهر أبريل وهو وقت متأخر جدا بالنسبة لمحاصيل الشتاء، ومبكر جدا بالنسبة لمحاصيل الصيف. والنظرة الجانبية لأنهار العراق تدل على أنها أقل انخفاضا بكثير من نهر النيل لذا توجد مستنقعات أكثر، وتتزايد البرك الراكدة، بينما قُدِّر تراكم الأملاح بأنه خمسة أضعاف ما يتراكم في مصر.

وبالنسبة لموضوع الطمي، فإن خصوبة الأراضي الزراعية في مصر تعتمد دائماً عل كمية التخصيب السنوي بالطمي والذي تحصل عليه بفعل فيضان



شكل رقم (٣): «مثال لري الحياض»
عندما تكون مياه النهر عالية فإنها توجه إلى الحوض من قناة في المجرى، فتغمر المياه الجاهزة والمحروثة لفترة وتخرج من الجزء السفلي للحقل الأكثر انخفاضاً أو عندما ينخفض مستوى النيل فيتم غسل الملح من التربة لضمان خصوبتها وتكون أحواض ترسيب الطمي الخصيب.

النيل، وحتى في العصور الرومانية كان انخفاض مستوى النيل يعني مجاعة في روما، ومن هذا المنطلق فقد استلزم بناء السد العالي في أسوان أهمية وجود مشروع كبير مدروس للتخصيب ليحل محل الطمي، إن أهمية التخصيب الطبيعي (الطمي) لا ينبغي المبالغة في التركيز عليها، حيث إنه في تجربة بالقرب من الطائف تويتيشل[٣٤] (Twitchell) وجد أن استخدام ٥٠٠ رطل من السماد الكيماوي للفدان الواحد زاد محصول القمح من ٩٠٠ رطل إلى ٢٧٠٠ رطل للفدان الواحد.

نعود مرة أخرى إلى النجف، فبالرغم من أن الأنباط وخلفاءهم كانوا على دجة كبيرة من المهارة في الحفاظ على مياه الأمطار، فإن الكاتب يوافق على ما توصل إليه ايفيناري[٣٥] (Evenari) وآخرون من استنتاجات وهي أنه كان هناك اختلافات واضحة في مستوى سقوط الأمطار السنوي للمنطقة، وأن المتوسط يختلف بشكل متذبذب خلال ٢٠ عاما بين ٧٠ و١٥٠ مم. وعلى النقيض من ذلك فالكاتب يعتقد أن هذه الاختلافات الحادة عند ربطها بالجفاف المتزايد الذي بدأ في الشرق الأدنى بعد حوالي ٣٠٠م والذي بلغ ذروته في فترة الجفاف العظمى قبل ميلاد محمد ﷺ بقليل، والذي كان السبب في إضعاف الامبراطورية البيزنطية وهجر كثير من المدن في مناطق الأطراف في فلسطين، وسوريا، والجزيرة العربية. وكما هو الحال في جنوب الجزيرة العربية، فإن بعض الحقول في صحراء النجف تسقى حتى في فترات الجفاف إلا أن العائد الكلي من الحبوب يقصر دون الحاجة مما يؤدي إلى المعاناة ومن ثم المجاعة

(٣٤) K.S. Twitchell, *Saudi Arabia*, (Princeton, 1964).

(٣٥) M. Evenari et. al, "Ancient Agriculture in the Negev" *Science*, 133, No. 3457, (1961). p. 979.

للإنسان والحيوان. وعلاوة على ذلك ففي المناطق الجافة حيث تمارس أنظمة الري فقد قدر (حسب تجربة عملية) أن ٥٠٪ من ماء المطر المتاح يفقد، ويصل نصف الـ ٥٠٪ المتبقية فقط للحقول (٢٥٪).

وفي إيران فقد قدرت الكمية الكلية لسقوط الأمطار في العشرة أعوام ١٩٥٦ ـ ١٩٦٥م على أنها تتراوح بين ٣٠٠، ٥٩٠ (١×٩٥٠) بليون متر مكعب (بومنت (Beaumont) [٣٦]) وهو في الحقيقة فرق كبير جداً ويجب علينا أن ندرك أن الأشياء البسيطة مثل مقاييس كمية سقوط الأمطار والأشخاص القادرين على قراءتها لم تكن وببساطة موجودة حتى وقت قريب جداً في منطقة الشرق الأدنى، إلا أن السجلات الحالية توضح أن هذه التغيرات تحدث، ومن المعقول أن نستنتج أنها كانت تحدث في الماضي أيضاً. ويقدر بومنت أن ٧٠٪ من كمية المطر الساقط على إيران يفقد بالتبخر وما إلى ذلك و٥٥٪ من الـ ٣٠٪ المتبقية يفقد في البحر.

وحتى في عصرنا الحديث، وبكل الوسائل العلمية المعروفة للإنسان والمتمثلة في الجرارات، الحصادات ـ الدّراسات، مجففات الحبوب التي تعمل بالزيت، والقماش المشمع ورقائق البوليثين بالإضافة إلى تحليل التربة لمعرفة العناصر الموجودة بكميات قليلة (مثال في نيوزيلندا حيث وجد أنه من الضروري أن ترش المناطق الواسعة بالمنجنيز من الجو) فإنه من الممكن أن تتغير كمية المحاصيل بشكل هائل ومروع أحياناً. ففي بريطانيا ـ وعلى سبيل المثال ـ كان المحصول الكلي لبنجر السكر عام ١٩٧٤م هو ٥٦٥٠٠٠ طن فقط بينما كان متوسط المحصول في خلال خمسة أعوام هو ٩٠٠٠٠٠ طن. وفي روسيا كان عام ١٩٧١م أسوأ عام زراعي في القرن. إذ بدأت السنة بأسوأ صقيع عرف في مناطق زراعة القمح الرئيسة. لقد تجمدت التربة حتى عمق خمسة أقدام لدرجة أن الطبقة الواقية من الثلج عادة كانت غير موجودة، مما أدى إلى خسارة ٣٠ مليون فدان من القمح الشتوي. وبعد هذا الشتاء القارس جاء صيف طويل جداً وحار جداً ومصحوباً بالجفاف. وعندما جاء وقت الحصاد كان هناك مطر وبرد وثلج قبل أوانه. وقد أدى ذلك إلى توقف الحصاد ودب العفن في مناطق شاسعة، وسويت المحاصيل بالأرض بسبب الرياح الشديدة مما تطلب تجفيف المحاصيل التي جمعت مرتين. إذن كيف يمكن للفلاح الروسي أن يواجه مثل هذا الموقف حتى لو حصل منذ خمسين عاماً؟ ناهيك عن الإنسان البدائي. إن أصداء ماحدث في هذا العام ذو الكارثة المناخية تمثلت في أسعار القمح المرتفعة، وتضخم الأسعار في كل العالم والتي لا تزال تلاحقنا مع الآثار السياسية الناجمة عن ذلك.

بينما كان ولسنوات قليلة من الممكن التجادل عما إذا كانت هناك تغيرات في المناخ فإن لدينا الآن حقائق علمية راسخة يمكن العمل بموجبها. وعلى سبيل المثال فالسجلات المتوافرة حاليا توضح لنا أن متوسط درجة الحرارة لسطح نصف الكرة الأرضية الشمالي تزايد بدرجة ثابتة منذ ١٨٨٠ ـ ١٩٤٠م ثم أخذ في الانخفاض بدرجة متساوية. وفي الفترة ما بين ١٩٥٨ ـ ١٩٦٣م انخفض متوسط درجة حرارة نصف الكرة الأرضية بمقدار ٦٦ر٠ درجة فهرنهايت (اكاديمية العلوم بواشنطن). يرتبط هذا التغير في درجة الحرارة بالغطاء الثلجي الهائل للقطب، وأيضا فالمناطق الصحراوية الكبيرة لها تأثيرها في هذا الصدد.

وفي عرض رائع أوضح بروكس[٣٧] ـ فوق محيط قطبي مفتوح ـ أن تغيراً مقداره ٦ر٠ درجة فهرنهايت تحت درجة تجمد ماء البحر يمكن أن يجعل الغطاء الثلجي القطبي يمتد من خط عرض ٧٨ إلى ٦٥ أي بمعنى من الساحل الشمالي لبيتزبورغ إلى الساحل الجنوبي لأيسلندا. وقد حدث هذا التغير البارد في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، إذ في سنة واحدة طوقت أيسلندا تماماً بالثلوج، ولم تتمكن سفن التموين أن تجتازه مما أدى إلى موت الماشية ونصف السكان. إن مساحة الغطاء الثلجي تتزايد بمربع نصف قطره، وتأثير البرودة لغطائه يتناسب طردياً مع

(٣٦) P. Beaumont, "Water Resource Development in Iran," *Geog. J.*, 140 (1974), pp. 418-19.

(٣٧) Brooks, op. cit, p.31.

مساحته. فمثل هذه الكتلة الحافية الهائلة من الثلج سيكون لها تأثيراً كبيراً على التيارات المحيطية والرياح فيختل التوازن بين مجرى الخليج والغطاء الثلجي للقطب الشمالي، وهذا بدوره يؤثر على أنظمة الضغط في المحيط الأطلنطي، وهو مركز الضغط المنخفض في أيسلندا في جزر الأزور وعلى مسار الرياح الغربية نفسها، مع آثار قوية على نظام هطول الأمطار في أوروبا. إن حركة مجري الخليج في مضيق فلوريدا، وسرعتها ٨٠ ميلا بحرياً في اليوم في المركز وبحجم مائي مقداره ٢٢ ميلاً مكعباً في الساعة، قد سجلت واظهرت تغيراتها أنها تتوافق مع التغيرات في المحاصيل النرويجية والتي تبعد عنها آلاف الأميال.

ويصف بيري[٣٨] (Perry) كيف انه في شهر يونيو ١٩٧٢م امتد حزام مائي عبر المحيط الأطلنطي يقل بدرجة أو درجتين عن البرودة المعتادة مما سبب انخفاضات غير معتادة على الجزر البريطانية في الشهر نفسه.

وقد أوضحت الكشوف الأثرية لـ هوف جارد[٣٩] (Hovgaard) تغيرات مناخية مشابهة في جرين لاند. ومن المعروف أن الآيسلنديين قد استوطنوا في جرين لاند منذ القرن العاشر حين انشأوا مستعمرتين هناك. وقد رعى المستوطنون الماشية والأغنام وزرعوا القمح منذ بداية استيطانهم. لقد أوضحت الكشوف الأثرية التي اجريت في فناء إحدى الكنائس أن الأرض قد تجمدت في الـ ٥٠٠ سنة الماضية لدرجة أن القبور أثناء الفترة الاسكندنافية كانت أقل فأقل عمقاً. وفي وصف الرحلات الإسكندنافية البحرية الأولى لم يرد ذكر الثلج، إضافة إلى أنه وحتى القرن العاشر كان خليج بافين[٤٠] (Baffin Bay) خاليا من الثلج فيما يبدو.

وليس هناك مجال للمناقشة حول وجود «العصر الجليدي الأصغر»، الذي بدأ قرابة ١٦٠٠م، والأنهار الجليدية التي ترتبت عليه في جبال الألب وهي موثقة جدا.

ومنذ عام ١٧٥٢م طرأ تحسن فجائي في المناخ استمر لقرابة ١٠٠ عام، ثم حدث تقدم في الأنهار الجليدية في ١٨٥٠م. ولقد تخلل المئة عام هذه ١٤ سنة ذات شتاء قارس جدا من ١٧٩٤ ـ ١٨١٠م. وفي العصور الأقرب عهدا فإن الارتفاع في متوسط درجة حرارة الشتاء في أوروبا خلال الفترة بين ١٩٠١ ـ ١٩٣٠م كان أقل من ٥ درجات فهرنهايت، وهو أكبر مما حصل في الفترة بين ١٨٥٢ ـ ١٩٠٠م.

لقد تراجعت الأنهار الجليدية ومسطحات الثلج بسرعة جدا. وتراجعت الحافة الثلجية للقطب الشمالي عدة مئات من الأميال. إن هذه التغيرات في المحيط الأطلنطي كان لها تأثيراً كبيراً على نظام الرياح في أوروبا الغربية. وعلى الدورة العامة للغلاف الجوي، ولابد أنه كان لهما تأثيرات مماثلة على المناطق السهلية الطرفية في روسيا، والشرق الأدنى.

أيضاً فإن حركة الأنهار الجليدية لمسافات كبيرة، وهو ما يؤدي غالبا إلى ابتلاع قرى مأهولة لقرون طويلة ليست بالتغير الذي يحدث من عام إلى آخر، وإنما عبر جيل أو ربما أكثر. بالتحديد فإن هذا النوع من الظواهر الذي يؤثر على المناطق الطرفية في أجزاء أخرى من العالم والتي لم يكن فيها آلة قياس طبيعية مثل الأنهار الجليدية.

والثلج ذو القوة الجارفة له تأثير أيضا على النهايات العظمى للمد والجزر والعواصف وسقوط المطر. وطبقاً لما جاء به باترسون[٤١] (Pattersson) فإن القوة العظمى للمد والجزر وكمية سقوط المطر كانت في الفترات ١٩٠٠ ق.م، ٢٥٠ق.م، و١٤٣٣م، بينما النهايات الصغرى كانت في الفترات ٢٨٠٠ق.م، ١٢٠٠.م، ٥٥٠م، وآخر فترة تتوافق تماما مع دراستنا للتاريخ العربي في فترة ما قبل الإسلام.

(٣٨) A.H. Perry, *Weather*, 27 (1972), 418.

(٣٩) W. Hovgaard, "The Norsemen in Greenland. Recent discoveries at Herjolfsnes" *Geog Rev.*, 15 (1925), 605.

(٤٠) خليج بافين جزء من شمال الأطلنطي بين جرين لان وحدود كندا الشمالية الغربية (المترجم).

(٤١) O. Pattersson, "Climatic Variations in Historic and Prehistoric Times," *Svenska Hydrgr - Biold. Komm, skr.*, 5. Goteborg. 1914.

والسبب الرئيس لهذه التغيرات في المناخ العالمي والتي لا يمكن إنكارها مازال غير معروف. قد يكون بسبب التغيرات في محور الأرض، أو بسبب التغيرات في الإشعاع الشمسي وربما كان بسبب الهيئة غير المألوفة لمدار الأرض.

أما بالنسبة لموضوع مناسيب مياه البحر فإن النظرية الحديثة لتشوه أديم الأرض حسنت بدرجة كبيرة الفكرة المبسطة جدا عن نسبة التغيرات إلى ذوبان وتجمد أغطية الجليد، والتغيرات في مستويات مناسيب الماء لمئات السنين ربما تكون بسبب تشوه أديم الأرض وسقوط المطر والمناخ. ومثال آخر لحركة المناطق المناخية حدث في العقد الأخير عندما تحركت الأطراف الجنوبية للصحراء الكبرى نحو الجنوب إذ أصبحت الأطراف الشمالية أكثر مطراً وخصوبة.

إن أنظمة الري نفسها يمكن أن تسبب ملوحة زائدة كما أن إهمال الشبكات في وقت الحرب يمكن أن يؤدي إلى انسداد القنوات مع مجيء البلهارسيا القاتلة وبعوض الملاريا، وعلى أية حال فهذه آثار جانبية والمؤثرات الأساسية هي التغير الرئيسي في المناخ.

ولدينا في الحجاز ـ على سبيل المثال ـ ثلاث دراسات واقعية تدحض نظريات رايكس. ففي العلا توجد مستوطنات على امتداد وادي القرى ترتوي من عين توجه إليه عبر سلسلة من القنوات لمسافة نحو ثلاثة أو اربعة كيلومترات (اللوحات ٢، ٤) . وفي الجزء الجنوبي من طرف مجرى الوادي، بالقرب من محطة سكة حديد الحجاز القديمة بالقرب من البدائع، توجد آثار الموقع الإسلامي الكبير «المابيات» محاطاً بالحقول المغطاة بالملح (اللوحة رقم ٣). ومن الواضح أن المساحة الزراعية قد تقلصت خلال فترة الـ ١٢٠٠ عاماً الأخير بسبب:

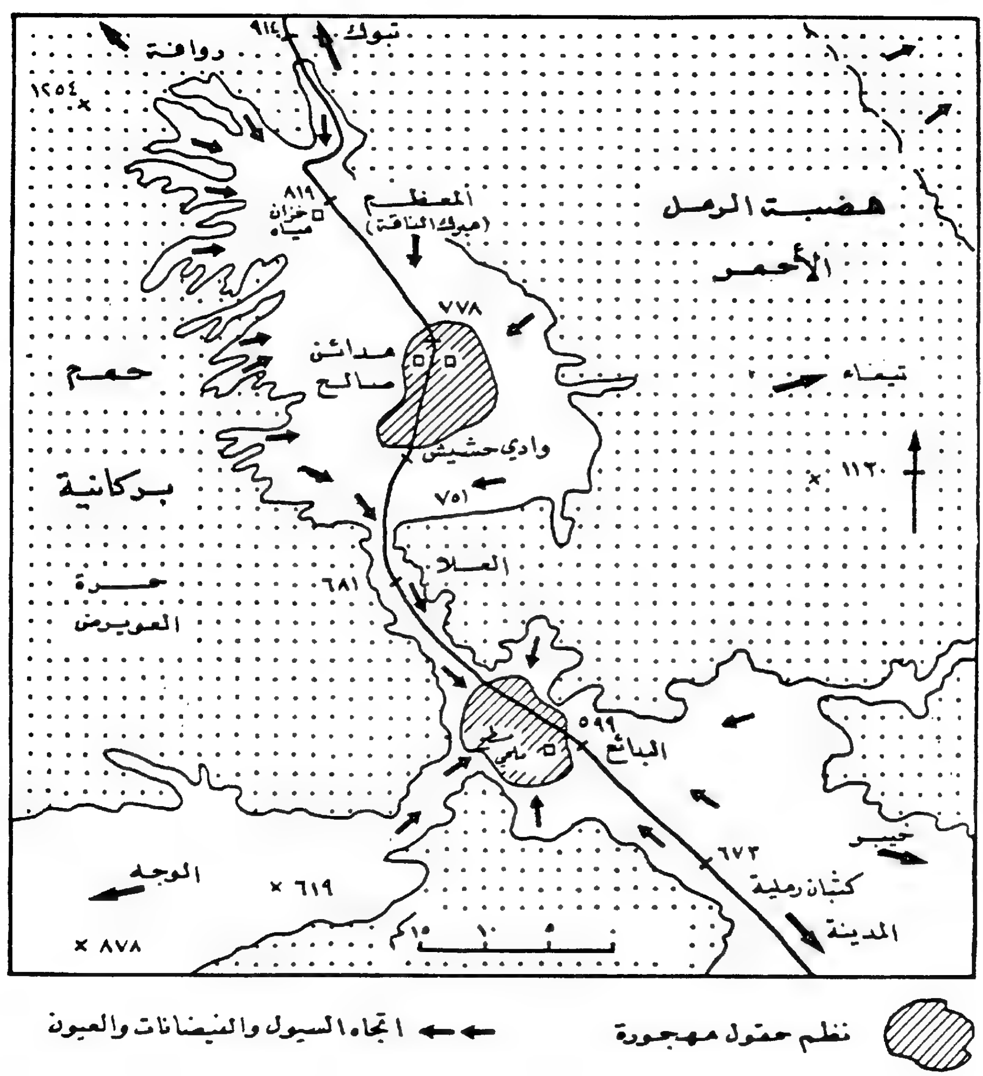
أ) تزايد الملوحة

ب) نقص كمية المياه الواصلة إلى نهاية الخط.

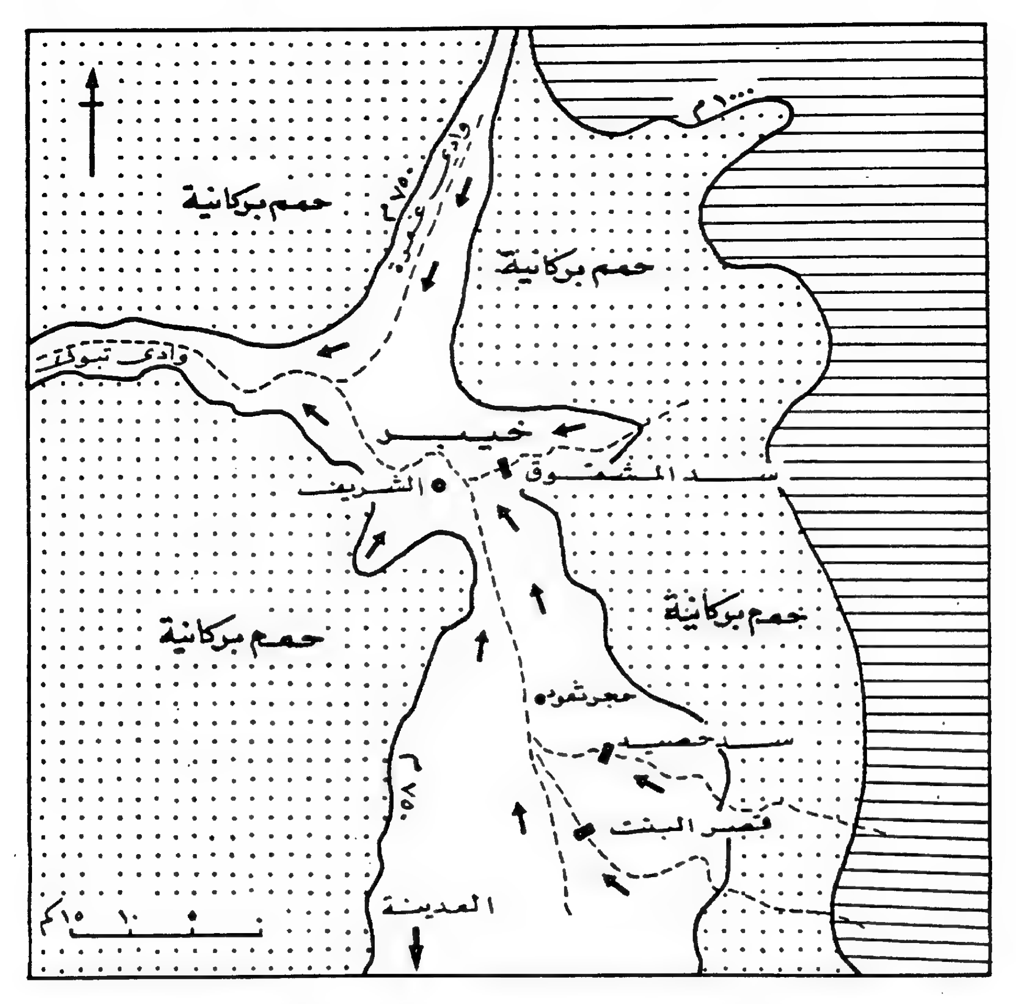
وفي الطرف الأعلى من وادي القرى لدينا بقايا المدينة النبطية في مدائن صالح. ومن الواضح هنا أيضاً أن المساحة الزراعية قد انكمشت إلى رقعة صغيرة من الحقول حول «قلعة الحج» والتي قضى فيها داوتي (Doughty) عدة أشهر خلال عام ١٨٧٧م (الشكل رقم٤) وتقع مدائن صالح في حوض كبير تصله المياه من العيون المنحدرة من قمم سلسلة جبال الحجاز المحيطة، وتصله ايضا بتأثير العواصف الرعدية التي لا تنقطع، وقد شاهد الكاتب واحدة من تلك العواصف أثناء وجوده هناك في أبريل ١٩٦٧م. والتي حولت المنطقة إلى بحيرة وأصبح من المتعذر اجتياز الوادي. وتسقط مياه الشلالات على المنحدرات الصخرية ثم يتدفق الماء الفائض من الحوض عبر وادي القرى إلى العلاء. والمسافة الكلية من مدائن صالح إلى العلا ومن ثم إلى البدائع، حيث تقع المستوطنة الإسلامية المهجورة المابيات، قرابة ٥٠ كيلومتراً.

وبالقرب من البدائع تقع خرائب قلعة الحج والتي يدخل الطوب المربع المحروق ذو الطراز الروماني في جدرانها الحجرية. ويوجد هذا النوع من الطوب ايضا في السد الكبير لقصر البنت جنوبي خيبر (الشكل رقم٥). وتقع أطلال الخربية في الطرف الشمالي للمستوطنات الحديثة في العلا بالقرب من النقوش المعينية المنحوتة على منحدرات صخور الرمل الحمراء، وتجري العيون المغطاة بجانب وادي المعتدل إلى القناة الرئيسة، والتي تشبه إلى حد كبير طراز القناة التي تجري أسفل وادي القرى. وقد ذكر ياقوت[٤٢] أن الاسم القديم للعلا هو ديدان والتي ذكرت في التوراة وفي نقوش جنوب الجزيرة العربية. وفي عام ٦٢٨م (العام السابع الهجري) فتح النبي ﷺ الوادي بعد فتح خيبر. وقد عُدت العلا دائماً ثغراً للحجاز. وتوضح البقايا الأثرية أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان بقدر أكبر، ولكن الأرض الزراعية تقلصت بسبب نقص كمية المياه المتوافرة في هذا النظام المغلق. إذ لو كانت المياه متوافرة لما هجر المكان وخرب نظام الحقول الشاسعة جنوبي الوادي. ومن الواضح أيضا ـ كما يبدو من جذوع أشجار النخيل الميتة ونصف الميتة ـ أن هذه المنطقة لا تزال تزداد جفافا.

(٤٢) Mud'djam Yakut, ed, Wustenfeld, F. Gottingen. 1945.



شكل رقم (٤): خريطة لوادي القرى من مدائن صالح إلى البدايع توضح كيف انكمشت المساحة الزراعية في الوادي بالرغم من أن القنوات، ومجاري المياه لازالت تعمل جيداً وموضحة الانخفاض في مستوى مناسيب المياه أو النقص في كمية سقوط الأمطار في الحجاز.



شكل رقم (٥): رسم توضيحي لخيبر يبين مواقع السدود القديمة.

والخريطة التوضيحية للمنطقة أدناه (الشكل رقم٤) بها ارتفاعات بالمتر موضحة بالتنقيط تبين لنا كيف أن الحوض الكبير المحيط بمدائن صالح يتغذي من خلال عيون تجيء من الحرات والهضبة الرملية.

ثم إن بركة المعظم التيتقع عند رأس الوادي تعتبر صهريجا كبيراً على الطراز الروماني يشبه الصهاريج المعروفة والموجودة في الأردن وسوريا الرومانية. ولا تزال تمتلىء بالمياه بانتظام بعد الأمطار، والطريق القديم الذي يؤدي إلى روافة يخرج عن الخط الحديث لسكة حديد الحجاز في الشمال الشرقي. ومن الملاحظ أيضا أن البدائع تقع في أسفل جزء من المنطقة. وأقرب أراضي زراعية الآن تقع على بعد نحو ١٥ كم نحو الشمال في الطرف الجنوبي من مجمع العلا، والذي تقلص هو نفسه شمالاً عبر القرون. وحوض مدائن صالح يتكون الآن من قليل من الأراضي المجدبة والنخيل المحتضرة. وكان تزايد تركيز الملح هو السبب في هجر منطقة البدائع، إلا أن تقلص المساحة الزراعية في بقية المنطقة يرجع إلى قلة المياه لندرة الأمطار على التلال المحيطة على وجه العموم.

وحالة مماثلة نجدها في تيماء مكان إقامة الملك

البابلي «نبونيدس» في القرن السادس قبل الميلاد، إذ تقع الجدران القديمة في تيماء على بعد كيلومتراً واحداً من الواحة الجديدة، وتصلها المياه من البئر الكبيرة، وإلى عهد قريب كانت الجمال تسني ما يزيد على ١٠٠٠٠ر١٠٠ جالون من الماء في اليوم لتغذي شبكة القنوات التي تمون مزارع المدينة، وتستخدم في الآونة الأخيرة مضخات الديزل.

والمدهش أكثر هو المساحة الشاسعة من الحقول والقناطر المهجورة وكذلك القنوات المغذية وسدود التصريف في الموقع الشمالي المعروف بـ «قريا» حوالي ٨٠كم شمال تبوك. ولابد أنه كان قد جاء وقت أصبح مردود الأرض من المحاصيل لا يتناسب مع مايبذل من جهد وعمل مما أدى إلى هجر الموقع. وقد أعط الكاتب دايتون[٤٣] Dayton وصفاً للموقع في العصر الروماني وما بعده. وهو على غرار ما ذكره بطلميوس. إذ أن نظام الحقول والطريقة المستخدمة لتحويل مسار فيضانات جبال مدين من الوادي الرئيس على امتداد الحافة الشرقية للمستوطنة قد تم إيضاحها أيضا (الشكل رقم١). والموقع لم يرد له ذكر في مؤلفات الكُتّاب العرب الأوائل، ولكن قياسا على وجود جزء من مصباح روماني وجد هناك، يستنتج أنه كان قد هجر خلال النصف الأخير من القرن السادس الميلادي، وبالتحديد أثناء فترة الجفاف الكبرى قبل ميلاد النبي ﷺ.

وقد حظيت قريا سابقاً بفترتي رخاء على الأقل، الأولى أثناء القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حيث إن الفخاريات المدينية التي وجدت في الموقع يمكن أن تؤرخ بفخار ملون وجد في عربة في تمنع، دايتون.[٤٤] وحسبما ذكر بروكس[٤٥] فإن غرب آسيا حظي بفترة مطيرة قصيرة بلغت ذروتها حوالي ١٢٥٠ق.م ثم تبعت فترة من الجفاف المتزايد بلغت أدناها نحو ١٠٠٠ق.م. وبعد قرابة من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ عام من الجفاف جاءت فترة مطيرة استمرت من ٧٠٠ إلى ٢٥٠ق.م، وهي تغطي الطور الثاني من الاستيطان المتميز بالفخار الأدومي وفترة احتلال نابونيدس لتيماء كذلك. والظاهرة المناخية تتوافق مع الطراز الحرفي لهذه المواقع الكائنة في المناطق الحافية لسقوط الأمطار.

وهناك رداً على نظرية التغير المناخي بأن الأنباط كانوا مهرة جداً في شق قنوات لفيضان سيول الأمطار لتصل إلى مساحات صغيرة من الحقول بحيث يكون المطر الساقط على مساحة ٧٠ هكتاراً كافيا لأن يعطي كمية من المياه يكفي محصولاً على مساحة ٢ر٢ هكتار، ولكن المحاولات لإعادة تشييد مثل هذا النظام في أفدات Avdat لم تكلل بالنجاح.

وفي واقع الأمر فإن نظام الاستفادة من مياه الفيضان الناجمة عن سيول الأمطار وتوزيع المياه على الحقول ـ التي عادة ما تكون محروثة، وجاهزة للري ـ لا يزال يمارس في جنوب الجزيرة العربية حتى يومنا هذا حيث تترك بوابات توزيع الفيضان دائماً مفتوحة، ويذكر سيرجنت[٤٦] (Serjeant) أنه في حالة حدوث الفيضان ليلاً يخرج أهالي القرية وتقرع الطبول لاستدعاء العمال تحسباً لحدوث أي ثغرة في الحواجز الترابية. إذن فالحقول المنخفضة في هذا النظام هي التي ترتوي فقط في السنوات المطرة. ومثال مشابه للحقول في الأطراف نجده في «الغوطة» أو واحة دمشق والتي تصلها المياه من نهر بردى والذي تضمحل مياهه بالتدريج في الصحراء المحيطة حيث تتصارع الأشجار والنباتات من أجل البقاء. وأنواع أخرى من الزراعة الطرفية نجده في شرق الأردن حيث يبذر البدو حبوب الذرة في بقعة صغيرة في قاع الوادي في الصحراء معتمدين على تركيز المياه في طمي قاع الوادي ليعطيهم محصولا بمعدل عامين من كل ثلاثة أعوام.

وإن يكون الإنسان ببراعته قد استطاع أن يحفر الآبار ويشق القنوات والخلجان على مساحات

(٤٣) J.E. Dayton, "A Roman Site in the Hejaz", Proc. 6 th *Seminar for Arabian Studies* (1973) pp. 21-25.

(٤٤) J.E. Dayton, "Midianite and Edomite Pottery" *Proc. 5 th Seminar for Arabian Studies*, pp.25- 33.

(٤٥) Brooks, op.cit.

(٤٦) R.B. Serjeant, "Some Irrigation Systems in Hadramout", *BSOAS*, 27 (1964), pp. 33-76.

طويلة ويبني السدود ويشيد القنوات فذلك أمر لا علاقة له تماماً بحقيقة التغير المناخي الذي هو جزء من تل كالأنشطة. ومن الواضح تماماً انخفاض مناسيب الماء في أجزاء من العالم العربي، وعلى سبيل المثال انخفض منسوب نهر الأزرق بمقدار ستة أقدام منذ العصور الرومانية ريز(٤٧) (Rees) وصورة مشابهة يمكن أن نراها في وادي فاطمة حيث أخرجت كميات كبيرة من الطمي في محاولة لتتبع سطح المياه الجوفية الآخذ في الانخفاض.

الطمي والسماد

وعلاوة على ذلك فهناك عامل آخر في أي دراسة للمناخ والإنسان وهو النقص في خصوبة التربة، وهو عامل ثانوي يظهر بعد أن يجد الإنسان أرضا صالحة للزراعة. ومن الواضح أنه في أي جزء من العالم عندما يبدأ الإنسان أنشطته المدمرة فإن الاتزان البيئي يختل وقد يكون ذلك للأفضل أحيانا عندما تصرف المستنقعات، وتزال الغابات، كما تم في غابة كنت (Kent)، ولكنه غالبا ما يختل للأسوأ.

وبمجرد أن تزال الغابة الأصلية أو الغطاء النباتي خاصة في المناطق الجافة، فإن الإفراط الشديد في الرعي كفيل بعدم استرجاعه. وبسبب نقص الوقود فإن روث الحيوانات الذي يجب أن تسمد به الحقول يحرق من أجل الوقود. والزراعة المجهدة للأرض تعطي عائدا قليلا لأن التربة تصبح منهكة، وعليه فقد حان الوقت الذي يرتحل فيه الإنسان عن الصحراء التي ساهم في تكوينها، كما رأينا حديثاً ومنذ أربعين عاما في النصف الغربي من الولايات المتحدة والتي خلدها شتاينبك (Steinbeck) في روايته «عناقيد الغضب» (The Grapes of Warth) ولكون البدو مازالوا قادرون على كسب رزقهم في مناطق منعزلة في الجزيرة العربية فهذا لا ينفي أن يكون الحال نفسه قد قام فيها من قبل، ولكن يبدو أنه بالرغم من وجود أنظمة السدود الكبيرة في الحجاز وعسير، واليمن وحضرموت لحجز مياه الأمطار وفيضانات الجبال، فإن هذا لم يكن كافياً، وأنه قد جاءت فترة طويلة من الجفاف في الفترة المتعارف عليها بـ «الجاهلية» والتي أعتبرها حزين(٤٨) سببا في وأد النبات في تلك الفترة، وهو ما حرمه القرآن بوضوح.

الطمي

كما يعرف أي مهندس مدني فإن واحدة من أكبر المشكلات عند تشييد السدود هي التخلص من الطمي الذي يتراكم خلف السد. وهذا الطمي هو أهم مصدر للتسميد، حيث يمكن زراعة المحاصيل على هذه الطبقة الجيدة، وهو النظام الذي كان يعمل به في حضرموت. وقد أوضح باون(٤٩) (Bowen) أن الطمي المتراكم عبر القرون بلغ تراكمه حوالي ٥٨ قدماً. وفي الواقع أن السدود الأولى بدأت برص صفوف من الأحجار عبر قاع الوديان لحجز الطمي وبالتالي إنشاء الحقول. ومثل هذه الأنماط من الحقول المهجورة تكون مرئية بوضوح على الطبيعة من الجو في كل أجزاء الشرق الأوسط: والسؤال هو لماذا هجرت؟ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، هل اقيمت هذه السدود لجمع المياه أو أنه حسبما يزعم في جنوب الجزيرة العربية للحد من قوة الفيضانات ثم لتوجيهها عبر مساسحات شاسعة من خلال نظام مروحي «كنتوري» من قنوات الري(٥٠)؟ ومثل هذا النظام الذي اتبع في جنوب الجزيرة العربية يمكن أن نجده في قريا في شمال الحجاز حيث تتجه الفيضانات المندفعة من الجبال جنباً إلى جنب مع نظام الحقول. وهذا النظام يتطلب كثيراً من الصيانة، ودستوراً مدروساً لقانون المياه. وقد يتطلب الأمر وقتاً حتى ترتوي تربة الحقل التي تكون محروثة وجاهزة للري. وقد تضمنت تعليمات الري أن يحتجز الماء في كل حقل حتى يصل إلى كاحل الإنسان قبل أن ينطلق إلى الحقل الذي يليه ماكتاري(٥١) (Maktari).

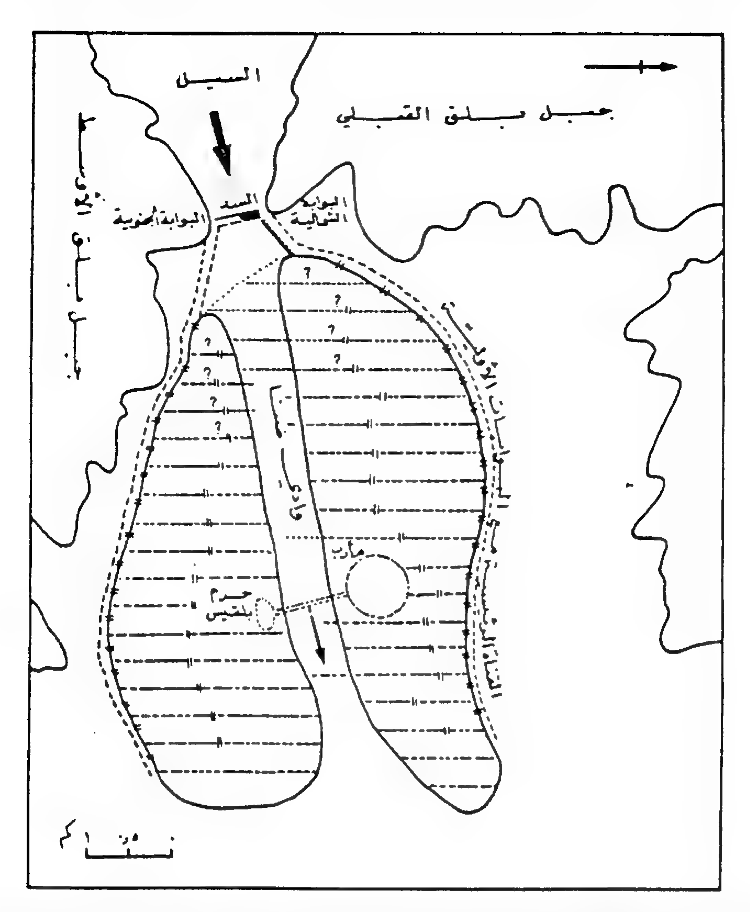
(٤٧) L.W.B. Rees, "Ancient Reserviors Near Kasr Azrak", *Antiquity*. 3 (1929), pp.89- 92.

(٤٨) S.A. Huzayyin, *The Place of Egyptian Prehistory* (Cairo, 1941).

(٤٩) R. Bowen, Le Baron and F.P. Albriht, *Archaeological Discoveries in South Arabia* (Baltimore, 1958).

(٥٠) Bowen, op. cit, p.50.

(٥١) A.M.A. Maktari, Water Rights and Irrgation Practice in Labj



شكل رقم (٦): إعادة تقويم مقترحة لنظام الري في مأرب مبينة الجهتين اليمني واليسري مأخوذة عن جليزر وباونن. تقوم البوابتان بتحويل المياه والتحكم فيها وفي تدفقها في قناتي الري الأساسيتين كما في واد بيحان وجبل خلبص. لابد وان كان خروج الماء من فتحات القناتين متحكما فيه بدقة بحيث يروي كل حقل في دورة في أسفل المشروع بدقة في الاتجاه الأسفل، وإذا ما صرف التدفق من كل حقل للحقل الذي بأسفله يمكن بذلك تجنب تراكم الملح ويتم بذلك نوع من أنواع ري الحياض. إن الإزالة المتكررة لألواح البوابة على السد الرئيس تؤدي بالتالي لري الزراعة اليامنة.

وعلى أية حال فعندما نتجه شمالا نجد سدوداً قد شيدت خصيصاً لحجز المياه مثل تلك الموجودة في خيبر حيث يوجد سد الحصيد والذي لا يزال في حالة جيدة (الشكل رقم ٦). إلا أنه لا هذا السد ولا تلك السدود المندثرة تضاهي سد قصر البنت العظيم. الوحيد الذي يبدو أنه كان ذا بوابات، لذا فلابد أن الماء المحجوز كان يرفع بالسواقي أو الجمال.

وخيبر القديمة حسبما ورد عن الجغرافيين العرب المتقدمين، تقع في منطقة خصبة غنية بالنخيل وحقول الذرة. وقد وصفها دواتي بأنها منطقة بائسة، غالبية سكانها من العبيد يزور أسيادهم المكان مرتين في العام، لتلقيح النخل ثم عند حصاده. وكان متوسط سقوط المطر على المنطقة ست مرات في العام. أما اليوم فهي موطن لبعوضة الانوفيليس والملاريا كما يعرف الكاتب جيداً (الشكل رقم ٥).

= (Combridge, 1971).

وحسبما أورد البكري فقد كان لخيبر سبع قلاع، وكان الوادي مقسما إلى ثلاثة أقسام تسكنه اليهود. ولقد فتح النبي ﷺ المنطقة عام ٦٢٨م بعد حصار دام ستة أسابيع واستولى على آلتها الحربية التي تعكس الصلة بين يهود خيبر والامبراطورية البيزنطية. ولا ريب فقد أوكل الخلفاء الأوائل للمهندسين الإغريق مهمة تشييد السدود في الحجاز، ومثال على ذلك سد قريب من الطائف عليه نقوش كوفية من عام ٦٧٧م ارتفاعه ٢٥ قدما وطوله ٢٠٠ قدما، وهذا السد أيضا ليس له بوابات. والبناء الذي يكسو سد الحصيد الذي طوله ١٨٢ قدماً، وارتفاعه ٢٨ قدماً وهو غير بعيد عن سد قصر البنت؛ عل بعد حوالي ٢٠ كم عن طريق المدينة الرئيس جنوب خيبر، يعتبر في غاية الروعة. وقد علقنا سابقاً على الطاز الروماني الذي استخدم الطوب المحروق في تشييد السد السابق ذكره والذي لابد أنه بلغ ٢٨٠ قدماً من الطول عند أقصى ارتفاعه، وقد أعجب الكثيرون بشدة بقنوات المياه ونظامها في خيبر كما أن النبي ﷺ نفسه كان له أرض ونخيل في حصن الوديدة. وبعد فتح خيبر سمح ليهودها بالبقاء على شرط أن يسلموا نصف محصولهم للنبي ﷺ. أما متى بدأ الخراب يدب في خيبر حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم من تملح تربتها وانتشار الملاريا فهو غير واضح؛ ربما حدث بعد أن أجلى عمر بن الخطاب اليهود من الجزيرة العربية.

ومن أسباب تدهور الحجاز أيضا النزاعات الشديدة بين الخلفاء الأوائل، فعلى سبيل المثال فقد أعاد عمرو بن العاص افتتاح قناة من السويس وبذلك أمكن البضائع أن تصل إلى الحجاز. بينما دمر المنصور حاكم بغداد هذه القناة في القرن الثامن الميلادي ليوقف التجارة التي تصل لغريمه الذي يبغضه في المدينة (يثرب).

وفي الجنوب هناك سد موفيجا القريب من نجران. وهي مركز قديم لتجمع نصراني، وكذلك سد مأرب العظيم. والصفة البارزة في السدود المذكورة أعلاه أنه لا يوجد بها بوابات، وهذا ماذهب إليه باون[٥٢]ألا أن سد مأرب كان له بوابات متقنة الصنع، وقد شيدت من الأحجار المهذبة القطع، مثبتة بأوتاد من الرصاص.

وقد كان لتلك البوابات أخاديد يبدو من خلالها أن الواح السد كانت متداخلة، ولذلك أمكن التحكم في تصريف المياه المحجوزة دو[٥٣] (Doe). ويؤكد باون[٥٤]على اهمية تراكم الطمي خلف السد، ولكنه متمسك برأيه بشدة من حيث أن المياه لم تكن تجمع ابدا في جنوب الجزيرة العربية، إنما كانت تحول فقط، معارضا في ذلك كيتون ثامبسون[٥٥]وبراين دو. ويوضح أيضا أن الماء خلف سد ترابي في وادي بيحان بلغ عمقه قرابة مترين (الشكل رقم ٧٨و ٧٩)[٥٦] في حين يذكر جلازر وبكل وضوح الأخاديد على الألواح الحجرية المبني منها السد.

لقد كان باون من انصار الراي القائل بأن سد مأرب هجر لأسباب اجتماعية وسياسية وليس لتغير في المناخ. وعلى الرغم من ذلك فنحن نعلم أن الفترة من نحو ٣٠٠م كان الجفاف خلالها في ازدياد في الجزيرة العربية حيث بلغ ذروته عندما وقع جفاف مريع حوالي ٦٠٠م مما أدى إلى هجرة قبائل عربية كثيرة من المنطقة، بعضها وصل إلى تونس، والاحتمال الأكثر قبولاً أن نقص المحاصيل في القرن السادس قد ساهم في إضعاف النظام الاجتماعي والسياسي الذي لم يستطع أن يتحمل تكاليف الترميمات الهائلة التي كان يتطلبها السد. وعلاوة على ذلك فإن سد مأرب يروي حوالي ٤٠٠٠ فدان فقط[٥٧]، فإن النفقات لم تكن تستحق المجهود المبذول. إذ أنه في عام ٤٠٠م وفي عهد شرحبيل يعفر تطلب الأمر حوالي ٢٠,٠٠٠ عامل لاتمام الإصلاحات التي اشتملت على إزالة الطمي، بينما في عام ٥٤٢م احتاج عمال

(٥٢) Bowen, op. cit.

(٥٣) B. Doe, *Southern Arabia* (London, 1971).

(٥٤) Bowen, *op cit*, p. 74.

(٥٥) G. Caton - Thampson, and E.W. Gardner, "Climate, Irrigation and Early Man in the Hadramaut," *Geog. J.*, 93 (1939) pp. 18-38.

(٥٦) والأشكال في كتاب باون سالف الذكر ؛ Doe, op. cit.

(٥٧) Bowen, op. cit, p.75.

أبرهة ٢٠٠٫٠٠٠ من الضأن والماعز وحوالي ٥٠٫٠٠٠ شوالا من الدقيق، ٢٦٫٠٠٠ عدلة من التمر و ٣٠٠٠ جملا وثوراً لإطعامهم.

إن سد مأرب أو سد العرم يتكون في الأساس من التراب على شكل مثلث متساوي الساقين، ارتفاعه من ٢٠ إلى ٢٥ قدماً وعرضه ٥٠ قدماً عند القاعدة. والوجه المقابل للتيار كسي بأحجار صغيرة ملصقة بملاط قوي جدا، ولشدة صلابته فإن جلازر لم يستطع ان يفصل ايا من احجاره. وطوله مابين بوابتيه الحجريتين العملاقتين في كل طرف يقدر بـ٧٥٠ ياردة. ويذكر ياقوت أن المياه المتراكمة خلف السد كانت توجه إلى الحقول عند الحاجة عبر بوابات قوية، وفق نظام نفذ ببراعة (الشكل رقم ٦).

وحسب الاعتقاد السائد فإن السد قد دمر بسيل العرم، إلا أن هناك آراء اخرى لسبب دماره. إن أي شرخ أو تصدع في الأساسات الترابية لحاجز السد يمكن إصلاحه بسهولة، إذ أن السدود الترابية في اليمن مازالت تشيد لكبح السيول إلى وقتنا الحاضر، إلا أن هذا التفسير يبدو انه مبالغ في تبسيطه. فالمسعودي يصف مساحة أرض سبأ بأن الراكب حصانه يمكنه أن يسافر لمدة شهر ليعبر ارضها الغنية المزروعة، وأن الماشي ينبغي أن لا يخشى الشمس إذ يستطيع أن يسافر من أول المنطقة لنهايتها في ظل أشجارها المخضرة. إن انهيار سد من السدود ومهمًا كان كبيرا ومهماً لم يكن مثل هذا التأثير الذي أحدثه انهيار سد مأرب. وكما في قريا فقد كان لابد من أن يكون هناك نظام متكامل من السدود حتى تحجز المياه وبالتالي تجمعها عندما تهبط السيول نحو الوديان المختلفة. ويوجد في مأرب سدود أخرى منها واحد في رحب، وآخر في حبابد والذي تحمل إحدى بواباته نقش لشمر يهرعش حوالي ٣٠٠م.

ولابد أن يكون هناك تمييز واضح بين هذه السدود التي لا تتميز بارتفاع كبير والمبنية عبر الوديان التي على شكل رقم ٧ لتحتفظ بالتربة الخصبة المتكونة من الطمي، وبين سدود الجزيرة العربية الأخرى التي كانت في الواقع لحجز المياه فقط، وهناك سدود أخرى وظيفتها تحويل السيول، مثل تلك الموجودة في وادي بيحان ووادي سهلا وفي حريبة. وقد كان الأكثر أهمية من ذلك هو عملية صيانة القنوات المتساوية الارتفاع الآتية من السدود المختلفة على امتداد جوانب الحقول، والتي أعطي دو[٥٨] وصفاً ممتازاً لها. ولم يكن تراكم الطمي يشكل خطراً ما دامت القنوات الجانبية فوق مستوى الحقول، وفي حالة إهمال صيانة تلك القنوات فإن ذلك سيؤدي في الحال إلى تدمير الحقول وانجراف طبقات الطمي المهمة. والآثار البسيطة المتبقية من مثل هذا النظام هي الأحجار المتناثرة التي استخدمت حينما تحول المياه إلى الحقول، وعند الثقوب والزوايا، والتي ناقشها باون[٥٩]، وقد وجدها الكاتب في مدائن صالح وفي قريا. وبالطبع فقد كان تنظيف هذه المواضع من أهم المشكلات، وعادة ما كانت تزود بغطاء من الألواح المسطحة. وبالتحكم الدقيق فإن القناة الرئيسة يكون لها درجة ميلان تكفي بأن تجعلها ذاتية التنظيف، ويسمح لها بالارتفاع عبر القرون مع الارتفاع المناظر للحقول المجاورة. ويعطينا باون[٦٠] (الشكل رقم٦٤) مثالاً ممتازاً على ذلك. وخلاصة القول فإن الكاتب لا يتفق مع باون فيما ذهب إليه، بالرغم من أن تفسيره هو:

أ) أن نظام الري في جنوب الجزيرة العربية كان قاصراً على تحويل شدة انحدار السيل وتعطيله.

ب) أنه لم يكن هناك تغير مناخي يفسر هجر نظم الري في جنوب الجزيرة العربية.

ومن المتفق عليه أن الجزء الأكبر من النظام كان لتحويل الفيضانات، ومن المحتمل أن تترك البوابات الرئيسة مفتوحة ليلاً ونهاراً، ولكن نظام الحقول والقنوات صمم ليضمن سقيا الحقول بطريقة متعاقبة، بمعنى أن هناك سقيا كافية للحقل قبل أن

(٥٨) Doe, op cit, p.176.

(٥٩) Bowen, op. cit, p.45.

(٦٠) Bowen, op. cit, p.45. ؛ والشكل في كتاب باون.

تفيض المياه للحقل الأسفل منه الذي يليه. وكما كان هذا النظام للاستفادة من الفيضانات فإن الكاتب يعتقد أن السيدة كيتون تاميسون كانت محقة في رأيها بأن مياه الفيضان كانت تحجز كما كان الوضع في مأرب.

وفي هذه الحالة فإن الطمي كان يُزَالُ بانتظام، وبلاشك فإنه كان ذا قيمة، كمصدر للتربة الخصبة، كما تؤكد ذلك التلال، كمصادر للتربة الخصبة في الشرق الأدنى حتى يومنا هذا.

ولابد أن ألواح السد كانت تبقي في مواضعها، وأنه كان من السهل أن تنقل الألواح العلوية المتتالية؛ ولنفترض مثلاً أنها كانت بارتفاع ست بوصات، لتنحدر كمية محددة من المياه إلى القنوات السفلى ثم إلى الحقول عندما تحتاج إلى الري. ولكن الاعتماد على السيل في الري مجازفة كبرى (فقد يصيب أحياناً ويخطي أحياناً أخرى). ولكنه جيد بالنسبة للري الأولي للحقول ليبدأ النبات في النمو. إن أهمية سدود مأرب وخيبر التي بقي ذكرها على مر القرون في العالم العربي تكمن في أنها على وجه الدقة كانت تمد المياه عند الحاجة إليها، بالإضافة إلى نظام التحكم في السيل الذي لا يزال مستخدماً، وفي هذه الصدد فإن الأمر مهم حيث يذكر ياقوت «أن المياه المتمعة خلف السد كانت توجه عندما يقتضي الأمر إلى الحقول بواسطة بوابات قوية ونظم مصممة ببراعة»[٦١] هذا وقبل إدخال الأنواع الأمريكية من الذرة (Sorghum) في عام ١٩٤٢م كانت الأصناف المحلية من الذرة تحتاج لحوالي ١٨٠ يوماً حتى تنضج، بينما كانت الأصناف الأمريكية تحتاج فقط لنحو من ٩٥ إلى ١١٥ يوماً، لذا فمن المحتمل أن يكون الري المنتظم قد كان ضرورياً في الأزمنة القديمة.

وفي الحقيقة فإن باون[٦٢] يجيب على السؤال حيث يقول: «لدينا ثلاثة نظم ري مهجورة في جنوب الجزيرة العربية» نظام حريضة وقد هجر وهو في حالة جيدة في القرون الأخيرة قبل الميلاد، ونظام حجر بن حميد الذي يبدو أنه استخدم حتى القرن الثالث الميلادي، ونظام مأرب الذي استمر حتى نحو ٥٧٥ ميلادية. ونستطيع أن نقول بثقة أنه ليس للطمي، سواء في القنوات أو الحقول، أي علاقة مباشرة بهجر هذه الأعمال الهندسية.

وفي رأي الكاتب فإن العجز المتتالي في المحصول وقلة الأمطار أديا إلى هذا الهجر، وأن هذا الجفاف المطرد الذي أدى إل الهجرة الكبرى للقبائل العربية من جنوب الجزيرة العربية في اتجاه الشمال كان بسبب التأثير الجانبي الكبير للتغير المتواصل والمتمثل في شح الأمطار، فقد غدا معللا بواقعة درامية هي التصدع الأخير في سد مأرب. وخلال الأوقات العادية فقد كان بالإمكان إصلاح الأجزاء الأساسية لهذا السد بسهولة. إلا أنه لا ينبغي للمرء أن يعتبر كل ماحدث راجعاً لخراب سد مأرب، إذ أن سدوداً كثيرة جدا في المنطقة ناحية الشمال من نجران، والطائف وخيبر، والموقع المهم قريا كانت قد هجرت في نفس الفترة، أي في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي أيضا، كما لا ينبغي لأي شخص ما أن ينكر بعد الآن إمكانية حدوث تغيرات ثانوية وخطيرة في المناخ.[٦٣]

---

(٦١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، (بيروت، دار صادر، ١٩٨٦م) (المترجم)، جـ ٥، ص ٣٥

(٦٢) Bowen, op.cit, p. 84.

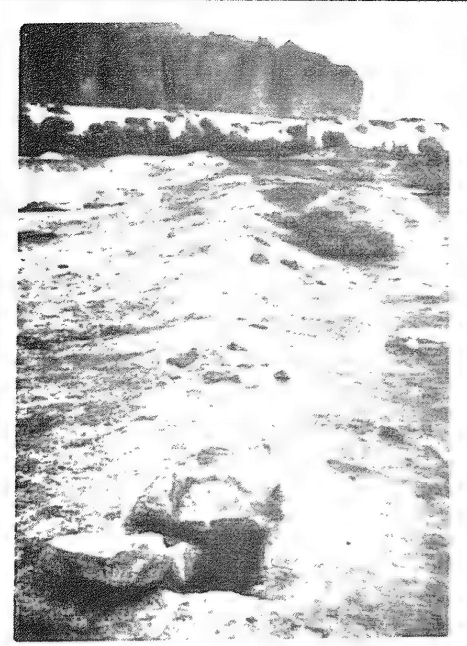
(٦٣) فيما يتعلق بالتغير المناخي واستصلاح الأراضي سواء في منطقة محددة أو على مستوى الكرة الأرضية، فإنني لا اتفق مع ما ذهب إليه الكاتب وأود أن أحيل القارىء إلى ثلاثة بحوث عالجت هذا الموضوع من وجهات نظر مختلفة عن ذلك، هي:

Betty Meggers Environmental Limitation of the Development of Culture. *American Anthropologist* 56 (1954), 801 - 824; Milton Altschuler, On the Environmental Limitations of Mayan Cultural development. *Southwestern Journal of Anthropology* 14 (1958), 189 - 198; Edwin Ferdon JR, Agricultural Potential and the Development of Cultures. Journal of *Anthropology*, 15 (1959) 1-19.

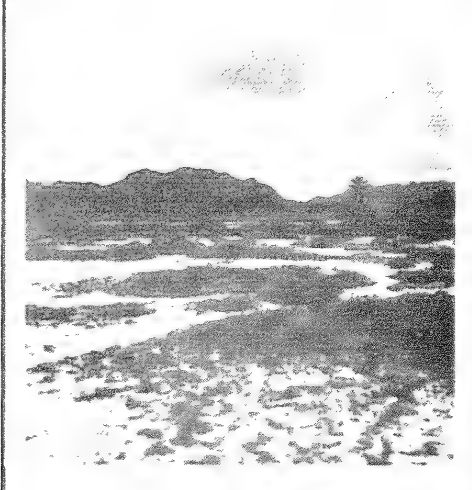
(المترجم). كما يود المترجم أن يوضح أن جملة (ﷺ) الواردة في النص هي إضافة من عنده.



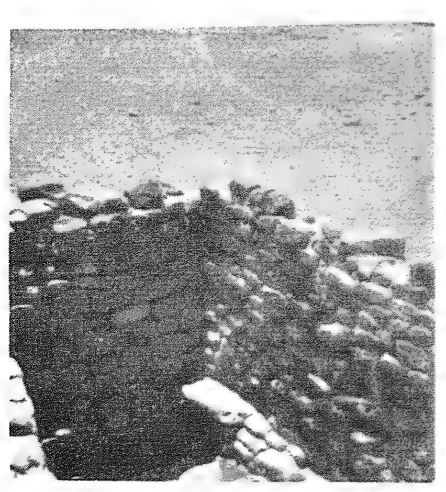
لوحة ١. مقياس النيل في القاهرة. صف الحجر المدرج كان يقرأ سنوياً وحفظت السجلات من ٦٤١م إلى ١٤٨٠م.



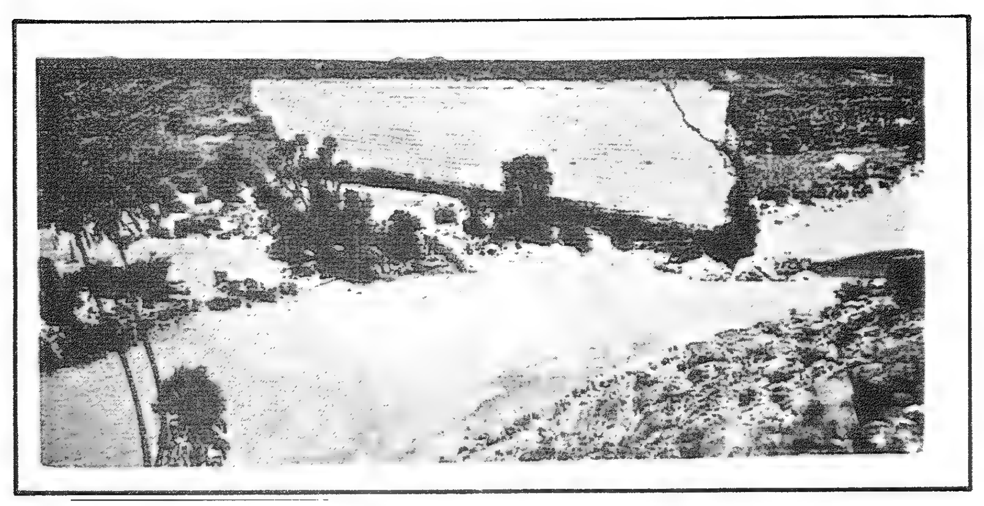
لوحة ٢. مدخل مدرج للقناة المائية التي تحت الأرض إلى جنوبى العلا الطراز قديم مغطى (محجوب).



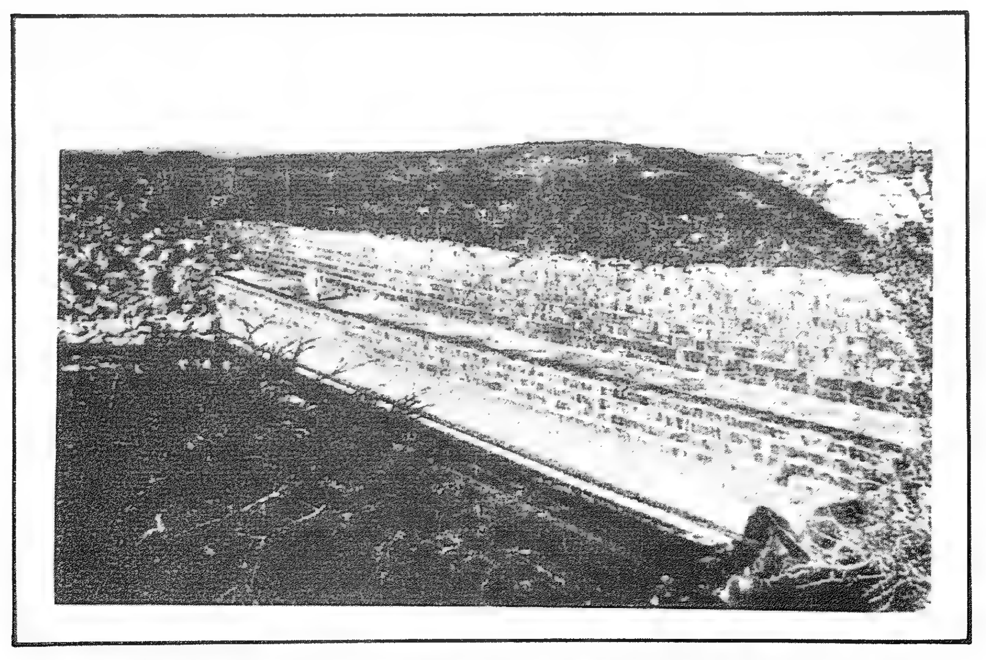
لوحة ٣. تكوين القشرة الملحية في الطرف الجنوبي من وادي القرى بالقرب من المستوطنة الإسلامية المبكرة المهجورة (المابيات).



لوحة ٤. بنايات استخدمت كمدخل للقنوات في فارس.



لوحة ٥ . سد قصر البنت الأعظم المتهدم، جنوبي خيبر. حجم السد يمكن أن يقدر عن مستوى سطح الأرض بقمم أشجار النخيل.



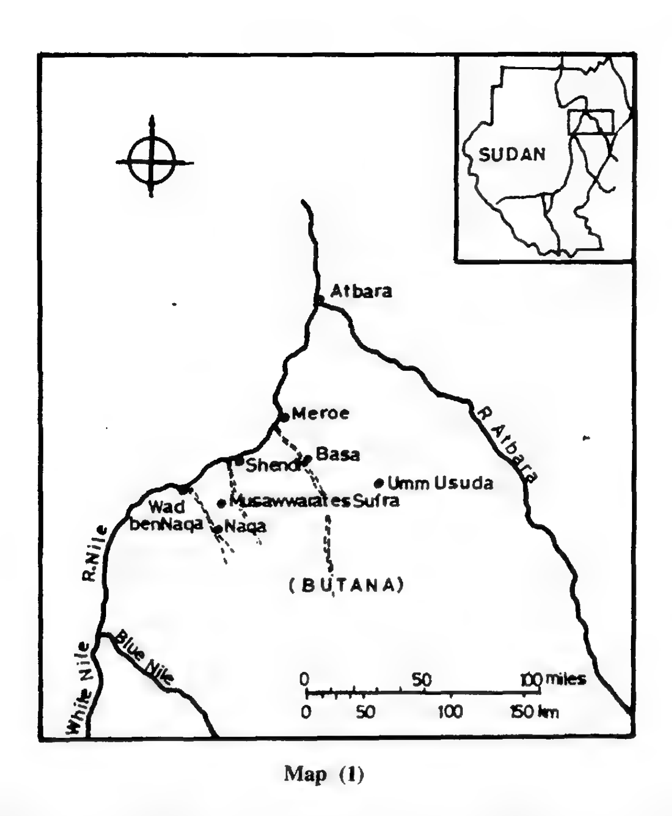
لوحة ٦ . سد الحصيد. هذا السد الذي على بعد بضع مئات من الكيلومترات من قصر البنت كاملاً تماما ولا يزال يحتجز المياه. ولا يظهر وجود قنوات.



لوحة ٧ السد الحديث المشيد في فلسطين عن طريق البريطانيين في كارنب في ١٩٤٢م وهو حاليا لا يستخدم وممتلىء بالطمي تماما.



لوحة ٨ . مازم (مبرك الناقة): صهريج روماني


SUDAN
Atbara
Meroe
Basa
Shendi
Umm Usuda
R Atbara
Wad benNaqa
Musawwarat es Sufra
Naqa
R.Nile
(BUTANA)
Blue Nile
White Nile
0 50 100 miles
0 50 100 150 km

Map (1)

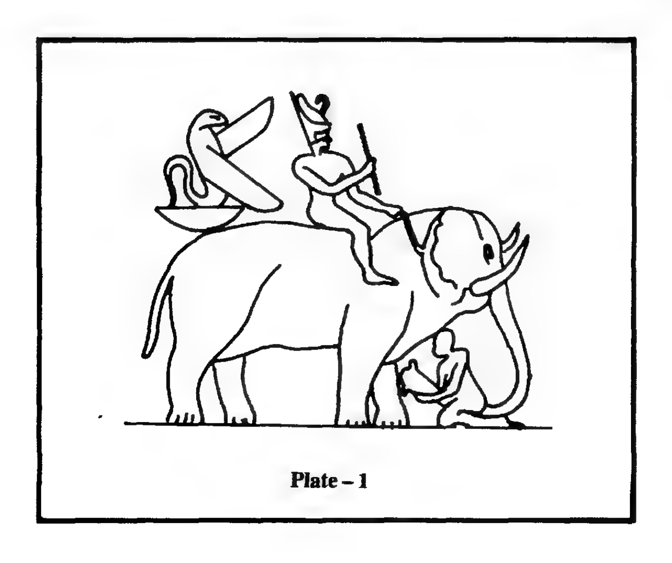


Plate – 1

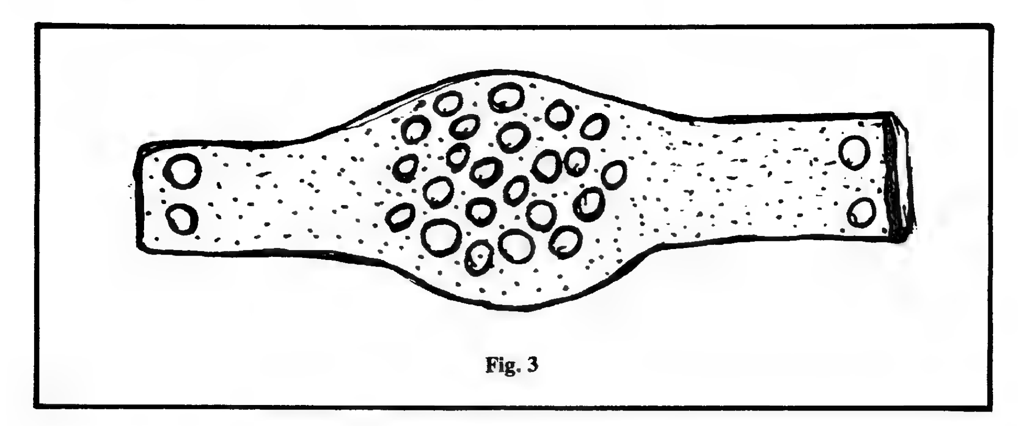


Fig. 3

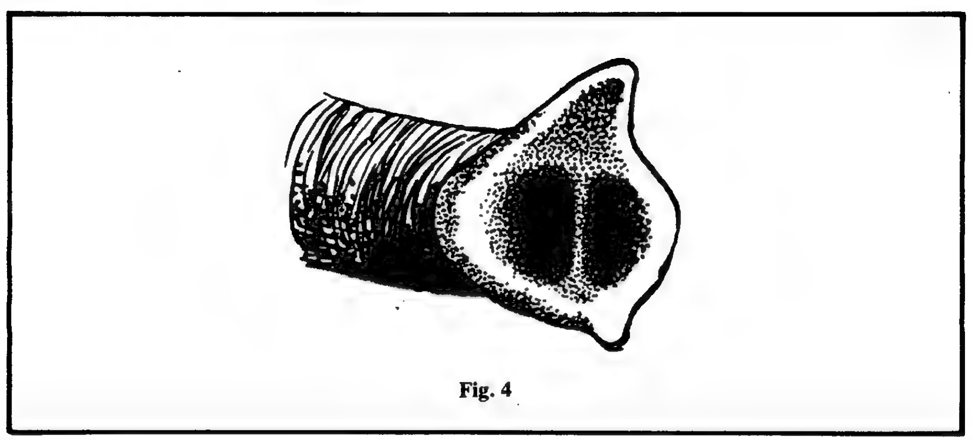


Fig. 4

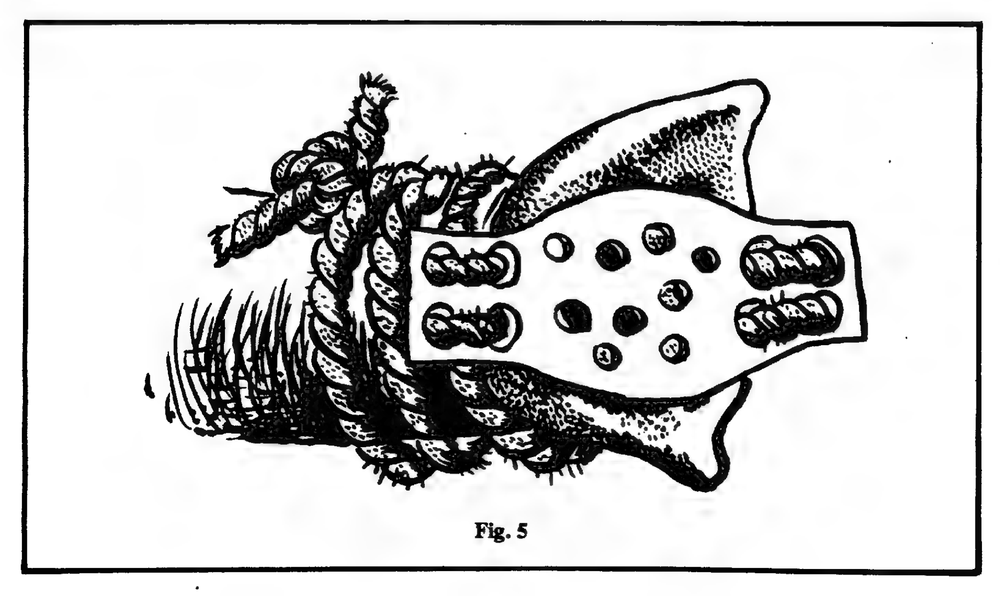


Fig. 5

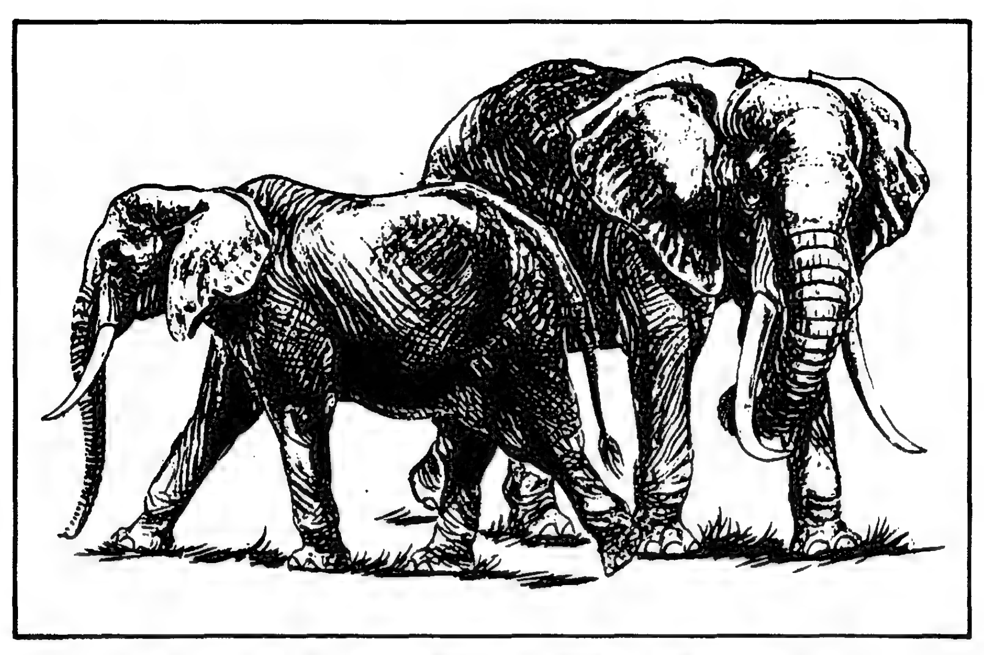


Fig. 1. The bush or savanna elephant *Loxodonta africana africana* (After: Grzimek 1974).

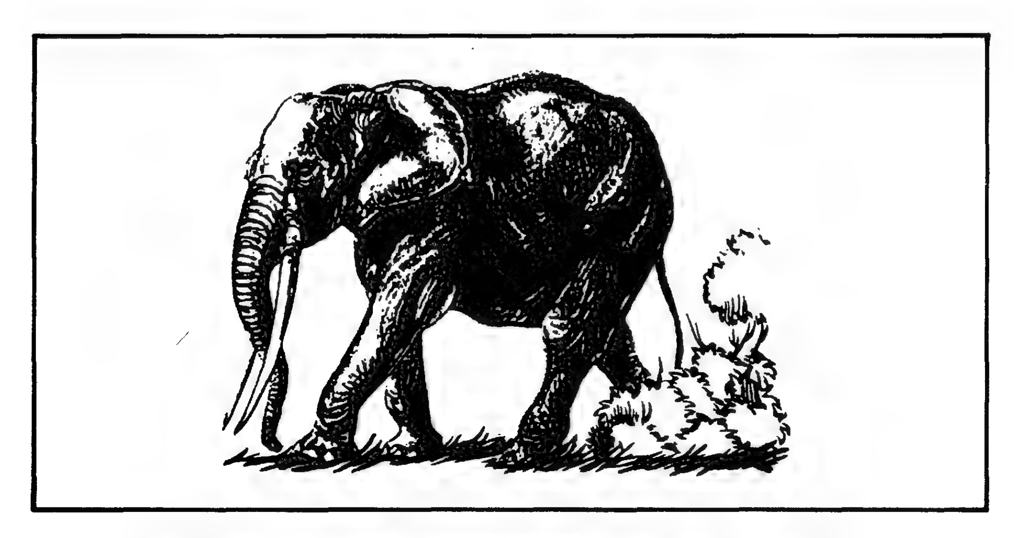


Fig. 2. The forest elephant *Loxodonta africana cyclotis* (After: Grzimek 1974).

sovereign state to which they were subjects. Therefore, Meroe, must have been compelled to maintain its territoral soverignty and rule against these potentially hostile groups that surrounded it. Then, the elephant must have been a very useful military tool by which at least the Meroites kept these tribal groups at bay and maintained the sovereignty of Meroe. This newly introduced weapon into the African region, south of the Sahara, must have given Meroe supermacy over these tribal groups and their traditional tactics of war. A relief from Muswarrat es Sofra can perhaps confirm this suggestion. The relief shows three prisoners with their hands tied to their backs and helds by a rope by two elephants.(71)

If the theses discussed in this paper are correct, then one can conclude that the contact established between the Ptolemies and the Meroites offered the latter the opportunity to realize the value of trained elephants. Moreover, the newly introduced knowledge of training and using elephants was invested with successful adaptation in Meroe. It is manifested in adapting the methods and the techniques of exploiting elephants to the African environmental conditions. Hence, the Meroites, in my opinion, seem to have successfully added new methods and techniques to the know-how of trapping and taming elephants to suit the savanna conditions. Consequently, it is possible to say that the Meroites have contributed significantly in the human exploitation of animals. On the other hand, trained elephants would have played a crucial role in the military and prestigious position of Meroe in the region. They could have given Meroe military supermacy and enabled it to consolidate its territorial sovereignty against hostile pastrol groups. Moreover, the possibility that elephants contributed in extending the Meroitic rule and authority cannot be dismissed out of hand. Therefore, one can conclude that the African elephant was one of the valuable assets of the Meroitic kingdom. Finally, the study of elephants of Meroe and their implications cannot be concluded at this stage. On hopes that future archaeological investigations may yield more substantial data which can improve our understanding of the subject, In reality, elephant taming and training have not survived in African cultures, therefore, the archaeology of Meroe is the last source to cast light on the ancient methods of taming and training elephants in Africa.

Acknowledgement:

The author is indebted to the Wildlife Conservation & National Park Forces for the continuous support and help. Equally to Omer A. Razik who made all the drawings.

(71) H. Shneider, *Livestock and Equality in East Africa* (London: Indiana University Press, 1979), p. 89.

(72) H. Hintze, "The Graffiti from the Great Enclosure at Musewarrat es Sofra" *Kush,* vol. 7 (1959), p. Tfl. 47, 49c.

to the habitat by feeding on barks of trees, young acacias and seedlings. They are also reported to push over and feed on saplings.[66] In the course of time and under fragile ecological conditions, the vegetational cover around Meroitic centres would have been depleted very rapidly, and hence, sustaining the elephants would have become very difficult to attain. Therefore, the Meroites must have provided their elephants with food under certain arrangements. Sorghum, for example, can be a very useful item to the elephants. Sorghum was probably the principal plant food cultivated in the region.

Equally, the Meroites arranged for water supply by constructing several hafirs spread in the Butana. No doubt, the hafirs served several purposes, however, it is reasonable to say that trained elephants were among the beneficiaries of the hafirs. It seems these hafirs enabled the Meroites to move their elephants from one centre to another in the Butana. In addition, it is obvious that the Meroites would not have kept their elephants in a locality like Muswarrat es Sofra in summer times, if it was not for the storing capacity of the hafir (1000 feet across and 20 feet deep). Simply because the distance from Muswarrat es Sofra to the Nile is approximately one day's march.[67] On the other hand, an elephant walks at about the same speed as a human; 4-6 Kph.[68] Therefore, if it was not for the hafirs and its storing capacity, the Meroites would have been compelled to march with their elephants for 24 hours to reach the river. It is also possible that in periods of ecological stress, the Meroites would be forced to move their elephants to the river. However, as long as the hafirs are filled and there are stocks of sorghum, the Meroites could easily move their elephants from one centre to another in the Butana. Hence, if these arrangements were executed by the Meroites, then they must had the ability to move their elephants from one centre to another as the military or the ceremonial necessities dicate. Again, it seems quite reasonable to suggest that in response to the fragile ecological conditions, the Meroites kept a fairly small number of elephants at one time. Keeping a large number of elephants can be very costly in fragile ecological conditions.

Up to the present, archaeological investigations are not able to outline with certainty the geographical extent of Meroitic domain. However, it remains as a general consensus among students of Meroitic archaeology that Meroe extended its rule over a considerable area in the Sudan. Meroe, as a central authority in this region, was probably confronted with various disturbances caused by some tribal groups. It is also faced with the task of keeping these various tribal groups at bay and safeguard its territorial sovereignty. Internal tribal revolts or hostility were probably the greatest challenge to the Meroitic authority and its sovereignty than any other external force. Classical writers report various tribal groups from localities close to Meroe. Strabo[69], for example, informs us about the Megabari, the Blemmyes, the Troglodytae, the Nubae and the Ethiopians. It seems apparent from the description given by the classical writers that pastrolism was the primary focus of their production and agricultural pursuits were subordinate in their economy. Being pastoral means that they recognized no central authority or boundaries or tax systems or territorial sovereignty. Moreover, raiding for livestock is common in pastoralism, it is a means of production.[70] In other words, ecological stress or imposed boundaries and taxes can enhance hostility and raiding in pastoral groups. Consequently, this seems to be the nature of relation that bound Meroe to its subjects and neighbouring tribes. Thus, the Meroites must have led serious disturbances made by these pastoral groups who undoubtedly regarded Meroe as any thing but a

(66) *The New Encyclopaedia Britannica* (London, 1988), vol 23, p. 479.

(67) Moass, *Elephants*, p. 308.

(68) Shinnie, *Meroe*, p. 34.

(69) Grzimek, *Grzimek's Animal*, p. 505

(70) Strabo, *The Geography*, chap. 1, 2.

make it a very vital part for the elephant. Hence, by attaching a shukam to the elephant's trunk as shown in (Fig. 5), the elephant is unable to close the upper and the lower finges in his trunk, thus, it beçomes incapable of plucking grass or handling any food stuff. In such a situation, it cannot feed itself. Thus, the elephant can only be fed by its keeper or trainer who will drop pieces of food in its mouth whenever it obeys a verbal or a tactile signal. As a result, the elephant becomes completely dependent in its keeper and it is believed that elephants usually accept their depdency on man in a relatively short time. It is also important to realize that the training of an elephant can reach a stage when the shukam is no longer needed, since the elephant at an advanced stage of training develops an association between the excution of a certain action and a possible reward. However, the shukam serves effectively in taming and training young elephants especially that it establishes the elephant's dependency on its keeper. This suggestion rests on a single piece of evidence, namely the relief from Muswarrat es Sofra (Plate 1). Perhaps future archaeological excavations can yield further evidence and shed more light on the methods and techniques of taming and training elephants in Meroe.

Ecological and Military Implications

The Butana is an area of more than 120 miles wide. It is located between the river Nile and the Atbara river in Central Sudan (Map. 1). Its association with Meroitic elephant centres has been attested by a variety of archaeological data. However, the ecology of the Butana in ancient times is not fully understood. Today, The area receives a mean annual rainfall is not fully understood. Today, the area receives a mean annual rainfall between 100 and 200mm.[60] An attempt to reconstruct the palaeoecological conditions of this area has suggested a sahel savana low woodland zone which receives an anual rainfall of 300-400mm.[61] Again, the hafirs (artificial water resrvoirs), were identified as an indication of seasonal water abundance and scarcity with fragile ecological condition. The hafirs were also identified as a strategic measure to face such a scarcity.[62] Moreover, the description of the Ethiopians (around Meroe) given by Strabo[63] indicates clearly a mode of life based on poor savanna conditions of marked dry and wet seasons and fragile ecological conditions. Thus, we will examine the possibilities of tamed elephants under such ecological conditions.

It is unlikely that the Meroites managed their elephants in a similar way as cattle are traditionally managed in African savanna conditions. Loose herding of livestock in African environment is adopted in response to the ecology of the area. However, when it comes to the management of elephants, the matter is completely different. Given the fact that elephants have certain ecological requirements, the Meroites must have arranged in a way or another to meet these requirements under the ecological conditions of the Butana. The basic requirements of an elepahant can be summarized as follows:

Firstly, an adult elephant's consumption of water is 70-90 liters per day.[64] Moreover, an elephant takes a bath twice a day to cool its body temperature.

Secondly, an elephant can eat 250-350 kg of food daily.[65]

Thirdly, elephants need shading from the sun in the hottest hours of the day.

Faced with such requirements, the Meroites could have not herded elephants within the proximity of their centres (Naga, Umm Usuda etc,.) would not have sustained the elephants for very long. Elephants are known to accelerate damage

(60) Shinnie, *Meroe,* Fig. 27.
(61) M. H. Abu Sin, The regional Geography of the Butana North of the Railway, Khartoum: Faculty of Arts, University of Khartoum, unpublished M. A. (1970), Map 1.
(62) A. T. ElMahi, "The Meroitic - along the Nile", pp.23-4.
(63) A. T. ElMahi, "The Meroitic - along the Nile", pp. 23-4.
(64) S. Strabo, *The Geography of Strabo,* trans. H. L. Jones (London: 1917-32), chap. 1, 2.
(65) Grzimek, *Grzimek's Animals,* p. 491.

reported by classical writers that the African elephants used by the Ptolemies in the battle of Raphia (217 B.C.) were smaller than the Asian elephants. This observation made some researchers point out the possibility that the Meroites used in the forest elephant *L. a. cyclotis.*[53, 54]

Assuming that the Meroites captured young elephants by using the method proposed previously, then they would have faced a very critical stage. It is the adaptation to captivity conditions that young elephants would have to develop. Consequently, the young elephants have to reduce their flight tendency and later on their flight distance and finally their willingless to accept food. Although young animals have undeveloped adaptation behaviour and have an easy tendency to settle down in the new environment of captivity, there is the possibility of draw-backs occurring at this early stage of taming; as pointed out by Hediger.[55]

> Not every animal captured wild can make this change or accomplish the various stages of adaptation and taming. Those that cannot do so never recover from being captured, but die from extreme tension in the first stage, often of heart failure.

For the same reason, Oberjohann[56]who travelled to Lake Chad at the end of the forties to capture alive young elephants admits that after four years of effors and trails his mission was a complete loss. Therefore, it is reasonable to state that the Meroites must have faced great difficulties in helping their young captive elephants pass this critical stage of taming. Moreover, one would expect that the Meroites could have lost of a considerable number of young elephants in the course of their efforts.

Training is also a difficult stage in the preparation of a fighting or a working elephant. The whole concept of training an animals rests on single rule. It is reward and punishment.[57] This rule depends completely on food control. At the training stage, the animal should not be fed to the extent of satiety, but it must always be kept at the edge of hunger. Hence, an elephant will come to learn that man (the trainer) is the only provider of food. This rule aims at maintaining in the animal a continuous dependency on man, the master and the food provider. An elephant then learns through training that by obeying a certain order it will get a reward which is usually a favourite food stuff. In this way, the animal will response eagerly to produce a certain action signaled out to it by a particular verbal command or tactile signals. The animal's obedience to orders is triggered by the reward it always receives. Therefore, one would assume that the Meroites must have used food control and reward/punishment methods. The only clue which can possible indicate that the Meroites used similar or comparable methods in training their elephants comes from a relief from Muswarrat es Sofra (see Plate 1). The relief comes from Muswarrat es Sofra (Map 1). It shows a king riding an elephant.[58, 59] The relief also shows a man holding the trunk of the elephant. It is noticeable that the trunk of the elephant has two spikes at the end of it. A possible interpretation of these visible spikes is that the Meroites attached a "shukam" to the elephant's trunk. The shukam is a well known tool among the pastoral societies in the Sudan. It is usually made of wood as shown in (Fig. 3) and tied to the mouth of an animal to prevent it from eating or drinking or sucking milk. In the case of the elephant, the shukam can easily impede the elephant from using its trunk to collect food and hence, feed itself. Of course, the trunk of the elephant is structured in a way that it has a finger-like appendage and opposite to this finger is another finger-like part which enables the elephant to pick up very small objects (Fig. 4). The trunk has several obvious functions which

(53) Scullard, *The Elephants*, p. 62.

(54) A. T. ElMahi "Short Notes on the Fauna of Meroe" *A paper presented at the Sixth International Conference of Meroitic Studies* (Khartoum, 1989).

(55) Hediger, *Wild Animals*, pp. 155-6.

(56) H. Oberjohnann, *Wild Elephant Chase* (London: Dennis Dobson Ltd., n.d.), p.55.

(57) Oliver, "Asian Elephant," p. 188.

(58) Arkell, *History*.

(59) Shinnie, *Meroe*, Fig. 27.

Musth.[38] Hence, it would not be surprising if the Meroites considered these characteristics in their choice of elephants for taming and training. Scenes of young elephants are fairly presented in the Meroitic art e.g. (nach LD V, Bl. 50, Bagrawia)[39] and a painting from a Meroitic wall, Meroe (plate 132)[40] which indicate that the Meroites were trapping young elephants.

The African elephant is known to have two subspecies: the African bush elephant *Loxodonta africana africana* (Fig. 1) and the forest elephant *Loxodonta africana cyclotis* (Fig. 2). Both subspecies were reported in the Sudan. However, it remains inconclusive to which of the two subspecies the Meroitic elephant could have belonged. Archaeological excavations and rock drawings indicate a wide geographical distribution of elephants in the Sudan.[41-45] In addition, classical writers reported seeing traces (foot prints) of elephants on their way to the Island of Meroe.[46] Thus, in the light of the available evidence, the ancient geographical distribution of the two elephant subspecies cannot be determined. But, there is no reason not to accept the possibility that both elephant subspeices were present in the Meroitic domain. However, it is unfortunate that we cannot identify the range of both subspeices in prehistoric times to verify which elephant the Meroites could have an access to and hence, use for training. The geographical range of the African elephant has been continuously change under a variety of natural and human pressures. For example, elephants were reported to be found in Khor Baraka (50 miles west of the Red Sea) in eastern Sudan until 1900.[47] Elephants were also reported from the area of Atbara river, ElSettite and ElGash rivers.[48-50] The forest elephant in particular was reported from Khor Baraka by the end of the 18th century.[51] Consequently, it is expected that the geographical range of elephants extended further to the North during Meroitic times. If this assumption is correct, then the Meroites would have had easy access to the elephant populations and especially to those in Atbara, ElGash and ElSittite rivers.

Nonetheless, both animals are distinguished by several characteristics which may highlighten this issue. The bush elephant is bigger than the forest elephant: the weight is 6 to 4 tons; and the height is 11.5 to 9 ft. Besides, its smaller size, the forest elephant is distinguished by rounded ears, small and straight tusks and five nails on the fore-feet and four on the hind feet. The bush elephant, on the other hand, has four nails on the fore-feet and three nails on the hind feet.[52] But such descriptions are not detectable in the drawings of elephants by the Merotic artists or in descriptions given by classical writers. Nonetheless, it was

(38) C. Moass, *Elephants Memories* (London: ElM Tree Books, 1988), pp. 108-9; Musth is a physiological and psychological state that male elephants come into periodically. Male elephants become notoriously aggressive. Usually this state lasts from 2 to 3 months.
(39) Hofman and Tomandl, "Die Bedenting", Fig. 5.
(40) S. Wenig, *Africa in Antiquity II. The Arts of Ancient Nubia and the Sudan* (New York: The Brooklyn Museum, 1978), plate 132.
(41) T. Save-Soderbergh, *The Rock Drawing* (Stockholm: Scandinavian University Books, 1970), vol. 1:1, 1:2.
(42) A. T. ElMahi, Zooarchaeology in the Middle Nile Valley (Oxford: series 418 BAR International, 1988), Monographs in African Archaeology 27.
(43) A. Gautier, "A General Review of the Known Prehistoric Faunas of the Central Sudanese Nile Valley". *Late Prehistory of the Nile Basin and the Sahara* (ed.) L. Krzyzaniak and M. Kobusiewicz, Poznan, 1989, pp 353-8.
(44) J. Peters, "The Faunal Remains from Several Sites at Jebel Shaqadud, Central Sudan, A Preliminary Report". *Late Prehistory of the Nile Basin and the Sahara* (ed.) L. Krzyzanik and M. Kobusiewicz, Poznan, 1989, pp. 469-73.
(45) W. Van Neer and H. Upermann, "Palaeoecological Significance of the Holocene Faunal Remains of the B.O.S. Missions", *Forschungenb zur Umweltgeschichte der Ostasahara* (ed.) H. von Rudolph Kuper. (Heinrich-Barth-institut, 1989), pp. 307-41.
(46) W. Budge, *The Egyptian Sudan* (London: Kegan Paul, Trench, Trubrer & Co. Ltd. 1907), vol. II, p. 163.
(47) A. Paul, *A History of the Beja tribes of the Sudan* (London: Smith Elder & Co., 1954), p. 32.
(48) Baker, *The Nile Tributaries.*
(49) F. L. James, *The Wild Tribes of the Sudan* (London: John Murry, 1883).
(50) Budge, *The Egyptian Sudan.*
(51) Scullard, *The Elephants,* p. 162.
(52) B. Grzimek, *Grzimek's Animal Life Encyclopedia* (New York: Van Nostrand Reinhood Co., 1974), pp. 484-505.

In fact, the training of an animal represents a transitional stage which leads to the fullest kind of relationship with man. Hediger[30] provides us with the following useful definition of training.

> Training means special treatment of an animal with continuous use of favourable mental factors so as to produce certain actions at a particular personal command. These actions are natural to it, at least their elements are, but would never be released in freedom by the same stimuli or performed under the same conditions.

As it has been suggested previously, the Meroites could have recieved the knowledge of training elephants from the Ptolemies who were using Indian keepers at least at the beginning of their efforts to train African elephants. The Meroites must have had some considerable experience in trapping and taming animals to be kept as pets. On the other hand, traditional methods of hunting elephants must have been widely spread in that part of Africa. This part of Africa had been supplementing Egypt with ivory from very early times. Classical writers such as Diodorus[31], Agatharchides[32], Strabo[33] and Pliny[34] reported several ancient hunting methods. This African expertise in hunting elephants was directed mainly to the quest of meat and ivory, but not necessarily to capture live elephants. The need to capture live elephants and then tame and train them never arose as a pressing need among ancient or contemporary African societies. However, it seems that the needs of the Ptolemies to establish links of cooperation with African natives to achieve their goals coincided with the aspiration of the new capital of Kush in Meroe. The Meroites were ready to use the newly introduced knowledge of how to train elephants and to add to their empirical knowledge of trapping and taming animals. However, the Meroites must have encountered immense difficulties if they were to trap elephants by the corral method. The success of this method depends mainly on dense forest conditions where the corral structure can be easily comouflaged. Such ecological conditions did not exist in Central Sudan during the Meroitic period[35]. Therefore, the corral method is not suitable for the savanna conditions. Nonetheless, the Meroites must have used a different method suited to the African savanna habitat. Hence, it would be reasonable to suggest that the Meroites could have followed a hunting method of separating juvenile and sub-juvenile elephants with their mothers from elephant herds. Once a mother elephant and her juvenile are separated from the herd, the mother is speared by a group of men and the young elephant is taken into captivity. This is possible method simply because when a female elephant is killed, her baby elephant will stay with her body. This attitude would make it easy to capture the young elephant. Moreover, the Meroites had the horse which could have been very effect in the pursuit of elephants and the separation of mothers from the herd. The horse has proved to be very useful in the hunting of elephants. Until recently, the Meseria tribe and the Humran Arabs hunted elephants on horse back using spears and swords[36,37].

Two crucial characteistics must be observed in newly captured elephants in order to secure maximum success of taming and later on training. First, young elephants captured for training should be between four and seven years old, elephants above seven years old can be difficult to tame since they start to be independent of their mothers at that age. While those under four are completely dependent on their mothers. Second, it seems that females are more promising than males, when it comes to taming and training. It is said that females are more predictable, while male elephants can become dangerous when they are in

(30) Hediger, *Wild Animals*, p. 156.
(31) Scullard, *The Elephant*, pp. 128-30.
(32) Scullard, *The Elephant*, pp. 128-30.
(33) Scullard, *The Elephant*, p. 130
(34) Scullard, *The Elephant*, pp. 130-214.
(35) A. T. ElMahi, "The Meroitic Civilization, Fauna and Ecology: An Ancient Interaction along the Nile", *The Nile Geographer*, vol. I (Summer 1991), pp. 19-25.
(36) S. Baker, *The Nile Tributaries of Abyssina* (London: MacMillan and Co., 1874), pp. 117-119.
(37) A. Myers, *Life with the Humran Arabs* (London: Smith Elder & Co., 1876), p. 164.

> enormous hurdling is securely fixed in the ground, its height from the surface being about fifteen feet; the interstices of the lattice being wide enough for a man to glide through. Great forks of green timber are driven aslant outside the hurdles, and secure them against outward pressure. From each angle of the end by which the elephants approach, two lines of strong fencing are continued on either side, and cautiously hidden by the trees. So should the herd serve to the right or left instead of entering by the open passage, they would find themselves stopped and forced to retrace their steps to the gate.

Greenwood continues to inform us that two or three thousand men are usually employed to drive (beat up) the elephants towards the corral. Once the elephants are secured inside the corral, trained elephants are conducted to enter the corral to calm down the excited captives. Meanwhile, men with ropes hiding behind the trained elephants will secure ropes around the wild elephant. The men will fasten the ropes around the four legs of the elephants and all are firmly secured to a tree trunk. The moment the trained elephants move away, the wild elephant keeps struggling to free itself. For three days the captive elephant is left tied in this manner until its spirit is sufficiently subdued. At a later stage, the captive elephant will feed and bath with trained elephants which will escort, control and monitor his behaviour and activities. Within three months, the captive elephant starts to work jointly with other trained elephants. Furthermore, in addition to the corral method, Oliver[22] reports two individual methods. The first is carried out through digging pits as in South India. The second method involves noosing the head or the foot of a wild elephant from the back of tamed elephant. Both methods seem to be less successful and efficient.

Taming and training an elephant is another matter. Megasthenes (350-290 B.C.) reported from the court of the Indian king on the Ganges that wild elephants are made to grow distressed by hunger and thirst in order to tame them are break their spirits[23]. Later on, Pliny (A.D. 23-79) reffered to hunger as a means to tame elephant[24]. Again, Oliver[25] states that an elephant can posibly be fully trained and controlled by a multitued of verbal command and tactile signals within 2-3 years.

Science, on the other hand, provides more elaborate explanations on taming and training wild animals. However, before reviewing these scientific explanations, it would be useful to know that tameness and domesticity are two fundamentally different characteristics[26]. Consequently, the elephants involved whether of an Asian or an African origin were tamed animals and not domesticated. The following two quotations define tameness and describe as a tame animal.

> Taming means artificial removal of the flight tendency by man, and this intermediate stage leads to tameness. Tameness means emotional stability. The flight distance of the tame animal is zero; it allows man to approach directly, touch it....[27].

> The tame animal appears quite unconcerned with complete subjective freedom of movement. It feels at home in the new surroundings, has shaped its world to fit the new conditions enjoys complete ent-harmony (harmony of organs) and eph-harmony (harmony with its surroundings). The double harmony is a necessary condition for normal reproduction in captivity[28].

Equally, Clutton-Brock[29] gives a similar definition of a tame animal in the following. .

> A tame animal differs from a wild one in that it is dependent on man and will stay close to him of its own free will. All mammals can be tamed if they are taken from their mothers and reared in association with a human protector from a very young age. Whether they will remain tame as adults depends to a great extent on the degree of development of their innate social behaviour patterns, that is whether they are solitary or social in their way of life.

---

(22) R. C. D. Oliver, "Asian Elephant", in: I. L. Mason, (ed.) *Evolution of Domesticated animals* (London: Longman 1984), p. 188.

(23) Scullard, *The Elephant*, p. 57.

(24) I. Douglas - Hamilton and O. Douglas-Hamilton, *Among the Elephants* (London: Book Club Asso., 1975), p. 248.

(25) Oliver, "Asian Elephant", p. 189.

(26) H. Hediger, *Wild Animals in Captivity* (New York: Dover Publications, Inc., 1964), p. 155.

(27) Hediger, *Wild Animals*, p. 156.

(28) Hediger, *Wild Animals*, p. 156-7.

(29) J. Clutton-Broke, *Domesticated Animals from Early Times* (London: Heineman, 1981), p. 12.

Around the same time, great change took place in the Kushtic empire. The capital Napata was abondoned as a political centre and gradually lost its religious importance. A very different political, cultural and artistic change started to develop and crystallize in the new setting of Kush in Meroe. Again, a Ptolemaic influence can easily be seen in some of these developments. The use of elephants in war and ceremonies was obviously a Ptolemaic influence rather than an Indian or a locally invented one. Probably, the Meroites come to realize the value of trained elephants after their contact with the Ptolemies and hence, recieved the idea of training elephants. Several points can argue for this thesis.

First, it seems that the Ptolemies who faced some difficulties in obtaining live elephants sought the help of an organized authority in the area to accomplish their goals. For instance, it was reported that the native hunters employed earlier by the Ptolemies were killing elephants which did not comply with the needs of the Ptolemies. This problematic situation was revealed by Agatharchides (one of Alaxendrian writers in mid-second century B.C.) in the following[18].

> Ptolemy urged the hunters to refrain from killing elephants in order that he might have them alive .... not only did he persuade them but they said they would not change their way of life in exchange for the whole kingdom of Egypt.

Therefore, it seems that the Meroites who had some experience in trapping alive animals managed to provide the Ptolemies with live elephants or with men capable of trapping elephants. Consequently, the Meroites themselves became interested and started to develop their own groups of trained elephants.

Second, African societies south of the Sahara were not reported to have any attempts in raining animals. The idea of training elephants and the techniques of training were completely new concepts to the region in question.

Third, the Ptolemies use of elephants and their efforts to exploit the African elephant coincide with the emergence of elephant use in Meroe.

Fourth, Muswarrat es Sofra which is believed to be a major centre for elephant training was contemporary with the Ptolemaic period[19, 20].

How the Meroites captured, tamed and trained elephants

To have properly trained elephant, requires essentially a suitable animal and successful taming and training of this animal. Hence, a working or fighting elephant must undergo these three distinctive stages (trapping, taming and training) before becoming a useful animal for work or warfare. It is unfortunate that the archaeological investigations carried out in the Meroe did not provide evidence to attest for any of these three stages. Equally, the evidence left by the Ptolemies on elephants is somewhat fragmented, scattered and lacks details. Therefore, to speculate possible methods and techniques of trapping, taming and training elephants, we need to look at each stage and examine the traditional methods applied in Asia and their suitability for the African environmental conditions.

Several Greek and Roman writers such as Megasthenes, Agatharchides, Diodorus, Strabo and Pliny reported various hunting methods. However, we will rely on the Asian traditional methods since all the methods reported from Africa by the classical writers were designed to kill elephants. In Asia, the Asian elephant *Loxodonta maxiul* was trapped by a method known in India as "keddah" and in Ceylon as "corral". Greenwood[21] gives the following description of the corral method.

> The corral is an enclosure, straight-sided and about half as wide as it is long - 500 feet by 250, say. A hurdle-like lattice is formed to big poles lashed together with "jungle rope", (the flexible stems of certain parasitic climbing plants). This

(18) Scullard, *The Elephant,* p. 130.
(19) Hintze, "Preliminary Report".
(20) Shinnie, *Meroe,* p. 93.

(21) J. Greenwood, *Wild Sports of the World* (London: S. O. Beeton, 1862), p. 44.

elephants and spectulates how the Meroites captured, tamed and trained their elephants. The paper also examines the ecological and military implications of the use of elephants in the Meroitic domain.

Two sources of evidence attested the presence of elephants in Meroe, the archaeozoological material and a variety of art forms. Although specimens of ivory recovered from sites are not usually a reliable evidence for the presence of elephants, nonetheless, Meroe yielded fragments of worked and unworked ivory specimens.(5) Equally, a group of reliefs and depicted scenes portraying elephants were also recorded as well as statues and other representations(6-9). The great enclosure of Muswarrat es Sofra (Map 1) contains the most unique architectural features of elephant motifs and statues(10, 11). Some of these architectural features were associated with elephants. It has been suggested that the great enclosure was used for herding the elephants and the corridors and ramps were easy for the elephants to negotiate rather than steps(12).

The use of elephants in war and ceremonies was not to the kings of Egypt of pre-Ptolemaic times or to the kings of Kush prior to the Meroitic period of Kush. Accounts of classical writers do not report the use of trained elephants in Egypt or in Ethipia. It was not only at a later stage that trained elephants appeared in Meroe. Thus, what was the origin of the Meroitic use of elephants? Was it introduced from India as suggested by Arkell(13) and Shinnie(14)? Or was it a local invention as proposed by Scullard(15)? Moreover, why did elephants appeared in the Meroitic period and not earlier in the Napatan period of Kush? To answer these questions, one needs to look for clues elsewhere beyond the boundaries of Kush and Egypt. One needs to extend one's inquiry to India and Persia where Alexander's armies first encountered the trained elephants of the Persian monarch Darivs in 331 B.C. This encounter seems to have initiated the introduction of trained elephants for warfare in the Hellenistic world. By 275 B.C., the death of Alexander broke up his empire into three monarchies: Macedon, Syria and Egypt. The emergence of these monarchies and the conflict that took place among them in which they used elephants played a crucial role in the spred of the use of elephants in warfare in the Classical world. As a result the value of elephants in warfare and in work reached new areas in Africa, namely Egypt and later on Carthage (ca. 262 B.C.). However, due to the hostility between the Ptolemies and the Sleleucids, the Ptolemies were eventually deprived of the Asian elephants. Consequently, they looked for elephants somewhere else and it was Africa south of the Sahara that offered them a substitute: the African elephant. To accomplish their goal and facilitate hunting elephants, the Ptolemies established several settlements down the Red Sea coast as far as Bab ElMandab(16). For instance, the records inform us that Ptolmey II (285 - 247 B.C.) established Ptolemias Epitheras not far from the town of Swakin. At Ptolemias Epitheras, Ptolemy II settled soldiers and artisans to build a temple, houses and cultivate the fields. His officials who supervised Ptolemias Epitheras established friendly relations with the natives and sought their help to catch elephants(17).

(5) P. L. Carter and R. Foley "A Report on the Fauna from Excavation at Meroe (1967-1972)", Appendix B, *The Capital of Kush;* P. L. Shinnie and R. J. Bradly, *Meroitica* (Berlin, 1980).
(6) Hintze "Preliminary Report".
(7) U. Hintze "Preliminary Report on the Excavations at Muswarrat es Sofra", *Kush*, vol. 10, (1962), pp. 170-202.
(8) Shinnie, *Meroe*.
(9) Hofman and Tomandl, *Die Bedeuting*.
(10) Hintze, "Preliminary Report".
(11) Shinnie, *Meroe*.
(12) Shinnie. *Meroe*. p.49
(13) A. J. Arkell, *History of the Sudan* (London: University of London, 1955), pp. 165-7.
(14) Shinnie, *Meroe*, p. 101.
(15) H. Scullard, *The Elephant in Greek and Roman World* (London: Thames and Hudson, 1974), p. 130.
(16) P. M. Fraser, *Ptolemaic Alexandria* (London, 1972), p. 180.
(17) W. Budge, *A History of Ethiopia* (London: Methven & Co. Ltd., 1928), p. 230.

Ages, Vol. 8, Part 2, 21-34(1993)

New Light on the Elephants of Meroe

By Ali Tigani ElMahi

Abstract: **Along the River Nile in Central Sudan flourished the Kingdom of Meroe between the six century B.C. and the fourth century A.D. Meroe was one among very few centres of civilization in Africa that took advantage of trained elephants. This paper is an attempt to shed light on the origin of the Meroitic used of trained elephants, the possible methods and techniques used by the Meroites for hunting, taming and training elephants and the ecological and military implications of the use of trained elephants in the Meroitic domain. The paper offers certain theses to explain some of the archaeological data and relate it to the process of taming and training. It conclude that the Meroites recieved the idea of training and using elephants in ceremonies and warfare from the Ptolemies. Furthermore, the Meroites have successfully adopted the methods and techniques of hunting, taming and training elephants to the African savanna conditions. Again, by using trained elephants, the Meroites had military supermacy over the pastoral tribal groups that lived around Meroe. It is also speculated that trained elephants offered Meroe the capability to extend its rule and authority over new regions in the Sudan. Finally, the paper draw our attention to the fact that taming and training elephants have not survived in African cultures and that the archaeology of Meroe is the last source to cast light on the ancient methods of taming and training elephants in Africa.**

The ancient kingdom of Meroe flourished along the Nile in Central Sudan between the sixth century B.C. and the beginning of the fourth century A.D.[1] It was one among very few centres of civilizations in the African continent that used trained elephants in classical times. By the 3rd century B.C., the elephant was beginning to show its value as a tool of war and prestige in the Hellenistic world. Ptolemaic Egypt and Carthage were the sole centres in North Africa that possessed trained elephants. South of the Sahara Meroe and Axum were the only ancient African states that took advantage of trained elephants in the continent. It is, therefore, expected that the use of trained elephants must have had great implications in the Meroitic domain. Although the elephant was among the principal animals of Meroe, it remains only partially studied. Other than the work of Hintze[2], Shinnie[3] and Hofmann and Tomandl[4] no efforts were made to study these animals in the Meroitic context. Perhaps the limited archaeozoological material recovered from Meroe discourged attempts to study them closely. Moreover, the fact that the Meroitic language remains incomprehensible deprives researchers of information which could have possibly shed light on the elephants of Meroe. On that account, this paper looks into the origin of the Meroitic use of

(1) P. L. Shinnie, *Meroe A Civilization of the Sudan* (London: Thames and Hudson, 1967), p. 13.

(2) U. Hintze, "Preliminary Report of the Butana Expedition", *Kush*, vol. 7, (1959), pp. 171-196.

(3) Sinnie, *Meroe*.

(4) I. Hofman and H. Tomandl, *Die Bedeutung des Tieres in der Meroitisch Kuttur* (Wein: Beitrage zur Sudanforschung Beiheet 2, 1987).

Ages, Vol. 8, Part 2, 17-34 Eng., 249-474 Ar. (1993)

English Section

القسم العربي

All MSS should be addressed to :

- Mars Publishing House,
P. O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia.
The Arabic Publishing & Distribution House Ltd.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

P.O.Box 10720, Tel. 4647531 - 4658523, Fax 4757939, Telex 493129 MARS SJ.



A Semi - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

VOLUME 8
PART 2
July 1993
Moharram 1414



Published by: **Mars Publishing House London**